القول الموصل في تفسير الكتاب المنزل

للشيخ الفاضل

أبي محمد عبد الحميد بن يحيى الجوري الزنقري

المجلد الثالث



القول الموصل
في
تفسير الكتاب المنزل

القول المؤصل
في
تفسير الكتاب المنزل

The Firm Statement in the
Explanantion of the Reveled Book.

المجلد الثالث

من سورة الأنبياء إلى آخر سورة الحجرات

الطبعة الأولى مصححة
١٤٤٧هـ

للشيخ الفاضل
أبي محمد عبد الحميد بن يحيى الحجوري الزعكري

By his Eminence Sheikh Abi Muhammad Abdul
Hameed bin Yahya Al-Zu'kari.



القول الموصل في تفسير الكتاب المنزل

روابط قنوات فضيلة الشيخ على منصات التواصل:

الموقع الرسمي لفضيلة الشيخ حفظه الله تعالى:

https://alzokory.com

A_Alzoukorys

https://www.youtube.com/channel

https://chat.watsapp.com/FglUKZ0nwzr5EYaguQttsz

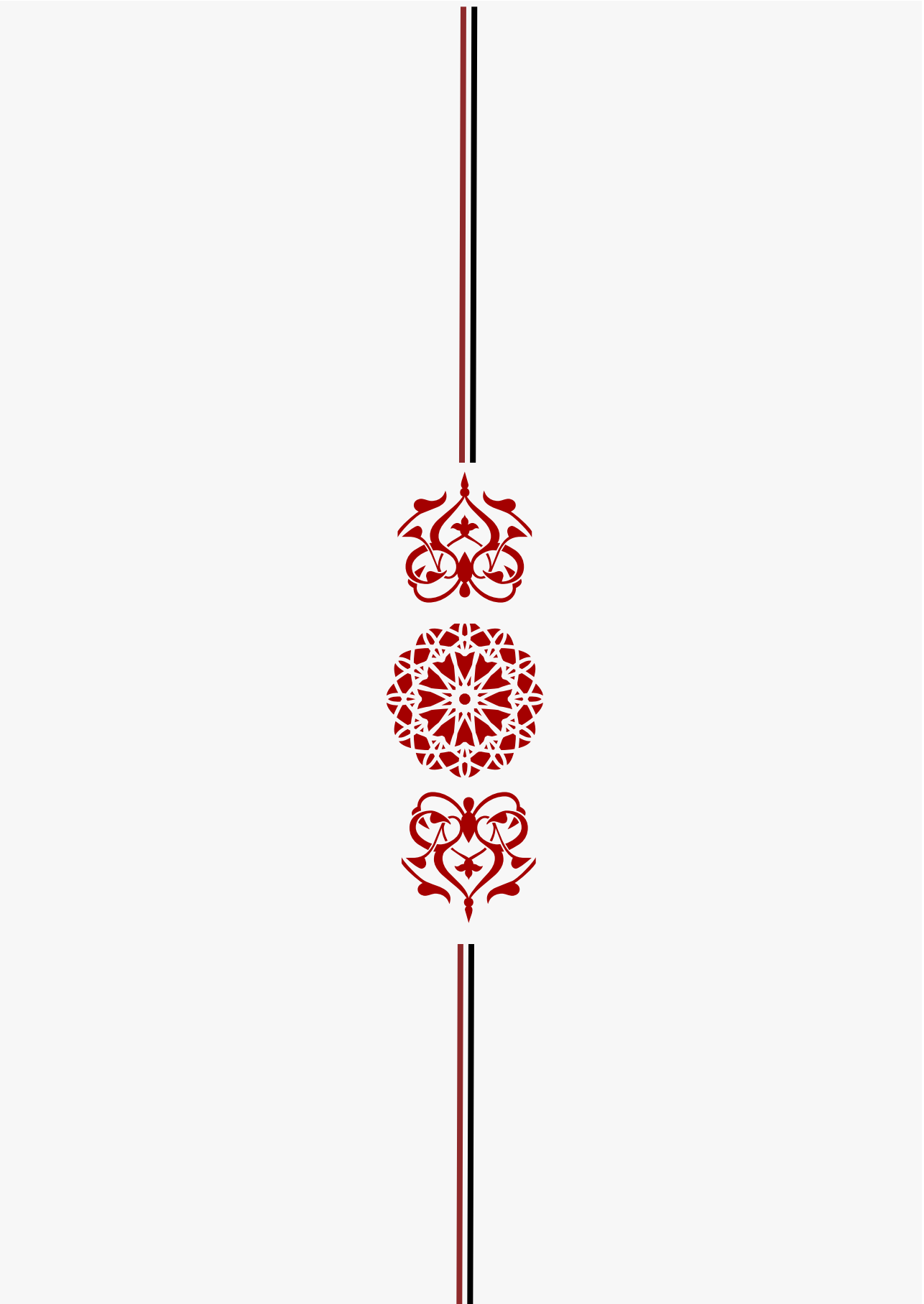
https://t.me/A_lzokory

https://www.facebook.com/649918028352367



تَفْسِيرُ سُورَةِ الأَنْبِيَاء





الجزء السابع عشر

سُورَةُ الأَنْبِيَاءِ

مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا: مِائَةٌ وَاثْنَا عَشَرَ آيَة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٤ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ ٱفْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٥ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾.

۝١ ﴿ٱقْتَرَبَ﴾ دنا ﴿لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ أي: يوم القيامة وهو وقت محاسبتهم علىٰ أعمالهم، ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ عنه وعن لقاء الله، ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ عن تعلم الكتاب والسنة والاستقامة علىٰ دين الله عَزَّوَجَلَّ والأنقياد لشرعه.

۝٢ ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ﴾ قرآن ﴿مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ أي: تنزيل ينزله الله عَزَّوَجَلَّ متىٰ شاء علىٰ رسوله ﷺ.

وذهب المعتزلة ومن إليهم: أن القرآن مخلوق استدلالًا بهذه الآية ولا حجة لهم، فإن الإحداث يأتي بمعنىٰ الخلق وليس هو المراد هنا، ويأتي بمعنىٰ: ما يُحدثه الله عَزَّوَجَلَّ من أمره ونهيه وتنزيله، في وقت دون وقت وهو المراد هنا.

﴿إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ﴾ استماع لهو ولعب، ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ معرضون لا يتعظون، كما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝٦١﴾ [النجم:٥٩-٦١]، أصحاب أغاني ولهو.

۝٣ ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ ساهية غافلة، معرضة عن ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾ فيما بينهم يتناجون في ذم الإسلام وذم رسوله ﷺ، ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ كفروا، وكانت نجواهم ﴿هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ ليس بملك وهذه دعوىٰ عليلة، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام:٩]، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ

إِلَيَّ﴾ [الكهف:١١٠]، ﴿أَفَتَأْتُونَ﴾ يقولون أفتتبعون، ﴿السِّحْرَ﴾ وتقبلونه ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ تعلمون أنه سحر، وهذا من شدة كذبهم علىٰ الرسول ﷺ.

٤ ﴿قَالَ﴾ رسول الله ﷺ: ﴿رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لا تخفىٰ عليه خافية، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالكم، ﴿الْعَلِيم﴾ بأفعالكم.

٥ ﴿بَلْ﴾ الواقع أنهم اضطربوا في وصف محمد وما جاء به فقالوا سحر فلم تنفق لهم و ﴿قَالُوٓاْ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ أباطيلها وأقاويلها وأهاويلها رآها في المنام، فلم تنفق لما في القرآن من الإتقان والبيان، فقالوا عند ذلك، ﴿بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ اختلقه وما كان له ذلك ثم قالوا، ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ من الشعراء، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾ [يس:٦٩]، وفي كل ذلك يخصمون؛ لضعف حجتهم، ولبطلان قولهم، ﴿فَلْيَأْتِنَا﴾ محمد ﷺ، ﴿بِآيَةٍ﴾ حجة ظاهرة، ﴿كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ الذين جاءوا بالآيات.

ومع ذلك لو جاءهم بالآيات ما استجابوا لها كما لم يستجب الأولون لأنبيائهم، ثم إن الآية التي أُتِيَها رسول الله ﷺ هي القرآن؛ لأنَّ العرب كانوا يتميزون بالفصاحة والبلاغة، فجاءهم كتاب مقروء عجزوا أن يأتوا بمثله، ثم عجزوا أن يأتوا بعشر سور مثله، ثم عجزوا أن يأتوا بسورة مثله.

٦ ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ﴾ من القرىٰ، وقد اقترحوا هذه الإقتراحات، وطلبوا الآيات بل كذبوا فـ ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ دمرناهم بسبب تكذيبهم، ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ إن جاءتهم آية، معناه: أن الأولين لم يؤمنوا فهؤلاء لن يؤمنوا.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ۝٨ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٩ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠﴾.

٧ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا﴾ بعثنا، ﴿قَبْلَكَ﴾ يا محمد، ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾ أي ذكورًا.

وهذا دليل علىٰ أن النساء ليس منهن رُسل، وما ذهب إليه ابن حزم والقرطبي: من أن مريم نبية ورسوله قول لا يستقيم.

﴿نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ بما شاء الله عَزَّوَجَلَّ من الوحي، ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾ أهل العلم، ﴿إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ بذلك، يعني: اسألوا من لديه علم وحجة وبرهان.

❁ **وهذه الآية بعمومها يُستدل بها علىٰ تعين العودة إلىٰ أهل العلم في المسائل العلمية والعملية والعقدية**، فلا غنىٰ للمجتمعات عن علماء ربانيين يدلونهم ويرشدونهم إلىٰ أحسن السُبل وإلىٰ أقوم الطُرق، فالناس بلا علماء كأُناس في صحراء لا سبيل لهم ولا طريق، أو في ليلة مُظلمة لا قمر فيها ولا نجم؛ ولذلك قيل في العلماء: بأبي وأمي العلماء ضالتي إذا فقدتهم، وبُغيتي إذا وجدتهم، وكلما زاد العلماء في المجتمع زاد الخير، وإذا قلوا قل الخير وانتشر الشر والضير.

وفي حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول **«إِنَّ اللهَ لاَ يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ، حَتَّىٰ إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»** متفق عليه.

﴿٨﴾ ﴿وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ﴾ صيرناهم أي: الرُسل، ﴿جَسَدٗا﴾ بشرا، ﴿لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ بل كانوا أجسادًا يأكلون الطعام وهذا رد لقولهم: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ [الفرقان:٧]، ﴿وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ﴾ في الدنيا، بل كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر:٣٠].

﴿٩﴾ ﴿ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ﴾ الذي وعدناهم بإهلاك أعدائهم وبالنصر والتمكين من قوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ [غافر:٥١]، ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ﴾ سلمناهم أي: الرُسل، ﴿وَمَن نَّشَآءُ﴾ من المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس:١٠٣]، ﴿وَأَهۡلَكۡنَا﴾ دمرنا، ﴿ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ المشركين المُكذبين؛ لأنهم أسرفوا على أنفسهم بالشرك والعصيان.

﴿١٠﴾ ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ﴾ على محمد ﷺ، ﴿إِلَيۡكُمۡ﴾ يا معشر قريش، ﴿كِتَٰبٗا﴾ وهو القرآن، ﴿فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۖ﴾ شرفكم وعزكم، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾ [الزخرف:٤٤]، ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ وقد جاء في السيرة: أن النبي ﷺ قال لهم: **«يَا عَمِّ إِنِّي إِنَّمَا أُرِيدُهُمْ عَلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، تَدِينُ لَهُمْ بِهَا الْعَرَبُ، وَتُؤَدِّي إِلَيْهِمْ بِهَا الْعَجَمُ الْجِزْيَةَ»**.

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿١١﴾ ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا﴾ أهلكنا، والقصم: الكسر، ﴿مِن قَرْيَةٍ﴾ مدينة، ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ كافرة، ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا﴾ أحدثنا وخلقنا بعد هلاكها: ﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد:٣٨]، فهكذا من تولى عن كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ أبدل الله بخير منه علمًا وعملًا.

فما عليك أيها المسلم إلا أن تثبت علىٰ دين الله، ولا تظن أنك إذا ضعفت عن العمل، أو قصرت في الاستقامة أن الإسلام سيتأثر، أبدًا، الإسلام محفوظ بنا وبغيرنا، الإسلام محروس ومحفوظ بحفظ الله له، ولما مات النبي ﷺ ارتد الناس قاطبة في جزيرة العرب ولم يبقَ إلا ثلاثة مساجد يُصلي فيها الناس: مسجد مكة، ومسجد المدينة، ومسجد جُواثىٰ بالبحرين، وجاء الله عَزَّوَجَلَّ بأهل اليمن ينصرون أبا بكر ثم ينصرون عمر رضوان الله عليهم وعاد الناس في دين الله أفواجًا: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ **[هود:٣٦]**.

﴿١٢﴾ ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ﴾ أدركوا ﴿بَأْسَنَا﴾ عذابنا بحاسة البصر، ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا﴾ من قريتهم ومدينتهم، ﴿يَرْكُضُونَ﴾ يسرعون هاربين خشية الهلاك، فينادون على سبيل السخرية.

﴿١٣﴾ ﴿لَا تَرْكُضُواْ﴾ لا تهربوا، ﴿وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ﴾ نعمتم ﴿فِيهِ﴾ فبطرتم ﴿وَمَسَٰكِنِكُمْ﴾ ارجعوا إليها وابقوا فيها، ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ عما كنتم فيه من الأعمال.

﴿١٤﴾ ﴿قَالُواْ﴾ ندمًا وحسرة، ﴿يَٰوَيْلَنَآ﴾ يا هلاكنا وحسرتنا، ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ كافرين مسرفين على أنفسنا بالمعاصي والسيئات.

﴿١٥﴾ ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ أي: تلك الكلمة: يا ولينا، ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ﴾ صيرناهم، ﴿حَصِيدًا﴾ كما يحصد الزرع، ﴿خَٰمِدِينَ﴾ ميتين.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

(١٦) ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ أي: عبثًا وباطلًا، كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:١١٥].

(١٧) ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ لعبًا، ﴿لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ من عندنا، ﴿إِن﴾ ما ﴿كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ لكن الله عَزَّوَجَلَّ منزه عن ذلك.

(١٨) ﴿بَلْ﴾ الواقع أننا، ﴿نَقْذِفُ﴾ نرمي ونسلط، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الهدى والقرآن، ﴿عَلَى ٱلْبَٰطِلِ﴾ السحر، والبدع، والخرافات، والشركيَّات، ﴿فَيَدْمَغُهُۥ﴾ فيهلكه، وأصل الدمغ: شج الرأس حتى يبلغ الدماغ، ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ ذاهب، أي: أن الله يُبطل كذبهم، ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ﴾ العذاب ﴿مِمَّا تَصِفُونَ﴾ بسبب وصفهم الله بالصاحبة والولد فيكذبون في ذلك، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء:٨١].

(١٩) ﴿وَلَهُۥ﴾ لله عَزَّوَجَلَّ، ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ من الملائكة، ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ بل يلازمونها، ولا يأنفون عنها، ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ لا يتعبون ولا يعيون، فهم في عبادة في ليلهم ونهارهم وسرهم وجهارهم وفي جميع شأنهم، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٧٢].

(٢٠) ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ يذكرون الله عَزَّوَجَلَّ، ويصلون، ﴿ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ لا يتعبون، قد أُلهِموا التسبيح كما أُلهِمنا النفس.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

(٢١) ﴿أَمِ﴾ بل: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟﴾ الكفار، ﴿ءَالِهَةً﴾ من الأصنام والأوثان، ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ مخلوقة مربوبة هل، ﴿هُمْ﴾ هذه الآلهة ﴿يُنشِرُونَ﴾ يحيون الموتى ويبعثونهم، وهذا إنكار عليهم.

(٢٢) ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ﴾ في السماء والأرض، ﴿ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ غير الله، ﴿لَّفَسَدَتَا﴾ لخربتا وهلك من فيهما بوجود التمانع في الآلهة؛ لأنَّ كل أمر صدر عن اثنين فأكثر لم يجرِ على النظام، ثم نزه نفسه فقال: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ من أن له شريكًا أو مثيلًا أو ظهيرًا.

واستدل أهل الكلام بهذه الآية على دليل التمانع في الربوبية، وأنه لا يُمكن أن يكون للكون خَالِقَين، إذ أنها ستجري بينهم المغالبة فإما أن ينتصر أحدهما فهو الإله، وإما أن يُهزما جميعًا فليسا بآلهة.

والصحيح: أن الآية يُستدل بها علىٰ توحيد الألوهية، إذ أن الفساد بسبب الشرك عريض، والمراد بـ: ﴿رَبِّ الْعَرْشِ﴾ صاحب العرش استوىٰ عليه، تعالىٰ وتقدس وتنزه، ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ يصفه به المشركون من أن له ولدًا وصاحبة.

﴿٢٣﴾ ولكمال ملكه وعظيم شأنه ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيُكرم من شاء ويُذل من شاء، ويُعطي من شاء ويمنع من شاء، ويهدي من شاء ويضل من شاء الأمر أمره.

وهذه حُجة في باب القدر، وقد يستدل بها الجَبْرِي ولا حجة له فيها، فإن الله يقول: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦]، فمع أنه لا يُسأل عما يفعل إلا أنه لا يؤاخذ إلا من استحق المؤاخذة: ﴿وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ عن أعمالهم ويؤاخذون عليها.

﴿أَمِ﴾ بل، ﴿ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ﴾ من الأصنام والأوثان، ﴿ءَالِهَةً﴾ يعبدونهم ويرجونهم، ﴿قُلْ هَاتُوا۟﴾ أعطوا، ﴿بُرْهَـٰنَكُمْ﴾ حجتكم علىٰ صحة عبادتها، فـ ﴿هَـٰذَا﴾ القرآن، ﴿ذِكْرُ مَن مَّعِىَ﴾ فيه خبر من معي علىٰ ديني ومن يتبعني إلىٰ يوم القيامة؛ وبما لهم من الثواب علىٰ الطاعة والعقاب علىٰ المعصية، ﴿وَذِكْرُ﴾ خبر، ﴿مَن قَبْلِى﴾ من الأمم السالفة، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عن سماعه وتعلمه وتدبره.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا سُبْحَـٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَـٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿٢٥﴾ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا﴾ بعثنا، ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ يا محمد، ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ إلى قومه، ﴿إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ﴾ بالتوحيد، ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ وحدون.

وهذا هو التوحيد الذي أُرسلت به الرُسل وأُنزلت به الكتب، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، ﴿يَـٰقَوْمِ اعْبُدُوا۟ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون:٢٣].

(٢٦) ﴿وَقَالُواْ﴾ مكابرة ومعارضة، ﴿ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا﴾ حيث زعموا أن الملائكة بنات الله، تعالىٰ الله عن قولهم، ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ تنزه وتقدس عن ذلك، إذ أن الذي يحتاج إلىٰ الولد المخلوق الناقص الذي يضعف فيحتاج إلىٰ من يقوم به، والذي يعجز فيحتاج إلىٰ من يعينه، والذي يموت فيحتاج إلىٰ من يرثه، أما ربنا عَزَّوَجَلَّ فهو الغني الحي الذي لا يموت، ﴿بَلۡ﴾ هم ﴿عِبَادٞ﴾ لله عَزَّوَجَلَّ، ﴿مُّكۡرَمُونَ﴾ كرماء لا يعصونه، وفي منازل رفيعة عالية.

(٢٧) ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ﴾ لا يتقدمونه ﴿بِٱلۡقَوۡلِ﴾ ولا يتكلمون إلا بما يأمرهم به، ﴿وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾ لا يُخالفونه أبدًا.

(٢٨) ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ لا تخفىٰ عليه خافية، ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ﴾ يوم القيامة، ﴿إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ رضي الله عنه ورضي عمله، ﴿وَهُم﴾ الملائكة ﴿مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ﴾ من خوفه ﴿مُشۡفِقُونَ﴾ حذرون خائفون لا يأمنون مكره، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [النحل:٥٠].

❁ وفي هذه الآية دليل علىٰ أن الشفاعة من شروطها:

إذن الله للشافع، ورضىٰ الله عن الشافع والمشفوع، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وكثير من الناس قد صرفوا وطلبوا الشفاعة من غير الله عَزَّوَجَلَّ حيث يطلبونها من أوثانهم وأصنامهم وأربابهم التي اتخذوها من دون الله عَزَّوَجَلَّ، فبعضهم يقول: يا محمد اشفع لي وهذا شرك، أو يا علي اشفع لي، يطلب الشفاعة من غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومنهم من يتوسل بذواتهم يقول: بجاه محمد، وبحق محمد وهذا بدعة، ومنهم من يقول: اللهم شفع محمدًا ﷺ فيَّ وهذا هو المشروع.

(٢٩) ﴿وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ﴾ من الملائكة، ﴿إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ﴾ من دون الله، ﴿فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ﴾ يُعذب فيها ولا يخرج منها، ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين، مع أنه لم يقل أحد من الملائكة بأنه رب ولا رسول؛ لكن هذا من باب التهديد والوعيد لهؤلاء المشركين المنددين.

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًاۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿٣٠﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ روي عن ابن عباس: كانتا شيئًا واحدًا ملتصقتين، ﴿فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ﴾ فصلنا بينهما بالهواء.

و(**الرتق**) في اللغة: السد، والفتق: الشق.

ويزعم أصحاب الهيئة الجديدة: أن السماوات والأرض كانتا شيئًا واحدًا ثم حصل ما يُسمىٰ بالطرد المركزي بحيث كانت تلك الكتلة تسير بسرعة فائقة حتىٰ انفصلت هذه الأجرام: الأرض، والشمس، والقمر وهكذا الكواكب، وبقية الأجرام وعندهم: أن الكون عبارة عن أجرام متفاوته، ومجرات كبيرة، حصل بينها التفارق بسبب الجاذبية ونحو ذلك، فلا يؤمنون بسماوات سبع ولا بعرش ولا بمن استوىٰ علىٰ العرش.

وذهب بعض أهل العلم إلىٰ أن معنىٰ (**الرتق**): أن السماوات كانت رتقًا لا تُمطر، والأرض لا تنبت ففتق السماء بالمطر والأرض بالنبات، وإنما قال رتقًا علىٰ التوحيد وهو من نعت السماوات والأرض، والمعنىٰ الأخير هو الأقرب: إذ أن الله عَزَّوَجَلَّ خلق السماوات والأرَضين في ستة أيام، ولم يُذكر أنه خلقهما من غيرهما، فالله أعلم.

﴿وَجَعَلْنَا﴾ خلقنا، ﴿مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّۚ﴾ أي: أحيينا بالماء كل شيء حي، وهذا كقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍۖ﴾ [النور:٤٥]، ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالله عَزَّوَجَلَّ الذي بيده تصريف الأمور.

﴿٣١﴾ ﴿وَجَعَلْنَا﴾ صيرنا وخلقنا: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾ جبالًا عظيمة، ﴿أَن تَمِيدَ﴾ لكيلا تميل وتتحرك وتموج، ﴿بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا﴾ طرقًا ومسالك، فالفج: الطريق الواسع، ﴿سُبُلًا﴾ طرقًا ﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ من أن الله عَزَّوَجَلَّ هو المتصرف في هذا الكون خلقًا وإيجادًا، وأيضًا لعلهم يهتدون في حال سيرهم، والله أعلم.

﴿٣٢﴾ ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ المرتفعة: ﴿سَقْفًا﴾ كالسقف على الأرض، ﴿مَّحْفُوظًاۖ﴾ من وصول الشياطين إليه، حفظها الله بالشهب، كما قال تعالى: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾

[الصافات:٧]، وقال: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ [الحجر:١٧]، ﴿وَهُمْ﴾ أي: الكفار ﴿عَنْ ءَايَٰتِهَا﴾ علاماتها وما خلق الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿مُعْرِضُونَ﴾ عن التدبر والتفكر؛ فلذلك لم يستفيدوا من هذه الآيات، وما زادتهم إلا عتوًا ونفورًا.

٣٣ ﴿وَهُوَ﴾ الله، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ المُظلم، ﴿ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ المُبصر، ﴿وَ﴾ خلق: ﴿الشَّمْسَ﴾ سراجًا منيرًا، ﴿وَ﴾ خلق: ﴿الْقَمَرَ﴾ نورًا، ومع ذلك: ﴿كُلٌّ﴾ من هذه المخلوقات، ﴿فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ يجرون بسرعة كالسابح في الماء.

❁ وفي هذا رد علىٰ من يزعم: أن الشمس ثابتة والأرض تدور، والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ [يس:٣٨]، ومستقرها: «تحت العرش»، فينبغي لنا أن نتلقىٰ العلوم سواء العملية أو النظرية التي تعود إلىٰ الغيب لا إلىٰ العقل والحدس والظن، بل من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، ومن سنة رسوله ﷺ.

وكل هذه الآيات التي ذكرها الله عَزَّوَجَلَّ يُعرف بنفسه وبعظيم قدرته إلىٰ مخلوقاته، وقد عُلِمَ أن الله عَزَّوَجَلَّ يُعرف بآياته الكونية وآياته الشرعية.

٣٤ ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ الدوام والبقاء في الدنيا، ﴿أَفَإِين مِّتَّ﴾ يا محمد ﴿فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ فهم الذين يخلفونك ويتربصون بك ولا يموتون، كما قالوا: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور:٣٠]، ينتظرون موت النبي ﷺ؛ ليتخلصوا منه، فهب أنه مات هل سيبقون خلفه بلا موت.

٣٥ والواقع أن: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ من بر وفاجر، ومؤمن وكافر، وذكر وأنثى، بل كل مخلوق له نفس يموت، كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨]، ﴿وَنَبْلُوكُم﴾ نختبركم، ﴿بِٱلشَّرِّ﴾ بالشدة والسقم، والفقر، ﴿وَٱلْخَيْرِ﴾ الرخاء والصحة والغنى، ﴿فِتْنَةً﴾ ابتلاء؛ لينظر الله عَزَّوَجَلَّ من يشكر ممن يكفر، كما قال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك:٢]، وقال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:٣]، ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة فيجازيكم بأعمالكم.

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٦ خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٍۚ سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِى فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ ٣٧ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣٨ لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٣٩ بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةً فَتَبۡهَتُهُمۡ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ٤٠ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٤١﴾.

٣٦ ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ﴾ ما يتخذونك: ﴿إِلَّا هُزُوًا﴾ سخرية، ﴿أَهَٰذَا﴾ هو ﴿ٱلَّذِى يَذۡكُرُ﴾ يعيب ﴿ءَالِهَتَكُمۡ﴾ وهو محمد ﷺ يُعِيبُونه، ﴿وَهُم﴾ مع سخريتهم بك، ﴿بِذِكۡرِ﴾ بطاعة ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ وذلك أنهم كانوا يقولون: لا نعرف الرحمن إلا مسيلمة، وهذا على المكابرة، وقيل: على الجهل بالرحمن، وقد وجِدَ في أشعارهم أنهم يثبتون الرحمن من قول بعضهم: أَلَا قَضَبَ الرَّحْمَنُ رَبِّي يَمِينَهَا.

٣٧ ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٍۚ﴾ يعني: يستعجل في جميع أموره، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا﴾ [الإسراء:١١]، ﴿سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِى﴾ الكونية في هلاك الكافرين وعذاب المبطلين، ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ﴾ وهذا أن الكافرين قد طلبوا العذاب مرارًا، استعجالًا له، كما قال تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾ [المعارج:١].

٣٨ ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: الكفار، ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾ يوم القيامة، ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في قولكم.

٣٩ والواقع أنه: ﴿لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ﴾ تقوم الساعة، ﴿لَا يَكُفُّونَ﴾ يدفعون: ﴿عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ﴾ المُحرقة، ﴿وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ﴾ إذ أنها تصلاهم وتحيط بهم، ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ يُمنعون من العذاب، فيستعجلون أمرًا لو نزل بهم لأهلكهم، ولو كانوا من أصحاب العقول السليمة والفطر المستقيمة لقالوا: اللهم اهدنا ووفقنا وسددنا، ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [الزمر:٢٥]، قُتِلَ منهم يوم بدر سبعون، وهكذا لحقهم الأسر والهوان.

﴿٤٠﴾ ﴿بَلْ تَأْتِيهِم﴾ الساعة، ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة، ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ تحيرهم؛ لشدة أهوالها وعظيم شأنها، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ دفعًا لها، ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ يُمهلون ويؤخرون حتى يتوبوا إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿٤١﴾ ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ﴾ سُخِرَ، ﴿بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ يا محمد، ﴿فَحَاقَ﴾ نزل، ﴿بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم﴾ استهزءوا بهم، ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ جزاء استهزائهم، إذ أن الله عَزَّوَجَلَّ ينصر رسله ويؤيدهم بخيره العظيم ونصره المبين.

﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِۚ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿٤٢﴾ ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿مَن يَكْلَؤُكُم﴾ يحفظكم، ﴿بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِۚ﴾ إن أراد بكم ضرًا، أو أنزل بكم عذابًا، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الملك:٢٨]، ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم﴾ عن طاعة ربهم وتوحيده: ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ لا يستجيبون لدعوة ولا ينتفعون بزاجر.

﴿٤٣﴾ ﴿أَمْ﴾ بل ليس ﴿لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ معبودات ﴿تَمْنَعُهُم﴾ مما يسوؤهم ﴿مِّن دُونِنَاۚ﴾ من غيرنا والواقع أن آلهتهم: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾ فكيف تنصر عابديها؟ ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ يُمنَعون ويُجارون ويُنصَرون.

❁ وهذا من عظيم الحُجج المبينة لعجز هذه الآلهة من الأصنام والأوثان، فكيف يطلبون منها النصر وهذا حالها.

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:١٩٧-١٩٨]، حجارة كيف تنتصر؟ وكيف تنصر؟ لكنها القلوب الغُلف التي قد غُطيت بالران فلا تستجيب ولا ترعوي، ومثل هذا ما عليه عُباد القبور، فيذهبون إليها وينذرون ويذبحون لها وهم في غاية الضعف، لا يستطيعون نصرًا لأنفسهم ولا لغيرهم، كما قال تعالى: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: ٢١].

﴿٤٤﴾ ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الكفار ووسعنا لهم في معايشهم، ﴿وَ﴾ متعنا: ﴿آبَاءهُمْ﴾ الذين من قبلهم، ﴿حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ وظنوا أن الذي يُهلكهم هو الدهر، كما قالوا: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤]، فاغتروا بطول أعمارهم، ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ رؤية تفكر، ﴿أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ يُدمر على القُرى التي حولهم ويدمدم عليهم، ﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ المنتصرون أم جند الله؟ الواقع: أن جند الله هم الغالبون، فالمراد بقوله: ﴿أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ ليست الأرض التي هي الجُرم تنقص تذهب منها قطعة بعد قطعة؛ وإنما الأرض المحيطة بمكة تنقص من تسلط الكفار إلى فتح المسلمين.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿٤٥﴾ ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿إِنَّمَآ أُنذِرُكُم﴾ أخوفكم: ﴿بِٱلْوَحْىِ﴾ الذي أنزله الله عَزَّوَجَلَّ إليَّ، ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾ أي: لا تسمع الأصنام دعاء عابديها، فهي صماء عاجزة، والحال كما قال الله عز وجل: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ [فاطر:١٤] ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ يُخوفون، وأنتم أيضًا في حكم الصم، كما قال تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧١]، فلا تسمعون ولا تستجيبون.

﴿٤٦﴾ ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ﴾ أصابتهم: ﴿نَفْحَةٌ﴾ لفحة ونصيب، ﴿مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ الشديد الموجع، ﴿لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ﴾ حسرةً على أنفسهم، ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ لأنفسهم بالشرك، ولغيرهم بما يتعاطونه من أخذ الحقوق ومنع ما يجب عليهم، لكن هل ينفعهم هذا؟ لا ينفعهم؛ لأنه في وقت لا توبة ولا عمل فيه، فالدنيا دار عمل وقد لا يُجازى فيها، والآخرة دار جزاء ولا عمل فيها.

﴿٤٧﴾ ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ أي: للعدل، ﴿لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ في يوم القيامة، وهذا رد علىٰ المعتزلة الذين قالوا: بأن الميزان إنما يحتاج إليه البقَّال والثَّوَّام، وهذا لضلالهم؛ فإن الله

عَزَّوَجَلَّ يضع الموازين لإظهار عدله وفضله، فيعلم الكفار أنهم لم يُظلموا ولم يُنقصوا من أعمالهم، ويعلم أهل الإيمان أنهم قد أُكرموا وضُعِّفَ لهم.

ففي الترمذي: عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا من حديث البطاقة، قال رسول الله ﷺ: **«إِنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَىٰ رُءُوسِ الخَلَائِقِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ البَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَىٰ إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ اليَوْمَ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ البِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ، فَقَالَ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ»**، قَالَ: **«فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كَفَّةٍ وَالبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتِ البِطَاقَةُ، فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ»**.

۞ وفي الآية: دليل علىٰ إثبات الميزان: وهو جُرم عظيم له كفتان، ولسان، ولسان الميزان: هو ما يكون في وسطه ويُعلق فيه، ويوزن العمل والعامل والصُحف علىٰ الصحيح من أقوال أهل العلم.

- والدليل علىٰ وزن العامل: قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف:١٠٥]، أي: يوزنون ولا وزن لهم.

وحديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند أحمد قال رسول الله ﷺ: **«مِمَّ تَضْحَكُونَ؟»** قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ، مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ، فَقَالَ: **«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ»**.

- والدليل علىٰ وزن العمل: قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧-٨]، وقال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦﴾ [القارعة:٦]، وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: **«كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَىٰ اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَىٰ الرَّحْمَنِ، سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ»**، متفق عليه، وحديث أبي سُلمىٰ قال رسول الله ﷺ: **«بَخٍ بَخٍ خَمْسٌ مَا أَثْقَلَهُنَّ فِي الْمِيزَانِ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَالْوَلَدُ الصَّالِحُ يُتَوَفَّىٰ لِلْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فَيَحْتَسِبُهُ»** اخرجه احمد.

- والدليل علىٰ وزن الصحف؛ ما تقدم من حديث عبد الله عمرو في وزن البطاقة.

﴿فَلَا تُظْلَمُ﴾ تنقص، ﴿نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ ولو كان قليلًا حقيرًا، ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ جاء الله بها وبأجرها، ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ محصين وحافظين لأعمال العباد.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿٤٨﴾ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ التوراة: وهي الكتاب المفرق بين الحق والباطل في زمنه، ﴿وَضِيَآءً﴾ أي: نورًا مبينًا، كما قال تعالىٰ: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ [المائدة:١٦]، ﴿وَذِكْرًا﴾ موعظة وتذكيرًا: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يُبادرون إلىٰ فعل المأمور وترك المحظور.

﴿٤٩﴾ والمتقون هم: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ﴾ يخافون: ﴿رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ في سرهم، ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ﴾ القيامة: ﴿مُشْفِقُونَ﴾ خائفون وجلون.

﴿٥٠﴾ ﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن: ﴿ذِكْرٌ﴾ يُرفع به من أخذ به واستقام عليه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف:٤٤]، أي: سبب للرفعة لك ولقومك، وقد يكون المعنىٰ: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ﴾ تذكير، ﴿مُّبَارَكٌ﴾ في جميع شأنه في تلاوته، والعمل به، والدعوة إليه، وفي تدبره وتعقله، مبارك في الدنيا ومبارك في الآخرة، ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ عليك يا محمد، وهو كلام رب العالمين، ﴿أَفَأَنتُمْ﴾ يا معاشر قريش: ﴿لَهُ﴾ لهذا القرآن: ﴿مُنكِرُونَ﴾ جاحدون، وهذا علىٰ الأنكار عليهم، والله المستعان.

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿٥١﴾ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ﴾ أعطينا، ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ ابن آزر عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو أبو الأنبياء الذين جاءوا من بعده، ﴿رُشْدَهُۥ﴾ أي: صلاحه حيث وفقه الله عَزَّوَجَلَّ لامتثال أمره واجتناب نهيه وزجره، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة:١٢٤]،

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم:٣٧]، ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل موسى وهارون عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ، ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ أنه أهل للهداية والنبوة، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص:٦٨].

٥٢ ﴿إِذْ قَالَ﴾ إبراهيم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: ﴿لِأَبِيهِ﴾ آزر، وقد أخطأ من زعم أنه عمه، ﴿وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ﴾ على سبيل الأنكار ﴿ٱلتَّمَاثِيلُ﴾ الأصنام، ﴿ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ مقيمون على عبادتها؛ لأنَّ العكوف: هو اللزوم للمكان ونحو ذلك، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ [البقرة:١٨٧].

٥٣ ﴿قَالُوا۟﴾ رادين عليه قوله، ومحتجين بالتقليد: ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ فاقتدينا بهم، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٢].

٥٤ ﴿قَالَ﴾ لهم إبراهيم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ﴾ بعبادتكم للأصنام وبعدكم عن التوحيد وطاعة الملك العلام، ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾ خطيءٍ ﴿مُّبِينٍ﴾ ظاهر بيّن؛ وذلك أنهم عبدوا حجارة صماء بكماء لا تنفع ولا تضر.

٥٥ ﴿قَالُوٓا۟﴾ أي: قوم إبراهيم: ﴿أَجِئْتَنَا﴾ أتيتنا: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الصدق الواقع، ﴿أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ وهذا من سخريتهم بأنبيائهم ورسلهم، كما قال بنو إسرائيل لموسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: ﴿قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ٦٧﴾ [البقرة:٦٧].

٥٦ ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ﴾ إلهكم وخالقكم ورازقكم، ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ خلقهن وأوجدهن على غير مثال سابق، ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: من المُخبرين المعتقدين أنه لا إله إلا هو لا رب غيره، ولا إله سواه بحق.

٥٧ ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ لأمكرن بها ولأكسرنها، ﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾ بعد أن تذهبوا لشأنكم، وقيل: بأنه عزم على ذلك حين خرجوا في يوم عيدهم، إذ أن المكان يكون خاليًا من المراقبين.

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿٥٨﴾ ﴿فَجَعَلَهُمْ﴾ صيرهم، ﴿جُذَٰذًا﴾ كسرًا وقطعًا وحطامًا ورفاتًا، ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ فإنه لم يكسره ووضع الفأس على عنقه، وقيل: ربطه بيده، ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ لعلهم يرجعون إلى دينه وإلى ما يدعوهم إليه، إذ علموا ضعف الآلهة وعجزها، وقيل: لعلهم يرجعون فيسألون إلههم عن هذا الفعل، والمعنى الأول أظهر.

﴿٥٩﴾ ﴿قَالُوا۟﴾ عند ذلك: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ﴾ حيث كسرها وأرداها، ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين على مذهبهم وطريقهم، أو أنهم يريدون به أهل الإجرام.

﴿٦٠﴾ ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ يعيبهم ويزهد من عبادتهم، ﴿يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ لعله لم يكن قد شاع عندهم ظهور دعوته إنما علمها البعض.

﴿٦١﴾ ﴿قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ﴾ مرأى منهم حتى يرقبوا إبراهيم وما نفعل به من العذاب المُهين، ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ أي: يحضرون عقابه، ويطلعون على ذلك فيكون أدعى لثباتهم على آلهتهم.

﴿٦٢﴾ ﴿قَالُوٓا۟﴾ كفار قومه: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ أنت الذي كسرتها وأرديتها وأصغرتها وهي آلهة معظمة.

﴿٦٣﴾ ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ وأشار إليه، غضبًا من أن تعبدوا معه هذه الصغار وهو أكبر منها فكسرهن، وأراد بذلك إبراهيم إقامة الحجة عليهم، ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ﴾ أي: اسألوا الحجارة الصماء البكماء: ﴿إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ وهم عاجزون عن ذلك.

وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الصحيحين: قال النبي ﷺ: **«لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَطُّ إِلَّا ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ، ثِنْتَيْنِ فِي ذَاتِ اللهِ، قَوْلُهُ: إِنِّي سَقِيمٌ، وَقَوْلُهُ: بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا، وَوَاحِدَةٌ فِي شَأْنِ سَارَةَ، فَإِنَّهُ قَدِمَ أَرْضَ جَبَّارٍ وَمَعَهُ سَارَةُ، وَكَانَتْ أَحْسَنَ النَّاسِ، فَقَالَ لَهَا: إِنَّ هَذَا الْجَبَّارَ، إِنْ يَعْلَمْ أَنَّكِ امْرَأَتِي يَغْلِبْنِي عَلَيْكِ، فَإِنْ سَأَلَكِ فَأَخْبِرِيهِ أَنَّكِ أُخْتِي،**

فَإِنَّكِ أُخْتِي فِي الْإِسْلَامِ، فَإِنِّي لَا أَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ مُسْلِمًا غَيْرِي وَغَيْرَكِ..»، الحديث، وهذا من التعريض وليس من الكذب الصراح.

﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٦٤ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ٦٥ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ٦٦ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٧ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٦٨ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ٧٠﴾.

٦٤ ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ﴾ باللوم والأنكسار، عند أن رأوا الحجة القويمة لكن سرعان ما نفخهم الشيطان وعادوا إلى فعلتهم: ﴿إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بعبادتكم ما لا ينطق.

٦٥ ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ﴾ رجعوا ﴿عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ﴾ إلى الباطل حيث أدركتهم الشقاوة فرجعوا إلى عقيدتهم السابقة، فقالوا: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ﴾ يا إبراهيم: ﴿مَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الأصنام والأوثان، ﴿يَنطِقُونَ﴾ يتكلمون، فكيف نسألهم؟

٦٦ ﴿قَالَ﴾ محاججًا لهم ومُظهرًا لعوار آلهتهم: ﴿أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بدلا منه ﴿مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ من رزق وصحة وغيرها ﴿وَلَا يَضُرُّكُمۡ﴾ بمرض وشدة، فكيف يعبد ما لا يرجى ولا يخاف منه لعجزه.

٦٧ ﴿أُفّٖ لَّكُمۡ﴾ كلمة تأفف يؤتى بها على الاحتقار ونحو ذلك، ومعناها: تبًا وقذرًا لكم، ﴿وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ من هذه الأصنام والأوثان، ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أن ليست بآلهة وهي عاجزة عن نفع نفسها فضلًا عن نفع غيرها.

٦٨ ﴿قَالُواْ﴾ بحجتهم الجاهلية، وهي اللجوء إلى لقوة في حال العجز: ﴿حَرِّقُوهُ﴾ وهو أشد العذاب، ﴿وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ أي: انتصروا لها، ﴿إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ ذلك، فجمعوا الحطب الكثير وأوقدوا النار العظيمة، وأركبوه في المنجنيق؛ لشدة حرارتها وعظيم بطشها، فكان من شأن الوزغة أنها كانت تنفخ النار على إبراهيم.

كما في الصحيحين عن أم شريك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ ولذلك أمر النبي ﷺ بقتل الوزغ، فلما ألقوه قال: حسبي الله ونعم الوكيل، كما في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ،

قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [آل عمران:١٧٣]».

﴿٦٩﴾ ﴿قُلْنَا﴾ قال الله ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا﴾ فاستحالت من الحرارة إلى البرودة، ﴿وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ قال العلماء: حتى لا تُهلكه ببرودتها.

❁ وهذا دليل علىٰ عظيم قدرة الله النافذة؛ إذ أحال النار الموقدة إلىٰ مكان آمن لا حرارة تؤذي ولا برودة تُهلك، ولعلها أحرقت ملابسة؛ لحديث ابن عباس في الصحيح: «أَلاَ وَإِنَّ أَوَّلَ الخَلاَئِقِ يُكْسَىٰ يَوْمَ القِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ»، والله أعلم.

﴿٧٠﴾ ﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ﴾ بإبراهيم: ﴿كَيْدًا﴾ مكرًا بهذا الصنيع، ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ في مرادهم فبَوَرَ سعيهم، ولم ينالوا مرادهم.

وكانت هذه الأحداث في زمن النمرود بن كنعان ملك جبار ادعىٰ الربوبية؛ كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨]، قالوا في شأنه أنه: أخذ رجلين فقتل أحدهما وترك الآخر، قال: أحييت هذا وأمت هذا، فقال له إبراهيم: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة:٢٥٨]، عجز وخُصِم.

عند ذلك عزم علىٰ الهجرة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت:٢٦].

❁ وفي هذا عظة وعبرة لجميع من يتعظ: أن الإنسان إذا ضُيق عليه في بلد ما فليرحل إلىٰ غيرها، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ [النساء:٩٧].

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿٧١﴾ ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ﴾ أي: إبراهيم، ﴿وَلُوطًا﴾ عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو ابن عمه حيث نجاهم من بطش النمرود وقومه في أرض بابل في العراق، ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ بلاد الشام، حيث كانت كثيرة الأنهار والثمار.

(٧٢) ﴿وَوَهَبْنَا﴾ أعطينا: ﴿لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ﴾ ابن إبراهيم وهو ابنه من سارة، ﴿ وَيَعْقُوبَ ﴾ ابن إسحاق، ﴿نَافِلَةً﴾ زيادة أكرمه الله عَزَّوَجَلَّ بالولد وزاده الحفيد، ﴿ وَكُلًّا ﴾ إسحاق ويعقوب، وقبل ذلك إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴾ طائعين لرب العالمين.

(٧٣) ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾ صيرناهم، ﴿أَئِمَّةً ﴾ يُقتدى بهم في الخير، ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ يدعون الناس إلى ديننا ويهتدون بوحينا، ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ العمل بالشرائع والوحي المُنزل، ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ من ذكر الخاص بعد العام؛ لبيان فضلها وأهميتها، وإقامتها: بالمحافظة عليها في وقتها، ﴿وَإِيتَآءَ﴾ إعطاء، ﴿ٱلزَّكَوٰةِ﴾ المفروضة وصرفها في مواطنها، ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ موحدين منقادين لرب العالمين.

﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

(٧٤) ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾ النبوة والفصل بين الخصوم بالحق، بل: ﴿ وَعِلْمًا﴾ وهو العلم بالكتاب المنزل، ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ قرية سدّوم، ﴿ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ اللواط وهي في أرض الشام، إذ تميزوا بفعلةٍ شنيعة تتابعوا عليها، كما قال تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء:١٦٥-١٦٦].

- وهذا دليل علىٰ تنكس الفطر، وزوال المروءات، وانعدام الدين، وخبث الظاهر والباطن، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴾ خرجوا عن الطاعة والفطرة القويمة السليمة.

(٧٥) ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ﴾ لوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿فِى رَحْمَتِنَآ﴾ إذ نجاه الله عَزَّوَجَلَّ مما نزل بهم من العذاب الذي صبحهم به، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾﴾ [القمر:٣٤-٣٥]، ﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ الأنبياء والمرسلين.

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿٧٦﴾ ﴿وَ﴾ اذكر يا محمد: ﴿نُوحًا﴾ عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو أبو البشرية الثاني، وأول رسول إلى أهل الأرض، ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ دعا ربه عَزَّوَجَلَّ بهلاك قومه: ﴿مِن قَبْلُ﴾ حين أبى قومه إلا الكفر والعناد، ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ دعوته، ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ﴾ نجاه الله وسلمه: ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ من الغم والشدة والغرق.

وفي حديث الشفاعة الطويل: حين يأتيه الناس نوحًا ويقولون له: اشفع لنا إلىٰ ربك قال: **«وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَىٰ قَوْمِي»**، بينما النبي ﷺ قال: **«لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا»** متفق عليه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿٧٧﴾ ﴿وَنَصَرْنَٰهُ﴾ منعناه وحفظناه، ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾ الكفار، ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ الشرعية المنزلة على نبيهم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ﴾ فسادٍ وشر، ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بالطوفان الذي تقدم ذكر شأنه في سورة هود، ولله الحمد.

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿٧٨﴾ ﴿وَ﴾ اذكر يا محمد: ﴿دَاوُۥدَ﴾ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿وَ﴾ ولده: ﴿سُلَيْمَٰنَ﴾ ابن داود، فكلاهما نبي رسول، وآتاهم الله عَزَّوَجَلَّ من القوة والمنعة الشيء العظيم، ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ﴾ في الزرع، ﴿إِذْ نَفَشَتْ﴾ انتشرت ﴿فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾ ليلًا فأفسدته، فالنفش: الرعي بالليل، والهمل: بالنهار، ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ﴾ لُحكم داود وسليمان: ﴿شَٰهِدِينَ﴾ مطلعين وبه عالمين.

(٧٩) ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ أي: علمناه الحُكم بالقضية، وألهمناه ما لم يُلهم أبوه فيها، ﴿وَكُلًّا﴾ من داود وسليمان عليهما السلام، ﴿ءَاتَيْنَا﴾ أعطينا ﴿حُكْمًا﴾ النبوة ﴿وَعِلْمًا﴾ بأحكام الشرع، قال الحسن: لولا هذه الآية لرأيت أن الحُكام قد هلكوا، ولكن الله حمد هذا بصوابه وأثنىٰ علىٰ هذا باجتهاده.

وفي الصحيح: من حديث عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال النبي ﷺ: **«إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ، فَلَهُ أَجْرٌ»**.

والشأن في ذلك ما ذكر أهل التفسير أن رجلين دخلا علىٰ داود أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم فقال صاحب الزرع: إن هذا انفلتت غنمه ليلًا ووقعت في حرثي فأفسدته، فلم يبقَ منه شيء فأعطاه داود رقاب الغنم بالحرث، فخرجا ومرا علىٰ سليمان فقال: كيف قضىٰ بينكما فأخبراه، فقال سليمان: لو وليت أمرهما لقضيت بغير هذا، وروي أنه قال: غير هذا أرفق للفريقين، فأخبرا بذلك داود فدعاه فقال: كيف تقضي، ويُروىٰ أنه قال: ادفع الغنم إلىٰ صاحب الحرث ينتفع بدرها، ونسلها، وصوفها، ونوافعها، ويبذر صاحب الغنم لصاحب الحرث مثل حرثه، فإذا صار الحرث كهيئته يوم أُكل دُفِعَ إلىٰ أهله وأخذ صاحب الغنم غنمه فقال: داود القضاء ما قضيت وحكم بذلك، والحكم الآخر وهو الإسلام: أن ما أفسدت الماشية المُرسلة بالنهار من مال الغير فلا ضمان علىٰ ربها؛ لأنَّ علىٰ أصحاب المال أن يحفظوا أموالهم، وأن يجعلوا من يرد الدواب التي تنزل عليها، وما أفسدت بالليل ضمنه ربُها؛ لأنَّ في عُرف الناس أن أصحاب الزرع يحفظونه بالنهار، والمواشي تسرح بالنهار وتُرد بالليل إلىٰ المراح.

وأيضًا مما قضىٰ به سليمان بن داود وكان الصواب له علىٰ حُكم أبيه: ما في الصحيحين: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال النبي ﷺ: **«كَانَتِ امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا ابْنَاهُمَا، جَاءَ الذِّئْبُ فَذَهَبَ بِابْنِ إِحْدَاهُمَا، فَقَالَتْ صَاحِبَتُهَا: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ، وَقَالَتِ الأُخْرَىٰ: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ، فَتَحَاكَمَتَا إِلَىٰ دَاوُدَ، فَقَضَىٰ بِهِ لِلْكُبْرَىٰ، فَخَرَجَتَا عَلَىٰ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ فَأَخْبَرَتَاهُ، فَقَالَ: ائْتُونِي بِالسِّكِّينِ أَشُقُّهُ بَيْنَهُمَا، فَقَالَتِ الصُّغْرَىٰ: لاَ تَفْعَلْ يَرْحَمُكَ اللهُ، هُوَ ابْنُهَا، فَقَضَىٰ بِهِ لِلصُّغْرَىٰ»**، أي: بقرينة الرحمة وقرينة الحال.

﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ﴾ الشامخات، ﴿ يُسَبِّحْنَ ﴾ معه إذا بدأ في تسبيحه فقد كان من أصحاب الأصوات الحسنة، ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ أيضًا يُسبحن معه للملك العلام، ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ أي: ما ذُكر من التفهيم وإيتاء الحُكم والتسخير.

﴿٨٠﴾ ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ﴾ أي: داود، ﴿صَنْعَةَ لَبُوسٍ﴾ الدروع التي تُلبس في وقت القتال، ﴿لِتُحْصِنَكُمْ﴾ أي: تحرزكم وتمنعكم ﴿مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ من الطعن والضرب، ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ الله على نعمه، وقد قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [سبأ:١٠-١١].

﴿٨١﴾ ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ﴾ سخرنا له: ﴿ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ قوية متحركة، ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ أرض الشام، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢]، ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ محيطين لا تخفىٰ علينا منها خافية.

﴿٨٢﴾ ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ قد سُخرت لسليمان، ومنهم: ﴿مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ في البحار فيستخرجون اللؤلؤ والمرجان، ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ [سبأ:١٣]، ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴾ يخرجون بأمره ويرجعون بأمره، وهو استجابة لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴿٣٨﴾﴾ [ص:٣٥-٣٨].

﴿ ۞وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿٨٣﴾ ﴿وَ﴾ اذكر: ﴿أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ دعا ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ أَنِّى مَسَّنِىَ ﴾ أصابني: ﴿ ٱلضُّرُّ﴾ المرض الطويل، إذ مكث مريضًا كما يذكرون ثمانية عشر سنة حتىٰ تركه القريب والبعيد، والصديق والحبيب، ثم دعا الله عَزَّوَجَلَّ بذلك، وفي الباب إسرائيليات كثيرة لا يثبت

منها شيء نُعرض عن ذكرها، ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أي: عجل بشفائي وارفع بأسي واستجب دعائي، فعند ذلك كان ما ذكره الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص:٤٢]، فشرب من ذلك الماء، واغتسل منه فشفاه الله.

﴿٨٤﴾ ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ دعاءه، ﴿فَكَشَفْنَا﴾ رفعنا، ﴿مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ من مرض وزمانة، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾ أعطيناه، ﴿أَهْلَهُۥ﴾ زوجه وأبناءه، ﴿وَمِثْلَهُم﴾ زيادة ﴿مَّعَهُمْ﴾ مكرمة من الله عَزَّوَجَلَّ، وكل ذلك فعلناه ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أي: فعل الله به ذلك رحمة، ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ تذكيرًا وموعظة، ﴿لِلْعَٰبِدِينَ﴾ للطائعين حتىٰ يعلموا عظيم قدرة الله عَزَّوَجَلَّ وفتحه علىٰ أوليائه.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«بَيْنَمَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ عُرْيَانًا، خَرَّ عَلَيْهِ رِجْلُ جَرَادٍ مِنْ ذَهَبٍ، فَجَعَلَ يَحْثِي فِي ثَوْبِهِ، فَنَادَاهُ رَبُّهُ يَا أَيُّوبُ أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتُكَ عَمَّا تَرَىٰ، قَالَ بَلَىٰ يَا رَبِّ، وَلَكِنْ لاَ غِنَىٰ لِي عَنْ بَرَكَتِكَ»**.

﴿٨٥﴾ ﴿وَ﴾ اذكر: ﴿إِسْمَاعِيلَ﴾ وهو ابن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿وَإِدْرِيسَ﴾ نبي، قيل: ما بين آدم ونوح، وقيل: بعد ذلك وهو الصحيح، ﴿وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾ يذكرون أنه صَلُحَ في ليلة والله أعلم، ﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ علىٰ أمر الله عَزَّوَجَلَّ وقدره.

﴿٨٦﴾ ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ﴾ أي: أنعم الله عليهم بالنبوة والرسالة، ﴿إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ العابدين لرب العالمين، والله عَزَّوَجَلَّ يتولى الصالحين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الأعراف:١٩٦].

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿٨٧﴾ ﴿وَ﴾ اذكر: ﴿ذَا النُّونِ﴾ صاحب الحوت وهو يونس بن متىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ لقومه حين أبوا قبول دعوته والتصديق بنبوته، ﴿فَظَنَّ﴾ استيقن، ﴿أَن لَّن نَّقْدِرَ﴾ نضيق: ﴿عَلَيْهِ﴾ يعني: كان ظنه بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ألا يُضيق عليه، وألا يُعاقبه علىٰ هذه الفعلة التي فعلها، وكان الشأن: أنه حين ذهب ركب في سفينة مع قوم فبينما هم في البحر إذ جاءت الأمواج العاتية والرياح الشديدة، فاستهموا علىٰ أن يُنقص من رُكاب السفينة حتىٰ يسلم

البقية، فوقعت القرعة علىٰ يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وذكروا أنهم أعادوها فوقعت عليه، ثم لم يكن بُد من إلقائه في البحر، فحين ألقوه في البحر ألتقمه النون وهو الحوت العظيم الكبير، فبينما هو علىٰ ذلك: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ في ظلمات البحر والليل وبطن الحوت: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ متوسلًا بألوهية الله إذ لا رب غيره ولا إله سواه، ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ تنزيه لله عَزَّوَجَلَّ عن النقص والعيب، وتوسل إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ باستجابة دعوته، ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ في خروجه من بين قومه بغير إذن ربه؛ ولذلك كانت هذه الدعوة من أسباب استجابة الدعاء.

ففي حديث سعيد بن أبي وقاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: **«دُعَاءُ ذَا النُّونِ الَّذِي دَعَا بِهِ وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، لَمْ يَدْعُ بِهَا امْرُؤٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتُجِيبَ لَهُ»** اخرجه الطبري؛ لأنها جمعت بين وصف الله عَزَّوَجَلَّ بصفات الكمال والجلال، وبين تنزيه الله عَزَّوَجَلَّ، وهكذا ما يتعلق بالاعتراف بالذنب والتوبة.

﴿٨٨﴾ ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ أجبناه: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ﴾ سلمناه ﴿مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ الكرب والحزن من تلك الظلمات، ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كما أنجيناه من هذه الضيقة، ﴿نُنجِي﴾ نسلم ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من المضايق والأحزان، وكان من شأنه ما قاله الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الصافات:١٤٥-١٤٧]. بمعنى: بل يزيدون، وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: «**لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى**» متفق عليه.

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾.

﴿٨٩﴾ ﴿وَ﴾ اذكر: ﴿زَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ﴾ دعا: ﴿رَبَّهُۥ﴾ تعالىٰ بقوله: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي﴾ لا تتركني: ﴿فَرْدًا﴾ لا ولد لي ولا وارث، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ من الأسماء المركبة، من أنه الذي يبقىٰ حين تفنىٰ الخليقة، ويقول: **«أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟»** متفق عليه، واللفظ لمسلم عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

﴿٩٠﴾ ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ دعاءه وحققنا له رجاءه، ﴿وَوَهَبْنَا﴾ أعطينا: ﴿لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ جعلها ودودًا ولودًا، ﴿إِنَّهُمْ﴾ الأنبياء جميعًا، وقيل: زكريا وأهل بيته، ﴿كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ﴾ يبادرون ﴿فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ المبرات امتثالًا لأمر الله واستجابةً لداعيه، كما قال تعالىٰ: ﴿فَاسْتَبِقُوا۟ الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة:١٤٨]، ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران:١٣٣]، ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ [الحديد:٢١]، ﴿وَيَدْعُونَنَا﴾ يطلبونه مع ذلك: ﴿رَغَبًا﴾ طمعًا فيما عنده من الخير العظيم، ﴿وَرَهَبًا﴾ خوفًا من عذابه ونقمته، ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ متواضعين أذلاء لحُكم الله وأمره.

﴿٩١﴾ ﴿وَ﴾ اذكر يا محمد: ﴿ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ حفظته من الحرام وهي مريم ابنة عمران، ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا﴾ كقوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾ [التحريم:١٢]، أي: أن جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ نفخ في جيب درعها ودخل الروح فرجها، ثم كان الولد، ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ أي: من الأرواح التي عند الله عَزَّوَجَلَّ، أضافها إلىٰ نفسه إضافة تشريف لا أنه موصوف بالروح، ﴿وَجَعَلْنَٰهَا﴾ صيرناها، ﴿وَٱبْنَهَآ﴾ عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ﴿ءَايَةً﴾ دالة علىٰ كمال قدرة الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ حيث خلق رجلًا من غير أب، وربنا لا يُعجزه شيء ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس:٨٢].

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ ۖ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

﴿٩٢﴾ ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ﴾ أي: ملتكم ودينكم، ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ دينًا واحدًا وهو الإسلام، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩]، ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ﴾ خالقكم ورازقكم ومدبر شأنكم، ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾ وحدوني، لا تشركوا معي غيري لا ملكًا مقربًا ولا نبيًا مرسلًا.

﴿٩٣﴾ ﴿وَ﴾ لكن الواقع أن الناس: ﴿تَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ اختلفوا وتمزقوا في الدين فصاروا فرقًا وأحزابًا، وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: **«افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ إِحْدَىٰ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَافْتَرَقَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً»** أخرجه ابو داود، وفي حديث معاوية: **«كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً»**، ﴿كُلٌّ

﴿إِلَيْنَا﴾ كل هذه الأحزاب إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة: ﴿رَٰجِعُونَ﴾ فنجازيهم بأعمالهم المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

﴿٩٤﴾ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ والمبرات المُكرَمَات، ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بهذا القيد إذ أن الله عَزَّوَجَلَّ لا يقبل من كافر عملًا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣]، ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾ أي: لا جحود لعمله الصالح، ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ حافظون، فيلقاه في: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩].

﴿٩٥﴾ ﴿وَحَرَٰمٌ﴾ الحرام: المنع، والمعنىٰ ممتنع البتة علىٰ علىٰ كونًا، ﴿عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ بلدة ومدينة، ﴿أَهْلَكْنَٰهَآ﴾ دمرنا عليها: ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ إلىٰ الدنيا بعد هلاكهم ليتوبوا وتقبل توبتهم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿٩٦﴾ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ وهذا في آخر الزمان يُفتح سدهم، وقد قال النبي ﷺ: «**لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ اليَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ**» وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا،» متفق عليه عن زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ﴾ صوب وجهة، ﴿يَنسِلُونَ﴾ يسرعون لكثرتهم، فيشربون المياه ويقتلون ويعيثون في الأرض الفساد، وفي حديث النواس بن سمعان: « **ثُمَّ يَأْتِي عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ قَوْمٌ قَدْ عَصَمَهُمُ اللهُ مِنْهُ، -أي: من الدجال- فَيَمْسَحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ وَيُحَدِّثُهُمْ بِدَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَىٰ اللهُ إِلَىٰ عِيسَىٰ: إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي، لَا يَدَانِ لِأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ، فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَىٰ الطُّورِ وَيَبْعَثُ اللهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَىٰ بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا، وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ: لَقَدْ كَانَ بِهَذِهِ مَرَّةً مَاءٌ، وَيُحْصَرُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَىٰ وَأَصْحَابُهُ، حَتَّىٰ يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لِأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ لِأَحَدِكُمُ الْيَوْمَ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَىٰ وَأَصْحَابُهُ، فَيُرْسِلُ اللهُ عَلَيْهِمُ النَّغَفَ فِي رِقَابِهِمْ، فَيُصْبِحُونَ فَرْسَىٰ كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَىٰ وَأَصْحَابُهُ إِلَىٰ الْأَرْضِ، فَلَا يَجِدُونَ فِي الْأَرْضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إِلَّا مَلَأَهُ زَهَمُهُمْ وَنَتْنُهُمْ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَىٰ**

وَأَصْحَابُهُ إِلَىٰ اللهِ، فَيُرْسِلُ اللهُ طَيْرًا كَأَعْنَاقِ الْبُخْتِ فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ مَطَرًا لَا يَكُنُّ مِنْهُ بَيْتُ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ، فَيَغْسِلُ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَتْرُكَهَا كَالزَّلَفَةِ، ثُمَّ يُقَالُ لِلْأَرْضِ: أَنْبِتِي ثَمَرَتَكِ، وَرُدِّي بَرَكَتَكِ، فَيَوْمَئِذٍ تَأْكُلُ الْعِصَابَةُ مِنَ الرُّمَّانَةِ، وَيَسْتَظِلُّونَ بِقِحْفِهَا، وَيُبَارَكُ فِي الرِّسْلِ، حَتَّىٰ أَنَّ اللِّقْحَةَ مِنَ الْإِبِلِ لَتَكْفِي الْفِئَامَ مِنَ النَّاسِ، وَاللِّقْحَةَ مِنَ الْبَقَرِ لَتَكْفِي الْقَبِيلَةَ مِنَ النَّاسِ وَاللِّقْحَةَ مِنَ الْغَنَمِ لَتَكْفِي الْفَخِذَ مِنَ النَّاسِ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللهُ رِيحًا طَيِّبَةً، فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آبَاطِهِمْ، فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ، وَيَبْقَىٰ شِرَارُ النَّاسِ، يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الْحُمُرِ، فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ» رواه مسلم (٢٢٥٤).

(٩٧) ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ وهو القيامة؛ لأنَّ النبي ﷺ يقول كما في حديث حذيفة بن أسيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند مسلم: «إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّىٰ تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ - فَذَكَرَ - الدُّخَانَ، وَالدَّجَّالَ، وَالدَّابَّةَ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَنُزُولَ عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ ﷺ، وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَثَلَاثَةَ خُسُوفٍ: خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ، وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ، تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَىٰ مَحْشَرِهِمْ».

﴿فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ﴾ مرفوعة لا يستطيعون لها ردًا؛ لشدة خوفهم، ﴿أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يقولون مع ذلك: ﴿يَٰوَيْلَنَا﴾ يا حسرتنا، ﴿قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ﴾ نسيان وإعراض، ﴿مِّنْ هَٰذَا﴾ عن ذكر القيامة، ﴿بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ كافرين، وهذا من شهادتهم علىٰ أنفسهم.

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

(٩٨) ﴿إِنَّكُمْ﴾ يا معاشر الكفار، ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأصنام والأوثان، ﴿حَصَبُ﴾ وقود: ﴿جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ داخلون وفيها خالدون.

(٩٩) ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الأصنام والأوثان، ﴿ءَالِهَةً﴾ تُعبد من دون الله عَزَّوَجَلَّ على الحقيقة، ﴿مَّا وَرَدُوهَا﴾ ما دخلوا فيها، ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ العابد والمعبود.

(١٠٠) ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ صوت شديد عند جلب الهواء، ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ ولا يُبصرون وإنما يعذبون.

(١٠١) ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾.

📖 وَفِي سَبَبِ نُزُولِهَا: ولما نزلت هذه الآية قال الكفار: خُصِمَ محمد، أنه يزعم أننا وما نعبد من دون الله في النار، فكيف بعيسىٰ وهو نبي؟ وهكذا عزير، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ من أنهم من أهل الهدىٰ، وأهل الجنة كالملائكة، وعزير، والمسيح، ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ عن النار.

(١٠٢) ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ صوتها وحركة تلهبها، ﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ﴾ رغبت وطلبت، ﴿أَنْفُسُهُمْ﴾ في الجنة، ﴿خَالِدُونَ﴾، ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة:٣٣]، يقيمون على ذلك، فيها: «مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ».

(١٠٣) ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ﴾ يخيفهم، ﴿الْفَزَعُ﴾ الهول، ﴿الْأَكْبَرُ﴾ العظيم وهي: النفخة الأخيرة، بدليل قول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ [النمل:٨٧]، ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ﴾ تستقبلهم: ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾ حين دخول الجنة: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فيه بالكرامة على ألسنة الرسل.

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾.

(١٠٤) وهو يوم عظيم شأنه، شديدة أهواله، وكثيرة أحواله، فاذكر يا محمد: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ﴾ الواسعة الغليظة العظيمة، ﴿كَطَيِّ السِّجِلِّ﴾ الكاتب، ﴿لِلْكُتُبِ﴾ الصحيفة والورقة حين تطوى يرسل بها، ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ يحشر الناس عراة غرلا بهمًا.

كما في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ مُحْشَورُونَ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا، ثُمَّ قَرَأَ:** ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ [الأنبياء:١٠٤]. **أَلَا وَإِنَّ أَوَّلَ الْخَلَائِقِ يُكْسَىٰ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام، أَلَا وَإِنَّهُ سَيُجَاءُ بِرِجَالٍ مِنْ أُمَّتِي، فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أَصْحَابِي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ، كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ:** ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ

وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ [المائدة: ١١٧-١١٨] **قَالَ: فَيُقَالُ لِي: إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَىٰ أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ - وَفِي حَدِيثِ وَكِيعٍ وَمُعَاذٍ - فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ "**. متفق عليه، واللفظ لمسلم.

وجاء **عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا»** قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ النِّسَاءُ وَالرِّجَالُ جَمِيعًا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ، قَالَ ﷺ: **«يَا عَائِشَةُ الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ»** متفق عليه.

﴿وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ إعادة البعث.

﴿١٠٥﴾ ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ﴾ أي: في الذكر، وهو جميع الكتب المنزلة علىٰ أنبيائه ورسله، ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ أم الكتاب الذي عنده، والمعنىٰ من بعد ما كتب ذكره في اللوح المحفوظ، وقيل: الذكر القرآن، والمراد ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ أي: من قبل القرآن، ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ هذا وعد الله سواءً كانت أرض الدنيا أو الآخرة كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣].

﴿١٠٦﴾ ﴿إِنَّ فِى هَٰذَا﴾ الوعد العظيم من الله عَزَّوَجَلَّ وفي هذا القرآن، ﴿لَبَلَٰغًا﴾ وصولًا إلىٰ البغية لمن اتبعه واقتفىٰ أثره، ﴿لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ مؤمنين موحدين.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

﴿١٠٧﴾ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ يا محمد: ﴿إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

❁ وهذا دليل علىٰ عموم نبوة النبي ﷺ إلىٰ الثقلين من الجن والأنس، وهو القائل ﷺ: **«بُعِثْتُ إِلَىٰ النَّاسِ كَافَّةً»**، **«وَبُعِثْتُ إِلَىٰ كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ»** متفق عليه عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١]، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨]، ورحمته للعالمين: أن أخرجهم الله عَزَّوَجَلَّ بدعوته من

الظلمات إلىٰ النور، ومن الشرك إلىٰ التوحيد، ومن البدعة إلىٰ السنة، ومن المعصية إلىٰ الطاعة، فاتباعه رحمة، وخلافه نقمة.

﴿١٠٨﴾ ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ بهذا القرآن، وفيه ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ﴾ معبودكم ﴿إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ لا إله غيره ولا رب سواه، ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ منقادون مستسلمون لله عَزَّوَجَلَّ بالتوحيد.

﴿١٠٩﴾ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ وأعرضوا ولم يستجيبوا، ﴿فَقُلْ﴾ لهم: ﴿ءَاذَنتُكُمْ﴾ أعلمتكم، ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ إنذار بيّن يستوي في علمه جميع الناس، ﴿وَإِنْ أَدْرِيٓ﴾ وما أعلم، ﴿أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ من القيامة.

﴿١١٠﴾ ولكن الله عَزَّوَجَلَّ يعلم ولذلك قال: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ ما يكون في صدوركم، لا تخفىٰ عليه خافية.

﴿١١١﴾ ﴿وَإِنْ﴾ ما ﴿أَدْرِي﴾ أعلم ﴿لَعَلَّهُۥ﴾ أي: لعل تأخير العذاب، ﴿فِتْنَةٌ لَّكُمْ﴾ واختبار من حيث أنهم لم يتوبوا ولم يؤبوا، ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ تتمتعون إلىٰ انقضاء آجالكم.

﴿١١٢﴾ ﴿قَٰلَ﴾ محمد ﷺ: ﴿رَبِّ ٱحْكُم﴾ أي: اقضِ بيني وبينهم: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ البيّن الواضح، بالعذاب الواضح فانصرنا عليهم ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ يعين ويقوي ويثبت، ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ وتتهمونا به من الكذب والباطل والبهتان، من قولهم: أنه ساحر، ومجنون ونحو ذلك، والله أعلم.

ومن أسماء الله الحسنىٰ (المستعان) ومعناه: الذي يستعينه عباده فيعينهم؛ ولذلك كان من دعاء رسول الله ﷺ: «**رَبِّ أَعِنِّي وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ**» **أخرجه أبو داود عن ابن عباس.**

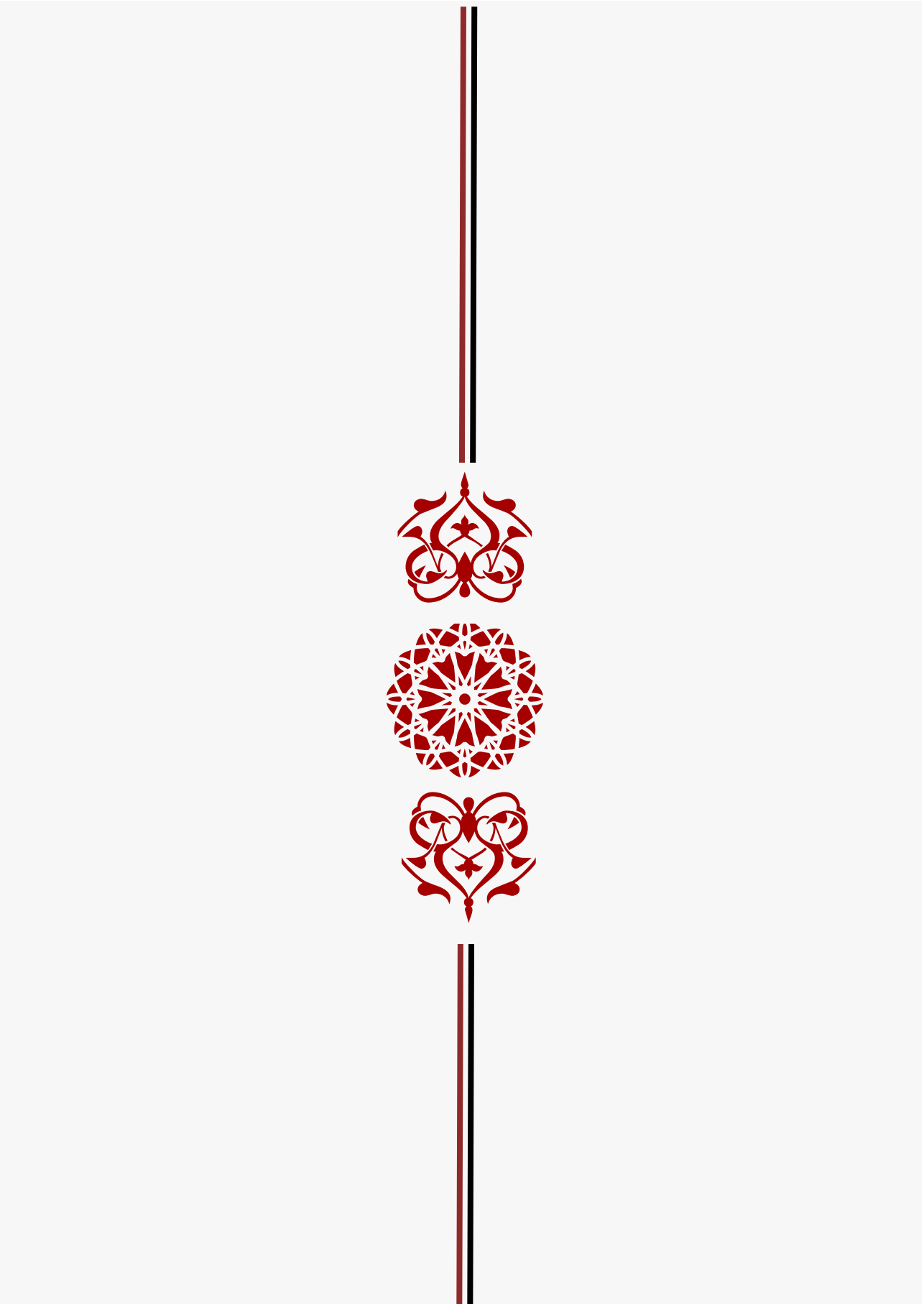
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

تم تفسير سورة الأنبياء



تَفْسِيرُ سُورَةِ الْحَجِّ





سُورَةُ الْحَجِّ

اخْتُلِفَ فِيهَا فَقِيلَ: سُورَةٌ مَدَنِيَّةٌ، وَقِيلَ مَكِّيَّةٌ، غير قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾[الحج:١٩]، إلى قوله: ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَى صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾[الحج:٢٤]، عَدَدُ الآيَاتِ: ثَمَانِيَةٌ وَسَبْعُونَ آيَةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ﴾ أي: اعبدوه وأفردوه بالطاعة، فإن النبي ﷺ قام خطيبًا في مِنىٰ، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ﴾ وفي رواية: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة:٢١]، كما في حديث أبي أمامة أخرجه أحمد وغيره.

﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ﴾ شدة الحركة، والحالة الهائلة التي تكون يوم القيامة، سواء الحركات الحسية من تغير الجبال، والسماوات، والأرَضين، أو الحركات المعنوية لما يلحقهم من الضيق، والضيم، والشدة، ﴿شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ يشيب فيه الصغير، وتضع فيه الحوامل، وفي حديث الشفاعة أن الناس يهتمون لذلك، فيأتون آدم، ثم نوح، ثم إبراهيم، ثم موسىٰ، ثم عيسىٰ، ثم محمد ﷺ، وقولهم: «أَلَا تَرَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ مَا قَدْ بَلَغَنَا؟» متفق عليه.

ويكون ذلك: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ﴾ تُشغل وتنسىٰ، ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ ولدها مع أنها في الدنيا قد تذهل عن نفسها، ولا تذهل عن ولدها، ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ تسقط ولدها من هول ذلك اليوم، ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ لشدة ما نزل بهم مع أنهم لم يشربوا المُسكِر؛ ولكن من شدة الخوف، ﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ في الواقع؛ ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾، فيوم القيامة شديدة أهواله كثيرة أحواله، فقد جاءت متنوعة في آيات، وأحاديث كثيرة نسأل الله السلامة والعافية، ونسأل الله أن يخفف عنا أهوال ذلك اليوم.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾.

٣ ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ الكفار والمنافقون، ﴿مَن يُجَادِلُ﴾ يُخاصم ﴿فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ في صفات الله بالباطل، ويُجادل في كتاب الله تحريفًا وتعطيلاً بالباطل، ﴿وَيَتَّبِعُ﴾ يتابع أي: هذا المجادل في جداله: ﴿كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ المتمرد العاتي في الشر.

٤ ﴿كُتِبَ﴾ قُضِيَ، ﴿عَلَيْهِ﴾ علىٰ الشيطان، ﴿أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ﴾ اتبعه وأطاعه، ﴿فَأَنَّهُ﴾ يعني: الشيطان ﴿يُضِلُّهُ﴾ يحرفه عن الصراط المستقيم، والطريق القويم، ﴿وَيَهْدِيهِ﴾ يرشده ويدلّه ويوصله ﴿إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ عذاب النار، وبئس المصير.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾.

٥ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ في شك، ﴿مِّنَ الْبَعْثِ﴾ من قبوركم بعد موتكم يوم القيامة، فتفكروا في شأنكم أول الأمر، فإن البدأة أشد من الإعادة، ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾ وهذا أصل خلقة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ وهو ما يقع من التزاوج بين الرجل والمرأة، فيجتمع مني الرجل بمني المرأة ثم يكون مَشِيجًا، ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ يصير كالعَلَقَةِ: شيء من الدم قد تجمع، ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ قطعة من اللحم، ﴿مُّخَلَّقَةٍ﴾ مصورة، ﴿وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ أي: لم يتبين بَعدُ ما فيها من التصوير؛ ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ نظهر، ونجلي لكم قدرة الله عَزَّوَجَلَّ الذي لا يُعجزه شيء، ﴿وَنُقِرُّ﴾ نثبت هذا الجنين، ﴿فِي الْأَرْحَامِ﴾ في رحم المرأة، ﴿مَا نَشَاءُ﴾ أن يكون ذكرًا أو أنثىٰ ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وقت معلوم، فقد يبقىٰ في الرَّحم فلا يَمُجُّهُ، ولا يُسقطه، وينزل كاملًا يعيش، وقد يَمُجُّهُ الرَّحم قبل أن يخرج، فيخرج مضغةً ميتةً.

و(**الأجل المسمىٰ**): غالبا تسعة أشهر، وأقله في خروج الولد صحيحًا ستة أشهر، وأما مدة الحمل فقد تكون أكثر من ذلك.

﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ﴾ من بطون أمهاتكم، ﴿طِفْلاً﴾ صغيرًا لا يستطيع أن ينفع نفسه، ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ تكبروا حتىٰ تبلغوا الأشد: وهو تمام الكمال والقوة والعقل، ﴿وَمِنكُمْ﴾ يا معاشر بني آدم، ﴿مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ يُقبض من قبل، ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ﴾ يرجع ﴿إِلَىٰ أَرْذَلِ﴾ سيء ﴿الْعُمُرِ﴾ يطول عمره حتىٰ يعود إلىٰ أرذله، فيصبح كالصغير في تفكيره وكثير من شأنه.

وكان من دعاء النبي ﷺ في دبر الصلاة: **«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الجُبْنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ البُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أُرَدَّ إِلَىٰ أَرْذَلِ العُمُرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا، وَعَذَابِ القَبْرِ»**

أخرجه البخاري عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ حتىٰ يصير هذا الكبير مثل الصبي لا يعلم شيئًا مما كان يعلم، فربما نسي أسماء أبنائه، وربما نسي أوقات الليل والنهار، والله المستعان، ﴿وَتَرَى﴾ تبصر، ﴿ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ ميتة يابسة لا حراك فيها، ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ﴾ المطر، ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾ تحركت بالنبات، ﴿وَرَبَتْ﴾ ارتفعت وزادت.

وَقِيلَ: فيه تقديم وتأخير معناه: رَبَت واهتزت، وَرَبَا نباتها.

﴿وَأَنۢبَتَتْ﴾ أضاف الإنبات إليها مع أن المنبت هو الله؛ لكن لكونها مكانًا له، ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍۭ﴾ صنف، ﴿بَهِيجٍ﴾ حسن المنظر يَسُرُّ من نظر إليه.

فذكر الله عَزَّوَجَلَّ دليلين علىٰ البعث والنشور:

- **الأول**: كونه أوجد الإنسان من العدم.
- **والثاني**: إحياء الأرض الموات إذ أنزل المطر عليها.

٦ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكِر: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ لا رب غيره، ولا إله سواه، ﴿وَأَنَّهُۥ﴾ لكمال قدرته: ﴿يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يوم القيامة ويخرجهم من قبورهم، كما أحيا الأرض الميتة ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يُعجزه شيء.

٧ ﴿وَ﴾ لتعلموا، ﴿أَنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ القيامة، ﴿ءَاتِيَةٌ﴾ لا تتخلف ولا تتأخر عن وقتها المعلوم، ﴿لَّا رَيْبَ﴾ لا شك، ﴿فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ عَزَّوَجَلَّ، ﴿يَبْعَثُ﴾ يُخرج، ﴿مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ حتىٰ ولو تبددت أجزاؤهم وأعضاؤهم، فالله عَزَّوَجَلَّ لا يُعجزه شيء.

وفي الصحيحين: من حديث أبي سعيد قال رسول الله ﷺ: **«أَنَّ رَجُلًا كَانَ قَبْلَكُمْ، رَغَسَهُ اللهُ مَالًا، فَقَالَ لِبَنِيهِ لَمَّا حُضِرَ: أَيَّ أَبٍ كُنْتُ لَكُمْ؟ قَالُوا: خَيْرَ أَبٍ، قَالَ: فَإِنِّي لَمْ أَعْمَلْ**

خَيْرًا قَطُّ، فَإِذَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي، ثُمَّ اسْحَقُونِي، ثُمَّ ذَرُّونِي فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ، فَفَعَلُوا، فَجَمَعَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فَقَالَ: مَا حَمَلَكَ؟ قَالَ: مَخَافَتُكَ، فَتَلَقَّاهُ بِرَحْمَتِهِ».

فالشاهد: أن الله يجمع أعضاء الإنسان ولا يُعجزه.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٨ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٩ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٠ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٢ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ١٣﴾.

٨ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ﴾ يُخاصم، ﴿فِي اللهِ﴾ في آياته الشرعية والكونية، ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وإنما بالهوىٰ، والحدس، والظن السيء، ﴿وَلاَ هُدًى﴾ بصيرة وبيان، ﴿وَلاَ كِتَابٍ﴾ علم ووحي ﴿مُّنِيرٍ﴾ يستنير به، ويُهدىٰ به الطريق.

٩ ومن شأنه أنه ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾ متبخترًا؛ لتكبره لَاوِي عُنقه مُعرِضًا عمَّا يُدعىٰ إليه، فـ(**العِطفُ**): الجانب، ﴿لِيُضِلَّ﴾ يُحرف الناس ﴿عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ عن دين الله وطريقه القويم، وهذا الصنف ﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ مهانة من قتل، وخوف، ﴿وَنُذِيقُهُ﴾ نصيبه، ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ في النار.

١٠ ويقال له عند ذلك: ﴿ذَلِكَ﴾ العذاب، ﴿بِمَا قَدَّمَتْ﴾ فعلت ﴿يَدَاكَ﴾ من الأعمال السيئات، والأفعال القبيحات، ﴿وَأَنَّ اللهَ﴾ لكمال عدله سبحانه وتعالىٰ: ﴿لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ كما قال: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]، وقال: **«يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا»**، أخرجه مسلم عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

١١ ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ المنافقين، ﴿مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ علىٰ الشك والمصلحة، فيدخل في الإسلام أو يتمسك بالسنة؛ لغرض دنيوي، فإذا وجد ذلك الغرض بقي مع أهل الإسلام وأهل السنة، وإذا عُدِمَ ذلك الغرض عاد إلىٰ ما هو عليه من البدعة والشرك، فلا ثبات عند هذا الصنف، وتجد أحدهم: **«كَمَثَلِ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ»**، ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ﴾ رزق حسن، وصحة، وعافية، وسعة، ﴿اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ سكن وارتاح إليه، ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ مرض، وسقم، وحاجة، ﴿انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ مرتدًا؛ كحال العرنيين.

ففي حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الصحيحين: أَنَّ نَاسًا مِنْ عُرَيْنَةَ قَدِمُوا عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، فَاجْتَوَوْهَا، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«إِنْ شِئْتُمْ أَنْ تَخْرُجُوا إِلَىٰ إِبِلِ الصَّدَقَةِ، فَتَشْرَبُوا مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا»**، فَفَعَلُوا، فَصَحُّوا، ثُمَّ مَالُوا عَلَىٰ الرِّعَاءِ، فَقَتَلُوهُمْ وَارْتَدُّوا عَنِ الْإِسْلَامِ، وَسَاقُوا ذَوْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، فَبَعَثَ فِي أَثَرِهِمْ فَأُتِيَ بِهِمْ، فَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ، وَأَرْجُلَهُمْ، وَسَمَلَ أَعْيُنَهُمْ، وَتَرَكَهُمْ فِي الْحَرَّةِ، حَتَّىٰ مَاتُوا.

﴿خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي هذا الصنف الذي لم يثبت علىٰ دين الله بصنيعه هذا أقيم عليه الحد، وعاش في ضَنَك وضيق حال، ﴿وَٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ إذ أنه مع الكفار وبئس القرار، ﴿ذَٰلِكَ﴾ الخسران ﴿هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ إذ أنه خسر نفسه، وأهله، وخسر دنياه وأخراه، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١٥﴾ [سورة الزمر:١٥].

١٢ ومن شأن هذا أنَّه ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ﴾ ما لا يملك له ضرًا، ﴿وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ﴾ وما لا يملك له نفعًا، بل يعبد حجارةً صماء بكماء لا تستطيع نفع نفسها فضلًا عن نفع غيرها، ﴿ذَٰلِكَ﴾الفعل من دعائه لغير الله،﴿هُوَ ٱلضَّلَٰلُ﴾ الانحراف والهلاك، ﴿ٱلۡبَعِيدُ﴾ عن الحق والرشد.

١٣ ومن شأن هذا الكافر أنَّه ﴿يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ﴾ ضرره ﴿أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ﴾ وليس معنىٰ ذلك أنه ينفع ويضر من حيث يُعطي ويمنع؛ ولكن الضر فيه بعبادته حيث يُصبح مشركًا منددًا مؤاخذًا بفعل نفسه، فضره أقرب من نفعه لو سُلِّمَ أن له نفعًا ولا نفع له، ﴿لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾ الذي أحبه وناصره المعبود من دون الله، ﴿وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ﴾ الذي يجالسه ويعاشره، وهذا كناية عن الوثن والصنم الذي يُعبد من دون الله عَزَّوَجَلَّ.

❁ **وهذا دليل علىٰ ضعف عقول المشركين** حيث تركوا عبادة من لا يعجزه شيء، وعبدوا الحجارة الصماء والقبور المتآكلة، والله المستعان.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ١٤ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ١٥﴾.

١٤ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يوم القيامة، ﴿جَنَّاتٍ﴾ بساتين، ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا الأَنۡهَارُ﴾ أنهار اللبن، والعسل، والماء، والخمر، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ لا رادَّ لحكمه ولا معقب لقضائه، يهدي من يشاء فضلًا، ويضل من يشاء عدلًا.

١٥ ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ﴾ أي: لن ينصر الله محمدًا ﷺ، كظن الكفار أن يخذله الله ولا ينصره، ﴿فِي الدُّنۡيَا﴾ بِإِدَالَتِهِ عليهم، ﴿وَالآخِرَةِ﴾ برفعته في الجنة، ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ﴾ بحبل، ﴿إِلَى السَّمَاءِ﴾ سقف البيت، وليشنق نفسه، ﴿ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ﴾ الحبل، ﴿فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ﴾ صنيعه وحيلته، ﴿مَا يَغِيظُ﴾ الغضب والحنق الذي في صدره من هذا الظن السيء، والواقع أنه سيموت وسيهلك ولا ينتفع بشيء.

❁ وهذا معنىٰ بليغ من أن الله عَزَّوَجَلَّ سينصر محمدًا ﷺ نصرًا مؤزرًا، ومن شك في الله فإنما ضر نفسه، وهذا الوعد ليس في شأن محمد ﷺ وحدة، بل في شأن من تبعه علىٰ دينه وطريقته وملته، فهو منصور طال الزمن أم قصر، كَثُر أعداؤه أم قلُّوا، كَثُر ماله أم قل، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ [غافر:٥١].

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ١٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١٧ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ١٨﴾.

١٦ ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: مثل ما تقدم من الآيات البينات، والحجج القاهرات، ﴿أَنزَلۡنَاهُ﴾ أي: القرآن، ﴿آيَاتٍ﴾ حجج، ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ ظاهرات، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي﴾ يوفق ويسدد: ﴿مَن يُرِيدُ﴾ من عباده ممن علمه أهلًا للهداية والتوفيق.

١٧ والحال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا، ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ زعموا أنهم علىٰ دين موسىٰ وقد غيروا وبدلوا، ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾ عُباد الكواكب والنجوم، أو

من لا دين له، ﴿وَالنَّصَارَىٰ﴾ عُباد عيسىٰ، ﴿وَٱلْمَجُوسَ﴾ عُباد النار، ﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾ بعبادة الأصنام والأوثان، كل هذه الطوائف ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ﴾ يقضي ويحكم، ﴿بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يوم الفصل، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ مطلع لا تخفىٰ عليه خافية.

❁ **ذُكر في هذه الآية الصابئون علىٰ وصف الكفر والذم**، وفي سورة البقرة والمائدة جاء ذكرهم علىٰ المدح، فيُميز حتىٰ لا يقع الإشكال.

❁ ومن باب الفائدة قال ابن كثير في تفسير آية(٦٢) من سورة البقرة :

"وأما الصابئون فقد اختلف فيهم؛ فقال سفيان الثوري، عن ليث بن أبي سليم، عن مجاهد، قال: الصابئون قوم بين المجوس واليهود والنصارىٰ، ليس لهم دين. وكذا رواه ابن أبي نجيح، عنه وروي عن عطاء وسعيد بن جبير نحو ذلك. وقال أبو العالية والربيع بن أنس، والسدي، وأبو الشعثاء جابر بن زيد، والضحاك وإسحاق بن راهويه الصابئون فرقة من أهل الكتاب يقرؤون الزبور.

ولهذا قال أبو حنيفة وإسحاق: لا بأس بذبائحهم ومناكحتهم .

وقال هشيم عن مطرف: كنا عند الحكم بن عتيبة فحدثه رجل من أهل البصرة عن الحسن أنه كان يقول في الصابئين: إنهم كالمجوس، فقال الحكم: ألم أخبركم بذلك.

وقال عبد الرحمن بن مهدي، عن معاوية بن عبد الكريم: سمعت الحسن ذكر الصابئين، فقال: هم قوم يعبدون الملائكة.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلىٰ، حدثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه، عن الحسن قال: أخبر زياد أن الصابئين يصلون إلىٰ القبلة ويصلون الخمس. قال: فأراد أن يضع عنهم الجزية. قال: فخبر بعد أنهم يعبدون الملائكة.

وقال أبو جعفر الرازي: بلغني أن الصابئين قوم يعبدون الملائكة، ويقرؤون الزبور، ويصلون إلىٰ القبلة، وكذا قال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلىٰ، أخبرنا ابن وهب، أخبرني ابن أبي الزناد، عن أبيه، قال: الصابئون قوم مما يلي العراق، وهم بكوثىٰ، وهم يؤمنون بالنبيين كلهم، ويصومون من كل سنة ثلاثين يوما ويصلون إلىٰ اليمن كل يوم خمس صلوات.

وسئل وهب بن منبه عن الصابئين، فقال: الذي يعرف الله وحده، وليست له شريعة يعمل بها ولم يحدث كفرا.

وقال عبد الله بن وهب: قال عبد الرحمن بن زيد: الصابئون أهل دين من الأديان، كانوا بجزيرة الموصل يقولون: لا إله إلا الله، وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبي إلا قول: لا إله إلا الله، قال: ولم يؤمنوا برسول، فمن أجل ذلك كان المشركون يقولون للنبي صلىٰ الله عليه وسلم وأصحابه: هؤلاء الصابئون، يشبهونهم بهم، يعني في قول: لا إله إلا الله.

وقال الخليل هم قوم يشبه دينهم دين النصارىٰ، إلا أن قبلتهم نحو مهب الجنوب، يزعمون أنهم علىٰ دين نوح، عليه السلام.

وحكىٰ القرطبي عن مجاهد والحسن وابن أبي نجيح: أنهم قوم تركب دينهم بين اليهود والمجوس، ولا تؤكل ذبائحهم، قال ابن عباس: ولا تنكح نساؤهم.

قال القرطبي: والذي تحصل من مذهبهم فيما ذكره بعض العلماء أنهم موحدون ويعتقدون تأثير النجوم، وأنهم فاعلة؛ ولهذا أفتىٰ أبو سعيد الإصطخري بكفرهم للقادر بالله حين سأله عنهم، واختار فخر الدين الرازي أن الصابئين قوم يعبدون الكواكب؛ بمعنىٰ أن الله جعلها قبلة للعبادة والدعاء، أو بمعنىٰ أن الله فوض تدبير أمر هذا العالم إليها، قال: وهذا القول هو المنسوب إلىٰ الكشرانيين الذين جاءهم إبراهيم الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، رادًا عليهم ومبطلاً لقولهم.

وَأَظْهَرُ الْأَقْوَالِ، والله أعلم، قول مجاهد ومتابعيه، ووهب بن منبه: أنهم قوم ليسوا علىٰ دين اليهود ولا النصارىٰ ولا المجوس ولا المشركين، وإنما هم قوم باقون علىٰ فطرتهم ولا دين مقرر لهم يتبعونه ويقتفونه؛ ولهذا كان المشركون ينبزون من أسلم بالصابئي، أي: أنه قد خرج عن سائر أديان أهل الأرض إذ ذاك.

وقال بعض العلماء: الصابئون الذين لم تبلغهم دعوة نبي، والله أعلم".اهـ.

﴿١٨﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خُضُوعًا وتذللًا، ﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ كلها تسجد له سبحانه وتعالىٰ، ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ يسجد لله ويصلي له، ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ﴾ وجب ﴿عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ بشركه وعبادته لغير الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَمَن يُهِنِ﴾ يُذِلَّهُ ﴿ٱللَّهُ﴾ بعدم توفيقه للإسلام وهدايته إليه، ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾؛ لأن الكرامة هي بطاعة الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].

والمفهوم: أن من يُذله الله فلا يُكرمه أحد، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾ [المجادلة: ٢٠].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ يهدي من يشاء لطاعته ومرضاته ويكون مآله إلىٰ الجنة، ويضل من يشاء فيسلك سُبل الشرك والكفر ويكون مآله إلىٰ النار.

❁ ذكر الله في هذين الموطنين سبيل أهل الجنة، وسبيل أهل النار جمعًا بين الترغيب وبين الترهيب، وفيه بيان أن جميع المخلوقات مسخرة في طاعة الله، ما عدىٰ المكلفين فمنهم الطائع، ومنهم المعرض.

❁ وهذا السجود نؤمن به علىٰ ظاهر القرآن، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤]، وقال: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت:١١]، وقال في الحجارة: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٧٤]، وقال بعضهم: بأن السجود هو تحول الظِّل، والله أعلم.

﴿❁هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾❁﴾.

﴿١٩﴾ ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ أي: جادلوا في دينه وأمره.

📖 وَفِي أَسْبَابِ النُّزُولِ: ما في الصحيحين من حديث أبي ذر أنه كان يُقْسِمُ قَسَمًا: إِنَّ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩] نَزَلَتْ فِي الَّذِينَ بَرَزُوا يَوْمَ بَدْرٍ: حَمْزَةَ، وَعَلِيٍّ، وَعُبَيْدَةَ بْنِ الحَارِثِ، وَعُتْبَةَ، وَشَيْبَةَ، ابْنَيْ رَبِيعَةَ، وَالوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ.

﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يكون جزاؤهم يوم القيامة أنها: ﴿قُطِّعَتْ﴾ فُصلت وجُهزت: ﴿لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ علىٰ أجسامهم قيل: من نحاس مُذاب، سُميت بالثياب؛ لأنها تُحيط به، ﴿يُصَبُّ﴾ يُسال ﴿مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ﴾ تنكيلًا بهم ﴿ٱلْحَمِيمُ﴾ وهو الماء الحار التي انتهت حرارته.

﴿٢٠﴾ ومن شأنه ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ﴾ يُذاب بالحميم، ﴿مَا فِى بُطُونِهِمْ﴾ من اللحم والشحم، ﴿وَٱلْجُلُودُ﴾ يشويها ويسقطها.

(٢١) ﴿وَلَهُم﴾ مع ذلك عذاب آخر، وهو ﴿مَّقَٰمِعُ﴾ سياط، ﴿مِنْ حَدِيدٍ﴾ تُضرب به الرؤوس.

(٢٢) وشأنهم أنهم ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ﴾ من كرب وهمٍ، ﴿أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ ردوا إليها، ﴿وَ﴾ قال لهم الملائكة توبيخا: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ النار الأليم الموجع.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٢٣ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ٢٤﴾.

(٢٣) ولما ذكر الله عَزَّوَجَلَّ شأن الكافرين ثنَّىٰ بذكر المؤمنين، فقال: ﴿إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ يوم القيامة، وشأنهم أنهم: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ تكون حليتهم التي في أيديهم وأرجلهم: ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ جمع سوار: وهو ما يحيط بالمعصم وغيره، ﴿مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ ما يخرج من البحر من الزينة، ﴿وَلِبَاسُهُمْ﴾ ما يلبسون من الثياب، ﴿فِيهَا﴾ في الجنة، ﴿حَرِيرٍ﴾ خالص، وقد جاء من حديث أبي سعيد قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ لَبِسَ الْحَرِيرَ فِي الدُّنْيَا، لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الْآخِرَةِ»** متفق عليه.

- **(فالحرير):**

مُحرم علىٰ ذكور الأمة في الدنيا ومباح لإناثهم، وهو في الآخرة لهم جميعًا في الجنة، وهو جميل المنظر طيب الملمس خفيف المحمل هذا في الدنيا، فكيف بحرير الآخرة، فعن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، أَنَّهُ أُهْدِيَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ جُبَّةٌ مِنْ سُنْدُسٍ، وَكَانَ يَنْهَىٰ عَنِ الْحَرِيرِ، فَعَجِبَ النَّاسُ مِنْهَا، فَقَالَ: **«وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ مَنَادِيلَ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فِي الْجَنَّةِ أَحْسَنُ مِنْ هَذَا»** متفق عليه.

(٢٤) ﴿وَهُدُوٓاْ﴾ أي: المؤمنون وفِّقُوا وسُدِّدُوا: ﴿إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ (لا إله إلا الله)، وما يليها من: سبحان الله، والحمد لله، وقراءة القرآن، ويدخل في ذلك طيب الأفعال، كما قال تعالىٰ: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠]، ﴿وَهُدُوٓاْ﴾ وفِّقُوا ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ﴾ دين الإسلام، ﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾ وهو الله المحمود في أفعاله، والمحمود صراطه لما تضمن من مصالح الدنيا والآخرة، فهو دين محمود في عقائده، وعباداته، ومعاملاته.

وقد يكون المعنىٰ أنهم هدوا في صراط الآخرة: فوفقوا إلىٰ سلوك الصراط الذي وضِعَ علىٰ متن جهنم يجوزهُ المؤمنون، ولا يجوزه أحد غيرهم.

وَالْمَعْنَى الْأَوَّلُ أَصْوَبُ مع أنه من هدي علىٰ الصراط المعنوي الذي هو الإسلام هدي علىٰ الصراط الحسي الذي مدَّ علىٰ متن جهنم أعاذنا الله منها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿٢٥﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وقعوا في الكفر بأنفسهم، ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يمنعون غيرهم من الدخول في دين الله والعمل بمرضاته، ﴿وَ﴾ يصدون أيضًا عن: ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ لمن أراده لحج أو عمرة، كما ردوا رسول الله ﷺ في الحديبية، ومن شأن هذا المسجد العظيم أنه هو: ﴿ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ﴾ صيرناه ﴿لِلنَّاسِ﴾ قبلةً لصلاتهم ومنسكًا ومتعبدًا، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٦]، ﴿سَوَآءً﴾ يستوي: ﴿ٱلْعَٰكِفُ﴾ المقيم، ﴿فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ الطارئ الذي ينزل لقصد الحج، أو العمرة ثم يذهب لشأنه.

❐ وَاخْتَلَفُوا فِي مَعْنَى الْآيَةِ.

فقال قوم: ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ أي: في تعظيم حرمته وقضاء النسك فيه، وإليه ذهب مجاهد والحسن وجماعة.

- **وقالوا**: المراد منه نفس المسجد الحرام، ومعنىٰ التسوية: هو التسوية في تعظيم الكعبة وفي فضل الصلاة في المسجد الحرام والطواف في البيت.

-**وقال آخرون**: المراد منه جميع الحرم، ومعنىٰ التسوية: أن المقيم والباد سواءً في النزول به ليس أحدهما أحق بالمنزل يكون فيه من الآخر، غير أنه لا يزعج فيه أحد إذا كان

قد سبق إلىٰ منزل، وهو قول ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة وابن زيد، قالوا: هما سواءٌ في البيوت والمنازل. **أفاده البغوي.**

وهذا القول هو الذي يستدل به: أن المسجد الحرام، وما إليه لا يجوز أن يُمنع منه أحد من حج أو عمرة.

❐ **وما يقوم به الناس الآن من الترتيبات من تحديد الحجاج والعُمار بنسبة معينة.**

قد يتعين إذ أنه لو حج خمسة مليون أو عشرة مليون قد يؤدي إلىٰ مفاسد كثير من إزهاق الأنفس، وحصول كثير من الأضرار؛ لشدة الزحام، بينما يحددونه باثنين مليون أو اثنين مليون ونصف إلىٰ ثلاثة مليون ويُجهز الحرم بمساكنه وسُبل النقل فيه وما يتعلق بالمشاعر، فيسهل علىٰ الناس الذهاب والإياب.

﴿وَمَن يُرِدْ﴾ يقصد ﴿فِيهِ﴾ في الحرم، ﴿بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ الإلحاد: هو المخالفة.

❐ وَاخْتَلَفُوا فِي (الْإِلْحَادِ):

- فقال مجاهد وقتادة: هو: (**الشرك وعبادة غير الله**).
- وقال قوم: هو: (**كل شيء كان منهيًا عنه من قول أو فعل حتىٰ شتم الخادم**).
- قال عطاء: هو: (**دخول الحرم غير مُحرم أو ارتكاب شيء من محظورات الإحرام من قتل صيد أو قطع شجرة**).
- وقال ابن عباس: هو: (**أن تقتل فيه من لا يقتلك أو تظلم فيه من لا يظلمك**).

وهذا معنىٰ قول الضحاك.

- وذهب بعضهم إلىٰ عمومها: (**أن كل معصية تعتبر إلحادًا في الحرم**).

وَالَّذِي يَظْهَرُ: أن الإلحاد يُراد به المعاصي الكبار، التي يستحل فيها الحرم، ففي حديث ابن عباس قال رسول الله ﷺ: «**أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَىٰ اللهِ ثَلَاثَةٌ: مُلْحِدٌ فِي الحَرَمِ، وَمُبْتَغٍ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةَ الجَاهِلِيَّةِ، وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ**» أخرجه البخاري.

بقتل أو قصد سرقة أو غير ذلك من الأمور العظيمة، وانظر كيف يأثم بالإرادة، فكيف إذا فعل هذا الإلحاد وتعاطاه فهو أعظم في الذنب، وفي الجُرم، ﴿نُذِقْهُ﴾ نصبه، ﴿مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ موجع، إما في الدنيا، وإما في الآخرة.

﴿٢٦﴾ ﴿وَ﴾ اذكر يا محمد ﴿إِذْ بَوَّأْنَا﴾ وطأنا وجعلنا، ﴿لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ﴾ بناء، ﴿الْبَيْتِ﴾ الكعبة.

❐ وَقَدِ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِيمَنْ بَنَى الْبَيْتَ أَوَّلًا:

- فقيل: إبراهيم. - وقيل: آدم. - وقيل: الملائكة.

وَلِلْجَمْعِ بَيْنَهَا: أن الملائكة وضعوا أساسات البيت، وأن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ رفع قواعده، ثم اندثرت، فجاء إبراهيم وجدد بناء البيت علىٰ تلك القواعد.

وكان مما أوحاه الله إليه ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ لا في ألوهيته، ولا في ربوبيته، ولا في أسمائه وصفاته، ﴿وَطَهِّرْ﴾ نزه ونظف ﴿بَيْتِيَ﴾ أضافه إلىٰ نفسه تشريفًا وهو الكعبة.

❁ إذ أن الإضافة إلىٰ الله عز وجل تنقسم إلىٰ قسمين:

إضافة تشريف ونحوها كما في هذه الآية.

وإضافة صفات، كما في قوله: ﴿وَجْهُ رَبِّكَ﴾.

﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ من يتعبد لله بالطواف حول الكعبة.

• **(وَالطَّوَافُ):**

عبادة لا تكون إلا حولها، وأقله سبعة أطواف خلافًا لأبي حنيفة: حيث زعم أن الدورة الواحدة قد تكون طوافًا.

وَالصَّحِيحُ: أن الطواف الشرعي لا بد من سبعة أطواف من الحَجَر إلىٰ الحَجَر؛ لفعل رسول الله ﷺ، وهو القائل: **«خذوا عني مناسككم»** أخرجه مسلم عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

❐ وَاخْتَلَفُوا فِي اشْتِرَاطِ الطَّهَارَةِ لَهُ وَعَلَيْهِ بَوَّبَ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ.

وَالصَّحِيحُ: أنها ليست بشرط، وما فعله النبي ﷺ من الوضوء حيث أراد الطواف، يدل علىٰ الاستحباب، فالنبي ﷺ يكون علىٰ أكمل الهيئات، وأحسن الصفات، وأفعال النبي ﷺ لا تدل علىٰ الوجوب حتىٰ يقترن بها ما يدل علىٰ ذلك.

﴿وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ للصلاة فيه، سواءً المفروضة أو المندوبة، وذكر القيام والركوع والسجود؛ لأنها أشهر أعمال الصلاة.

﴿٢٧﴾ ﴿وَأَذِّن﴾ أعلم يا إبراهيم، ﴿فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ وادعهم إليه.

وَقَدْ ذُكِرَ أن الله عَزَّوَجَلَّ جعل له آية، حيث قال إبراهيم: وما يبلغ صوتي، فقال: عليك الآذان وعليَّ البلاغ، فقام إبراهيم علىٰ المقام فارتفع المقام حتىٰ صار كأطول الجبال، فأدخل أصبعيه في أُذنيه وأقبل بوجهه يمينًا وشمالًا وشرقًا وغربًا، وقال: يا أيها الناس ألا إن ربكم قد بنىٰ بيتًا، وكتب عليكم الحج إلىٰ البيت فأجيبوا ربكم، والله أعلم حيث لم يصح فيه شيء عن النبي ﷺ.

﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ علىٰ أرجلهم يمشون، ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ مهزول من الإبل، وغيرها من الحيوان الذي يُركب، ﴿يَأْتِينَ﴾ من الناس ذكورهم وإناثهم، ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ طريق بعيد، قاصدًا لهذا البيت العتيق.

(١٨) والسبب في حجهم؛ ﴿لِّيَشْهَدُوا﴾ ليحضروا ﴿مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ مصالح دنيوية ودينية، كما قال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨]، أي في التجارة، و عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَنْ أَتَىٰ هَذَا الْبَيْتَ، فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ كَمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»** متفق عليه.

﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ عَزَّوَجَلَّ معظمين له مكبرين مطيعين منقادين، ﴿فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾ وهي عشر ذي الحجة مع أيام التشريق الثلاثة، فالأيام المعلومات قيل: عشر ذي الحجة، والمعدودات: أيام التشريق، ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم﴾ ما أعطاهم وامتن عليهم بإحلاله لهم ﴿مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ الإبل والبقر والغنم، فيذبحون منها ويُضحون بها، ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ لأنفسكم، وقد تزود النبي ﷺ الوشيق -اللحم المقدد-، ﴿وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ﴾ المضطر، وقيل الزمن، وقيل الضرير ﴿الْفَقِيرَ﴾ المتعفف.

وفي حديث جابر: **«قَرَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَعَ حَجَّتِهِ عُمْرَةً وَسَاقَ ثَلَاثَةً وَسِتِّينَ بَدَنَةً فِيهَا جَمَلٌ لِأَبِي جَهْلٍ فِي أَنْفِهِ بُرَةٌ وَجَاءَ عَلِيٌّ مِنَ الْيَمَنِ بِتَمَامِ الْمِائَةِ فَنَحَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَلَاثَةً وَسِتِّينَ بَدَنَةً وَنَحَرَ عَلِيٌّ الْبَاقِي، وَأَمَرَ أَنْ يُؤْخَذَ مِنْ كُلِّ بَدَنَةٍ بَضْعَةٌ فَتُطْبَخَ وَيُشْرَبَ مِنْ مَرَقِهَا»** أخرجه مسلم.

❐ **واختلفوا فِي الهدي الواجب بالشرع، هل يجوز للمُهدي أن يأكل منه شيئًا مثل دم التمتع والقران، والدم الواجب بإفساد الحج وفواته وجزاء الصيد؟**

فذهب قوم: إلىٰ أنه لا يجوز أن يأكل منه شيئًا وبه قال الشافعي، وكذلك ما أوجبه علىٰ نفسه بالنذر.

- وقال ابن عمر: لا يأكل من جزاء الصيد والنذر ويأكل مما سوىٰ ذلك، وبه قال أحمد وإسحاق.

- وقال مالك: يأكل من هدي التمتع ومن كل هدي وجب عليه إلا من فدية الأذىٰ وجزاء الصيد والمنذور.

وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ.

- وعند أصحاب الرأي: يأكل من دم التمتع والقران، ولا يأكل من واجب سواهما.

﴿ثُمَّ﴾ يكون شأنهم؛ ﴿لْيَقْضُوا۟﴾ نقضه وإذهابه، وقيل: ليتموا ما بقي من مناسك الحج، ﴿تَفَثَهُمْ﴾ إزالة الوسخ والقذارة؛ من طول الشعر والأظفار والشعث، فيتحللون بحلق رؤوسهم، وإزالة أوساخهم، وبتقصير الأظفار، وحلق الإبط أو نتفه، وحلق العانة، وقص الشارب وغير ذلك من الأعمال التي يقضونها في تلك الأماكن بعد حجهم وعمرتهم، ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾ إن كانوا قد نذروا طوافًا، أو حجًا، أو عمرةً، أو هديًا، ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟﴾ يطوفوا طواف الإفاضة:،﴿بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ الذي اعتقه الله من تسلط الجبابرة.

وَالطَّوَافُ أَقْسَامٌ:

- **الأول**: (طواف القدوم): ويكون لكل قادم إلىٰ مكة بحج أو عمرة، فيطوف بالبيت سبعًا يرمل ثلاثًا من الحجر الأسود إلىٰ أن ينتهي إليه، ويمشي أربعًا.

- **الثاني**: (طواف الإفاضة) للحاج وهو ركن من أركان الحج، ويكون يوم النحر ويجوز بعده.

- **الثالث**: (طواف الوداع)، وهو طواف واجب لمن حج وكان آفاقيًا، إلا أنه رخص للحائض كما في حديث ابن عباس في الصحيحين.

- **الرابع**: (طواف التطوع)، وله أن يطوف ما شاء في يومه وليلته، فهي عبادة لا تكون إلا هنالك، فعن جبير بن مطعم قال النبي ﷺ: **«يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ إِنْ وَلِيتُمْ هَذَا الأَمْرَ فَلَا تَمْنَعُوا أَحَدًا طَافَ أَوْ صَلَّىٰ، أَيَّ سَاعَةٍ شَاءَ مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ»**. أخرجه أبو داود.

❐ وَأَمَّا الرَّمَلُ فِي طَوَافِ الْقُدُومِ:

فهو سنة وليس بواجب، فعله النبي ﷺ؛ لإغاظة الكفار كما قال عمر: فِيمَ الرَّمَلَانُ الْيَوْمَ وَالْكَشْفُ عَنِ المَنَاكِبِ، وإنما فعله رسول الله ﷺ لكذا حين قال الكفار: أوهنتهم حمىٰ يثرب، وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَا نَدَعُ شَيْئًا كُنَّا نَفْعَلُهُ عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، أخرجه البخاري.

وقد صح في فضل الطواف: ما جاء عن ابن عمر عند ابن حبان وغيره: **«مَنْ طَافَ بِالْبَيْتِ أُسْبُوعًا لَا يَضَعُ قَدَمًا، وَلَا يَرْفَعُ أُخْرَىٰ، إِلَّا حَطَّ اللهُ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةً، وَكَتَبَ لَهُ بها حَسنة، وَرفع لَهُ بها درجة»**.

❐ وَلَا يَجُوزُ لِلْمَرْأَةِ الحَائِضِ أَنْ تَطُوفَ بِالْبَيتِ.

لأن النبي ﷺ قال لعائشة: **«افْعَلِي كَمَا يَفْعَلُ الحَاجُّ غَيْرَ أَنْ لَا تَطُوفِي بِالْبَيْتِ حَتَّىٰ تَطْهُرِي»** متفق عليه.

وجوَّز شيخ الإسلام أن تطوف طواف الإفاضة إن كانت في رفقة وخشيت ذهابها وربما لا تستطيع أن تقضي حجها، فلها أن تستخدم حفاضات أو نحو ذلك، ثم تطوف طواف الإفاضة، ولا شيء عليها وهي في حكم المُكره، والله أعلم.

﴿ذَٰلِكَ ۖ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ ۖ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿٣٠﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر من أعمال الحج، مما شرعه الله لكم، ﴿وَمَن يُعَظِّمْ﴾ يجتنب، ﴿حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: معاصي الله وما نهىٰ عنه، وتعظيمها: ترك ملابستها، وقيل: حرمات الله: تكاليفه من مناسك الحج وتعظيمها: بالاتيان بها، لأن الحرمة: مكة، في قول مجاهد، وابن زيد، وغيرهما، ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ وأعظم ثوابًا وأجرًا في الدنيا والآخرة، لأن تعظيمها محبوب إلىٰ الله عز وجل المقربة إليه، ﴿وَ﴾ من مِنَّةِ الله علىٰ عباده: ﴿أُحِلَّتْ﴾ أبيحت ﴿لَكُمُ الْأَنْعَامُ﴾ أي: بهيمتها: وهي الإبل، والبقر، والغنم، ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ﴾ يقرأ، ﴿عَلَيْكُمْ﴾ تحريمه، وهو قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ

وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة:٣]، ﴿فَٱجْتَنِبُواْ﴾ اتركوا واهجروا، ﴿ٱلرِّجْسَ﴾ الرجز، ﴿مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ الأصنام وما يعبد من دون الله، ﴿وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ الباطل والكذب والقبيح، وهو كل ما خالف الكتاب والسنة من الأفعال والأقوال، فيدخل فيه الشرك وغيره، وفي حديث أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال النبي ﷺ: **«أَكْبَرُ الكَبَائِرِ: الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ ثَلاَثًا أَوْ: قَوْلُ الزُّورِ»**. فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّىٰ قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ. **متفق عليه.**

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ، قَالَ: قَدِمَ مُعَاوِيَةُ الْمَدِينَةَ فَخَطَبَنَا وَأَخْرَجَ كُبَّةً مِنْ شَعَرٍ، فَقَالَ: **«مَا كُنْتُ أُرَىٰ أَنَّ أَحَدًا يَفْعَلُهُ إِلَّا الْيَهُودَ، إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَلَغَهُ فَسَمَّاهُ الزُّورَ»**. **أخرجه مسلم**

❖ وما جاء من قوله: **«عُدِلَتْ شَهَادَةُ الزُّورِ بِالشِّرْكِ بِاللهِ»**، فليس معنىٰ ذلك أن شاهد الزور مُشركًا، ولكنها جُمعت مع الشرك في النهي عنها؛ لعظيم ضررها وخطرها، ولأن الشرك بالله زُورٌ.

﴿٣١﴾ ﴿حُنَفَآءَ﴾ مخلصين ﴿لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ كما يفعل أهل الشرك في قولهم: **«إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ، تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ»**، **أخرجه مسلم عن ابن عباس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ فهو علىٰ خطر عظيم، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢]، وشأنه: ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ﴾ سقط ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ إلىٰ الأرض، ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ وهو في جو السماء تستلبه وتقطعه، ﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ تسقطه الريح العاتية القوية، ﴿فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ بعيد.

❁ بمعنىٰ: أن هذا المثل ضربه الله للمشرك، كحال من تخطفته الطير، أو ألقته الريح في مكان سحيق: أنه يفسد حاله، والمشرك كذلك يفسد حاله ويُلقىٰ في نار جهنم نعوذ بالله منها.

وفي حديث البراء الطويل في قصة القبر: **«وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ، حَتَّىٰ يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، اخْرُجِي إِلَىٰ سَخَطٍ مِنَ اللهِ وَغَضَبٍ»**.

قَالَ: «فَتُفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّىٰ يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَىٰ مَلَإٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّىٰ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّىٰ يُنْتَهَىٰ بِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ، فَلَا يُفْتَحُ لَهُ».

ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] فَيَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: «**اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَىٰ، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا**». **ثُمَّ قَرَأَ:** ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١] » أخرجه أحمد.

(٣٢) ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكِرَ من اجتناب الرجس، وقول الزور، ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ البُدن وأعلام دينه، ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ علامة علىٰ تقوىٰ القلوب وطهارتها.

۞ ويستدل بعمومها علىٰ تعظيم كل شعيرة ومنها رفع المُصحف من الأرض وعدم امتهانه، وتعظيم شأن اللحية، والحجاب، وغير ذلك.

(٣٣) ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ أي: في البُدن والهدي، ﴿مَنَافِعُ﴾ مصالح، يعني: مما يكون من ركوبها والأكل منها واتخاذ جلدها ثوبًا أو بساطًا، ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلىٰ أن يسميها هديًا فلا يستعملها بعد ذلك، وقد رخص رسول الله ﷺ في ركوبها، فعن أبي هريرة في الصحيحين: أن النبي ﷺ قال لرجل: «**ارْكَبْهَا، وَيْلَكَ**»، وفي رواية: «**ارْكَبْهَا بِالْمَعْرُوفِ، إِذَا أُلْجِئْتَ إِلَيْهَا**».

﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ﴾ مكان ذبحها ﴿إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ أي: تُذبح إذا انتهىٰ الإنسان من نُسكِه.

❖ وأما ما ذهب إليه بعض الشافعية: من أنه يجوز ذبح الهدي قبل إتمام النُسك فهذا قول باطل؛ لأن النبي ﷺ إنما ذبح بعد أن رمىٰ جمرة العقبة.

والمراد بالبيت العتيق: الحرم كله؛ لأن النبي ﷺ نحر في مِنىٰ، وقال: «**مِنًى كُلُّهَا مَنْحَرٌ وَفِجَاجُ مَكَّةَ كُلُّهَا مَنْحَرٌ**» أخرجه مسلم عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿٣٤﴾ ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم: وهم جماعة المؤمنين، ﴿جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ عبادة والمقصد منها، ﴿لِيَذْكُرُوا﴾ لينطقوا بـ﴿ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ عند ذبح ما يقدمونه قرابين، ﴿فَإِلَٰهُكُمْ﴾ معبودكم الحق، ﴿إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ وهذا معنىٰ لا إله إلا الله، ﴿فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾ انقادوا وأطيعوا، ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ المتواضعين.

وعن عياض بن حمار قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: **«إِنَّ اللهَ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا، حَتَّىٰ لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَىٰ أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَىٰ أَحَدٍ»** أخرجه مسلم.

﴿٣٥﴾ ومن رحمة الله بعباده أن يفرض عليهم الفريضة ويعينهم عليها، ويأجرهم علىٰ فعلها، والمخبتون هم: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ﴾ بقراءة القرآن ونحوه، ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ خضعت وخشعت ولانت، ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ من المصائب الدنيوية من فقد قريب، أو موت حبيب، أو نقص مال ونحو ذلك، ﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ المفروضة حيث يحافظون عليها في أوقاتها كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة:٢٣٨]، ﴿وَ﴾ من شأنهم أنهم: ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ أعطيناهم، ﴿يُنفِقُونَ﴾ ويتصدقون.

﴿٣٦﴾ ﴿وَٱلْبُدْنَ﴾ جمع بَدَنَة، سُميت بذلك؛ لعظمها وضخامتها، ﴿جَعَلْنَٰهَا﴾ صيرناها ﴿لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ أعلام دينه.

سُميت شعائر؛ لأنها تُشعر، وهو أن تُطعن بحديدة في سنامها، حتىٰ يسلت عنها الدم، فيُعلم أنها هدي، وإشعار البدن قول جمهور العلماء، وخالف أبو حنيفة وزعم أنها مثلة، ويكون الإشعار للإبل والبقر فقط، أما الغنم فلا تشعر لربما لحقها الضرر لصغرها، والله أعلم، وتجزء البدنة والبقرة عن سبعة، ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ نفع الدنيا والآخرة، ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ

عَلَيْهَا﴾ حين ذبحها، ﴿صَوَآفَّ﴾ قائمات صففن أيديهن وأرجلهن، وذلك إذا عُقِلت رجلها اليسرىٰ، وقامت علىٰ ثلاث قوائم، فعَنْ زِيَادِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: رَأَيْتُ ابْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَتَىٰ عَلَىٰ رَجُلٍ قَدْ أَنَاخَ بَدَنَتَهُ يَنْحَرُهَا قَالَ: **«ابْعَثْهَا قِيَامًا مُقَيَّدَةً سُنَّةَ مُحَمَّدٍ** ﷺ» متفق عليه.

﴿فَإِذَا وَجَبَتْ﴾ سقطت، ﴿جُنُوبُهَا﴾ بالأرض بعد نحرها، ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ أمر للإباحة وليس للوجوب، وقد أكل النبي ﷺ من هديه، ﴿وَأَطْعِمُوا﴾ تصدقوا علىٰ ﴿ٱلْقَانِعَ﴾ قيل الجالس في بيته المتعفف، يقنع بما يُعطىٰ ولا يسأل، ﴿وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ الذي يسأل، وقيل: العكس القانع: الذي يسأل، والمعتر: الذي يتعرض ولا يسأل، وهو اختيار ابن جرير.

قال ابن كثير (٥/ ٤٢٩): وَقَدِ احْتَجَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مَنْ ذَهَبَ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَىٰ أَنَّ الْأُضْحِيَّةَ تُجزَّأ ثَلَاثَةَ أَجْزَاءٍ: فَثُلُثٌ لِصَاحِبِهَا يَأْكُلُهُ مِنْهَا، وَثُلُثٌ يُهْدِيهِ لِأَصْحَابِهِ، وَثُلُثٌ يَتَصَدَّقُ بِهِ عَلَىٰ الْفُقَرَاءِ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَىٰ قَالَ: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾.

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لِلنَّاسِ: **«إِنِّي كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنِ ادِّخَارِ لُحُومِ الْأَضَاحِيِّ فَوْقَ ثَلَاثٍ، فَكُلُوا وَادَّخِرُوا مَا بَدَا لَكُمْ»** وَفِي رواية: **«فكلوا وادخروا وتصدقوا»**. وفي رواية: **«فكلوا وأطعموا وتصدقوا»**.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: إِنَّ الْمُضَحِّيَ يَأْكُلُ النِّصْفَ وَيَتَصَدَّقُ بِالنِّصْفِ، لِقَوْلِهِ فِي الْآيَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ [الْحَجِّ: ٢٨]، وَلِقَوْلِهِ فِي الْحَدِيثِ: **«فَكُلُوا وَادَّخِرُوا وَتَصَدَّقُوا»**. اهـ.

وهذا علىٰ الاستحباب لا الوجوب، والله أعلم.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما جعلناها من شعائر الله، ﴿سَخَّرْنَٰهَا﴾ ذللناها ﴿لَكُمْ﴾ أي: سخرنا لكم هذه الدواب والأنعام نعمة منا؛ لتتمكنوا من ركوبها ومن نحرها، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لله عَزَّوَجَلَّ علىٰ ما أعطاكم وأولاكم، وأسدىٰ إليكم.

﴿لَن يَنَالَ﴾ يبلغ ﴿ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ أي: أن لحومها ودماءها لا تصل إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ﴾ يصله ﴿ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ يبلغه العمل الصالح ويُرفع إليه، كما قال تعالىٰ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]، وعن أبي موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: **«يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَىٰ إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»** أخرجه مسلم (١٧٩)،

﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ كرر ذلك؛ لعظيم نعمه ومزيد منته: ﴿لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ تعظموه ﴿عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ علىٰ ما أرشدكم لمعالم دينه ومناسك حجه، ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الموحدين بما لهم من الرفعة عند الرب العظيم، فالله عَزَّوَجَلَّ معهم في الدنيا: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩]، ويرفعهم الدرجات يوم القيامة.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾.

﴿٣٨﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ يصرف الشر عنهم ويكفيهم أعداءهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ﴾ في أمانة الله ﴿كَفُورٍ﴾ لنعمته.

﴿٣٩﴾ ﴿أُذِنَ﴾ رُخص شرعًا ﴿لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾ يقاتلهم الكفار ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ وبغي عليهم وهذه أول آية نزل فيها الأمر بالجهاد، وهو جهاد الدفع لا الطلب، فإن جهاد الطلب كان بعد ذلك كما تقدم في تفسير سورة التوبة، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ﴾ علىٰ الكفار وتمكينه منهم، ﴿لَقَدِيرٌ﴾ لا يُعجزه شيء.

﴿٤٠﴾ وهؤلاء الذين أذِنَ الله لهم بذلك هم: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟﴾ هاجروا وطردوا ﴿مِن دِيَٰرِهِم﴾ مكة ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أخرجوهم بالباطل والظُلم والبغي، ﴿إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ كقوله: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [البروج:٨]، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ بالجهاد وإقامة الحدود التي يقوم بها أهل الإيمان، ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ﴾ أماكن عبادة النصارىٰ: وهي صوامع الرهبان، ﴿وَبِيَعٌ﴾ بيع النصارىٰ وكنائسهم، ﴿وَصَلَوَٰتٌ﴾ قيل: كنائس اليهود، ﴿وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ مساجد المسلمين من أمة محمد ﷺ، فيذكر الله عَزَّوَجَلَّ بالصلاة والعلم ومجالس الذكر والدعاء، فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: **«إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ»** اخرجه مسلم، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ﴾ يمكنن ﴿ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ أي: ينصر دينه ويحافظ علىٰ شرعه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ لا يُغلب ولا يُمانع.

❁ وليس في هذا تقرير لعبادة اليهود والنصارىٰ فهم قد غيروا وبدلوا وأحدثوا.

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قال النبي ﷺ: **«مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»** متفق عليه، ودينهم نُسِخَ بمبعث النبي ﷺ، ولكن المعنىٰ: أن الله عَزَّوَجَلَّ شرع الجهاد لإقامة دينه وإعلاء كلمته، ويسلم كثير من الناس من البغي والفساد.

﴿٤١﴾ والمخبتون هم ﴿ٱلَّذِينَ﴾ من شأنهم، ﴿إِن مَّكَّنَّٰهُمْ﴾ نصرناهم علىٰ عدوهم، ﴿فِى﴾ هذه ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ فملكناهم إياها، ﴿أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة، ﴿وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المكتوبة، ﴿وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ من التوحيد فما دونه، ﴿وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ من الشرك فما دونه، ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: يُرجعون إليه فيجازيهم علىٰ أعمالهم، لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿٤٢﴾ ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ يا محمد، ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ وهو أول رسول إلىٰ أهل الأرض، ﴿وَعَادٌ﴾ أُرسِلَ إليهم هود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وكانوا بأرض الأحقاف، ﴿وَثَمُودُ﴾ أرسل الله عَزَّوَجَلَّ إليهم صالحًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

﴿٤٣﴾ ﴿وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الذين كذبوه وردوا دعوته، وهم أهل كنعان وما إليها، ﴿وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ حيث تجرؤوا عليه، وأرادوا به السوء، وهددوه بالرجم بسدوم من أرض الشام.

﴿٤٤﴾ ﴿وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ﴾ وهم أصحاب الأيكة (الشجرة)، كذبوا وأعرضوا، ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ كذبه فرعون عليه لعائن الله، ﴿فَأَمْلَيْتُ﴾ أمهلت وأخرت العقوبة، ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ إملاءً واختبارًا حتىٰ يُسلط عليهم بعد ذلك، وينتقم منهم الانتقام العظيم، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ أخذ عزيز مقتدر، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ **[هود:١٠٢]**، ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: إنكاري، كيف أنكرت عليهم ما فعلوا من التكذيب بالعذاب والهلاك، يخوف به من يخالف النبي ﷺ.

﴿٤٥﴾ ﴿فَكَأَيِّن﴾ فكم، ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾ أي: من طائفة وجماعة، ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ أُهلكت بسبب كفرها وعنادها، ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أي: وأهلها ظالمون، ﴿فَهِيَ﴾ أصبحت، ﴿خَاوِيَةٌ﴾ ساقطة، ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ قد سقطت سقوفها، وربما كان كناية عن هلاك أهلها، ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ وكم من بئر صارت معطلة من الدِّلَاء وممن يَرِدُهَا، ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ مرفوع البنيان، فصار مُعطلًا لا يُسكن ولا يؤتىٰ إليه، وهذا علىٰ التهديد أن الله عَزَّوَجَلَّ لا يُعجزه أن يدمر علىٰ قريش كما دمر علىٰ من قبلهم من الأمم السالفة الماضية.

﴿٤٦﴾ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: كفار مكة، ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ﴾ عقول؛ لأن القلب فيه العقل، وبين القلب والدماع ارتباط، ﴿يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ أمر الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ الحق وينقادون له، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ فكم من أعمىٰ البصر مُبصر القلب مؤمنًا منقاداً، وكم من مبصر العين أعمىٰ القلب ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ يطبع الله عَزَّوَجَلَّ عليها فيغشاها الرَّان، كما قال تعالىٰ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤].

❁ وبهذا يُعلم أننا بحاجة إلىٰ المحافظة علىٰ قلوبنا أكثر من المحافظة علىٰ مقل العيون؛ لأن القلب إذا فسد فسدت بقية الجوارح.

فعن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: **«أَلَا وَإِنَّ فِي الْإِنْسَانِ مُضْغَةً إِذَا صَلُحَتْ صَلُحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»** متفق عليه.

وعند ابن ماجه من حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: **«كُلُّ مَخْمُومِ الْقَلْبِ، صَدُوقِ اللِّسَانِ»**، قَالُوا: صَدُوقُ اللِّسَانِ، نَعْرِفُهُ، فَمَا مَخْمُومُ الْقَلْبِ؟ قَالَ: **«هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ، لَا إِثْمَ فِيهِ، وَلَا بَغْيَ، وَلَا غِلَّ، وَلَا حَسَدَ»**.

فكفار قريش أعمىٰ الله قلوبهم وكانوا في بصر في أمور الدنيا، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم:٧]، وانظروا إلىٰ الكفار يصنعون الأجهزة الصغيرة في حجمها العظيمة في تركيبها، ومع ذلك لا يُبصرون الهدىٰ والنور الذي جعله الله عَزَّوَجَلَّ موصلًا إليه مؤدٍ إلىٰ مرضاته مبلغًا إلىٰ جنته، والله المستعان.

❁ **فهؤلاء كما قال الشيخ ابن عثيمين**: إذا نظرنا إليهم بالقدر الشرعي أبغضناهم، وإذا نظرنا إليهم بالقدر الكوني رحمناهم حيث أنهم لم يوفقوا للهداية والسداد والصلاح، فمآلهم أنهم حطب: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [ص:٥٦]، والله المستعان.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿٤٧﴾ ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ أي: الكفار، ﴿بِالْعَذَابِ﴾ وهو قولهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال:٣٢]، وقوله: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢﴾ [المعارج:١-٢]، وقوله: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾ [النبأ:١-٥]، ﴿وَلَن يُخْلِفَ﴾ يؤخر ﴿ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ في بعثهم ومجازاتهم، ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ قال ابن عباس: يعني يوم من الأيام الستة التي خلق الله فيها السماوات والأرض، وقال مجاهد وعكرمة: يومًا من أيام الآخرة.

﴿٤٨﴾ ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ أي: وكم من قرية، ﴿أَمْلَيْتُ لَهَا﴾ أمهلتها، ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ بالكفر والمعاصي، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ أهلكتها ودمرت عليها، ﴿وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع والمآب فيجازي المحسن بإحسانه، والكافر بإساءته.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾.

﴿٤٩﴾ ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ مخوف من بطش الله وغضبه، ﴿مُبِينٌ﴾ مبين أحكام الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿٥٠﴾ ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ منكم، ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ ستر وتجاوز، ﴿وَرِزْقٌ﴾ عطاء في الجنة، ﴿كَرِيمٌ﴾ واسع لا ينقطع أبدًا.

﴿٥١﴾ ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا﴾ عملوا في إبطال آياتنا الشرعية، ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ مُثَبِّطِينَ الناس عن الإيمان، وقيل: معاندين شاقين ظانين أنهم يعجزون الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿أُولَٰئِكَ﴾ جزاؤهم أنهم ﴿أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ النار الموقدة.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ٥٣ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٤ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٖ ٥٥﴾.

٥٢ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ﴾ يا محمد، ﴿مِن رَّسُولٖ﴾ في الأمم الخاليات، ﴿وَلَا نَبِيٍّ﴾ في الأمم السالفات، ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ قرأ ما أُوحي إليه، ﴿أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ يعني: تكلم الشيطان ببعض الكلام، فيظن الظَّان أنَّه كلام النبي والرسول، فيفتن الناس بهذا الكلام؛ لكن الله عَزَّوَجَلَّ يُحكم آياته، ويذهب ما يلقي الشيطان، ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ يُذهِبه ويمحوه، ﴿ثُمَّ يُحۡكِمُ﴾ يُثبتُ ويبين ويجلي ويوضح ﴿ٱللَّهُ﴾ عَزَّوَجَلَّ ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ فلا يدخلها التحريف ولا التغيير، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ لا تخفىٰ عليه خافية، ﴿حَكِيمٞ﴾ في أفعاله.

❁ **وقد اختلف أهلُ العلم كثيرًا، والمذاهب فيه متنوعة:**

١- المذهب الأول:

قول من قال: إنه لا فرق بين الرسول والنبي؛ فكل نبيٍّ رسولٌ، وكل رسولٍ نبيٌّ.

٢- المذهب الثاني:

أن النبي والرسول بينهما فرق، وهو أن النبيَّ أدنىٰ مرتبةً من الرسول؛ فكل رسولٍ نبيٌّ، وليس كلُّ نبي رسولاً.

٣- المذهب الثالث:

أن النبي أرفعُ من الرسول، وهو قول غلاة الصوفية، وأن الرسول دون النبي.

فأما الأول: فقال به طائفةٌ قليلة من أهل العلم من المتقدمين ومن المتأخرين، ومنهم من يُنسب إلىٰ السنة.

والثاني: من أن كل رسول نبيٌّ، وليس كل نبي رسولاً؛ قول جمهور أهل العلم وعامة أهل السنَّة؛ وذلك لأدلة كثيرة منها هذه الآية حيث عطف النبي علىٰ الرسول بالواو الدالة

علىٰ المغايرة **قال شيخ الإسلام ابن تيمية**: "النبي: هو الذي يُنبئه الله، وهو ينبئ بما أنبأ الله به، فإن أُرسل مع ذلك إلىٰ من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه؛ فهو رسول، وأما إذا كان إنما يعمل بالشريعة قبله، ولم يرسل هو إلىٰ أحد يبلغه عن الله رسالته؛ فهو نبي وليس برسول، قال - تعالىٰ -: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ **[الحج: ٥٢]** فذكر إرسالاً يعم النوعين، وقد خص أحدهما بأنه رسول، فإن هذا هو الرسول المطلق، الذي أمره بتبليغ رسالته إلىٰ من خالف اللهَ؛ كنوح، وقد ثبت في الصحيح أنه أول رسول بُعث إلىٰ أهل الأرض، وقد كان قبله أنبياء كشيث وإدريس، وقبلهما آدم كان نبيًّا مكلَّمًا" **انتهىٰ من كتاب النبوات (٢٨١)**

والخلاصة -إن شاء الله -: أن الرسل هم: الذين يرسلون إلىٰ أمة كافرة، يؤمن به بعضُهم ويكفر بعضهم.

والأنبياء: هم الذين يوحىٰ إليهم، ويرسَلون إلىٰ المؤمنين خاصة، ويكلَّفون بالعمل بشريعةٍ سابقة وهم في أممهم كالعلماء في أمتنا والله أعلم.

❁ **وهنا تنبيه**: وهو أن ما يذكره بعض أهل العلم أن النبي لم يؤمر بالتبليغ غير صحيح فقد أمر الله العلماء بذلك وهم دونهم، والله أعلم.

❖ وقد جاء في تفسير سورة النجم عن جمع من المفسرين أن النبي ﷺ بينما هو يُصلي ويقرأ سورة النجم، وكان من قوله: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ٢٠﴾ **[النجم:١٩-٢٠]**، ألقىٰ الشيطان علىٰ لسانه: تلك الغرانيق العُلىٰ، وإن شفاعتهن لَتُرتَجىٰ.

فلما سمعت قريش ذلك فرحوا به ومضىٰ رسول الله ﷺ في قراءته فقرأ السورة كلها وسجد في آخر السورة، فسجد المسلمون بسجوده، وسجد جميع من في المسجد من المشركين، فلم يبقَ في المسجد مؤمن ولا كافر إلا سجد إلا الوليد بن المغيرة وأبو سعيد بن العاص فإنهما أخذا حفنة من البطحاء ورفعاها إلىٰ جبهتيهما وسجدا عليها وقالا: يكفي هذا.

وهذه القصة ضعفها بعض أهل العلم كالشيخ الألباني رحمه الله، وألف كتابًا بعنوان: "نصب المجانيق في هدم قصة الغرانيق"، وبعض أهل العلم يثبتها؛ لكن ليس كما جاء في

هذه المرسلات، بل قالوا: الشيطان تكلم، ولم يتكلم النبي ﷺ، فظن الظان أنه كلام النبي ﷺ، فلما كان بعد ذلك نسخ الله ما يُلقي الشيطان، وأحكم الله آيات الرحمن سبحانه وتعالىٰ.

٥٣ والسبب في هذا الإلقاء ﴿لِيَجْعَلَ﴾ الله ﴿مَا يُلْقِي﴾ يطرحه ﴿ٱلشَّيْطَانُ فِتْنَةً﴾ من القول اختباراً، ومحنة، وبَلِيَّة، وشكًا، ونفاقًا ﴿لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ من الكافرين، ﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ الجافية قلوبهم عن قبول الحق، ﴿وَإِنَّ ٱلظَّالِمِينَ﴾ الكافرين، ﴿لَفِي شِقَاقٍ﴾ خلاف، ﴿بَعِيدٍ﴾ شديد، وهذا كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة:١٢٤-١٢٥].

فوساوس الشيطان تَنْفُقُ علىٰ أهل الخذلان، وآيات الرحمن ينتفع بها أهل الإيمان، فالمؤمنون عندهم: اللات، والعزىٰ، ومناة وغير ذلك أصنام وأوثان، لا يؤثر فيهم مثل هذا الكلام الذي أُطلِق؛ لأنه يخالف الكتاب والسنة، بينما الكفار ظنوه نصرة لدينهم، حتىٰ أُشيع: أن قريشًا أسلمت ورجع من الحبشة أُناس بسبب هذه الواقعة، فلما رجعوا إلىٰ مكة وإذا بهم يُعذبون.

٥٤ ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ التوحيد والقرآن، ﴿أَنَّهُ﴾ أي: الآيات المُحكمات، ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ لا يُداخله شك ولا ريب، كما قال تعالىٰ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢]، ﴿فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ﴾ ينقادوا له ويعتقدونه، ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ﴾ تسكن وتطمئن وتهدأ، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ﴾ موفق، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ وعملوا الصالحات، ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ﴾ طريق: ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾ قويم لا اعوجاج فيه ولا انحراف وهو الإسلام الحق، وقد قال حذيفة: **«يَا مَعْشَرَ الْقُرَّاءِ اسْتَقِيمُوا، فَقَدْ سَبَقْتُمْ سَبْقًا بَعِيدًا، فَإِنْ أَخَذْتُمْ يَمِينًا وَشِمَالًا لَقَدْ ضَلَلْتُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا»** أخرجه البخاري.

٥٥ ﴿وَلَا يَزَالُ﴾ بل يستمر ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ﴾ في شك، ﴿مِّنْهُ﴾ من القرآن وبعث محمد ﷺ، ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ ساعة موتهم، ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة، ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ﴾ شديد في ﴿يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ قيل اليوم العقيم يوم بدر، وسُميَّ عقيمًا؛ لأنه لم يكن في ذلك اليوم للكفار خير، كالريح العقيم التي لا تأتي بخير، والعقم في اللغة: المنع، يُقال رجل عقيم: إذا مُنِعَ من الولد، وقيل يوم القيامة.

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿٥٦﴾ ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة، ﴿لِلَّهِ﴾ وحده، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: **«يقول الله عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ»** متفق عليه، وهذا كقوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦]، ﴿يَحْكُمُ﴾ يفصل ﴿بَيْنَهُمْ﴾ بالحق، ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ مآلهم أنهم: ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ يتنعمون مما يشاؤون.

﴿٥٧﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أعرضوا وجحدوا، ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الشرعية: القرآن والسنة، ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ﴾ في النار، ﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ موجع يُهانون فيه.

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ذَٰلِكَ ۖ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۚ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿٥٨﴾ ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ تركوا أوطانهم إلىٰ غيرها، ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ من أجل الله عَزَّوَجَلَّ وإعلاء كلمته، ﴿ثُمَّ قُتِلُوا﴾ في حال هجرتهم، ﴿أَوْ مَاتُوا﴾ موتًا بغير قتل، ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ﴾ ليعطينهم ﴿اللَّهُ﴾ في الآخرة، ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ واسعًا في الجنة، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ خير المُعطين، إذ أن عطاءه لا يُقطع ولا يُمنع، وهذا كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩].

﴿٥٩﴾ ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم﴾ الله عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة، ﴿مُدْخَلًا﴾ منزلًا ومكانًا ﴿يَرْضَوْنَهُ﴾ يرضيهم الله به، وفي حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: في قصة أصحاب بئر معونة: **«بَلِّغْ عَنَّا أَنَّا قَدْ لَقِينَاكَ فَرَضِيتَ عَنَّا، وَرَضِينَا عَنْكَ»** أخرجه البخاري، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ بنياتهم، ﴿حَلِيمٌ﴾ عنهم.

٦٠ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكِر لك من حال المؤمنين والكافرين، ﴿وَمَنْ عَاقَبَ﴾ انتقم، ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ بمثل ما فُعِل به، ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ﴾ بغىٰ عليه الظالم وتجاوز، ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ نصرًا عزيزًا، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ﴾ متجاوز عن المؤمنين، ﴿غَفُورٌ﴾ ساتر لهم.

❁ **وبهذا تعلم أن المغلوب سينتصر**، كما نادىٰ نوح ربه: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر:١٠]، وأن العاقبة للتقوىٰ، وإن حصل ما حصل، ويجوز للإنسان حين تمكنه من عدوه أن ينتصر بقدر المظلمة، ولا يُجاوز ذلك علىٰ ما يأتي في تفسير سورة الشورىٰ إن شاء الله.

٦١ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: من الأدلة علىٰ وحدانية الله عَزَّوَجَلَّ ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ﴾ يدخل ﴿ٱللَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ﴾ يدخل ﴿ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ﴾ لأقوالهم، ﴿بَصِيرٌ﴾ بأفعالهم.

٦٢ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ الصدق الثابت، ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ من الأصنام والأوثان، ﴿هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ الذاهب، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ علىٰ عرشه، العلي في صفاته، العلي في أفعاله، ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ العظيم الواسع.

❁ **وهذه الآية يُستدل بها علىٰ علو الله عَزَّوَجَلَّ المُطلق**: علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر، خلافًا لأهل البدع الذين يثبتون علو القدر والقهر فقط.

❁ وهذه الآية فيها معنىٰ لا إله إلا الله وأنه: لا معبود بحق إلا الله.

٦٣ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ السحاب ﴿مَآءً﴾ مطرًا، ﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ﴾ اليابسة ﴿مُخْضَرَّةً﴾ يانعة مزهرة بعد ذلك، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ بعباده، ﴿خَبِيرٌ﴾ عليم بأفعالهم.

❁ واللطف قد يأتي بمعنىٰ: أنه يرزقهم ويُعطيهم ويحفظهم، ويأتي بمعنىٰ: أنه قد أحاط بهم علمًا.

٦٤ ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ عبيدًا ومُلكًا، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ عن عباده، ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المحمود بأسمائه وصفاته وعلىٰ أفعاله، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٦ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر:١٥-١٧].

٦٥ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أباحه لكم، كما قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩]، ﴿وَٱلْفُلْكَ﴾ أي: سخر لكم السفن، ﴿تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ إن شاء أمسكها بإمساك الريح، وإن شاء حركها، ومن عظيم شأنه تعالىٰ،

﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: لكيلا تقع علىٰ الأرض: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ﴾ بالمؤمنين، ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ شديد الرحمة بهم، حيث رحمهم ووفقهم وسددهم.

﴿٦٦﴾ ﴿وَهُوَ﴾ تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ﴾ بعد العدم، وأنشأكم قبل أن لم تكونوا شيئًا، ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ الموتة الأولىٰ، ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ للبعث والنشور، فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَانَ﴾ أي: جنس الإنسان: ﴿لَكَفُورٌ﴾ لنعم الله عَزَّوَجَلَّ، إلا من رحم الله عَزَّوَجَلَّ من المؤمنين.

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿٦٧﴾ ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ طائفة، ﴿جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ شريعة يسيرون عليها، ويأخذون بها، ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ سائرون عليه ومتمسكين به، وقد يُراد بـ(المنسك) ما هو أخص من ذلك: وهو الحج والعمرة، وقد يُراد بـالنُسك: الذبيحة، ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ﴾ يُجادلونك ويخاصمونك، ﴿فِى الْأَمْرِ﴾ الذي أُوحي إليك، ﴿وَادْعُ إِلَىٰ﴾ سبيل ﴿رَبِّكَ﴾ إلىٰ دينه وشريعته، ﴿إِنَّكَ﴾ يا محمد: ﴿لَعَلَىٰ هُدًى﴾ طريق وعلم، ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾ لا اعوجاج فيه، ولا انحراف.

﴿٦٨﴾ ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾ خاصموك، ﴿فَقُلِ﴾ لهم: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وهذا علىٰ التهديد أي: أنه مطلع عليكم، وعلىٰ أعمالكم، لا تخفىٰ عليه خافية، وسيجازيهم عليها.

﴿٦٩﴾ ﴿اللَّهُ يَحْكُمُ﴾ يفصل، ﴿بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يوم الجزاء والحساب، ﴿فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ فتعرفون حينئذٍ الحق من الباطل، والمحق من المُبطل ولات ساعة مندم.

﴿٧٠﴾ ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ يا محمد ومن إليك من المسلمين والمؤمنين: ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ لا تخفىٰ عليه خافية، وإن دقت، ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِى كِتَابٍ﴾ اللوح المحفوظ قد كتبها قبل وقوعها.

كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قال رسول الله ﷺ: «كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَعَرْشُهُ عَلَىٰ الْمَاءِ» أخرجه مسلم، وفي حديث عبادة قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ مِنْ شَيْءِ الْقَلَمَ، فَقَالَ: اكْتُبْ. فَقَالَ: يَا رَبِّ، وَمَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبِ الْقَدَرَ. فَجَرَىٰ بِمَا هُوَ كَائِنٌ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ إِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ» أخرجه أبو داود.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ هَيِّن، فعلمه محيط بكل شيء لا يُعجزه شيء، ولا يُكرثه شيء.

(٧١) ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ أي: الكفار، ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأصنام والأوثان، ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ حجةً وبرهانًا، ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ وحالهم ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النجم:٢٣]، ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ للمشركين، ﴿مِن نَّصِيرٍ﴾ من مانع يمنعهم من عذاب الله وبطشه وغضبه.

(٧٢) ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا﴾ الشرعية، ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحات جليات، ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ﴾ تتغير وجوههم، كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر:٤٥]، ﴿يَكَادُونَ﴾ لشدة غيظهم وحسدهم وحقدهم: ﴿يَسْطُونَ﴾ يبطشون، ﴿بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ﴾ يقرؤون ﴿عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا﴾ من المؤمنين الموحدين، ويدخل فيه محمدٌ ﷺ ابتداءً، ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم﴾ أُخبركم، ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ﴾ الحال الذي أنتم فيه ﴿ٱلنَّارُ﴾ تدخلونها يوم القيامة، ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أُعدت للكافرين، ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ مصيرهم، والمُكث مكثهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾.

(٧٣) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ نداء لجميع الناس حتىٰ يتعظوا وينزجروا عن باطلهم، ﴿ضُرِبَ﴾ ضرب الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ حتىٰ تعلموا فساد ما أنتم عليه من عبادة الأصنام والأوثان، ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ تعبدون ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ من الأصنام والأوثان، ﴿لَن يَخْلُقُوا﴾

يُوجِدوا: ﴿ذُبَابًا﴾ مع صُغر حجمه، ﴿وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ العابد والمعبود، ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ﴾ يأخذ عليهم ﴿ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا﴾ وإن دَقَّ ﴿لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ لا يخلصونه منه، ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ﴾ وهو الصنم، أو العابد للصنم، ﴿وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ وهو الذباب.

فقد كانوا يضعون الطعام أمام أصنامهم، فيأتي الذباب فيقع علىٰ ذلك الطعام، وربما أكل منه والأصنام عاجزة علىٰ استنقاذ ما أُخذ منها، أو أنه علىٰ معنىٰ: أن الذباب إن أخذ شيئًا سرعان ما يُستحال في فيه، فيعجز الناس عن إدراك ما أخذ، **والتفسير الأول أصوب**.

٧٤ وهم بصرفهم العبادة لغير الله عَزَّوَجَلَّ ﴿مَا قَدَرُوا۟﴾ ما عظَّموا ﴿ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ حق تعظيمه، وما عرفوه حق معرفته، ولا وصفوه حق صفته، إذ أشركوا به ما لا يمتنع من الذباب، ولا ينتصف منه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ﴾ لا يُعجزه شيء، ﴿عَزِيزٌ﴾ منيع لا يغلبه شيء.

٧٥ ﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالىٰ: ﴿يَصْطَفِى﴾ يختار: ﴿مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ يرسلهم لشأن العالم منهم المسخر للمطر، ومنهم من يُسخر للجبال، ومنهم غير ذلك، وأشرفهم: جبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ يُرسل أيضًا رسلًا، للدعوة إلىٰ التوحيد وأشرفهم محمد ﷺ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ﴾ لأقوال عباده، ﴿بَصِيرٌ﴾ بأفعالهم لا تخفىٰ عليه خافية.

٧٦ ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ما يكون أمامهم، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: ما يقع بعد فنائهم، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ في تدبيرها وتيسيرها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ ۖ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾.

٧٧ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ نداء من الله عَزَّوَجَلَّ للمؤمنين الموحدين المنيبين المخبتين، ﴿ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟﴾ صلوا، وذكر الركوع والسجود؛ لأنهما أشرف أركان الصلاة، ﴿وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ وحدوه وأفردوه بما يجب له في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ﴾ عام من صلة الأرحام، ومكارم الأخلاق، والبذل والعطاء، والصدق،

والأمانة وغيرها، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ بنيل المطلوب، والبُعد عن المرهوب، وأعظم الفلاح الفوز بالجنة والنجاة من النار.

وما جاء عن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفُضِّلَتْ سُورَةُ الْحَجِّ عَلَىٰ سَائِرِ الْقُرْآنِ بِسَجْدَتَيْنِ؟ قَالَ: **«نَعَمْ، فَمَنْ لَمْ يَسْجُدْهُمَا، فَلَا يَقْرَأْهُمَا»** أخرجه أحمد.

فهو حديث لا يثبت من طريق عبد الله بن لهيعة وغيره، وهو ضعيف.

﴿٧٨﴾ ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ﴾ في سبيله لإعلاء كلمته، والمراد به جهاد السنان، وهو غزو الكفار ومدافعتهم، ﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ بأن تبذلوا الأرواح والمُهج والأموال، وهي كقوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟﴾ [التغابن:١٦]، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦].

وكما هو تفسير قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

وقد قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩].

ويدخل في مسمىٰ الجهاد، جهاد النفس، وجهاد الشيطان، وجهاد المنافقين، وجهاد الكفار، ولا يقع أي نوع منها إلا بجهاد النفس، ففي حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال النبي ﷺ: **«الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ لِلَّهِ** عَزَّوَجَلَّ**»** أخرجه أحمد.

﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ اختاركم واصطفاكم، وفي هذا فضيلة لأمه محمد ﷺ، وقد تقدم شيء من ذلك في تفسير سورة آل عمران، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ بل الدين دين يُسر، فقد خفف الله عَزَّوَجَلَّ الكثير من الأحكام علىٰ المسلمين، وفي حديث أبي موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الصحيحين قال رسول الله ﷺ: **«يَسِّرَا وَلاَ تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلاَ تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا وَلاَ تَخْتَلِفَا»**، وكما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة:٦].

وعن أسامة بن شريك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: **«عِبَادَ اللهِ، إِنَّ اللهَ وَضَعَ الْحَرَجَ»**. أخرجه أبو داود.

وعن أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: **«إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْحَنِيفِيَّةُ الْمُسْلِمَةُ لَا الْيَهُودِيَّةُ وَلَا النَّصْرَانِيَّةُ وَلَا الْمَجُوسِيَّةُ»** أخرجه الترمذي.

وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: **«إِنَّ هَذَا الدِّينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوَاحِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ»** أخرجه البخاري.

والزموا ﴿مِّلَّةَ﴾ طريقة ودين: ﴿أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أبو الأنبياء بعده، ﴿هُوَ﴾ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقيل: الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ المستسلمين لله بالتوحيد والمنقادين له بالطاعة، ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل وجودكم وفي زمنه، ومع ذلك قد وجِدَ أن لفظ الإسلام قيل في نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٧٢].

فالإسلام بمعناه العام: هو الدين الذي أنزله الله علىٰ رسله، وبمعناه الخاص: هو الدين الذي جاء به محمد ﷺ، نُسخت به الأديان.

وقد يستدل بعضهم بهذه الآية علىٰ عدم جواز التسمية بـ(السلفية)، أو (أهل السنة)، و(الحديث والأثر)، أو (الجماعة)، أو بـ(الطائفة المنصورة) أو (الفرقة الناجية)، وغير ذلك من المسميات الشرعية، ولا دلالة فيه، فإن السلفيين ومن إليهم هم أهل الإسلام الخالص الذين لم يلوثوا عقائدهم ولم تلوث عباداتهم بما ليس من دين الله عَزَّوَجَلَّ، ومذهبهم معصوم.

﴿وَفِي هَٰذَا﴾ أي: القرآن، ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ﴾ محمدٌ ﷺ ﴿شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ علىٰ أعمالكم يوم القيامة، كما قال تعالىٰ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾[النساء: ٤١]، ﴿وَتَكُونُوا﴾ يا أمة محمد ﷺ ﴿شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ يوم القيامة.

وفي حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله: ﷺ **«يقول الله عَزَّوَجَلَّ لقوم نوح: هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُقَالُ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مَا أَتَانَا مِنْ نَذِيرٍ، فَيَقُولُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَتَشْهَدُونَ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ»**، فَذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ **[البقرة: ١٤٣] أخرجه البخاري.**

﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ المكتوبة، ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ المفروضة، ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾ بكتابه وبسنة رسوله ﷺ، ويستلزم ذلك: البعد عن البدعة، ﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾ ناصركم ومعينكم ومسددكم، ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ وليكم، ﴿وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ ناصركم، وما سواه فمقطوع مهزوم.

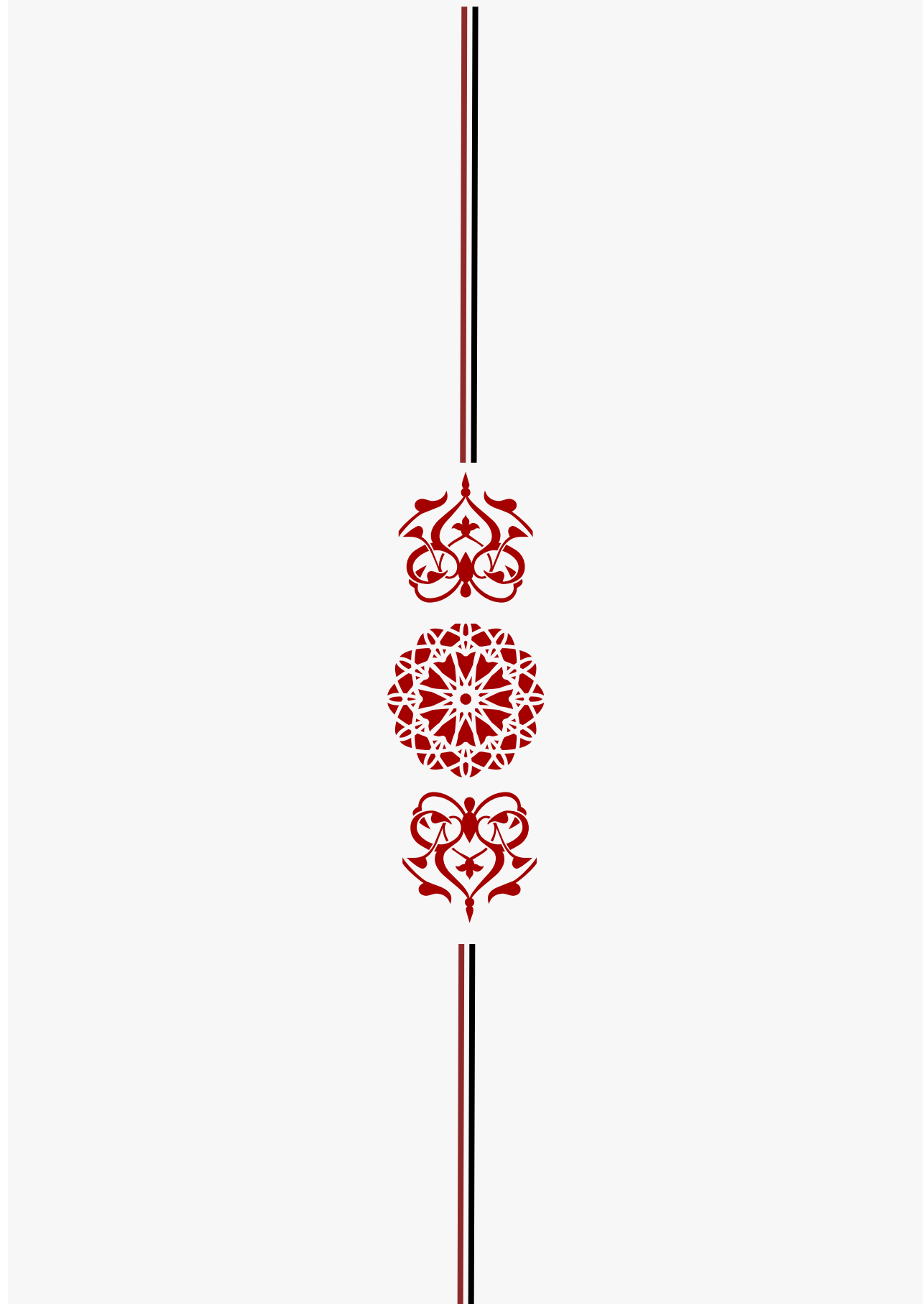
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

تم تفسير سورة الحج



تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ





الجزء الثامن عشر

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

مَكِّيَّةٌ، وآياتها مِائَةٌ وَثَمَانِيَةَ عَشَرَ.

وفي صحيح البخاري: عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ السَّائِبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: **«صَلَّى لَنَا النَّبِيُّ ﷺ: الصُّبْحَ بِمَكَّةَ فَاسْتَفْتَحَ سُورَةَ الْمُؤْمِنِينَ حَتَّى جَاءَ ذِكْرُ مُوسَى، وَهَارُونَ أَوْ ذِكْرُ عِيسَى أَوِ اخْتَلَفُوا عَلَيْهِ أَخَذَتِ النَّبِيَّ ﷺ سَعْلَةٌ فَرَكَعَ»**.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝١١﴾.

﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ حرف تأكيد للفلاح الذي حصل لهم بنيل المطلوب، والسلامة من المرهوب، ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ المنقادون لله عَزَّوَجَلَّ ظاهرًا وباطنًا.

وهم ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ خشوع القلب والبدن.

والخشوع قريب من الخضوع، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [طه:١٠٨]، وفي حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الِالْتِفَاتِ فِي الصَّلَاةِ؟، فَقَالَ: **«هُوَ اخْتِلَاسٌ يَخْتَلِسُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ صَلَاةِ الْعَبْدِ»** أخرجه البخاري.

وعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ: **«لَا يَزَالُ اللهُ مُقْبِلًا عَلَى الْعَبْدِ فِي صَلَاتِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ، فَإِذَا صَرَفَ وَجْهَهُ انْصَرَفَ عَنْهُ»** أخرجه النسائي.

وقد امتدح الله عَزَّوَجَلَّ المحافظين على الصلاة، وامتدح الخاشعين فيها، وأنكر النبي ﷺ على قوم يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة، فقال: **«لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ يَرْفَعُونَ أَبْصَارَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ فِي الصَّلَاةِ، أَوْ لَا تَرْجِعُ إِلَيْهِمْ»** أخرجه مسلم.

وفي مسلم عن جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رأى النبي ﷺ قومًا يحركون أيديهم عند السلام فقال: **«مَا لِي أَرَاكُمْ رَافِعِي أَيْدِيكُمْ كَأَنَّهَا أَذْنَابُ خَيْلٍ شُمْسٍ؟ اسْكُنُوا فِي الصَّلَاةِ»**، وعن

عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «**خَمْسُ صَلَوَاتٍ افْتَرَضَهُنَّ اللهُ عَلَىٰ عِبَادِهِ مَنْ أَحْسَنَ وُضُوءَهُنَّ وَصَلَّاهُنَّ لِوَقْتِهِنَّ، فَأَتَمَّ رُكُوعَهُنَّ وَسُجُودَهُنَّ وَخُشُوعَهُنَّ كَانَ لَهُ عِنْدَ اللهِ عَهْدٌ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ، وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ فَلَيْسَ لَهُ عِنْدَ اللهِ عَهْدٌ إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ**» أخرجه أحمد.

٣ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ﴾ الباطل واللهو، وما لا يحل من القول والفعل ﴿مُعۡرِضُونَ﴾ لا يقربونه، وأُسُّه الشرك، فكل مخالفة للكتاب والسنة ينبغي أن يُعرض عنها المؤمنون، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾ [الفرقان:٧٢].

٤ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ﴾ المفروضة، ﴿فَٰعِلُونَ﴾ مؤدون.

٥ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ﴾ من فاحشة الزنا واللواط، والسحاق، وكالعادة السرية ونحوها.

٦ ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ﴾ زوجاتهم، ﴿أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ الإماء، فإن ذلك مُباح لهم أن يستمتعوا بفروجهن، وهذا في حق الرجال، أما المرأة، فلا يجوز لها أن تستمتع بملك يمينها، وإن أرادت أن تتزوجه فلا بد من عتقه قبل ذلك، فإذا أكتفوا بذلك ﴿فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾ معابين علىٰ ما صنعوا، ما لم يأتِ في الدبر، أو في حال الحيض والنفاس.

٧ ﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ﴾ التمس ﴿وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ أي: سوىٰ الأزواج، والولائد المملوكة، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾ الظالمون المتجاوزون: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ﴾ [الطلاق:١].

٨ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ﴾ وجاء علىٰ الإفراد: ﴿لأمانتهم﴾ وهو بمعناه؛ لأن المفرد يَعُمْ، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء:٥٨]، وأول مبدأ الدعوة الدعوة إلىٰ الأمانة، كما في حديث أبي سفيان: «**وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ**»، وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «**أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَىٰ مَنْ ائْتَمَنَكَ، وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ**» أخرجه أبو داود، ﴿وَعَهۡدِهِمۡ﴾ عهودهم ومواثيقهم وإيمانهم، ﴿رَٰعُونَ﴾ حافظون فلا ينقضونها.

٩ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ﴾ وفي قراءة: ﴿صلاتهم﴾، ﴿يُحَافِظُونَ﴾ يُداومون ويرعون أوقاتها، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ [النساء:١٠٣]، وقال:

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾[البقرة:٢٣٨]، وكرر الصلاة؛ ليُبين أن المحافظة عليها واجبٌ كما أن الخشوع فيها واجب.

(١٠) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين تقدم وصفهم: ﴿هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ يرثون الجنة أو يرثون منازل أهل النار التي في الجنة، ففي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا لَهُ مَنْزِلَانِ، مَنْزِلٌ فِي الْجَنَّةِ ، وَمَنْزِلٌ فِي النَّارِ، فَإِذَا مَاتَ فَدَخَلَ النَّارَ، وَرِثَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنْزِلَهُ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ:** ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ [المؤمنون:١٠]» أخرجه ابن ماجه.

(١١) ﴿ٱلَّذِينَ﴾من شأنهم أنهم: ﴿يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ أعلىٰ الجنة، ففي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَسَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ، وَأَعْلَىٰ الجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ**» أخرجه البخاري.

﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا يموتون ولا يُخرجون، وقد صح عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بسند صحيح: «**إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ خَلَقَ ثَلَاثَةَ أَشْيَاءَ بِيَدِهِ: خَلَقَ آدَمَ ﷺ بِيَدِهِ، وَكَتَبَ التَّوْرَاةَ بِيَدِهِ، وَغَرَسَ الْفِرْدَوْسَ بِيَدِهِ**»، وفي حديث المغيرة بن شعبة قال رسول الله ﷺ: «**أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ**» أخرجه مسلم.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾.

(١٢) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ السلالة صفوة الشيء، فهو صفوة الماء، وصفوة الطين، بحيث أنه قد صُفيَّ ونُقيّ.

(١٣) ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ﴾صيرناه﴿نُطْفَةً﴾ خلق بقية أبناء آدم من نطفة وهي اختلاط ماء الرجل بماء المرأة فيكون مشيج كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان:٢]، ﴿فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ الرحم، وكم تقوم المرأة، وتقعد، وتذهب، وتأتي وربما تسقط، وتمرض وابنها في بطنها مصان إذا أراد الله عَزَّوَجَلَّ إمساكه، بل ربما تنقلب في سيارة وابنها محفوظ فهو قرار

مكين، وهذا من دلائل قدرة الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال تعالىٰ ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ [الزمر:٦].

١٤ ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ النطفة التي هي المَنِيّ تتحول إلىٰ علقة: وهي قطعة دم صغيرة، ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ قطعة من اللحم لا عظام فيها، ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾ دليل علىٰ أن العظم يتكون قبل اللحم، ﴿فَكَسَوْنَا﴾ ألبسنا ﴿ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ يغطي به العظم وفيه العصب، ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ﴾ خلقناه وصيرناه ﴿خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ ذكر أو أنثىٰ، وقيل: نفخ الروح فيه، وقيل: أنه استوىٰ إلىٰ الشباب ومنه إلىٰ الكهولة والشيخوخة بعد خروجه من بطن أمه.

وفي حديث ابن مسعود في الصحيحين قال رسول الله ﷺ: **«إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ إِلَيْهِ مَلَكًا بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، فَيُكْتَبُ عَمَلُهُ، وَأَجَلُهُ، وَرِزْقُهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ، فَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيَدْخُلُ الجَنَّةَ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ، حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُ النَّارَ»**.

﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ﴾ تعالىٰ وتعاظم وتقدس ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ المصورين، والموجدين من العدم.

١٥ ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ بعد هذه الحياة: ﴿لَمَيِّتُونَ﴾ تُقبض أرواحكم، فتنقلبون إلىٰ الحياة البرزخية كما قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر:٤٢].

١٦ ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ تُخرجون من قبوركم، وتجازون علىٰ أعمالكم.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

١٧ ﴿وَ﴾ مما يدل علىٰ عظيم قدرة الله أيضًا ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ سبع سماوات، سُميت طرائق؛ لتطارقها كل واحدة فوق الأخرىٰ، ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ بل كنا لهم

حافظين فلا تسقط السماء علىٰ الأرض، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج:٦٥].

١٨ ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ السحاب ﴿مَآءً﴾ مطرًا، ﴿بِقَدَرٍ﴾ مقدر لا زيادة فيه ولا نقصان، ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ﴾ حفظناه ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وذلك ما يبقىٰ من الماء الذي يسيل في الوديان، ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ﴾ بالماء ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾ بحيث يصير غورًا لا يستطيعون الوصول إليه، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾[الملك:٣٠].

١٩ ﴿فَأَنشَأْنَا﴾ خلقنا وأوجدنا ﴿لَكُم بِهِۦ﴾ أي: بالماء، ﴿جَنَّٰتٍ﴾ بَسَاتِين عظيمة بعضها: ﴿مِّن نَّخِيلٍ﴾ وهو النخل المعروف، ﴿وَ﴾ بعضها من: ﴿أَعْنَابٍ﴾ وهي: الكُرُوم، ﴿لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ﴾ جمع فاكهة، ﴿كَثِيرَةٌ﴾ وألوان مختلفة، ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ بل وربما تدَّخرون، وخَصَّ النخل والأعناب بالذكر؛ لأنها أكثر فواكه العرب.

٢٠ ﴿وَشَجَرَةً﴾ أي: وأنشأ لكم شجرة وهي الزيتون ﴿تَخْرُجُ مِن طُورِ﴾ جبل ﴿سَيْنَآءَ﴾ في شمال مصر، و(الطور): هو الجبل الذي يعلوه الشجر، ﴿تَنۢبُتُ﴾ هذه الشجرة: ﴿بِٱلدُّهْنِ﴾ وهو ما فيها من الزيت، ﴿وَصِبْغٍ﴾ إِدَام ﴿لِّلْءَاكِلِينَ﴾ يأتدمون به، وهو من أجمل أنواع الزيوت التي توضع في الأطعمة.

وفي الترمذي (١٨٥١) عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «**كلوا الزيت وادهنوا به، فإنه من شجرة مباركة**» **وهو مخرج في الصحيحة (٤٤٩٨)**.

٢١ ﴿وَإِنَّ لَكُمْ﴾ مع هذه النعم الكثيرة، ﴿فِى ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ الإبل والبقر والغنم ﴿لَعِبْرَةً﴾ آية تعتبرون بها، ﴿نُّسْقِيكُم﴾ نشربكم: ﴿مِّمَّا فِى بُطُونِهَا﴾ من اللبن، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ مصالح، ﴿كَثِيرَةٌ﴾ من الركوب، وأخذ الصوف ونحوه كما تقدم في سورة النحل، ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أنتم وضيوفكم وأبناؤكم.

٢٢ ﴿وَعَلَيْهَا﴾ أي: علىٰ بعضها وهو الإبل، والخيل، والبغال، والحمير، ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ السفينة ﴿تُحْمَلُونَ﴾ أي: تُحمل أمتعتكم وتُحمَلُون أنتم، وهذا من مِنَّة الله علىٰ عباده حيث سخر لهم ما يحتاجون إليه مركبًا ومشربًا ومطعمًا.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٢٣ فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗۖ مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤ إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ ٢٥ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ٢٦ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۖ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ٢٧ فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٨ وَقُل رَّبِّ أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ٢٩ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ وَإِن كُنَّا لَمُبۡتَلِينَ ٣٠﴾.

٢٣ ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا﴾ وهو أول رسول إلىٰ أهل الأرض، ﴿إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ وكانوا أهل الأرض في زمنه، ﴿فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ وحدوه، ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ لا إله إلا هو لا إله غيره ولا رب سواه، ﴿أَفَلَا﴾ فهلا ﴿تَتَّقُونَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ بفعل أمره، واجتناب نهيه وزجره.

٢٤ ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ﴾ طائفة من السادة والأشراف، ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ وهذه حجة عليلة يردون بها دعوىٰ النبوة والرسالة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ﴾ [الأنعام:٩]، ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ﴾ يريد أن يكون من أشرفكم وأفضلكم، ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾ يُبلغون دينه، ﴿مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا﴾ بدعوة نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، أو بدعوة البشر لمثلهم ﴿فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ السابقين.

٢٥ ﴿إِنۡ﴾ ما ﴿هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ﴾ جنون وخِفَّة عقل، ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾ انتظروا، ﴿بِهِۦ﴾ الدوائر، ﴿حَتَّىٰ حِينٖ﴾ يُقضىٰ عليه فيموت وتستريحون منه، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ٣٠ قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ ٣١﴾ [الطور:٣٠-٣١].

٢٦ ﴿قَالَ﴾ نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ﴿رَبِّ ٱنصُرۡنِي﴾ عليهم ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾ بسبب تكذيبهم، وهذا كقوله: ﴿أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ﴾ [القمر:١٠].

٢٧ ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ﴾ إلىٰ نوح، ﴿أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ﴾ السفينة، ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾ بمرأىٰ منا.

وفيه: إثبات صفة العينين لله عَزَّوَجَلَّ علىٰ ما يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، ولا يُفهم أن السفينة في عين الله فإن السفينة في الأرض والله عَزَّوَجَلَّ علىٰ عرشه.

﴿وَوَحۡيِنَا﴾ نوحي إليك ما تحتاج إليه من العلوم والشرائع، ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ قضاؤنا بهلاكهم، ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ نَبَع الماء من التَّنور الذي يُخبز فيه، وقيل الأرض، وقيل غير ذلك

وقد تقدم في سورة هود، ﴿فَٱسْلُكْ﴾ احمل: ﴿فِيهَا﴾ في السفينة ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾ من الحيوان صنفين ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ ذكر وأنثىٰ، ﴿وَأَهْلَكَ﴾ احملهم أيضًا، ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ بالهلاك ﴿مِنْهُمْ﴾ كالزوجة والولد إذ أنهم من الكفار، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود:٤٦]، ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى﴾ أي: لا تسألني سلامة ﴿فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا﴾ كفروا، ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ مع من أُغرق، ولو كان من الأقربين منك.

﴿٢٨﴾ ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ﴾ عَلَوت: ﴿أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ السفينة، ﴿فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: احمد الله علىٰ عظيم نعمه ومننه، وامتثل ذلك بقوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [هود:٤١].

﴿ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا﴾ ميَّزْنَا: ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين المُهلَكين.

❁ والسلامة من الكافرين والمبتدعين الضالين تعتبر نعمة عظيمة ومنة من الله عَزَّوَجَلَّ كريمة، فإن مجالستهم ممرضة، والبقاء معهم ضيق صدر.

﴿٢٩﴾ ﴿وَقُل﴾ يا نوح في دعائك: ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِى﴾ في السفينة، وقيل من السفينة، ﴿مُنزَلًا﴾ مكانًا: ﴿مُّبَارَكًا﴾ قد باركت فيه، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾؛ لأنه إذا لم يبارك له في شأنه ربما فسدت حياته، وضاق صدره، وتغيرت أحواله، فلا أعظم من حصول البركة في الشيء، فانظر إلىٰ عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يقول: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم:٣١].

﴿٣٠﴾ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكِرَ من قصة نوح مع قومه، ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ علامات بينات، وحجج واضحات علىٰ صدق الأنبياء، ﴿وَإِن كُنَّا﴾ مع هذه الحجج، ﴿لَمُبْتَلِينَ﴾ مختبرين حتىٰ يميّز الله الخبيث من الطيب، كما قال تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت:١-٣].

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿٣١﴾ ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي: من بعد قوم نوح، ﴿قَرْنًا﴾ قرونًا متتابعة، قيل: مائة عام، وقيل: ثمانون، وقيل: أربعون، **والأظهر**: أنه مائة عام، ﴿ءَاخَرِينَ﴾ يتبع بعضهم بعضًا.

﴿٣٢﴾ ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ وهو هود عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقيل: صالح، **والأول أظهر**؛ لأن السياقة تقتضيه، فكانت دعوته لهم، ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحدوه.

﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ دليل على أن دعوة الرسل واحدة كلهم يدعون إلى التوحيد ويحذرون من الشرك والتنديد.

﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ بفعل المأمور، وترك المحظور.

﴿٣٣﴾ ﴿وَ﴾ عند ذلك: ﴿قَالَ الْمَلَأُ﴾ العظماء والأشراف، ﴿مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأعرضوا، ﴿وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ بالبعث والنشور، ﴿وَأَتْرَفْنَاهُمْ﴾ وسعنا عليهم: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بأنواع الترف والنعم، ﴿مَا هَذَا﴾ الذي بُعِثَ إليكم: ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ فلا مزية له عليكم، وهذه علة تتكرر عند المشركين، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ **[الفرقان:٢٠]**.

﴿٣٤﴾ ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ﴾ وهو هود هنا، ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ مغبونون.

﴿٣٥﴾ ﴿أَيَعِدُكُمْ﴾ يُخبركم هذا الذي يزعم أنه رسول ﴿أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ﴾ تُوفيتم، وفارقت أرواحكم أجسامكم، ﴿وَكُنتُمْ تُرَابًا﴾ بعد أن بُليتم في قبوركم، ﴿وَعِظَامًا﴾ جوفاء لا حياة فيها، ﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ يوم القيامة ومبعوثون وتجزون على أعمالكم.

﴿٣٦﴾ ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾ يعني: أن هذا بعيد، ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾ به من خروجكم بعد موتكم ولن يكون.

(٣٧) ﴿إِنْ﴾ ما ﴿هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ بعد أن صرنا رميمًا، وهذا اعتقادهم.

(٣٨) ﴿إِنْ﴾ ما ﴿هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ﴾ اختلق: ﴿عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ بمصدقين.

(٣٩) ﴿قَالَ﴾ هود: ﴿رَبِّ انْصُرْنِي﴾ عليهم ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾ بسبب تكذيبهم.

(٤٠) ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ﴾ بعد زمن قليل، ﴿لَيُصْبِحُنَّ﴾ بمخالفتك ﴿نَادِمِينَ﴾ في ندامة علىٰ كفرهم وتكذيبهم.

(٤١) ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ الصاعقة والعذاب والهلاك: ﴿بِالْحَقِّ﴾ الواقع الذي لا ظلم فيه ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ يعني: مثل الغثاء من نبات الأرض: وهو ما يحمله السيل من حشيش وعيدان الشجر، كما قال تعالىٰ: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة:٧]، ﴿فَبُعْدًا﴾ سحقًا وهلاكًا: ﴿لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ الكافرين.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۖ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

(٤٢) ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا﴾ أوجدنا ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد قوم نوح، وعاد، ﴿قُرُونًا﴾ أقوامًا ﴿آخَرِينَ﴾ ومنهم ثمود وقوم لوط، وأصحاب الأيكة، وقوم تبع وغيرهم.

(٤٣) ﴿مَا تَسْبِقُ﴾ لا تتقدم ﴿مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ أي: وقت هلاكها، فلا يقضىٰ عليها قبل حلول الوقت الذي قدره الله، ﴿وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ ولا يتأخرون عن وقت هلاكهم.

(٤٤) ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ مترادفين متتابعين، ﴿كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا﴾ نبيها الذي أرسله الله إليها، ﴿كَذَّبُوهُ﴾ وردوا دعوته، ﴿فَأَتْبَعْنَا﴾ ألحقنا ﴿بَعْضَهُمْ بَعْضًا﴾ بالهلاك، ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ للمتأخرين يسمرون علىٰ قصصهم، وما كان من شأنهم، ﴿فَبُعْدًا﴾ سحقًا: ﴿لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالله وشرعه ودينه.

﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٤٥ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمًا عَالِينَ ٤٦ فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ٤٧ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡلَكِينَ ٤٨ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ٤٩ وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ ٥٠﴾.

٤٥ ﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ﴾ ابن عمران، ﴿وَأَخَاهُ هَٰرُونَ﴾ إلىٰ فرعون، ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الحجج البينة، والآيات الظاهرة مثل: العصا، واليد، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، ﴿وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾ حجة ظاهرة.

٤٦ ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ حاشيته ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ تعاظموا، وترفعوا، وتعالوا عن الإيمان، كما قال تعالىٰ: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف:١٤٦]، وفي حديث ابن مسعود وعبد الله بن عمرو قال رسول الله ﷺ: **«الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ»**، ﴿وَكَانُواْ قَوۡمًا عَالِينَ﴾ متكبرين، قاهرين لغيرهم.

٤٧ ﴿فَقَالُواْ﴾ قوم فرعون في رد دعوىٰ موسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿أَنُؤۡمِنُ﴾ نقر وننقاد: ﴿لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا﴾ موسىٰ وهارون ﴿وَقَوۡمُهُمَا﴾ بنو إسرائيل، ﴿لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ مطيعون متذللون.

٤٨ ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡلَكِينَ﴾ بالغرق.

٤٩ ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ التوراة، ﴿لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ أي: لكي يهتدي بها قومه إلىٰ الحق ويعملوا به.

٥٠ ﴿وَجَعَلۡنَا﴾ صيرنا، ﴿ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ عيسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، ﴿وَأُمَّهُۥٓ﴾ مريم ابنة عمران، ﴿ءَايَةٗ﴾ دلالة علىٰ قدرة الله إذ خلقه الله بغير أبٍ، ﴿وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ﴾ من الإيواء حيث صبَّرها الله، وأوصلها حين الوضع، ﴿إِلَىٰ رَبۡوَةٖ﴾ مكان مرتفع فيه الشجر، ﴿ذَاتِ قَرَارٖ﴾ مستوية منبسطة، ﴿وَمَعِينٖ﴾ الماء الجاري الظاهر التي تراه العيون.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ٥٢ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ٥٣ فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ ٥٤ أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ٥٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١﴾.

﴿٥١﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ الحلالات، ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ بالتوحيد فما دونه، ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ فمجازيكم عليه بحسن الجزاء، وعظيم العطاء، فالحسنة بعشر أمثالها، وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ [المؤمنون: ٥١] وَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ [البقرة: ١٧٢] **ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟»** أخرجه مسلم .

﴿٥٢﴾ ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ﴾ شريعتكم وملتكم، ﴿أُمَّةٗ﴾ دين، ﴿وَٰحِدَةٗ﴾ من حيث الدعوة إلىٰ التوحيد وإلىٰ أركان الإيمان والإسلام وأما الشرائع فتتغير، كما قال تعالىٰ: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ [المائدة: ٤٨]، ﴿وَأَنَا رَبُّكُمۡ﴾ خالقكم، ورازقكم، ومدبر أمركم، ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ بفعل المأمور، وترك المحظور.

﴿٥٣﴾ ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ﴾ فرقوا ﴿أَمۡرَهُم﴾ دينهم، ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: تفرقوا فصاروا فرقًا يهودًا ونصارىٰ ومجوسًا، وكل طائفة من هذه الطوائف تحزبت وتفرقت، ففي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: **«افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ إِحْدَىٰ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَافْتَرَقَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً»**، أخرجه أبو داود، وفي زيادة معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً»**.

﴿زُبُرًا﴾ أي: فرقًا وقطعًا وأحزابا مختلفة مثل: زبر الحديد المتفرقة، ﴿كُلُّ حِزْبٍ﴾ من هذه الأحزاب والفرق، ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ بما عندهم من العقائد والطرق، ﴿فَرِحُونَ﴾ بطرون، وإن كان مخالفًا للحق والصواب، فإنهم ينقادون لأهوائهم.

٥٤ ﴿فَذَرْهُمْ﴾ اتركهم يا محمد، ﴿فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ في كفرهم وضلالهم، وعمايتهم وغفلتهم، ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ إلىٰ أن يموتوا، ويجازون علىٰ أعمالهم.

٥٥ ﴿أَيَحْسَبُونَ﴾ أيظنون، ﴿أَنَّمَا نُمِدُّهُم﴾ نعطيهم: ﴿بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾.

٥٦ ﴿نُسَارِعُ﴾ نعجل ﴿لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ الثواب وأنهم علىٰ خير؛ فالكفار نظرتهم دنيوية، فعندهم الرفعة بالمال، وظنوا أن الله عَزَّوَجَلَّ أعطاهم المال؛ لمحبته لهم، ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ بمكرنا بهم، وأن ذلك استدراج كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف:١٨٢-١٨٣].

٥٧ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ﴾ خوف مع التعظيم ﴿رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ وجِلُون حَذِرُون.

٥٨ ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ الشرعية ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ ينقادون، ويطيعون.

٥٩ ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ بل يوحدونه، ويعبدونه.

٦٠ ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ﴾ يعطون ﴿مَآ ءَاتَوا۟﴾ ما أعطوا من النفقات والصدقات، ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ خائفة ألا تُقبل منهم صدقاتهم ونفقاتهم وعبادتهم، وفي حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون:٦٠]، قَالَتْ عَائِشَةُ: أَهُمُ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ؟ قَالَ: **«لاَ يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ، وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لاَ تُقْبَلَ مِنْهُمْ»** أخرجه الترمذي. ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ فيجازيهم بإحسانهم.

٦١ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الذين تقدم ذكرهم، ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾ يسابقون ﴿فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ يُبادرون إلىٰ الأعمال الصالحات، وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: **«بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا»** أخرجه مسلم.

وقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ بالمسارعة إلىٰ الخيرات في غير ما آية فقال: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران:١٣٣]، وقال: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [المائدة:٤٨]، وقال: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ

مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ [الحديد:٢١]، وأخبر عن مسارعة المؤمنين كما في هذه الآية وفي قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [الأنبياء:٩٠]، وفعل المبرات، ﴿وَهُمْ لَهَا﴾ للخيرات والطاعات ﴿سَـٰبِقُونَ﴾ وفيها متسارعون، فسبقوا غيرهم.

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ **«أَضَلَّ اللهُ عَنِ الْجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا، فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمُ السَّبْتِ، وَكَانَ لِلنَّصَارَىٰ يَوْمُ الْأَحَدِ، فَجَاءَ اللهُ بِنَا فَهَدَانَا اللهُ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ، فَجَعَلَ الْجُمُعَةَ، وَالسَّبْتَ، وَالْأَحَدَ، وَكَذَلِكَ هُمْ تَبَعٌ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَحْنُ الْآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَالْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الْمَقْضِيُّ لَهُمْ قَبْلَ الْخَلَائِقِ»** أخرجه مسلم (٨٥٦).

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَـٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَـٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَـٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَـٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَـٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿٦٢﴾ ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ طاقتها، فعن عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: **«صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَىٰ جَنْبٍ»** أخرجه البخاري.

﴿وَلَدَيْنَا كِتَـٰبٌ﴾ كتبت فيه أعمالهم وقيل: اللوح المحفوظ، ﴿يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ﴾ بالصدق الثابت الذي لا خُلف فيه، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ لا ينقص من حسناتهم ولا يُزاد في سيئاتهم.

﴿٦٣﴾ ﴿بَلْ﴾ إن السبب الذي جعل الكفار يلجون في كفرهم وباطلهم إذ: ﴿قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ﴾ في غفلة، وإعراض، وقسوة، ﴿مِّنْ هَـٰذَا﴾ القرآن، ﴿وَلَهُمْ أَعْمَـٰلٌ﴾ خبيثة سيئة ﴿مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ دون أعمال المؤمنين التي ذكر الله، وقيل أعمال دون ذلك هي الشرك، ﴿هُمْ لَهَا عَـٰمِلُونَ﴾ إذ كتبت عليهم في اللوح المحفوظ.

وقد تقدم في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفيه: **«فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُهَا»** متفق عليه.

﴿٦٤﴾ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا﴾ أهلكنا، ﴿مُتْرَفِيهِم﴾ المنعمون منهم، والأغنياء والرؤساء: ﴿بِٱلْعَذَابِ﴾ الهلاك، ﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾ يصرخون ويضجون إلىٰ ربهم بالدعاء والتضرع.

(٦٥) ﴿لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ﴾ لا تضجوا اليوم، ولا ترفعوا أصواتكم بالدعاء ﴿إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ لا تمنعون ولا تحفظون، فالإيمان لا ينفع حين الغرغرة، كما لا ينفع عند طلوع الشمس من مغربها، ولا ينفع عند نزول العذاب فقد استوجبوه.

(٦٦) والسبب الذي سلط عليهم بسببه العذاب: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى﴾ الشرعية القرآن والسنة، ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ تُقرأ عليكم، ﴿فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ ترجعون القهقرىٰ، وتتأخرون عن الإيمان.

(٦٧) وكانوا: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾ مستكبرين عن القرآن ومستكبرين في البلد الحرام، أو مستكبرين علىٰ محمد ﷺ ثلاثة أقوال للمفسرين ﴿سَٰمِرًا﴾ جماعة يسمرون في الحرام، ﴿تَهْجُرُونَ﴾ تقولون الكلام الهجر الباطل، وربما باتوا علىٰ الخمر والميسر والتراقص والتمايل.

(٦٨) ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟﴾ يتفكروا ويتدبروا ﴿ٱلْقَوْلَ﴾ الذي أوحي إليهم، ﴿أَمْ﴾ بل ﴿جَآءَهُم﴾ من الآيات ﴿مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فأنكروه، وعند ذلك يردون الدعوة بدعوىٰ: أن النبي ﷺ جاء بدين لم يكن عند آبائهم وأسلافهم كقولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٢].

(٦٩) ﴿أَمْ﴾ أن سبب كفرهم أنهم ﴿لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ﴾ مع أنه منهم، ﴿فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ يعني: بأنه جاءهم بشيء لا يصدقونه مع أنهم قد عرفوا صدقه وأمانته.

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾.

(٧٠) ﴿أَمْ﴾ بل ﴿يَقُولُونَ بِهِۦ﴾ بمحمد ﷺ ﴿جِنَّةٌ﴾ جنون، وهذا أمر ثالث يرمونه به: ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق:٥]، ﴿بَلْ﴾ الواقع أنه، ﴿جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ الصدق الثابت، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾ بسبب كفرهم وبغيهم وعنادهم: ﴿لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ مبغوض.

❁ **وبهذا يستدل أهل العلم علىٰ أن كره الحق من أسباب الردة**، نسأل الله السلامة والعافية، كما قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد:٩].

٧١ ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ، أو الرسول ﷺ والصدق والدين الثابت: ﴿أَهْوَآءَهُمْ﴾ وميول أنفسهم، ﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ بالشرك وغيره، ﴿وَمَن فِيهِنَّ﴾ إذ ضل سعيهم في الحياة الدنيا، ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم﴾ جئناهم ﴿بِذِكْرِىٰهُمْ﴾ بما فيه رفعةُ شأنهم وعلو منزلتهم، كما قال تعالىٰ ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف:٤٤] أي: رفعة.

﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِىٰهُم﴾ شرفهم وعلوهم ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ قد ولوا عن الاستجابة، والاستفادة فلم يعرفوا عظيم أسباب علوهم وشرفهم.

٧٢ ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ﴾ تطلبهم يا محمد ﴿خَرْجًا﴾ جُعلًا، وعطاءً، وأجرًا وثوابًا علىٰ ما جئتهم به حتىٰ يأبوا الدخول في الإسلام، ﴿فَخَرَاجُ﴾ ثواب وعطاء ﴿رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ وأبقىٰ في الدارين، ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ خير المُعطين.

٧٣ ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ﴾ يا محمد: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ﴾ طريق: ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾ قويم لا اعوجاج فيه؛ ولكنهم أبوا إلا الاعوجاج.

٧٤ ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يقرون، ولا يصدقون، ﴿بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ بالبعث والنشور، ﴿عَنِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ الذي هو الإسلام، ﴿لَنَٰكِبُونَ﴾ لعادلون مائلون، فيتساقطون في الضلالة في الدنيا، ويتساقطون في النار في الآخرة.

❁ فمن لم يستقم علىٰ الصراط المعنوي الذي هو الإسلام لم يستقم علىٰ الصراط الحسي الذي هو الجسر الممدود علىٰ متن جنهم.

٧٥ ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ﴾ بالهداية والتوفيق، ﴿وَكَشَفْنَا﴾ رفعنا: ﴿مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾ من ضرر وقحطٍ ونحو ذلك، ﴿لَّلَجُّوا۟﴾ مضوا: ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ ضلالهم: ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يتحيرون، ولم ينزعوا عنه كقوله تعالىٰ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:٦]، ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١].

فهذه الآيات دلائل علىٰ أن الضلالة مستمرة معهم، إن اشتد عليهم القحط قالوا: يا الله، وإن ركبوا في البحر وكادوا أن يغرقوا قالوا: يا الله، وإذا نجاهم إذا هم يُشركون، بل إذا

دخلوا النار وخرجوا منها عادوا إلىٰ الشرك، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٨].

(٧٦) ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم﴾ أصبناهم ﴿بِٱلْعَذَابِ﴾ القحط والشدة، ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُواْ﴾ تواضعوا: ﴿لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ لم يدعوه برفع العذاب وما لحقهم.

وفي الصحيحين: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا قَالَ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ فِي الرَّكْعَةِ الْآخِرَةِ مِنَ الْعِشَاءِ الْآخِرَةِ قَنَتَ، وَقَالَ: **« اللهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ، اللهُمَّ أَنْجِ سَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ، اللهُمَّ أَنْجِ عَيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ، اللهُمَّ أَنْجِ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، اللهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَىٰ مُضَرَ، اللهُمَّ اجْعَلْهَا سِنِينَ كَسِنِينَ يُوسُفَ »** اخرجه أحمد.

(٧٧) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ قيل: القتل يوم بدر، وقيل: الموت، وقيل: قيام الساعة، ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ يائسون من كل خير. وَالَّذِي يَظْهَرُ: أنه الموت أو القيامة؛ لأن بدر وإن لحقهم ما لحقهم فهم يؤملون النصر، وأن ترجع الدولة لهم.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

(٧٨) ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ﴾ خلق وهيأ: ﴿لَكُمُ السَّمْعَ﴾ الذي تسمعون به المسموعات، ﴿وَالأَبْصَارَ﴾ التي تبصرون بها المبصرات، ﴿وَالأَفْئِدَةَ﴾ القلوب الواعية، ﴿قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ الواقع: أن أكثركم لم يشكر هذه النِعَمْ، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ

بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [الأحقاف:٢٦]، وكما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم:٧].

٧٩ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ﴾ خلقكم وبثكم: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ يوم القيامة بعد موتكم.

٨٠ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ﴾ فلا محيي غيره، ﴿وَيُمِيتُ﴾ فلا مميت غيره، ﴿وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ﴾ تعاقب ﴿ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ وهما من آياته العظيمة كما قال تعالىٰ: ﴿وَمِنۡ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [فصلت:٣٧]، ولو أن أحدهم يقوم بكتابة أحكام ما يتعلق بالليل والنهار لكان في مجلد ضخم، فإن لكل منهما حُكمه، بل ربما تطرقت الأحكام إلىٰ جميع العبادات، ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ مما ترون من عجيب صنع الله عَزَّوَجَلَّ وقدرته.

٨١ ﴿بَلۡ قَالُواْ﴾ وهو السبب في كفرهم وإعراضهم: ﴿مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ تشابهت قلوبهم فتشابهت الحُجج.

٨٢ ﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَامًا﴾ لطول المكث في القبور حتىٰ صاروا رميمًا، ﴿أَئِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾ مخرجون بعد هذا ومحشورون، وقالوا هذا علىٰ سبيل التعجب والإنكار.

٨٣ ﴿لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا﴾ الوعد، وهو البعث والنشور، ﴿مِن قَبۡلُ﴾ ولم نره ﴿إِنۡ﴾ ما ﴿هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أكاذيب الأولين لا حقيقة لها.

وهذا لشدة تكذيبهم بالبعث والنشور إذ أنهم كانوا يعتقدون أن الفناء الذي يلحقهم هو بسبب تعاقب الليل والنهار. كما قالوا: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ﴾ [الجاثية:٢٤]، ويستبعدون القدرة علىٰ الإعادة، فحاججهم الله في مواطن كثيرة مستدلًا بابتداء الخليقة علىٰ القدرة علىٰ إعادتها، ومستدلًا بالأرض اليابسة ثم ما يلحقها من الإحياء بالقدرة علىٰ إحيائهم، وكم ذكر الله عَزَّوَجَلَّ من قصص في سورة البقرة يُبين: أن البعث والنشور لا يُعجزه، بل القاعدة عند أهل العلم: (أن البدأة أصعب من الإعادة)، والله لا يصعب عليه شيء، ولا يُعجزه شيء؛ لكن هذا من باب التنزل معهم.

٨٤ ﴿قُل﴾ يا محمد: ﴿لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ المبسوطة، ﴿وَمَن فِيهَآ﴾ من المخلوقات الكائنات، ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ خالقها ومالكها.

٨٥ ﴿سَيَقُولُونَ﴾ مقرين ومعترفين: ﴿لِلَّهِ قُل أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون، وتستجيبون أنه لا يعجزه شيء.

٨٦ ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ﴾ العالية المرتفعة الطباق، ﴿وَرَبُّ﴾ صاحب: ﴿ٱلْعَرْشِ﴾ السرير الذي يكون عليه الملك، ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ الواسع، وقد جاء في وصفه: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ [البروج:١٥]، علىٰ كسر الدال: الواسع، وجاء في وصفه: ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة:١٢٩]، وهو ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون:١١٦]، إذ أنه أعلىٰ المخلوقات وأولها وأكبرها.

٨٧ ﴿سَيَقُولُونَ﴾ معترفين مقرين: ﴿لِلَّهِ قُل أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ بفعل المأمور ترك المحظور.

٨٨ ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿مَنْ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ﴾ ملك ﴿كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ﴾ يُؤمِّن الخائف، ﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أي: لا يستطيع أن يُؤمِّن الخائف منه أحد؛ ولذلك قال الله: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات:٥٠]، ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ما لله عَزَّوَجَلَّ من جميل الصفات وعظيم الهبات؟.

٨٩ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ كيف تُخدعون، وتُصرفون عن توحيده وطاعته.

٩٠ ﴿بَلْ﴾ إن الواقع الذي جعلهم يكفرون أننا ﴿أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ﴾ بالصدق، ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ فيما يدعونه له من الشريك، والولد، والصاحبة، والمثيل، والنظير إلىٰ غير ذلك مما يقوله المشركون.

٩١ ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ كما يزعم الكفار فقد قالت الجن: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن:٣]، وقال تعالىٰ: ﴿أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢﴾ [مريم:٩١-٩٢]، ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف:٨١]، فدعوىٰ الولد لله عَزَّوَجَلَّ من أعظم السب، فعن أبي موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: **«لَا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَىٰ أَذًىٰ يَسْمَعُهُ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، يُشْرَكُ بِهِ وَيُجْعَلُ لَهُ وَلَدًا ثُمَّ هُوَ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ»** متفق عليه

﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ﴾ مع الله عَزَّوَجَلَّ ﴿مِنْ إِلَٰهٍ﴾ من شريك، ولو قدر وجود الشريك ﴿إِذًا لَّذَهَبَ﴾ تفرد ﴿كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ بخلقه، ولم يرضَ أن يضاف إلىٰ غيره، ﴿وَلَعَلَا﴾ ارتفع وانتصر ﴿بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ والعالي المنتصر هو الإله الحق، فإن عجزوا جميعًا فليسوا

بآلهة ﴿سُبْحَانَ اللهِ﴾ تنزيه الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من الصفات السيئة المتضمنة للنقص والعيب.

قال ابن القيم في الصواعق المرسلة (٢/ ٤٦٣-٤٦٤): "فتأمل هذا البرهان الباهر بهذا اللفظ الوجيز البين فإن الإله الحق لا بد أن يكون خالقا فاعلا يوصل إلىٰ عابده النفع ويدفع عنه الضر فلو كان معه سبحانه إله لكان له خلق وفعل وحينئذ فلا يرضىٰ بشركة الإله الآخر معه بل إن قدر علىٰ قهره وتفرده بالإلهية دونه فعل وإن لم يقدر علىٰ ذلك انفرد بخلقه وذهب به كما ينفرد ملوك الدنيا عن بعضهم بعضا بممالكهم، إذا لم يقدر المنفرد علىٰ قهر الآخر والعلو عليه، فلا بد من أحد أمور ثلاثة:

- إما أن يذهب كل إله بخلقه وسلطانه.
- وإما أن يعلو بعضهم علىٰ بعض.
- وإما أن يكون كلهم تحت قهر إله واحد وملك واحد يتصرف فيهم ولا يتصرفون فيه ويمتنع من حكمهم عليه ولا يمتنعون من حكمه عليهم فيكون وحده هو الإله الحق وهم العبيد المربوبون المقهورون.

وانتظام أمر العالم العلوي والسفلي وارتباط بعضه ببعض وجريانه علىٰ نظام محكم لا يختلف ولا يفسد من أدل دليل علىٰ أن مدبره واحد لا إله غيره كما دل دليل التمانع علىٰ أن خالقه واحد لا رب له غيره فذاك تمانع في الفعل والإيجاد وهذا تمانع في العبادة والإلهية فكما يستحيل أن يكون للعالم ربان خالقان متكافئان يستحيل أن يكون له إلهان معبودان". اهـ

﴿٩٢﴾ ثم يقول في وصف نفسه المقدسة: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ وقرئت: ﴿عَالِمُ﴾، والغيب: ما غاب عن الأعين، والشهادة: ما ظهر لها، ﴿فَتَعَالَىٰ﴾ تعاظم وتقدس، وتعالىٰ أيضًا بذاته علىٰ عرشه، ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ عما يصفه به المشركون والمنددون.

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾.

﴿٩٣﴾ ﴿قُل﴾ يا محمد: ﴿رَّبِّ﴾ أي: يا رب، ﴿إِمَّا تُرِيَنِّي﴾ إن أريتني، ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب فلا تريني ذلك، وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ** عَزَّوَجَلَّ **إِذَا**

أَرَادَ رَحْمَةَ أُمَّةٍ مِنْ عِبَادِهِ، قَبَضَ نَبِيَّهَا قَبْلَهَا، فَجَعَلَهُ لَهَا فَرَطًا وَسَلَفًا بَيْنَ يَدَيْهَا، وَإِذَا أَرَادَ هَلَكَةَ أُمَّةٍ، عَذَّبَهَا وَنَبِيُّهَا حَيٌّ، فَأَهْلَكَهَا وَهُوَ يَنْظُرُ، فَأَقَرَّ عَيْنَهُ بِهَلَكَتِهَا حِينَ كَذَّبُوهُ وَعَصَوْا أَمْرَهُ»

أخرجه مسلم.

٩٤ ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي﴾ لا تصيرني: ﴿فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين المشركين.

٩٥ ﴿وَإِنَّا﴾ تعظيم لله عَزَّوَجَلَّ، ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ﴾ يا محمد، ﴿مَا نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب الأليم والخزي العظيم، ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ **[فاطر:٤٤]**.

٩٦ ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ بالصفح والإعراض والصبر، ﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾ الأذىٰ، ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ يكذبون ويقولون، تارة بأنه مذمم، وتارة شاعر، وتارة مجنون؛ وهذا كقوله: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ **[المائدة:١٣]**، ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ **[فصلت:٣٤]**.

وقد يقول قائل: بأن هذه الآية منسوخة بآية السيف كما هو قول جماهير المفسرين، فالأمر بالعفو والصفح ما زال مستمرًا وكلٌ بحسبه.

٩٧ ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ﴾ أستجير، ﴿بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ﴾ نزغات ووساوس ونفخة: ﴿ٱلشَّيَٰطِينِ﴾، كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ **[فصلت:٣٦]**.

٩٨ ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ أي: أن يحضره الشياطين في شيء من شأنه، ومنها عند الموت؛ لإزاغته وإضلاله، ففي حديث جابر في صحيح مسلم قال النبي ﷺ: **«إِنَّ الشَّيْطَانَ يَحْضُرُ أَحَدَكُمْ عِنْدَ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ شَأْنِهِ، حَتَّىٰ يَحْضُرَهُ عِنْدَ طَعَامِهِ، فَإِذَا سَقَطَتْ مِنْ أَحَدِكُمُ اللُّقْمَةُ، فَلْيُمِطْ مَا كَانَ بِهَا مِنْ أَذًىٰ، ثُمَّ لِيَأْكُلْهَا، وَلَا يَدَعْهَا لِلشَّيْطَانِ، فَإِذَا فَرَغَ فَلْيَلْعَقْ أَصَابِعَهُ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي فِي أَيِّ طَعَامِهِ تَكُونُ الْبَرَكَةُ»**.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾.

﴿٩٩﴾ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ أي: النزع عند الموت ﴿قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ إلىٰ الدنيا، والسبب في طلب الإرجاع.

﴿١٠٠﴾ ﴿لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا﴾ من التوحيد فما دونه، ﴿فِيمَا تَرَكْتُ﴾ ضيعت، وهذا القول في حق الكافر والمسرف حين يبشر بغضب الله وسخطه، وأما المؤمن فإنه يستبشر بهذا الحال،

فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ، أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ، كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ**» فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ أَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ؟ فَكُلُّنَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ، فَقَالَ: «**لَيْسَ كَذَلِكَ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا بُشِّرَ بِرَحْمَةِ اللهِ وَرِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ، أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ، فَأَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا بُشِّرَ بِعَذَابِ اللهِ وَسَخَطِهِ، كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ، وَكَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ**» اخرجه مسلم (٢٦٨٤).

﴿كَلَّآ﴾ كلمة ردع وزجر، ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ﴾ جملة، فالكلمة عند العرب تُطلق علىٰ الجملة، ﴿هُوَ قَآئِلُهَا﴾ الميت المسرف علىٰ نفسه عند موته، ﴿وَمِن وَرَآئِهِم﴾ أمامهم: ﴿بَرْزَخٌ﴾ حاجز بين الحياة الدنيا والآخرة.

❁ **وفي هذا دلالة علىٰ إثبات الحياة البرزخية**، وهي حياة حقيقية فيها نعيم للمؤمنين وعذاب للكافرين والمنافقين ومن شاء الله من عصاة المسلمين ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ فيُخرجون من قبورهم حفاةً عراةً غُرلًا بهمًا.

(١٠١) ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ نفخة البعث من القبور، وقيل نفخة الصعق، **والصحيح** أنها نفخة البعث ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ لا تنفع الأنساب بينهم، ﴿يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ لا يسأل بعضهم عن بعض بل الحال كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧﴾ [عبس:٣٤-٣٧].

وقوله: ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: هذا في بعض المواطن، وإلا فقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصافات:٢٧]، يوضحه ما رُوِيَ عن ابن عباس: أن للقيامة أحوالًا ومواطنا، ففي موطن يشتد عليهم الخوف فيشغلهم عظيم الأمر عن التساؤل فلا يتساءلون، وفي موطن يفيقون إفاقةً فيتساءلون.

(١٠٢) ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ بأعماله الصالحة؛ ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ بنيل المطلوب، والسلامة من المرهوب.

(١٠٣) ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ بسبب الشرك، وكثرة السيئات، وقلة الحسنات، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ فلا يخرجون منها.

(١٠٤) ﴿تَلْفَحُ﴾ تسفع وتحرق: ﴿وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ وهو أشرف ما في البدن، ﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ عابسون.

(١٠٥) فيقول الله لهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى﴾ القرآن ﴿تُتْلَىٰ﴾ تُقرأ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ يا معاشر الكافرين، ﴿فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ وتعرضون.

(١٠٦) ﴿قَالُوا۟﴾ معتذرين: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ﴾ تغلب، واستولت ﴿عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ أي: ما كُتب عليهم من الشقاوة، ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ منحرفين عن الهُدىٰ.

(١٠٧) ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ أي: من النار، ﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾ لما تكره، ﴿فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ كافرون.

(١٠٨) ﴿قَالَ﴾ لهم ربنا عَزَّوَجَلَّ عند ذلك: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟﴾ انزجروا وابعدوا: ﴿فِيهَا﴾ في النار، ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ في شأن أنفسكم ولا في شأن غيركم.

﴿١٠٩﴾ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ﴾ طائفة ﴿مِّنْ عِبَادِي﴾ المؤمنين في الدنيا: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا﴾ أقررنا وانقدنا، ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا﴾ تجاوز عنا، ﴿وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ ووفقنا لطاعتك ومرضاتك.

﴿١١٠﴾ ﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ﴾ فصيرتموهم يا معاشر الكفار: ﴿سِخْرِيًّا﴾ تسخرون منهم، وتضحكون عليهم، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين:٣٠]، ﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى﴾ طاعتي، ﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ وتسخرون وتستهزئون، والجزاء من جنس العمل.

﴿١١١﴾ ﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ﴾ أثبتهم وأكرمتهم ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ في القيامة الجزاء العظيم: ﴿بِمَا صَبَرُوٓا﴾ علىٰ الطاعة، وعن المعصية وعلىٰ أقدار الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ الذين فازوا بالجنة، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران:١٨٥].

﴿١١٢﴾ ﴿قَٰلَ﴾ الله لهم: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ يسألهم لا لمعرفة عدد الأيام؛ لكن لِيُعلم أنهم كانوا في عمية وغفلة.

﴿١١٣﴾ ﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا﴾ ثم قالوا علىٰ سبيل الشك: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ لبثنا يومًا كاملًا أو بعض يوم إلىٰ الضُحىٰ أو نحو ذلك، وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: **«يُؤْتَىٰ بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللهِ يَا رَبِّ وَيُؤْتَىٰ بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا، مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ»** اخرجه مسلم.

﴿فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾ الذين يحسنون العد، وقيل: اسأل الملائكة الذين يحفظون أعمال بني آدم ويحصونها عليهم.

﴿١١٤﴾ ﴿قَٰلَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن﴾ ما ﴿لَّبِثْتُمْ﴾ في الدنيا: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ لأنه عمر يسير بالنسبة للقبر والآخرة، ﴿لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قدر لبثكم في الأرض.

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

﴿١١٥﴾ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ﴾ ظننتم، ﴿أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ أوجدناكم: ﴿عَبَثًا﴾ لعبًا وباطلًا لا لحكمه؛ تعالىٰ الله عن ذلك، ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ لا تُبعثون.

﴿١١٦﴾ ﴿فَتَعَالَى﴾ تعاظم: ﴿اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ أن يخلق شيئًا عبثًا ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ﴾ صاحب ﴿الْعَرْشِ﴾ السرير: ﴿الْكَرِيمِ﴾ الجميل في صفاته.

❁ وبهذا تعلم أنه لا يلزم من الوصف بالكرم أن يكون مما يُعطي؛ فلا بأس أن يقول القائل: رمضان كريم لا علىٰ أساس أنه يُعطي، بل لما فيه من الصفات العظيمة الجليلة فالقرآن كريم، والعرش كريم، والرب كريم قبل ذلك، فالكرم أعم من العطاء فيدخل فيه الصفات الجميلة العظيمة.

﴿١١٧﴾ ﴿وَمَنْ يَدْعُ﴾ يعبد، ﴿مَعَ اللَّهِ﴾ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَهًا آخَرَ﴾ من الأصنام والأوثان، ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ صفة كاشفة إذ لا يوجد صنم يُعبد بحجة، ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ﴾ جزاؤه: ﴿عِنْدَ رَبِّهِ﴾ يُجازيه بعمله، ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ لا في الدنيا ولا في الآخرة، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه:٦٩].

﴿١١٨﴾ ﴿وَقُلْ﴾ يا محمد وهو أمر لأمته، ﴿رَبِّ اغْفِرْ﴾ تجاوز، ﴿وَارْحَمْ﴾ سدد وأعن، ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ المتجاوزين، والموفقين المسددين.

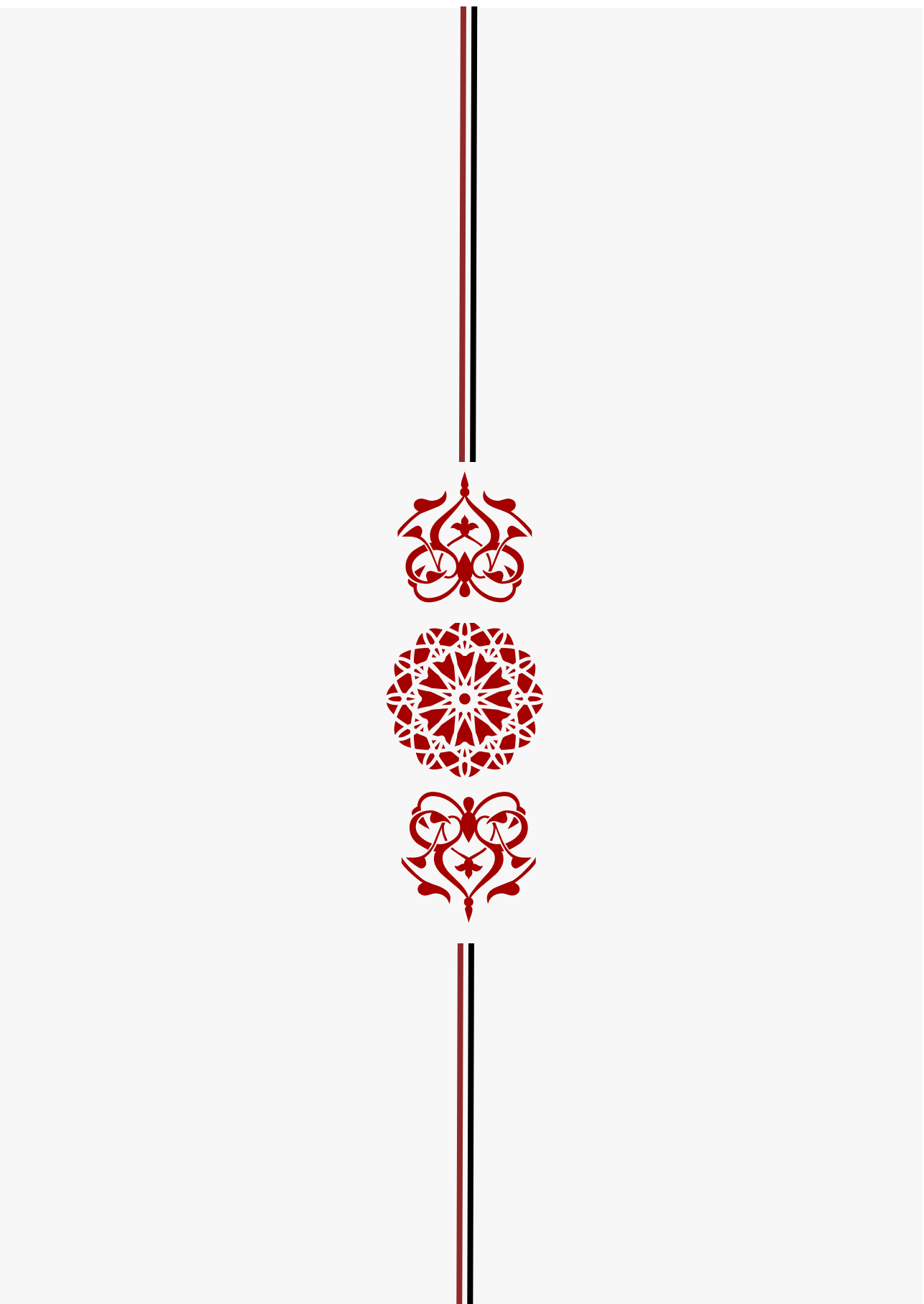
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

تم تفسير سورة المؤمنون



تَفْسِيرُ سُورَةِ النُّورِ





سُورَةُ النُّورِ

سُورَةٌ مَدَنِيَّةٌ بِالْإِجْمَاعِ.
وَآيَاتُهَا أَرْبَعَةٌ وَسِتُّونَ آيَةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾.

(١) ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا﴾ أي: هذه سورة أنزلناها علىٰ محمد ﷺ، ﴿وَفَرَضْنَٰهَا﴾ أي: أوجبنا ما فيها من الأحكام، وألزمناكم العمل بها، ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ﴾ حجج ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحات، ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون.

(٢) وكان من هذه الأحكام: ﴿ٱلزَّانِيَةُ﴾ البِكْرُ من النساء، ﴿وَٱلزَّانِى﴾ البِكْرُ من الرجال إن بلغ الأمر السلطان، وثبت عليهم الزنا بالإقرار أو الشهود، ﴿فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ مائة سوط، ليس بالضرب الذي يَكسر، ولا باللينونة التي لا تؤدي إلىٰ الزجر.

وكان الحكم قبل ذلك أن الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٥].

ثم كان السبيل ما في حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: **«خُذُوا عَنِّي، خُذُوا عَنِّي، قَدْ جَعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلًا، الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدُ مِائَةٍ وَنَفْيُ سَنَةٍ، وَالثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ جَلْدُ مِائَةٍ، وَالرَّجْمُ»** أخرجه مسلم.

والجلد في حق الثيب لم يفعله رسول الله ﷺ، وإنما رجم.

والتَّغْرِيبُ يُنظر فيه إلىٰ المصلحة، إن كان المُغرَّب رجل فلا حرج في تغريبه؛ لأنه سيقوم بنفسه، أما إذا كان التغريب للمرأة فتحتاج إلىٰ من يقوم بها ومن يرعاها.

﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ﴾ شفقة ورحمة، ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ فهو أحق أن يؤخذ به، ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ﴾ يحضر، ﴿عَذَابَهُمَا﴾ جلدهما، ﴿طَآئِفَةٞ﴾ جماعة، ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ وهذا لإظهار النكال بهم، حتىٰ يقع منهم الارتداع عن هذه الفعلة الشنيعة.

﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ﴾ يجامع ﴿إِلَّا زَانِيَةً﴾ عاصية ﴿أَوۡ مُشۡرِكَةٗ﴾ لا ترىٰ حرمة ذلك ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ﴾ يجامعها ﴿إِلَّا زَانٍ﴾ عاصي لله عَزَّوَجَلَّ ﴿أَوۡ مُشۡرِكٞۚ﴾ لا يرىٰ حرمة ذلك ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ﴾ أي: الزنا ﴿عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ المنقادين.

❐ **والمُراد من (النكاح) الجماع.**

ومعناه: الزاني لا يزني إلا بزانية أو مُشركة، والزانية لا تزني إلا بزانٍ أو مُشرك، وهو قول سعيد بن جبير والضحاك بن مزاحم، ورواية الوالبي عن ابن عباس.

قال يزيد بن هارون: إن جامعها وهو مستحل فهو مُشرك، وإن جامعها وهو مُحرم فهو زانٍ.

فكان ابن مسعود يُحرم نكاح الزانية، ويقول: إذا تزوج الزاني بزانية فهما زانيان أبدًا، هذا إذا كان قد رضي بفعلها وصار في الدياثة.

وقال الحسن: الزاني المجلود لا ينكح إلا زانية مجلودة والزانية المجلودة لا ينكحها إلا زانٍ مجلود، ولم يثبت عن النبي ﷺ: **«لَا يَنْكِحُ الزَّانِي الْمَجْلُودُ إِلَّا مِثْلَهُ»**.

❁ النَّسْخُ: قال سعيد بن المسيب وجماعة: إن حكم الآية منسوخ، فكان نكاح الزانية حرامًا بهذه الآية فنسخها قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَـٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّـٰلِحِينَ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ﴾ [النور:٣٢]، فدخلت الزانية في أيامىٰ المسلمين، والحاصل أن هذا عبارة عن خبر من الله في حق من نكح امرأةً وهو يعلم أنها زانية، أو نكحت رجلاً وقد رضي بفعلها ورضيت بفعله، ولا يلزم أن كل متزوج لزانية أن يكون زانيـًا والعكس.

﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥﴾.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ﴾ يقذفون ﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾ العفيفات من الزنا،

❐ وَشَرَائِطُ الإِحْصَانِ خَمْسَة:

١- الإسلام.

٢- والعقل.

٣- والبلوغ.

٤- والحرية.

٥- والعفة من الزنا.

﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ يشهدون معهم علىٰ زناهن، وتكون الشهادة بما لا لُبس فيه، ولا إيهام علىٰ أنه رأىٰ حالهما كما يرىٰ الميل في المكحلة، ﴿فَٱجْلِدُوهُمْ﴾ الحد، ﴿ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ سواءً كانوا من الرجال أو النساء.

﴿وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ﴾ لمن وقع في قذف المحصنات والمحصنين ﴿شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾؛ لأنهم صاروا مخرومي العدالة.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ من هذه الفعلة القبيحة، ﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ من بعد القذف، وتوبتهم بجلدهم ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾ ما أفسدوا، إذ بينوا أنهم كذبوا، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ متجاوز عنهم ما وقعوا فيه.

❐ وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي قَبُولِ شَهَادَةِ الْقَاذِفِ بَعْدَ التَّوْبَةِ:

وفي حكم هذا الاستثناء.

- فذهب قوم: إلىٰ أن القاذف تُرد شهادته بنفس القذف، وإذا تاب وندم علىٰ ما قال، وحسنت حالته قُبِلَت شهادته، سواءً تاب بعد إقامة الحد عليه، أو قبله؛ لقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾.

وقالوا: الاستثناء يرجع إلىٰ الشهادة وإلىٰ الفسق، فبعد التوبة تُقبل شهادته، ويزول عنه اسم الفسق.

يُروىٰ ذلك عن ابن عباس وعمر، وهذا قول سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء وطاوس وسعيد بن المسيب وسليمان بن يسار، والشعبي وعكرمة وعمر بن عبد العزيز والزهري، وبه قال مالك والشافعي.

- وذهب قومٌ إلىٰ: أن شهادة المحدود في القذف لا تُقبل أبدًا وإن تاب، وقالوا: الاستثناء يرجع إلىٰ قوله: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

وهو قول النخعي وشُريح وأصحاب الرأي، وقالوا بنفس القذف لا تُرد شهادته ما لم يُحد.

قال الشافعي: وهو قبل أن يُحد شرٌّ منه حين يُحد؛ لأن الحدود كفارات، فكيف يردونها في أحسن حاليه، ويقبلونها في شرِّ حاليه؟ وقيل: لا تُقبل شهادته أبدًا ما دام مُصرًا علىٰ قذفه، بمعنىٰ: أنه إذا تاب من قذفه قُبِلَت شهادته.

وَذَهَبَ الشَّعْبِيُّ إِلَىٰ أَنَّ حَدَّ الْقَذْفِ يَسْقُطُ بِالتَّوْبَةِ، وَقَالَ: الِاسْتِثْنَاءُ يَرْجِعُ إِلَىٰ الْكُلِّ.

وَعَامَّةُ الْعُلَمَاءِ عَلَىٰ أَنَّهُ لَا يَسْقُطُ بِالتَّوْبَةِ إِلَّا أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُ الْمَقْذُوفُ فَيَسْقُطَ، كَالْقَصَّاصِ يَسْقُطُ بِالْعَفْوِ، وَلَا يَسْقُطُ بِالتَّوْبَةِ.

فَإِنْ قِيلَ: إِذَا قَبِلْتُمْ شَهَادَتَهُ بَعْدَ التَّوْبَةِ فَمَا مَعْنَىٰ قَوْلِهِ ﴿أَبَدًا﴾ ؟.

قِيلَ: مَعْنَاهُ لَا تُقْبَلُ شَهَادَتُهُ أَبَدًا مَا دَامَ مُصِرًّا عَلَىٰ قَذْفِهِ، لِأَنَّ أَبَدَ كُلِّ إِنْسَانٍ مُدَّتُهُ عَلَىٰ مَا يَلِيقُ بِحَالِهِ. كَمَا يُقَالُ: لَا تُقْبَلُ شَهَادَةُ الْكَافِرِ أَبَدًا: يُرَادُ مَا دَامَ كَافِرًا. **أفاده البغوي.**

وَالصَّحِيحُ أن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، فإذا حدَّ قُبِلَت شهادته وعاد إلىٰ حاله قبل القذف.

قال العلامة العثيمين رحمه الله: "فهم يجلدون ثمانين جلدة حد القذف، ولا تقبل شهادتهم بعد ذلك أبدًا علىٰ أي شيء شهدوا، وهم فاسقون يحكم بفسقهم، ولا يتولون أمرًا تشترط فيه العدالة، إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإنهم يزول عنهم وصف الفسق، وكذلك يزول عنهم منع الشهادة علىٰ القول الراجح، وأما الحد فلا يسقط عنهم بتوبتهم؛ ولأنه حق لآدمي، فلا بد من أن ينفذ". اهـ **من تفسير سورة النور.**

﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٦ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٧ وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٨ وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٩ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ١٠ ﴾.

٦ ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ﴾ يقذفون ﴿أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ زوجاتهم بالزنا، ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ﴾ يشهدون معهم بذلك ﴿إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ﴾.

📖 سَبَبُ النُّزُولِ:

وفي سبب نزولها، ما جاء في الصحيحين عن سهل بن سعد، وابن عمر وابن عباس من طرق متعددة بما ملخصه: **«أن عويمر العجلاني جاء إلىٰ عاصم بن عدي الأنصاري فقال له: يا عاصم! أرأيت لو أن رجلًا وجد مع امرأته رجلًا أيقتله؟ فتقتلونه أم كيف يفعل، سل**

لي عن ذلك يا عاصم رسول الله ﷺ، فسأل عاصم رسول الله ﷺ عن ذلك فكره رسول الله ﷺ المسائل وعابها، حتىٰ كَبُرَ علىٰ عاصم ما سمع من رسول الله ﷺ، فلما رجع عاصم إلىٰ أهله جاءه عويمر فقال له: يا عاصم ماذا قال رسول الله ﷺ؟ فقال عاصم لعويمر: لم تأتني بخير، قد كره رسول الله ﷺ المسألة التي سألته عنها، قال عويمر: والله لا أنتهي حتىٰ أسأله عنها، فجاء عويمر ورسول الله ﷺ وسط الناس، فقال: يا رسول الله! أرأيتَ رجلًا وجد مع امرأته رجلًا أيقتله فتقتلونه؟ وفي رواية: إن تكلم جلدتموه، وإن قتل قتلتموه، وإن سكت سكت علىٰ غيظ، أم كيف يفعل؟ فقال رسول الله ﷺ: «قَدْ أُنْزِلَ فِيكَ وَفِي صَاحِبَتِكَ فَاذْهَبْ فَأْتِ بِهَا»، فقال سهل: فتلاعنا وأنا مع الناس عند رسول الله ﷺ، فلما فرغا من تلاعنهما قال عويمر: كذبتُ عليها يا رسول الله، إن أمسكتُها، فطلقها ثلاثًا قبل أن يأمره رسول الله ﷺ.

وَالصَّحِيحُ: أنه لا يلزم أن يُطلقها، فالفرقة حاصلة بمجرد حصول اللعان.

- وقد يُلاعن من الطفل، ولا يُلاعن من الزوجة، وقد يُلاعن من الزوجة، ولا يُلاعن من الطفل.

- وقد يُلاعن من كليهما، فقد يقول: هذا الولد ما هو ولدي، ويُلاعن أنه ليس بولده، لكن لم يتهم أمه، إما لأنها غُصِبَت، وإما أنه فُعِلَ معها شيء لم تُدركه أو تعقله، فينتفي من الولد.

- وقد يُلاعن من المرأة علىٰ أنها زانية، ولكنه يُقر أن الولد ولدٌ له، فعند ذلك يُفرق بينه وبين المرأة، والولد يُنسب إليه ويرث منه.

- وقد يُلاعن من المرأة ويلاعن من الولد، فيُفرق بينه وبين المرأة ويُلحق الولد بأمه ويرث منها، ولا يُلحق بالزوج.

۞ **ويؤخذ من هذه القصة قاعدة تُسمىٰ: (البلاء موكل بالمنطق)**، فإن هذا الرجل سأل عن شيءٍ لم يقع، ثم وقع بسبب سؤاله، والنبي ﷺ كان يُعيب المسألة التي لم تقع.

وفي الصحيحين عن ابن عباس: أن هلال بن أمية قذف امرأته عند رسول الله ﷺ بشريك بن سحماء، فقال النبي ﷺ: **«الْبَيِّنَةُ أَوْ حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ»**، فقال: يا رسول الله إذا رأىٰ أحدنا علىٰ امرأته رجلًا ينطلق يلتمس البينة؟ يعني: ما يرجع إلا وقد انتهوا من شأنهم، فجعل النبي ﷺ يقول: **«الْبَيِّنَةُ أَوْ حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ»**، فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني

صادق، وليُنزلن الله ما يُبرئ ظهري من الحد، فنزل جبريل، وأنزل عليه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ فقرأ حتىٰ بلغ: ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فانصرف النبي ﷺ فأرسل إليهما، فجاء هلال فشهد، والنبي ﷺ يقول: **«إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَكُمَا كَاذِبٌ فَهَلْ مِنْكُمَا تَائِبٌ؟»** ثم قامت فشهدت، فلما كانت عند الخامسة وقفوها، وقالوا: إنها موجبة، قال ابن عباس: فتلكأت ولكصت، حتىٰ ظننا أنها ترجع، ثم قالت: لا أفضح قومي سائر اليوم، فمضت فقال النبي ﷺ: **«أَبْصِرُوهَا فَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَكْحَلَ الْعَيْنَيْنِ سَابِغَ الْإِلْيَتَيْنِ خَدَلَّجَ السَّاقَيْنِ فَهُوَ لِشَرِيكِ بْنِ سَحْمَاءَ»** فجاءت به كذلك، فقال النبي ﷺ: **«لَوْلَا مَا مَضَىٰ مِنْ كِتَابِ اللهِ لَكَانَ لِي وَلَهَا شَأْنٌ»** **متفق عليه.**

وهو أن كتاب الله أخذ عليها الملاعنة، إذا لاعنت لا يُقام عليها الحد، لأنها برأت نفسها بالحكم الشرعي وهو اللعان.

◻ وَٱلۡكَلَامُ فِي حُكۡمِ الآيَةِ:

أن الرجل إذا قذف امرأته فموجبه موجب قذف الأجنبي في وجوب الحد عليه إن كانت محصنة، أو التعزير إن لم تكن محصنة، غير أن الخروج منها مختلف، فإذا قذف أجنبيًا يُقام الحد عليه، إلا أن يُقيم أربعة من الشهود علىٰ زناه، أو يُقر به المقذوف فيُسقط عنه حد القذف.

وفي الزوجة إذا وجد أحد هذين، أو لاعن يسقط عنه الحد، فاللعان في قذف الزوجة بمنزلة البينة؛ لأن الرجل إذا رأىٰ مع امرأته رجلًا ربما لا يمكنه إقامة البينة عليها، ولا يمكنه الصبر علىٰ العار، فجعل الله اللعان حجة له علىٰ صدقه.

فقال تعالىٰ: ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ وإذا أقام الزوج البينة علىٰ زناها أو اعترفت بالزنا سقط عنه الحد واللعان، إلا أن يكون هناك ولد يُريد نفيه فله أن يلاعن لنفيه، وإذا أراد الإمام أن يلاعن بينهما يبدأ فيقيم الرجل ويلقنه كلمات اللعان، فيقول: قل أشهدُ بالله إني لمن الصادقين فيما رميت به فلانة بالزنا، وإن كان قد رماها برجل بعينه سماه بعينه، وإن رماها بجماعة سماهم ويقول الزوج كما يلقنه الإمام، وإن كان ولد أو حمل يريد نفيه يقول وإن هذا الولد أو الحمل لمن الزنا وما هو مني.

ويقول في الخامسة: علي لعنة الله إن كنت من الكاذبين فيما رميت به فلانة، وإذا أتىٰ بكلمة منها من غير تلقين الحاكم لا تكون محسوبة.

فإذا فرغ الرجل من اللعان وقعت الفرقة بينه وبين زوجته وحرمت عليه علىٰ التأبيد، وانتفىٰ عنه النسب وسقط عنه حد القذف، ووجب علىٰ المرأة حد الزنا.

وهذه من المسائل التي يُقدم فيها يمين المدعي، علىٰ يمين المدعىٰ عليه، ومثله القسامة يُقدم يمين المدعين، ومثله الشاهد مع اليمين يُقدم يمين المدعي.

❁ **فهذه ثلاث مسائل** يقدم فيها يمين المدعي ولا يخالف حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«الْبَيِّنَةَ عَلَىٰ الْمُدَّعِي وَالْيَمِينَ عَلَىٰ مَنْ أَنْكَرَ»**، فهذا بابٌ وهذا باب وكلٌ صحت به الأدلة ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ تقوم كل شهادة مقام شاهد.

٧ ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ﴾ يقول: ﴿أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في اتهامه لها، وجعل في حق الزوج اللعن، وفي حق الزوجة الغضب؛ لأن الغضب أشد والزوج أحرص علىٰ ستر حُرَمه من فضحها.

٨ ﴿وَيَدْرَؤُا۟﴾ يُدفع، ﴿عَنْهَا ٱلْعَذَابَ﴾ الحد، ﴿أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في اتهامها بما اتهما به.

٩ ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في قوله، وتقدم أن فُرقة اللعان فسخ وليس بطلاق، ولا يجوز له إن كذب نفسه أن يرجع إليها.

❁ ويُغلظ اللعان بأربعة أشياء: بعدد الألفاظ والمكان والزمان، وأن يكون بمحضر جماعة من الناس.

١٠ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بهذه الأحكام، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ﴾ لمن عصاه ووقع فيما عنه نهاه، إن أقلع وندم، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما فرض وشرع، فهذه الأحكام التي ذُكِرَت تُعتبر من فضل الله سبحانه وتعالىٰ: إذ أن الناس لو بقوا علىٰ ما هم فيه لضاق بهم الحال والمآل، قال سعد بن عبادة: والله يا رسول الله لو وجدت رجلًا مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح، قال النبي ﷺ: **«أتعجبون مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ؟ وَاللهِ لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، وَاللهُ أَغْيَرُ مِنِّي»** متفق عليه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾.

﴿١١﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ التهمة بالزنا، وأشاعوا القذف لأم المؤمنين عائشة الطاهرة المبرأة بالكتاب والسنة والعقل والإجماع، فإن الله حرم الزنا وسماه فاحشة، وكانت من الصديقات القانتات المنيبات، فهي بعيدةٌ كلَّ البعد عن هذا الأمر المستقبح، وعن أسبابه ودواعيه، وما كان ليُلوِّث الجناب النبوي بمثل هذا الأمر، فإن تعاطي الفاحشة من المرأة يكون طعنًا في زوجها، وإجماع المسلمين قائم علىٰ برآتها مما اتهمت به.

ومن خالف في ذلك فليس من المسلمين في سرد ولا ورد، واتهام عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بهذا الأمر المستقبح هو أحد أوجه كفر الرافضة والباطنية.

وأما ما جاء من خيانة زوجتي نوح ولوط:

فالمُراد خيانة الدين والملة، لا خيانة الفاحشة كما قال ابن عباس: ما زنت امرأةُ نبيٍّ قط.

والذين جاءوا بهذا الأمر: ﴿عُصْبَةٌ﴾ جماعة، ﴿مِّنكُمْ﴾ من المسلمين، وأما أصلُ التُهمة فهي من المنافقين حيث تولىٰ كِبرَهُ عبد الله بن أبي بن سلول رأس النفاق، ﴿لَا تَحْسَبُوهُ﴾ لا تظنوه، ﴿شَرًّا لَّكُم﴾ لما فيه من ضيق الصدر، وما لحق النبي ﷺ ولحق أهل بيته، ولحق المسلمين بسببه، ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لما فيه من المصالح المتحققة حالًا وقالًا، ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾ ممن تكلم وخاض في هذه المسألة، سواءً في زمنهم أو في هذا الزمان، إلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها، فما زال الرافضةُ والباطنيةُ ينتحلون هذا الأمر، ويقعون في عرض النبي عليه الصلاة والسلام، ويقعون في زوجه باتهامها بما برأها الله منه في هذه السورة العظيمة؛ لتعلم حقدهم علىٰ الإسلام وأهله، ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾ تحمل، ﴿كِبْرَهُۥ﴾ عظيم هذه الفرية المستقبحة، ﴿مِنْهُمْ﴾ أي: من القاذفين؛ وهو عبد الله بن أبي بن سلول،

﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ موجع في الآخرة؛ جزاء كذبه، وما من أحدٍ يقع في عرضِ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وأرضاها إلا ولعبد الله بن أبي بن سلول من ذلك الذنب وله عليه العذاب والنكال، وكان حالها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ما وصفها به حسان بن ثابت، كما في الصحيح وغيره:

حَصَـــانٌ رَزَانٌ مَـــا تُـــزَنُّ بِرِيبَـــةٍ وَتُصْبِحُ غَرْثَىٰ مَنْ لُحُومِ الْغَوَافِلِ

وممن تكلم بالأمر من المسلمين حسان بن ثابت، وقد تاب إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، وحمنة بنت جحش ومسطح بن أثاثة، وقد جُلِدوا بعد أن أنزل الله عَزَّوَجَلَّ هذا الحكم، وأما ابن سلول فحاله إن كان بين المنافقين أشاع الأمر، وإن كان بين المسلمين ومن يشهدون عليه أظهر غير ذلك.

وقد ساق البخاري ومسلم رحمهما الله هذه القصة: عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ، حِينَ قَالَ لَهَا: أَهْلُ الإِفْكِ مَا قَالُوا، وَكُلُّهُمْ حَدَّثَنِي طَائِفَةً مِنْ حَدِيثِهَا، وَبَعْضُهُمْ كَانَ أَوْعَىٰ لِحَدِيثِهَا مِنْ بَعْضٍ، وَأَثْبَتَ لَهُ اقْتِصَاصًا، وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْ كُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمُ الحَدِيثَ الَّذِي حَدَّثَنِي عَنْ عَائِشَةَ، وَبَعْضُ حَدِيثِهِمْ يُصَدِّقُ بَعْضًا، وَإِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ أَوْعَىٰ لَهُ مِنْ بَعْضٍ، قَالُوا: قَالَتْ عَائِشَةُ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ أَزْوَاجِهِ، فَأَيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مَعَهُ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا فَخَرَجَ فِيهَا سَهْمِي، فَخَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَعْدَ مَا أُنْزِلَ الحِجَابُ، فَكُنْتُ أُحْمَلُ فِي هَوْدَجِي وَأُنْزَلُ فِيهِ، فَسِرْنَا حَتَّىٰ إِذَا فَرَغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ غَزْوَتِهِ تِلْكَ وَقَفَلَ، دَنَوْنَا مِنَ المَدِينَةِ قَافِلِينَ، آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ، فَقُمْتُ حِينَ آذَنُوا بِالرَّحِيلِ، فَمَشَيْتُ حَتَّىٰ جَاوَزْتُ الجَيْشَ، فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي أَقْبَلْتُ إِلَىٰ رَحْلِي، فَلَمَسْتُ صَدْرِي، فَإِذَا عِقْدٌ لِي مِنْ جَزْعِ ظَفَارِ قَدِ انْقَطَعَ، فَرَجَعْتُ فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ، قَالَتْ: وَأَقْبَلَ الرَّهْطُ الَّذِينَ كَانُوا يُرَحِّلُونِي، فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي فَرَحَلُوهُ عَلَىٰ بَعِيرِي الَّذِي كُنْتُ أَرْكَبُ عَلَيْهِ، وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فِيهِ، وَكَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يَهْبُلْنَ، وَلَمْ يَغْشَهُنَّ اللَّحْمُ، إِنَّمَا يَأْكُلْنَ العُلْقَةَ مِنَ الطَّعَامِ، فَلَمْ يَسْتَنْكِرِ القَوْمُ خِفَّةَ الهَوْدَجِ حِينَ رَفَعُوهُ وَحَمَلُوهُ، وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ، فَبَعَثُوا الجَمَلَ فَسَارُوا، وَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَ مَا اسْتَمَرَّ الجَيْشُ، فَجِئْتُ مَنَازِلَهُمْ وَلَيْسَ بِهَا مِنْهُمْ دَاعٍ وَلاَ مُجِيبٌ، فَتَيَمَّمْتُ مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ بِهِ، وَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ سَيَفْقِدُونِي فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ فِي مَنْزِلِي، غَلَبَتْنِي عَيْنِي فَنِمْتُ، وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ المُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ ثُمَّ الذَّكْوَانِيُّ مِنْ وَرَاءِ الجَيْشِ، فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي، فَرَأَىٰ سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ فَعَرَفَنِي حِينَ رَآنِي، وَكَانَ رَآنِي قَبْلَ

الحِجَابِ، فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حِينَ عَرَفَنِي، فَخَمَّرْتُ وَجْهِي بِجِلْبَابِي، وَوَاللهِ مَا تَكَلَّمْنَا بِكَلِمَةٍ، وَلاَ سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ اسْتِرْجَاعِهِ، وَهَوَىٰ حَتَّىٰ أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ، فَوَطِئَ عَلَىٰ يَدِهَا، فَقُمْتُ إِلَيْهَا فَرَكِبْتُهَا، فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ حَتَّىٰ أَتَيْنَا الجَيْشَ مُوغِرِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ وَهُمْ نُزُولٌ، قَالَتْ: فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَ الإِفْكِ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ، قَالَ عُرْوَةُ: أُخْبِرْتُ أَنَّهُ كَانَ يُشَاعُ وَيُتَحَدَّثُ بِهِ عِنْدَهُ، فَيُقِرُّهُ وَيَسْتَمِعُهُ وَيَسْتَوْشِيهِ، وَقَالَ عُرْوَةُ أَيْضًا: لَمْ يُسَمَّ مِنْ أَهْلِ الإِفْكِ أَيْضًا إِلَّا حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ، وَمِسْطَحُ بْنُ أُثَاثَةَ، وَحَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ، فِي نَاسٍ آخَرِينَ لاَ عِلْمَ لِي بِهِمْ، غَيْرَ أَنَّهُمْ عُصْبَةٌ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ، وَإِنَّ كِبْرَ ذَلِكَ يُقَالُ لَهُ: عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ، قَالَ عُرْوَةُ: كَانَتْ عَائِشَةُ تَكْرَهُ أَنْ يُسَبَّ عِنْدَهَا حَسَّانُ، وَتَقُولُ: إِنَّهُ الَّذِي قَالَ:

فـــإن أبـــي ووالـــده وعرضـــي ... لعـــرض محمـــد مـــنكم وقـــاء

قالت عائشة: فَاشْتَكَيْتُ حِينَ قَدِمْتُ شَهْرًا، وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ فِي قَوْلِ أَصْحَابِ الإِفْكِ، لاَ أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ وَهُوَ يَرِيبُنِي فِي وَجَعِي، أَنِّي لاَ أَعْرِفُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ اللُّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَىٰ مِنْهُ حِينَ أَشْتَكِي، إِنَّمَا يَدْخُلُ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَيُسَلِّمُ ثُمَّ يَقُولُ: **«كَيْفَ تِيكُمْ؟»** ثُمَّ يَنْصَرِفُ، فَذَاكَ الَّذِي يَرِيبُنِي وَلاَ أَشْعُرُ بِالشَّرِّ حَتَّىٰ خَرَجْتُ بَعْدَمَا نَقَهْتُ، فَخَرَجَتْ مَعِي أُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ المَنَاصِعِ وَهُوَ مُتَبَرَّزُنَا، وَكُنَّا لاَ نَخْرُجُ إِلَّا لَيْلًا إِلَىٰ لَيْلٍ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ نَتَّخِذَ الكُنُفَ قَرِيبًا مِنْ بُيُوتِنَا، وَأَمْرُنَا أَمْرُ العَرَبِ الأُوَلِ فِي التَّبَرُّزِ قِبَلَ الغَائِطِ، فَكُنَّا نَتَأَذَّىٰ بِالكُنُفِ أَنْ نَتَّخِذَهَا عِنْدَ بُيُوتِنَا، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ وَهِيَ ابْنَةُ أَبِي رُهْمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ، وَأُمُّهَا بِنْتُ صَخْرِ بْنِ عَامِرٍ خَالَةُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، وَابْنُهَا مِسْطَحُ بْنُ أُثَاثَةَ، فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ بَيْتِي، وَقَدْ فَرَغْنَا مِنْ شَأْنِنَا، فَعَثَرَتْ أُمُّ مِسْطَحٍ فِي مِرْطِهَا، فَقَالَتْ: تَعِسَ مِسْطَحٌ، فَقُلْتُ لَهَا: بِئْسَ مَا قُلْتِ، أَتَسُبِّينَ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا؟ قَالَتْ: أَيْ هَنْتَاهْ أَوَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالَ؟ قَالَتْ: قُلْتُ: وَمَا قَالَ؟ فَأَخْبَرَتْنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الإِفْكِ، فَازْدَدْتُ مَرَضًا عَلَىٰ مَرَضِي، فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَىٰ بَيْتِي، وَدَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ تَعْنِي سَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: **«كَيْفَ تِيكُمْ؟»** فَقُلْتُ: أَتَأْذَنُ لِي أَنْ آتِيَ أَبَوَيَّ، قَالَتْ: وَأَنَا حِينَئِذٍ أُرِيدُ أَنْ أَسْتَيْقِنَ الخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا، قَالَتْ: فَأَذِنَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَجِئْتُ أَبَوَيَّ فَقُلْتُ لِأُمِّي: يَا أُمَّتَاهْ مَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ؟ قَالَتْ: يَا بُنَيَّةُ هَوِّنِي عَلَيْكِ، فَوَاللهِ لَقَلَّمَا كَانَتِ امْرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةٌ عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا، وَلَهَا ضَرَائِرُ إِلَّا كَثَّرْنَ عَلَيْهَا، قَالَتْ: فَقُلْتُ سُبْحَانَ اللهِ، أَوَلَقَدْ تَحَدَّثَ النَّاسُ بِهَذَا؟ قَالَتْ: فَبَكَيْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّىٰ

أَصْبَحْتُ لاَ يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ، وَلاَ أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، حَتَّىٰ أَصْبَحْتُ أَبْكِي، فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حِينَ اسْتَلْبَثَ الوَحْيُ، يَسْتَأْمِرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ، قَالَتْ: فَأَمَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ فَأَشَارَ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالَّذِي يَعْلَمُ مِنْ بَرَاءَةِ أَهْلِهِ، وَبِالَّذِي يَعْلَمُ لَهُمْ فِي نَفْسِهِ مِنَ الوُدِّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَهْلَكَ وَلاَ نَعْلَمُ إِلَّا خَيْرًا، وَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ لَمْ يُضَيِّقِ اللهُ عَلَيْكَ، وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ، وَإِنْ تَسْأَلِ الجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ، قَالَتْ: فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بَرِيرَةَ، فَقَالَ: **«أَيْ بَرِيرَةُ، هَلْ رَأَيْتِ مِنْ شَيْءٍ يَرِيبُكِ؟»** قَالَتْ بَرِيرَةُ: لاَ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ، إِنْ رَأَيْتُ عَلَيْهَا أَمْرًا أَغْمِصُهُ عَلَيْهَا، أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ، تَنَامُ عَنْ عَجِينِ أَهْلِهَا، فَتَأْتِي الدَّاجِنُ فَتَأْكُلُهُ، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَاسْتَعْذَرَ يَوْمَئِذٍ مِنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ، قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ عَلَىٰ المِنْبَرِ: **«يَا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي، فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَىٰ أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَىٰ أَهْلِي إِلَّا مَعِي»**، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ الأَنْصَارِيُّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَنَا أَعْذِرُكَ مِنْهُ، إِنْ كَانَ مِنَ الأَوْسِ ضَرَبْتُ عُنُقَهُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنَ الخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا أَمْرَكَ، قَالَتْ: فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ وَهُوَ سَيِّدُ الخَزْرَجِ، وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ رَجُلًا صَالِحًا، وَلَكِنِ احْتَمَلَتْهُ الحَمِيَّةُ، فَقَالَ لِسَعْدٍ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللهِ لاَ تَقْتُلُهُ، وَلاَ تَقْدِرُ عَلَىٰ قَتْلِهِ، فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ وَهُوَ ابْنُ عَمِّ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ، فَقَالَ لِسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللهِ لَنَقْتُلَنَّهُ، فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عَنِ المُنَافِقِينَ، فَتَثَاوَرَ الحَيَّانِ الأَوْسُ وَالخَزْرَجُ حَتَّىٰ هَمُّوا أَنْ يَقْتَتِلُوا، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ قَائِمٌ عَلَىٰ المِنْبَرِ، فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُخَفِّضُهُمْ حَتَّىٰ سَكَتُوا، وَسَكَتَ، قَالَتْ: فَبَكَيْتُ يَوْمِي ذَلِكَ لاَ يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلاَ أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، قَالَتْ: فَأَصْبَحَ أَبَوَايَ عِنْدِي وَقَدْ بَكَيْتُ لَيْلَتَيْنِ وَيَوْمًا لاَ أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، وَلاَ يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ، يَظُنَّانِ أَنَّ البُكَاءَ فَالِقٌ كَبِدِي، قَالَتْ: فَبَيْنَمَا هُمَا جَالِسَانِ عِنْدِي، وَأَنَا أَبْكِي فَاسْتَأْذَنَتْ عَلَيَّ امْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ، فَأَذِنْتُ لَهَا فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِي، قَالَتْ: فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَىٰ ذَلِكَ، دَخَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَسَلَّمَ ثُمَّ جَلَسَ، قَالَتْ: وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مُنْذُ قِيلَ مَا قِيلَ قَبْلَهَا، وَقَدْ **«لَبِثَ»** شَهْرًا لاَ يُوحَىٰ إِلَيْهِ فِي شَأْنِي، قَالَتْ: فَتَشَهَّدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ جَلَسَ، ثُمَّ قَالَ: **«أَمَّا بَعْدُ يَا عَائِشَةُ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللهُ، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ العَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ ثُمَّ تَابَ إِلَىٰ اللهِ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ»** قَالَتْ: فَلَمَّا قَضَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَقَالَتَهُ قَلَصَ دَمْعِي حَتَّىٰ مَا أُحِسُّ مِنْهُ قَطْرَةً، فَقُلْتُ لِأَبِي: أَجِبْ

رَسُولَ اللهِ ﷺ فِيمَا قَالَ، قَالَ: وَاللهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ لِأُمِّي: أَجِيبِي رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَتْ: مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَتْ: فَقُلْتُ وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ لاَ أَقْرَأُ كَثِيرًا مِنَ القُرْآنِ: إِنِّي وَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَقَدْ سَمِعْتُمْ هَذَا الحَدِيثَ، حَتَّىٰ اسْتَقَرَّ فِي أَنْفُسِكُمْ وَصَدَّقْتُمْ بِهِ فَلَئِنْ، قُلْتُ لَكُمْ: إِنِّي بَرِيئَةٌ، وَاللهُ يَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ لاَ تُصَدِّقُونِي بِذَلِكَ، وَلَئِنِ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ وَاللهُ يَعْلَمُ أَنِّي مِنْهُ بَرِيئَةٌ لَتُصَدِّقُنِّي، وَاللهِ مَا أَجِدُ لَكُمْ مَثَلًا إِلَّا قَوْلَ أَبِي يُوسُفَ، قَالَ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:١٨]، قَالَتْ: ثُمَّ تَحَوَّلْتُ فَاضْطَجَعْتُ عَلَىٰ فِرَاشِي، قَالَتْ: وَأَنَا حِينَئِذٍ أَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ، وَأَنَّ اللهَ مُبَرِّئِي بِبَرَاءَتِي، وَلَكِنْ وَاللهِ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ اللهَ مُنْزِلٌ فِي شَأْنِي وَحْيًا يُتْلَىٰ، وَلَشَأْنِي فِي نَفْسِي كَانَ أَحْقَرَ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللهُ فِيَّ بِأَمْرٍ يُتْلَىٰ، وَلَكِنْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللهُ بِهَا.

قَالَتْ: فَوَاللهِ مَا رَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَجلسه.

قالت: وَلاَ خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ البَيْتِ حَتَّىٰ أُنْزِلَ عَلَيْهِ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ البُرَحَاءِ، حَتَّىٰ إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِثْلُ الجُمَانِ مِنَ العَرَقِ، وَهُوَ فِي يَوْمٍ شَاتٍ، مِنْ ثِقَلِ القَوْلِ الَّذِي يُنْزَلُ عَلَيْهِ، قَالَتْ: فَلَمَّا سُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ سُرِّيَ عَنْهُ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَكَانَتْ أَوَّلُ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا: **«يَا عَائِشَةُ، أَمَّا اللهُ** عَزَّوَجَلَّ **فَقَدْ بَرَّأَكِ»** فَقَالَتْ أُمِّي: قُومِي إِلَيْهِ، قَالَتْ: فَقُلْتُ: لاَ وَاللهِ لاَ أَقُومُ إِلَيْهِ، وَلاَ أَحْمَدُ إِلَّا اللهَ عَزَّوَجَلَّ.

قالت: فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا﴾ [النور:١١]، العَشْرَ الآيَاتِ كُلَّهَا، فَلَمَّا أَنْزَلَ اللهُ هَذَا فِي بَرَاءَتِي، قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَىٰ مِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ وَفَقْرِهِ: وَاللهِ لاَ أُنْفِقُ عَلَىٰ مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ مَا قَالَ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور:٢٢]، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: بَلَىٰ وَاللهِ إِنِّي أُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لِي، فَرَجَعَ إِلَىٰ مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: وَاللهِ لاَ أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا، قَالَتْ عَائِشَةُ: وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَسْأَلُ زَيْنَبَ ابْنَةَ جَحْشٍ عَنْ أَمْرِي، فَقَالَ: **«يَا زَيْنَبُ مَاذَا عَلِمْتِ أَوْ رَأَيْتِ؟»** فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي، مَا عَلِمْتُ إِلَّا خَيْرًا، قَالَتْ: وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي مِنْ أَزْوَاجِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَعَصَمَهَا اللهُ بِالوَرَعِ وَطَفِقَتْ أُخْتُهَا حَمْنَةُ تُحَارِبُ لَهَا، فَهَلَكَتْ فِيمَنْ هَلَكَ مِنْ أَصْحَابِ الإِفْكِ.

قال ابن شهاب: هذا الذي بلغني من حديث هؤلاء الرهط، قالت عائشة: والله إن الرجل الذي قيل له ما قيل ليقول: سبحان الله! فوالذي نفسي بيده ما كشفتُ من كنف أنثىٰ قط، قالت: ثم قتل بعد ذلك في سبيل الله.

١٢ ﴿لَّوْلَآ﴾ هلا ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ أي: خبر القذف ﴿ظَنَّ﴾ استيقن ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ سلامة وبعدًا عن هذا الذنب العظيم ، فمن باب أولىٰ بعد عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ كذب بينٌ.

١٣ ﴿لَّوْلَا﴾ هلا، ﴿جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ يشهدون بالفعلة، ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ﴾ الأربعة من الذكور فلا مدخل للإناث في هذه الشاهدة، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الذين خاضوا بالإفك، ﴿عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾.

١٤ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بتثبيتكم علىٰ دينه، ﴿وَرَحْمَتُهُۥ﴾ لكم بتوفيقه للخير، ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ﴾ أصابكم، ﴿فِى مَآ أَفَضْتُمْ﴾ وقعتم، ﴿فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ مؤلم.

١٥ ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ﴾ تكذبون فالولق الكذب، ﴿بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ وإنما هي الظنون وتصديق الكذب، ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ﴾ أي: هذا القول، ﴿هَيِّنًا﴾ سهلًا، ﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ في الوزر، وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الصحيحين، قال النبي ﷺ: **«اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ»** وذكر منهن: **«وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الغَافِلاَتِ»**.

١٦ ﴿وَلَوْلَا﴾ هلا، ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ هذا القذف والقول السيء، ﴿قُلْتُم﴾ بلسان حالكم ومقالكم، ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ القول القبيح المستعبد ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ علىٰ التعجب والتنزيه، ﴿هَٰذَا﴾ القول: ﴿بُهْتَٰنٌ﴾ كذبٌ بَيِّنٌ وظاهر، ﴿عَظِيمٌ﴾ إذ أنه قام علىٰ غير دليلٍ وغير قرينة، وإنما هي الظنون الفاسقة الفاسدة.

١٧ ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ﴾ ينهاكم الله، ﴿أَن تَعُودُوا۟﴾ ترجعوا، ﴿لِمِثْلِهِۦٓ﴾ لمثل هذا القول، ﴿أَبَدًا﴾ ما حييتم، ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ مستسلمين منقادين لرب العالمين.

١٨ ﴿وَيُبَيِّنُ﴾ يُظهر: ﴿ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ الأوامر والنواهي، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بكل شيء وبأمرِ عائشة وصفوان، ﴿حَكِيمٌ﴾ حيث حكم ببراءتهما، وحكيمٌ بكل فعل.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿١٩﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ﴾ تظهر وتُذاع، وهي الزنا، ﴿فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بالجلد وإقامة الحد، ﴿وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ في نار جهنم، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ كذبهم، ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ إلا ما ظهر لكم.

﴿٢٠﴾ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ﴾ بعباده، فلا يُعاجلهم بالعقوبة، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم في قبول توبتهم وإصلاح حالهم.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿٢١﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟﴾ تتابعوا: ﴿خُطُوَٰتِ﴾ سُبُل: ﴿ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ الرجيم، ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ﴾ فيكون حاله أنه: ﴿يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ القبائح من الأفعال، ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾ ما يكره الله عَزَّوَجَلَّ من الأفعال والأقوال، ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ﴾ تزكىٰ: ﴿مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ أي: ما هُدي ولا وفق من أحد، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى﴾ يُطَهِّر بالأعمال الصالحة، ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من عبادهم مَن علمه أهلًا للتقوىٰ، ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ للأقوال، ﴿عَلِيمٌ﴾ بالأفعال وكل شيء، لا تخفىٰ عليه خافية.

﴿٢٢﴾ ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ لا يحلف، الإلية الحَلِف، ﴿أُو۟لُوا۟﴾ أصحاب، ﴿ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ الزائد من المال، ﴿وَٱلسَّعَةِ﴾ يعني: أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حيث وسع الله عليه في المال، ﴿أَن يُؤْتُوٓا۟﴾ يُعطوا: ﴿أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أصحاب القرابة منهم وإن تكلموا فيهم بالباطل، كما فعل مسطح حين تكلم في عائشة، فأقسم أبوها ألا يُعطيه النفقة، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ هذا التوجيه الرباني.

﴿وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾ والفقراء ﴿وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ من هجر بلده فرارا بدينه ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الجهاد ونحوه ممن لهم حق في الزكاة المفروضة، ولا بأس أن يُعطوا من الصدقة المستحبة ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟﴾ عما تقدم من الإساءة والأذىٰ إليهم، ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ إذا أنتم عاملتم عبيده بالعفو والصفح عاملكم بذلك، وهذا من حلمه ولطفه سبحانه وتعالىٰ

بخلقه، وعند أن سمع أبا بكر هذه الآية قال: "بلىٰ، والله إني لأحب أن يغفر الله لي"، فرجع النفقة إلىٰ مسطح، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ متجاوز، ﴿رَّحِيمٌ﴾ أي: أنه يُجازي بالمغفرة والرحمة لمن أطاعه واتقاه، ولذلك لما سمع أبو بكر هذه الآية قال: بلىٰ نُحب ورجع إلىٰ ما كان يُنفق.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿٢٣﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ العفيفات عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ومن في حكمها من زوجات النبي ﷺ، ﴿ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾ عن الفواحش، ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ المنيبات الطائعات، ﴿لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ عذبوا بالحدود وفي الآخرة بالنار، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿٢٤﴾ ويكون هذا العذاب، ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ﴾ فتتكلم بما عملوا، ﴿وَأَيْدِيهِمْ﴾ يُنطقها الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [فصلت:٢١]، ﴿وَأَرْجُلُهُم﴾ تشهد عليهم، ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ بمشيها إلىٰ الباطل.

﴿٢٥﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ﴾ أي: يُعطيهم ويجزيهم، ﴿ٱللَّهُ دِينَهُمُ﴾ جزاؤهم، وحسابهم ﴿ٱلْحَقَّ﴾ العدل ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ يُبين لهم حقيقة ما كان يعدهم في الدنيا، وفي الحديث: **«اللَّهُمَّ أَنْتَ الحَقُّ وَقَوْلُكَ الحَقُّ»** متفق عليه عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فهو الحق الثابت الذي لا شريك له، ولا مثيل ولا نظير.

﴿٢٦﴾ ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ﴾ من الأقوال والأفعال، ﴿لِلْخَبِيثِينَ﴾ من الناس الذين لا يرعوون عن الباطل، ﴿وَٱلْخَبِيثُونَ﴾ من الناس، ﴿لِلْخَبِيثَٰتِ﴾ من الأقوال والأفعال، ﴿وَٱلطَّيِّبَاتُ﴾ من الأقوال والأفعال، ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾ من الناس، ﴿وَٱلطَّيِّبُونَ﴾ من الناس، ﴿لِلطَّيِّبَاتِ﴾ من الأقوال والأفعال، ﴿أُولَٰئِكَ﴾ يعني: عائشة وصفوان، ﴿مُبَرَّءُونَ﴾ بريؤون مما اتهموا به، ﴿مِمَّا يَقُولُونَ﴾ مما يقوله أهل النفاق، ﴿لَهُم﴾ للمؤمنين ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ وتجاوز، ﴿وَرِزْقٌ﴾ عطاءٌ، ﴿كَرِيمٌ﴾ واسعٌ في الجنة، قال عمار: والله إنها لزوجته في الدنيا والآخرة، ولكنكم ابتليتم بها.

❁ وَقِيلَ فِي مَعْنَى هَذِهِ الآيَةِ:

الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء، وهذا ليس علىٰ إطلاقه، فقد يتزوج رجلٌ صالحٌ امرأة تكون سيئة، وقد تتزوج امرأة صالحة علىٰ رجلٍ سيء والعكس.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٢٨ لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ٢٩﴾.

﴿٢٧﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾ أي: تستأذنوا، ﴿وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ﴾ بقول السلام عليكم، كما في حديث كلدة بن حنبل قال: فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ وَلَمْ أُسَلِّمْ ، وَلَمْ أَسْتَأْذِنْ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«ارْجِعْ فَقُلْ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ ، أَأَدْخُلُ»**

أخرجه ابن ماجه.

وأكمله أن يقول: (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته)، فالسلام دلالة علىٰ الأمن والأمان، وحين يُسلم الداخل يحصل الانتباه.

﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ أي: الاستئذان ورد السلام والتزام هذه الآداب، ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ في دينكم ودنياكم، ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون، وفي الصحيحين عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سلم عبد الله بن قيس علىٰ عمر بن الخطاب ثلاث مرات، فلم يؤذن له، فرجع فأرسل عمر في إثره، فقال: لِمَ رجعت؟ قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إِذَا اسْتَأْذَنَ أَحَدُكُمْ ثَلَاثًا فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ ، فَلْيَرْجِعْ »** .

وشرع الله الاستئذان والسلام من أجل البصر.

﴿٢٨﴾ ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ﴾ أي: في هذه البيوت، ﴿أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا﴾ لأنها ليست ببيوت لكم، وقد تكون محل تُهمة؛ ﴿حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ﴾ من أهلها وأصحابها، وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: **«إِذْنُكَ عَلَيَّ أَنْ تَرْفَعَ الْحِجَابَ، وَأَنْ تَسْمَعَ سِوَادِي حَتَّىٰ أَنْهَاكَ »**

أخرجه مسلم.

﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟﴾ ولا يستدعي ذلك وجود الاختلافات والمهاجرات والمناكفات، ﴿هُوَ﴾ هذا الفعل وهذا الأدب ﴿أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ أي: أطهر وأفضل، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ لا تخفىٰ عليه خافية، وفي حديث سهل بن سعد قال: أَنَّ رَجُلًا اطَّلَعَ مِنْ جُحْرٍ فِي بَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَمَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِدْرًى يُرَجِّلُ بِهِ رَأْسَهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«لَوْ أَعْلَمُ أَنَّكَ تَنْظُرُ، طَعَنْتُ بِهِ فِي عَيْنِكَ، إِنَّمَا جَعَلَ اللهُ الْإِذْنَ مِنْ أَجْلِ الْبَصَرِ»**.

﴿٢٩﴾ ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ إثمٌ، ﴿أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ غير مأهولة بسكانٍ، وإنما هي أماكن عامة، مثل المجالس، والفنادق وغير ذلك، ﴿فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ﴾ مصلحة لكم ومنفعة، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ تظهرون من الأفعال والأقوال، ﴿وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ تخفون في صدوركم من الاعتقادات ونحوها.

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿٣٠﴾ ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟﴾ يكفوا ﴿مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ عن النظر إلىٰ الحرام، ﴿وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾ عن الحرام، كالزنا، واللواط، والعادة السرية، والسحاق بين النساء.

وقد أباح الله لهم الاستمتاع بالزوجة وملك اليمين كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾﴾ [المعارج:٣٠-٣١].

وعن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: **«اضْمَنُوا لِي سِتًّا مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَضْمَنْ لَكُمُ الْجَنَّةَ: اصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ وَأَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُمْ، وَأَدُّوا إِذَا اؤْتُمِنْتُمْ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ، وَغُضُّوا أَبْصَارَكُمْ، وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ»**، وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد، قال رسول الله ﷺ: **«لَا يَنْظُرُ الرَّجُلُ إِلَىٰ عَوْرَةِ الرَّجُلِ، وَلَا الْمَرْأَةُ إِلَىٰ عَوْرَةِ الْمَرْأَةِ ، وَلَا يُفْضِي الرَّجُلُ إِلَىٰ الرَّجُلِ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ وَلَا تُفْضِي الْمَرْأَةُ إِلَىٰ الْمَرْأَةِ فِي الثَّوْبِ الْوَاحِدِ»**، وفي حديث جرير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سألتُ النبي ﷺ عن نظر الفجأة، فقال: **«اصْرِفْ بَصَرَكَ»** أخرجه مسلم.

وعن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**يَا عَلِيُّ لَا تُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ، فَإِنَّمَا لَكَ الْأُولَىٰ ، وَلَيْسَتْ لَكَ الْآخِرَةُ**» اخرجه احمد، ﴿ذَٰلِكَ﴾ غض البصر وحفظ الفرج، ﴿أَزْكَىٰ﴾ أطهر وأخير وأفضل، ﴿لَهُمْ﴾ في الدنيا والآخرة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ بما يفعلون، فهو بكل شيءٍ عليم.

﴿٣١﴾ ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ عما لا يحل، ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ عمن لا يحل، ﴿وَلَا يُبْدِينَ﴾ ولا يظهرن، ﴿زِينَتَهُنَّ﴾ موضع الزينة لغير محرم، وأراد بها الزينة الخفية، وهما زينتان: خفية وظاهرة، فالخفية مثل الخلخال والخضاب في الرجل والسوار في المعصم، والقرط والقلائد فلا يجوز لها إظهارها، ولا للأجنبي النظر إليها، ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ الزينة الظاهرة.

❐ وَاخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي هَذِهِ الزِّينَةِ الظَّاهِرَةِ الَّتِي اسْتَثْنَاهَا اللهُ تَعَالَى.

فقال سعيد بن جبير والضحاك والأوزاعي: هو الوجه والكفان. وقال ابن مسعود: هي الثياب؛ بدليل قوله تعالىٰ: ﴿خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ **[الأعراف:٣١]**، وأراد بها الثياب.

وقال الحسن: الوجه والثياب.

وقال ابن عباس: الكحل والخاتم والخضاب في الكف.

وَالصَّحِيحُ أن الوجه ليس من الزينة الظاهرة، فيجب ستره وتغطيته، قد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ **[الأحزاب:٥٩]**، ومعلوم أن المرأة إذا كشفت عن وجهها عُرِفَت، وقد شرع الله عَزَّوَجَلَّ النظر إلىٰ المخطوبة؛ وذلك لتسترها في غير ذلك الموطن، فلا يلتفت إلىٰ قول يبيح لها كشف وجهها لغير محرم، إذ أنه سبيل للفتنة لها وبها، وقد جاء الإسلام بسد ذرائع الفتن.

وهنا مبحث في أضواء البيان للشنقيطي رحمه الله نذكره لأهميته حيث وقد احتج من يجوز كشف الوجه للمرأة بحديث الفضل بن عباس المتفق عليه فقال رحمه الله:

"وَمِنَ الْأَحَادِيثِ الَّتِي اسْتَدَلُّوا بِهَا عَلَىٰ ذَلِكَ، حَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ...، قَالَ: أَرْدَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْفَضْلَ بْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَوْمَ النَّحْرِ خَلْفَهُ عَلَىٰ عَجُزِ رَاحِلَتِهِ، وَكَانَ الْفَضْلُ رَجُلًا وَضِيئًا، فَوَقَفَ النَّبِيُّ ﷺ يُفْتِيهِمْ، وَأَقْبَلَتِ امْرَأَةٌ مِنْ خَثْعَمَ وَضِيئَةٌ تَسْتَفْتِي رَسُولَ اللهِ

ﷺ، فَطَفِقَ الْفَضْلُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا، وَأَعْجَبَهُ حُسْنُهَا فَالْتَفَتَ النَّبِيُّ ﷺ، وَالْفَضْلُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا، فَأَخْلَفَ بِيَدِهِ، فَأَخَذَ بِذَقَنِ الْفَضْلِ فَعَدَلَ وَجْهَهُ عَنِ النَّظَرِ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ فَرِيضَةَ اللهِ فِي الْحَجِّ عَلَىٰ عِبَادِهِ أَدْرَكَتْ أَبِي شَيْخًا كَبِيرًا. . . الْحَدِيثَ، قَالُوا: فَالْإِخْبَارُ عَنِ الْخَثْعَمِيَّةِ بِأَنَّهَا وَضِيئَةٌ يُفْهَمُ مِنْهُ أَنَّهَا كَانَتْ كَاشِفَةً عَنْ وَجْهِهَا.

وَأُجِيبُ عَنْ ذَلِكَ أَيْضًا مِنْ وَجْهَيْنِ:

■ **الْأَوَّلُ:** الْجَوَابُ بِأَنَّهُ لَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنْ رِوَايَاتِ الْحَدِيثِ التَّصْرِيحُ بِأَنَّهَا كَانَتْ كَاشِفَةً عَنْ وَجْهِهَا، وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَآهَا كَاشِفَةً عَنْهُ، وَأَقَرَّهَا عَلَىٰ ذَلِكَ بَلْ غَايَةُ مَا فِي الْحَدِيثِ أَنَّهَا كَانَتْ وَضِيئَةً، وَفِي بَعْضِ رِوَايَاتِ الْحَدِيثِ: أَنَّهَا حَسْنَاءُ، وَمَعْرِفَةُ كَوْنِهَا وَضِيئَةً أَوْ حَسْنَاءَ لَا يَسْتَلْزِمُ أَنَّهَا كَانَتْ كَاشِفَةً عَنْ وَجْهِهَا، وَأَنَّهُ ﷺ أَقَرَّهَا عَلَىٰ ذَلِكَ، بَلْ قَدْ يَنْكَشِفُ عَنْهَا خِمَارُهَا مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ، فَيَرَاهَا بَعْضُ الرِّجَالِ مِنْ غَيْرِ قَصْدِ كَشْفِهَا عَنْ وَجْهِهَا، كَمَا أَوْضَحْنَاهُ فِي رُؤْيَةِ جَابِرٍ سَفْعَاءَ الْخَدَّيْنِ.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ يَعْرِفُ حُسْنَهَا قَبْلَ ذَلِكَ الْوَقْتِ لِجَوَازِ أَنْ يَكُونَ قَدْ رَآهَا قَبْلَ ذَلِكَ وَعَرَفَهَا، وَمِمَّا يُوَضِّحُ هَذَا أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا الَّذِي رُوِيَ عَنْهُ هَذَا الْحَدِيثُ لَمْ يَكُنْ حَاضِرًا وَقْتَ نَظَرِ أَخِيهِ إِلَىٰ الْمَرْأَةِ وَنَظَرِهَا إِلَيْهِ، لِمَا قَدَّمْنَا مِنْ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدَّمَهُ بِاللَّيْلِ مِنْ مُزْدَلِفَةَ إِلَىٰ مِنًىٰ فِي ضَعَفَةِ أَهْلِهِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ إِنَّمَا رَوَىٰ الْحَدِيثَ الْمَذْكُورَ مِنْ طَرِيقِ أَخِيهِ الْفَضْلِ، وَهُوَ لَمْ يَقُلْ لَهُ: إِنَّهَا كَانَتْ كَاشِفَةً عَنْ وَجْهِهَا، وَاطِّلَاعُ الْفَضْلِ عَلَىٰ أَنَّهَا وَضِيئَةٌ حَسْنَاءُ لَا يَسْتَلْزِمُ السُّفُورَ قَصْدًا لِاحْتِمَالِ أَنْ يَكُونَ رَأَىٰ وَجْهَهَا، وَعَرَفَ حُسْنَهُ مِنْ أَجْلِ انْكِشَافِ خِمَارِهَا مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ مِنْهَا، وَاحْتِمَالِ أَنَّهُ رَآهَا قَبْلَ ذَلِكَ وَعَرَفَ حُسْنَهَا.

فَإِنْ قِيلَ: قَوْلُهُ: إِنَّهَا وَضِيئَةٌ، وَتَرْتِيبُهُ عَلَىٰ ذَلِكَ بِالْفَاءِ قَوْلَهُ: فَطَفِقَ الْفَضْلُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا، وَقَوْلَهُ: وَأَعْجَبَهُ حُسْنُهَا، فِيهِ الدَّلَالَةُ الظَّاهِرَةُ عَلَىٰ أَنَّهُ كَانَ يَرَىٰ وَجْهَهَا، وَيَنْظُرُ إِلَيْهِ لِإِعْجَابِهِ بِحُسْنِهِ.

فَالْجَوَابُ: أَنَّ تِلْكَ الْقَرَائِنَ لَا تَسْتَلْزِمُ اسْتِلْزَامًا، لَا يَنْفَكُّ أَنَّهَا كَانَتْ كَاشِفَةً، وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَآهَا كَذَلِكَ، وَأَقَرَّهَا؛ لِمَا ذَكَرْنَا مِنْ أَنْوَاعِ الِاحْتِمَالِ، مَعَ أَنَّ جَمَالَ الْمَرْأَةِ قَدْ يُعْرَفُ وَيُنْظَرُ إِلَيْهَا لِجَمَالِهَا وَهِيَ مُخْتَمِرَةٌ، وَذَلِكَ لِحُسْنِ قَدِّهَا وَقَوَامِهَا، وَقَدْ تُعْرَفُ وَضَاءَتُهَا وَحُسْنُهَا مِنْ

رُؤْيَةِ بَنَانِهَا فَقَطْ، كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ. وَلِذَلِكَ فَسَّرَ ابْنُ مَسْعُودٍ: وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا، بِالْمُلَاءَةِ فَوْقَ الثِّيَابِ، كَمَا تَقَدَّمَ.

وَمِمَّا يُوَضِّحُ أَنَّ الْحُسْنَ يُعْرَفُ مِنْ تَحْتِ الثِّيَابِ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

طَافَتْ أَمَامَةُ بِالرُّكْبَانِ آونَةً ... يَا حُسْنَهَا مِنْ قَوَامٍ مَا وَمُنْتَقِبَا

فَقَدْ بَالَغَ فِي حُسْنِ قَوَامِهَا، مَعَ أَنَّ الْعَادَةَ كَوْنُهُ مَسْتُورًا بِالثِّيَابِ لَا مُنْكَشِفًا.

■ **الْوَجْهُ الثَّانِي:** أَنَّ الْمَرْأَةَ مُحْرِمَةٌ وَإِحْرَامُ الْمَرْأَةِ فِي وَجْهِهَا وَكَفَّيْهَا، فَعَلَيْهَا كَشْفُ وَجْهِهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ رِجَالٌ أَجَانِبُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، وَعَلَيْهَا سَتْرُهُ مِنَ الرِّجَالِ فِي الْإِحْرَامِ، كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ عَنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ وَغَيْرِهِنَّ، وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ إِنَّ هَذِهِ الْمَرْأَةَ الْخَثْعَمِيَّةَ نَظَرَ إِلَيْهَا أَحَدٌ غَيْرُ الْفَضْلِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَالْفَضْلُ مَنَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهَا، وَبِذَلِكَ يُعْلَمُ أَنَّهَا مُحْرِمَةٌ لَمْ يَنْظُرْ إِلَيْهَا أَحَدٌ فَكَشْفُهَا عَنْ وَجْهِهَا إِذًا لِإِحْرَامِهَا لَا لِجَوَازِ السُّفُورِ.

فَإِنْ قِيلَ: كَوْنُهَا مَعَ الْحُجَّاجِ مَظِنَّةُ أَنْ يَنْظُرَ الرِّجَالُ وَجْهَهَا إِنْ كَانَتْ سَافِرَةً ; لِأَنَّ الْغَالِبَ أَنَّ الْمَرْأَةَ السَّافِرَةَ وَسَطَ الْحَجِيجِ، لَا تَخْلُو مِمَّنْ يَنْظُرُ إِلَى وَجْهِهَا مِنَ الرِّجَالِ.

فَالْجَوَابُ: أَنَّ الْغَالِبَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ الْوَرَعُ وَعَدَمُ النَّظَرِ إِلَى النِّسَاءِ، فَلَا مَانِعَ عَقْلًا وَلَا شَرْعًا وَلَا عَادَةً، مِنْ كَوْنِهَا لَمْ يَنْظُرْ إِلَيْهَا أَحَدٌ مِنْهُمْ، وَلَوْ نَظَرَ إِلَيْهَا لَحُكِيَ كَمَا حُكِيَ نَظَرُ الْفَضْلِ إِلَيْهَا، وَيُفْهَمُ مَنْ صَرْفِ النَّبِيِّ ﷺ بَصَرَ الْفَضْلِ عَنْهَا، أَنَّهُ لَا سَبِيلَ إِلَى تَرْكِ الْأَجَانِبِ يَنْظُرُونَ إِلَى الشَّابَّةِ، وَهِيَ سَافِرَةٌ كَمَا تَرَى، وَقَدْ دَلَّتِ الْأَدِلَّةُ الْمُتَقَدِّمَةُ عَلَى أَنَّهَا يَلْزَمُهَا حَجْبُ جَمِيعِ بَدَنِهَا عَنْهُمْ.

وَبِالْجُمْلَةِ، فَإِنَّ الْمُنْصِفَ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَبْعُدُ كُلَّ الْبُعْدِ أَنْ يَأْذَنَ الشَّارِعُ لِلنِّسَاءِ فِي الْكَشْفِ عَنِ الْوَجْهِ أَمَامَ الرِّجَالِ الْأَجَانِبِ، مَعَ أَنَّ الْوَجْهَ هُوَ أَصْلُ الْجَمَالِ، وَالنَّظَرُ إِلَيْهِ مِنَ الشَّابَّةِ الْجَمِيلَةِ هُوَ أَعْظَمُ مُثِيرٍ لِلْغَرِيزَةِ الْبَشَرِيَّةِ وَدَاعٍ إِلَى الْفِتْنَةِ، وَالْوُقُوعِ فِيمَا لَا يَنْبَغِي، أَلَمْ تَسْمَعْ بَعْضَهُمْ يَقُولُ:

قُلْتُ اسْمَحُوا لِي أَنْ أَفُوزَ بِنَظْرَةٍ ... وَدَعُوا الْقِيَامَةَ بَعْدَ ذَاكَ تَقُومُ

أَتَرْضَى أَيُّهَا الْإِنْسَانُ أَنْ تَسْمَحَ لَهُ بِهَذِهِ النَّظْرَةِ إِلَى نِسَائِكَ وَبَنَاتِكَ وَأَخَوَاتِكَ، وَلَقَدْ صَدَقَ مَنْ قَالَ:

وَمَا عَجَبٌ أَنَّ النِّسَاءَ تَرَجَّلَتْ ... وَلَكِنَّ تَأْنِيثَ الرِّجَالِ عُجَابُ

اهـ من أضواء البيان تفسر الآية (٥٣) من سورة الأحزاب.

﴿وَلْيَضْرِبْنَ﴾ ليُلقين، ﴿بِخُمُرِهِنَّ﴾ بمقانعهن ﴿عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ أي: الصدور، فيسترن شعورهن ووجوههن وصدورهن.

وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ.

وفي حديث عائشة: **«إِنْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَيُصَلِّي الصُّبْحَ، فَيَنْصَرِفُ النِّسَاءُ مُتَلَفِّعَاتٍ بِمُرُوطِهِنَّ، مَا يُعْرَفْنَ مِنَ الْغَلَسِ»**، متفق عليه.

﴿وَلَا يُبْدِينَ﴾ يظهرن، ﴿زِينَتَهُنَّ﴾ الخفية التي لم يُبح لهن كشفها في الصلاة، ولا للأجانب، ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ أزواجهن، ﴿أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ أراد أنه يجوز للمرأة أن تنظر إلىٰ المرأة، ولكن تنظر إلىٰ ما ليس بعورة.

وقد ذهب جمهور أهل العلم إلىٰ أن عورة المرأة مع المرأة ما بين السرة إلىٰ الركبة، كعورة الرجل إلىٰ الرجل.

لكن هذا قولٌ لم يعتمد علىٰ دليل؛ من أنه يجوز للمرأة ذلك؛ ولكن تستتر بقدر الإمكان، ولا تتعرىٰ أمامهن ولا تلبس اللباس الفاضح الذي يُبدي العورة.

❐ ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾.

اِخْتَلَفُوا فِي ذَلِكَ:

- قِيْل عبد المرأة محرمٌ لها، فيجوز لها الدخول عليه إذا كان عفيفًا.

واستدلوا بحديث أنس: أن النبي ﷺ أتىٰ فاطمة بعبدٍ قد وهبه لها، وعلىٰ فاطمة ثوبٌ إذا قَنَّعت به رأسها لم يبلغ رجليها، وإذا غطت رجليها لم يبلغ رأسها، فلما رأىٰ رسول الله ﷺ ما تلقىٰ، قال: **«إِنَّهُ لَيْسَ عَلَيْكِ بَأْسٌ، إِنَّمَا هُوَ أَبُوكِ وَغُلَامُكِ»**، اخرجه أبو داود.

-وقال قومٌ: هو كالأجنبي معها.

وهو قول سعيد بن المسيب، وقال: المراد من الآية الإماء دون العبيد.

وعن ابن جريج أنه قال: أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أنه لا يحل لامرأة مسلمة أن تتجرد بين يدي امرأة مشركة إلا أن تكون تلك المرأة المشركة أمة لها.

﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ﴾ لغيرهم بشرط أن يكونوا ﴿غَيْرِ أُوْلِى﴾ أصحاب، ﴿ٱلْإِرْبَةِ﴾ الحاجة للنساء، ﴿مِنَ الرِّجَالِ﴾ الذين يتبعون القوم ليُصيبوا من فضل طعامهم ولا همة لهم إلا ذاك، ولا حاجة لهم في النساء.

فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كان رجلٌ يدخل علىٰ أزواج النبي ﷺ مُخَنَّثٌ، وكانوا يعدونه من غير أولي الإربة، فدخل النبي ﷺ يومًا وهو عند بعض نسائه وهو ينعت امرأة فقال: إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع وإذا أدبرت أدبرت بثمان، فقال النبي ﷺ: **«أَلَا أَرَىٰ هَذَا يَعْرِفُ مَا هَاهُنَا لَا يَدْخُلَنَّ عَلَيْكُنَّ»**، فحجبوه. متفق عليه.

﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي لم يبلغوا حد التمييز؛ فلصغرهم لا يفهمون أحوال النساء وعوارتهن، ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ﴾ حين مشيهن، ﴿بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ إذا كان فيها الخلخال ونحو ذلك من الزينة.

ومثل ذلك ما يفعلنه الآن من لبس الكعب العالي وما في بابه؛ فإنها تمشي وتُحدث صوتًا يُلفت الناظرين، وفي حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال رسول الله ﷺ: **«كَانَتِ امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، قَصِيرَةٌ تَمْشِي مَعَ امْرَأَتَيْنِ طَوِيلَتَيْنِ، فَاتَّخَذَتْ رِجْلَيْنِ مِنْ خَشَبٍ، وَخَاتَمًا مِنْ ذَهَبٍ مُغْلَقٌ مُطْبَقٌ، ثُمَّ حَشَتْهُ مِسْكًا، وَهُوَ أَطْيَبُ الطِّيبِ، فَمَرَّتْ بَيْنَ الْمَرْأَتَيْنِ، فَلَمْ يَعْرِفُوهَا، فَقَالَتْ بِيَدِهَا هَكَذَا»** أخرجه مسلم.

﴿وَتُوبُوٓا۟﴾ ارجعوا ﴿إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ من التقصير الواقع في أمره ونهيه، ﴿أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ من الرجال والنساء، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ يحصل الفلاح بنيل المطلوب والسلامة من المرهوب.

❁ وهذه الآية نصٌّ في وجوب التوبة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ من جميع الذنوب والمعاصي، فهي واجبة من كبائرها وصغائرها، وتصح من الشرك فما دونه.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ **[الأنفال:٣٨]**.

وقال في شأن المنافقين: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾ **[النساء:١٤٥-١٤٦]**.

وقال في شأن المبتدعين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ [البقرة:١٥٩-١٦٠].

وقال في شأنِ بقية الذنوب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم:٨].

❁ وعلىٰ الإنسان أن يتوب توبة عامة وخاصة، فالتوبة العامة تكون من تسويفه في التوبة، ومن توبته من الذنوب التي لم ينتبه لها، وتوبة خاصة من كل ذنبٍ بعينه.

❐ وَهَلْ لَا تُقْبَلُ تَوْبَتُهُ إِلَّا إِذَا تَابَ مِنْ جَمِيعِ الذُّنُوبِ؟

الصَّحِيحُ أنه إذا تاب من ذنب وبقي يتعاطىٰ ذنبًا آخر صحت توبته مما تاب منه، وقد تكلمتُ عن هذه المسألة بفضل الله في كتابي شروط التوبة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.

❁ وهذه الآية دليلٌ علىٰ أهمية ستر العورات.

❐ وَالْعَوْرَةُ مُنْقَسِمَةٌ إِلَى قِسْمَيْنِ:

(عورة مغلظة، وعورة مخففة).

- أما (**العورة المغلظة**) فلا يجوز النظر إليها ولا اللمس لها، إلا ما هو بين الزوج وزوجته، أو ما كان من شأن الطبيب للحاجة التي لا يُمكن أن يتحصل عليها إلا بذاك.

- وأما (**العورة المخففة**)، فهي: الفخذ في الرجل، ففي حديث جرهد، وجاء عن عبد الله بن عمرو ومحمد بن جحش وجابر وابن عباس وغيرهم، أن النبي ﷺ قال: «**غَطِّ فَخِذَكَ، فَإِنَّ فَخِذَ الرَّجُلِ مِنْ عَوْرَتِهِ**»، وجاء عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الصحيحين أن النبي ﷺ حين ذهب إلىٰ خيبر كُشِفَ رداءه حتىٰ قال: إن فخذه ليقع في فخذي.

قال البخاري رحمه الله: حديث أنس أسند وحديث جرهد أحوط، أي: حديث أنس من حيث الصحة في الصحيحين، وحديث جرهد من حيث السلامة من الفتنة أحوط، فتغطية الفخذ مستحبة، وكشفه مكروه.

إلا في حالاتٍ كما دخل عثمان بن عفان علىٰ رسول الله ﷺ وفخذه مكشوف فغطاه، وكان قد دخل قبله أبو بكر فلم يُغطه، ودخل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ولم يُغطه، فقالت له عائشة في ذلك، قال: «**إِنَّ عُثْمَانَ رَجُلٌ حَيِيٌّ**»، أخرجه مسلم.

وأما المرأة مع الرجل فجميع بدنها في حق الأجنبي عورة، ولا يجوز النظر إلىٰ شيءٍ منها حتىٰ الوجه والكفين، وإن قال به بعض العلماء.

وأما حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ قال: أن أسماءَ بنتَ أبي بكْرٍ دَخَلَت علىٰ رسولِ اللهﷺ وعليها ثِيَابٌ رِقَاقٌ، فأعْرَضَ عنها رسولُ الله ﷺ، وقال: **« يا أسماءُ إن المرأةَ إذا بَلَغَتِ المَحِيضَ لم يصلُحْ أن يُرىٰ مِنَها إلا هذا وهذا وأشار إلىٰ وجهه وكفَّيْهِ»** أخرجه أبو داود، فهو حديثٌ ضعيف، خالد بن دريك عن عائشة مرسل، وفيه سعيد بن بشير أبو عبد الرحمن النصري متكلم فيه، وقد أعله أهل العلم وتكلموا عليه.

❐ وَاخْتَلَفُوا أَيضًا فِي عَوْرَةِ الْأَمَةِ.

فذهب بعضهم إلىٰ أن عورتها مثل عورة الرجل ما بين السرة إلىٰ الركبة.

وَالصَّحِيحُ خِلَافُ ذَلِكَ، فإن الأمة يلزمها ما يلزم الحرة في باب الستر، إلا ما وقع للحاجة، وإن كان المتقدمون يذكرون أن الأمة لم تكن تحتجب، وربما استدلوا بحديث: (قامت امرأة من سطة النساء) ونحو ذلك، ولا حجة لهم فيه فإن الأمة يقع منها الفتنة كما تقع من المرأة الحرة، ومن جوَّز كشف وجهها حتىٰ تنظر ويشتريها من يرغب في شرائها ونحوه.

۞ فهذه آية العظيمة لو طبقها المسلمون لانزاحت كثيرٌ من الفتن.

ففي حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ يقول: **«مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَىٰ الرِّجَالِ مِنْ النِّسَاءِ»** اخرجه مسلم. ولهذا حرص الكفار علىٰ فتنة النساء، ويدعون إلىٰ حريتهن زعموا، تمويهًا وتلبيسًا، وإنما يريدون هتك سترها، وفتنة الرجال بها، والله المستعان.

﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَـٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٣٢ وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَـٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَـٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٣ وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَـٰتٖ مُّبَيِّنَـٰتٖ وَمَثَلٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ٣٤﴾.

۞ ﴿وَأَنكِحُواْ﴾ زوجوا، ﴿ٱلۡأَيَـٰمَىٰ مِنكُمۡ﴾ وهي من لا زوج لها من رجلٍ أو امرأة، ﴿وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ﴾ أي: من عبيدكم، ﴿وَإِمَآئِكُمۡۚ﴾ زوجوهن.

فالزواج من أسباب غضِّ البصر، وفي حديث عبد الله بن مسعود قال النبي ﷺ: **«يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّ الصَّوْمَ لَهُ وِجَاءٌ»** متفق عليه.

﴿إِن يَكُونُواْ﴾ من ذُكِرَ قبل، ﴿فُقَرَآءَ﴾ لا مال لهم، ﴿يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ يُعطيهم الله عَزَّوَجَلَّ ويهيئ لهم من حيث لا يحتسبون، وقد يكون حال الأعزب في قلَّةِ مالٍ وضيق حالٍ، فإذا تزوج رُزِقَ إيجار البيت، وكسوة الأولاد والأبناء، ويوسع عليه، ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ في عطائه وفضله، ﴿عَلِيمٌ﴾ بمصالح العباد.

وفي قوله: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ﴾.

❁ دليل علىٰ أنه لا نكاح إلا بولي، وإلا لقال: فلتتزوج النساء وليتزوج الشباب، وليُزوج بعضهم بعضًا، فأيما امرأة نكحت نفسها بغير إذن وليها فنكاحها باطل، وزواجها يُعتبر سفاحًا لا نكاحًا.

هَذَا هُوَ الْقَوْلُ الصَّحِيحُ؛ وقد استشرىٰ الشر هذه الأيام؛ فتزوج المرأة نفسها، أو تزوجها أمها أو أختها، وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لما أرادت أن تُزوج بعض جواريها أرسلت إلىٰ أخيها أو إلىٰ ابن أخيها أن يقوم بتزويجها.

﴿٣٣﴾ ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ﴾ من العفة عن الحرام، ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ لا يجدون سبيلًا إلىٰ الزواج، إما لقلة ذات اليد، أو لغير ذلك، ﴿حَتَّىٰ﴾ إلىٰ أن، ﴿يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ ويُيَسِّر لهم أمرهم، ومن أعظم ما يُغنىٰ به العبد الدعاء، ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ﴾ يطلبون ﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾ المكاتبة للتحررمن الرق ﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ من عبيدكم أو إيمائكم ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾.

❐ هَذِهِ مَسْأَلَةٌ أُخْرَى: مَسْأَلَةُ الْمُكَاتِبِ.

وهي في العبد أو الأمة الذي يُريد أن يتحرر من الرِّق، فليُكاتبه سيده علىٰ وقتٍ معلوم وعلىٰ ثمنٍ معلوم.

﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ نصر للإسلام وعمل به، أما إذا كانت جارية ستذهب إلىٰ الفساد والزنا ونحو ذلك، أو عبد ربما يذهب لمناصرة الكافرين ونحو ذلك، فيبقىٰ في رِقِّهِ ولا يُعان علىٰ الباطل، ﴿وَآتُوهُم﴾ اعطوهم، ﴿مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ سواءً من الزكوات أو من

الصدقات المستحبات، وفي حديث عائشة: «**الْوَلَاءُ لِمَنْ أَعْتَقَ**»؛ من أعتق عبدًا أو جارية يكون الولاء له، «**الْوَلَاءُ لُحْمَةٌ كَلُحْمَةِ النَّسَبِ لَا يُبَاعُ وَلَا يُوهَبُ**».

﴿وَلَا تُكْرِهُوا﴾ تجبروا ﴿فَتَيَاتِكُمْ﴾ إمائكم ﴿عَلَى الْبِغَاءِ﴾ على الزنا، ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ عِفَّة، ﴿لِّتَبْتَغُوا﴾ لتطلبوا ﴿عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وهو ما تُعطاه المرأة من مهرِ البغي، وقد قال رسول الله ﷺ: «**مهر البغي خبيث**» متفق عليه عن رافع بن خديج.

وقد قيل:

سَمِعْتُكَ تَبْنِي مَسْجِدًا مِنْ خِيَانَةٍ ... وَأَنْتَ بِحَمْدِ اللهِ غَيْرَ مُوَفَّقِ

كَكَافِلَةِ الْأَيْتَامِ مِنْ كَدِّ فَرْجِهَا ... لَكِ الْوَيْلُ لَا تَزْنِي وَلَا تَتَصَدَّقِي

﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ﴾ على الزنا، مثل عبد الله بن أبي؛ لأن الآية نزلت في شأنه، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ﴾ لهن، ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وليس العفو عن المُكرِه، وهو عبد الله بن أبي بن سلول، إلا إذا تاب المُكرِه قبل موته، أما إذا بقي على ذلك، وهو من الكافرين، فيُعذب على كفره وعلى هذا الأمر.

﴿٣٤﴾ ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ﴾ حجج، ﴿مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ واضحات جليات، ﴿وَمَثَلًا﴾ من الأمثلة، ﴿مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ﴾ سبقوكم حيث دمدم على الكافرين، وأعز المؤمنين، ﴿وَمَوْعِظَةً﴾ ذكرى، ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ المُنيبين الرجَّاعين إلى رب العالمين،

❁ وهذا دليل على أنه لا ينتفع بالقرآن إلا أهل الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١].

﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿٣٥﴾ ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: منورهما، وقيل: نوَّرَ السماء بالملائكة، ونوَّرَ الأرض بالأنبياء، وقيل: مُدبر الأمور في السموات والأرض.

وقد استدل ابن القيم بهذه الآية، وبما روىٰ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ: **«اللهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ»** متفق عليه؛ علىٰ إثبات اسم (**النور**) لله عَزَّوَجَلَّ.

وليس معنىٰ الآية أن هذا النور الذي نراه في السموات والأرض نور الله وصفته، فالله عَزَّوَجَلَّ لا يُرىٰ إلا في القيامة، يراه المؤمنون بأبصارهم في المحشر وفي دار القرار، مع خلافٍ في رؤية الكفار له، ثم يحتجب عن الكافرين.

وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ لقوله تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥].

﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ القرآن كما هو اختيار ابن جرير وغيره، ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ مثل الكوَّة التي لا منفذ لها، وتكون في جانب من البيت، ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ قنديل فيوضع في الكوة، فيتبدد نوره إلىٰ الغرفة ويزداد وهجه، لاسيما إذا كانت هذه الكوة قد ضربت باللون الأبيض، ﴿ٱلْمِصْبَاحُ﴾ السراج، والقنديل ﴿فِى زُجَاجَةٍ﴾ فربما يكون الضوء يسيرًا، فإذا وضع فيها صار عظيمًا، ﴿ٱلزُّجَاجَةُ﴾ من صفائها وبهائها مع وجود هذا الضوء، ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ كوكبٌ يتلألأ في السموات، ليس نورُها بالوهاج الذي يخطف الأبصار، ولا بالداكن المُعتم الذي يحتاج إلىٰ تركيز نظر، ولكنه لونٌ جميلٌ، وضوءٌ واضحٌ المصباح كأنه ﴿يُوقَدُ﴾ تشعل ناره ﴿مِن﴾ زيت ﴿شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ وهي الزيتونة مباركة في طعمها، وفي زيتها، وفي موطنِ نشأتها، فهي موجودة في الشام، ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ ولكنها بين ذلك، تضربها الشمس من هاهنا ومن هاهنا، فيكون ضوؤها أنفع الضوء، فليست شرقية وحدها حتىٰ لا تصيبها الشمس إذا غربت، ولا غربية وحدها فلا تصيبها الشمس بالغداة إذا طلعت، بل هي ضاحية الشمس طول النهار، تصيبها الشمس عند طلوعها وعند غروبها، فتكون شرقية وغربية تأخذ حظها من الأمرين، فيكون زيتها أضوأ، وهذا كما يقال: فلان ليس بأسود ولا بأبيض، يريد ليس بأسود خالص ولا بأبيض خالص، بل اجتمع فيه كل واحد منهما، ويُقال: الرمان ليس بحلو ولا حامض، أي: اجتمعت فيه الحلاوة والحموضة.

﴿يَكَادُ﴾ يقرب، ﴿زَيْتُهَا﴾ دهنها، ﴿يُضِيٓءُ﴾ من صفائه، ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ فكيف يكون بعد إصابة النار، والمعنىٰ أنه قبل أن يكون زيتًا للقنديل كان صفاؤه قريبًا من الإضاءة، ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ نور المصباح علىٰ نور الزجاجة علىٰ صفاء الزيت.

وهذا مثلٌ للقرآن العظيم، فهو نورٌ، فإذا وضع في قلب المؤمن السليم من الأدواء صار في محلٍّ عظيمٍ يظهر منه هذا النور وهذا البهاء.

❐ **قال البغوي: واختلف أهل العلم في معنىٰ هذا التمثيل:**

- فقال بعضهم: وقع هذا التمثيل لنور محمد ﷺ، قال ابن عباس لكعب الأحبار: أخبرني عن قول الله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ فقال كعب: هذا مثل ضربه الله لنبيه ﷺ، فالمشكاة صدره، والزجاجة قلبه، والمصباح فيه النبوة، توقد من شجرة مباركة هي شجرة النبوة، يكاد نور محمد وأمره يتبين للناس، ولو لم يتكلم أنه نبي كما يكاد ذلك الزيت يضيء، ولو لم تمسسه نار.

- وقال بعضهم: هذا التمثيل لنور قلب المؤمن.

وقد تقدم ترجيح ابن جرير أنه مثلٌ للقرآن، حيث قال: مثل نور الله الذي أنار به لعباده سبيل الرشاد، الذي أنزله إليهم فآمنوا به وصدقوا بما فيه في قلوب المؤمنين مثل مشكاة، وهي عمود القنديل الذي فيه الفتيلة، وذلك هو نظير الكوة التي تكون في الحيطان التي لا منفذ لها، يقول: القرآن الذي في قلب المؤمن الذي أنار الله قلبه في صدره، ثم مثل الصدر في خلوصه من الكفر بالله والشك فيه، واستنارته بنور القرآن، واستضاءته بآيات ربه المبينات، ومواعظه فيها بالكوكب الدري، فقال: ﴿ٱلزُّجَاجَةُ﴾ وذلك صدر المؤمن الذي فيه قلبه، ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾.

﴿يَهْدِي﴾ يوفق، ﴿ٱللَّهُ﴾ عَزَّوَجَلَّ، ﴿لِنُورِهِۦ﴾ للإيمان به، والأخذ بقرآنه، ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من عباده، ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ لعلهم يعقلونها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣]، وإذا ضرب المثل ازداد به المؤمن إيمانًا، وازداد به الكافر إعراضًا، ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ مطلع علىٰ ما تصلح به أحوال العباد.

﴿٣٦﴾ ﴿فِى بُيُوتٍ﴾ وهي المساجد، ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ في بنائها كما أذن أن تُرفع بالعبادة فيها، ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ من تسبيحه، وتحميده، وتكبيره، وقراءة القرآن، ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا﴾ أي: يُصلي المؤمنون فيها، ﴿بِٱلْغُدُوِّ﴾ وهو الصباح، ﴿وَٱلْءَاصَالِ﴾ وهو العشي.

قَالَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ: أراد به الصلوات المفروضات، فالتي تؤدىٰ بالغداة صلاة الصبح، والتي تؤدىٰ بالآصال صلاة الظهر والعصر والعشائين؛ لأن اسم الأصيل يجمعها، وفي حديث أبي موسىٰ قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ صَلَّىٰ الْبَرْدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ»**، والبردان هما: العصر والفجر، **متفق عليه.**

﴿٣٧﴾ والذين يُسبحون لله عَزَّوَجَلَّ فيها بالغدو والآصال هم: ﴿رِجَالٌ﴾ ويدخل فيها النساء، إنما ذُكِرَ الرجال للغالب، ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ﴾ تشغلهم، ﴿تِجَارَةٌ﴾ خصها بالذكر؛ لأن أكثر الناس يُشغلون بالصفقات التجارية عن الطاعة، ﴿وَلَا بَيْعٌ﴾ أراد به الشراء، ﴿عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ عن طاعة الله، ﴿وَإِقَامِ الصَّلَاةِ﴾ المفروضة، ﴿وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ المكتوبة، فشأنهم عبادة الله في كل حين، ومع ذلك، ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا﴾ وهو يوم القيامة، ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ﴾ لشدة أهواله، ﴿وَالْأَبْصَارُ﴾ لكثرة أحواله، كما قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾﴾ **[إبراهيم:٤٢-٤٣].**

﴿٣٨﴾ ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ﴾ يُثيبهم، ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ بأحسنِ أعمالهم، ﴿وَيَزِيدَهُم﴾ يُضاعف لهم، ﴿مِّن فَضْلِهِ﴾ الحسنة بعشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف، ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ﴾ يُعطي، ﴿مَن يَشَاءُ﴾ من عباده المؤمنين، ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بغير عدٍّ.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿٣٩﴾ ولما ضرب الله عَزَّوَجَلَّ مثل المؤمن وأجره ذكر مثل الكافر، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بربهم بعكس المؤمنين، ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ التي يعملونها، ﴿كَسَرَابٍ﴾ وهو الشعاع الذي يُرىٰ نصف النهار عند شدة الحر في البراري؛ يظنه الرائي ماءً وليس بماء، وكلما قربتَ منه بَعُدَ منك، فلا يستفيدون بأعمالهم، ﴿بِقِيعَةٍ﴾ أرض منبسط، ﴿يَحْسَبُهُ﴾ يظنه ويتوهمه ﴿الظَّمْآنُ﴾ العطشان، ﴿مَاءً﴾ يُشرب، ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ﴾ إذا قُدِّر أن يأتيه مع أنه لا يأتيه، إنما يصل إلىٰ المكان الذي رأىٰ فيه الماء، وإذا بالماء قد تأخر في النظر، ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ ينفعه، وهكذا الكافر يعمل الأعمال ويظن أنه علىٰ شيء، فإذا جاء أجله لم يجد لها أثرًا ولا بركة، فإن

كانت أعمالًا صالحة فقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣]، وإن كانت أعمالًا سيئة يُجازون عليها بالخزي والعذاب، ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ أي: عند عمله بالمرصاد، ﴿فَوَفَّىٰهُ﴾ أعطاه، ﴿حِسَابَهُۥ﴾ أي: جزاء عمله كاملًا، ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ يُحاسب جميع الناس بألوانهم وأطيافهم وأشكالهم وألسنتهم في نصف نهار، وهذا المثل ضربه الله للكافر حين يوافي بأعماله في القيامة.

﴿أَوْ﴾ أن أعمالهم، ﴿كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾ بحر متلاطم عميق كثير الماء، ﴿يَغْشَىٰهُ﴾ يعلوه، ﴿مَوْجٌ﴾ شديد، ﴿مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾ متراكم، ﴿مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾ مظلم؛ فظلمة البحر وظلمة الليل وظلمة السحاب، ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ ظلمات الشرك والبدع وفساد الأعمال، ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ﴾ لشدة الظلمة ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾، مع قربها منه ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا﴾ هداية من كتاب وسنة، ﴿فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ من هداية ولا توفيق، بل هو هالك جاهل حائر، فهذا الكافر يتقلب في ظلمات الضلالة: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢٥٧].

فلا أسوأ من ظلمات الضلالة فإنها تفسد الدنيا والآخرة، فكم من إنسان مُبصرٌ بعينيه مُظلمٌ قلبه، وكم من إنسان قد طُمِسَت عينه وينظر بقلبه، فهم في ظلماتٍ في الدنيا ومصيرهم إلىٰ ظلماتٍ في الآخرة، فإن النار ظلمة.

قال أبي بن كعب في هذه الآية: الكافر يتقلب في خمس من الظُّلَم، فكلامه ظلمه وعمله ظلمة ومدخله ظلمة ومخرجه ظلمة ومصيره إلىٰ الظلمات يوم القيامة.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد، وهو خطابٌ لأمته، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ﴾ يُصلي، ﴿لَهُۥ﴾ ويُنزهه، ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من المخلوقات ﴿وَٱلطَّيْرُ﴾ مع ذلك، ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ باسطات

أجنحتها في السماء تُسبح بحمد ربها، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ عن داود: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ:١٠]، ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ ﴿كُلٌّ﴾ من هذه المخلوقات، ﴿قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ والتسبيح قد يكون بلسان الحال أو بلسان المقال، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤]، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ فيُجازي المُكلف المُحسن بإحسانه والمُسيء بإساءته.

﴿٤٢﴾ ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لا شريك له، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ الرجوع يوم القيامة.

﴿٤٣﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى﴾ يسوق بأمره، ﴿سَحَابًا﴾ إلىٰ حيث يُريد، ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾ يجمعه بعد أن كان متفرقًا، ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾ متراكمًا بعضه فوق بعض كالجبال، ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾ المطر، ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ من وسطه، مع أنك لو مشيت فيه بطائرة تقطعه ولا تجد فيه مطرًا.

وفي حديث أنس بن مالك: أَنَّ رَجُلًا دَخَلَ الْمَسْجِدَ يَوْمَ جُمُعَةٍ، مِنْ بَابٍ كَانَ نَحْوَ دَارِ الْقَضَاءِ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ قَائِمٌ يَخْطُبُ، فَاسْتَقْبَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَائِمًا، ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ هَلَكَتِ الْأَمْوَالُ، وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ، فَادْعُ اللهَ يُغِثْنَا، قَالَ: فَرَفَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: **«اللهُمَّ أَغِثْنَا، اللهُمَّ أَغِثْنَا، اللهُمَّ أَغِثْنَا»**، قَالَ أَنَسٌ: وَلَا وَاللهِ مَا نَرَىٰ فِي السَّمَاءِ مِنْ سَحَابٍ وَلَا قَزَعَةٍ، وَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ سَلْعٍ مِنْ بَيْتٍ وَلَا دَارٍ، قَالَ: فَطَلَعَتْ مِنْ وَرَائِهِ سَحَابَةٌ مِثْلُ التُّرْسِ، فَلَمَّا تَوَسَّطَتِ السَّمَاءَ انْتَشَرَتْ، ثُمَّ أَمْطَرَتْ، قَالَ: فَلَا وَاللهِ مَا رَأَيْنَا الشَّمْسَ سَبْتًا» **متفق عليه**.

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ السحاب، ﴿مِن جِبَالٍ﴾ الذي هو كالجبال، ﴿فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ ثلج، ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ﴾ بالبرد والمطر، ﴿مَن يَشَآءُ﴾ أصابه مطرًا، ومن شاء بردًا عذابًا، ﴿وَيَصْرِفُهُۥ﴾ يدفعه ﴿عَن مَّن يَشَآءُ﴾ فيُصرفه كيف يشاء.

وفي حديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**بَيْنَا رَجُلٌ بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ، فَسَمِعَ صَوْتًا فِي سَحَابَةٍ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ، فَتَنَحَّىٰ ذَلِكَ السَّحَابُ، فَأَفْرَغَ مَاءَهُ فِي حَرَّةٍ، فَإِذَا شَرْجَةٌ مِنْ تِلْكَ الشِّرَاجِ قَدِ اسْتَوْعَبَتْ ذَلِكَ الْمَاءَ كُلَّهُ، فَتَتَبَّعَ الْمَاءَ، فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ فِي حَدِيقَتِهِ يُحَوِّلُ الْمَاءَ بِمِسْحَاتِهِ، فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللهِ مَا اسْمُكَ؟ قَالَ: فُلَانٌ - لِلِاسْمِ الَّذِي سَمِعَ فِي السَّحَابَةِ - فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللهِ لِمَ تَسْأَلُنِي عَنِ اسْمِي؟ فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ صَوْتًا فِي السَّحَابِ الَّذِي هَذَا مَاؤُهُ يَقُولُ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ، لِاسْمِكَ، فَمَا تَصْنَعُ فِيهَا؟ قَالَ: أَمَّا إِذْ قُلْتَ هَذَا، فَإِنِّي أَنْظُرُ إِلَىٰ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا، فَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثِهِ، وَآكُلُ أَنَا وَعِيَالِي ثُلُثًا، وَأَرُدُّ فِيهَا ثُلُثَهُ**» اخرجه مسلم (٢٩٨٤).

﴿يَكَادُ﴾ يقرب، ﴿سَنَا﴾ ضوءُ ﴿بَرْقِهِۦ﴾ اللامع، ﴿يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ وربما تجد بعضهم في هلعٍ وخوف من ذلك البرق اللامع لسرعته ولعظيم لمعانه، وأما إذا جاءت الصواعق مع أصواتها المُريعة العظيمة فإنها تُخيف القلوب.

﴿٤٤﴾ ﴿يُقَلِّبُ﴾ يُصرف ويُغيِّر، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً﴾ آية وعظة، ﴿لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ لأهل العقول والبصائر علىٰ أن الله لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

﴿٤٥﴾ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ﴾ مما يدبُّ علىٰ الأرض من الحيوان البهيم وغيره، ﴿مِن مَّآءٍ﴾ قيل من نطفة، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات:٢٠].

﴿فَمِنْهُم﴾ أي: من الدواب ﴿مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ كالحيات، وما إليها من السلاحف والزواحف، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ كالإنسان والقرد، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ من البهائم والسباع، ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ علىٰ أي صفة شاء، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يُعجزه شيء لكمال علمه وقدرته.

﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿٤٦﴾ ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ﴾ إليك يا محمد، ﴿ءَايَٰتٍ﴾ حجج، ﴿مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ واضحات جليات يتعظ بها من أراد الله به خيرًا، ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى﴾ يوفق ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من عباده ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وطريقٍ قويم وهو الإسلام.

﴿٤٧﴾ ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: أهل النفاق بألسنتهم، ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾ أمر الله وأمر رسوله ﷺ، ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ﴾ يُعرض عن طاعةِ الله، وطاعة رسوله ﷺ، ﴿فَرِيقٌ﴾ طائفة، ﴿مِّنْهُم

مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ﴾ العهد والميثاق، ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين يعرضون عن دين الله عَزَّوَجَلَّ وسنة رسوله ﷺ ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ بمنقادين، فدل علىٰ أن الإيمان لا يكون إلا بالانقياد لرسول الله ﷺ، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء:٦٥].

٤٨ ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ﴾ أي: أهل النفاق، ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ ﷺ، في حياته وإلىٰ سنته ﷺ بعد موته ﴿لِيَحۡكُمَ﴾ يقضي ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ فيما اختلفوا فيه، ﴿إِذَا فَرِيقٞ﴾ طائفة، ﴿مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ أي: عن حكم الله، وعن حكم رسوله ﷺ.

٤٩ ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ في حكم الله، وحكم رسوله، ﴿يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ﴾ مطيعين منقادين.

۞ وهذا دليل علىٰ أنهم إن تحاكموا إلىٰ الكتاب والسنة لم يتحاكموا لإيمانهم بأن الكتاب والسنة هو الحق، ولكن للمصلحة، وإذا رأوا أن المصلحة في غير تحاكمهم إلىٰ الكتاب والسنة أعرضوا وولوا، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا﴾ [النساء:٦٠].

٥٠ ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ نفاق حملهم علىٰ بغض التحاكم لشرع الله، ﴿أَمِ﴾ بل ﴿ٱرۡتَابُوٓاْ﴾ شكوا، ﴿أَمۡ﴾ بل ﴿يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ﴾ يميل، ﴿ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ عَزَّوَجَلَّ في حكمه عليهم، ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ ﷺ يميل في حكمه عليهم وهذا لا يكون.

وفي حديث أبي سعيد لما قال ذو الخويصرة التميمي: اعْدِلْ يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ: **«وَيْلَكَ، وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ، لَقَدْ خِبْتُ وَخَسِرْتُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ»** متفق عليه؛ لكن لسوء عقائدهم الفاسدة في النبي ﷺ، وقبل ذلك في الله عَزَّوَجَلَّ يتخوفون الحيف والميل، ﴿بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين يفعلون هذه الأفعال، ﴿هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لأنفسهم بإعراضهم عن الحق.

٥١ ولما ذكر الله عَزَّوَجَلَّ حال المنافقين مع الكتاب والسنة ثنَّىٰ بذكر حال المؤمنين، ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ المنقادين الطائعين لرب العالمين، ﴿إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: إلىٰ كتاب الله، وإلىٰ سنة رسوله ﷺ بعد موته، ﴿لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ﴾ فيما اختلفوا فيه، ﴿أَن يَقُولُواْ

﴿سَمِعْنَا﴾ لحكم الله، وحكم رسوله ﷺ، ﴿وَأَطَعْنَا﴾ انقدنا، ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ في دنياهم وأخراهم بنيل المطلوب والبعد عن المرهوب.

٥٢ ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ﷺ، ﴿وَيَخْشَ اللَّهَ﴾ يخاف الله عَزَّوَجَلَّ مع تعظيمه، ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ بفعل المأمور وترك المحظور، ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ الناجون.

٥٣ ﴿وَأَقْسَمُوا﴾ أي: حلف أهل النفاق، ﴿بِاللَّهِ﴾ عَزَّوَجَلَّ، ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ الأيمان المغلظة، ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ﴾ يا محمد بالجهاد، ﴿لَيَخْرُجُنَّ﴾ معك، كما قال تعالىٰ ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:٦٢]، ﴿قُل﴾ لهم، ﴿لَّا تُقْسِمُوا﴾ لا تحلفوا كذبًا، وإنما ليكن أمرهم: ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ باللسان والفعال، ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ مطلعٌ علىٰ أعمالكم دقيقها وجليلها وعظيمها وحقيرها لا تخفىٰ عليه خافية، ومنه حلفهم ظاهرًا بالطاعة وإبطان المعصية.

٥٤ ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ بامتثال أمره، واجتناب نهيه وزجره، ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ ﷺ؛ وذلك أن طاعة النبي ﷺ طاعة مستقلة أمر الله بها، فقال: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ بخلاف أولي الأمر، لما كانت طاعتهم مقيدة بطاعةِ الله وطاعةِ رسوله، قال: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩]، ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ عن طاعةِ الله وطاعةِ رسوله وأعرضوا، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ﴾ علىٰ الرسول ﴿مَا حُمِّلَ﴾ ما كُلِّف به من البلاغ، ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ وكلفتم به من الإجابة والطاعة، ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ﴾ محمدًا ﷺ، ﴿تَهْتَدُوا﴾ توفَّقوا لكل خير وتسلموا من كلِّ شرٍّ وضير، ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ تبليغ دين الله عَزَّوَجَلَّ، وليس عليه الهداية، كما قال تعالىٰ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢﴾ [الغاشية:٢١-٢٢]، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ لنبيه: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر:٨]، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص:٥٦].

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝٥٥ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٥٦ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝٥٧﴾.

﴿وَعَدَ اللهُ﴾ ووعده لا يُخلف، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ انقادوا ووحدوا الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿مِنكُمْ﴾ من أهل الإسلام، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المبرات القولية والفعلية والاعتقادية، ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يجعلهم خلفاء يقومون بشأن الأرض، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر:٣٢]، وقال: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ﴾ المؤمنين، ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم السالفة، ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ﴾ ينصرهم، كما قال النبي ﷺ: **«بَشِّرْ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِالسَّنَاءِ، وَالتَّمْكِينِ فِي الْبِلَادِ، وَالنَّصْرِ، وَالرِّفْعَةِ فِي الدِّينِ»** أخرجه أحمد عن أبي بن كعب، فهذه الأمة موعودة بالنصر والعز، وفي حديث ثوبان: **«إِنَّ رَبِّي زَوَىٰ لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ مُلْكَ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مَا زَوَىٰ لِي مِنْهَا»** أخرجه أبو داود، وظهور الدين يكون بالعلم والعمل.

﴿ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ أي: رضيه، كما قال: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾ يُخلف عليهم، ﴿مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ﴾ من بطش الكافرين ومكرهم، ﴿أَمْنًا﴾ أمانًا وسلامًا؛ لكن هذا الوعد قائمٌ علىٰ شرط وقل من يُحقق هذا الشرط، ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾ أي: يوحدون الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا﴾ لا في ربوبيته ولا في ألوهيته ولا في أسمائه وصفاته، لا الشرك الأكبر ولا الأصغر، ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ بعد إيمانه، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ الخارجون عن الطاعة.

وقد مَكَّن الله عَزَّوَجَلَّ للمسلمين تمكينًا عظيمًا، فجُبِيَت لهم كنوز كِسرىٰ وقيصر، وذلت لهم العرب والعجم في سنوات معدودة حين حققوا الإيمان ظاهرًا وباطنًا، وما زال الناس يرهبونهم ويخافون منهم، حتىٰ ضعفوا في استقامتهم ودينهم وكثيرٌ منهم انحرف إلىٰ الشرك والبدعة؛ فتسلط عليهم الكفار؛ بسبب مخالفة شرع الله، وقد قال النبي ﷺ: **«وجعلت الذلة والصغار علىٰ من خالف أمري»** أخرجه أحمد .

وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ومثل هذا الوعد ما جاء في صحيح البخاري كتاب الجزية الموادعة عن المغيرة بن شعبة أن المغيرة قال: **« وَخَرَجَ عَلَيْنَا عَامِلُ كِسْرَىٰ فِي أَرْبَعِينَ أَلْفًا، فَقَامَ تَرْجُمَانٌ، فَقَالَ: لِيُكَلِّمْنِي رَجُلٌ مِنْكُمْ، فَقَالَ الْمُغِيرَةُ: سَلْ عَمَّا شِئْتَ؟ قَالَ:**

مَا أَنْتُمْ؟ قَالَ: نَحْنُ أُنَاسٌ مِنَ العَرَبِ، كُنَّا فِي شَقَاءٍ شَدِيدٍ وَبَلاَءٍ شَدِيدٍ، نَمَصُّ الجِلْدَ وَالنَّوَىٰ مِنَ الجُوعِ، وَنَلْبَسُ الوَبَرَ وَالشَّعَرَ، وَنَعْبُدُ الشَّجَرَ وَالحَجَرَ، فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الأَرَضِينَ - تَعَالَىٰ ذِكْرُهُ وَجَلَّتْ عَظَمَتُهُ - إِلَيْنَا نَبِيًّا مِنْ أَنْفُسِنَا نَعْرِفُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ، فَأَمَرَنَا نَبِيُّنَا رَسُولُ رَبِّنَا ﷺ «أَنْ نُقَاتِلَكُمْ حَتَّىٰ تَعْبُدُوا اللهَ وَحْدَهُ، أَوْ تُؤَدُّوا الجِزْيَةَ، وَأَخْبَرَنَا نَبِيُّنَا ﷺ عَنْ رِسَالَةِ رَبِّنَا، أَنَّهُ مَنْ قُتِلَ مِنَّا صَارَ إِلَىٰ الجَنَّةِ فِي نَعِيمٍ لَمْ يَرَ مِثْلَهَا قَطُّ، وَمَنْ بَقِيَ مِنَّا مَلَكَ رِقَابَكُمْ» أخرجه البخاري.

٥٦ ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ المفروضة، ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ المكتوبة، ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ سواءً جاء أمره في القرآن أو جاء أمره في السنة، وسواء كان أمره بالمتواتر أو الآحاد، ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بتوفيقكم وتسديدكم إلىٰ طرق الخير والسلامة.

٥٧ ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ لا تظنن يا محمد، ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وتمردوا علىٰ شرع الله، ﴿مُعْجِزِينَ﴾ فائتين هاربين في الأرض، والواقع أنهم ليسوا بمعجزين، ومع ذلك، ﴿وَمَأْوَاهُمُ﴾ مستقرُّ رجوعهم وسكنهم، ﴿النَّارُ﴾ التي أعدها الله للكافرين، ﴿وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ مصيرهم؛ مصير عذاب لا نعمة فيه ولا رحمة؛ بسبب إعراضهم وبغيهم ومكرهم: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٨﴾.

بعد أن ذكر الله عَزَّوَجَلَّ تعين طاعته وطاعة رسوله ﷺ ذكر آية عظيمة فيها أحكام الاستئذان في البيوت، حتىٰ من الطوافين والعبيد والإماء والأبناء، فذاك استئذان لدخول البيت، وهذا استئذان لدخول الحُجَر وأماكن الستر.

٥٨ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ﴾ اللام لام الأمر، ﴿الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ من العبيد والإماء، ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ﴾ من أبنائكم وممن يدخل عليكم، ﴿ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾ وهي المرات التي يكون فيها الإنسان علىٰ راحةٍ، وربما يحتاج إلىٰ أن يُستأذن عليه، حتىٰ لا يُدخل عليه، وهو في أمرٍ لا يليق النظر إليه فيه، ﴿مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ﴾ وقت نوم، فقد

ينكشف بعض عورته، وقد يكون معه أهله، ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ القيلولة، ﴿وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ﴾؛ لأنه وقت نوم وقضاء حاجة ووطر، وهذه الأوقات هي: ﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ﴾ سميت بذلك؛ لأن الإنسان يضع فيها ثيابه فتبدو عورته.

﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ﴾ ليس علىٰ السادة والآباء، ﴿وَلَا عَلَيۡهِمۡ﴾ العبيد والأبناء، ﴿جُنَاحُۢ﴾ حرج ﴿بَعۡدَهُنَّۚ﴾ في الدخول بغير إذن لأنه وقت احتياط، ﴿طَوَّٰفُونَ﴾ يطوفون، ﴿عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾ أي: العبيد والخدم يترددون علىٰ أسيادهم في حال دخولهم وخروجهم، ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ﴾ يوضح ويُجلي، ﴿لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ الشرعيات التي فيها صلاح شأنكم، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما يصلح خلقه، ﴿حَكِيمٞ﴾ في تدبير أمورهم.

❁ وقد ذهب بعض أهل العلم إلىٰ نسخ الآية.

- فقال ابن عباس: لم يكن للقوم ستورٌ ولا حِجاب، فكان الخدم والولائد يدخلون، فربما يرون منهم ما لا يُحبون، فأمروا بالاستئذان، وقد بسط الله الرزق واتخذ الناس الستور، فرأىٰ أن ذلك أغنىٰ عن الاستئذان.

- وذهب قوم إلىٰ أنها غير منسوخة، روىٰ سفيان عن موسىٰ بن أبي عائشة قال: سألتُ الشعبي عن هذه الآية: ﴿لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ أمنسوخة هي؟ قال: لا والله، قلتُ: إن الناس لا يعملون بها، قال: الله المستعان. وقال سعيد بن جبير في هذه الآية: إن ناسًا يقولون: نُسِخَتْ والله ما نسخت، ولكنها مما تهاون به الناس.

﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٩ وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۖ وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٦٠ لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ إِخۡوَٰنِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَعۡمَٰمِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخۡوَٰلِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمۡ أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوۡ صَدِيقِكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا أَوۡ أَشۡتَاتٗاۚ فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ تَحِيَّةٗ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةٗ طَيِّبَةٗۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٦١﴾.

٥٩ ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ﴾ الأحرار ﴿مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ﴾ أي: الاحتلام والبلوغ، ﴿فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟﴾ في جميع الأوقات في الدخول عليكم، ﴿كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأحرار والكبار، ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ دلالاته وحججه وأحكامه، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأمور خلقه، ﴿حَكِيمٌ﴾ في شرعه وأمره لا يخرج شيء منها عن المصالح القدرية والشرعية.

٦٠ ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ يعني: اللاتي قعدن عن الولد والحيض من الكِبَر لا يلدن ولا يحِضْن، وقيل: قعدنَ عن الأزواج، وهذا معنىٰ قوله: ﴿ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ أي: لا يردن الرجال لِكِبَرِهِنَّ، سميت المرأة قاعدًا إذا كَبُرَت لأنها تُكثر القعود، ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ﴾ أي: إثم وحرجٌ ومؤاخذة، ﴿أَن يَضَعْنَ﴾ بعض ﴿ثِيَابَهُنَّ﴾ كالجلباب والرداء الذي فوق الثياب، والقناع الذي فوق الخِمار، فأما الخِمار فلا يجوز وضعه، وفي قراءة ابن مسعود وَأُبيّ بن كعب: أنْ يَضَعْنَ مِنْ ثِيَابِهِنَّ.

﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ أي: من غير أن يردنَ بوضع الجلباب والرداء إظهار زينتهن، و(التبرج): هو أن تُظهر المرأة من محاسنها ما ينبغي لها أن تتنزه عنه، ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ﴾ فلا يُلقين من ثيابهن كالجباب والرداء، ﴿خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ ؛ لأن المرأة عورة علىٰ أي حال، فإذا خرجت استشرفها الشيطان، ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم، ﴿عَلِيمٌ﴾ بأفعالكم، فلما رُخِّصَ للقواعد من النساء فيما تقدم دلَّ علىٰ أن غير القواعد لا يجوز لهن فعل ذلك، بل يجب عليهن الستر التام الكامل؛ بعدم إظهار المحاسن وما يدعو إلىٰ النكاح لغير محرمٍ.

وقد حرص الكفار في هذه الأزمنة المتأخرة علىٰ إظهار مفاتن النساء للتغرير بهن للباطل، ولإشاعة الفاحشة والرذيلة، وانظر إلىٰ عظيم شأن الإسلام كيف سد ذرائع الباطل من الزنا وغيره.

٦١ ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ جناح في ترك بعض الأعمال التي يعجز عنها، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، ﴿وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ﴾ وهو الذي يعرج برجله لعائقٍ إما من صِغَره أو لطارئ عليه، ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ المريض صاحب الزمانة الذي لازمه المرض أو المريض في حال مرضه؛ رفع الله عَزَّوَجَلَّ الحرج، كما قال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨].

﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ أي: حرجٌ في، ﴿أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ﴾ ؛لأن الأصل أن ما في بيت الرجل من كسبه، أو من كسب ولده، أو مما أهدي إليه، ﴿أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ﴾ ؛ لأن الأب يجب عليه النفقة علىٰ ولده، وهكذا طيبة نفسه بما يأكله ولده، ﴿أَوۡ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ ويدخل في ذلك الجدات كما يدخل في الآباء الجد، ﴿أَوۡ بُيُوتِ إِخۡوَٰنِكُمۡ﴾ سواءً إخوة أشقاء، أو إخوة لأب، أو إخوة لأم، ﴿أَوۡ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمۡ﴾ علىٰ المعنىٰ الأول، ﴿أَوۡ بُيُوتِ أَعۡمَٰمِكُمۡ﴾ الذين هم إخوة الأب، أو إخوة الجد، ﴿أَوۡ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمۡ﴾ اللاتي هن أخوات الأب، أو أخوات الجد، ﴿أَوۡ بُيُوتِ أَخۡوَٰلِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمۡ﴾ الذين هم إخوة الأم، أو جدود الأم، ﴿أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ ما وكلتم علىٰ حفظه مما هو تحت تصرفكم، والمفتاح يجوز أن يكون بمعنىٰ الذي يُفتح به، فلا بأس أن يطعم الشيء اليسير، وقيل: ما أوتيه الرجل من الماشية وغير ذلك، كقوله تعالىٰ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ [الأنعام:٥٩]، ﴿أَوۡ صَدِيقِكُمۡۚ﴾ أي: ليس عليكم جُناحٌ أن تأكلوا من مالِ صديقكم إن كان قد أذِنَ لكم، وكل هذا دليلٌ علىٰ طيبة النفس بذلك.

📖 وَسَبَبُ نُزُولِ الآيَةِ: ما كان يقع من الحرج علىٰ بعض المسلمين حين نهىٰ الله عَزَّوَجَلَّ أن يأكل بعضهم مالَ بعضٍ بالباطل، فرخَّصَ الله لهم فيما تقدم.

﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ﴾ حرجٌ، ﴿أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا﴾ علىٰ مائدة واحدة، ﴿أَوۡ أَشۡتَاتٗاۚ﴾ متفرقين، ﴿فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا﴾ بيوتكم أو بيوت غيركم، ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ قد يكون المُراد سَلِّموا علىٰ أنفسكم إن لم يكن فيها أحد، وقد يكون المُراد: سلموا علىٰ أنفسكم أي: علىٰ المسلمين، ويكون السلام، ﴿تَحِيَّةٗ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ شرعها لكم وفيها الدعاء بالسلامة، أي: تُحيون أنفسكم تحية من عندا لله، ﴿مُبَٰرَكَةٗ﴾ حسنة جميلة، ومن بركتها ما فيها من الثواب والأجر، ﴿طَيِّبَةٗ﴾ تطيب بها النفوس وتنتشر بها الألفة والمحبة، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّىٰ تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»**، ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ يُفصلها ويُوضحها ويُجليها، ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ أمر الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ ۖ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿٦٢﴾ ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ حقًّا ظاهرًا وباطنًا، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ﴾ ربًا، ﴿وَرَسُولِهِ﴾ ﷺ نبيًا، ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ﴾ في سَفَر أو حضر، ﴿عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ اجتمعوا فيه كصلاة أو حرب أو عيد أو جُمعَة أو تشاور، ونحو ذلك، ﴿لَمْ يَذْهَبُوا﴾ من عند رسول الله ﷺ ﴿حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ تطيبًا لنفسه ومعرفة لحقه.

وقد جاء عَنْ رِفَاعَةَ الْجُهَنِيِّ، قَالَ: أَقْبَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّىٰ إِذَا كُنَّا بِالْكَدِيدِ أَوْ قَالَ: بِقُدَيْدٍ فَجَعَلَ رِجَالٌ مِنَّا يَسْتَأْذِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ فَيَأْذَنُ لَهُمْ، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَحَمِدَ اللهَ، وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: **«مَا بَالُ رِجَالٍ يَكُونُ شِقُّ الشَّجَرَةِ الَّتِي تَلِي رَسُولَ اللهِ ﷺ، أَبْغَضَ إِلَيْهِمْ مِنَ الشِّقِّ الْآخَرِ»** فَلَمْ نَرَ عِنْدَ ذَلِكَ مِنَ الْقَوْمِ إِلَّا بَاكِيًا، فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الَّذِي يَسْتَأْذِنُكَ بَعْدَ هَذَا لَسَفِيهٌ. فَحَمِدَ اللهَ، وَقَالَ حِينَئِذٍ: **«أَشْهَدُ عِنْدَ اللهِ لَا يَمُوتُ عَبْدٌ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ، ثُمَّ يُسَدِّدُ إِلَّا سُلِكَ فِي الْجَنَّةِ»**.

قَالَ: **«وَقَدْ وَعَدَنِي رَبِّي** عَزَّوَجَلَّ **أَنْ يُدْخِلَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ، وَلَا عَذَابَ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ لَا يَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ تَبَوَّءُوا أَنْتُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِكُمْ وَأَزْوَاجِكُمْ وَذُرِّيَّاتِكُمْ مَسَاكِنَ فِي الْجَنَّةِ»**.

وَقَالَ: **«إِذَا مَضَىٰ نِصْفُ اللَّيْلِ أَوْ قَالَ: ثُلُثَا اللَّيْلِ يَنْزِلُ اللهُ** عَزَّوَجَلَّ **إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: لَا أَسْأَلُ عَنْ عِبَادِي أَحَدًا غَيْرِي، مَنْ ذَا يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ، مَنِ الَّذِي يَدْعُونِي فَأَستَجِيبُ لَهُ، مَنْ ذَا الَّذِي يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيهِ، حَتَّىٰ يَنْفَجِرَ الصُّبْحُ»**. اخرجه احمد.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ﴾ يا محمد، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ ربًا، ﴿وَرَسُولِهِ﴾ ﷺ نبيًا، ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ أمرهم وما يحتاجونه، ﴿فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ وأخِّر من شئت، ويجب عليهم السمع والطاعة، ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللهَ﴾ عن تقصيرهم، ﴿إِنَّ

﴿اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لما سبق من الذنوب، ﴿رَّحِيمٌ﴾ فيما يأتي، وقد أخرج ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٥٦١) عَنْ رِفَاعَةَ الْجُهَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَرَرْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَجَعَلَ النَّاسُ يَسْتَأْذِنُونَهُ فَيَأْذَنُ لَهُمْ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَا بَالُ شِقِّ الشَّجَرَةِ الَّتِي تَلِي رَسُولَ اللهِ ﷺ أَبْغَضُ إِلَيْكُمْ مِنَ الْآخِرِ؟»** قَالَ فَلَمْ يُرَ فِي الْقَوْمِ إِلَّا بَاكِيًا. قَالَ: فَقُلْتُ: إِنَّ الَّذِي يَسْتَأْذِنُكَ بَعْدَ هَذَا لَسَفِيهٌ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«أَشْهَدُ عِنْدَ اللهِ»** وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا حَلَفَ قَالَ: **«وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، مَا مِنْ عَبْدٍ يُؤْمِنُ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ ثُمَّ يُسَدِّدُ إِلَّا سُلِكَ بِهِ فِي الْجَنَّةِ، أَرْجُو أَنْ لَا يَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ تَتَبَوَّءُوا أَنْتُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ذَرَارِيِّكُمْ مَسَاكِنَ فِي الْجَنَّةِ وَلَقَدْ وَعَدَنِي رَبِّي أَنْ يُدْخِلَ مِنْ أُمَّتِي الْجَنَّةَ سَبْعِينَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ»** ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُمْهِلُ حَتَّىٰ إِذَا ذَهَبَ مِنَ اللَّيْلِ نِصْفُهُ أَوْ ثُلُثَاهُ فَقَالَ: لَا يُسْأَلُ عَنْ عِبَادِي غَيْرِي مَنْ يَدْعُونِي أَسْتَجِيبُ لَهُ مَنْ يَسْأَلْنِي أُعْطِيهِ مَنْ يَسْتَغْفِرْنِي أَغْفِرُ لَهُ حَتَّىٰ يَطْلُعَ الْفَجْرُ»**.

﴿٦٣﴾ ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟﴾ أيها المؤمنون، ﴿دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ﴾ أي: مناداتكم لرسول الله ﷺ، ﴿كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ أنت تقول لأخيك: يا فلان، بينما لا يجوز أن تقول لرسول الله ﷺ: يا محمد؛ ولكن يا رسول الله، يا نبي الله، وإذا نودي بالكنية فلا حرج، فعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«تَسَمَّوْا بِاسْمِي، وَلَا تَكَنَّوْا بِكُنْيَتِي»** متفق عليه، ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ﴾ ينصرفون، ﴿مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ خفية دون إذن فيستر بعضهم بعضًا ويروغ في خفية فيذهب، قيل: ذلك كان في حفر الخندق، وقيل عند بناء المسجد، وقوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللهُ﴾ هو علىٰ التهديد، فإنه يُهددهم علىٰ مجازاتهم علىٰ سوء صنيعهم، ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ عن أمر محمد ﷺ وشريعته وسنته ظاهرًا أو باطنًا.

وفي حديث أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: **«فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»** متفق عليه، ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ في دينهم من بلاء ومحنة وشك ونفاق ونحوها، ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ علىٰ معصيتهم في الدنيا بالقتل وفي الآخرة بالنار.

❁ **وهذه الآية بعمومها يُستدل بها علىٰ وجوب الأخذ بأمر النبي ﷺ** إلا ما صُرِف عن الوجوب إلىٰ الاستحباب، أو كان علىٰ الإباحة ونحو ذلك، وإلا فالأصل في الأمر

الوجوب: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ فيزيغ أحدهم عن دين الله، ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ موجع.

۞ وفيها رد علىٰ الفرقة القرآنية الذين ينكرون حجية السنة الصحيحة إذ أن الله عَزَّوَجَلَّ أمرنا بالأخذ بأمر رسول الله ﷺ، والانتهاء عن نهيه وزجره.

٦٤ ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وما بينهما من المخلوقات العظيمات، ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ قد هنا للتحقيق، فهو يعلم كل شيء، لا تخفىٰ عليه خافية، ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ يوم القيامة، ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾ يُخبرهم، ﴿بِمَا عَمِلُوا۟﴾ من الخير والشر، ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا تخفىٰ عليه خافية.

وهذا تفسير مختصر علىٰ سورة النور وهي من السور المدنية التي فيها من الأحكام الشرعية ما إن أخذ به المُكلف استقام له دينه ودنياه، واستقامت دنياه وأخراه، وقد تضمنت جُملًا من الحدود وجُملًا من الآداب، وهذا هو كلامُ الله عَزَّوَجَلَّ الذي: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢].

وأما الحديث الذي أخرجه الحاكم (٣٤٩٤) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: **«لَا تُنْزِلُوهُنَّ الْغُرَفَ، وَلَا تُعَلِّمُوهُنَّ الْكِتَابَةَ -يَعْنِي النِّسَاءَ- وَعَلِّمُوهُنَّ الْغَزْلَ وَسُورَةَ النُّورِ»**، فهو حديثٌ موضوع، وآفته عبد الوهاب، قال أبو حاتم: كذاب، وفيه أيضًا محمد بن إبراهيم الشامي، قال الدارقطني: كذاب، وهو في العلل المتناهية لابن الجوزي، والله أعلم.

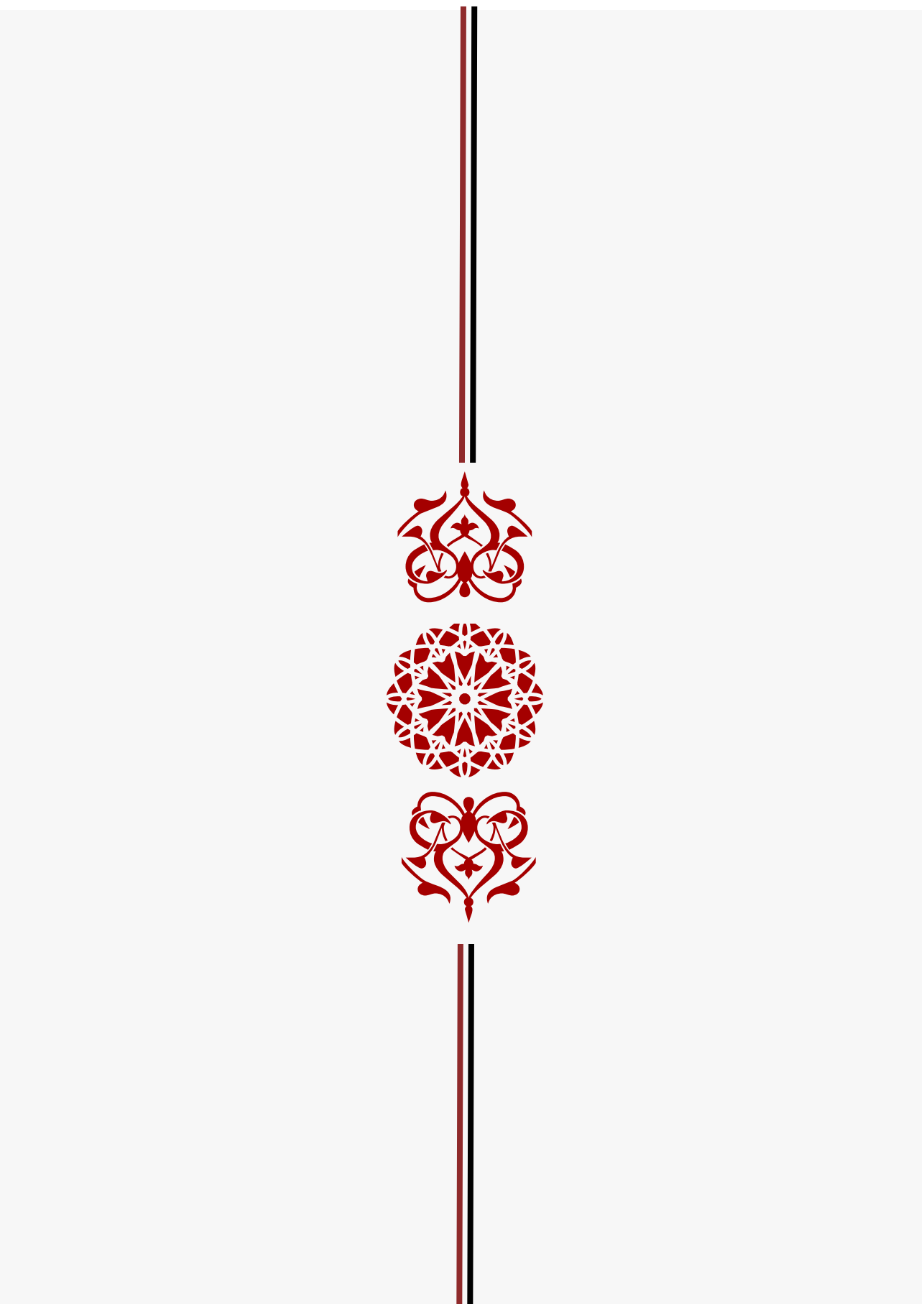
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

تم تفسير سورة النور



تَفْسِيرُ سُورَةِ الْفُرْقَانِ





سُورَةُ الْفُرْقَانِ

سُورَةٌ مَكِّيَّةٌ، عَدَدُ الآيَاتِ: سَبْعَةٌ وَسَبْعُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝١ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ۝٢﴾.

١ ﴿تَبَارَكَ﴾ تعالىٰ وتعاظم عن صفات النقص والعيب، ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾ القرآن ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ محمد ﷺ، ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ﴾ من الجن والإنس، ﴿نَذِيرًا﴾ يُخوفهم النار ويُبشرهم بالجنة.

❁ **وهذا من الأدلة** علىٰ عموم رسالةِ محمدٍ ﷺ إلىٰ جميع المُكلفين، وقد تقدم ذلك عند قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨].

٢ ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ لِكمالِ حياته وقيوميته، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ﴾ يشاركه، ﴿فِي الْمُلْكِ﴾ كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك:١]، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ من المخلوقات، فلا يدخل في ذلك القرآن، فإن القرآن صِفَتُه، ﴿فَقَدَّرَهُ﴾ هيأه لما يصلح ويليق، ﴿تَقْدِيرًا﴾ لا خلل فيه ولا تفاوت.

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ۝٣ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ۝٤ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦﴾.

٣ ﴿وَاتَّخَذُوا﴾ أي: الكفار، ﴿مِن دُونِهِ﴾ من دون الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿آلِهَةً﴾ يعبدونها من الأصنام والأوثان، ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾ ؛ لعجزهم، ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ يوجدون من العدم بعد أن لم يكونوا، وهذا لا يكون إلهًا أبدًا، ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ﴾ أي: هذه المخلوقات المربوبات، ﴿لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا﴾ بدفعه، ﴿وَلَا نَفْعًا﴾ بجلبه، ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا﴾ لأنفسهم ولا لغيرهم، ﴿وَلَا

حَيَوٰةً﴾ لأنفسهم ولا لغيرهم، ﴿وَلَا نُشُورًا﴾ بعثًا، وهذا دليلٌ علىٰ شدة عجزهم ونقصهم، لكن الكفار لسوء اعتقادهم عبدوها من دون الله عَزَّوَجَلَّ.

٤ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ معارضين للقرآن والوحي المُبين، ﴿إِنْ﴾ ما ﴿هَٰذَآ﴾ الذي جاء به محمدٌ ﷺ، ﴿إِلَّآ إِفْكٌ﴾ كَذِبٌ، ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ اختلقه من نفسه، ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ﴾ علىٰ اختلاقه، ﴿قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ فنمقوه وزينوه، وهذا القول لاضطرابهم، فتارة يقولون: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر:٢٥]، وتارة يقولون: ﴿سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [المدثر:٢٤]، وتارة يقولون: ﴿يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل:١٠٣] يريدون به عُبيد بن الحضرمي الحبشي الكاهن، وقيل غيره، ﴿فَقَدْ جَآءُو﴾ في قولهم هذا في محمدٍ ﷺ وما جاء به، ﴿ظُلْمًا وَزُورًا﴾ جاءوا بظلمٍ وزور وافتراء وكذب: ﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات:٥٣].

٥ ﴿وَ﴾ من اضطرابهم، ﴿قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ﴾ قصص، ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ السابقين، ﴿ٱكْتَتَبَهَا﴾ نقلها عمن قبله، ﴿فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ من غيره، ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ في صبحهم ومسائهم، مع أنهم يعلمون أن محمدًا ﷺ كان لا يكتب ولا يقرأ المكتوب، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت:٤٨].

٦ ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿أَنزَلَهُ﴾ أي: القرآن، الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ﴾ الغيب ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لا تخفىٰ عليه خافية، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ﴾ تُفيد اللزوم والاستمرار في حقه كما قال ابن عباس، ﴿غَفُورًا﴾ متجاوزًا عن عباده، وعما بدر منهم، ﴿رَّحِيمًا﴾ موفقًا لهم فيما يأتي من جميع أعمالهم.

﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٨ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٩ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ۝١٠﴾.

٧ ﴿وَقَالُواْ﴾ معارضين لنبوته ورسالته، ﴿مَالِ﴾ ما شأن، ﴿هَٰذَا الرَّسُولِ﴾ محمد ﷺ، ﴿يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ كما نأكل، ﴿وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ لقضاء حوائجه، ومنها التكسب والتجارة، ﴿لَوْلَآ﴾ هلَّا، ﴿أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾ كريمٌ، ﴿فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ داعيًا إلىٰ الله

عَزَّوَجَلَّ ويُصدقه فيما يقول، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ كما تقدم في سورة الأنعام: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام:٩]، فشأنهم في اضطراب، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق:٥].

٨ وزادوا طلبًا آخر: ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ﴾ يطرح ﴿إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ من السماء يُنفقه في حوائجه، وجميع شؤونه، ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾ بستان عظيم، ﴿يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ ويستغني عن الأسواق، ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الكافرون، ﴿إِن﴾ ما ﴿تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ قد سحره غيره، وقد تلبس به الجن، وصار مخدوعًا مصروفًا عن الحق.

٩ ﴿ٱنظُرْ﴾ يا محمد، ﴿كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ الكثيرة، والحكايات السيئة، فلم يقفوا علىٰ قولٍ أو تُهمة؟ كما هو الحال الآن في رمي أهلِ السنة بما هم منه برآء، فتارة يقولون بأنهم متشددون، وتارة بأنهم من الخوارج، وتارة بأنهم كذا وكذا، وأهل السنة في بُعدٍ عن كل هذه التُّهم، وتارة بأنهم جاءوا بدينٍ جديد، مع أنهم ما جاءوا إلا بما أوحاه الله علىٰ رسوله ﷺ، فيدعون الناس من القرآن والسنة إلىٰ القرآن والسنة، ﴿فَضَلُّوا۟﴾ تاهوا وتشعبوا، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ فلا يهتدون إلىٰ طريقٍ يُخرجهم من الضلالة؛ لكثرة تخبطهم وسوء فعالهم.

١٠ ﴿تَبَارَكَ﴾ تعاظم: ﴿ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ﴾ يا محمد، ﴿جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكروه، ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ تسرح في أرجائها، ﴿وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا﴾ شامخاتٍ مُشيدات، والعرب تُسمي كلَّ بيتٍ مُشيد قصرًا، ولو أراد رسول الله ﷺ ذلك لكان، لكنه استأنىٰ بأمته؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ خيَّرهُ فإن أعطاه ما سألوه فإن لم يستجيبوا كان بعد ذلك الهلاك.

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾.

١١ ﴿بَلْ﴾ الواقع الذي جعلهم يضطربون فيك وفي دعوتك أنهم، ﴿كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ﴾ بالبعث والنشور والقيامة، ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ جهَّزنا وأعددنا.

وهذا من الأدلة علىٰ وجود النار الآن.

﴿لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ﴾ بالبعث والنشور، ﴿سَعِيرًا﴾ نارٌ مستعرة تُحيط بهم من جميع جوانبهم.

١٢ ومن شأنها أنها: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا﴾ قيل من مسيرة عام، وقيل من مسيرة مائة سنة، وقيل غير ذلك، والله أعلم، ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا﴾ صوتًا شديدًا، ﴿تَغَيُّظًا﴾ غليانًا كالغضبان إذا غَلِيَ صدره من الغضب، ﴿وَزَفِيرًا﴾ صوتًا، ولا يُمنع أن الآية علىٰ ظاهرها أنهم يسمعون ذلك.

١٣ ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟﴾ طرحوا، ﴿مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا﴾ حين دخولهم النار، كما قال تعالىٰ: ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ﴾ [البلد: ٢٠]، ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ مقيدين مصفدين، كما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ۝٣٢﴾ [الحاقة: ٣٠-٣٢]، ﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ ويلًا، وحسرة، وخيبة.

١٤ فيُقال لهم: ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا﴾ هلاكًا، ﴿وَٰحِدًا﴾ فأسباب هلاككم وعذابكم كثيرة، ﴿وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا﴾ هلاكًا ﴿كَثِيرًا﴾ أكثر من أن تدعوا مرة واحدة، ولن يستجاب لهم بل يقول الله عَزَّوَجَلَّ لهم: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾.

١٥ ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿أَذَٰلِكَ﴾ الذي وعدتم به من العذاب والشدة، ﴿خَيْرٌ﴾ مستقر، ومقام، وأهنىٰ عيشة، ﴿أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ﴾ الجنة العالية التي: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٢٣]، يُقال لهم فيها: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]، ﴿ٱلَّتِى وُعِدَ﴾ بها ﴿ٱلْمُتَّقُونَ﴾ المؤمنون الموحدون، ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً﴾ ثوابًا لأعمالهم الصالحة، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾ [النبأ: ٣٦] واسعًا، ﴿وَمَصِيرًا﴾ مرجعًا يرجعون إليه.

١٦ ومن شأن المؤمنين في ذلك: ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ مما تشتيه أنفسهم وتُلذ به أعينهم، حال كونهم: ﴿خَٰلِدِينَ﴾ ماكثين أبدًا، كما قال تعالىٰ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨]، ﴿كَانَ﴾ هذا الوعد ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ يعني: مطلوبًا طلبه المؤمنون من ربهم.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾.

﴿١٧﴾ ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ يجمعهم ربهم سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ من الأصنام والأوثان، ﴿فَيَقُولُ﴾ للأصنام مُكَبتًا ومُنكرًا علىٰ الكفار عبادتها، ﴿أَأَنتُمْ﴾ أيتها الأصنام، ﴿أَضْلَلْتُمْ﴾ حرفتم ﴿عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ﴾ الكفار عن الصراط المستقيم والطريق القويم، ﴿أَمْ هُمْ﴾ الكفار، ﴿ضَلُّوا﴾ أخطؤا، ﴿السَّبِيلَ﴾ الطريق الذي أوحاه الله وبينه لهم فأخطأوه وزاغوا عنه بسبب زيغهم وضلالهم.

﴿١٨﴾ ﴿قَالُوا﴾ فقالت تلك المعبودات لاسيما من الملائكة والصالحين وغيرهم: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ نُنَزِّهُكَ أن يكون لك شريكٌ في ملكك، أو في عبادتك، أو فيما هو من شأنك، ﴿مَا كَانَ يَنبَغِي﴾ لا يجوز، ﴿لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ نصراء نعبدهم ونرجوهم ونتقرب إليهم؛ ﴿وَلَٰكِن﴾ السبب الذي بسببه ضلوا أنك، ﴿مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ﴾ وأنعمتَ عليهم بالنعم الكثيرة، ﴿حَتَّىٰ﴾ طال عليهم العمر، وحتىٰ، ﴿نَسُوا﴾ تركوا ﴿الذِّكْرَ﴾ الذي أوحيته إليهم وجليته لهم، ﴿وَكَانُوا﴾ في شأنهم، ﴿قَوْمًا بُورًا﴾ هلْكىٰ، غلب عليهم الشقاء والخذلان، وقد قال عبد الله بن مسعود: الشقي من شقي في بطن أمه، والسعيد من سعد في بطن أمه.

﴿١٩﴾ ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم﴾ هذا خطاب للمشركين أن المعبودات كذبتهم في ذلك، ﴿بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا﴾ تدفعون وتصرفون عن أنفسكم عذابًا، ﴿وَلَا نَصْرًا﴾ لأنفسكم ولا لغيركم لعجزكم، ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ بالشرك بالله، ﴿نُذِقْهُ﴾ نعذبه ﴿عَذَابًا كَبِيرًا﴾ عظيمًا شديدًا، والظلم قد وقع منهم، وهو الشرك بالله، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢].

﴿٢٠﴾ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ﴾ يا محمد، ﴿مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا﴾ كانوا بشرًا و﴿إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ للتكسب والتجارة، فهذا أمرٌ صارت عليه البشرية.

❁ ولا ينافي هذا الحال ما هم عليه من السمات الحسنة والصفات الجميلة والأقوال الفاضلة والأعمال الكاملة والآيات الباهرة والأدلة القاهرة، ما يستدل به كل منصف علىٰ صدقهم.

❁ وفي الآية جواز التكسب وعمل الأسباب الشرعية والقدرية، وطلب المعاش وأن هذا لا ينافي التوكل، وليس من خوارم المروءة، وفي البخاري (٢٢٦٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَىٰ الغَنَمَ**»، فَقَالَ أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ؟ فَقَالَ: «**نَعَمْ، كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَىٰ قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ**».

وحكم من حرم المكاسب الابتداع ففي الفتوىٰ الحموية لشيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ (٤٥٨) ناقلًا عن محمد بن جرير: ومما نعتقده أن الله أباح المكاسب والتجارات والصناعات، وإنما حرم الله الغش والظلم، وأما من قال بتحريم تلك المكاسب فهو ضال مضل مبتدع؛ إذ ليس الفساد والظلم والغش من التجارات والصناعات في شيء إنما حرم الله ورسوله الفساد؛ لا الكسب والتجارات؛ فإن ذلك علىٰ أصل الكتاب والسنة جائز إلىٰ يوم القيامة وإن مما نعتقد أن الله لا يأمر بأكل الحلال، ثم يعدمهم الوصول إليه من جميع الجهات؛ لأن ما طالبهم به موجود إلىٰ يوم القيامة؛ والمعتقد أن الأرض تخلو من الحلال والناس يتقلبون في الحرام؛ فهو مبتدع ضال إلا أنه يقل في موضع ويكثر في موضع؛ لا أنه مفقود من الأرض. اهـ

وقد توسعت في هذه المسألة في شرحي علىٰ السنة للبربهاري رحمه الله عند قوله : واعلم بأن الشراء والبيع حلال ما بيع في أسواق المسلمين ... إلىٰ آخر العبارة.

﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ﴾ الكفار للمؤمنين والمؤمنين للكفار، ﴿فِتْنَةً﴾ أي: بلاء ومحنة.

ففي صحيح مسلم عن عياض بن حمار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ رسول الله ﷺ: قال الله تعالىٰ: «**إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ**» فمن صبر ورضي بقضاء الله وقدره وعمل بشرعه كان من الموفقين المنصورين، ومن أعرض عن ذلك كان من المُبعدين، ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ علىٰ هذه الحالة، ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ بمن التزم شرعه وبمن سلك غير سبيله، فيُجازي المُحسن بإحسانه، ويُجازي المُسيء بإساءته.

الجزء التاسع عشر

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾.

﴿٢١﴾ ﴿وَقَالَ﴾ الكفار، ﴿ٱلَّذِينَ﴾ من حالهم أنهم، ﴿لَا يَرْجُونَ﴾ يأملون ويظنون، ﴿لِقَآءَنَا﴾ أي: لقاء الله والبعث والنشور، ﴿لَوْلَا﴾ هَلَّا، ﴿أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ بتبليغ الدين بدلا عن الرسول البشري، ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ﴾ جهارًا فيُخبرنا بأمره ونهيه، وهذا منهم معاندة، ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ علوا وتجبروا ﴿فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ وتعاظموا في أنفسهم، ﴿وَعَتَوْ﴾ تجاوزوا الحد وطغوا ﴿عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ طغيانا عظيما فـ(العتو) أشد الظلم والبغي.

﴿٢٢﴾ واذكر يا محمد، ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ﴾ يعاين الكفار، ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ عند الموت، ويوم القيامة عند البعث والنشور، ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة، ﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ للكافرين، وإنما يُبشرون بالنار وبئس القرار، بينما المؤمن قال الله في شانه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت:٣٠-٣٢].

﴿وَيَقُولُونَ﴾ الملائكة ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ حرامًا محرمًا عليكم البشرىٰ، وأن يدخل الكافر الجنة، إلا من قال: لا إله إلا الله وآمن بالله ربًا وبمن أرسله الله عَزَّوَجَلَّ رسولًا ونبيًا، وقيل بأن القائل: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ هو قول الكفار يستعيذون بالملائكة ولا معاذ لهم ولا ملجأ.

﴿٢٣﴾ ﴿وَقَدِمْنَآ﴾ عَمِدْنا، ﴿إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ﴾ من الأعمال الصالحة، ﴿فَجَعَلْنَٰهُ﴾ صيرناه ﴿هَبَآءً﴾ وهو الغبار الذي يُرىٰ في الكوة عند دخول الشمس فيه، لا يُمس بالأيدي ولا يُرىٰ في الظل، ﴿مَّنثُورًا﴾ متفرقًا؛ والسبب في ذلك أنهم عَدِموا الإخلاص في أعمالهم،

والله عَزَّوَجَلَّ لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا لوجه، وكان العامل فيه متابعًا لرسول الله ﷺ كما قال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك:٢]، قال الفضيل بن عياض: أخلصه وأصوبه، والخالص ما كان لله لا يُشركه غيره، والصواب: ما كان علىٰ طريقة رسول الله ﷺ.

﴿٢٤﴾ ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة، ﴿خَيْرٌ﴾ من هؤلاء المشركين، ﴿مُّسْتَقَرًّا﴾ مقامًا، ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ موضع قائلة، وهذا من الأوجه التي ظاهرها التفاضل بين أصحاب النار وأصحاب الجنة ولا مفاضلة؛ لكن لبيان منزلة أهل الجنة العظيمة.

﴿٢٥﴾ ﴿وَ﴾ اذكر يا محمد، ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ﴾ تتفطر، كما قال تعالىٰ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١]، وقال: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]، ﴿بِٱلْغَمَٰمِ﴾ أي: عن الغمام، وهو السحاب، ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ تأهبًا واستعدادًا لنزول الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿تَنزِيلًا﴾ متتابعًا؛ لأن ذلك اليوم يجيء الله عَزَّوَجَلَّ للفصل بين العباد، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر:٢٢]، وقال تعالىٰ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام:١٥٨].

﴿٢٦﴾ ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ لا شريك له؛ وذلك حين يقبض الله عَزَّوَجَلَّ السموات بيمينه، ويأخذ الأرض بيده الأخرىٰ، ثم يهزهن ويقول: أين الجبارون أين المتكبرون، ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ شديدة أهواله، سيئةٌ عليهم أحواله، كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾ [المدثر:٨-١٠].

وفي الصحيح: أنهم يغتمون لذلك ويأتون الأنبياء والمرسلين لطلب الشفاعة، فيقولون: **«اشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ، أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ، أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ مَا قَدْ بَلَغَنَا؟»**،

﴿٢٧﴾ ﴿وَ﴾ اذكر، ﴿يَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ﴾ بأسنانه ﴿عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ علىٰ أصابعه من شدة الندم والحسرة والأسف، ﴿يَقُولُ﴾ عند ذلك بلسان حاله ومقاله: ﴿يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ﴾ في الدنيا، ﴿مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ أي: طريقًا ومسلكًا.

❁ وهذا دليلٌ علىٰ أن الجنة لا يدخلها إلا من آمن برسوله وكان متبعًا له.

وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَىٰ»**، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَنْ يَأْبَىٰ؟ قَالَ: **«مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَىٰ»**

أخرجه البخاري، وفي حديث جابر قال: «جَاءَتْ مَلاَئِكَةٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ نَائِمٌ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ نَائِمٌ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ العَيْنَ نَائِمَةٌ، وَالقَلْبَ يَقْظَانُ، فَقَالُوا: إِنَّ لِصَاحِبِكُمْ هَذَا مَثَلًا، فَاضْرِبُوا لَهُ مَثَلًا، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ نَائِمٌ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ العَيْنَ نَائِمَةٌ، وَالقَلْبَ يَقْظَانُ، فَقَالُوا: مَثَلُهُ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَىٰ دَارًا، وَجَعَلَ فِيهَا مَأْدُبَةً وَبَعَثَ دَاعِيًا، فَمَنْ أَجَابَ الدَّاعِيَ دَخَلَ الدَّارَ وَأَكَلَ مِنَ المَأْدُبَةِ، وَمَنْ لَمْ يُجِبِ الدَّاعِيَ لَمْ يَدْخُلِ الدَّارَ وَلَمْ يَأْكُلْ مِنَ المَأْدُبَةِ، فَقَالُوا: أَوِّلُوهَا لَهُ يَفْقَهْهَا، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ نَائِمٌ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ العَيْنَ نَائِمَةٌ، وَالقَلْبَ يَقْظَانُ، فَقَالُوا: فَالدَّارُ الجَنَّةُ، وَالدَّاعِي مُحَمَّدٌ ﷺ وَالدَّاعِي مُحَمَّدٌ ﷺ، فَمَنْ أَطَاعَ مُحَمَّدًا ﷺ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ، وَمَنْ عَصَىٰ مُحَمَّدًا ﷺ فَقَدْ عَصَىٰ اللهَ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ فَرْقٌ بَيْنَ النَّاسِ» أخرجه البخاري.

﴿٢٨﴾ ﴿يَاوَيْلَتَا﴾ يدعو علىٰ نفسه بالويل والثبور، ﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا﴾ الكافر والمعرض، ﴿خَلِيلاً﴾ صاحبًا؛ لأن ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٦٧]، فيتبرأ بعضهم من بعض، ويفر بعضهم من بعض، وفي الحديث الذي أخرجه أبو داود.

وغيره عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ»، إلا أنه من طريق أبي الهيثم.

﴿٢٩﴾ ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي﴾ حرفني وأزاغني، ﴿عَنِ الذِّكْرِ﴾ عن طاعةِ الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ به الرسول، وفي الوحي المنزل، ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا﴾ يخذله ويؤدي به إلىٰ الباطل، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم:٨٣]، وفي هذا شؤم صديق السوء، وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند أبي داود وغيره قال رسول الله ﷺ: «الْمَرْءُ عَلَىٰ دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ»، وفي حديث أبي موسىٰ قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ، كَحَامِلِ المِسْكِ وَنَافِخِ الكِيرِ فَحَامِلُ الْمِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً» متفق عليه.

فجالس أهل السلامة تنالُك السلامة، وإياك ومجالسة أهل الخيانة فينالُك الخسار والندامة؛ يخونونك أحوج ما تكون إليهم في نصحهم، وتوجيههم، وفي جميع شأنهم ويوم القيامة يتبرؤون منك: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾﴾ [ق:٢٧].

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾.

﴿٣٠﴾ ﴿وَقَالَ﴾ عند ذلك، ﴿الرَّسُولُ﴾ ﷺ، ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ الذي أنزلته عليَّ، ﴿مَهْجُورًا﴾ لا يتلونه ولا يعملون به، بل تركوه خلف ظهورهم، وهجر القرآن له صور كثيرة منها هجر قراءته والتحاكم إليه، والعمل بما فيه، وهجر الاستشفاء به، والتدبر والاعتقاد، وغير ذلك من أنواع الهجر علىٰ ما ذكره ابن القيم رحمه الله في "الفوائد".

﴿٣١﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كما اتخذ هؤلاء القرآن مهجورًا، ﴿جَعَلْنَا﴾ صيرنا ﴿لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا﴾ يُعاديه ويؤذيه، ﴿مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ المشركين، ولله الحكمة في ذلك، ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا﴾ موفقا لمن علم فيه الخير والرشاد، ﴿وَنَصِيرًا﴾ لأوليائه المؤمنين، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر:٥١].

﴿٣٢﴾ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ معترضين علىٰ نبوة محمد ﷺ وعلىٰ نزول القرآن، ﴿لَوْلَا﴾ هَلَّا، ﴿نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ دفعة واحدة كما أُنزلت التوراة علىٰ موسىٰ والإنجيل علىٰ عيسىٰ والزبور علىٰ داود، بينما القرآن نزل منجمًا لحكمةٍ عَلِمَها الله وأرادها، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: الحكمة من إنزاله منجمًا مفرقًا، ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ علىٰ الحق، ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ بَيَّنَّاهُ بيانًا، وفصلناه تفصيلًا.

﴿٣٣﴾ ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ﴾ هؤلاء الكفار، ﴿بِمَثَلٍ﴾ بشبهة باطلة التي يضربونها لإبطال الحق وإحقاق الباطل.

﴿إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ الذي لا يُمترىٰ فيه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢]، ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ بيانًا وتفصيلًا.

ومن ذلك حين أنزل الله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء:٩٨]، قالوا: فما تقول في عيسىٰ وعزير والملائكة وقد عُبِدَت من دون الله

عَزَّوَجَلَّ، فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنبياء:١٠١-١٠٢].

﴿٣٤﴾ فهم ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ﴾ يجمعون يوم القيامة يمشون، ﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ كما قال تعالىٰ ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك:٢٢]، وفي حديث أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَىٰ وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: **«أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَىٰ رِجْلَيْهِ فِي الدُّنْيَا، قَادِرًا عَلَىٰ أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟»** متفق عليه، ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ وبئس المصير، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ﴾ أسوأ، ﴿مَّكَانًا﴾ حالًا ومنزلًا، ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أخطأُ طريقًا، حيث أخطؤا طريق الإسلام في الدنيا، وطريق الجنة في الآخرة.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَالَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾.

﴿٣٥﴾ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى﴾ ابن عمران، ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة، ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا﴾ معينًا حين قال: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾﴾ [طه:٢٩-٣٠].

﴿٣٦﴾ ﴿فَقُلْنَا﴾ لهما، ﴿ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وهم فرعون وملأه، ﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ﴾ أغرقناهم في اليم، ﴿تَدْمِيرًا﴾ هلاكًا لا حياة بعده.

﴿٣٧﴾ ﴿وَ﴾ اذكر، ﴿قَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ﴾ لما كذبوا نبيهم عليه الصلاة والسلام؛ ولكن من كذب نبيًا واحد كمن كذب جميعهم، كما قال تعالىٰ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[الشعراء:١٠٥]، قال الله عَزَّوَجَلَّ:﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾[البقرة:٢٨٥]، ﴿أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ حين أبوا إلا الكفر والعناد، ودعا عليهم نبيهم بالهلاك، ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾ صيرناهم، ﴿لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ عظة وعبرة، ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ أعددنا وجهزنا، ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين، ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ موجعًا يوم القيامة.

(٣٨) ﴿وَ﴾ اذكر ﴿عَادًا﴾ قوم هود، وكانوا بالأحقاف، ﴿وَثَمُودَ﴾ قوم صالح، وكانوا بالقرىٰ من ثمود في شمال الجزيرة، ﴿وَأَصْحَابَ الرَّسِّ﴾ البئر، قيل: دفنوا نبيهم فيه، ﴿وَقُرُونًا﴾ أممًا، ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ كثيرة متتابعة دمرهم الله عَزَّوَجَلَّ بسبب بغيهم وظلمهم.

(٣٩) ﴿وَكُلًّا﴾ من هذه الأمم ﴿ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ﴾ الأشباه في إقامة الحجة عليهم، فلم يُهلكُوا إلا بعد النذارة، ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ أهلكناهم إهلاكًا وكسرناهم تكسيرًا.

(٤٠) ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا﴾ أي: قوم قريش، في حال سفرهم إلىٰ الشام.

﴿عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾ وهي قُرىٰ سدوم التي كان فيها لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأمطر الله عَزَّوَجَلَّ عليهم الحجارة بعد أن رفعهم إلىٰ السماء، وقلب عاليها سافلها، ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ فتكون لهم آية وحجة في البعد عن الكفر والعناد؟، ﴿بَلْ﴾ الواقع أنهم كفروا و ﴿كَانُوا لَا يَرْجُونَ﴾ يأملون ولا يظنون ﴿نُشُورًا﴾ بعثًا، ولا حسابًا.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾.

(٤١) ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ﴾ يا محمد، ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ لعبًا وسخرية، ﴿أَهَٰذَا﴾ اليتيم الفقير الضعيف ﴿الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾، كما قالوا: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف:٣١-٣٢].

(٤٢) ﴿إِن كَادَ﴾ هذا الرسول ﴿لَيُضِلُّنَا﴾ يصرفنا، ﴿عَنْ آلِهَتِنَا﴾ الحجارة والأصنام التي يعبدونها من دون الله، ﴿لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ يعني: لولا أن صبرنا علىٰ دعوته وصبرنا علىٰ عبادتنا لهذه الأصنام، وهذا كقولهم: ﴿أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [ص:٦]، يُصبرون أنفسهم بالثبات علىٰ الباطل، فأهل الإسلام أولىٰ وأحرىٰ أن يُصبِّر بعضهم بعضًا علىٰ الهدىٰ وعلىٰ السنة، وأن ينصح بعضهم بعضًا، وأن يستقيموا علىٰ طاعةِ الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي: الكفار، ﴿حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ سواءً في الدنيا أو في الآخرة، ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ من أخطأُ طريقًا.

﴿٤٣﴾ ﴿أَرَأَيْتَ﴾ أخبرني ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ﴾ معبوده ﴿هَوَاهُ﴾ أي: ما يهواه، فإذا أحب حجرًا عبده ودعاه ورجاه.

❁ وهذا دليلٌ علىٰ أن اتخاذ الهوىٰ سببٌ للكفر والبدعة والردة، وسببٌ لكل خذيلة ورذيلة، وكل بحسبه.

وفي حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال رسول الله ﷺ: **«لا يؤمن أحدكم حتىٰ يكون هواه تبعًا لما جئتُ به»** أخرجه ابن أبي عاصم، من طريق نُعيم بن حماد وهو ضعيف، ولكنه في الباب.

وقد جاء الإسلام بسد الذرائع؛ لأن الشرك والبدعة والمعصية إنما يُتوصل إليها بذرائع وسبل وطرق، فلهذا سدها الإسلام وأمر باتباع الكتاب والسنة، وما أجمع عليه السلف الصالح رضوان الله عليهم، وقد قال اللهىٰ عَزَّوَجَلَّ لمحمدٍ ﷺ: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [الشورىٰ:١٥]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [ص:٢٦].

﴿أَفَأَنتَ﴾ يا محمد ﴿تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ حافظًا وكفيلًا؟ وقيل: هذه الآية نسختها آية القتال.

﴿٤٤﴾ ﴿أَمْ تَحْسَبُ﴾ أتظن، ﴿أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾ الحق، ﴿أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ يتدبرونه ويتعقلونه، والواقع أنهم ليسوا كذلك، ﴿إِنْ هُمْ﴾ ما هم، ﴿إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ البكماء السائبة، ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ الواقع أنهم أضلُّ منها سبيلًا وطريقًا، فتلك أنعام غير عاقلة وغير مُكلفة، وهؤلاء بشرٌ لهم عقول وأسماع وأبصار وأفئدة، فما أغنت عنهم شيئًا.

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ [الأعراف:١٧٩].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْيِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ❁ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾.

﴿٤٥﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد، ومن معك من المؤمنين، ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ خالقك ورازقك ومدبرك، والحافظ والكالئ لك، ﴿كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾، وهو ما بين طلوع الفجر إلىٰ طلوع الشمس قال بعضهم؛ جعله مدودًا؛ لأنه ظل لا شمس معه، كما قال في أصحاب الجنة: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة:٣٠].

❐ وَاخْتلفُوا فِي هَذَا (الظِّل):

فالأكثرون علىٰ أنه الظل من وَقت طُلُوع الصُّبْح إِلَىٰ وَقت طُلُوع الشَّمْس، وَالْقَوْل الثَّانِي: أَنه من وَقت غرُوب الشَّمْس إِلَىٰ وَقت طُلُوعهَا. والظل هُوَ ظلّ الأَرْض يقبل عِنْد غرُوب الشَّمْس، وَيُدبر عِنْد طُلُوعهَا. أفاده السمعاني، وعليه جميع أهل التفسير في أنه من طلوع الفجر إلىٰ طلوع الشمس.

﴿وَلَوْ شَاءَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿لَجَعَلَهُۥ﴾ أي: الظل، ﴿سَاكِنًا﴾ دائمًا ثابتًا لا يتحرك، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ يطول ويقصر بها فلو لم تكن شمس لما كان ظلا، ولم لم يكن نور لما عُرِفَت الظلمة، والأشياء تُعرف بأضدادها.

﴿٤٦﴾ ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ﴾ أي: الظل، ﴿إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ كلما طلعت الشمس في الأفق، كلما سُحِبَ الظل، وبعد الظهر كلما نزلت الشمس إلىٰ الأفق كلما زاد الظل.

﴿٤٧﴾ ﴿وَهُوَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ تسترون به، ويُريد أن ظلمته تغشىٰ كل شيء، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾ [النبأ:١٠-

١١]، وقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص:٧٢].

﴿وَٱلنَّوْمَ﴾ جعله الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿سُبَاتًا﴾ راحةً للأبدان وقطعًا للأعمال، فإن الإنسان بطبيعته إذا عمل في ليله ونهاره لحقه النصب والتعب، ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ﴾ المُشرق المُبصر، ﴿نُشُورًا﴾ ينتشر الناس فيه لابتغاء أرزقاهم وقضاءِ حوائجهم، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك:١٥].

٤٨ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا﴾ مبشرة ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ المطر، ﴿وَأَنزَلْنَا﴾ على التعظيم، ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ السحاب؛ و"كلُّ ما عَلاك فأظلَّك فهو سماء" كما في فقه اللغة.

﴿مَآءً طَهُورًا﴾ طاهرًا في نفسه مُطهرًا لغيره، وقد سئل النبي ﷺ عن البحر، فقال: «**هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ، الْحِلُّ مَيْتَتُهُ**» أخرجه أحمد، كما في حديث أبي هريرة وجاء عن ابن عباس، وله حكم الرفع، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ [الأنفال:١١]، فالماء أصل في إزالة النجاسات، وفي رفع الأحداث، وفيه من البركات ما الله به عليم، والأصل فيه الطهارة، كما قال السعدي:

وَالْأَصْـــلُ فِـــي مِيَاهِنَـــا الطَّهَـــارَةْ وَالْأَرْضُ وَالثِّيَـــابُ وَالْحِجَـــارَةْ

وأعلىٰ من ذلك قول النبي ﷺ كما في حديث أبي سعيد: «**إِنَّ الْمَاءَ طَهُورٌ لَا يُنَجِّسُهُ شَيْءٌ**» أخرجه أبو داود، وله شواهد، وجاءت زيادة أجمع عليها العلماء مع ضعفها: «**إلا ما غلب علىٰ طعمه أو ريحه أو لونه بنجاسة تقع فيه**».

وأما تحديد الماء الذي لا يحمل الخبث بالقلَّتين، كما جاء في حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا كَانَ الْمَاءُ قُلَّتَيْنِ لَا يَحْمِلُ الْخَبَثَ**» أخرجه أبو داود.

فالحديث لا يثبت والعمل علىٰ ما تقدم من أن النجاسة تلحقه بالتغير بها.

٤٩ وكان من شأن هذا الماء ﴿لِّنُحْىِىَ بِهِۦ بَلْدَةً﴾ أرضًا، ﴿مَّيْتًا﴾ ميتة، أي: لا نبت فيها فتُصبح خضراء بهية مُثمرة، ﴿وَنُسْقِيَهُۥ﴾ أي: الماء، ﴿مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا﴾ دوابًا، ﴿وَأَنَاسِىَّ﴾ بشرًا، ﴿كَثِيرًا﴾ فكل الحيوان الحي يحتاج إلىٰ الماء بين مستقلٍّ ومُستكثر، وقد ذُكِرَ في شأن الجمل أنه ربما يعيش أربعة عشر يومًا لا يحتاج إلىٰ ماء، ويقولون عن الضب أنه يمكث الزمن الطويل لا يحتاج إلىٰ ماء، ويبول في السنة قطرة. والله أعلم.

٥٠ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ﴾ أي: المطر، وقيل: القرآن، ﴿بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ ليتعظوا ويتدبروا، ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ لشركهم وكفرهم وفساد قلوبهم، ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ جحودًا، ومن ذلك ما جاء في الصحيحين عن زيد بن خالد الجهني: **«صَلَّىٰ بِنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ فِي إِثْرِ السَّمَاءِ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَىٰ النَّاسِ فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ»**، وجاء عن ابن عباس بنحوه في معنىٰ قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ **[الواقعة:٨٢]**.

يعني: تجعلون شكركم أن تُضيفوا النعمة إلىٰ غير الله عَزَّوَجَلَّ فيقولون بالأنواء وبالأنواء.

والمعنىٰ الآخر: أن الله عَزَّوَجَلَّ صرف في هذا القرآن من كل آيةٍ وعبرة وعظة.

﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ فأعرضوا وأبوا إلا الولوج فيما هم فيه من الكفر والطغيان، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ **[يونس:١٠١]**.

٥١ ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ يا محمد، ﴿لَبَعَثْنَا﴾ أرسلنا، ﴿فِى كُلِّ قَرْيَةٍ﴾ مدينة وأمة، ﴿نَّذِيرًا﴾ يُخوفهم من بطش الله وغضبه وعقابه، ويدعوهم إلىٰ توحيده، ومع ذلك قد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ **[الإسراء:١٥]**، فأعرض أكثر الناس: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ **[يوسف:١٠٣]**.

٥٢ ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ سواءً في صرفك عن الحق إلىٰ الباطل، أو فيما يطلبونه من الآيات، ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾ بالقرآن والحج البينات التي فيه، ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ شديدًا.

وفي هذا دليل علىٰ أن نشر الحق والتوحيد والسنة، والرد علىٰ أهلِ البدعة من الجهاد الذي يسلكه العلماء في كل زمنٍ وحين، وهو أعظم وأبلغ أنواع الجهاد، بل لا يستقيم جهاد السيف والسنان إلا إذا وافق جهاد الحجة والبرهان والبيان، وعن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: **«مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ»** متفق عليه.

٥٣ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ خلطهما، أفاض أحدهما في الآخر، ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ يُشرب ماؤه ويُتلذذ به، وينتفع به ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ شديد الملوحة، لا تقوم فيه حياة كثيرٍ من

النبات، ولا يصلح لسقي البهائم، فكل ما شرب منه الشارب ازداد عطشًا، وهذا تصريفٌ من الله عَزَّوَجَلَّ، ومع ذلك جعل فيه من الحيوان ما يستفيده الإنسان أكلاً، ونحوه، ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا﴾ بين البحر المالح والعذب ﴿بَرْزَخًا﴾ حاجزا لئلا يختلط العذب بالمالح، ولا المالح بالعذب، ﴿وَحِجْرًا﴾ ستراً ﴿مَّحْجُورًا﴾ ممنوعًا فلا يبغيان، كما قال تعالىٰ: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن:٢٠].

٥٤ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ من نطفة الرجل والمرأة ﴿بَشَرًا﴾ ذكرا أو أنثىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق:٦]، ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات:٢٠]، ﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا﴾ القرابة، ﴿وَصِهْرًا﴾ ما يكون بالمناكحة، وقيل النسب ما يقتضي الحرمة، والصهر ما لا يقتضي الحرمة، وقد تقدم الكلام في المحرمات عند قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ﴾ [النساء:٢٣]. الآية، ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ لا يُعجزه شيء، ولا يُكرثه.

٥٥ ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأصنام والأوثان، ﴿مَا لَا يَنفَعُهُمْ﴾ شيئًا، ﴿وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ شيئًا، ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ﴾ المعرض الجاحد، ﴿عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ مُعينًا للشيطان علىٰ ربه بالمعاصي، وقيل ظهيرا بمعنىٰ ذليلاً.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۛ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾.

٥٦ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا محمد، ﴿إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ للمؤمنين بالجنة ودار النعيم، ﴿وَنَذِيرًا﴾ للكافرين بجهنم والعذاب الأليم.

٥٧ ﴿قُلْ﴾ يا محمد، ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ﴾ ما أطلبكم، ﴿عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ من ثوابٍ، ﴿إِلَّا مَن شَاءَ﴾ منكم ﴿أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ طريقًا يوصله إلىٰ جنةٍ عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين.

٥٨ ﴿وَتَوَكَّلْ﴾ يا محمد، ومن معك من المؤمنين، ﴿عَلَى ٱلْحَيِّ﴾ وهو الله، ومن شأنه، ﴿ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾؛ لكمال حياته وقيوميته.

❁ **وتُسمىٰ هذه الصفات عند أهل العلم بالصفات السلبية**، والشرط فيها أن تتضمن كمال الضد، فالذي لا يموت هو كامل الحياة والقيومية.

﴿وَسَبِّحْ﴾ نزِّه، ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ بشكره والثناء عليه، نزهه عن النقائص، ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ﴾ بالله عَزَّوَجَلَّ، ﴿بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ عليمًا ومطلعًا لا تخفىٰ عليه خافية، فيُجازي المُحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، ومع ذلك لكمالِ عدله جعل ملائكةً يكتبون أعمالهم، ويوم القيامة تشهد عليهم جوارحهم.

٥٩ وهو ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ السبع الطباق، ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ الواسعة، ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من المخلوقات، ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ وهو قادرٌ علىٰ أن يخلقها بقوله: كن فيكون، لكن له الحكمة البالغة، والحجة الدامغة، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ علا، وارتفع، وظهر، وقيل: استقر.

❁ **وهذا مذهب أهل السنة والجماعة**: أن الله عَزَّوَجَلَّ علا علىٰ عرشه بائن من خلقه، ومن زعم أن الله عَزَّوَجَلَّ بذاته في كل مكان فهو إما من الحلولية أو الاتحادية، وقد ذكر شيخ الإسلام أنهم أكفر من اليهود والنصارىٰ.

وفي حديث معاوية بن الحكم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أن النبي ﷺ سأل الجارية: **«أَيْنَ اللهُ؟»** قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: **«مَنْ أَنَا؟»** قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: **«أَعْتِقْهَا، فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»** اخرجه مسلم، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلىٰ:١]، فليُتفطن لهذه العقيدة التي سرت في الناس؛ بسبب جهلهم وبُعدهم عن علم السلف.

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أي: هو الرحمن ذو الرحمة الواسعة، ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ مطلعًا، وهو الله عَزَّوَجَلَّ في هذا الموطن، و يدخل فيه النبي ﷺ حين البلاغ، وقيل: بأن الخطاب موجع لمحمد ﷺ ومعناه فسل جبريل عليه السلام.

٦٠ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ أي: للكفار، ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ الذي خلقكم ورزقكم وأوجدكم من العدم، ﴿قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أنكروا أن يعرفوا الرحمن، فقالوا: لا نعرف الرحمن إلا رحمان اليمامة، وهو مُسيلمة الكذاب، وهذا إما أن يكون علىٰ بابِ الجحود، وإما أن يكون علىٰ بابِ الجهل باسم الرحمن، كما قال سهيل بن عمرو قبل إسلامه: ما ندري ما الرحمن، ولكن قد وُجِدَ في أشعارهم أنهم في الجملة يُثبتون اسم الرحمن، كما قال بعضهم:

ألا ضـربت تلـك الفتـاة هجينهـا أَلَا قَضَـبَ الـرَّحْمَنُ رَبِّـي يَمِينَهَـا

﴿أَنَسْجُدُ﴾ نصلي ﴿لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ﴾ وهو الإله الواحد، وهذا من كبرهم، كقوله: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]، ﴿نُفُورًا﴾ إعراضًا وبعدًا عن الدين.

٦١ ﴿تَبَارَكَ﴾ تعالىٰ وتعاظم، ﴿الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ نجومًا، وقيل: قصوراً فيها الحرس، **والأول أظهر**.

قال عطاء عن ابن عباس: هي البروج الاثنا عشر التي هي منازل الكواكب السبعة السيارة، وهي الحَمَل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا﴾ وهو الشمس، ﴿وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ مضيئًا.

٦٢ ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ تتعاقب، ﴿خِلْفَةً﴾ يخلف أحدهما الآخر، ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ﴾ أن يعتبر ويتعظ، ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ لله عَزَّوَجَلَّ علىٰ نعمه فيتعظ بذهاب الليالي والأيام والشهور والأعوام، فيتوب التائب ويُعرض المُعرِض، فكم من إنسان حين يرىٰ أن عمره قد قارب علىٰ الانقضاء ويرىٰ السنة قد ولت بعد السنة تكون منه التوبة والإنابة والرجوع.

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾.

﴿٦٣﴾ ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ هذه عبودية خاصة، وليست بالعبودية العامة التي يشترك فيها البر والفاجر والمؤمن والكافر، ولهذا أضافهم إلىٰ نفسه إضافة تخصيص وتفضيل، ﴿ٱلَّذِينَ﴾ من شأنهم أنهم، ﴿يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ بالسكينة والوقار متواضعين غير أشرين ولا مرحين، وهذه الصفة تحتاج إلىٰ تواضع القلب وسكينة النفس، فإن الفاجر والكافر ربما تبختر في مشيته، وقد قال النبي ﷺ: **«من تعظم في نفسه واختال في مشيته لقي الله وهو عليه غضبان»** أخرجه أحمد (٥٩٩٥).

ودخل النبي ﷺ مكة وعلىٰ رأسه المِغْفَر وقد طأطأ رأسه إلىٰ الأرض، ومن شأنهم أيضًا، ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ﴾ السفهاء بالسب والشتم ونحوه، ﴿قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ سدادًا من القول وخاطبوهم خطابا يسلمون فيه من الإثم ويسلمون من مقابلة الجاهل بجهله **قاله السعدي**، كما قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ **[الأعراف:١٩٩]**.

۞ فمجاراة السفهاء قد يؤدي بالإنسان إلىٰ السفه، ولكن العفو والصفح مطلوبٌ من المستقيم، وما رفع إلي النبي ﷺ إلا أمر فيه بالعفو، وكان ﷺ يتجاوز عمَّن أساء إليه بقول أو فعل، وإنما كان ﷺ يغضب إذا انتهكت حرمات الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿٦٤﴾ ﴿وَ﴾ من شأنهم أنهم، ﴿ٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ﴾ أي: في الليل، ﴿سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا﴾ يُصلون، وذكر السجود والقيام لأنهما أشهر مواطن الصلاة، وفي حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: **«أَفْضَلُ الصَّلَاةِ طُولُ الْقُنُوتِ»** أخرجه الترمذي.

﴿٦٥﴾ ﴿وَ﴾ من شأنهم أنهم، ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ﴾ أبعد ﴿عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ مُلازمًا دائمًا لا ينفك عن أهله الكفار، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ﴾ **[الحجر:٤٨]**.

﴿٦٦﴾ ﴿إِنَّهَا﴾ أي: النار، ﴿سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ بئس الموضع هي والمقام هو.

﴿٦٧﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ﴾ الأموال، سواءً الواجبة أو المستحبة، ﴿لَمۡ يُسۡرِفُواْ﴾ يتجاوزوا الحد في الإنفاق، وهو التبذير، ﴿وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ﴾ وهو البخل والإمساك، ﴿وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾ قصدًا وسطًا بين الإسراف والإقتار، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا﴾ **[الإسراء:٢٧]**.

(٦٨) ﴿وَ﴾ من شأنهم أنهم: ﴿الَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ بل يوحدونه ويُفردونه بما هو له.

وفي حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مسلم قال رسول الله ﷺ: **«أَنَّ نَاسًا مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ قَتَلُوا فَأَكْثَرُوا، وَزَنَوْا فَأَكْثَرُوا، ثُمَّ أَتَوْا مُحَمَّدًا ﷺ، فَقَالُوا: إِنَّ الَّذِي تَقُولُ وَتَدْعُو لَحَسَنٌ، وَلَوْ تُخْبِرُنَا أَنَّ لِمَا عَمِلْنَا كَفَّارَةً، فَنَزَلَ:** ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾**»**، وأخرجه البخاري أيضًا.

﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾:

وفي حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ؟ قَالَ: **«أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»** قَالَ: قُلْتُ لَهُ: إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ، قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: **«ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ»** قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: **«ثُمَّ أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ»**.

وقد جاءت الأدلة المتواترة في تحريم قتل النفس، كما بينتُ ذلك بتوسعٍ في كتاب: "أحكام قتل النفس المعصومة".

وفي حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: **«لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، إِلَّا بِإِحْدَىٰ ثَلَاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ»** متفق عليه.

والحديث لا يدل علىٰ الحصر بهذا العدد، فقد جاءت النصوص بجواز قتل غيرهم، وقد ذكرت في كتابي المذكور ما يبيح دم المسلم.

❐ **وأسوقها هنا باختصار ومن أراد الرجوع إلىٰ أدلتها فاليرجع إلىٰ الكتاب المذكور، وهي:**

١- الردة: سواء كان المرتد رجلًا أو امرأة.

٢- الزاني المحصن يرجم حتىٰ يموت.

٣- من قتل متعمدًا علىٰ.

٤- الصائل إذا لم يُدفع إلا بالقتل.

٥- المحارب.

٦- قتل من أبىٰ قبول الفرائض.

٧- ساب النبي صَلَّىٰ اللهُ ﷺ وإن تاب.

٨- قتل جاسوس الكافرين علىٰ المسلمين.
٩- من أراد تفريق جماعة المسلمين.
١٠- إذا بويع لخليفتين يقتل الآخر وإن كان قرشيًّا.
١١- الساحر.
١٢- فاعل فعلة قوم لوط.
١٣- قتال أهل البغي، إن أدىٰ إلىٰ قتلهم.
١٤- قتل شارب الخمر المستحل لها.
١٥- من وقع علىٰ ذات محرم.اهـ

﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ أي: لا يُعاقرون هذه الفاحشة السيئة السيء أهلها، وهي من أسباب عذاب القبر وعذاب النار، ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي: شيئًا مما تقدم من الذنوب، والمعاصي الكبار العظائم، ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ إثمًا وعقوبة زمن عقوبته أنه:

﴿٦٩﴾ ﴿يُضَاعَفْ﴾ يكرر ﴿لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ لفعله لهذه الكبائر، ولربما لدعوته إليها بلسان الحال أو المقال، كما قال تعالىٰ ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء:٥٦]، ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِۦ﴾ أي: في هذا العذاب، ﴿مُهَانًا﴾ يُهينه الله، فلا تُقبل له دعوة ولا يُرفع له شأن.

❁ وهذه الآية دالة علىٰ أن غير المُشرك لا يُخلَّد في النار وإن فعل ما فعل، ودالة علىٰ عظيم هذه الذنوب والمعاصي.

﴿٧٠﴾ ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ أي: قبل موته، ﴿وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا﴾ أي: لازم العمل الصالح، ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ﴾ يغير ﴿ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ جزاء أعمالهم السيئة ﴿حَسَنَـٰتٍ﴾ ثواب وأجر فعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: **«أما من أحسن في الإسلام فلا يؤاخذ، وأما من أساء فإنه يؤاخذ بعمله في الجاهلية والإسلام»**.

❐ وَقَدِ اخْتَلَفُوا فِي هَذَا الْمَعْنَى:

- فقال بعضهم: ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ﴾ بمعنىٰ: أنه يترك العمل السيء إلىٰ العمل الصالح.

- وقال بعضهم -**وهو الصحيح**-: أن الأوزار التي كانت عليهم تتحول إلىٰ حسناتٍ وأجور بسبب التوبة.

وهذا هو المعنىٰ الأليق والأصوب في هذا الموطن، ويدل علىٰ ذلك حديث أبي ذر عند مسلم قال النبي ﷺ: **«إِنِّي لَأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا الْجَنَّةَ، وَآخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا، رَجُلٌ يُؤْتَىٰ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُقَالُ: اعْرِضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِهِ، وَارْفَعُوا عَنْهُ كِبَارَهَا، فَتُعْرَضُ عَلَيْهِ صِغَارُ ذُنُوبِهِ، فَيُقَالُ: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا، وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: نَعَمْ، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنْ كِبَارِ ذُنُوبِهِ أَنْ تُعْرَضَ عَلَيْهِ، فَيُقَالُ لَهُ: فَإِنَّ لَكَ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً، فَيَقُولُ: رَبِّ، قَدْ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لَا أَرَاهَا هَا هُنَا»**، فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ ضَحِكَ حَتَّىٰ بَدَتْ نَوَاجِذُهُ.

﴿وَكَانَ﴾ تُفيد اللزوم والاستمرار، ﴿اللهُ غَفُورًا﴾ متجاوزًا، ﴿رَّحِيمًا﴾ بعباده موفقًا، ومسددًا لهم إلىٰ فعل الخير.

(٧١) ﴿وَمَن تَابَ﴾ رجع إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَعَمِلَ﴾ مع ذلك: ﴿صَالِحًا﴾ من الأعمال، ﴿فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ﴾ يرجع ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ رجوعًا يُثنىٰ به عليه.

(٧٢) ﴿وَ﴾ من شأنهم أنهم: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ﴾ لا يحضرون ﴿ٱلزُّورَ﴾ الشرك فما دونه من المعاصي، وفي حديث معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ذَاتَ يَوْمٍ: إِنَّكُمْ قَدْ أَحْدَثْتُمْ زِيَّ سَوْءٍ: **«وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ نَهَىٰ عَنِ الزُّورِ»** قَالَ: وَجَاءَ رَجُلٌ بِعَصًا عَلَىٰ رَأْسِهَا خِرْقَةٌ قَالَ مُعَاوِيَةُ: أَلَا وَهَذَا الزُّورُ» **أخرجه مسلم.**

ويدخل فيه شهادة الزور فعن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **«الكَبَائِرُ: الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَاليَمِينُ الغَمُوسُ»**، متفق عليه.

﴿وَ﴾ من شأنهم أنهم: ﴿إِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾ بالباطل، وقيل: الغناء ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾، يعني: مروا مرور الكرام لا يلتفتون إليه، ولم يُبالوا به، وقيل: بأنهم إذا سمعوا من الكفار السبَّ والشتم لم يلتفتوا إلىٰ ذلك.

(٧٣) ﴿وَ﴾ من شأنهم أنهم: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِـَٔايَاتِ رَبِّهِمْ﴾ الشرعية، ﴿لَمْ يَخِرُّوا﴾ لم يقعوا، ولم يسقطوا ﴿عَلَيْهَا صُمًّا﴾ لا يسمعونها، ﴿وَعُمْيَانًا﴾ لا يبصرونها بل يستفيدون من مواعظها، وينتهون عن نواهيها وزواجرها، وحالهم كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ بينما الكفار كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ **[البقرة:١٧١]**.

(٧٤) ﴿وَ﴾ من شأنهم أنهم: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ﴾ أعط ﴿لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ أبناء صالحين يعبدونك ويوحدونك، وسموا بـ(قرة الأعين) لقرار الأعين بالنظر إليهم وراحة القلب بوجودهم، فهم زينة الحياة الدنيا، ﴿وَاجْعَلْنَا﴾ صيرنا، ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ المؤمنين الموحدين، ﴿إِمَامًا﴾ قائدًا إلىٰ الخير، ودليلًا إلىٰ الرشد.

(٧٥) ﴿أُولَئِكَ﴾ وكل من تقدم ذكرهم ﴿يُجْزَوْنَ﴾ يثابون علىٰ أعمالهم الصالحة ﴿الْغُرْفَةَ﴾ الفردوس الأعلىٰ من الجنة، ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ علىٰ طاعةِ الله عَزَّوَجَلَّ وعن نواهيه وعلىٰ ما أنزل من المصائب، ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا﴾ أي: في الجنة، ﴿تَحِيَّةً﴾ من ربهم ومن ملائكة الله عَزَّوَجَلَّ، ومن أنفسهم، ﴿وَسَلَامًا﴾ من الآفات والمنقصات كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَّاهُمْ﴾ أعطاهم ومنحهم، ﴿نَضْرَةً﴾ بهجة ونضارة في وجوههم، ﴿وَسُرُورًا﴾ فيلقون الحُبُور والخير العظيم، ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:٥٨].

(٧٦) ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، أبدًا، وحالهم فيها أنها كما قال الله عَزَّوَجَلَّ ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة:٣٣]، ﴿حَسُنَتْ﴾ يعني: تزينت وحصل فيها الخير، ﴿مُسْتَقَرًّا﴾ يستقرون فيه لا يتحولون، ﴿وَمُقَامًا﴾ يقيمون فيه لا ينتقلون.

(٧٧) ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿مَا يَعْبَؤُا﴾ لا يبالي ولا يكترث ﴿بِكُمْ رَبِّي﴾ إذ لم تعبدوه، فهو الغني الحميد، وقد خلق الملائكة، وسخرهم لعبادته ولو شاء منكم ذلك لكان ليبلوكم ويختبركم و﴿لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ صلاتكم، وقيل: إيمانكم، لأهلككم كما أهلك من قبلكم من الأمم الخالية التي قص الله لكم ذكرها ومع ذلك، ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ أشركتم وجحدتم، خطاباً لأهل مكة ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ﴾ العذابُ، ﴿لِزَامًا﴾ مُلازمًا لكم، وهذا تهديد، ووعيد لمن أبىٰ إلا الشرك والعناد.

وقد جاء عن عبد الله بن مسعود قال رسول الله ﷺ: **«خَمْسٌ قَدْ مَضَيْنَ: الدُّخانُ، والقمرُ، والرُّومُ، والبَطْشَةُ، واللِّزامُ»** متفق عليه، وقيل: اللزام هو عذاب الآخرة، ولا يمنع أنه يدل علىٰ المعنيين، والله المستعان.

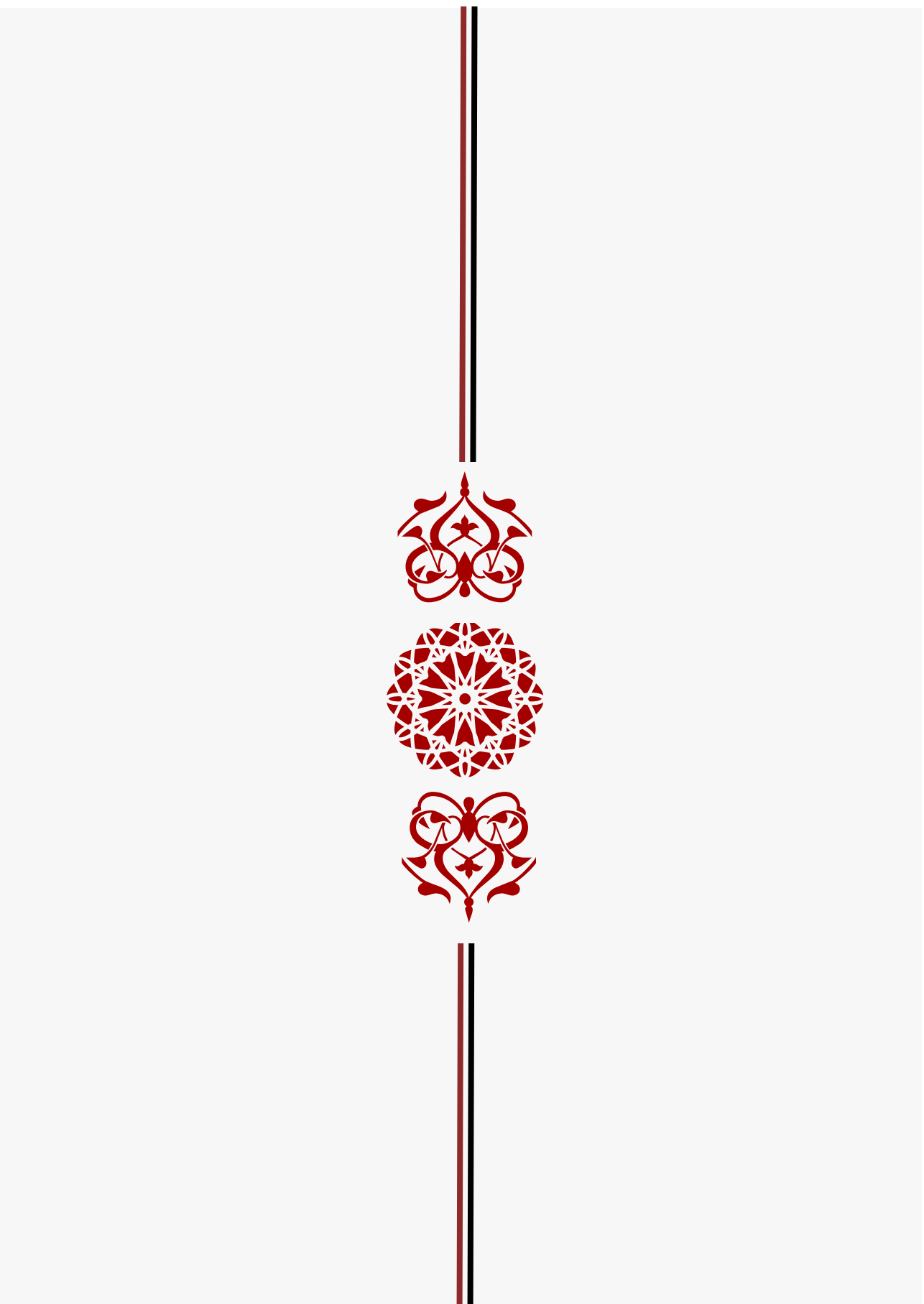
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

تم تفسير سورة الفرقان



تَفْسِيرُ سُورَةِ الشُّعَرَاءِ





سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

مَكِّيَّةٌ، قِيلَ إِلَّا أَرْبَعَ آيَاتٍ مِن آخِرِ السُّورَةِ، وَهِيَ قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ [الشعراء:٢٢٤]، وآياتها مِئَتَان وَسَبْعَة وَعِشْرُون.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩﴾.

(١) ﴿طسٓمٓ﴾ تقدم الكلام علىٰ هذه الحروف المقطعة التي افتتح الله بها السور في أول سورة البقرة، والحمد لله.

(٢) ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلىٰ البعيد ويُراد به القريب، أي: هذه ﴿آيَاتُ﴾ حجج وبينات ﴿الْكِتَابِ﴾ القرآن: ﴿الْمُبِينِ﴾ الواضح البين الذي لا إشكال فيه.

(٣) ﴿لَعَلَّكَ﴾ يا محمد: ﴿بَاخِعٌ نَفْسَكَ﴾ قاتلها ومهلكها من شدة الحزن والأسىٰ والحَسْرة،" وَالْبَخْعُ فِي الْأَصْلِ: أَنْ يُبْلَغَ بِالذَّبْحِ النُّخَاعُ، وَهُوَ عِرْقٌ فِي الْقَفَا"، **أفاده الشوكاني** ﴿أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ إن لم يؤمنوا بهذا الكتاب، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ **[الحجر:٩٧]**، وكما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾**[الكهف:٦]**، وكما قال عَزَّوَجَلَّ ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ **[فاطر:٨]**، وكما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ **[النحل:٣٧]**.

(٤) ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً﴾ علامة واضحة بيِّنة علىٰ صدقك وصدق دعوتك، ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ﴾ يعني: صارت أعناقهم، ﴿لَهَا خَاضِعِينَ﴾ من الخضوع والتذلل؛

ولكن هذا لم يقع؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ أمهل قريشًا بسبب استثناء النبي ﷺ بهم، يرجو إيمانهم وإسلامهم.

٥ ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ﴾ وعظ وتذكير، ﴿مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾ جديد إنزاله إذا أن نزوله كان حسب الوقائع والأحداث.

❁ ولا يعني ذلك أنه مخلوق حيث استدل بهذه الآية المعتزلة علىٰ أن القرآن مخلوق، ولا دلالة لهم في ذلك، بل القرآن كلامُ الله وصفته، تكلم به حقيقةً وسمعه منه جبريل حقيقةً.

قال شيخ الإسلام في الفتاوىٰ الكبرىٰ (٥/ ٤٢):

"وإن احتج بقوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ **[الأنبياء:٢]** قيل له: هذه الآية حجة عليك، فإنه لما قال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ علم أن الذكر منه محدث، ومنه ما ليس بمحدث؛ لأن النكرة إذا وصفت ميزتها بين الموصوف وغيره. كما لو قال: ما يأتيني من رجل مسلم إلا أكرمته، وما آكل إلا طعاما حلالا ونحو ذلك، ويعلم أن المحدث في الآية ليس هو المخلوق الذي يقوله الجهمي؛ ولكنه الذي أنزل جديدا، فإن الله كان ينزل القرآن شيئا بعد شيء، فالمنزل أولا هو قديم بالنسبة إلىٰ المنزل آخرا، وكل ما تقدم علىٰ غيره فهو قديم في لغة العرب.

كما قال: ﴿كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ **[يس: ٣٩]** وقال: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾ **[يوسف:٩٥]**، وقال: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ **[الأحقاف:١١]**، وقال: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ **[الشعراء:٧٥]**، ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ﴾ **[الشعراء:٧٦]**.

وكذلك قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ **[الزخرف:٣]** لم يقل (جعلناه) فقط حتىٰ يظن أنه بمعنىٰ خلقناه ولكن قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾، أي صيرناه عربيا؛ لأنه قد كان قادرا علىٰ أن ينزله عجميا وينزله عربيا، فلما أنزله عربيا، كان قد جعله عربيا دون عجمي

وهذه المسألة من أصول أهل الإيمان والسنة التي فارقوا بها الجهمية من المعتزلة والفلاسفة ونحوهم، والكلام عليها مبسوط في غير هذا الموضع، والله أعلم".اهـ.

﴿إِلَّا كَانُواْ عَنْهُ﴾ عن الإيمان بالقرآن، ﴿مُعْرِضِينَ﴾ في إعراضٍ وبُعدٍ.

٦ ﴿فَقَدْ كَذَّبُواْ﴾ بالقرآن، وبما أُرسلت به، ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ﴾ أخبار، وحقيقة، وعواقب، ﴿مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ يسخرون.

(٧) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ ينظروا نظر تأمل وتفكر، ﴿إِلَى الْأَرْضِ﴾ المبسوطة الواسعة، ﴿كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ﴾ صنفٍ وضَرْبٍ من النبات ، ﴿كَرِيمٍ﴾ حسن مما يأكل الناس والأنعام، مع اختلاف طعمه ولونه، وفي ذلك دلالة علىٰ قدرة الملك الغلاب سبحانه وتعالىٰ.

(٨) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: المذكور آنفًا من إنزال الكتاب أو إنبات الأرض وما فيها من الخيرات، ﴿لَآيَةً﴾ علامة علىٰ استحقاق الله عَزَّوَجَلَّ للعبادة، فمن لوازم توحيد الربوبية إفراد الله بالألوهية، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ مُقرِّين مُنقادين، كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣].

(٩) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد: ﴿لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُغلب، ﴿الرَّحِيمُ﴾ بعباده المؤمنين، كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣].

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾.

(١٠) ﴿وَ﴾ اذكر، ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ﴾ بصوتٍ يُسمع، ﴿مُوسَىٰٓ﴾ ابن عمران عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأمره بقوله: ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين، وادعهم إلىٰ عبادةِ الله عَزَّوَجَلَّ، وإفراده بما يجبُ له.

(١١) ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ ألا يصرفون عن أنفسهم عقوبة الله بطاعته.

(١٢) ﴿قَالَ﴾ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾؛ لما علم من قرينة حالهم، وسوء فعالهم.

(١٣) ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى﴾ في حال تكذيبهم إياي، ﴿وَلَا يَنطَلِقُ﴾ يفصح ويبين ﴿لِسَانِى﴾؛ لما فيه من العُقْدة التي كانت فيما ذُكِرَ بسبب أخذه الجمرة، ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾؛ ليؤازرني

ويُناصرني، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ مُخبرًا عنه: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ٣٣ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ٣٤﴾ [طه:٢٩-٣٤].

١٤ ﴿وَلَهُمۡ﴾ أي: لقوم فرعون: ﴿عَلَيَّ ذَنۢبٞ﴾ خطأٌ وقعتُ فيه، وهو قتل القِبْطي: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾ أي: يقتلونني به.

١٥ ﴿قَالَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَلَّاۖ﴾ لن يصلوا إليك أنت ومن معك، ﴿فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ﴾ الدالة علىٰ صدقكما، مثل: العصا، ﴿إِنَّا مَعَكُم﴾ معية علم، وإحاطة، ونصر، وتأييد؛ ﴿مُّسۡتَمِعُونَ﴾ لكلامكم، وما يكون بينكم وبينه من الخطاب كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦].

١٦ ﴿فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ﴾ ملك مصر الظالم الذي ادعىٰ الربوبية، وقال: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤﴾ [النازعات:٢٤]، ﴿فَقُولَآ﴾: ﴿لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ٤٤﴾ [طه:٤٤]، وقولا له: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أرسلنا الله عَزَّوَجَلَّ إليك لتعبده، ولا تشرك به شيئًا.

١٧ و﴿أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ إلىٰ فلسطين ولا تستعبدهم، وكان فرعون قد استعبدهم دهرًا طويلًا.

١٨ فـ﴿قَالَ﴾ فرعون ممتنًا علىٰ موسىٰ: ﴿أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا﴾ في منازلنا، ﴿وَلِيدٗا﴾ صبيًا صغيرًا، ﴿وَلَبِثۡتَ﴾ مكثت ﴿فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ في حال شبابك، قيل ثلاثون سنة.

١٩ ﴿وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ﴾ وهي قتل القبطي، ﴿ٱلَّتِي فَعَلۡتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، الجاحدين لنعمتي عليك بحسن التربية، وعدم الاسترقاق.

٢٠ ﴿قَالَ﴾ موسىٰ، ﴿فَعَلۡتُهَآ إِذٗا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ المُخطئين؛ لأنه لم يُرد قتله، وإنما أراد ضربه واستغفر ربه وأناب، في حينه كما سيأتي بيانه في سورة القصص.

٢١ ﴿فَفَرَرۡتُ﴾ هربت، ﴿مِنكُمۡ﴾ إلىٰ مدين، ﴿لَمَّا خِفۡتُكُمۡ﴾ خفتُ من بطشكم وقتلكم لي، ﴿فَوَهَبَ﴾ أعطىٰ ﴿لِي رَبِّي حُكۡمٗا﴾ النبوة، ﴿وَجَعَلَنِي﴾ صيرني، ﴿مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ المُبلغين لدين رب العالمين.

٢٢ ﴿وَتِلۡكَ نِعۡمَةٞ﴾ أي: إحسانك بتربيتي ﴿تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾ بحق لكن لا يمنعني ذلك من دعوتك إلىٰ الإسلام، وقد بلغ من سوء فعلك مع كفرك ﴿أَنۡ عَبَّدتَّ﴾ استخدمت وقهرت

﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ اعترف أن لفرعون عليه مِنّة بتربيته والقيام بشأنه؛ لكن قد قام فرعون بما هو أشد من ذلك، حيث استعبد بني إسرائيل واستخدمهم وقتل أبناءهم، واستحيىٰ نساءهم للخدمةِ ونحو ذلك، وقيل: المعنىٰ: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا﴾ كانت منة منك: ﴿عَلَيَّ﴾ حيث سلمتني من العبودية: ﴿أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ حيثُ استعبدتهم، وتركتني بغير ذلك.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿٢٣﴾ ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ مكابرة: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾؟ فلم يقل: ومن رب العالمين؛ لأنه يعرفه، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا﴾ [النمل:١٤].

﴿٢٤﴾ ﴿قَالَ﴾ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ إن كانت لكم قلوب موقنة، وأبصار نافذة، بأن الله عَزَّوَجَلَّ خالقهما، ومالكهما، ورازق من فيها.

﴿٢٥﴾ ﴿قَالَ﴾ فرعون، ﴿لِمَنْ حَوْلَهُ﴾ من المستكبرين الكافرين: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ إلىٰ قول موسىٰ؟!.

﴿٢٦﴾ ﴿قَالَ﴾ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُكررًا لهم بالتعريف برب العالمين: ﴿رَبُّكُمْ﴾ خالقكم، ومالككم، ورازقكم، ﴿وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ الذين سلفوا من قبلكم.

﴿٢٧﴾ ﴿قَالَ﴾ فرعون، ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ وهذا كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات:٥٢-٥٣].

﴿٢٨﴾ ﴿قَالَ﴾ موسىٰ ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ مشرق الشمس والقمر ومغربهما، ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من المخلوقات، ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ آيات الله عَزَّوَجَلَّ.

٢٩ ﴿قَالَ﴾ فرعون بعد أن أعيته الحجة مهددًا بالقوة، وهذه من مسائل الجاهلية؛ فكلُّ مُبطل إذا أعيته الحجة انقلب إلىٰ استخدام القوة.

وقد ذكر الشيخ محمد بن عبد الوهاب في مسائل الجاهلية "كونهم إذا غلبوا بالحجة فزعوا إلىٰ الشكوىٰ للملوك، كما قال: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف:١٢٧].

﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ﴾ لك ﴿إِلَٰهًا﴾ معبودًا، ﴿غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ من المحبوسين؛ وهدده بالسجن لأنه أشد من القتل، لاسيما السجن مع التعذيب وطول المُكث.

٣٠ ﴿قَالَ﴾ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ﴾ علىٰ دعواي أني رسولٌ من رب العالمين، ﴿بِشَىْءٍ﴾ آية واضحة، ﴿مُّبِينٍ﴾ ظاهر لا يَمْتَري في صِدقي، وحقيقة أمري بعد رؤيته ومشاهدته.

٣١ ﴿قَالَ﴾ فرعون: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ﴾ بما وعدت، ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في دعواك.

٣٢ ﴿فَأَلْقَىٰ﴾ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿عَصَاهُ﴾ التي كانت بيده، ﴿فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ حَيَّة تسعىٰ.

٣٣ ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ بعد أن وضعها في جنبه، ﴿فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ بغير مرضٍ أو شيء مما ينتاب الجسم.

٣٤ ﴿قَالَ﴾ فرعون، ﴿لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ﴾ الذين حوله من أتباعه: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، والذي رأيتموه من فعله، ﴿لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ عليم بالسحر، وفي سورة يونس: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس:٧٦]، فلا تعارض أنه اتهم موسىٰ، وما جاء به، بالسحر.

٣٥ ﴿يُرِيدُ﴾ بدعوتكم إلىٰ ما دعاكم إليه، ﴿أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾ مصر، ﴿بِسِحْرِهِۦ﴾ بتمويهه، ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ أن أفعل معه؟ وهذه من المُغالطات، إذ يفعلها الجبابرة من الملوك من باب المُغالطة للأتباع يستشيرهم في الظاهر، وقد عزم علىٰ الشر في الباطن، وغالبًا ما تجد أتباع الملوك يُشيرون بما في نفس ملكهم.

٣٦ ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ﴾ أخِّرْهُ، ﴿وَأَخَاهُ﴾ هارون، ﴿وَابْعَثْ﴾ أرسل، ﴿فِى ٱلْمَدَآئِنِ﴾ في المدن، ﴿حَٰشِرِينَ﴾ يعني: أُناس يحشرون السحرة.

٣٧ فـ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ قد بلغ مبلغًا عظيمًا في السحر لمواجهة سحر موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ زعموا.

٣٨ ﴿فَجُمِعَ﴾ فرعون، ﴿ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ﴾ لوقت، ﴿يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ وهو يوم الزينة، كما قال: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ۝٥٩﴾ [طه:٥٩].

٣٩ ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ لتنظروا إلىٰ الغالب من المغلوب؟.

٤٠ ﴿لَعَلَّنَا﴾ أي: لكي، ﴿نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ المنتصرين علىٰ موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وقيل هذا علىٰ سبيل الاستهزاء.

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝٤١ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٤٢ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ۝٤٣ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝٤٤ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۝٤٥ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝٤٦ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝٤٨ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٩ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝٥٠ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥١﴾.

٤١ ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ مع كثرتهم، ﴿قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ﴾ مُشترطين عليه: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ ثوابًا، ﴿إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ لموسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؟.

٤٢ ﴿قَالَ﴾ فرعون: ﴿نَعَمْ﴾ لكم أجرٌ وثواب، ﴿وَإِنَّكُمْ إِذًا﴾ مع ذلك ﴿لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ عندي، وستكونون في مرتبة الوزراء والمستشارين.

٤٣ ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟﴾ اطرحوا، ﴿مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ من العصي والحبال التي جئتم بها.

٤٤ ﴿فَأَلْقَوْا۟﴾ طرح السحرة، ﴿حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ فهزموا لاستعانتهم بغير الله، وهزموا لإرادتهم نصرة المُشرك المندد، وهزموا لأنهم استخدموا السحر: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه:٦٩].

٤٥ ﴿فَأَلْقَىٰ﴾ طرح ﴿مُوسَىٰ عَصَاهُ﴾ فكانت ثعبانًا كبيراً ﴿فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ﴾ تأخذ: ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ ما يُلقون من الكذب والبهتان والتمويه.

٤٦ ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ لرب العالمين، حين رأوا حقيقة الآيات التي جاء بها موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

٤٧ ﴿قَالُوٓا۟﴾ السحرة ﴿ءَامَنَّا﴾ أقررنا، وصدقنا ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كل ما سوىٰ الله عَزَّوَجَلَّ الذي هو.

٤٨ ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

٤٩ ﴿قَالَ﴾ فرعون: ﴿آمَنتُمْ لَهُ﴾ بدعوته ﴿قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾؟ ولن يأذن لهم، ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ﴾ أي: ساحركم الكبير، ﴿الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ وهذا من كذبه، فقد علم أن موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يكن ساحرًا، ثم لم يلتقِ بهم موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ إلا في ذلك اليوم، ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ علىٰ التهديد: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ﴾ يعني: يد اليمين مع رجل اليسار، ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ علىٰ جذوع النخل، ﴿أَجْمَعِينَ﴾ لا أعفو عن واحدٍ منكم؛ لشدة الغيظ الذي لَحِقَهُ، حين رأىٰ أن الله نصر دينه، وأعلىٰ كلمته.

٥٠ ﴿قَالُوا﴾ أي: السحرة رادين عليه، ﴿لَا ضَيْرَ﴾ لا يضرنا ذلك، ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ وسيُجازينا الجزاء الأوفىٰ.

٥١ ﴿إِنَّا نَطْمَعُ﴾ نرجو ونؤمل فلم يُجزموا.

من عقيدة **أهلُ السنة والجماعة، عدم الجزم بالإيمان وبما يكون عند الله، وإنما نرجوا من الله عَزَّوَجَلَّ الخير للطائعين ونخشىٰ علىٰ المسيئين من المسلمين، ولا يُجزم لميتٍ من المؤمنين بجنةٍ إلا لمن جزم له رسول الله ﷺ وشهد له بذلك،** وعمرو بن العاص يقول: "لئن متُّ علىٰ ذلك أرجو أن أكون من أهل الجنة، لم يقل: كنتُ من أهلِ الجنة، بينما لما ذكر شأن الكفر قال: لئن متُّ علىٰ ذلك كنتُ من أهلِ النار". أخرجه مسلم.

﴿أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا﴾ ذنوبنا السابقات السالفات بالإسلام، والإسلام يهدم ما قبله ﴿أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بموسىٰ وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ من قومهما.

﴿۞ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾.

٥٢ ﴿وَ﴾ اذكر يا محمد إذ: ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ ﴾ امضِ بعبادي بالليل؛ لأن السُّرىٰ يكون بالليل، ومنه المثل: عند الصباح يحمد القوم السُّرىٰ، ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ من فرعون ومن معه.

٥٣ ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ﴾ المدن المتباعدة، ﴿حَٰشِرِينَ﴾ من يحشر له الجنود لقتل بني إسرائيل، قائلين لمن حشروه، تحريضًا علىٰ قتالهم.

٥٤ ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ موسىٰ وقومه، ﴿لَشِرْذِمَةٌ﴾ لجمع حقيرٌ قليلٌ، وهذا من احتقاره لهم ﴿قَلِيلُونَ﴾ لا يؤبه بهم.

٥٥ ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾ أغضبونا بسبب إيمانهم بموسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

٥٦ ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ قد أخذنا الحذر منهم، ومعنىٰ حذرون: خائفون من شرهم، والحاذر المستعد المتيقظ.

٥٧ ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم﴾ قوم فرعون، ﴿مِّن جَنَّٰتٍ﴾ بساتين، ﴿وَعُيُونٍ﴾ أنهار.

٥٨ ﴿وَكُنُوزٍ﴾ أموال مكنوزة من الذهب والفضة، ﴿وَمَقَامٍ﴾ مجلس ﴿كَرِيمٍ﴾ حسن، أخرجهم الله إلىٰ الغرق والدمار.

٥٩ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما أخرجناهم، ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا﴾ الأرض ﴿بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف:١٣٧].

٦٠ ﴿فَأَتْبَعُوهُم﴾ أي: قوم فرعون تبعوا قومَ موسىٰ: ﴿مُّشْرِقِينَ﴾ عند شروق الشمس.

٦١ ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾ رأىٰ أصحاب موسىٰ أصحاب فرعون، ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ لمُحاط بنا.

٦٢ ﴿قَالَ﴾ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿كَلَّآ﴾ حَقًّا،﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ ويُرشدني إلىٰ سبب السلامة.

❁ وفي هذا ردٌّ علىٰ المبتدعة من المعتزلة ومَن إليهم حيث يستدلون بقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام:١٠٣]، علىٰ نفي الرؤية كما تقدم في سورة الأنعام.

فكان جواب أهل السنة: أن الإدراك رؤية وزيادة، أي: رؤية مع الإحاطة، فنفىٰ الله الإحاطة مع إثبات الرؤية؟.

والدليل علىٰ ذلك: أن أصحاب موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لما رأوا أصحاب فرعون، قالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ أي محاط بنا، فقال موسىٰ: ﴿كَلَّا﴾ حقا لن يحيطوا بكم، ولو كان معنىٰ: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ إنهم رأونا لكان قد كذب موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وحاشاه، لكن المعنىٰ: إنهم أحاطوا بنا، فقال لهم موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿كَلَّا﴾ لن يُحيطوا بكم، فهكذا المؤمنون يرون الله عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة ولا يُحيطون به.

﴿٦٣﴾ ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ﴾ فانشق اثنىٰ عشر فرقًا، قيل بأنه بحر العقبة، والله أعلم؛ لأنه يَبْعُد أن يكون المُراد به النيل؛ لأن موسىٰ أراد أن يخرج إلىٰ الأرض المقدسة، ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ﴾ أي: شق من هذا البحر: ﴿كَٱلطَّوْدِ﴾ الجبل، ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ العالي، حيث مسك هذا الماء إلىٰ جهته وهذا إلىٰ جهته، ونشفت الأرض حتىٰ مشوا عليها بسهولة.

﴿٦٤﴾ ﴿وَأَزْلَفْنَا﴾ قربنا، ﴿ثَمَّ﴾ هنالك ﴿ٱلْآخَرِينَ﴾ قوم فرعون؛ قربهم الله إلىٰ البحر، حيث لحقوا موسىٰ وقومه.

﴿٦٥﴾ ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ فجاوزوا البحر قبل لحوق فرعون بهم.

﴿٦٦﴾ ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ﴾ فرعون وقومه، وعند ذلك قال فرعون: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ **[يونس:٩٠]**، فقال الله له: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ **[يونس:٩١]**.

﴿٦٧﴾ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الذي تقدم ذكره، ﴿لَءَايَةً﴾ بَيِّنة واضحة علىٰ قدرة الله عَزَّوَجَلَّ، وربوبيته وألوهيته، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ موحدين لما في قلوبهم من الغفلة والران الذي غطاها.

﴿٦٨﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد: ﴿لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُغلب، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بعباده المؤمنين في كل زمنٍ وحين.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿٦٩﴾ ﴿وَاتْلُ﴾ اقرأ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ علىٰ كفار مكة، ﴿نَبَأَ﴾ خبر ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

﴿٧٠﴾ ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ آزر، ﴿وَقَوْمِهِ﴾ الذين بُعِثَ فيهم، وهم أصحاب حرَّان، ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ كالمُنكر عليهم.

﴿٧١﴾ ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا﴾ حجارة صماء بكماء، ﴿فَنَظَلُّ﴾ نبقىٰ، ﴿لَهَا عَاكِفِينَ﴾ وعندها مُقيمين، وعلىٰ عبادتها ماكثين.

﴿٧٢﴾ ﴿قَالَ﴾ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ والواقع أنهم لا يسمعون، ولا يعقلون.

﴿٧٣﴾ ﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ﴾ بجلب المنافع ودفع المضار؟، ﴿أَوْ يَضُرُّونَ﴾؟ بمنع وجلب المضار والواقع خلاف ذلك.

﴿٧٤﴾ وإنما كانت حجتهم علىٰ عبادتها التقليد حيث ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ **[الزخرف:٢٢]**.

﴿٧٥﴾ ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم﴾ أخبروني، ﴿مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ من الأصنام والأوثان.

﴿٧٦﴾ ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ﴾ الذين سبقوكم واتبعتموهم وقلدتموهم.

﴿٧٧﴾ ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ كلهم ﴿عَدُوٌّ لِّي﴾ براءة من الأصنام، ومن عُبّادِها، ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَالَمِينَ﴾.

❐ وَاخْتَلَفُوا فِي الْاسْتِثْنَاءِ:

قيل: هو استثناء منقطع كأنه قال: فإنهم عدوٌ لي؛ لكن رب العالمين وليي، وقيل: إنهم كانوا يعبدون الأصنام مع الله، فقال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: كل ما تعبدون أعدائي إلا رب العالمين، وهذا الذي رجحه عبد الرحمن المعلمي رحمه الله في كتابه "رفع الاشتباه عن معنىٰ العبادة والإله".

٧٨ فهو عَزَّوَجَلَّ ﴿الَّذِي خَلَقَنِي﴾ أوجدني من العدم، ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ يرشدني، ويدلني إلىٰ طريق النجاة.

٧٩ ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي﴾ إن جُعت ويُغذيني، ﴿وَيَسْقِينِ﴾ من الشراب.

٨٠ ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾ نزلت بي آفة أو سقم، ﴿فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ يُعافيني من مرضي.

ومن أسماءِ الله عَزَّوَجَلَّ (الشافي)، وقد كان من دعاء النبي ﷺ: **«اللهمَّ رَبَّ النَّاسِ، أَذْهِبْ الْبَاسَ، واشْفِ، أَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا»** أخرجاه عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

كما أن من أسمائه (الطبيب) فَعَنْ أَبِي رِمْثَةَ التَّمِيمِيِّ، قَالَ: خَرَجْتُ مَعَ أَبِي حَتَّىٰ أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَرَأَيْتُ بِرَأْسِهِ رَدْعَ حِنَّاءٍ، وَرَأَيْتُ عَلَىٰ كَتِفِهِ مِثْلَ التُّفَّاحَةِ، قَالَ أَبِي: إِنِّي طَبِيبٌ، أَلَا أُبَطُّهَا لَكَ؟ قَالَ: **«طَبِيبُهَا الَّذِي خَلَقَهَا»** قَالَ: وَقَالَ لِأَبِي: **«هَذَا ابْنُكَ؟»** قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: **«أَمَا إِنَّهُ لَا يَجْنِي عَلَيْكَ، وَلَا تَجْنِي عَلَيْهِ»**. أخرجه أحمد (١٧٤٩٣).

٨١ ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي﴾ يقبض روحي، ﴿ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ يوم القيامة.

٨٢ ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ﴾ أرغب وأرجو، ﴿أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي﴾ يتجاوز عن ذنبي، ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ يوم الحساب والجزاء كرما منه وثوبا بسبب الإيمان والعمل الصالح.

٨٣ ثم انصرف عنهم وخرج مهاجرًا إلىٰ الله، وقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي﴾ أعطني ﴿حُكْمًا﴾ علمـًا وفقهًا، ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ بمن قبلي من النبيين.

٨٤ ﴿وَاجْعَل لِّي﴾ هب لي وصَيِّرْ لي، ﴿لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ قيل: ثناءً حسنًا وذِكْرًا جميلًا، فكل أصحاب الأديان يُثنون عليه، بل إن اليهود والنصارىٰ ينتحلونه، فقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾ [آل عمران:٦٨].

٨٥ ﴿وَٱجْعَلْنِي﴾ صَيِّرْني يوم القيامة، ﴿مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: ممن تُعطيه جنة النعيم.

٨٦ ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ﴾ هذا الدعاء قبل أن ينهاه الله عَزَّوَجَلَّ عن ذلك، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ الكافرين.

وفي البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**يَلْقَىٰ إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَعَلَىٰ وَجْهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لاَ تَعْصِنِي، فَيَقُولُ أَبُوهُ: فَاليَوْمَ لاَ أَعْصِيكَ، فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لاَ تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَىٰ مِنْ أَبِي الأَبْعَدِ؟ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: إِنِّي حَرَّمْتُ الجَنَّةَ عَلَى الكَافِرِينَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ، مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ؟ فَيَنْظُرُ، فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُلْتَطِخٍ، فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَىٰ فِي النَّارِ**».

٨٧ ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ أي: لا تفضحني، وهو أشد الخزي؛ إذ يُنادىٰ علىٰ رؤوس الأشهاد: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود:١٨].

٨٨ ﴿يَوْمَ﴾ القيامة حيث ﴿لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ وإن كثروا، فعن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قَالَ: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَتْبَعُ المَيِّتَ ثَلاَثَةٌ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَىٰ مَعَهُ وَاحِدٌ: يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ، فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَىٰ عَمَلُهُ**» متفق عليه .

٨٩ ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ خالصًا من الشرك مُحققًا للتوحيد، ويدخل فيه كل مسلم حيث ينتفع إبتداء أو مآلًا، فإن كل مسلم مآله الجنة كما قدمنا عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر:٢]. قال أبو عثمان النيسابوري: هو القلب الخالي من البدعة المُطمئن للسنة، أقول: والمعنىٰ عام.

❁ وفي الآية أهمية صلاح القلب فبه صلاح الجوارح ففي الصحيحين عن النعمان بن بشير رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال رسول الله ﷺ : «**أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ، فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**» .

وعند ابن ماجه (٤٢١٦) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «**كُلُّ مَخْمُومِ الْقَلْبِ، صَدُوقِ اللِّسَانِ**». قَالُوا: صَدُوقُ اللِّسَانِ نَعْرِفُهُ، فَمَا مَخْمُومُ الْقَلْبِ؟ قَالَ: «**هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ، لَا إِثْمَ فِيهِ، وَلَا بَغْيَ، وَلَا غِلَّ، وَلَا حَسَدَ**».

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿٩٠﴾ ﴿وَأُزْلِفَتِ﴾ قُرِّبَتْ يوم القيامة، ﴿ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الموحدين.

﴿٩١﴾ ﴿وَبُرِّزَتِ﴾ أُظهرت، ﴿ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ للكافرين.

﴿٩٢﴾ ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ للكافرين على سبيل التهكم والسخرية: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾.

﴿٩٣﴾ ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ من الأصنام والأوثان؟، ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ﴾ يمنعونكم من العذاب؟، ﴿أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ لأنفسهم؟ فهم أعجز من ذلك كما قال تعالىٰ: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ [الأنبياء:٤٣]. أي: لا يُسلمون ولا ينجون، بل هي عاجزة.

﴿٩٤﴾ ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا﴾ يُلقون علىٰ وجوههم، في النار بعضهم فوق بعض، ﴿هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ﴾ الكافرون الذين سلكوا سبيلهم، وقيل: بأن الغاوين هم كفرة الجن.

- وقيل: كبكبوا جُمِعوا.

وَالأَوَّلُ أَظْهَرُ حيث أنهم طُرِحَ بعضهم علىٰ بعضٍ في النار وألقوا علىٰ رؤوسهم.

﴿٩٥﴾ ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ أي طرحوا في النار وجنوده أتباعه وكل من أطاعه من الجنِّ والشياطين يناله ما نال هؤلاء.

﴿٩٦﴾ ﴿قَالُوا۟﴾ الكفار، ﴿وَهُمْ فِيهَا﴾ في جهنم، ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ أي: يرد بعضهم علىٰ بعض في اللوم، كما ذكر الله عَزَّوَجَلَّ في سورة الصافات: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ﴾ [الصافات:٢٧-٣٠].

(٩٧) ﴿تَٱللَّهِ﴾ والله، ﴿إِن كُنَّا﴾ حين صدقناكم ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ﴾ تَيْهٍ وشكٍّ، ﴿مُّبِينٍ﴾ واضح.

(٩٨) ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم﴾ في العبادة لا في الذات والصفات، ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وفي هذا بيان أن ما يفعله عباد القبور من صرف العبادات من دعاء ونذر وذبح وخوف وغير ذلك للمقبورين المربوبين يعتبر تسويةً لمعبودهم برب العالمين تعالىٰ الله عما يشركون، فلا يلزم من التسوية المماثلة في الصفات والذات.

(٩٩) ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ﴾ حرفنا عن الهدىٰ، ودعانا إلىٰ الضلالة، ﴿إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ الكافرون.

(١٠٠) ﴿فَمَا لَنَا﴾ يوم القيامة إن مُتْنا علىٰ الكفر، ﴿مِن شَٰفِعِينَ﴾ يشفعون لنا عند الله عَزَّوَجَلَّ.

(١٠١) ﴿وَلَا﴾ لنا من ﴿صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ قريب خالص المودة يشفع لنا؛ وذلك حين يشفع النبيون والملائكة والمؤمنون، في المؤمنين ويبقىٰ هؤلاء لا شفاعة لهم.

(١٠٢) ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ رجعة إلىٰ الدنيا، ﴿فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهم كاذبون في ذلك، فقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٨].

(١٠٣) ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكِرَ، ﴿لَءَايَةً﴾ علامة بَيِّنة، وحجة ظاهرة علىٰ توحيد الله عَزَّوَجَلَّ، وفساد دينهم، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ مع توارد الأدلة والحجج والبراهين.

(١٠٤) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يعجز، ولا يُغلب، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بأهل طاعته وولايته.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾.

(١٠٥) ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ مع أنهم كذبوا رسولهم ولم يكن قبله رسول، إلا أن مَنْ كذب رسولًا واحدًا كان كمن كذب جميع الرسل.

(١٠٦) ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ أي: في النسب ﴿نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾؛ توحدون الله عَزَّوَجَلَّ وتُطيعونه؟.

(١٠٧) ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ﴾ من رب العالمين، ﴿أَمِينٌ﴾ علىٰ الوحي لا أزيدُ فيه ولا أنقص.

١٠٨ ﴿فَاتَّقُوا اللهَ﴾ بفعل المأمور، وترك المحظور، ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمركم به من الإيمان والتوحيد.

١٠٩ ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ من ثوابٍ وعطاء، ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ ثوابي ﴿إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ خالقي وخالق العالمين.

١١٠ ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾ بفعل المأمور وترك المحظور والصبر على المقدور ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فإن طاعتي من طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ [النساء:٨٠].

١١١ ﴿قَالُوا﴾ أي: الكفار من قومه: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ﴾ يا نوح، ﴿وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ الأصاغر والسفلة؟ وهذا هو قول قريش لما قالوا لمحمد ﷺ: اطرد عنا هؤلاء لا يجترؤون علينا. يريدون بلالاً وعماراً وصهيباً.

١١٢ ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بصنعهم قبل إيمانهم، وعليَّ أن أُعاملهم بظاهرهم.

١١٣ ﴿إِنْ﴾ ما ﴿حِسَابُهُمْ﴾ مجازاتهم بالثواب أو العقاب، ﴿إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ تعلمون، وقد قال تعالىٰ: ﴿لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات:١٣].

١١٤ ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ﴾ بمقصي، ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ الموحدين علىٰ أيِّ حالٍ كانوا.

١١٥ ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ﴾ مُبَلِّغْ، ﴿مُبِينٌ﴾ مُبيِّن لوحي الله عَزَّوَجَلَّ ليس لي من الأمر شيء، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ لمحمد ﷺ: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾ [الأنعام:٥٢].

١١٦ ﴿قَالُوا﴾ الكفار بعد أن خصمهم، ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ﴾ تترك، ﴿يَا نُوحُ﴾ الدعوة إلىٰ التوحيد والتحذير من الشرك والتنديد، ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ يعني: المقتولين بالحجارة.

١١٧ ﴿قَالَ رَبِّ﴾ مستغيثا به، ﴿إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ﴾ [القمر:١٠].

١١٨ ﴿فَافْتَحْ﴾ احكم، ﴿بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ حكمًا، وعاجلهم بالعقوبة، ﴿وَنَجِّنِي﴾ سَلِّمْني، ﴿وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذا حين دعا عليهم بالهلاك بقوله: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح:٢٦]، فاستجاب الله له.

(١١٩) ﴿فَأَنجَيْنَاهُ﴾ سلمناه، ﴿وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾ السفينة العظيمة، ﴿الْمَشْحُونِ﴾ بأنواعِ الركاب من الدواب، ومن آمن بنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(١٢٠) ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا﴾ بالطوفان، ﴿بَعْدُ الْبَاقِينَ﴾ الكافرين الذين لم يركبوا السفينة.

(١٢١) ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

(١٢٢) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾.

(١٢٣) ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ وهم قومُ هود عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكانوا بالأحقاف من أرض حضرموت والمهرة.

(١٢٤) ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ في النسب، ﴿هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ بالتزام توحيده والبعد عن الشرك والتنديد.

(١٢٥) ﴿إِنِّي لَكُمْ﴾ من الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ علىٰ الرسالة.

(١٢٦) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

(١٢٧) ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ ثوابًا ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ ثوابي ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

(١٢٨) ﴿أَتَبْنُونَ﴾ تعمرون وتُشيدون، ﴿بِكُلِّ رِيعٍ﴾ شرف ومكان مرتفع، ﴿آيَةً﴾ قصورا ونحوها من الأبنية الشامخة العالية، وأنتم بفعلكم هذا ﴿تَعْبَثُونَ﴾ تلعبون من غير حاجة وإنما هو العبث والتوسع، فكانوا يبنون في أعالي الجبال، وفي الشُّرَف ما لا يحتاجون إليه.

(١٢٩) ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ قيل: حصونا وقيل: حياضا للمياه، بل وأستدل به أنها كانت لهم حضارة وتطور ثم انتهت وبادت حين عصوا وحصل منهم البغي والعناد. ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ تُخَلَّدون فلا تموتون.

(١٣٠) ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم﴾ أخذتم مخالفيكم، ﴿بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ قتلًا وضربًا بدون رحمةٍ ولا هوادة، وهذا دليل علىٰ عظيمِ غفلتهم وكبرهم وعنادهم.

(١٣١) ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

(١٣٢) ﴿وَٱتَّقُواْ﴾ الله عز وجل، كررها لعظيم شأن مراقبة الله عز وجل، ﴿ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم﴾ أعطاكم من الخير، ﴿بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ ما تعلمونه من النعم.

(١٣٣) ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ﴾ من الإبل والبقر والغنم ونحوه، ﴿وَبَنِينَ﴾ ذُرِّية.

(١٣٤) ﴿وَجَنَّٰتٍ﴾ بساتين، ﴿وَعُيُونٍ﴾ أنهار، وغيول.

(١٣٥) ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ بسبب شرككم وبغيكم، ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ إما عذاب يوم القيامة أو يوم هلاكهم.

(١٣٦) ﴿قَالُواْ﴾ عند ذلك معارضين لدعوته: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ﴾ نصحت، وذكرت، ﴿أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ من المذكرين، يعني: أنذرت وحذرت، أم سكت لا يؤثر فينا، وهذا دليل علىٰ عظيم كبرهم وعنادهم.

(١٣٧) ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ أي: ما هذا الذي جئت به، ﴿إِلَّا خُلُقُ﴾ كذب ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ كما اختلق الأولون، فلا بعث ولا نشور.

(١٣٨) ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ تألي علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.

(١٣٩) ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ وأبوا إلا الشرك والعناد، ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ بريحٍ صرصرٍ عاتية، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ علامة علىٰ قدرة الله عَزَّوَجَلَّ النافذة، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بالله عَزَّوَجَلَّ لعظيم جحودهم وعظيم كفرهم،

(١٤٠) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُغلب ولا يعجز فدمدم وأهلك الكافرين ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بالمؤمنين.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾.

﴿١٤١﴾ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ وهم قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأرضهم بوادي القرىٰ بشمال الجزيرة، ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكان من شأنهم.

﴿١٤٢﴾ ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ﴾ في النسب ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ بفعل المأمور، وأوله التوحيد وترك المحظور، وأوله الشرك والتنديد.

﴿١٤٣﴾ ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ علىٰ وحي الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿١٤٤﴾ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

﴿١٤٥﴾ ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿١٤٦﴾ ﴿أَتُتْرَكُونَ﴾ دون مأخذة ﴿فِي مَا هَاهُنَا﴾ أي: في الدنيا، ﴿آمِنِينَ﴾ من العذاب؟ ومن غير دعوة أو تكليف؟!.

﴿١٤٧﴾ فتعيشون ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ بساتين ﴿وَعُيُونٍ﴾ أنهار، وغيول.

﴿١٤٨﴾ ﴿وَزُرُوعٍ﴾ جمع زرع، ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ أي: ثمرها لطيف جميل لذيذ.

﴿١٤٩﴾ ﴿وَتَنْحِتُونَ﴾ تحفرون مع ذلك، ﴿مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ مساكن، ﴿فَارِهِينَ﴾ لا لحاجتكم إليها، ولكن من باب الرفاهية والفره وهذا الصنيع من الرفاهية للتطاول، وفي حديث عمر بن الخطاب في صحيح مسلم (٨) أنّ من علامات الساعة: التطاول في البنيان.

﴿١٥٠﴾ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ وأطيعوا أمري.

﴿١٥١﴾ ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ المُشركين، وهم التسعة الرهط الذين تمالؤا علىٰ قتل صالح.

(١٥٢) ومن شأنهم أنهم: ﴿ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بالشرك وغيره، ﴿وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ لا يُطيعون الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يلتزمون أمره.

(١٥٣) ﴿قَالُوٓاْ﴾ معارضةً لصالحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ﴾ يا صالحُ، ﴿مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾ المَسْحُورين المخدوعين.

(١٥٤) ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ تأكل الطعام وتمشي في الأسواق، ﴿فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ﴾ علامة علىٰ نبوتك، ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أن الله عَزَّوَجَلَّ أرسلك.

(١٥٥) ﴿قَالَ﴾ لهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ﴾ تكون علامة وآية علىٰ صدقي؛ لأنهم كانوا أصحاب نوق، ﴿لَّهَا شِرۡبٞ﴾ حظ ونصيب من ماء البئر، ﴿وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ شرب يومٍ آخر، وفي اليوم الذي تشرب الناقة تسقيهم من لبنها.

(١٥٦) ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا﴾ الناقة ﴿بِسُوٓءٖ﴾ بعقرٍ وقتلٍ، ﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ شديد أهواله، بسبب شرككم وعقركم للناقة، ولم يبالوا بأمره ونهيه.

(١٥٧) ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ نحروها وقتلوها، وكان الذي عقرها واحد، وأُضيف إليهم الفعل؛ لأنهم تمالأوا معه عليها، ﴿فَأَصۡبَحُواْ﴾ بعد عقرهم لها، ﴿نَٰدِمِينَ﴾ علىٰ فعلهم القبيح ومجاوزة الشرع، ومخالفة أمر الله ولات حين مندم؛ ولم ينفعهم الندم؛ لأنهم في حكم صاحب الغرغرة الذي لا تنفعه التوبة.

(١٥٨) ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ الصيحة، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ﴾ علامة عبرة، ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾؛ منقادين موحدين.

(١٥٩) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلب ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بالمؤمنين.

﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلۡقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهۡلِي مِمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾.

﴿١٦٠﴾ ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وهم أصحاب قرية سُدُّوم.

﴿١٦١﴾ ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ﴾ في النسب ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله بالتوحيد، والبعد عن الفاحشة التي لم يسبقها إليهم أحد.

﴿١٦٢﴾ ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾.

﴿١٦٣﴾ ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

﴿١٦٤﴾ ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿١٦٥﴾ ﴿أَتَأْتُونَ﴾ تجامعون، ﴿ٱلذُّكْرَانَ﴾ الرجال، ﴿مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وهذا أمرٌ مستقبح لم يُسبقوا إليه.

﴿١٦٦﴾ ﴿وَتَذَرُونَ﴾ تتركون ﴿مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ﴾ أي: من النساء اللاتي خلقهن الله عَزَّوَجَلَّ لمثل هذا الشأن، ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ﴾ بفعلكم هذا، ﴿عَادُونَ﴾ متجاوزون للحلال الطيب إلىٰ الحرام الخبيث.

﴿١٦٧﴾ ﴿قَالُوا۟﴾ معارضة له: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ﴾ عن دعوتك لنا، وإنكارك علينا، ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ من هذه القرية.

﴿١٦٨﴾ ﴿قَالَ﴾ لوط منكرًا عليهم: ﴿إِنِّى لِعَمَلِكُم﴾ القبيح، ﴿مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ المبغضين المبتعدين.

لأن هذه الفعلة من أسوأ الكبائر المخالفة للفطرة الإنسانية، وقد تصدر للدعوة إليها في هذه الأزمنة المتأخرة الماسونيون وعملاؤهم، وأصبحوا يتفاخرون بها بل فاقوا قوم لوط حيث وضعوا لها القوانين المجوزة لإكتفاء الذكر بالذكر، والأنثىٰ بالأنثىٰ مخالفين الفطرة الإنسانية، والشريعة الإسلامية في أمر لا تفعله حتىٰ البهائم.

﴿١٦٩﴾ ثم استغاث بالله عَزَّوَجَلَّ فقال: ﴿رَبِّ نَجِّنِى﴾ سلمني، وخلصني، ﴿وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ من العمل الخبيث والفاحشة السيئة التي تبنت الدعوة إليها في هذه الأزمنة المتأخرة الأمم المتحدة، وأمريكا، وقد نشروها في كثيرٍ من البلدان.

﴿١٧٠﴾ ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ﴾ سلمناه، ﴿وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ حيث أوحىٰ الله إليه بالخروج مع بناته قبل نزول العذاب.

﴿١٧١﴾ ﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ امرأته؛ لأنها كفرت، وخانته بالإبلاغ عن الملائكة حين نزلوا إليه، فكان شأنها أنها ﴿فِي الْغَابِرِينَ﴾ أي: في الهالكين.

﴿١٧٢﴾ ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾ من قوم لوط.

﴿١٧٣﴾ ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ حجارة من سجيل، كما قال: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود:٨٢]، ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ بئس ما لحقهم من العذاب المهين.

﴿١٧٤﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ في إهلاكهم ﴿لَآيَةً﴾ عظة وعبرة لمن بعدهم ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بل كانوا كافرين، كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣].

﴿١٧٥﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي ينتقم من المجرمين، ﴿الرَّحِيمُ﴾ بمن تاب منهم.

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾.

﴿١٧٦﴾ ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لْـَٔيْكَةِ﴾ الشجرة، ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ وإنما كذبوا رسولهم؛ لكن تكذيب الرسول الواحد تكذيب لجميعهم.

﴿١٧٧﴾ ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله بتوحيده، وهم أهل مدين علىٰ الصحيح وكان نبي الله شعيب من أنفسهم، وإنما لم يقل هنا أخوهم شعيب؛ لأنهم نسبوا إلىٰ عبادة الأيكة، وهي شجرة كانوا يعبدونها.

﴿١٧٨﴾ ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾.

﴿١٧٩﴾ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

﴿١٨٠﴾ ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

(١٨١) ﴿أَوْفُوا﴾ أكملوا وأحسنوا ﴿الْكَيْلَ﴾ في المكيلات ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ المتطففين، وقد كانوا اشتهروا بتطفيف المكيال والميزان.

(١٨٢) ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ﴾ بالعدل، ﴿الْمُسْتَقِيمِ﴾ الذي لا اعوجاج فيه ولا نقص ولا زيادة.

(١٨٣) ﴿وَلَا تَبْخَسُوا﴾ تُنقصوا ﴿النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ من أشيائهم، ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ بالشرك فما دونه.

(١٨٤) ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ أوجدكم، ﴿وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾ والخلق الأولين.

(١٨٥) ﴿قَالُوا﴾ معارضة له: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ المسحورين.

(١٨٦) ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ يقولون نستيقن أنك من الكاذبين علىٰ رب العالمين، فإن كنت صادقًا في دعواك:

(١٨٧) ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ قطعة عذاب، ﴿مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في دعواك أنك رسول من رب العالمين.

(١٨٨) ﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وسيُجازيكم متىٰ أراد، فلا أملك لكم نفعًا ولا ضرًا.

(١٨٩) ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ في دعوته إلىٰ التوحيد والرسالة، ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ قيل: سُلِّطَ عليهم الحر حتىٰ ضاق حالهم، ثم جاءت سحابة فذهبوا جميعًا تحتها، فخرج منها نار أحرقهم عن بكرة أبيهم، ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ لشدته وعظيم هوله.

(١٩٠) ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

(١٩١) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾.

﴿١٩٢﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن، ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حيث تكلم به

﴿١٩٣﴾ فـ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، إذ سمعه من الله عَزَّوَجَلَّ مباشرة، بغير واسطة،

﴿١٩٤﴾ ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ يا محمد، حتىٰ وعيته؛ لأن النبي ﷺ كان يقرأ ويشق عليه، ثم قال الله له: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة:١٦-١٩].

وقوله: ﴿ٱلْأَمِينُ﴾ أي: أنه أمينٌ فيما وُكِلَ به، فقول الباطنية: خان الأمين كلام باطل، ما كان للأمين أن يخون، فهو من الملائكة الذين: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦]، ﴿لِتَكُونَ﴾ يا محمد: ﴿مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ المخوفين من رب العالمين والمبلغين رسالته.

﴿١٩٥﴾ وكان نزول هذا القرآن: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ﴾ أي: بلغةِ قريش ليفهموه ويعوه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ﴾ [إبراهيم:٤]، ﴿مُّبِينٍ﴾ أي: بَيِّن واضح،

﴿١٩٦﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: ذِكْر القرآن: ﴿لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ مزبورهم، وهي كتبهم، وإن أراد بالزبر اللوح المحفوظ فذاك.

﴿١٩٧﴾ ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً﴾ علامة علىٰ صدقك يا محمد، ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ﴾ يعلم نبوة محمد ﷺ، ﴿عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ومنهم عبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿١٩٨﴾ ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ﴾ أي: هذا القرآن، ﴿عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ وهو الذي لا يُفصح ولا يُحسن الكلام بالعربية.

﴿١٩٩﴾ ﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم﴾ بغير لغتهم: ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ منقادين، وقالوا: ما نفقه هذا الكلام، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ﴾ [فصلت:٤٤] فقال الله لهم: ﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾.

﴿٢٠٠﴾ ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ﴾ أي: أدخلنا الشرك والتكذيب، ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الكافرين .

(٢٠١) فـ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ بالقرآن ولا بمحمد ﷺ، ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا﴾ يعاينوا ﴿الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ القتل ونحوه في الدنيا، وعذاب القبر وما بعده في الآخرة.

(٢٠٢) ﴿فَيَأْتِيَهُم﴾ العذابُ، ﴿بَغْتَةً﴾ على حينِ غِرَّةٍ وفجأة، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بسبب غفلتهم وإعراضهم.

(٢٠٣) ﴿فَيَقُولُوا﴾ عند نزول العذاب: ﴿هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ مؤخرون، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠].

وقوله تعالىٰ: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المنافقون:١٠].

(٢٠٤) ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج:١]، وكقوله تعالىٰ مخبرًا عن كفار قريش: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال:٣٢].

(٢٠٥) ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ يا محمد، وأخبرني: ﴿إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ﴾ أبقيناهم سنين عديدة وأعوام مديدة، فلم تكن منهم الإجابة والاستجابة لدعوتك.

(٢٠٦) ﴿ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب الأليم.

(٢٠٧) ﴿مَآ أَغْنَىٰ﴾ ما صدَّ ﴿عَنْهُم﴾ العذاب، ﴿مَّا﴾ الذي ﴿كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ يتمتعون به في تلك السنين الطويلة.

(٢٠٨) ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا﴾ دمرنا، ﴿مِن قَرْيَةٍ﴾ من مدينة أو أمة، ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾؛ مُرسلون الرسل لإقامة الحجة الرسالية عليهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص:٤٧].

(٢٠٩) وهذا القرآن ﴿ذِكْرَىٰ﴾ موعظة للناس قبل نزول العذاب بمن أعرض منهم، ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾؛ لكمالِ عدله سبحانه وتعالىٰ.

(٢١٠) ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ﴾ أي: بالقرآن، ﴿الشَّيَاطِينُ﴾ الذين شطوا عن الطاعة.

وهذا رد علىٰ الكافرين الذين زعموا أن محمدًا ﷺ يتلقىٰ هذا القرآن من شيطان، فهذا كلام الله مبين، وكلام الشيطان لا يكاد يستقيم.

﴿٢١١﴾ ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ﴾ للشياطين، شرعًا ولا قدراً أن يتنزلوا بالقرآن، ﴿وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ ذلك؛ لأن القرآن كلامُ الله ووحيه، والشياطين إنما يتلقفون الكذب والسحر.

﴿٢١٢﴾ ﴿إِنَّهُمۡ﴾ الشياطين، ﴿عَنِ ٱلسَّمۡعِ﴾ أي: عن استماعِ ما في السماء، ﴿لَمَعۡزُولُونَ﴾ بالشهب.

إذ سلط الله عَزَّوَجَلَّ عليهم الشهب، حتىٰ قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا أمر، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فمر النفر الذين بنخلة، وإذا بالنبي ﷺ يُصلي بهم الفجر، قالوا: هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، ثم رجعوا إلىٰ قومهم فأنزل الله: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ۝١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ۝٢﴾ [الجن:١-٢]. السورة. متفق عليه عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ ۝٢١٣ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ۝٢١٤ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢١٥ فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ۝٢١٦ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢١٧ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٢١٩ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٢٢٠ هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ۝٢٢٢ يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ ۝٢٢٣ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ ۝٢٢٤ أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ يَهِيمُونَ ۝٢٢٥ وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ ۝٢٢٦ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ۝٢٢٧﴾.

﴿٢١٣﴾ ﴿فَلَا تَدۡعُ﴾ تعبد يا محمد: ﴿مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ مما يعبدونه ويرجونه، ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ﴾ علىٰ هذا الجُرْم العظيم.

﴿٢١٤﴾ ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ جاء في قراءة: (ورهطكَ منهم المُخلصين).

وفي الصحيحين عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: **«لمَّا نزلتْ هذه الآية، صَعِدَ النبيُّ ﷺ علىٰ الصَّفا، فجعلَ يُنادي: يا بني فِهْر، يا بني عديّ، لبطونِ قريش، حتىٰ اجتمعوا، فجعلَ الرجلُ إذا لم يستطعْ أن يخرجَ، أرسلَ رسولًا لينظرَ ما هو، فجاءَ أبو لهبٍ وقريش.**

فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلًا بالوادي تريدُ أن تغيرَ عليكم، أكنتم مصدِّقيّ؟ قالوا: نعم، ما جَربّنا عليك إلا صدقًا، قال: فإني نذيرٌ لكم بين يَدَيْ عذابٍ شديد.

فقالَ أبو لهب: تَبًّا لك سائرَ اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلتْ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾.. **السورة»**، وفي قراءة الأعمش: تبت يدا أبي لهبٍ وقد تب أي: هلك.

وجاء أيضًا عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بنحوه، فالنبي ﷺ كان مُبلغًا لدين الله للقريب والبعيد.

❁ **لكن هذه الآية تدل علىٰ أن الإنسان ينبغي أن يهتم بأقاربه أكثر من غيرهم، إلا إذا أبوا وعصوا**، وفي الأثر المشهور: أزهد الناس في العالم أهلُهُ، ومع ذلك قد يتعصب له بعضهم، وإن بقي علىٰ إعراضه؛ لما بينهم من الصلة والقرابة، وبعضهم قد يستجيب، وتقع منه المناصرة الدينية وبسبب القرابة، وفي المثل: الأقربون أولىٰ بالمعروف.

﴿٢١٥﴾ ﴿وَٱخْفِضْ﴾ أمر بالتواضع، وهو أمرٌ لجميع من سلك سبيله: ﴿جَنَاحَكَ﴾ كناية عن لين الجانب ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ كما أنه أمر بالشدة علىٰ من خالف دعوته ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التحريم:٩].

﴿٢١٦﴾ ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ وأبوا إلا الكفر والعناد، ﴿فَقُلْ﴾ لهم، ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ﴾ أظهر لهم البراءة، ﴿مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ من الكفر وعبادةِ غير الله.

﴿٢١٧﴾ ﴿وَتَوَكَّلْ﴾ اعتمد واصدق في الاعتماد في جميع شأنك، ﴿عَلَى ٱلْعَزِيزِ﴾ الذي لا يُغلب، ﴿الرَّحِيمِ﴾ الذي هو أرحم بك من نفسك وغيرك من المخلوقين.

❁ وهذا دليلٌ علىٰ حفظِ الله عَزَّوَجَلَّ لرسله وأوليائه ومن إليهم، وذلك بالجمع بين اسم العزيز الذي يدل علىٰ القهر والغلبة، واسم الرحيم الذي يدل علىٰ الرعاية والعناية بالموحدين.

﴿٢١٨﴾ ﴿الَّذِى﴾ من شأنه سبحانه وتعالىٰ أنه: ﴿يَرَىٰكَ﴾ بعينين حقيقيتين، ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ من نومك بالليل.

﴿٢١٩﴾ ﴿وَتَقَلُّبَكَ﴾ ويرىٰ تقلبك ﴿فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ في الصلاة مع المصلين.

❁ وفي هذه الآية بيان لفضيلة قيام الليل، إذ أنه من أشرف المواطن التي لازمها رسول الله ﷺ حضرًا وسفرًا، إلا ما كان من ليلةِ مُزدلفة.

(٢٢٠) ﴿إِنَّهُ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لدعائك، ﴿الْعَلِيم﴾ بحالك.

وفيه بشارة بحفظ الله للمؤمن، إذ أنه يسمعُ كلامه، ويرىٰ مكانه، ويعلم ما يمكر به الأعداء.

(٢٢١) ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ أُخبركم، ﴿عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ﴾ تأتي ﴿الشَّيَاطِين﴾ الكاذبين الأفَّاكين.

(٢٢٢) ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ﴾ كذاب، كثير الكذب: ﴿أَثِيمٍ﴾ فاجر، وهم السحرة والكهنة.

ففي حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قال رسول الله ﷺ: **«تِلْكَ الكَلِمَةُ مِنَ الحَقِّ يَخْطَفُهَا الجِنِّيُّ، فَيُقَرْقِرُهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ كَقَرْقَرَةِ الدَّجَاجَةِ، فَيَخْلِطُونَ فِيهِ أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ كَذْبَةٍ»** متفق عليه.

(٢٢٣) ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾ أي: يستمعون من الملائكة سرقة فيُلقونه إلىٰ الكهنة، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾ في نقلهم، ﴿كَاذِبُونَ﴾؛ لأنهم يخلطون به كذبًا كثيرًا فعن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: سَأَلَ أُنَاسٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الكُهَّانِ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«لَيْسُوا بِشَيْءٍ»** قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، فَإِنَّهُمْ يُحَدِّثُونَ أَحْيَانًا بِالشَّيْءِ يَكُونُ حَقًّا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«تِلْكَ الكَلِمَةُ مِنَ الحَقِّ، يَخْطَفُهَا الجِنِّيُّ، فَيَقُرُّهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ قَرَّ الدَّجَاجَةِ، فَيَخْلِطُونَ فِيهَا أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ كَذْبَةٍ»** متفق عليه.

(٢٢٤) ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ المُجاوزون للحق المُسرفون بالباطل، وأما من كان شعره موافقًا للكتاب والسنة وناصرًا لهما فهذا مما يُمدح.

فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، في صحيح مسلم قالت: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: **«اهْجُ قُرَيْشًا، فَإِنَّهُ أَشَدُّ عَلَيْهَا مِنْ رَشْقٍ النَّبْلِ»**، فَأَرْسَلَ إِلَىٰ ابْنِ رَوَاحَةَ.

فَقَالَ: **«اهْجُهُمْ»**، فَهَجَاهُمْ فَلَمْ يُرْضِ، فَأَرْسَلَ إِلَىٰ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَىٰ حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ، قَالَ حَسَّانُ: قَدْ آنَ لَكُمْ أَنْ تُرْسِلُوا إِلَىٰ هَذَا الْأَسَدِ الضَّارِبِ بِذَنَبِهِ، ثُمَّ أَدْلَعَ لِسَانَهُ، فَجَعَلَ يُحَرِّكُهُ، ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَأَفْرِيَنَّهُمْ بِلِسَانِي فَرْيَ الْأَدِيمِ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«لَا تَعْجَلْ، فَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ أَعْلَمُ قُرَيْشٍ بِأَنْسَابِهَمْ، وَإِنَّ لِي فِيهِمْ نَسَبًا حَتَّىٰ يُخَلِّصَ لَكَ نَسَبِي»**.

فَأَتَاهُ حَسَّانُ، ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ مَحَضَ لِي نَسَبَكَ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَأَسُلَّنَّكَ مِنْهُمْ كَمَا تُسَلُّ الشَّعْرَةُ مِنَ الْعَجِينِ.

قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ لِحَسَّانَ: **«إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ لَا يَزَالُ يُؤَيِّدُكَ مَا نَافَحْتَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ»**.

وَقَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: **«هَجَاهُمْ حَسَّانُ فَشَفَىٰ وَاشْتَفَىٰ»**، فَقَالَ حَسَّانُ:

هَجَوْتَ مُحَمَّدًا فَأَجَبْتُ عَنْهُ ... وَعِنْدَ اللهِ فِي ذَاكَ الْجَزَاءُ

هَجَوْتَ مُحَمَّدًا بَرًّا حَنِيفًا ... رَسُولَ اللهِ شِيمَتُهُ الْوَفَاءُ

فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي ... لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وِقَاءُ

تَكِلْتُ بُنَيَّتِي إِنْ لَمْ تَرَوْهَا ... تُثِيرُ النَّقْعَ مَوْعِدُهَا كَدَاءُ

يُنَازِعْنَ الْأَسِنَّةَ مُشْرَعَاتٍ ... عَلَىٰ أَكْتَافِهَا الْأَسَلُ الظِّمَاءُ

تَظَلُّ جِيَادُنَا مُتَمَطِّرَاتٍ ... تُلَطِّمُهُنَّ بِالْخُمُرِ النِّسَاءُ

فَإِنْ أَعْرَضْتُمُ عَنَّا اعْتَمَرْنَا ... وَكَانَ الْفَتْحُ ، وَانْكَشَفَ الْغِطَاءُ

وَإِلَّا فَاصْبِرُوا لِضِرَابِ يَوْمٍ ... يُعِزُّ اللهُ فِيهِ مَنْ يَشَاءُ

وَقَالَ اللهُ قَدْ أَرْسَلْتُ عَبْدًا ... يَقُولُ الْحَقَّ لَيْسَ بِهِ خَفَاءُ

وَقَالَ اللهُ قَدْ أَرْسَلْتُ جُنْدًا ... هُمُ الْأَنْصَارُ عَزْمَتُهَا اللِّقَاءُ

لَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ مَعَدٍّ ... سِبَابٌ أَوْ قِتَالٌ أَوْ هِجَاءُ

فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللهِ مِنْكُمْ ... وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءُ

وَجِبْرِيلٌ رَسُولُ اللهِ فِينَا ... وَرُوحُ الْقُدْسِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءُ

وهذه الأبيات مذكورة في صحيح مسلم، جليلة المعنىٰ عظيمة البيان.

وجاء عند الترمذي، وغيره عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ مَكَّةَ فِي عُمْرَةِ الْقَضَاءِ، وَابْنُ رَوَاحَةَ يَمْشِي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَيَقُولُ:

خَلُّوا بَنِي الْكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ ... الْيَوْمَ نَضْرِبُكُمْ عَلَىٰ تَنْزِيلِهِ

ضَرْبًا يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ ... وَيُذْهِلُ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ

قَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا ابنَ رَوَاحَةَ، بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَفِي حَرَمِ اللهِ تَقُولُ الشِعْرَ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**خَلِّ عَنْهُ يَا عُمَرُ، فَلَهِيَ أَسْرَعُ فِيهِمْ مِنْ نَضْحِ النَّبْلِ**».

وأما التوسع في باب الشعر لغير ما حاجة، فقد جاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الصحيحين قال رسول الله ﷺ: «**لَأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحًا: خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا**».

﴿٢٢٥﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ﴾ أي: الشعراء، ﴿فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: "في كل لغو يخوضون"، وقال قتادة: "الشاعر يمدح قوما بباطل، ويذم قوما بباطل". فهم جائرون، يميلون إن مدحوا غلوا، وإن قدحوا جفوا.

﴿٢٢٦﴾ ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ أي: يكذبون في شعرهم، ومنهم قولهم أعذبه أكذبه، بل أعذبه أصدقه وأصوبه.

﴿٢٢٧﴾ ثم استثنىٰ الله عَزَّوَجَلَّ من هذا الحكم: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ومنهم: حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك، ومن سلك سبيلهم، ﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ حافظوا علىٰ الصلاة والذكر والدعاء، ﴿وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ أي: هجوا المُشركين ردًّا علىٰ باطلهم وبغيهم، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أشركوا وبغوا، ﴿أَيَّ مُنْقَلَبٍ﴾ مرجع، ﴿يَنْقَلِبُونَ﴾ بعد موتهم إلىٰ جهنم وبئس المصير.

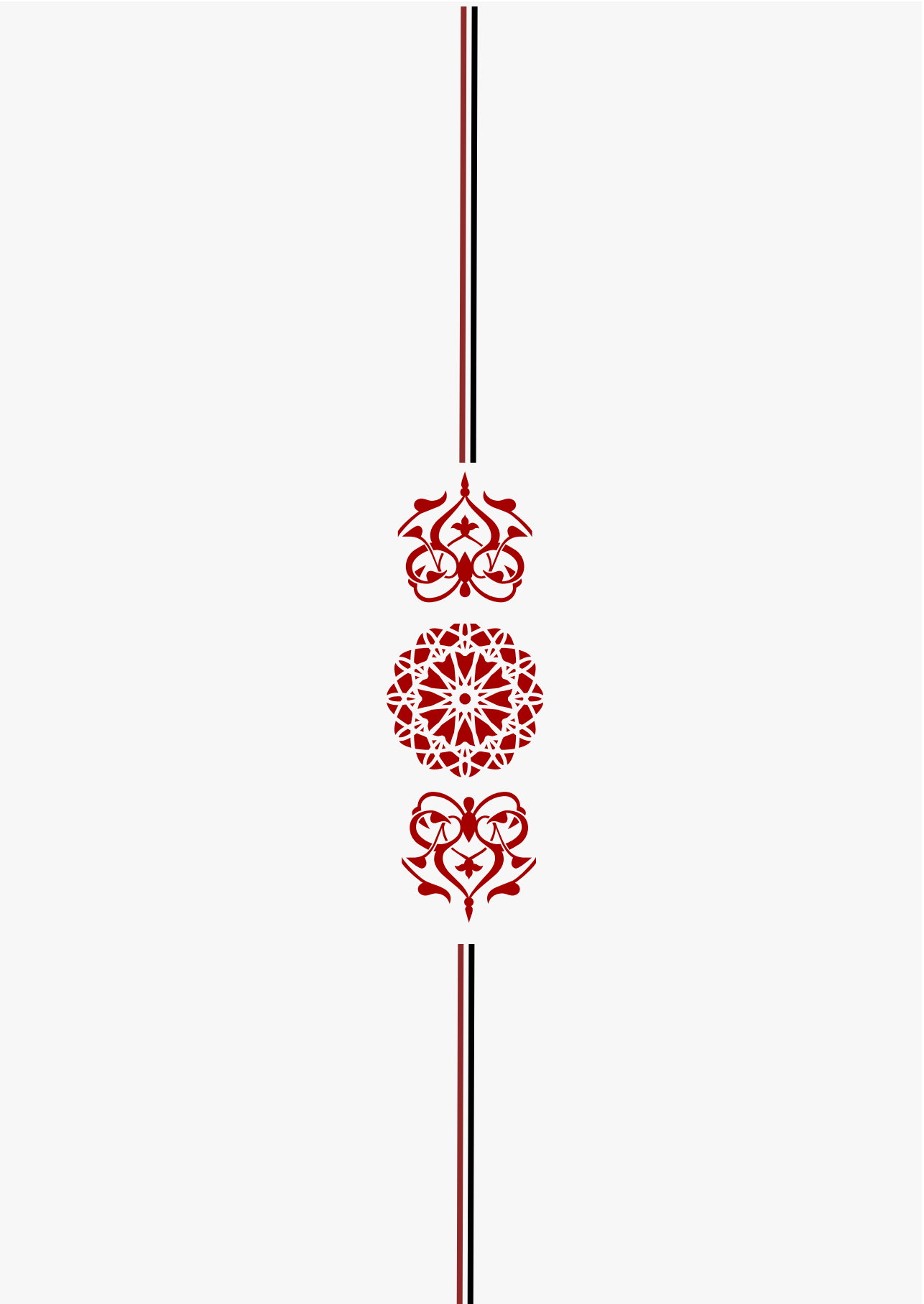
وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

تم بحمد الله تفسير سورة الشعراء



تَفْسِيرُ سُورَةِ النَّمْلِ





سُورَةُ النَّمْلِ

مَكِّيَّةٌ، وَآيَاتُهَا ثَلَاثٌ وَتِسْعُونَ آيَةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ۝٥ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾.

١ ﴿طسٓ تِلْكَ﴾ هذه، ﴿ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ بيِّن واضح في حججه وأحكامه، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١].

٢ وشأن هذا الكتاب أنه، ﴿هُدًى﴾ دلالة وإرشاد، ﴿وَبُشْرَىٰ﴾ صادقة بنعيمهم العظيم ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ المصدقين المنقادين لرب العالمين.

٣ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ من شأنهم أنهم ﴿يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ المفروضة، ﴿وَيُؤْتُونَ﴾ يؤدون، ﴿الزَّكَاةَ﴾ المكتوبة، ﴿و﴾ مع ذلك ﴿هُم بِالآخِرَةِ﴾ القيامة وما فيها: ﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾ ويُصدقون.

٤ ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يقرون ﴿بِالآخِرَةِ﴾ القيامة من الكفار والزنادقة ومن إليهم، ﴿زَيَّنَّا﴾ حسنا ﴿لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ القبيحة والسيئة فرأوها حسنة، ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ في حيرة وتيه.

٥ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ﴾ زُيِّنت لهم أعمالهم وهم علىٰ غير السبيل، ﴿لَهُمْ سُوءُ﴾ شدة، ﴿ٱلْعَذَابِ﴾ في الدنيا بالقتل والأسر وغيره، ﴿وَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ﴾ يوم القيامة، ﴿هُمُ الأَخْسَرُونَ﴾ الخسران المُبين، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٤].

٦ ﴿وَإِنَّكَ﴾ يا محمد: ﴿لَتُلَقَّى﴾ تُؤتىٰ ﴿الْقُرْآنَ﴾ وتُلقنه، ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ﴾ في فعله وأمره، ﴿عَلِيمٍ﴾ لا تخفىٰ عليه خافية.

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١١ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝١٢ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٣ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝١٤﴾.

٧ واذكر يا محمد: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾ لزوجته، حين رحل من البلدة التي فر إليها عائدًا إلىٰ مصر: ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ﴾ أبصرتُ، ﴿نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ عن الطريق والمكان الذي نحنُ فيه، ﴿أَوْ ءَاتِيكُم﴾ إن لم يكن ذلك، ﴿بِشِهَابٍ﴾ شعلة وقطعة من نار، ﴿قَبَسٍ﴾ أبيض واضح، ﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ تستدفؤون من البرد.

٨ ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا﴾ أتىٰ زوجته بالنار، ﴿نُودِىَ﴾ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ من ربه تعالىٰ: ﴿أَنۢ بُورِكَ﴾ إخبار بالبركة، وهي وضع الخير الإلهي في الشيء، ﴿مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ من طلب النار ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من الملائكة وموسىٰ وغير ذلك، ﴿وَسُبْحَانَ اللهِ﴾ تنزيه الله، ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وكل من سوىٰ الله عالم.

٩ ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ هذا نداء من الله عَزَّوَجَلَّ، ودليله: ﴿إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُغلب، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أمره ونهيه وفعله.

❁ **وفي هذا ردٌّ علىٰ المعتزلة** الذين يزعمون أن الكلام خلقه الله في الشجرة، فلو كان الكلامُ مخلوقًا ما جاز له أن يقول: أنا الله.

١٠ ﴿وَأَلْقِ﴾ اطرح ﴿عَصَاكَ﴾ فطرحها، ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ﴾ تتحرك، ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ كالثعبان الصغير في سرعتها، مع أنها كبيرة في حجمها، ﴿وَلَّىٰ﴾ ذهب، ﴿مُدْبِرًا﴾ خائفًا، وهذا أمرٌ لم يُنكر عليه؛ لأنه خوفٌ طبيعي، ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ لم يرجع حتىٰ ناداه الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ﴾ مما رأيت، ﴿إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ إذ أن الله عَزَّوَجَلَّ أمَّنهم من العقاب والبطش، وأما الخوف الذي هو الخشية وخوف العبادة فالنبي ﷺ يقول: **«وَاللهِ، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَعْلَمَكُمْ بِمَا أَتَّقِي»** متفق عليه عن عائشة.

(١١) ﴿إِلَّا﴾ لكن ﴿مَن ظَلَمَ﴾ نفسه بأي نوع من المعاصي، ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا﴾ توبة، ﴿بَعْدَ سُوٓءٍ﴾ ذنب، ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ﴾ متجاوز، ﴿رَّحِيمٌ﴾ في أمره المستقبل، فيغفر له الماضي، ويوفقه في المستقبل.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "هذا استثناء منقطع، وفيه بشارة عظيمة للبشر، وذلك أن من كان علىٰ عمل شيء ثم أقلع عنه، ورجع وأناب، فإن الله يتوب عليه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه:٨٢]. ، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[النساء:١١٠]، والآيات في هذا كثيرة جدا". اهـ

قال العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في تفسير سورة النمل:**

"فلو قال قائل: هل الأنبياء معصومون مطلقًا؟

قلنا لاشك أن الأنبياء لا يعصمون مما لا يخل بالرسالة من الذنوب؛ فالذي لا يخل بالرسالة والشرف والمروءة لا يعصمون منه، لكنهم يعصمون من الإقرار عليه، فلا بد أن يوفقوا للتوبة، وهذا هو الفرق بينهم وبين غيرهم، ويفرق بينهم وبين غيرهم من وجهين في مسألة الذنوب والمعاصي:

أولا: أن لا يمكن أن يصدر منهم ما يخل بالرسالة، مثل الكذب والخيانة ولا بالشرف والمروءة كالزنا وما أشبهه.

ثانيًا: أنه إذا وقع منهم ما يمكن وقوعه من المعاصي فإنهم لا يقرون عليه، لا بد أن يحصل لهم ما يوجب تركهم لهذا الشيء؛ لأنهم قدوة.

ولو أقروا علىٰ المعاصي لكانت المعاصي من شرائعهم، وأما القول بالعصمة مطلقا فلا وجه له فلا توجد عصمة مطلقة بل الصواب أنه يحصل منهم ما يحصل ولكنهم لا يقرون عليه. اهـ.

(١٢) ﴿وَأَدْخِلْ﴾ يا موسىٰ، ﴿يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ أي: عند نحرك والجيب: فتحة الثوب مما يلي العنق، وقيل: في جانبك، ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾ علىٰ خلاف لونها المعهود، ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ من غير مرضٍ أو بَرَصٍ ونحو ذلك، ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ يؤيده الله عَزَّوَجَلَّ بها، لعل فرعون وقومه أن يستجيبوا، وقد ذكرها الله سبحانه وتعالىٰ في سورة الأعراف، وأُشير إلىٰ بعضها في سورة الإسراء، وجمعت في قول بعضهم:

عَصًا سَنَةٌ بَحْرٌ جَرَادٌ وَقُمَّلٌ ... يَدٌ وَدَمٌ بَعْدَ الضَّفَادِعِ طُوفَانُ

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦ﴾ الملأ الذين حوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ كافرين.

(١٣) ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا﴾ البينات الواضحات، ﴿مُبْصِرَةً﴾ لا إشكال فيها ولا تعمية، ﴿قَالُوا۟﴾ رادين لها: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر واضح.

(١٤) ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا﴾ أنكروها ظاهرًا، ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ باطنًا، وكان جحدهم لها، ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ شركًا، وتكبرًا، وكفرًا، وعنادًا.

❁ وهذا دليل على أن فرعون حين قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات:٢٤]، كان يعلم أن الله هو الرب الأعلى؛ إنما قال ذلك مُكابرة.

﴿فَٱنظُرْ﴾ يا محمد: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾ نهاية ﴿ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ إذ دمَّرهم الله عَزَّوَجَلَّ وأغرقهم في اليَم.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾.

(١٥) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ داود الأب وسليمان الابن، ﴿عِلْمًا﴾ النبوة والكتاب، ﴿وَقَالَا﴾ جميعًا شكرًا لله على نعمه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فضلهم بالعلم والنبوة والحكم.

(١٦) ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ أي: النبوة والرسالة، فلا يتعارض مع حديث عائشة في الصحيحين رسول الله ﷺ: **«لَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَةٌ»** أخرجه مسلم، ﴿وَقَالَ﴾ سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ الذين حضروا عنده، ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ علمه الله فهم كلام الطير، ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي: مما يؤتاه الإنسان الذي مَنَّ الله عَزَّوَجَلَّ عليه، وإلا لم يؤتَ مُلكَ سبأ إلا بعد أن دخلت ملكة سبأ في حكمه ودينه. ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي أوتيه سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿لَهُوَ ٱلْفَضْلُ﴾ الرفعة والمكرمة ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ البين الظاهر.

❁ **وهذا دليل على أن كل لا تُفيد العموم المطلق**، كما ذهب إليه المعتزلة، حيثُ استدلوا بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الزمر:٦٢]، على أن القرآن مخلوق.

(١٧) ﴿وَحُشِرَ﴾ جُمِعَ، ﴿لِسُلَيْمَٰنَ﴾ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يُساقون ويُجمعون.

(١٨) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾ في طريقهم، ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾ ففهم سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ كلامها، وهذا من حِكْمَتها: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ ويكون في ذلك سبب هلاككم، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بوجودكم لصغر حجمكم.

وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ قَالَ: **«إِنَّ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَرَصَتْهُ نَمْلَةٌ، فَأَمَرَ بِقَرْيَةِ النَّمْلِ فَأُحْرِقَتْ، فَأَوْحَى اللهُ** عَزَّوَجَلَّ **إِلَيْهِ: أَفِي أَنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ، أَهْلَكْتَ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ تُسَبِّحُ؟»** أخرجه مسلم.

(١٩) ﴿فَتَبَسَّمَ﴾ سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ وهو دون القهقهة؛ فعن عائشة قالت: **«مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ مُسْتَجْمِعًا قَطُّ ضَاحِكًا حَتَّىٰ أَرَىٰ مِنْهُ لَهَوَاتِهِ إِنَّمَا كَانَ يَتَبَسَّمُ»** متفق عليه، وهذا شأن الأنبياء لا يُقهقهون في ضحكهم، حتىٰ تُرىٰ لهواتهم، فقال شاكرا لله عَزَّوَجَلَّ علىٰ نعمته، ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ﴾ ألهمني، ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ نِعَمَكَ، ﴿ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾ من النبوة والرسالة والملك الذي لا ينبغي لأحدٍ من بعدي، ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ حيث جعلته رسولًا وأمه صالحة، ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ عني، ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ﴾ توسل برحمة الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي اجعلني من جملتهم، وهذا يشمل أن يكون في الدنيا من الصالحين، وفي الآخرة مع الصالحين في الجنة.

❁ وفيه إثبات صفة الرضا لله عز وجل، علىٰ ما يليق بجلاله ولازمها الإحسان، فمن رضي الله عنه أحسن إليه، كما أن من غضب الله عليه انتقم منه، وطريقة أهل السنة؛ إثبات الصفة واللازم الحق، وطريقة أهل البدعة؛ إثبات اللازم ونفي الصفة.

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

(٢٠) ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾ أي: طلبها وبحث عنها، ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ لعله رئيس الهدهد، وما تقوله العامة من أن هذه الخطوط بسبب ضرب سليمان لا دليل عليه، ويذكرون أن الهدهد كانت له قدرة علىٰ طلب الماء، فتفقده ليدُلَّهُ علىٰ الماء، ﴿أَمْ﴾ بل ﴿كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ بغير إذن.

(٢١) ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قيل: بنتف ريشه وغير ذلك، ﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ جزاءَ فعلته، ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ حجة ظاهرة علىٰ سبب غيابه، ويذكر العلماء في هذا الموطن إسرائيليات لا نحتاج إليها.

(٢٢) ﴿فَمَكَثَ﴾ الهدهد وقتا ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ﴾ حين رجع إلىٰ سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مقدمًا لعذره، ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ بما لم تعلم به، ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ﴾ من أرضِ سبأ في اليمن، ﴿بِنَبَإٍ﴾ بخبر: ﴿يَقِينٍ﴾ لا إشكال فيه ولا لبس.

(٢٣) ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ ذهب أغلب المُفسرين وأصحاب التاريخ أنها (بلقيس بنت شراحيل) من نسل يعرب بن قحطان، وكان أبوها ملكًا عظيم الشأن، يملك أرض اليمن، فورثت ملكه، ﴿وَأُوتِيَتْ﴾ أعطيت، ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: مما يؤتاه الملوك، ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ أي: سرير الملك الذي تجلس عليه كبير وواسع.

(٢٤) ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا﴾ سبأ، ﴿يَسْجُدُونَ﴾ يعبدون ويصلون ﴿لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ السيئة والكفر الذي هم فيه، ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ عن الهدىٰ والطريق القويم، ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ لا يعلمون ما يتعين عليهم من الدخول في الإسلام.

(٢٥) ثم قال منكرًا عليهم: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾ ألا يكون سجودهم لله عَزَّوَجَلَّ، الذي من شأنه أنه، ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: الخفي المخبأ، ﴿وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾؟ وهذا كالمنكر عليهم، وكالحجة القويمة علىٰ ضلالهم.

(٢٦) ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا إله غيره ولا رب سواه، ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ﴾ صاحب العرش، والعرش سرير الملك، ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ الواسع.

❁ وقد أخطأ من فسره بالعلم أو الملك فإن العرش قد وصف بأنه محمول وأن له قوائم وأن له ظل وأنه سقف الجنة، وكل هذا مع غيره يرد هذا التفسير الباطل.

(٢٧) ﴿قَالَ﴾ سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿سَنَنظُرُ﴾ نتبين في قولك، ﴿أَصَدَقْتَ﴾ في قيلك، ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ لمجرد أن تسلم من العذاب المُهين.

(٢٨) ﴿اذْهَب﴾ أيها الهدهد، ﴿بِّكِتَٰبِي هَٰذَا﴾ كتاب كتبه يدعوهم فيه إلىٰ الإسلام، ﴿فَأَلْقِهْ﴾ اطرحه، ﴿إِلَيْهِمْ﴾ بين أظهرهم وعند ملكتهم، ﴿ثُمَّ تَوَلَّ﴾ تنح، ﴿عَنْهُمْ﴾ وكُن في مكان تسمع كلامهم، وترىٰ فِعالهم، ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ ماذا يكون من المرادة بينهم، هل يتمردون علىٰ شرع الله، أم ينقادون له.

﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم ۖ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

(٢٩) وفعل ما أمر به، وبعد أن قرأت الكتاب ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟﴾ وهم أشرف الناس وكبراؤهم كالوزراء ونحوهم، ﴿إِنِّىٓ أُلْقِىَ﴾ طرح ﴿إِلَىَّ كِتَٰبٌ﴾ مكتوب، ﴿كَرِيمٌ﴾ وهذا من رجاحةِ عقلها، إذ رأت فيه الدعوة إلىٰ الإسلام، ومصدر ببسم الله الرحمن الرحيم.

(٣٠) ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: هذا الكتاب، ﴿مِن سُلَيْمَٰنَ﴾ النبي الكريم، ﴿وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أي: مُفتتح بذلك.

(٣١) وفيه: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟﴾ تتكبروا وتتعاظموا وتترفعوا، ﴿عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ منقادين مستسلمين طائعين لرب العالمين.

(٣٢) ﴿قَالَتْ﴾ مشاورة لهم: ﴿يَا أَيُّهَا المَلأُ أَفْتُونِى﴾ شاوروني وأخبروني، ﴿فِى أَمْرِى﴾ الذي نزل بي، ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً﴾ فاعلةً ﴿أَمْرًا﴾ من أمور الملك في سلم أو حرب، ومنها الرد علىٰ رسالة سليمان عليه السلام، ﴿حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ أي: تحضرون، وتشاورون.

۞ وهذا دليل علىٰ رجاحةِ عقلها إذ أنها لم تنفرد بالرأي، فإن المنفرد بالرأي قد يلحقه الخسار، أو عدم الإدراك، ونحو ذلك، وقد قيل: (ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار).

والله عَزَّوَجَلَّ قد قال لنبيه: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران:١٥٩]، مع أنه غني عن مشورتهم؛ ولكن لتعويدهم علىٰ المشورة، ولتآلف قلوبهم، والملك إذا قام علىٰ المشورة والتعاون يلتأم شأنه، وإذا تفرد الملك بشأنه تنكر له الأتباع.

٣٣ ﴿قَالُوا﴾ الملاء من قومها: ﴿نَحْنُ أُوْلُوا﴾ أصحاب، ﴿قُوَّةٍ﴾ عظيمة وجيوش كبيرة، ﴿وَأُوْلُوا بَأْسٍ﴾ صبر ﴿شَدِيدٍ﴾ أي: في قتالنا، ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾ إن شئتِ الحرب الحرب، وإن شئتِ الرد عليه برسالةٍ: ﴿فَٱنظُرِي﴾ النظر هنا بمعنىٰ التفكر ﴿مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ وهذا من تمام طاعتهم لها.

٣٤ ﴿قَالَتْ﴾ وهذا من عظيم حكمتها: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾؛ لأن مرادهم العلو، فيسجنون الذين قبلهم، وربما قتلوهم ونكَّلوا بهم، ﴿وَجَعَلُوٓا أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ بعد أن كانوا ملوكًا يُصبحون عبيدًا وإماءً وأتباعًا، ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

❐ اختُلِفَ فِي قَائِلِ هَذَا:

- فقال بعضهم: هو قول الله عَزَّوَجَلَّ تقريرًا لقولها.

- وقال بعضهم: هو من قولها.

٣٥ ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ أي: للاختبار، ﴿فَنَاظِرَةٌ﴾ منتظرة.

۞ وهذا دليل علىٰ أن النظر إذا عُدِّيَ بـ(إلىٰ) فهو نظر العين، وإذا عُديَ بنفسه فهو الانتظار، وإذا عدي بـ(في) فهو التفكر.

۞ وفي هذا ردٌّ علىٰ المبتدعة الذين جعلوا معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ علىٰ الانتظار.

﴿بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ من الجواب من عند سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

٣٦ ﴿فَلَمَّا جَاءَ﴾ رسولها إلىٰ ﴿سُلَيْمَانَ﴾ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، بما معهم من الهدايا ﴿قَالَ﴾ سليمان، ﴿أَتُمِدُّونَنِ﴾ تُعطوني، ﴿بِمَالٍ﴾ وأنا في غُنْية عنه، ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ﴾ أعطاني، ﴿ٱللَّهُ﴾ من الملك

العظيم الواسع والنبوة والرسالة، ﴿خَيْرٌ﴾ أفضل ﴿مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ وأعطاكم، ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ﴾ وبما جئتم به، ﴿تَفْرَحُونَ﴾؛ لأن شأنهم حب الدنيا.

﴿٣٧﴾ ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ يعني: بالهدية وبرسالة أخرىٰ، ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ من الجن والإنس والطير، ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ﴾ أي: من أرضهم، ﴿أَذِلَّةً﴾ حقراء، ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ ذليلون إن لم يأتوا مسلمين، وفي حديث ابن عمر في مسند أحمد قال رسول الله ﷺ: **«وَجُعِلَ الذُّلُّ وَالصَّغَارُ عَلَىٰ مَنْ خَالَفَ أَمْرِي»**، فرجعوا إليها فتم الاتفاق علىٰ اللحوق بسليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿٣٨﴾ فـ﴿قَالَ﴾ سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد أن أخبر أنها ستأتي مؤمنة منقادة بقومها ومن معها: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ﴾ يستشير جلساءه: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾ بكرسيها الذي تجلس عليه، وبسريرها العظيم، ﴿قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ مؤمنين منقادين طائعين؟ والله أعلم في السبب الذي من أجله طلب عرشها، مع أن بعضهم جاء ببعض التأويلات؛ لكن لا أظن يثبت من ذلك شيء، لعله أراد أن يُريها آية عظيمة مَكَّنَهُ الله من عرشها، أو أنه أمارة علىٰ إسلامها.

﴿٣٩﴾ ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ وهو المارد القوي، ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ من مجلسك، وكان يقوم بالظهيرة، ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ﴾ أي: علىٰ حمله، ﴿لَقَوِيٌّ﴾ بحيث لا يُعجزني حمله، ﴿أَمِينٌ﴾ علىٰ ما فيه من الجواهر وغير ذلك.

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

❐ اختَلَفُوا فِيهِ:

- فقال بعضهم: هو جبريل.
- وقيل: هو ملك من الملائكة أيد الله به نبيه سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ .
- وقال بعضهم: هو رجل يُسمىٰ آصب بن برخيا، آتاه الله الاسم الأعظم.

وقيل غير ذلك.

وأما القول بأنه ساحر، فهذا من أسوأ الأقوال وأبعدها، فلم يكن لسليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يرضىٰ السحر أو يستعين بساحرٍ.

﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ﴾ يرجع ﴿إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ ترمش عينك، وهذا من عظيم قدرة الله عَزَّوَجَلَّ، قال سعيد بن جبير: يعني: من قبل أن يرجع إليك عكسًا وطرفك أن يصل إليك من كان منك علىٰ مدِّ بصرك، قال قتادة: قبل أن يأتيك الشخص بمد البصر، وقال مجاهد: يعني: إدامة النظر حتىٰ يرتد الطرف خاسئًا، وقال وهب تمد عينيك فلا ينتهي طرفك إلىٰ مداه حتىٰ أمثله بين يديك.

﴿فَلَمَّا رَءَاهُ﴾ أي: سليمان رأىٰ العرش؛ ﴿مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ محمولًا إليه من مأرب إلىٰ الشام، ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾ العظيم الواسع، ﴿لِيَبْلُوَنِىٓ﴾ يختبرني، ﴿ءَأَشْكُرُ﴾ نعمه العظيمة، ﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾ لا أُضيفها إليه، ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ ونفع ذلك له كما قال تعالىٰ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم:٧]، ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ﴾ عن شكره، ﴿كَرِيمٌ﴾ واسع العطاء، فقد يتجاوز عنه إن كان من المؤمنين مع تقصيره، وقد يأخذه أخذ عزيزٍ مقتدر، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار:٦].

﴿قَالَ﴾ سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا﴾ أي: غيروا بعض أوصافه، ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ﴾ إليه، ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ الجاهلين الذين لا يُميزون.

﴿٤٢﴾ ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ لم تقل: هو خوفًا من التكذيب، مع أنها رأت الأمارات التي عليه، ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ﴾ الإسلام والنبوة، ﴿مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ منقادين لرب العالمين.

﴿٤٣﴾ ﴿وَصَدَّهَا﴾ صرفها عن الإيمان، ﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الشمس والقمر، ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ جاحدين لعبادة الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿٤٤﴾ وبعد ما جرىٰ بينهما من الحديث: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ﴾ القصر وساحته.

وما جاء أنه أراد أن ينظر إلىٰ قدميها، وأن رجليها كانت كحافر الحِمار، أو أنها كانت شعراء الساقين كله من الإسرائيليات، والذي يظهر أنها كانت ملكة كريمة جميلة عظيمة الشأن كما هو حال بنات الملوك.

﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ﴾ أي: الصرح، ﴿حَسِبَتْهُ﴾ ظنته ﴿لُجَّةً﴾ ماء غزيرًا، ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ خشية البلل لثيابها، ﴿قَالَ﴾ لها عند ذلك سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ﴾ مملوس ومسوىٰ ومبلط ﴿مِّن قَوَارِيرَ﴾ زجاج شفاف بنته الجن، ﴿قَالَتْ﴾ مقرة بالإسلام، ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ بالكفر والشرك ﴿وَأَسْلَمْتُ﴾ أي: وحدت وانقدت ﴿مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: استسلمت لله ولشرعه، وهذا من توفيق الله لها.

واختلفوا في أمرها بعد إسلامها، قال عون بن عبد الله: سأل رجلٌ عبد الله بن عتبة: هل تزوجها سليمان؟ قال: انتهىٰ أمرها الىٰ قولها: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ولا علم لنا بما وراء ذلك، وذهب بعضهم أنه زوجها قيل من أقيال اليمن، والله أعلم.

❁ وقد يحتج محتج بهذه القصة علىٰ ولاية المرأة الولاية العامة، وهذا لا يجوز في شريعتنا، وليس عندنا ما يدل أنها بقيت علىٰ ملك قومها بعد إسلامها، وإن قلنا ببقائها فشرع من قبلنا ليس شرع لنا علىٰ الصحيح من أقوال أهل العلم.

فعن أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَقَدْ نَفَعَنِي اللهُ بِكَلِمَةٍ سَمِعْتُهَا مِنْ رَسُولِ اللهِ أَيَّامَ الجَمَلِ، بَعْدَ مَا كِدْتُ أَنْ أَلْحَقَ بِأَصْحَابِ الجَمَلِ فَأُقَاتِلَ مَعَهُمْ، قَالَ: لَمَّا بَلَغَ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنَّ أَهْلَ فَارِسَ، قَدْ مَلَّكُوا عَلَيْهِمْ بِنْتَ كِسْرَىٰ، قَالَ: «**لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً**» **اخرجه البخاري (٤٤٢٥).**

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿٤٥﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ﴾ وهم قوم صالح، وكانوا شمال الجزيرة، ﴿أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ وكانت دعوته لهم: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحدوه، ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ في صالح وفي دعوته، ﴿فَرِيقَانِ﴾ طائفتان مؤمن وكافر ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ يتجادلون، والخِصام والجدال بالحق لا بأس به، وهو الذي ذكره الله في سورة الأعراف: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف:٧٥-٧٦].

﴿٤٦﴾ ﴿قَالَ﴾ صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ الشدة والعذاب، ﴿قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ الرخاء والخير، ﴿لَوْلَا﴾ هلا ﴿تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ﴾ بالتوبة من كفركم، والعودة إلىٰ رشدكم، ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ في دنياكم بطمأنينة البال وصلاح الحال، وفي أخراكم بالجنة.

﴿٤٧﴾ ﴿قَالُوا﴾ معارضين لدعوته، ﴿اطَّيَّرْنَا﴾ تشاءمنا، وأصلها تطيرنا، وفي حديث ابن مسعود قال رسول الله ﷺ: **«الطيرة شركٌ، الطيرة شركٌ، الطيرة شركٌ»** أخرجه أحمد.

﴿بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ من المؤمنين، ﴿قَالَ طَائِرُكُمْ﴾ حظكم ورزقكم وخيركم وشركم، ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ مكتوبٌ ومقدر عليكم، ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ الواقع أنكم تُختبرون وتُعذبون إن لم تستجيبوا لدعوةِ نبيكم ﷺ.

﴿٤٨﴾ ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ مدينة ثمود وهي الحجر، ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ من أبناء أشرافهم، ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ يُفسدون بالشرك والسعي في الباطل، ومن ذلك عقر الناقة.

﴿٤٩﴾ ﴿قَالُوا﴾ حين جلوسهم للمكر لذلك المقصد، ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ﴾: أي: تحالفوا، ووضعوا الأيمان والعهود، ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ﴾ لنقتلنه بالبيات بليل أي: صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿وَأَهْلَهُ﴾

معه، ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ﴾: أي: لِوَلِيِّ دَمِهِ من عاقلته ونحوهم: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾: ما حضرنا ولا نظرنا، وهم في ذلك كاذبون، ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾: في قولهم ما شهدنا، ومع ذلك خيَّبَ الله مكرهم وبوَّره.

٥٠ ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا﴾ بصالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومن معه من المؤمنين، ﴿وَمَكَرْنَا﴾: أي: مكر الله عَزَّوَجَلَّ بهم ﴿مَكْرًا﴾: كُبَّارًا عظيمًا، فأتىٰ عليهم، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بمكر الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق:١٥-١٦].

ويُستدل بهذه الآية علىٰ ما يُسمىٰ بصفات المقابلة، فلا يوصف الله عَزَّوَجَلَّ بالمكر والكيد مطلقًا، كما لا يُنفىٰ عنه مُطلقًا، ولكن يمكر بالماكرين ويكيد بالكائدين.

٥١ ﴿فَٱنظُرْ﴾ يا محمد ومن معك من المؤمنين ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾ ونهاية ﴿مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ﴾ بالصيحة ﴿وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ [الشمس:١٥-١٦].

الجزء العشرون

٥٢ ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ﴾ شاهدة علىٰ إهلاك الله لهم، ﴿خَاوِيَةً﴾ خالية، ﴿بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾ كفروا وأشركوا، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الذي لحقهم من العذاب ﴿لَءَايَةً﴾ علامة، وحجة، وعبرة، ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أن قدرة الله عَزَّوَجَلَّ نافذة في إهلاك الظالمين.

٥٣ ﴿وَأَنجَيْنَا﴾ سلمنا من العذاب ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ أنجاهم بسبب إيمانهم، وحسن عبادتهم بفعل المأمور، وترك المحظور.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٥٤ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝٥٥ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝٥٦ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٥٧ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝٥٨﴾.

٥٤ ﴿وَلُوطًا﴾ وذاكر لوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾: وهم قرية سُدُّوم، ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾: وهي اللواط: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾: الحجج القويمة علىٰ فسادِ فعلكم.

٥٥ ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ بالمعاشرة، ﴿شَهْوَةً﴾ رغبة ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ اللاتي خلقهن الله لمقاصد ومنها الاستمتاع، والقلوب السلمية، والفِطَر المستقيمة تبغض صنيع قوم لوط

حتىٰ الحيوان البهيم لا يأتي ذلك إلا ما ندر، ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ قدرة الله عليكم، وسوء فعلكم.

٥٦ ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ رادين لدعوته، ﴿إِلَّا أَن قَالُوا﴾؛ متكبرين متجبرين: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ وما ذنبهم؟ ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ يتنزهون عن الفاحشة، وهكذا يصير حال الإنسان إن تغيرت فطرته، وعدم إيمانه يعيرالمستقيم باستقامته، وصاحب المروءة بمروءته.

٥٧ ﴿فَأَنجَيْنَاهُ﴾ سلمناه ﴿وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾؛ لأنها لم تكن علىٰ الإيمان، ﴿قَدَّرْنَاهَا﴾ قضينا عليها أنها ﴿مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ الهالكين؛ لنفاقها وسوء فِعالها.

٥٨ ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ من حجارة، ﴿فَسَاءَ﴾ بئس، ﴿مَطَرُ﴾ المطر الذي أهلكنا به ﴿الْمُنذَرِينَ﴾ المُخوفين برب العالمين، فأبوا إلا الكفر والعناد.

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

٥٩ ﴿قُلِ﴾ يا محمد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أمره الله أن يحمده علىٰ عظيم نِعَمه، وعظيم فعله بإعزاز المؤمنين وإذلال الكافرين، ﴿وَسَلَامٌ﴾ سلامة وسلام، ﴿عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾؛ من الأنبياء والمُرسلين والصالحين، ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ هذا علىٰ الإنكار عليهم، والمعنىٰ: أن الله سبحانه وتعالىٰ خير في صفاته وأفعاله، وفي جميع شأنه، وهذه من المناظرة

للمشركين؛ لإثبات ألوهية الله عَزَّوَجَلَّ بتقريرهم بإثبات ربوبية الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ من الأصنام والأوثان التي لا تُغني عنهم شيئًا، ولا تجلب لهم نفعًا ولا تدفع عنهم ضرًّا.

٦٠ واسألهم ﴿أَمَّنْ﴾ من ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ السحاب، ﴿مَاءً﴾ مطرًا، ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ﴾: بساتين، ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ منظر حسن، ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾: ما ينبغي لكم ولا تستطيعون ذلك، كما قال تعالىٰ: ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة:٦٤]، ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ يُشاركه في ملكه، ويُشاركه في ألوهيته؟ لا إله معه، ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ يميلون عن الحق، ومنه أنهم يُشركون، ويُساوون بالله عَزَّوَجَلَّ غيره.

٦١ ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ ثابتة لا تميدُ بأهلها، ولا تتحرك، ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾ يستفيدُها الناس في سقيهم وجلب منافعهم، ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ﴾: جبالًا شامخات، ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾: المالح والعذب، ﴿حَاجِزًا﴾: مانعًا من الاختلاط، ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ توحيد ربهم وعظيم شأنه.

٦٢ ﴿أَمَّن يُجِيبُ﴾ دعوةَ، ﴿ٱلْمُضْطَرَّ﴾ المكروب المجهود، ﴿إِذَا دَعَاهُ﴾ في حال شدته وكربته، ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ الغم والهم الذي نزل به، ﴿وَيَجْعَلُكُمْ﴾ يُصيركم، ﴿خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ تأكلون وتشربون وتتنعمون فيها، ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون كقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣].

٦٣ ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ﴾ يُرشدكم، ويدلكم، ويوفقكم، ﴿فِى ظُلُمَٰتِ﴾ الليل حين تمشون في ﴿ٱلْبَرِّ﴾ الأرض اليابسة، ﴿وَٱلْبَحْرِ﴾ الماء، وقيل: ﴿ٱلْبَرِّ﴾ القرىٰ، ﴿وَٱلْبَحْرِ﴾ المُدن، والأول أظهر.

﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا﴾ مبشرة بالرحمة، سائقة للسحاب، ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ المطر، وفي حديث أنس، قال: كان إذا نزل المطر قال النبي ﷺ: «رَحْمَةٌ» أخرجه مسلم، ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَىٰ﴾ تعاظم ﴿ٱللَّهُ﴾ عَزَّوَجَلَّ ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ويُنددون.

(٦٤) ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ ويُنشئ النشأة الأولىٰ، ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ يبعثكم بعد الموت، ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم﴾ يُعطيكم، ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ المطر ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ الثمر وغيره ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ حجتكم، ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ولا حجة لهم.

(٦٥) ﴿قُل﴾ لهم يا محمد: ﴿لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ﴾ المطلق، ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ يعلمون ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ متىٰ تكون الساعة ويُخرجون من قبورهم.

وفي هذا ردٌّ علىٰ السحرة ومن إليهم، الذين يدعون علم الغيب المطلق، ورد علىٰ الصوفية ومن إليهم، الذين يدعون في النبي ﷺ أنه يعلم الغيب المطلق، ومن قولهم:

فَإِنَّ مِنْ جُودِكَ الدُّنْيَا وَضَرَّتَهَا ... وَمِنْ عُلُومِكَ عِلْمُ اللَّوْحِ وَالْقَلَمِ

ورد علىٰ الرافضة الذين يغلون في علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأنه عليمٌ بذات الصدور، وهكذا يغلون في أئمتهم ومن إليهم أنهم يعلمون الغيب وما في الصدور؛ نعوذ بالله من الضلال البعيد.

(٦٦) ﴿بَلِ﴾ الواقع، ﴿ٱدَّٰرَكَ﴾ تكامل واستحكم ﴿عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ وهذا علىٰ التهكم بهم، ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا﴾ من البعث والنشور، ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ عمىٰ القلب والبصائر.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾.

(٦٧) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مُنكرين للبعث والنشور: ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا﴾ بعد موتنا، ﴿وَآبَاؤُنَا﴾ كذلك صاروا ترابًا، ﴿أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾؟ من قبورنا إلىٰ البعث والنشور؟.

(٦٨) ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا﴾ بالبعث والنشور ﴿نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا﴾ أي: ما هذا، ﴿إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ أحاديثهم وأكاذيبهم.

(٦٩) ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿سِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ في أقطارها تعلموا قبح تكذيبكم، ﴿فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ دمَّرَ الله عليهم وأهلكهم أجمعين.

٧٠ ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ بسبب كفرهم وتكذيبهم، ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ﴾ ضيقِ حالٍ وصدرٍ، ﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ بك وبدينك وبأتباعك، فإن الله عَزَّوَجَلَّ يمكر بهم ويكيدهم.

❁ وفي هذا دليل أن الداعي إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ قد ينزل عليه شيء من الحزن والضيق بسبب المعارضة، لكن ليتأسىٰ بالنبي ﷺ، ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه:١٣٢].

٧١ ﴿وَيَقُولُونَ﴾ من باب التكذيب والاستبعاد، ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ البعث والنشور، ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في قولكم.

٧٢ ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿عَسَىٰ أَن يَكُونَ﴾ البعث والنشور، ﴿رَدِفَ﴾ اقترب ووصل، ﴿لَكُم﴾ لحقكم ووصل إليكم ﴿بَعْضُ﴾ العذاب ﴿ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ كما وقع عليهم يوم بدر.

٧٣ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ علىٰ أهلِ مكة وغيرهم، إذ لم يُعاجلهم بالعقوبة، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ بل يكفرون ويضيفون النعم إلىٰ غيره.

٧٤ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ﴾ تُخفي، ﴿صُدُورُهُمْ﴾ قلوبهم، ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ لك، ويُجاهرون به.

٧٥ ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ﴾ سر وأمرٍ خفيٍّ مكتوم، ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ وهو اللوح المحفوظ.

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾﴾.

٧٦ ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ الذي أنزله الله علىٰ محمد ﷺ، ﴿يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يُبيِّنْ لهم، ﴿أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ سواءً في شأن عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أو في غير ذلك من الشؤون.

٧٧ ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن، ﴿لَهُدًى﴾ دالٌّ إلىٰ الخير والرشاد، ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ العاملين به لما فيه من الأحكام والقصص والأخبار، ويكون سببًا لرحمة المؤمنين وإعزازهم ورفعتهم.

٧٨ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى﴾ يحكم ﴿بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ﴾ وهو سبحانه وتعالىٰ الحكم العدل، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُغلب، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بجميع شأنه.

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿٧٩﴾ ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ اعتمد عليه واستعن به، وهذا مقتضىٰ، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، كما قال تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:٢٣]، ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ﴾ الثابت الصدق، ﴿الْمُبِينِ﴾ البين الواضح.

﴿٨٠﴾ ﴿إِنَّكَ﴾ يا محمد إنما أنت مذكر، و﴿لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ الكفار الذين ماتت قلوبهم بسبب كفرهم وبغيهم، ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ ولا تسمع من أصم الله سمعه عن قبول الحق، وحاله كحال الأصم في حال إدباره لا يسمع دعوىٰ ولا يرىٰ حركة، وهذا من غاية البلاغة، فإن المُقبل قد يراك بعينه، ويفهم منك بعض ما تُشير به؛ لكن الأصم المُدبر أنت تُناديه وهو لا يسمع منك صوتًا، ولا يرىٰ لك حركةً، ولا يجدُ منك حِسًّا.

﴿٨١﴾ ﴿وَمَا أَنْتَ﴾ يا محمد: ﴿بِهَادِي﴾ بموفق ﴿الْعُمْيِ﴾ الذين عموا عن الهدىٰ؛ للغشاوة التي جعلها الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ أعينهم، فهم لا يُبصرون، ولا ينزجرون، ﴿عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ عن خطائهم وهلاكهم، ﴿إِنْ﴾ ما ﴿تُسْمِعُ﴾ وتفهم، ﴿إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ المُراد بها الشرعية، ﴿فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ مستسلمون منقادون لرب العالمين.

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿٨٢﴾ ﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذَا وَقَعَ﴾ وجب وحق ﴿الْقَوْلُ﴾ العذاب ﴿عَلَيْهِمْ﴾ لكفرهم وبغيهم فجاءت أمارات الساعة الكُبْرىٰ، ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ﴾ حيوان، الله أعلم بماهية وشكله، ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ ويفهمون كلامها، ومن كلامها: ﴿أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ أو أنه جُملة مستأنفة، تُكَلِّمُهُم، ثم الجملة: ﴿أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾، وقد جاء في ذكرها

أحاديث؛ منها: حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سِتًّا: طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، أَوِ الدُّخَانَ، أَوِ الدَّجَّالَ، أَوِ الدَّابَّةَ، أَوْ خَاصَّةَ أَحَدِكُمْ أَوْ أَمْرَ الْعَامَّةِ**»، أخرجه مسلم، وحديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عند مسلم، قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ أَوَّلَ الْآيَاتِ خُرُوجًا، طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ عَلَى النَّاسِ ضُحًى، وَأَيَّتُهُمَا مَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا، فَالْأُخْرَى عَلَى إِثْرِهَا قَرِيبًا**» أخرجه مسلم.

❁ وفي هذا الحديث دلالة أن الدابة تكون بعد طلوع الشمس من مغربها؛ لأنه أخبر أنها تخرج ضحىٰ، وطلوع الشمس من مغربها يكون في الصباح، وهي تختم علىٰ المُكلف: مُسلم، كافر.. فبعد ذلك يتنادىٰ الناس: يا مسلم يا كافر.

٨٣ ﴿وَ﴾ اذكر يا محمد: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ﴾ نجمع، ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ طائفة، ﴿فَوْجًا﴾ جماعة، ﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: يجتمعون، ثم يُساقون إلىٰ مكان حسابهم.

٨٤ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾ مكان حسابهم، ﴿قَالَ﴾ الله لهم: ﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى﴾ وشرعي الذي أوحيته إلىٰ رسلي دالٌ علىٰ توحيدي وحقي، ﴿وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا﴾ لم تعرفوها حق معرفتها، ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يعني: علىٰ الإنكار، ما السبب الذي جعلكم تهملون هذه الآيات الشرعية.

٨٥ ﴿وَوَقَعَ﴾ نزل بهم ﴿ٱلْقَوْلُ﴾ العذاب الذي أوجبه الله ﴿عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟﴾ بسبب كفرهم وشركهم بالله وتكذيب آياته، ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ لا ينطقون كما قال تعالىٰ: ﴿هَـٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ۝٣٦﴾ [المرسلات٣٣-٣٦]، وقد تقدم أنهم يتكلمون في بعض المواطن: ﴿وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ﴾ [الزخرف:٧٨].

٨٦ ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا﴾ خلقنا، ﴿ٱلَّيْلَ﴾ المُظلم ﴿لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ عن الحركة والعمل، ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ يخرجون فيه لمعائشهم، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ﴾: علاماتٍ، ودلائل، وحجج، ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بكمال قدرة الله ووحدانيته.

٨٧ ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ القرن العظيم الذي ينفخ فيه إسرافيل، ﴿فَفَزِعَ﴾ خاف خوفًا يتبعه الموت ﴿مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من المخلوقات المربوبات، ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ عدم فزعه.

❐ اِخْتَلَفُوا فِي هَذَا الاستِثْنَاءِ، وَفِيمَنْ اسْتَثْنَاهُمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

أو يكون علىٰ ما تقدم أنه من باب التبرك بذكر الله عَزَّوَجَلَّ، أو قومٌ استثناهم الله من ذلك.

كإسرافيل.

وقال بعضهم: ميكائيل وجبرائيل ونحو ذلك.

أو من كانوا في الجنة من الحور العين والخدم الذين خلقهم الله عَزَّوَجَلَّ لخدمةِ المؤمنين.

﴿وَكُلٌّ﴾ أي: الجميع، ﴿أَتَوْهُ﴾ للحشر ﴿دَاخِرِينَ﴾ صاغرين مُهانين، كقوله: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم:٩٥].

❁ والنفخ في الصور نفختان الأولىٰ نفخة الصعق، والثانية نفخة البعث والنشور، وبعضهم يجعلها ثلاثاً، والذي يظهر الأول.

٨٨ ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ﴾ الراسيات الشامخات، ﴿تَحْسَبُهَا﴾ تظنها، ﴿جَامِدَةً﴾ قائمة واقفة، ﴿وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ أي: تسيرُ سير السحاب، وهذا علىٰ أحوال، فالجبال في أول مبدأها تكون ثوابت علىٰ الأرض، ثم يوم القيامة في مبدأ سيرها يظن الناس أنها ثابتة، وهي تمر، ثم يرون حركتها كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير:٣]، ثم تُنسف كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ [المرسلات:١٠]؛ فتصير ﴿كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾، ثم بعد ذلك يُرىٰ أماكن الجبال كالسراب، كما قال الله ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ ثم لا يرىٰ لها أثر كما قال الله تعالىٰ: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه:١٠٧].

وذهب بعضهم إلىٰ أن الآية دالة علىٰ دوران الأرض، وهذا من جهلهم، ومن سوء تفسيرهم، وإلا فالآية في شأن يوم القيامة.

﴿صُنْعَ﴾ خلق ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ﴾ أحكم ﴿كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ ويجازيكم علىٰ أعمالكم.

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿٨٩﴾ ﴿مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ﴾ التوحيد، ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾: أي: في الأجر والمثوبة، ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ﴾ من خوف، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة، ﴿آمِنُونَ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٣].

﴿٩٠﴾ ﴿وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ﴾ الشرك، ﴿فَكُبَّتْ﴾ طرحت، ﴿وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾: منكوسة ويقال لهم: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ في ذلك اليوم، ﴿إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من الشرك والبواطن.

﴿٩١﴾ قل لهم يا محمد: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ﴾ مكة، ﴿الَّذِي حَرَّمَهَا﴾: جعلها حرمًا آمنًا، ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ من المخلوقات المربوبات، ﴿وَأُمِرْتُ﴾ أمرني الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ المنقادين لرب العالمين.

﴿٩٢﴾ ﴿وَ﴾ أمرني عَزَّوَجَلَّ ﴿أَنْ أَتْلُوَ﴾ أقرأ، ﴿الْقُرْآنَ﴾، لما في ذلك من البركة العظيمة والأجور الكثيرة، والسلامة من همزات الشياطين، فإن الله عَزَّوَجَلَّ أكرم هذه الأمة بهذا الكتاب العظيم، والوحي الكريم الذي هو كلامه وصفته.

فعن عَبْدِ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لاَ أَقُولُ الْم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلاَمٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ»**. أخرجه الترمذي (٢٩١٠) والراجح وقفه، وله حكم الرفع.

وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: **«مَا أَذِنَ اللهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ حَسَنِ الصَّوْتِ يَتَغَنَّىٰ بِالْقُرْآنِ، يَجْهَرُ بِهِ»** أخرجه البخاري.

﴿فَمَنِ اهْتَدَى﴾: استجاب وانقاد، ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ نفعُ ذلك لنفسه، ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عن الهدىٰ وانحرف عن السبيل: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾: المُبلغين المُخوفين عن دين

رب العالمين، كما قال تعالىٰ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية:٢١-٢٢].

﴿٩٣﴾ ﴿وَقُلِ﴾ يا محمد ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ علىٰ عظيم نِعَمِهِ وجزيل مِنَنِهِ، ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الشرعية والكونية، ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾ حين لا ينفعكم المعرفة، إلا من استجاب قبل ذلك وتاب الله عليه، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بل هو مطلع علىٰ جميع شأنكم لا تخفىٰ منكم خافية، وهذا وعد ووعيد؛ وعد في حق المؤمنين، ووعيد في حق الكافرين المُعرضين.

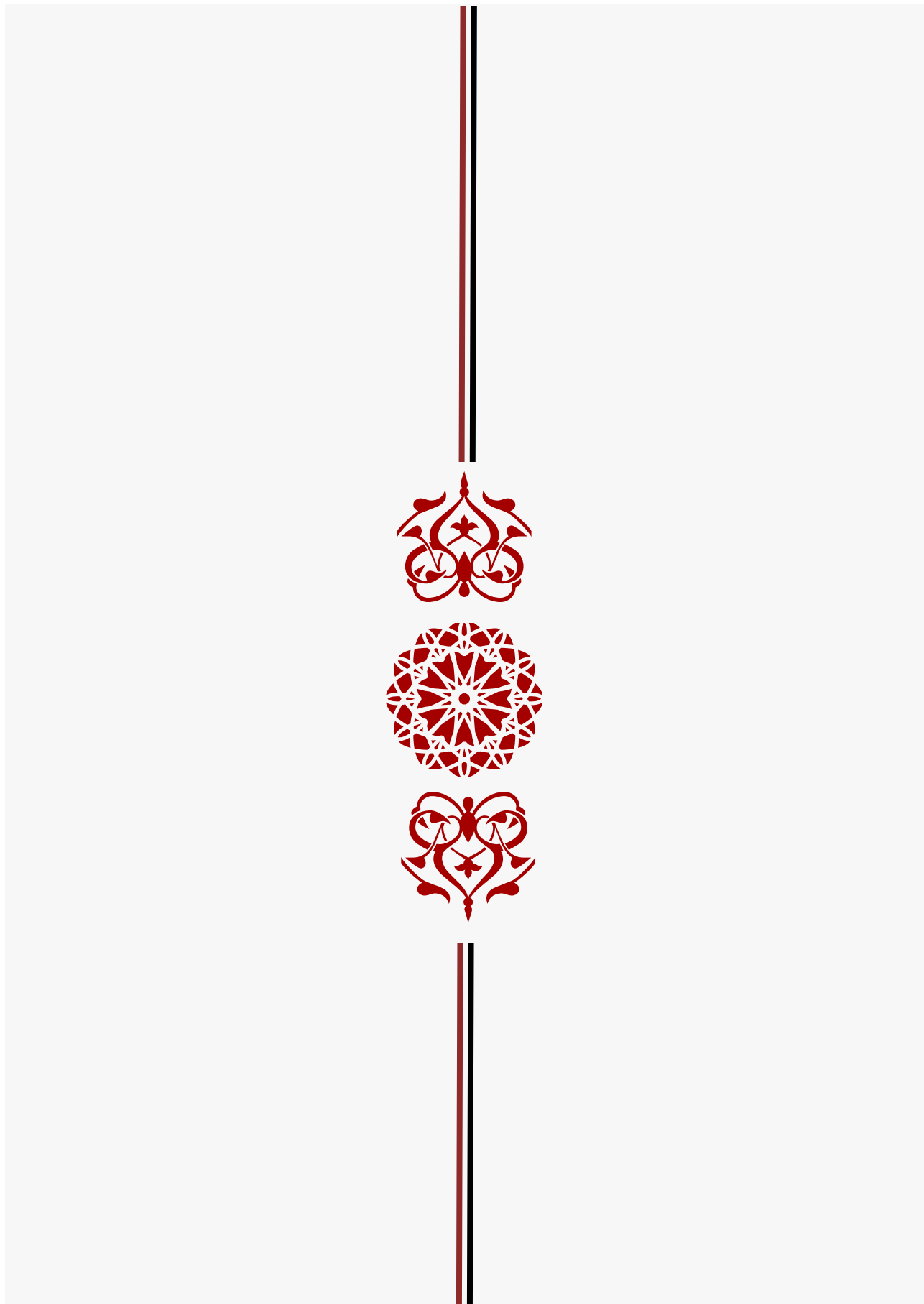
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ النَّمْلِ



تَفْسِيرُ سُورَةِ الْقَصَصِ





سُورَةُ الْقَصَصِ

مَكِّيَّةٌ.

إلا قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ [القصص:٥٢]، إلىٰ قوله: ﴿لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص:٥٥]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص:٨٥].

وَآيَاتُهَا ثَمَانِيَةٌ وَثَمَانُونَ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طسم ۝١ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ۝٦﴾.

١ ﴿طسم﴾.

٢ ﴿تِلْكَ﴾ هذه ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ القرآن، ﴿الْمُبِينِ﴾ البينة الواضحة.

٣ ﴿نَتْلُوا﴾ نقرأ، ﴿عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ﴾ خبر، ﴿مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ﴾ الثابت الواقع، ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يُصدقون وينقادون، وكان الشأن.

٤ ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا﴾ تجبر وتكبر، ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أرض مصر، ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ طوائف وفِرَقًا، ﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ﴾ يراهم ضعافًا، وهم بنوا إسرائيل، ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ خوفًا أن يكون منهم النبي الذي ينتهي ملكه علىٰ يديه؛ ﴿وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ يُبقيهن أحياء للخدمة والامتهان: ﴿إِنَّهُ كَانَ﴾ بهذا الفعل، ﴿مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾؛ المخالفين لشرع رب العالمين.

٥ ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ﴾ بالعطاء والخير ﴿عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾ من بني إسرائيل، ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾: يُقتدىٰ بهم في الخير، وملوكًا بعد أن كانوا عبيدًا، ﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ لأرض مِصْر، وهذا وعدُ الله للمؤمنين في كل حين كما قال تعالىٰ ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:١٢٨].

٦ ﴿وَنُمَكِّنَ﴾ نوطن ﴿لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أرضِ مصر والشام، ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ﴾ وزيره، ﴿وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ ما كانوا يتقون من أن المُلك يصير في بني إسرائيل.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَٰطِـِٔينَ ۝٨ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١١ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ۝١٢ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٣﴾.

٧ ﴿وَ﴾ اذكر إذ، ﴿أَوْحَيْنَا﴾ إلهام لا نبوة، ﴿إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ حين وضعت جنينها، الذي ولد في سنة قتل الأولاد، ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ من فرعون وقومه أن يقتلوه أو يذبحوه، ﴿فَأَلْقِيهِ﴾: اطرحيه، ﴿فِي الْيَمِّ﴾ البحر، والمراد به هنا النيل، ﴿وَلَا تَخَافِي﴾ عليه، ﴿وَلَا تَحْزَنِي﴾ ولا تجزعي علىٰ فراقه، ﴿إِنَّا رَادُّوهُ﴾ سنرجعه، ﴿إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ﴾ في حال كبره، ﴿مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ المبلغين لدين رب العالمين.

٨ ﴿فَالْتَقَطَهُ﴾ أخذه، ﴿آلُ فِرْعَوْنَ﴾ من اليم، ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ﴾ اللام لام العاقبة؛ ﴿عَدُوًّا﴾ يُبيِّن عوار دينهم، ﴿وَحَزَنًا﴾؛ يلحقهم بسببه الحَزَن، ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ مُشركين عاصين آثمين.

٩ ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ﴾ حين رأته، وهي آسية بنت مزاحم: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ﴾ أي: اتركه، تُقر به عيني وعينك، ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا﴾: يكون لهم كالحَفَد والخَوَل، ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ بتبنيهم له، ففعلوا ذلك وتركوه، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أن هلاكهم علىٰ يديه، فاستحياه فِرعون وألقىٰ الله عليه محبته.

❁ **وفي شرعنا لا يجوز التَّبني حيث ينسبه إليه ويورثه منه**، وكان هذا الأمر فاشيًا في الجاهلية، فنسخه الإسلام، علىٰ ما يأتي في سورة الأحزاب؛ ولكن في مثل هذا الحال له أن يأخذه ويربيه ويحسن إليه، وله أحكام اللقيط.

❐ وَنَذْكُرُ فِي هَذَا الْمَوطِنِ بَعْضَ أَحْكَامِ اللَّقِيطِ لِلْفَائِدَةِ.

و(اللقيط) وهو الطفل إذا وجد صغيرًا، وخشيت عليه الضيعة لعدم وجود من يقوم به.

فمن الإحسان أن يؤخذ، ويُربىٰ، ويحسن إليه، بل قد يجب إن خُشي عليه الهلكة والضياع، فإن في ذلك إحياء نفسه .

ولا يجوز أن ينسب اللقيط إلىٰ الاقط، ولا يرث منه .

واللقيط حر في قول جماهير أهل العلم، إن لم يكن محل إجماع .

وتجب نفقته علىٰ بيت مال المسلمين، فإن لم يكن لهم بيت مال فعلىٰ المسلمين، وإن قام به البعض أجزأ عن بقيتهم .

ويكون إرثه لبيت مال المسلمين، وإن كان له ورثة فهو لورثته من كانوا .

وجناية اللقيط تكون علىٰ بيت مال المسلمين، إن لم يكن متعمدًا، ولم تكن له عاقلة.

واللقيط ليس بمحرم لمن تربىٰ عندهم، إلا إذا كان اللقيط صغيرًا دون السنتين، وأرضعته المرأة التي تربىٰ في بيتها، فيكون ابنًا لها من الرضاعة، ويكون لأبنائها أخًا من الرضاعة، ونحو ذلك، فإن احتاجوا إلىٰ إرضاعه كبيراً جاز ذلك، ففي الصحيحين عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ قال لابْنَةَ سُهَيْلٍ: «**أَرْضِعِيهِ تَحْرُمِي عَلَيْهِ، وَيَذْهَبِ الَّذِي فِي نَفْسِ أَبِي حُذَيْفَةَ**» متفق عليه .

وإذا جاء أحد يُطالب باللقيط، فإنه يدفع إليه إن علم صدقه وأنه سيقوم عليه.

وإذا اختلف في اللقيط أكثر من واحد، أخذه من جاء بالبينة، أو الحقته به القافة.

وأما ولاء اللقيط فذهب عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن ولاء اللقيط يكون لمن وجده؛ لكن هذا سيكون قياسًا علىٰ العبد.

واللقيط قد سبق أنه حر علىٰ الصحيح من أقوال أهل العلم؛ ولم نرَ من يذكر خلافًا لقول عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولو جعل ولاؤه لبيت مال المسلمين فهو أقرب، لأن بيت مال المسلمين هو الذي يقوم بجنايته، ويلزمه النفقة عليه، والله أعلم .

١٠ ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ خاليًا من كل شيء إلا من ذكر موسىٰ، هل هو حي أم ميت، وما الذي لَحِقَهُ أو حصل له، وقيل: فارغًا من الحَزَن لعلمها بصدق وعدِ الله.

وَالْمَعْنَى الأَوَّلُ أَظْهَرُ.

﴿إِن كَادَتْ﴾: أي: قاربت، ﴿لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ تُظهره، ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ ثبتناها، ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

١١ ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ أي: اطلبي أثره واتبعي خبره، ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾: نظرته عن بُعْدٍ، حتىٰ لا يتفطنوا لها، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنها أخته.

١٢ ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ قَدَرًا كونيًا، ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ أرشدكم ﴿عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ﴾ علىٰ مُرضع، ﴿يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾ يحفظونه ويضمنونه إليهم، ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾: يعني: في الظاهر أنهم ناصحون لفرعون في خدمته وطاعته، والواقع أنهم ناصحون في حفظه؛ لأنه الولد، والمرأة تنصح لولدها أكثر من غيره.

١٣ ﴿فَرَدَدْنَٰهُ﴾ أرجعناه، ﴿إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ لكي يلحقها قرار العين وهدوء النفس، ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ ولئلا تحزن فيلحقها الحَزَن والتعب والنصب، ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ برده إليها، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ لكفرهم وعنادهم.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۖ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾.

١٤ ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ سن الرشد، ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ كَمُلَ رشده، وبلغ أربعين سنة.

وبهذا تعلم أن كلمة الاستواء لها عدة معاني، إذا عُدِّيَت بـ(علىٰ) المُراد بها الارتفاع والظهور والصعود، وإذا عُدِّيَت بنفسها المُراد بها الكمال كما هنا، وإذا عُدِّيَت بـ(إلىٰ) كانت

دالة علىٰ القصد، **وقد استُدلَّ بها علىٰ العلو والظهور أيضًا**، وإذا عُدِّيَت بالواو دلت علىٰ المساواة؛ كقولهم: استوىٰ الماء والخشبة.

قلنا هذا: لأن أهل البدع يأخذون معنىٰ واحدًا من الكلمة، ثم يُعممونها في جميع المواطن.

﴿ءَاتَيْنَاهُ﴾ أعطيناه، ﴿حُكْمًا﴾ الفقه والعقل، ﴿وَعِلْمًا﴾ النبوة والرسالة، وآتاه الله التوراة، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الموحدين.

(١٥) ﴿وَ﴾ لما كبر وشب، ﴿دَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ﴾ التي كان فيها، قيل: عين شمس، والله أعلم، ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ في وقت قيلولتهم وراحتهم، ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾: من بني إسرائيل، ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ من الأقباط المصريين الفراعنة، ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ﴾ طلب منه النجدة والعون ﴿ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ﴾ الإسرائيلي، ﴿عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾: القبطي الفرعوني، ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ طعنه بعصاه، وفي قراءة ابن مسعود: فلكزه موسىٰ وهو الضرب بجميع الكف، وقيل: الضرب في الصدر، وقيل: في الظهر، وقيل بأطرافِ الأصابع.

﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ قتله، ﴿قَالَ﴾ موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿هَٰذَا﴾ الفعل، ﴿مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ ﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ﴾ للإنسان، ﴿مُّضِلٌّ﴾ له، ﴿مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة.

(١٦) ﴿قَالَ﴾ موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عند ذلك: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ بقتلي للقبطي من غير أمرك، ﴿فَٱغْفِرْ لِى﴾ تجاوز عني، ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ ربه سبحانه وتعالىٰ وتجاوز: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ المتجاوز عن عباده، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بهم.

(١٧) ﴿قَالَ﴾ موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾ من مغفرة الذنب، ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا﴾ عونًا، ﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ الكافرين.

(١٨) ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ بعد قتل القبطي ﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ لتوقع المكروه؛ بسبب قتله للقبطي؛ ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ﴾ استغاث به، ﴿بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ يُناديه: يا موسىٰ أغثني، ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ﴾ شديد الغواية، ﴿مُّبِينٌ﴾ ظاهرة منك؛ لكثرة خلافه مع غيره.

(١٩) ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ﴾ موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ أن يتناول القبطي، ﴿قَالَ﴾ الإسرائيلي: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾ فسمعها الأقباط

فنقولها إلىٰ فرعون: ﴿إِن تُرِيدُ﴾ بالقتل، ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا﴾ متعاليًا، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ المنقادين لدين رب العالمين.

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿٢٠﴾ ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ﴾ من شيعة موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ من آخرها وطرفها، ﴿يَسْعَىٰ﴾ يُسرع في المشي، ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ﴾ قوم فرعون، ﴿يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾: أي: يتشاورون ويتآمرون في شأنك، ﴿لِيَقْتُلُوكَ﴾ والتخلص منك، ﴿فَٱخْرُجْ﴾ أي: من مصر، ﴿إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾: بهذا الأمر.

﴿٢١﴾ ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا﴾ من مصر، ﴿خَآئِفًا﴾ أن يدركوه ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ يتوقع شرهم. ﴿قَالَ﴾ موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين.

وهذا دليل علىٰ أن الخوف الطبيعي لا حرج منه، فموسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ نبي كريم ومن أشجع الناس، ومع ذلك خاف من بطشهم.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿٢٢﴾ ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ﴾ خرج موسىٰ، ﴿تِلْقَاءَ﴾ جهة ﴿مَدْيَنَ﴾ قاصدًا لها، ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى﴾ يُرشدني ويوفقني إلىٰ: ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ إلىٰ الطريق المسلوك، حتىٰ يسلم مما أرادوه وبيتوه.

٢٣ ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ وهو بئر كانوا يشربون منه، ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً﴾ جماعة وطائفة ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ دوابهم وما يتعلق بهم، ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ تحبسان وتمنعان الأغنام، حتىٰ لا تدخل بين غنم القوم، ﴿قَالَ﴾ موسىٰ: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ أي: ما شأنكما لا تسقيان مع الناس؟ ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِى﴾ أغنامنا ﴿حَتَّىٰ يُصْدِرَ﴾ يذهب، ﴿ٱلرِّعَآءُ﴾ من الماء، ويصرفون مواشيهم، ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ لا يستطيع أن يحضر معنا.

٢٤ ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ مواشيهما، ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ﴾ انصرف، ﴿إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ ظل الشجر ونحوه، ﴿فَقَالَ﴾ متضرعًا لله عَزَّوَجَلَّ، ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ دعا الله عَزَّوَجَلَّ أن يُصلح شأنه وحاله، وأن يرزقه من فضله.

٢٥ ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا﴾ إحدىٰ البنتين، ﴿تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ من قدومها علىٰ الرجل، ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ﴾ يُجازيك، ﴿أَجْرَ﴾ ثواب، ﴿مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ الغنم، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ﴾ أي: جاء موسىٰ إلىٰ والد البنتين.

ويقولون: شُعيب، ولكن ليس بشعيب النبي، فبينهما مفاوز وعمر مديد.

﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ أخبره الشأن، ﴿قَالَ﴾ صاحب مدين ﴿لَا تَخَفْ﴾ لا من فرعون ولا غيره، ﴿نَجَوْتَ﴾ سلمتَ، ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين؛ لأنه كان في بادية، مكان بعيد عن حكمهم.

٢٦ ﴿قَالَتْ﴾ عند ذلك، ﴿إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ اتخذه أجيرًا ليرعىٰ أغنامنا: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ﴾ في بدنه ﴿ٱلْأَمِينُ﴾ في فعله.

٢٧ ﴿قَالَ﴾ أبوهما ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ﴾ أزوجك ﴿إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ﴾ أن يكون مهرها ﴿أَن تَأْجُرَنِى﴾ تثيبني بالعمل، ﴿ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ﴾ ثمان سنوات، ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾؛ تفضلًا وتكرمًا.

❁ وهذا دليل علىٰ أن المهر قد يكون كثيرًا، فإنه لا حدَّ لأقله وأكثره، وكلما كان قليلًا فهو أفضل وأحسن.

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾: يعني: بأن ألزمك بالعشر السنوات، ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الذين يعرفون لك قدرك ومنزلتك.

٢٨ ﴿قَالَ ذَٰلِكَ﴾ أي: هذا الاتفاق، ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ نمضي عليه، ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ﴾ الوقتين، ﴿قَضَيْتُ﴾ الثمان أو العشر، ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾ لا ظلم عليَّ بأن أطلب بأكثر منها، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ حفيظ وشهيد ومطلع.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ٢٩ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٣٠ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ٣١ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ٣٢﴾.

٢٩ ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ أتمَّهُ وفرغ منه، ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ زوجه، ﴿ءَانَسَ﴾ أبصر ﴿مِن جَانِبِ الطُّورِ﴾ الجبل ﴿نَارًا﴾ يضيء، ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ﴾: أي: ابقوا في مكانكم، ﴿إِنِّيٓ ءَانَسْتُ﴾ رأيتُ ﴿نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ عن الطريق أو عما تؤملونه، ﴿أَوْ جَذْوَةٍ﴾ قطعة ﴿مِنَ النَّارِ﴾ تستدفؤون بها وتستفيدون من ضوئها وحرها، ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ تستدفئون.

٣٠ ﴿فَلَمَّآ أَتَاهَا﴾ جاء النار ﴿نُودِيَ﴾ ناداه ربه بصوت ﴿مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ من جانب الوادي الذي عن يمين موسىٰ، ﴿فِي ٱلْبُقْعَةِ﴾ القطعة، ﴿ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾؛ مباركة لكلام الله موسىٰ فيها، ومباركة لما حصل فيها من البركات العظيمات، ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾: أي: من ناحية الشجرة. ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ﴾ خالق ورازق ومالك، ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ العُلوي والسفلي.

وليس معنىٰ ذلك أن الشجرة هي المتكلمة كما يقول المعتزلة، أو أن الله خلق الكلام في الشجرة، فهذا قولٌ باطل، فالمتكلم هو الله؛ بدليل قوله: ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

(٣١) ﴿وَ﴾ كان من أمر الله، ﴿أَنْ أَلْقِ﴾ اطرح ﴿عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ﴾ تضطرب، ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ ثعبان، ﴿وَلَّى مُدْبِرًا﴾ رجع على عقبه هاربًا، ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ لم يرجع إلىٰ مكانها خوفًا منها، وهذا خوفٌ طبيعي، وناداه الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿يَا مُوسَى﴾ والنداء يكون بصوتٍ مرتفع، والنجاءَ يكونُ بصوتٍ خافت، ﴿أَقْبِلْ﴾ هلمَّ إلىٰ جهة الصوت المسموع ﴿وَلَا تَخَفْ﴾ ولا ترهب من النار ولا ما فيها ﴿إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ المأمنين من الخوف في هذا الموطن وغيره.

(٣٢) ﴿اسْلُكْ﴾ أَدْخِل، ﴿يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ تحت عضدك، ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ من غير برصٍ أو مرض، ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ يعني: إذا هَالَكَ أمرٌ اضمم إليك يديك، يذهب ما في نفسك من الخوف والرهبة؛ وذلك أنه سيقدم علىٰ فرعون، وفرعون في أبهته وجنوده وبطشه، وكان الأنبياء أشجع الناس، لكن الخوف الطبيعي وارد، ولذلك أمره الله بما يذهبه، ﴿فَذَانِكَ﴾: أي: ما تقدم من الآيات، ﴿بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ﴾ دليلان علىٰ صدق دعوتك ونبوتك، ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾: خرجوا عن الطاعة.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

(٣٣) ﴿قَالَ﴾ موسىٰ: ﴿رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ أي: بها قصاصًا.

(٣٤) ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ إذ لم يكن فيه العقدة التي في لسان موسىٰ حيث ذكر أهل التفسير أن موسىٰ أخذ بلحية فرعون، فغضب فرعون وأراد البطش به، فقالوا له إن هذا صبي لا يفرق بين الجمرة والتمرة، فأعطيهما، فأخذ الجمرة ووضعها في فيه، وكانت سبب ما لحقه، والله اعلم، ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ﴾ لدعوة فرعون فهذه شفاعة عظيمة حيث شفع له أن يكون نبيًا، ﴿رِدْءًا﴾ عونًا ﴿يُصَدِّقُنِي﴾ أي: مصدقًا لي إذا كذبوني، ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ يعني: فرعون وقومه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [طه:٢٩-٣٥].

٣٥ ﴿قَالَ سَنَشُدُّ﴾ نقوي، ﴿عَضُدَكَ﴾ جانبك، ﴿بِأَخِيكَ﴾ هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ حجة وبرهانًا، ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ فرعون وقومه، ﴿بِآيَاتِنَا﴾ بالحجج الظاهرة القاهرة، ﴿أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ تغلبون خصومكم.

واستدل بهذه الآية على أن السحرة لم يُقْتَلوا ولم يتمكن فرعون منهم.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ٣٦ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ٣٧ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ٣٨ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ٣٩ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ۖ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ٤٠ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ ٤١ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ٤٢ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ٤٣﴾.

٣٦ ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ﴾ بحجتنا الظاهرة كفروا، وكان الأولىٰ بهم أن يؤمنوا وينقادوا، لكن منعهم الكبر، ﴿قَالُوا مَا هَٰذَا﴾ الذي جئت به، ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى﴾ افتريته يا موسىٰ، واختلقته من قِبَلِ نفسك، ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ الذي تدعو إليه ﴿فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ السابقين.

٣٧ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ﴾ العلم والنور والضياء، ﴿مِنْ عِنْدِهِ﴾ أنزله عليه، ﴿وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾: يوم القيامة، وربما تكون العاقبة أيضًا في الدنيا: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه:١٣٢]، ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ الكافرون.

٣٨ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لقومه: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ﴾ السادة والأشراف، ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ وهذا من كذبه، وتلبيسه عليهم، وإلا فقد قال الله عَزَّوَجَلَّ مُخبرًا عنه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا﴾ [النمل:١٤]، ﴿فَأَوْقِدْ لِي﴾ اشعل النار، ﴿يَا هَامَانُ﴾ وزيره، ﴿عَلَى

﴿ٱلطِّينِ﴾ حتىٰ يصير فخارًا متماسكًا، ﴿فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا﴾: أي: قصرًا عاليًا، ومنارة طويلة، ﴿لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ﴾ أظهر وأصل، ﴿إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ أراه وأُبصره.

وهذا دليل أن موسىٰ أخبره أن ربه في السماء، ولهذا قال بعض أهل العلم: من قال بأن الله في السماء فهو موساوي محمدي، ومن زعم أن الله في كل مكانٍ فهو فرعوني؛ لأن فرعون يقول: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾: أي: في زعمه أن الله عَزَّوَجَلَّ في السماء، وأنه الرب المعبود بحق.

٣٩ ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ علوا وبطشوا، ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ بل بالبغي والظلم، ﴿وَظَنُّوٓا﴾ استيقنوا، ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾: لا يُبعثون بعد موتهم.

٤٠ ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾ أخذ عزيزٍ مقتدر بعد إغراقهم في اليم: ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ﴾ ألقيناهم ﴿فِي ٱلْيَمِّ﴾ في البحر، ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: نهاية الكافرين.

٤١ ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾ صيرناهم، ﴿أَئِمَّةً﴾ ضلالة قادة ورؤساء، ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ يدعون إلىٰ أعمالٍ تؤدي بهم إلىٰ النار؛ من الشرك فما دونه، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ بل يكون حالهم أنهم من أهل النار.

٤٢ ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ﴾ أي: آل فرعون، ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ طرداً من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾: من المُبعدين.

٤٣ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ التي كفرت وأعرضت، كقوم نوحٍ وعاد وثمود.. وغيرهم، ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ فيها بصائر تستبصرون بها الهدىٰ من الضلال، ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة والشرك، ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن آمن به، ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾: يتعظون.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿٤٤﴾ ﴿وَمَا كُنتَ﴾ يا محمد: ﴿بِجَانِبِ﴾ الجبل ﴿ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ﴾ عهدنا ﴿إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ أمرُ الرسالة، ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ الحاضرين، إنما أخبرك الله بهذا.

﴿٤٥﴾ ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾ خلقنا قرونًا من بعد موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ طالت عليهم المدة، فنسوا العهد والميثاق، ونسوا التوراة وأهملوها، ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا﴾ مقيمًا، ﴿فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ مقام موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ﴿تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ وتذكرهم بالوعد والوعيد، ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾: أرسلناك رسولًا وأنزلنا عليك كتابًا.

﴿٤٦﴾ ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ الجبل، وكل جبل يُغطىٰ بالشجر يسمىٰ طوراً، وهنا يُراد به ناحية الجبل الذي كلَّمَ الله عنده موسىٰ، ﴿إِذْ نَادَيْنَا﴾ أي: موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ناداه الله، ﴿وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ إذ جعلك رسولًا نبيًا، ﴿لِتُنذِرَ﴾ تُخوف، ﴿قَوْمًا﴾ أهل مكة، ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ﴾ من رسولٍ ﴿مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتعظون ويرعوون.

﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿٤٧﴾ ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾ عقوبة من الله عَزَّوَجَلَّ؛ بسبب كفرهم وعنادهم، ﴿بِمَا قَدَّمَتْ﴾ كسبت وعملت، ﴿أَيْدِيهِمْ﴾؛ من الكفر وغيره، ﴿فَيَقُولُوا۟﴾ عند ذلك معترضين مُنكرين: ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ﴾: هَلَّا، ﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ لدعوتنا إلىٰ الهدىٰ ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ الشرعية والمعنىٰ أنهم: يعتذرون بجهلهم.

❁ وهذا دليل على العذر بالجهل وما كان الله عَزَّوَجَلَّ ليُعذب إلا بعد إقامة الحجة الرسالية عليهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥]، ﴿وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ المنقادين.

٤٨ ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ أي: قوم قريش، ﴿قَالُوا لَوْلَا﴾ هلَّا، ﴿أُوتِيَ﴾ أُعطي، ﴿مِثْلَ مَا أُوتِيَ﴾ أُعطي، ﴿مُوسَىٰ﴾ أي: من الحجج والآيات البينات كالعصا واليد وغير ذلك، وكذبوا، فلو أوتي مثل هذا ما آمنوا، فقد سألوه انشقاق القمر، فأراهم انشقاقه مرتين، وأبوا إلا الإعراض وقالوا: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر:٢]، سحر ثابت لا يتغير، ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا﴾ فرعون وقومه، ﴿بِمَا أُوتِيَ﴾ أُعطي، ﴿مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ مع ظهور حججه وآياته، ﴿قَالُوا﴾: أي: قال قوم فرعون: ﴿سِحْرَانِ﴾ ساحران أي: موسىٰ وهارون، ﴿تَظَاهَرَا﴾ تعاونا عليه وقيل: المراد التوراة والقرآن، ﴿وَقَالُوا﴾ الكفار ﴿إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾ بموسىٰ وبمحمد.

٤٩ ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ نقرأه، ﴿هُوَ أَهْدَىٰ﴾ أصوب وأقوم، ﴿مِنْهُمَا﴾ من التوراة والقرآن: ﴿أَتَّبِعْهُ﴾ آخذ به، ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم، ولن يستطيعوا ذلك لعجزهم، ولأن ما عند الله لا مثله ولا قبله ولا بعده، كما قال تعالىٰ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢].

٥٠ ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ ويأتوا بما طلبت منهم، ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ آراءهم المتغيرة المنكوسة، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾: بغير علمٍ ولا بصيرة ولا برهان: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾: الكافرين.

﴿❁وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ٥١ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ٥٢ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ٥٣ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ٥٤ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ٥٥ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ٥٦﴾.

٥١ ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ بَيَّنَّاهُ وفصلناه، حتىٰ يُرفع عنهم به الجهل الذي هم فيه، إلا أنهم أعرضوا وأبوا، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتعظون.

٥٢ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ﴾ من قبل محمد، ومن قبل القرآن ﴿هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾، كعبد الله بن سلام، ومن شاء الله عَزَّوَجَلَّ من اليهود والنصارىٰ، وإلا فالغالبية كذبوه حسدًا وبغيًا.

٥٣ ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ﴾ يقرأ، ﴿عَلَيْهِمْ﴾ علىٰ من آمن من أهل الكتاب القرآن، ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾: أقررنا به ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾؛ الذي أوحاه إلىٰ محمدٍ ﷺ: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ بما أوحاه الله إلىٰ أنبيائنا ورسلنا.

٥٤ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين آمنوا بمحمدٍ ﷺ، وآمنوا برسلهم، ﴿يُؤْتَوْنَ﴾ يُعطون، ﴿أَجْرَهُم﴾ ثوابهم، ﴿مَّرَّتَيْنِ﴾ يضاعف لهم ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ أي: بسبب صبرهم علىٰ أمرِ الله عَزَّوَجَلَّ.

ففي حديث أبي موسىٰ في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: **«ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: الرَّجُلُ تَكُونُ لَهُ الأَمَةُ، فَيُعَلِّمُهَا فَيُحْسِنُ تَعْلِيمَهَا، وَيُؤَدِّبُهَا فَيُحْسِنُ أَدَبَهَا، ثُمَّ يُعْتِقُهَا فَيَتَزَوَّجُهَا فَلَهُ أَجْرَانِ، وَمُؤْمِنُ أَهْلِ الكِتَابِ، الَّذِي كَانَ مُؤْمِنًا، ثُمَّ آمَنَ بِالنَّبِيِّ ﷺ، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَالعَبْدُ الَّذِي يُؤَدِّي حَقَّ اللهِ، وَيَنْصَحُ لِسَيِّدِهِ»**.

❁ **والصبر ثلاثة أقسام**: الصبر علىٰ أقدار الله، والصبر علىٰ أمْرِ الله، والصبر عن نواهي الله.

﴿وَيَدْرَءُونَ﴾ يدفعون، ﴿بِٱلْحَسَنَةِ﴾ الفعل الحسن والتوحيد، ﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾ الشرك والتنديد، وفي حديث معاذ وأبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال رسول الله ﷺ: **«اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»** أخرجه الترمذي.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ أعطيناهم، ﴿يُنفِقُونَ﴾ في طاعةِ الله عَزَّوَجَلَّ.

٥٥ ومن شأنهم: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ﴾ وهو الكلام القبيح والقول السيء؛، ﴿أَعْرَضُواْ عَنْهُ﴾ بلسان حالهم ومقالهم، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ عنهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ [الفرقان:٧٢]، ﴿وَقَالُواْ﴾ براءة من الكافرين: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ وسيُجازىٰ كلُّ واحدٍ علىٰ عمله يوم القيامة، ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: من المتاركة، "وَلَيْسَ الْمُرَادُ مِنْهُ سَلَامُ التَّحِيَّةِ، وَلَكِنَّهُ سَلَامُ الْمُتَارَكَةِ، مَعْنَاهُ: سَلِمْتُمْ مِنَّا لَا نُعَارِضُكُمْ بِالشَّتْمِ وَالْقَبِيحِ مِنَ الْقَوْلِ". **أفاده البغوي**، ليس معناها أنهم يدعون لهم بالسلامة، ﴿لَا نَبْتَغِى﴾ لا نطلب، ﴿ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ السفهاء الذين يُخالفون دين الإسلام.

❁ **وهذه الآية كما أنها في المُشركين**، إلا أنها عامة في كل مُبطل من أهل البدع، فيتعين عليك الإعراض عنهم؛ لأن مجادلتهم سببٌ لضيق الصدر وقسوة القلب، وفساد الحال والمآل.

ورضي الله عن ابن عبَّاس إذ يقول: "ثَلَاثَةُ مَجَالِسٍ لَا تُمَكِّنِ الشَّيْطَانَ فِيهِنَّ مِنْ نَفْسِكَ: الْقُرْآنَ، وَلَا امْرَأَةً لَا تَحِلُّ لَكَ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ ثَالِثُكُمَا، وَلَا تُجَالِسْ أَهْلَ الْأَهْوَاءِ، فَإِنَّ مُجَالَسَتَهُمْ مُمْرِضَةُ الْقُلُوبِ" **أخرجه الفريابي في القدر (٤١٣)**، نسأل الله السلامة.

وفي حديث أبي أمامة قال رسول الله ﷺ يقول: **«أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا»** **أخرجه الترمذي**، وقد كره السلف مناظرة أهل البدع لما تجر إليه من الفساد.

٥٦ ﴿إِنَّكَ﴾ يا محمد: ﴿لَا تَهْدِى﴾ توفق ﴿مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ هدايته، وقيل: من أحببته، ويكون المعنىٰ أن المحبة طبيعية، محبة للقرابة، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى﴾ يوفق، ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من عباده، ممن علمه أهلًا لذلك: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي: لمن قُدِّرَ له الهداية.

📖 سَبَبُ النُّزُولِ: وهذه الآية نزلت في شأنِ أبي طالب، ففي الصحيحين عن سَعِيدُ بْنُ المُسَيِّبِ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الوَفَاةُ، جَاءَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلٍ، وَعَبْدَ اللهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ المُغِيرَةِ، فَقَالَ: **«أَيْ عَمِّ قُلْ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ»** فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ؟ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ، وَيُعِيدَانِهِ بِتِلْكَ المَقَالَةِ، حَتَّىٰ قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ: عَلَىٰ مِلَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، وَأَبَىٰ أَنْ يَقُولَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«وَاللهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ»** فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ **[التوبة:١١٣]** وَأَنْزَلَ اللهُ فِي أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ **[القصص: ٥٦]**.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ أي: لا توفق، من أحببت هدايته، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى﴾ يوفق ﴿مَن يَشَآءُ﴾ فأراد النبي ﷺ أن يستغفر له، فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ **[التوبة:١١٣]**.

﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٥٨ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ٥٩﴾.

٥٧ ﴿وَقَالُوا﴾ أي: كفار مكة، ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ﴾ الإسلام، ﴿مَعَكَ﴾ يا محمد، ﴿نُتَخَطَّفۡ﴾ ننزع ﴿مِنۡ أَرۡضِنَا﴾ مكة، ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ﴾: نملكهم ونعطيهم: ﴿حَرَمًا ءَامِنٗا﴾ وهو مكة حفظها الله في الجاهلية والإسلام، ومن شأن هذا الحرم: ﴿يُجۡبَىٰٓ﴾ ينقل ﴿إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ يعني: من أغلب ثمرات الدنيا، ومن ذهب إلىٰ تلك البلاد يجد ذلك ظاهرًا، ففيها من ثمرات اليمن، والشام، ونجد والحجاز وغير ذلك من البلدان: ﴿رِّزۡقٗا﴾ عطاءً، ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾: أي: من عند الله، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أن ما يقوله النبي ﷺ هو الحق والصدق.

٥٨ ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ﴾ أي: من أهلِ قرية.

❁ فإن (القرية) تُطلق علىٰ البيوت والمساكن، وتُطلق علىٰ مجموع البيوت والسكان، وتُطلق علىٰ السكان، ويجعل بعضهم هذا مجازاً، والصحيح أن ليس بمجاز، وإنما هي من أساليب اللغة.

﴿بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ﴾ أي: وقع منها الأشر والبطر والتعالي، ولم تشكر الله عَزَّوَجَلَّ عليها، ﴿فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ﴾ بيوتهم، ﴿لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ أي: خاوية علىٰ عروشها، ﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾ من بعض المارين عليها ﴿وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ الذين نرث السماوات والأرض، ومن فيهما كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا﴾ [مريم:٤٠].

فعن عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ، قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَصْحَابِ الْحِجْرِ: **«لَا تَدْخُلُوا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الْمُعَذَّبِينَ، إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ، أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ»** متفق عليه.

٥٩ ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ الأمم ﴿حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا﴾ في أكبرها وأعظمها، ﴿رَسُولٗا يَتۡلُواْ﴾ يقرأ، ﴿عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا﴾ الشرعية، ﴿وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي﴾ معذبي ﴿ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ المدن،

وما إليها، ﴿إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ كافرون، وربما عذبهم بغير ذلك من الظلم فقد قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» متفق عليه من حديث أبي موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ويُستدل بهذه الآية علىٰ العذر بالجهل علىٰ ما تقدم في تفسير سورة الإسراء.

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿٦٠﴾ ﴿وَمَآ أُوتِيتُم﴾ أعطيتم ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ تستمتعون به في هذه الدنيا، ﴿فَمَتَٰعُ﴾ زينة، ﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ومتاعها زائل، ﴿وَزِينَتُهَا﴾ لا تبقىٰ ولا تثبت، بل هي دارُ فناء وزوال، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ في الآخرة، ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾، كما قال: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد:٣٥]، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ شرع الله، وأن الباقي خير من الفاني؟!

﴿٦١﴾ ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ﴾ في الآخرة، ﴿وَعْدًا حَسَنًا﴾ وهو الجنة، وما فيها من نعيم مقيم، ﴿فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ مُصيبه ومُدركه يوم القيامة، ﴿كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ﴾ أعطيناه، ﴿مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ويزول، ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ إلىٰ العذاب الأليم، فهذه الدنيا دارُ فناءٍ، ومتعتها سريعة الزوال، فعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ يقول: «مالي وللدنيا مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا» أخرجه الترمذي.

وفي حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مسلم قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْكَافِرَ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً أُطْعِمَ بِهَا طُعْمَةً مِنَ الدُّنْيَا، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ، فَإِنَّ اللهَ يَدَّخِرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ فِي الْآخِرَةِ وَيُعْقِبُهُ رِزْقًا فِي الدُّنْيَا عَلَىٰ طَاعَتِهِ».

﴿٦٢﴾ ﴿وَ﴾ اذكر ﴿يَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ بصوت يسمع، ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ من الأصنام والأوثان، ﴿الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أنهم آلهة، وأنهم علىٰ شيء.

﴿٦٣﴾ ﴿قَالَ﴾ الكفار، ﴿الَّذِينَ حَقَّ﴾ وجب، ﴿عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ العذاب: ﴿رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا﴾ دعوناهم إلىٰ الغي فاتبعونا ﴿أَغْوَيْنَاهُمْ﴾ أضللناهم ﴿كَمَا غَوَيْنَا﴾ كما ضللنا،

﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ منهم، ﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾: بَرِئَ بعضهم من بعض كما تقدم في سورة البقرة، في قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة:١٦٦].

٦٤ ﴿وَقِيلَ﴾ لهم: ﴿ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾ معبوداتكم من دون الله، ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ نادوهم، ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾؛ لعجزهم، وضعفهم، وخوفهم، وخورهم، ﴿وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ النار يجرها الملائكة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء:٩١]، فتمنوا عند ذلك، ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ﴾ للحق في الدنيا لما رأوا العذاب ووقعوا فيه؛ ولكن لم تقع منهم الهداية في الدنيا، فكان نصيبهم النار في الآخرة، كما قال تعالىٰ: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٢٣].

٦٥ ﴿وَ﴾ اذكر يا محمد: ﴿يَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَيَقُولُ مَاذَآ﴾ بأي شيء، ﴿أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الذين أرسلهم الله سبحانه وتعالىٰ إليكم.

٦٦ ﴿فَعَمِيَتْ﴾ خفيت واشتبهت ﴿عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ﴾ الحجج فلم يستطيعوا الاعتذار، ولا الإخبار، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: لا يُجيبون، ولا يسأل بعضهم بعضًا، هذا في مواطن، وإلا قد جاء أن الله عَزَّوَجَلَّ يُكلمهم في مواطن، ولا يُكلمهم في مواطن، وأنهم يتكلمون في مواطن، ولا يتكلمون في مواطن جمعًا بين الأدلة.

٦٧ ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾ رجع إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَآمَنَ﴾ أقرَّ بدين الله، ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾؛ من التوحيد فما دونه ﴿فَعَسَىٰٓ﴾ من الله موجبة، ﴿أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾؛ ممن ينال المطلوب ويسلم من المرهوب.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

(٦٨) ﴿وَرَبُّكَ﴾ يا محمد: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ أن يخلقه ويوجده، ﴿وَيَخْتَارُ﴾ يصطفي كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٣٣]، فالله عَزَّوَجَلَّ يصطفي، ويخذل من شاء من عباده: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣].

وهو في هذا لم يظلم أحدًا: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦]، فمن اختاره واصطفاه واجتباه فلفضله العظيم، ومن خذله وأقصاه فلعدله العظيم: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ﴾ للمشركين، ﴿ٱلْخِيَرَةُ﴾ أن يختاروا لأنفسهم الأصلح، وفي هذا رد علىٰ المعتزلة الذين يقولون: يجب علىٰ الله فعل الأصلح للعبد، ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ تنزيه، ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يُنددون.

(٦٩) ﴿وَرَبُّكَ﴾ يا محمد: ﴿يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ﴾ تضمر ﴿صُدُورُهُمْ﴾ من العداوة، ونحوها لا تخفىٰ عليه خافية، ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ يُظهرون.

(٧٠) ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا رب غيره ولا إله سواه، ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ المطلق والمستغرق لجميع أنواع المحامد: ﴿فِى ٱلْأُولَىٰ﴾ الدنيا، ﴿وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ العقبىٰ، ومن عظيم حمده أنه يُحمد علىٰ إدخالِ أهلِ النار النار لكمال عدله، ويُحمد علىٰ إدخالِ أهلِ الجنة الجنة لكمال فضله، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر:٧٥]، ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ القدري الكوني والشرعي:

مَـا شـئتَ كَـان وإن لَـم أشَـأ ... وَمَا شِئْتُ إن لـم تشَأ لَـم يَكُـن

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تبعثون يوم القيامة فتجازون علىٰ أعمالكم.

(٧١) ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ أخبروني، ﴿إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ﴾ المظلم، ﴿سَرْمَدًا﴾ مستمرًا في ظلمته، ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ إلىٰ بعثكم من قبوركم، ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾: نهار تعملون فيه، وتطلبون فيه المعيشة، ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾؛ سماع فهمٍ وقبول.

(٧٢) ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لا ليل فيه، ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ﴾ ترتاحون وتهدؤون، ﴿فِيهِ﴾ ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ما أنتم عليه من الخطأ والضلال.

(٧٣) ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ تعالىٰ، ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ﴾ المظلم، ﴿وَٱلنَّهَارَ﴾ المبصر، ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ أي: بالنوم في الليل، ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ من رزقه أي: في النهار، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ عظيم نِعَمِهِ ومزيد منَنِهِ.

(٧٤) ﴿وَ﴾ اذكر يا محمد: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ بصوتٍ، ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾؛ من الأصنام والأوثان: ﴿الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾؟ أنهم آلهة تعبد من دون الله، وكرر النداء لهم؛ لزيادة التقريع والتوبيخ.

(٧٥) ﴿وَنَزَعْنَا﴾ أخرجنا، ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ طائفة، ﴿شَهِيدًا﴾ عليهم من أنفسهم، وهو الرسول، كما قال تعالىٰ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٤١]، ويشهد غير الرسول، كما قال تعالىٰ: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف:٨٠]، مزيد علىٰ علم الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا﴾ هلموا ﴿بُرْهَانَكُمْ﴾ حجتكم ولا حجة لهم علىٰ شركهم وبدعهم وخرافاتهم، ﴿فَعَلِمُوا﴾ عند ذلك: ﴿أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ التوحيد والطاعة، ﴿وَضَلَّ﴾ زال وذهب، ﴿عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ يكذبون في الدنيا ويُلبسون به، فكانوا في الدنيا أصحاب ألسنة يُسلطونها علىٰ المؤمنين والموحدين، ويسخرون ويستهزئون، لكن في ذلك اليوم لا ينفعهم ولا يستطيعون ردَّ حجةٍ ولا دفعها.

﴿۞ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

(٧٦) ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ ابن عمه، علىٰ قول أهل التفسير ﴿فَبَغَىٰ﴾ تطاول وترفع ﴿عَلَيْهِمْ﴾ حين رزقه الله عَزَّوَجَلَّ ما رزقه من الأموال الكثيرة، ولم يحمد ربه عليها، ﴿وَآتَيْنَاهُ﴾ أعطيناه، ﴿مِنَ الْكُنُوزِ﴾: الأموال، ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ﴾: جمع مفتاح وخزائنه، ﴿لَتَنُوأُ﴾ تثقل ﴿بِالْعُصْبَةِ﴾ بالجماعة ما بين العشرة إلىٰ خمسة عشر ﴿أُولِي الْقُوَّةِ﴾ تُثقلهم، وتميل بهم إذا حملوها لثقلها، ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ﴾؛ لما رأوا من أشره وبطره: ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ لا تبطر ولا تمرح، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ الأشرين البطرين.

(٧٧) ﴿وَابْتَغِ﴾ اسلك واطلب، ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰكَ﴾ أعطاك، ﴿ٱللَّهُ﴾ من الخير والمال ﴿ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ﴾ القيامة، وفي حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: **«اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ»** اخرجه الحاكم.

﴿وَلَا تَنسَ﴾ تترك، ﴿نَصِيبَكَ﴾ حظك، ﴿مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: مما أباح الله لك، ﴿وَأَحْسِن﴾ إلىٰ المخلوقين، ﴿كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ بالرزق الحسن، وكذلك أحسن إلىٰ الله بتوحيده وطاعته: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠]، ﴿وَلَا تَبْغِ﴾ تطلب، ﴿ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: بالشرك والمعصية، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ بل يبغضهم ويبغض أفعالهم.

(٧٨) ﴿قَالَ﴾ قارون كِبْرًا ومعارضةً: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ﴾ أي: هذا المال، ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ أي: علمٍ بأوجه المكاسب، يعني: كأنه يقول: بذكائي وفطنتي: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾ هذا المتكبر المتجبر الباغي، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ الماضية، والأمم السالفة ﴿مَنْ هُوَ أَشَدُّ﴾ أعظم، ﴿مِنْهُ قُوَّةً﴾؛ كقومِ عادٍ وثمود ومن إليهم: ﴿وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ أتباعًا، ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ﴾ عند إهلاكهم أو يوم القيامة، ﴿عَن ذُنُوبِهِمُ﴾ معاصيهم، ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ لعلم الله بها وقيل: سؤالهم سؤال تبكيت وتوبيخ.

(٧٩) ﴿فَخَرَجَ﴾ قارون، ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ أبَّهَتِه، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ يطمعون فيها ويرغبون: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾ من الأموال الكثيرات والحلل الوفيرات: ﴿إِنَّهُۥ لَذُو﴾ صاحب ﴿حَظٍّ﴾ نصيب، ﴿عَظِيمٍ﴾ وافر واسع في الدنيا.

(٨٠) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أصحاب البصر والبصيرة، الذين يعرفون الفتنة وهي مُقبلة، وأما العوام فلا يعرفونها إلا وهي مُدبرة: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ﴾ أجرُ ﴿ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ﴾ بالله ربًّا، ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: انقاد ظاهرًا وباطنًا.

❁ وفي هذا دليل علىٰ دخول الأعمال في مسمىٰ الإيمان خلافًا للمرجئة.

﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أي: هذه الخصلة العظيمة؛ الإيمان والعمل الصالح، لا يؤتاها ﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ فليس كل أحد يُهدىٰ للطريق القويم والصراط المستقيم، وإنما هي مِنَّةُ الله علىٰ عباده المؤمنين الموحدين.

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿٨١﴾ ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ يعني: هوىٰ في الأرض، ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ﴾ طائفة، ﴿يَنصُرُونَهُۥ﴾ يمنعونه، ﴿مِن دُونِ اللهِ﴾؛ لعجزهم، ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾؛ لكفره وبغيه، وفي حديث أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: **«بَيْنَمَا رَجُلٌ يَتَبَخْتَرُ، يَمْشِي فِي بُرْدَيْهِ قَدْ أَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ، فَخَسَفَ اللهُ بِهِ الْأَرْضَ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»** متفق عليه.

﴿٨٢﴾ ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾ أصحاب النظرة الدنيوية، ﴿يَقُولُونَ﴾ بعد أن رأوا ما حلَّ به: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ ألم تر وتعلم كيف ﴿يَبْسُطُ﴾ الله ويوسع ﴿ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾ يضيق لحكمةٍ أرادها، وي كلمة يُؤتىٰ بها للتعجب، مع أن بعضهم قال فيها غير هذا، لكن هذا الأظهر والله أعلم، ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بالعفو والصفح عن كلامنا، ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ في الأرض، ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ﴾ لا يفوز، ﴿ٱلْكَافِرُونَ﴾ لا في الدنيا ولا في الآخرة.

﴿٨٣﴾ ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾ الجنة وما فيها من النعيم، ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا﴾؛ كبرًا وظهورًا، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ بالشرك والبدعةِ وغير ذلك من أسباب البعد عن الله، ﴿وَٱلْعَاقِبَةُ﴾ المحمودة، في الدنيا بالنصر والظفر، وفي الآخرة بالجنة، ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ للموحدين كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه:١٣٢].

﴿٨٤﴾ ﴿مَن جَاءَ﴾ وافَّىٰ يوم القيامة، ﴿بِٱلْحَسَنَةِ﴾ التوحيد وغير ذلك من الطاعات: ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ و**«الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا»**، إلىٰ أضعاف كثيرة.

﴿وَمَن جَاءَ﴾ وافَّىٰ يوم القيامة، ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ الخطيئة والفعل السيء ﴿فَلَا يُجْزَى﴾ يعاقب، ﴿ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ دون زيادة؛ ولكن يعاقبون بسبب ظلمهم وبغيهم.

فما كان من الشرك فلا يغفر، وما كان غير ذلك فهو تحت المشيئة، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦]، ففي باب الإيمان يُضاعف الله عَزَّوَجَلَّ لهم الحسنات والمثوبات؛ لأنه

فضله وكرمه وجوده، أما في باب السيئات لا يزيدهم شيئًا عن سيئاتهم؛ لأنه يتصف بصفة العدل العظيمة، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩].

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿٨٥﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ﴾ أنزل ﴿عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ وأمرك بالأخذ به وتبليغه، ﴿لَرَآدُّكَ﴾ مُرجعك، ﴿إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ يوم القيامة، وقيل فتح مكة، ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ العلم من عنده، ﴿وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ﴾ هلاكٍ وبُعد ﴿مُّبِينٍ﴾ بيِّن واضح، ولا شك أن الجواب معروف، الذي جاء بالهدىٰ هو محمدٌ ﷺ، وأصحابه يُبلغون ذلك، والذي هو في ضلال مُبين أبو جهل، ومن إليه من الكافرين.

﴿٨٦﴾ ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟﴾ أي: تُؤمِّل، ﴿أَن يُلْقَىٰٓ﴾ يُنزل، ﴿إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ فيوحىٰ إليك بالقرآن، ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ هو الذي اختارك واصطفاك واجتباك، ورحمك، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾ [الإسراء: ٨٦-٨٧]، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا﴾ مُعينًا، ﴿لِّلْكَافِرِينَ﴾ علىٰ دينهم وبغيهم.

- وفي هذه الآية البراء من الكافرين والمُشركين.
- وفيه أن النبوة فضلٌ من الله عَزَّوَجَلَّ، لا تُنال بأوجه المكاسب، كما ذهب إلىٰ ذلك القاديانية والباطنية ومن إليهم، من الفلاسفة الضلال.

﴿٨٧﴾ ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾ يصرفنك ويميل بك المشركون، ﴿عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ القرآن، ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ فتترك تلاوتها وتبليغها، ﴿وَٱدْعُ﴾ الناس، ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إلىٰ توحيده وإفراده بما يجبُ له، وهذا أمرٌ للنبي ﷺ، وهو أمرٌ لأمته، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف:١٠٨]، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ المنددين الذين يعبدون مع الله غيره، بل كن من الموحدين.

٨٨ ﴿وَلَا تَدْعُ﴾ تعبد، ﴿مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ لا ملكًا مقربًا ولا نبيًا مُرسلًا: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ﴾ وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٧].

۞ **وفيه إثبات صفة الوجه لله**، والمعنىٰ: كل شيءٍ هالكٌ إلا الذات المتصفة بالوجه.

وقد فسر المبتدعة الوجه بالثواب والإحسان، أو بإرادة الثواب وإرادة الإحسان، وهذا تفسيرٌ باطل، فالوجه صفةُ ذاتٍ اتصف الله بها عَزَّوَجَلَّ أزلًا وأبدًا، ومما يدل علىٰ أن الوجه صفة لله عَزَّوَجَلَّ أن النبي ﷺ استعاذ بالوجه؛ ففي البخاري: «**لما أنزل الله** عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام:٦٥]، **قال النبي** ﷺ: «**أَعُوذُ بِوَجْهِكَ**»، فلو كان مخلوقًا ما استعاذ به، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥].

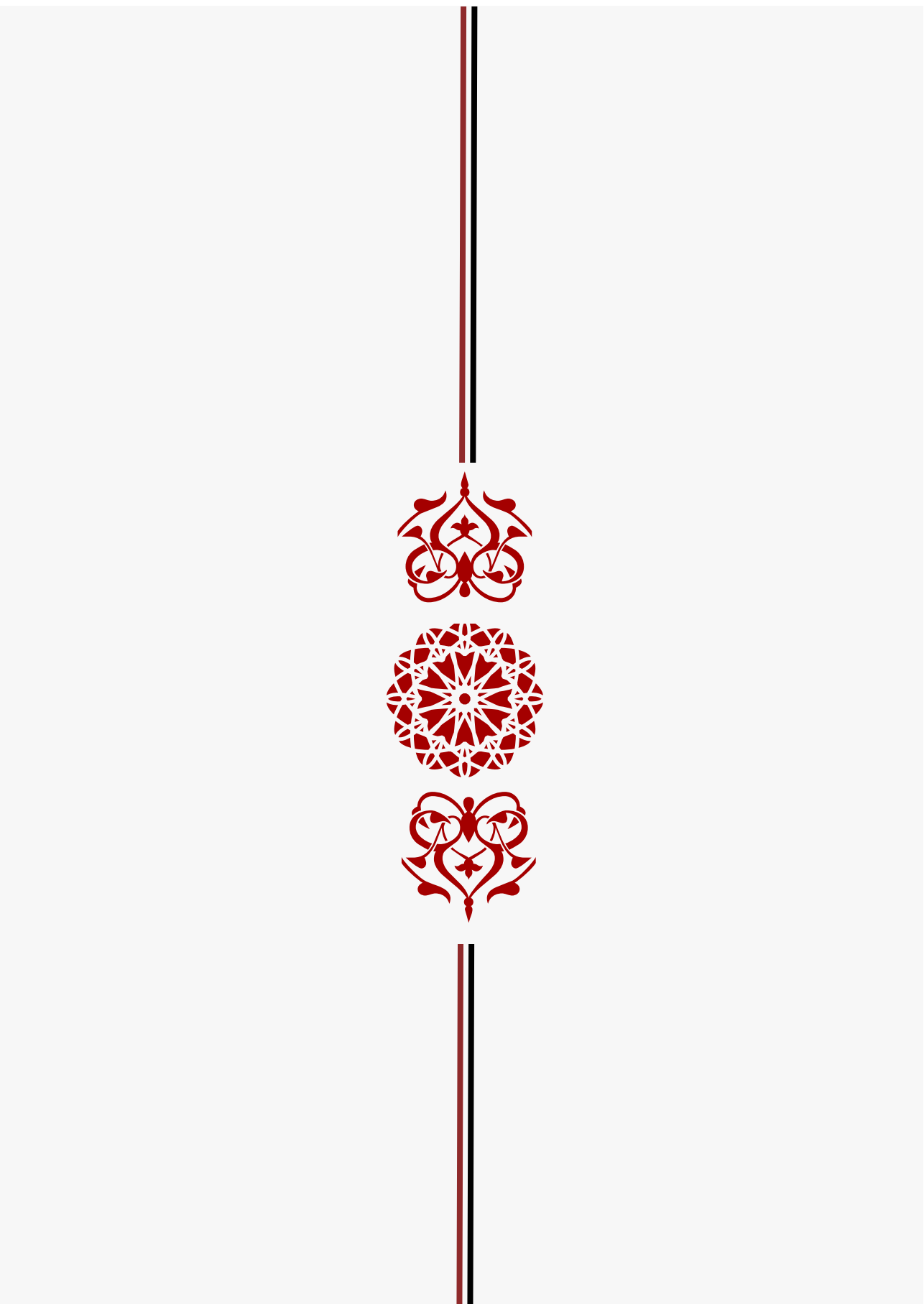
﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾ أي: فصلُ القضاء يوم القيامة، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾: أي: في الآخرة فيُجازيكم علىٰ أعمالكم؛ المُحسن بإحسانه والكافر بإساءته، ولله الحمد والمنة، وبه التوفيق والعصمة.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.
تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْقَصَصِ



تَفْسِيرُ سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ





سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

سُورَةٌ مَكِّيَّةٌ، وَآيَاتُهَا تِسْعَةٌ وَسِتُّونَ آيَةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٧﴾.

١ ﴿الٓمٓ﴾.

٢ ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ أظن الناس، ﴿أَن يُتْرَكُوٓاْ﴾ بغير اختبارٍ ولا ابتلاء، بمجرد، ﴿أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ بأفواههم، ﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ لا يُبتلون في أموالهم وأنفسهم، وقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ البلاء ليعلم الصادق من الكاذب، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد:٣١].

وفي حديث سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاَءً؟ قَالَ: **«الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ، فَيُبْتَلَىٰ الرَّجُلُ عَلَىٰ حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلاَؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَىٰ حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ البَلاَءُ بِالعَبْدِ حَتَّىٰ يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَىٰ الأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»** أخرجه الترمذي.

وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: **«لَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْمُؤْمِنِ وَالْمُؤْمِنَةِ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ، حَتَّىٰ يَلْقَىٰ اللهَ وَمَا عَلَيْهِ مِنْ خَطِيئَةٍ»** أخرجه أحمد.

وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند البخاري: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُصِبْ مِنْهُ»**، وإنما تُعرف جودة الذهب بعد أن يُدخل النار، فهكذا يُعرف ثبات الإنسان بالابتلاء والاختبار.

٣ ﴿وَلَقَدْ﴾ أي: والله لقد، ﴿فَتَنَّا﴾ اختبرنا، ﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني: من الأنبياء والمؤمنين.

فمنهم من نُشِرَ بالمنشار، ومنهم من سامه الكفار سوء العذاب، وفي حديث خباب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال النبي ﷺ: **«كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَىٰ رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ، حَتَّىٰ يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَىٰ حَضْرَمَوْتَ، لاَ يَخَافُ إِلَّا اللهَ، أَوِ الذِّئْبَ عَلَىٰ غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»** متفق عليه.

﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ﴾ علمَ وقوعٍ، وإلا فإن الله بكل شيءٍ عليم، ﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ في إيمانهم، وقولهم: آمنا، ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ أي: بمن يُظهر الاستقامة وهو علىٰ غير ذلك، كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ﴾ **[الأنفال:٣٧]**، وقد قال الله تعالىٰ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ۖ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ **[العنكبوت:١٠]**.

٤ ﴿أَمْ حَسِبَ﴾ ظن ﴿ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الشرك وما دونه من المعاصي، ﴿أَن يَسْبِقُونَا ۚ﴾ يُعجزونا ويفوتون عن عقابهم، ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ بئس ما يظنون ويؤملون، فإن الله بكل شيءٍ محيط، وعلىٰ كل شيءٍ قدير.

٥ ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟﴾ يؤمِّل ﴿لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة، ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ الوقت المعين للبعث والنشور، ﴿لَـَٔاتٍ﴾ واقع لا محالة، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَـَٔاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَـٰكِنَّ﴾ **[غافر:٥٩]**، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوال عباده، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم؛ فيُجازي المُحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

٦ ﴿وَمَن جَـٰهَدَ﴾ بذل الجهد لإعلاء كلمة الله، ﴿فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ﴾ كقوله ﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ أي: أن نفع ذلك عائدٌ إليه؛ من رفع الدرجات وعظيم الهبات: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ﴾ وغناه ذاتي، عُبِدَ أم كُفِرَ، أُطيعَ أم عُصيَ، ﴿عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي: عن أعمالهم وعن جميع شأنهم.

٧ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ﴾ لنمحونَّ، ﴿عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ خطاياهم وذنوبهم، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ لنثيبنهم في دنياهم وأخراهم ثواباً، ﴿أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من العمل الصالح، فيدفع الله عنهم البلاء، والضراء، وربما حصل لهم السراء والرخاء، فالعاقبة

للتقوىٰ، كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾.

﴿٨﴾ ﴿وَوَصَّيْنَا﴾ أمرنا، ﴿ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ أي: ببرهما وطاعتهما في المعروف، والإحسان إليهما، ومع هذه الوصية بالإحسان إليهما مقابل إحسانهما السالف إلىٰ الابن، لا طاعة لهما في معصية، ولهذا قال: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾ أمراك بغير طاعةِ الله؛، ﴿لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ ومثله قول رسول الله ﷺ: **«لَا طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ»** متفق عليه عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ بعثكم وجمعكم يوم القيامة، ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ أُخبركم، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا.

وهذه إحدىٰ الآي التي نزلت في سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان بارًّا بأمه، فقالت له: ما هذا الدين الذي أحدثت، والله لا آكل ولا أشرب، حتىٰ ترجع إلىٰ ما كنتَ عليه، أو أموت، فتُعير بذلك أبد الدهر، ويُقال: يا قاتل أمه، ثم إنها مكثت يومًا وليلة لم تأكل ولم تشرب، فأصبحت قد جَهِدَت، ثم مكثت يومًا آخر وليلة لم تأكل ولم تشرب، فجاء سعد إليها وقال: يا أماه لو كانت لكِ مائة نفسٍ فخرجت نفسًا نفسًا، ما تركتُ ديني فكلي، وإن شئتِ فلا تأكلي، فلما أيست منه أكلت وشربت، فأنزل الله تعالىٰ هذه الآية.

﴿٩﴾ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ كررها لبيان فضلهم وعلو منزلتهم: ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ﴾ يوم القيامة، ﴿فِي﴾ زمرة، ﴿الصَّالِحِينَ﴾ وهم الأنبياء والمرسلين، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء:٦٩]، وعن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال قال النبي ﷺ: **«يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي أَوَّلُ زُمْرَةٍ سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ مُتَمَاسِكُونَ آخِذٌ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، لَا يَدْخُلُ أَوَّلُهُمْ حَتَّىٰ يَدْخُلَ آخِرُهُمْ، تُضِيءُ وُجُوهُهُمْ إِضَاءَةَ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ»** متفق عليه.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ۖ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿١٠﴾ ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ أهل النفاق، ﴿مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ﴾ بفيه لا بقلبه وفعله: ﴿فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ﴾ اختبر وابتلي، ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: أذيتهم له: ﴿كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ وربما ارتد وانحرف، ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ ظَفَر للمؤمنين والموحدين، ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ طمعًا في الدنيا، ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ أي: بظاهرهم، ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بلىٰ ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الأنفال:٤٣] فلا يلتبس الأمر، إلا علىٰ من يجهل ذلك، أما ربنا عَزَّوَجَلَّ فإنه علامُ الغيوب.

﴿١١﴾ ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ﴾ علم وقوع، ﴿ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ انقادوا، ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ الذين نافقوا.

وَقَدْ يُشْكِلُ عَلَى هَذِهِ الآيَةِ:

أن النفاق إنما كان في المدينة بعد غزوة بدر، ومعلوم أن سورة العنكبوت مكية، وقد قال بعض العلماء هذه الآية مدنية، وقال بعضهم: هي مكية، وإنما كانت في شأن من ابتلي ففتن، والله أعلم، وقد تقدم نحو هذا في سورة الأنفال.

﴿١٢﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ انقادوا لحكم الله وشرعه، لفتنتهم ﴿ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا﴾ أي: ديننا وطريقنا في الشرك ونحوه، ﴿وَلْنَحْمِلْ﴾ يوم القيامة عنكم، ﴿خَطَٰيَٰكُمْ﴾ وذنوبكم ونجازىٰ عليها، والواقع أنهم ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم﴾ ذنوبهم، ﴿مِّن شَىْءٍ﴾ بل كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر:٣٨]. ﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي: في قولهم هذا، فلكلٍّ وزره، ولكلٍّ ذنبه.

﴿١٣﴾ بل ﴿وَ﴾ الله: ﴿لَيَحْمِلُنَّ﴾ دعاة الضلالة والشرك ونحوهم، ﴿أَثْقَالَهُمْ﴾ ذنوبهم التي حملوها ﴿وَأَثْقَالًا﴾ وذنوبًا ﴿مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ مع ذنوبهم لدعوتهم إلىٰ الضلال فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: **«وَمَنْ دَعَا إِلَىٰ ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنِ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا»** متفق عليه.

﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ﴾ أي: الكفار، ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ سؤال تقرير، ﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ يكذبون ويقولون علىٰ الله غير الحق.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿١٤﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ وهو أول رسول إلىٰ أهل الأرض، ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ وكانوا أهلُ الأرض في ذلك الوقت، ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾؛ يدعوهم إلىٰ التوحيد، ويُحذرهم من الشرك والتنديد، فأبوا، ﴿فَأَخَذَهُمُ﴾ عند ذلك، ﴿الطُّوفَانُ﴾ وهو الماء الذي غطىٰ الأرض، حين دعا نوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ ربه بقوله: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ [القمر:١٠-١١]، ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ كافرون.

﴿١٥﴾ ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ سلمناه ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ من الغرق، وهم أهل الإيمان ومن شاء الله من الحيوان، ﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾: أي: السفينة، ﴿آيَةً﴾ علامة وعبرة وعظة، ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾؛ دالة علىٰ عظيم قدرة الله عَزَّوَجَلَّ وعظيم شأنه، وعظيم حفظه لأوليائه وأصفيائه، وأخذه لأعدائه.

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾.

﴿١٦﴾ ﴿وَ﴾ واذكر ﴿إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ من حران عُباد الكواكب: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾: وحدوه، ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ بفعل المأمور وترك المحظور، ﴿ذَلِكُمْ﴾: أي: توحيدُ الله عَزَّوَجَلَّ وطاعته، ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ في دينكم ودنياكم، ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ شرع الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿١٧﴾ ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾ أصنامًا، ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ كذبًا:

وَالْكَذِبُ الْمُخْتَلَقُ الْمَصْنُوعُ ... عَلَىٰ النَّبِيِّ فَذَلِكَ الْمَوْضُوعُ

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأصنام والأوثان، ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾: عطاءً، ﴿فَٱبْتَغُوا۟﴾ اطلبوه ﴿عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾: فهو معطيه ومسديه، ﴿وَٱعْبُدُوهُ﴾: وحدوه، ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ نعمه الكثيرة يزدكم منها: ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾: تُحشرون وتُبعثون وتجازون علىٰ أعمالكم.

(١٨) ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ﴾ هذه الدعوة التي دعوتكم بها، ﴿فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ طوائفٌ من قبلكم فأهلكهم الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾ الواضح عن الله عَزَّوَجَلَّ والهداية من الله، كما قال تعالىٰ: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام:٣٩].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأَخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

(١٩) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ ينظروا نظر اعتبار ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ﴾ يبتدئ ﴿ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ﴾ من العدم ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ بعد موته في الآخرة حين بعثه ونشوره: ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ البعث ﴿عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ سهل، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

(٢٠) ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ التي حولكم، ﴿فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ ﴿ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأَخِرَةَ﴾ البعث بعد الموت: ﴿إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يُعجزه شيء.

(٢١) ﴿يُعَذِّبُ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ ﴿مَن يَشَاءُ﴾ بجرمه ﴿وَيَرْحَمُ﴾ الله ﴿مَن يَشَاءُ﴾ ممن تاب وأناب، ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ وتُردون يوم القيامة فيجازيكم بأعمالكم.

(٢٢) ﴿وَمَا أَنتُمْ﴾ يا معاشر الكافرين، ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ فائتين وهاربين، ﴿فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ﴾ فإن الله عَزَّوَجَلَّ مُحيطٌ بكم، ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ﴾ ينصركم ويُعينكم ويؤيدكم، ﴿وَلاَ نَصِيرٍ﴾ يمنعكم مما أنتم فيه، ويجلب لكم أسباب النصر والظفر.

(٢٣) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ﴾ الشرعية، ويدخل فيها الكونية باعتقادهم أن مع الله شريكًا أو مثيلًا أو نظيرًا أو معينًا، ﴿وَلِقَائِهِ﴾: البعث، ﴿أُوْلَـٰئِكَ يَئِسُواْ﴾ قنطوا، ﴿مِن رَّحْمَتِي﴾: أي: من الجنة، فـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف:٥٠]، ﴿وَأُوْلَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في النار وبئس القرار.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿٢٤﴾ ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ أي: قوم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ﴾ وهذه حيلة العاجز عن الحجة والبرهان، ﴿أَوْ حَرِّقُوهُ﴾؛ أرادوا التنكيل به، والانتقام منه أشد الانتقام، ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾؛ حيث قال الله لها: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩]، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الحفظ والسلامة ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ عظاتٍ وعبر ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يُصدقون ويُقرون بخبر الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿٢٥﴾ ﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم﴾ عبدتم، ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾ أصنامًا صماء بكماء لا تسمع ولا تنفع، ﴿مَّوَدَّةَ﴾ محبة تكون ﴿بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، وتنقطع في الآخرة، فلا ينفعونكم ولا يشفعون فيكم، بل كانوا لكم أعداء، ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ حين يبعثكم الله من قبوركم، ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ التابع والمتبوع، ﴿وَيَلْعَنُ﴾ يدعو ﴿بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ بالخزي والندامةِ، وهذا من البراءة التي أخبر الله عنها: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٦٧]، ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ﴾ مثواكم ومستقركم، ﴿ٱلنَّارُ﴾ تُخَلَّدُونَ فيها، ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يسعون في نجاتكم منها.

﴿٢٦﴾ ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ﴾ لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿لُوطٌ﴾ عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو ابن عمه، ﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ أراد أن يترك الأرض التي هو فيها إلىٰ الشام: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُغلب ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في فعله وأمره.

﴿٢٧﴾ ﴿وَوَهَبْنَا﴾ أعطينا، ﴿لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ نافلة، إسحاق الابن ويعقوب ابن الابن، ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ﴾ الرسالة، ﴿وَٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: الكتب تُنزل علىٰ ذريته، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾ أعطيناه، ﴿أَجْرَهُۥ﴾ ثوابه، ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ حيث أعطاه الله الثناء الحسن والرزق الطيب، ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: في زمرة الصالحين.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿٢٨﴾ ﴿وَ﴾ اذكر، ﴿لُوطًا﴾ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ في قرية سدوم: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ اللواط، ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وهي فعلة قبيحة.

﴿٢٩﴾ ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ﴾ تعاشرون ﴿الرِّجَالَ﴾ أي: من دون النساء، وهذا دليل علىٰ تنكس الفطر، ﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ الطُّرق، وقيل: تقطعون سبيل النسل، **والأول أولىٰ**، ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ﴾ في أماكن تجمعاتكم، ﴿الْمُنكَرَ﴾ الفاحشة يعني: فكانوا يجتمعون ويتسافدون تسافد الحُمُر، لا يخجل بعضهم من بعض.

وهذا موجود في بعض الدول، يجتمع العراة في مكانٍ عام، وكلٌّ علىٰ منكره وفاحشته، ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ﴾ رد ﴿قَوْمِهِ﴾ علىٰ دعوته لهم بالصلاح والإصلاح: ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا﴾ كبرًا وعنادًا: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾: ببطش الله ونقمته، ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾؛ أنك رسول من رب العالمين.

﴿٣٠﴾ ﴿قَالَ﴾ داعيًا لربه تعالىٰ ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ بالشرك والفاحشة.

﴿٣١﴾ ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ﴾ الملائكة، ﴿بِالْبُشْرَى﴾ بشروه، بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟﴾ بالعذاب ﴿أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ﴾: قرية سدوم: ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ بالشرك والفاحشة.

﴿٣٢﴾ ﴿قَالَ﴾ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ فكيف يُهلك معهم؟، ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا﴾ من المسلمين والمؤمنين، ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾ نُسلِّمَنَّهُ، ﴿وَأَهْلَهُۥٓ﴾ الذين آمنوا معه، وهن بناته: ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ الهالكين؛ بسبب نفاقها.

٣٣ ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا﴾ الملائكة ﴿لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ﴾ لحقه الهم والغم والحَزَن بمجيئهم، ﴿وَضَاقَ﴾ صدره ﴿بِهِمْ ذَرْعًا﴾ خوفًا عليهم من قومه؛ لأنهم لا يرعوون، ولا ينزجرون، ﴿وَقَالُوا﴾ الملائكة: ﴿لَا تَخَفْ﴾ منهم ﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾ مما تظن، ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾ مسلموك ﴿وَأَهْلَكَ﴾ المؤمنين، ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ الهالكين.

٣٤ ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ﴾ وفي قراءة: مُنَزِّلُونَ، ﴿عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا﴾ عذابًا، ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود: ٨٢]، ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ يُشركون ويندون، ويأتون الفاحشة.

٣٥ ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ﴾ من قرية لوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ﴿ءَايَةًۢ بَيِّنَةً﴾ علامة واضحة علىٰ ما لحقهم، ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أمر الله، ويعقلون شرعه، وأكثر الناس لا يعقلون، ولا يسمعون ولا يتدبرون.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

٣٦ ﴿وَ﴾ اذكر إذ أرسلنا، ﴿إِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أي: في النسب، ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وحدوه، ﴿وَٱرْجُوا۟﴾ واخشوا ﴿ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ القيامة، ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟﴾ تنتشروا، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ بالشرك والتطفيف.

٣٧ ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ وردوا دعوته، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ الزلزلة والصيحة العظيمة، ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ مُهلكين.

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُمُ مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

٣٨ ﴿وَ﴾ اذكر إذ أهلكنا، ﴿عَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ﴾ ظهر ﴿لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾ المشيدة في الشحر من حضرموت والحجر من شمال الجزيرة، الدالة علىٰ قوتهم كيف فعل الله بهم ودمر عليهم، ﴿وَزَيَّنَ﴾ حسَّن، ﴿لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ السيئة من الشرك فما دونه،

﴿فَصَدَّهُمْ﴾ صرفهم، ﴿عَنِ السَّبِيلِ﴾ عن الهدىٰ والطريق القويم، ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ يعني: يحسبون أنهم علىٰ هدىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت:١٧].

٣٩ ﴿وَ﴾ اذكر إذ أهلكنا، ﴿قَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ﴾ ابن عمران عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾: الحجج الوضاحات، ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ وعلوا، وتجبروا، وكفروا، ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أرض مصر، ﴿وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ فائتين لعذابِ الله عَزَّوَجَلَّ.

٤٠ ﴿فَكُلًّا﴾ ممن تقدم ذكره ومن لم يذكر ﴿أَخَذْنَا﴾ عذبنا ﴿بِذَنبِهِ﴾ بشركه وجريرته وذنبه، ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ كقوم لوط، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ كقوم مدين، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ كقارون، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ كفرعون وهامان، ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ بما حل بهم من العقوبات، ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾؛ بشركهم وعنادهم وبغيهم. ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

٤١ ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أصنامًا وأوثانًا يستنصرون بهم، ﴿كَمَثَلِ﴾ حشرة ﴿الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ﴾ صنعت، ﴿بَيْتًا﴾؛ فما ردَّ عنها حرًّا ولا قرًّا، ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ﴾ أضعف ﴿الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

وهذا من الأمثال التي ضربها الله عَزَّوَجَلَّ لبيان شؤم عبادة الأصنام، وأنها لا تنفع ولا تضر، لا في الدنيا ولا في الأخرىٰ.

٤٢ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ﴾ يعبدون ﴿مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ من الأصنام والأوثان، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلب، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في فعله وأمره.

٤٣ ﴿وَتِلْكَ﴾ وهذه ﴿الْأَمْثَالُ﴾ والأشباه والنظائر، ﴿نَضْرِبُهَا﴾ نُبينها، ﴿لِلنَّاسِ﴾ لكفار مكة ومن إليهم، ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا﴾ أي: يعقل هذه الأمثال ويفهم المُراد منها، ﴿إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ العقلاء، وأما المعرضون فكان قولهم: ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [المدثر:٣١]، وربما ضحكوا من المثل؛ لجهلهم، وتعمق الكفر فيهم.

﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿٤٤﴾ ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ الثابت، لم يخلقها عبثًا، كقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون:١١٥]، ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الدخان:٣٨]، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾: علامة وحجة، ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ على قدرة الله عَزَّوَجَلَّ وتوحيده.

﴿٤٥﴾ ﴿ٱتْلُ﴾ اقرأ يا محمد: ﴿مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ القرآن، ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ المفروضة، ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾ ما فَحُشَ من الأقوال والأفعال، ﴿وَالْمُنكَرِ﴾ ما لا يُعرف في الشرع، ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ طاعةُ الله.

وقيل المُراد بالذكر هنا: ما يأتي به الإنسان من أذكار الصباح والمساء.. ونحو ذلك، وهي داخلة في هذا المعنىٰ، إلا أن المعنىٰ الأول أكمل وأتم، وقد جاء في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال رجلٌ للنبي ﷺ: أَنَّ رَجُلًا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ اللَّيْلَ كُلَّهُ فَإِذَا أَصْبَحَ سَرَقَ، قَالَ: **«سَتَنْهَاهُ قِرَاءَتُهُ»** أخرجه أحمد.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ من الطاعات والقربات.

وفي فضل الذكر ما أخرجه أبو داود عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال الرسول ﷺ: **«أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ، وَأَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ، فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ، وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ»**؟ قَالُوا: وَمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: **«ذِكْرُ اللهِ»**.

وفي حديث أبي هريرة وأبي سعيد: **«لَا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا حَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ»** متفق عليه.

وأجر الذكر مضاعف ففي حديث جويرية بنت الحارث: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا بُكْرَةً حِينَ صَلَّىٰ الصُّبْحَ، وَهِيَ فِي مَسْجِدِهَا، ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ أَضْحَىٰ، وَهِيَ جَالِسَةٌ، فَقَالَ: **«مَا زِلْتِ عَلَىٰ الْحَالِ الَّتِي فَارَقْتُكِ عَلَيْهَا؟»** قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكِ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، لَوْ وُزِنَتْ بِمَا قُلْتِ مُنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنَتْهُنَّ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ وَرِضَا نَفْسِهِ وَزِنَةَ عَرْشِهِ وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ»**، أخرجه مسلم.

وعند الطبراني وغيره عن أبي أمامة قَالَ: أَتَىٰ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَنَا أُحَرِّكُ شَفَتَيَّ، فَقَالَ: **«يَا أَبَا أُمَامَةَ، مَا تَصْنَعُ؟»**.

قَالَ: قُلْتُ: أَذْكُرُ رَبِّي، قَالَ: **«أَفَلَا أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَيْءٍ هُوَ أَفْضَلُ مِنْ ذِكْرِكَ اللَّيْلِ مَعَ النَّهَارِ، وَذِكْرِكَ النَّهَارَ مَعَ اللَّيْلِ؟»**.

قَالَ: قُلْتُ: بَلَىٰ، قَالَ: **«قُلْ: سُبْحَانَ اللهِ عَدَدَ مَا خَلَقَ اللهُ، وَسُبْحَانَ اللهِ مِلْءَ مَا خَلَقَ، وَسُبْحَانَ اللهِ عَدَدَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَسُبْحَانَ اللهِ مِلْءَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، سُبْحَانَ اللهِ عَدَدَ مَا أَحْصَىٰ كِتَابُهُ وَسُبْحَانَ اللهِ مِلْءَ مَا أَحْصَىٰ كِتَابُهُ، وَسُبْحَانَ اللهِ عَدَدَ كُلِّ شَيْءٍ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَدَدَ مَا خَلَقَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ مِلْءَ مَا خَلَقَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَدَدَ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ مِلْءَ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَدَدَ مَا أَحْصَىٰ كِتَابُهُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ مِلْءَ مَا أَحْصَىٰ كِتَابُهُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَدَدَ كُلِّ شَيْءٍ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ مِلْءَ كُلِّ شَيْءٍ، وَاللهُ أَكْبَرُ عَدَدَ مَا خَلَقَ، وَاللهُ أَكْبَرُ مِلْءَ مَا خَلَقَ، وَاللهُ أَكْبَرُ عَدَدَ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَاللهُ أَكْبَرُ مِلْءَ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَاللهُ أَكْبَرُ عَدَدَ مَا أَحْصَىٰ كِتَابُهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ عَدَدَ كُلِّ شَيْءٍ، وَاللهُ أَكْبَرُ مِلْءَ كُلِّ شَيْءٍ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ عَدَدَ مَا خَلَقَ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مِلْءَ مَا خَلَقَ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ عَدَدَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مِلْءَ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ عَدَدَ مَا أَحْصَىٰ كِتَابُهُ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ عَدَدَ كُلَّ شَيْءٍ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مِلْءَ كُلِّ شَيْءٍ، قُلْهُنَّ يَا أَبَا أُمَامَةَ وَعَلِّمْهُنَّ عَقِبَكَ؛ فَإِنَّهُنَّ أَفْضَلُ مِنْ ذِكْرِكَ اللَّيْلِ مَعَ النَّهَارِ، وَذِكْرِكَ النَّهَارَ مَعَ اللَّيْلِ»**.

الحديث له ألفاظ متقاربة، وهو مُحتجٌ به.

وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ كان يسير في طريق مكة، فمرَّ علىٰ جبل يُقال له جُمدان، فقال: **«سِيرُوا هَذَا جُمْدَانُ سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ»**، قَالُوا: وَمَا الْمُفَرِّدُونَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: **«الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ»** أخرجه مسلم.

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ٤٧﴾.

٤٦ ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ﴾ تُخاصموا وتناظروا، ﴿أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ اليهود والنصارىٰ، ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ بالقرآن والدعاء إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، مع ملازمة الرفق واللين، وهذا في حقِّ من كان يُرجىٰ منه الاستجابة، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ بالعناد والمكابرة وأبوا أن يُعطوا الجزية ونصبوا الحرب، فجالدوهم بالسيف، ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة:٢٩].

وقد استدل أصحاب القول بوحدة الأديان بأول هذه الآية، وترك النظر إلىٰ آخرها فضلوا حيث دعوا إلىٰ لين الجانب تجاه الكافرين مطلقًا، بل إنهم جوَّزوا دينهم المحرف المبدل الذي عُلم ضلاله بإجماع المسلمين وبنص القرآن والوحي المبين، وقد بينت بحمد الله فساد هذه الدعوة في كتاب مستقل.

﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ أي: القرآن، ﴿وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ من الحق الثابت الذي لم يُغير ولم يُبدل، ﴿وَإِلَٰهُنَا﴾ معبودنا، ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ﴾ معبودكم، ﴿وَٰحِدٞ﴾ وهو الله الذي لا إله إلا هو، ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾: مستسلمون منقادون.

وليس في الآية تجويز أن نأخذ من كتبهم؛ فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ، وَقُولُوا: آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ»** أخرجه البخاري.

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: **«يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، كَيْفَ تَسْأَلُونَ أَهْلَ الكِتَابِ، وَكِتَابُكُمُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَىٰ نَبِيِّهِ ﷺ أَحْدَثُ الأَخْبَارِ بِاللهِ، تَقْرَءُونَهُ لَمْ يُشَبْ، وَقَدْ حَدَّثَكُمُ اللهُ أَنَّ أَهْلَ الكِتَابِ بَدَّلُوا مَا كَتَبَ اللهُ وَغَيَّرُوا بِأَيْدِيهِمُ الكِتَابَ، فَقَالُوا: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا، أَفَلاَ يَنْهَاكُمْ مَا جَاءَكُمْ مِنَ العِلْمِ عَنْ مُسَاءَلَتِهِمْ، وَلاَ وَاللهِ مَا رَأَيْنَا مِنْهُمْ رَجُلًا قَطُّ يَسْأَلُكُمْ عَنِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ»** أخرجه البخاري.

٤٧ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كما أنزلنا إليهم الكتاب، ﴿أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ القرآن، ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ عبد الله بن سلام ومن إليهم، ﴿يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ بالقرآن ﴿وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ من أهل مكة

﴿مَن يُؤْمِنُ بِهِ﴾ بالقرآن ﴿وَمَا يَجْحَدُ﴾ يردُّ ويكفرُ، ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الشرعية، ﴿إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ المعرضون عن دين الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿٤٨﴾ ﴿وَمَا كُنتَ﴾ يا محمد: ﴿تَتْلُواْ﴾ تقرأ، ﴿مِن قَبْلِهِ﴾ أي: من قبل نزول القرآن، ﴿مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ أي: ما كنتَ تقرأ ولا تكتب، ﴿إِذًا﴾ لو كنت تكتب وتقرأ المكتوب ﴿لَّٱرْتَابَ﴾ شك ﴿الْمُبْطِلُونَ﴾ الجهلة الشاكون فإذا أتيتهم بالقرآن سيقولون: هذا أخذه من أساطير الأولين، ودونها، ثم جعل يقرأها علينا.

والنبي ﷺ كان أميًّا لا يكتب ولا يقرأ المكتوب، ومن زعم أن الأمي نسبة إلىٰ أمِّ القرىٰ فقوله باطل، وأما ما جاء في الحديبية أنه مسح اسمه وكتب، فإنما هي آية، وقد كفَّرَ بعضُ أهل العلم من زعم أن النبي ﷺ كان يقرأ المكتوب.

وَالصَّحِيحُ أن قائل هذا لا يصل إلىٰ الكفر؛ ولكنه مخالف للدليل.

﴿٤٩﴾ ﴿بَلْ هُوَ﴾ أي: القرآن، ﴿آيَاتٌ﴾ حججٌ، ﴿بَيِّنَاتٌ﴾ ظاهرات، ﴿فِي صُدُورِ﴾ في قلوب ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ من المؤمنين دون غيرهم؛ لأنهم أعلم بمُرادِ الله، وبمُرادِ رسول الله ﷺ، ﴿وَمَا يَجْحَدُ﴾ يكفر ﴿بِآيَاتِنَآ إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ الكافرون.

﴿٥٠﴾ ﴿وَقَالُوا﴾ معارضين لنبوةِ محمد ﷺ: ﴿لَوْلَا﴾ هلَّا، ﴿أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ﴾ مُعجزات ظاهرات، ﴿مِّن رَّبِّهِ﴾ كما وقع للأنبياء من قبله، ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ﴾ هو الذي يأتي منها بما شاء، وهو القادر علىٰ إرسالها، ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ﴾ مُخوِّف لكم من عذاب الله، ﴿مُّبِينٌ﴾ واضح النذارة، أُنذركم النار وأحذركم من بطش الملك الجبار.

﴿٥١﴾ ولما اعترضوا علىٰ رسول الله ﷺ بقولهم: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ رد الله عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ آية وحجة ﴿أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ القرآن، ﴿يُتْلَىٰ﴾ يُقرأ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ في صبحهم ومسائهم بلغة العرب الفصيحة؟، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الكتاب ﴿لَرَحْمَةً﴾

وهداية، ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ عظة، ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يلزمون العمل الصالح، لكن حالهم كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١].

وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال قال رسول الله ﷺ: «**مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ**» متفق عليه.

والاستدلال بعموم هذه الآية: أنه ينبغي أن يكفي الناس القرآن والسنة في الاستدلال لجميع معائشهم وشؤونهم العلمية والعملية.

٥٢ ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ مطلعًا أني رسوله ويشهد علىٰ صدقي، أرسلني بالهدىٰ ودين الحق فهو: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لا تخفىٰ عليه خافية، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ﴾ بالأصنام والأوثان، ﴿وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ جحدوا عبادته وأعرضوا عنها، ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ في الدنيا والآخرة.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

٥٣ ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ يستعجلك أيها الرسول المشركون، ﴿بِٱلْعَذَابِ﴾ الهلكة التي أنذرتهم، ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ﴾ وقت ﴿مُّسَمًّى﴾ قد أجَّلَهُ الله، ووقته لهم، ﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ كما أتىٰ الذين من قبلهم، ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم﴾ العذاب، ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة علىٰ حين غرَّة، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بوقت مجيئه وفعلًا خرجوا إلىٰ بدر، وما كان عندهم ظن أن تقع المعركة، وإذا بهم يُقتلون ويؤسرون.

٥٤ ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ كررها لشدةِ مطالبتهم بذلك، ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ حين يدخلون فيها، ويكون حالهم كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف:٤١].

٥٥ ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ﴾ يغطيهم ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ أي: عذاب النار ﴿مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ جزاء شرككم وكفركم كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأعراف:٤١].

﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ٥٦ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٥٧ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٥٨ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٥٩ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦٠﴾.

٥٦ ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٌ﴾ فهاجروا إلىٰ غيرها، إذا ضيق عليكم ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ وحدون ولا تشركون بي غيري، ولا تتخوف من الهجرة.

٥٧ فإن ﴿كُلُّ نَفۡسٖ﴾ حية، ﴿ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ ممن كتب الله عليه الموت والفناء، ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ فتُجازوْنَ علىٰ أعمالكم؛ المُحسن بإحسانه، والمُسيء بإساءته.

٥٨ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ أُنزلنَّهم ضيافة، ﴿مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا﴾ قصورًا، والغُرَفَ أعالي الجِنان، ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا الأَنۡهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾ [الكهف:١٠٨]، وقال: ﴿لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ﴾ [الواقعة:٣٣]، ﴿نِعۡمَ أَجۡرُ﴾ ثواب ﴿ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ بالتوحيد والطاعة.

٥٩ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ من شأنهم أنهم، ﴿صَبَرُواْ﴾ علىٰ التزام شرع الله عَزَّوَجَلَّ ﴿وَ﴾ من شأنهم أنهم، ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يعتمدون في جلب المنافع ودفع المضار.

٦٠ ﴿وَكَأَيِّن﴾ كم ﴿مِّن دَآبَّةٖ﴾ تدُبُّ في الأرض، ذات حاجة إلىٰ الغذاء، ﴿لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا﴾ ما عندها قدرة علىٰ حمل الرزق ادخاره، وهذا أغلب شأن حيوان العالم، وإنما يكون الادِّخار عند الإنسان وعند بعضِ الحيوان كالنمل ونحوه، فيخرج الوحش ويأكل ويرجع، وتخرج الطير فتأكل وترجع.

وفي حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: **«لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَىٰ اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا»** أخرجه الترمذي.

﴿ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا﴾ يعطيها ﴿وَإِيَّاكُمۡۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾: لدعائكم ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بأحوالكم، وفي حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«فَإِنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّىٰ تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ»** أخرجه أحمد.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

(٦١) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ كفار قريش: ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ وهذا اعترافٌ منهم بربوبيته، وملكه وخلقه، ﴿فَأَنَّىٰ﴾ فكيف، ﴿يُؤْفَكُونَ﴾: يُصرفون عن الحق والهدىٰ إلىٰ الضلال والردىٰ.

(٦٢) ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ العطاء، ﴿لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾ يُضيِّق علىٰ من شاء منهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ بما هو من مصالح العباد، فكم من إنسان تُفسده السَّعَة، وكم من إنسان تُفسده القِلَّة.

(٦٣) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ السحاب ﴿مَآءً﴾ مطرًا، ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾ من بعد الجدب والقحط، ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي هو متصفٌ بصفات الجلال والجمال والكمال والعظمة، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ هذا الأمر، ولا يعقلون التوحيد.

(٦٤) ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ﴾ استمتاع بلذات الدنيا، ﴿وَلَعِبٌ﴾ عبث، ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ الحياة الدائمة الباقية، ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أن الدنيا فانية والآخرة باقية، لما قدموا الفاني علىٰ الباقي؛ ولكنهم لا يعقلون ذلك.

(٦٥) ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ السفينة وهي تجري بهم في البحر، فوقع عليهم المطر والريح الشديدة: ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾: أخلصوا له الدعاء، ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ﴾ سلمهم، ﴿إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ اليابسة، ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ ويُنددون.

ويذكرون في سبب إسلام عِكرمة بن أبي جهل أنه فرَّ من النبي ﷺ، فركب البحر، فاضطرب البحر، فقال ربَّان السفينة: اخلصوا الدعاء لله، قال له: لماذا؟ قال: لا يُنجينا في هذا الموطن إلا هو، قال: ردُّوني إلىٰ اليابسة، إذا كان لا يُنجينا في هذا الموطن إلا هو، لا يُنجينا في غيره إلا هو، ورجع وأسلم.

٦٦ ورجعوا إلىٰ شركهم ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ من النِّعَمِ العظيمات، والآلاءِ الجزيلات، ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ في هذه الحياة الدنيا بالنعيم الزائل، كما قال النبي ﷺ: **«الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ»** متفق عليه، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة كفرهم وبغيهم وظلمهم حين يموتون ويُبعثون ولا ينفعهم ذلك.

٦٧ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا﴾ صيَّرْنا لهم ﴿حَرَمًا﴾ وهي الكعبة، ﴿آمِنًا﴾ حفظه الله، فلم يُغزّوا ولم يؤذوا فيه، بل هو مُعظم في جميع الأديان، ﴿وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ﴾ يسلبون قتلا وأسراً بالحروب ونحوها، ﴿مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ خارج الحرم، ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ﴾ عبادة الأصنام والأوثان، ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ ينقادون، ويسارعون ﴿وَبِنِعْمَةِ اللهِ﴾ وهو محمد ﷺ والإسلام، ﴿يَكْفُرُونَ﴾؟! يجحدون ويعرضون، ولا يشكرون فقبحت أفعالهم، ونكست عقولهم.

٦٨ ﴿وَمَنْ﴾ لا ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى﴾ اختلق ﴿عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ وادعىٰ أنه رسول من الله، ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ به الرسول ﷺ، ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾ مستقر ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾؟ والمعنىٰ: أنه لا أظلم من إنسان يفتري علىٰ الله الكذب، أو يُكذب بالحق المنزل.

٦٩ ﴿وَالَّذِينَ﴾ أي: الرسول وأصحابه وأتباعه إلىٰ يوم الدين، ﴿جَاهَدُوا فِينَا﴾ بذل الجهد في الله ولله بفعل المأمور وترك المحظور، واستفرغوا جهدهم في معرفة الحق والعمل به، ويدخل فيه جهاد الكافرين، ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ﴾: نوفِّقنَّهُم، ﴿سُبُلَنَا﴾ الطُّرق الموصلة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ﴾ معية نصر، وحفظ، وتوفيق، وإعانة، ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ لله بالتوحيد وغير ذلك من الأعمال الصالحة، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

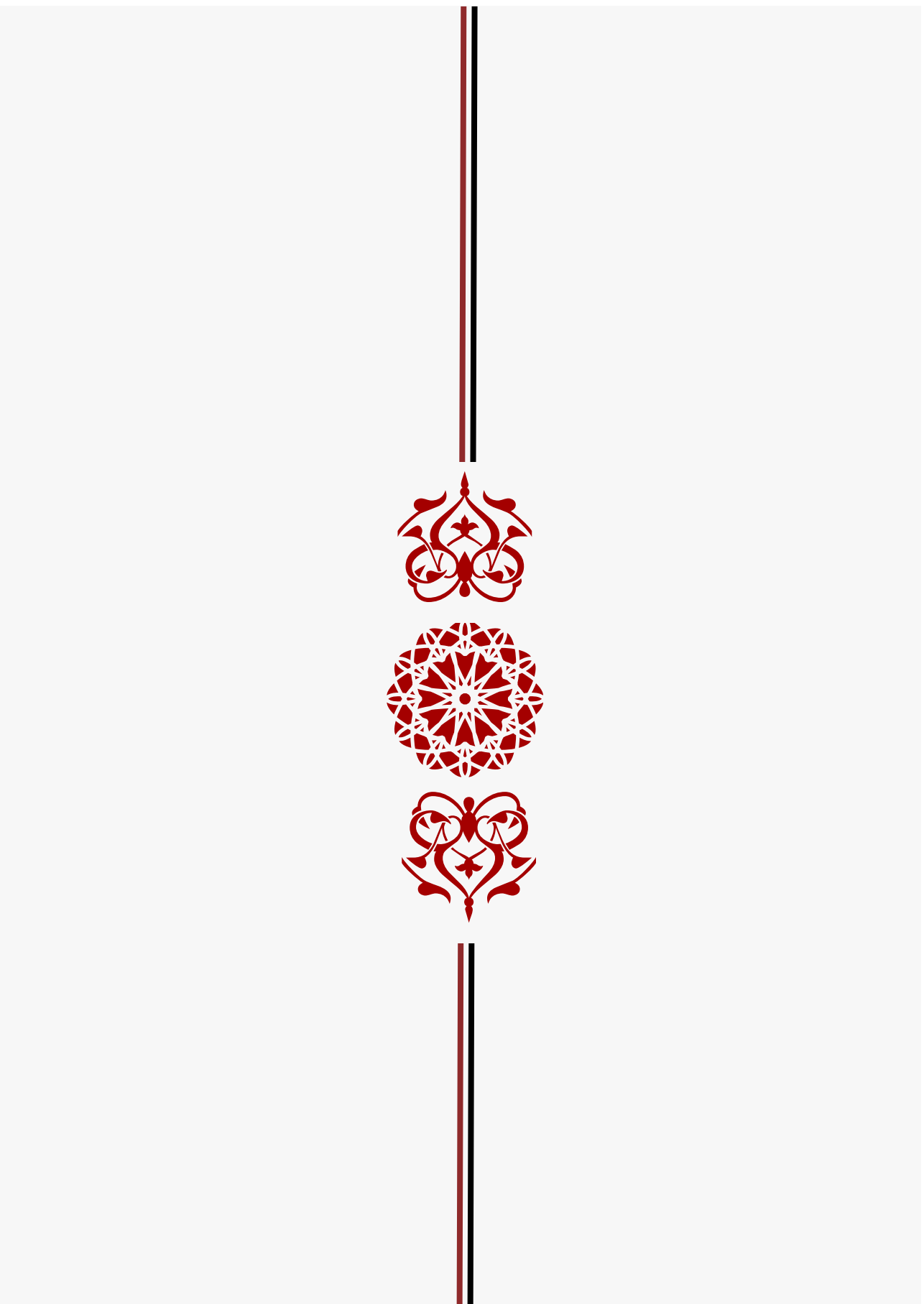
وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ العَنْكَبُوتِ



تَفْسِيرُ سُورَةِ الرُّومِ





سُورَةُ الرُّومِ

مَكِّيَّةٌ بِالْإِجْمَاعِ، وَآيَاتُهَا: سِتُّونَ آيَةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾.

(١) ﴿الٓمٓ﴾.

(٢) ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ أي: غلبتهم فارس.

(٣) ﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: أقرب أرض الشام إلىٰ أرض فارس، ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ فارسًا، وينتصرون عليهم وفعلًا حصل للروم النصر والظفر.

فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَ الْمُسْلِمُونَ يُحِبُّونَ أَنْ تَظْهَرَ الرُّومُ عَلَىٰ فَارِسَ، لِأَنَّهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ، وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يُحِبُّونَ أَنْ تَظْهَرَ فَارِسُ عَلَىٰ الرُّومِ، لِأَنَّهُمْ أَهْلُ أَوْثَانٍ، فَذَكَرَ ذَلِكَ الْمُسْلِمُونَ لِأَبِي بَكْرٍ، فَذَكَرَ أَبُو بَكْرٍ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: **«أَمَا إِنَّهُمْ سَيَهْزِمُونَ»** فَذَكَرَ ذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ لَهُمْ.

فَقَالُوا: اجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أَجَلًا، فَإِنْ ظَهَرُوا، كَانَ لَكَ كَذَا وَكَذَا، وَإِنْ ظَهَرْنَا، كَانَ لَنَا كَذَا وَكَذَا. فَجَعَلَ بَيْنَهُمْ أَجَلًا خَمْسَ سِنِينَ، فَلَمْ يَظْهَرُوا.

فَذَكَرَ ذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: **«أَلَا جَعَلْتَهُ - أُرَاهُ قَالَ: دُونَ الْعَشْرِ»** قَالَ: وَقَالَ سَعِيدٌ: الْبِضْعُ مَا دُونَ الْعَشْرِ قَالَ: فَظَهَرَتِ الرُّومُ بَعْدَ ذَلِكَ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ **[الروم: ١-٤].**

قَالَ: فَغُلِبَتِ الرُّومُ ثُمَّ غَلَبَتْ بَعْدُ، قَالَ: ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ **[الروم: ٤-٥]**، قَالَ: يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللهِ» **أخرجه أحمد.**

وقد وقعت بين الروم وفارس أكثر من سبعمائة معركة يتجاولون ويتصاولون، وفي أغلب المعارك ينتصر فارس علىٰ الروم، ثم بعد ذلك يسَّر الله بزوال دولتيهما علىٰ يدِ المسلمين في زمنٍ يسير، في خلافةِ عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٤ ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ والبضع ما بين الثلاث إلىٰ السبع، وقيل: ما بين الثلاث إلىٰ التسع، وقيل: ما دون العشر، ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ﴾ من قبل انتصار الروم، ﴿وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾ انتصارهم فينصر من شاء ويخذل من شاء، لا مُعقب لأمره ولا راد لقضائه، ﴿وَيَوۡمَئِذٖ﴾ أي: يوم نصر الروم علىٰ فارس، ﴿يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ يستبشرون ويسرون.

٥ ﴿بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ وذلك أن الروم كانوا أصحاب دين في الجملة، وفارس كانوا عبَّاد نار، ولهذا كان المُشركون يفرحون بانتصار فارس، والمؤمنون يفرحون بانتصار الروم، ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ﴾ لحكمة، ويهزم من شاء لحكمة، ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الغالب، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بالمؤمنين.

٦ ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ﴾ بنصر الروم علىٰ فارس وعْدًا وسيكون، ﴿لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عمران:١٩٤]، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾؛ لجهلهم من أن الله عَزَّوَجَلَّ متصفٌ بالكمال المُقدس أزلًا وأبدًا.

٧ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ أي: الكفار، ﴿ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ من أمور معايشهم ومكاسبهم، ﴿وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ القيامة، ﴿هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ ساهون، لا يُحسن أحدهم التوحيد، والصلاة وغير ذلك، وما أكثر الواقعين في هذا المعنىٰ يصنعون الكمبيوتر والآلات العظيمة، وهم مُعرضون كافرون بالله عَزَّوَجَلَّ.

﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ٨ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٩ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ١٠ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١١ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ١٢ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ ١٣ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ١٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ١٥ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ١٦﴾.

٨ ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ المشركون المكذبون، ﴿فِي أَنفُسِهِمْ﴾ وفي خلق الله وتصريفه لهم حيث خلقهم من العدم كما قال تعالىٰ: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢١]، ويتفكروا ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾: وهو قيام التوحيد، وتحقيق الطاعة فلم يخلقهما عبثًا، ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو يوم القيامة ينتهي فيه الناس إلىٰ خالقهم فيجازيهم بأعمالهم، ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ﴾ بالبعث، ﴿لَكَٰفِرُونَ﴾ مُعرضون، كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣].

٩ ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ التي أُهلِكت ودُمِّرت، كقوم عاد وثمود ﴿فَيَنظُرُوا﴾ نظر تفكر واتعاظ، ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾ نهاية وهلاك ﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم وماذا حلَّ بهم ونزل، ﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ﴾ أعظم ﴿مِنْهُمْ﴾ من قريش ﴿قُوَّةً﴾ وعددًا وعُدة، ﴿وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ حرثوها، وقلبوها للزراعة، ﴿وَعَمَرُوهَآ﴾ عاشوا فيها، أو أنهم عمروها بالبنيان، ﴿أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾: أي: أكثر مما عمرها قريش، ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الحجج الظاهرات القاهرات، فكفروا وأعرضوا فأهلكهم الله، ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ﴾ حين أهلكهم، ﴿لِيَظْلِمَهُمْ﴾، كما قال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦]، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالشرك والتنديد، فحل بهم ما حل ونزل بهم ما نزل.

١٠ ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ﴾ نهاية ﴿الَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟﴾ العمل، ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ يعني: الخِلَّة التي تسوؤهم وهي النار، ﴿أَن﴾ والسبب في ذلك أنهم، ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا﴾ وبحملتها، ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ يسخرون.

١١ فالمستحق للعبادة هو ﴿اللَّهُ﴾ الذي ﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ من العدم، ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ يبعثه، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تحشرون، واستدل بالبدأةِ علىٰ الإحياء والإعادة.

١٢ ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ﴾ ييأس، ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ المُشركون من رحمة الله.

١٣ ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآيِٕهِمْ﴾ من الأصنام والأوثان، ﴿شُفَعَٰٓؤُا۟﴾ يشفعون لهم عند الله، ﴿وَكَانُوا۟﴾ الأصنام والمعبودات، ﴿بِشُرَكَآيِٕهِمْ﴾ من عابديهم، ﴿كَٰفِرِينَ﴾ جاحدين متبرئين، يتبرأ بعضهم من بعض.

(١٤) ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾، يتميز المؤمنين عن الكافرين كما قال تعالىٰ: ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورىٰ:٧]، وقال: ﴿وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يس:٥٩].

(١٥) ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ﴾ جنة، وهي البستان الذي في غاية النضارة، ﴿يُحْبَرُونَ﴾ يُكرمون ويتمتعون ويُسرون.

(١٦) ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ القرآن، ﴿وَلِقَآءِ ٱلْأٓخِرَةِ﴾ البعث بعد الموت، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ قد أحاطت بهم النار وعاينوها وذاقوها.

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

(١٧) ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ سبحوا وصلوا لله عَزَّوَجَلَّ، ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ تدخلون في المساء، وهو المغرب والعشاء، ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ الفجر، حين تدخلون في الصباح.

(١٨) ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ الحمد المُطلق لكمالِهِ المقدس، ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يُحمد علىٰ فضله ويُحمد علىٰ عدله، ﴿وَعَشِيًّا﴾ صلاة العصر، ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ صلاة الظهر.

❁ وهذه أحد الآيات التي جمعت الصلوات الخمس وبيَّنت مواقيتها.

وفي فضل التسبيح في صباح اليوم ومسائه، ما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال قال رسول الله ﷺ: **«وَمَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ حُطَّتْ خَطَايَاهُ وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ»**.

وعن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: **«كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَىٰ اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَىٰ الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ»** متفق عليه.

وقد تقدم حديث جويرية قال رسول الله ﷺ: **«لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكِ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، لَوْ وُزِنَتْ بِمَا قُلْتِ مُنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنَتْهُنَّ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ وَرِضَا نَفْسِهِ وَزِنَةَ عَرْشِهِ وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ»**، أخرجه مسلم.

١٩ ومن شأنه تعالىٰ أنه: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ كالزرع من الحبة، والإنسان من النطفة، والطير من البيضة ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ كالنطفة والبيضة من الحيوان ﴿وَيُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ بالمطر، ﴿وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ تُبعثون.

٢٠ ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ علامات قدرته، ﴿أَنْ خَلَقَكُمْ﴾ أي: خلق أباكم آدم ﴿مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ﴾ بعد ذلك، ﴿بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ حيث جعل الله عَزَّوَجَلَّ التزاوج من أسباب وجودِ الذرية.

٢١ ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة علىٰ وحدانيته وعظمته، ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ وهي حواء خلقها لآدم من ضِلَعِهِ، أو يكون المُراد: من أمثالكم وجنسكم.

❁ ويُستدل بهذه الآية علىٰ عدمِ جواز زواج الجنية من الإنسي والعكس.

﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ يقع بينكم الأنس والمودة، ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً﴾ محبة، ﴿وَرَحْمَةً﴾ يرحم بعضكم بعضًا، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ حجج وبراهين علىٰ وحدانية الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ويتدبرون، وفعلًا.

❁ **إنها لآية عظيمة**، يخطبُ الرجلُ المرأةَ التي لم يرها أو يلقها يومًا من الدهر، وبمجرد العقد ونحوه إذا بينهم من المودة والمحبة ما ليس بين الأرحام، ويأنس بها وتأنس به، ويطمئن إليها وتطمئن إليه، فتكون له سكنًا وفراشًا ولباسًا إلىٰ غير ذلك.

٢٢ ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مع عظيم شأنهما، ﴿وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ لهجاتكم ولغتكم، هذا يتكلم بالعربية وهذا بالعجمية، وهي لغات كثيرة، ﴿وَأَلْوَانِكُمْ﴾ هذا أبيض، وهذا أسود وهذا أحمر، وربما كانوا من أبناءِ رجلٍ واحد، بل أصل الخليقة أنها من رجلٍ واحد، ومع ذلك اختلفوا في ألوانهم.

وقد أخرج الإمام أحمد عَنْ أَبِي مُوسَىٰ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **«إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَىٰ قَدْرِ الْأَرْضِ. جَاءَ مِنْهُمُ الْأَبْيَضُ وَالْأَحْمَرُ وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالْخَبِيثُ، وَالطَّيِّبُ وَالسَّهْلُ، وَالْحَزْنُ وَبَيْنَ ذَلِكَ»**.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ علامات علىٰ قدرة الله، ﴿لِّلْعَالِمِينَ﴾ بكسر اللام يعني: لأهل العلم، وبفتح اللام: للعالَمين، للمكلفين.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿٢٣﴾ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ لو سلب الله النوم من شخص لأصبح لا يستطيع شيئًا، وبات في همٍّ وغم، وربما أُصيب بالوسواس القهري، ﴿وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ خروجكم من منازلكم لطلب الرزق، إذ هيأ لكم أسباب المعاش وأعانكم عليها، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ كله ﴿لَآيَٰتٍ﴾ حجج بينات ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سماع تدبر واعتبار.

﴿٢٤﴾ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ الضوء اللامع، وربما رافقه الرعد بصوته الشديد ﴿خَوْفًا﴾ أن يُصيبكم فتُهلكون، ﴿وَطَمَعًا﴾ في نزول المطر فتنعمون، ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ السحاب، ﴿مَاءً﴾ مطرًا، ﴿فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ بعد أن كانت قاحلة أصبحت خضراء مُنبتة، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ﴾ علامات وحجج بينات ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أمر الله وشرعه، أما المعرض فلا يزداد بها إلا إعراضًا.

﴿٢٥﴾ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ إذ شاء، ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ بالنفخ في الصور ﴿إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾، تبعثون من قبوركم كما قال تعالىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس:٥١]، فمن نفخة واحدة يقوم الناس من قبورهم، ويُسرعون إلىٰ أماكنِ حشرهم.

❁ وهذا دليل علىٰ عظيم وحدانيته وعجيب قوته وقدرته، إذ لا يُعجزه شيء، وقد ضرب الله الأمثال في هذه الآيات ونحوها لبيان عظيم قدرته، وقوته، وهو بهذا سبحانه وتعالىٰ يعرف عباده بصفاته العلية، فإن الله يعرف بآيته الكونية كما ذكر في هذه الآيات، والشريعة كا في آية الكرسي وسورة الإخلاص، وآخر سورة الحشر، وغيرها.

﴿٢٦﴾ ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من المخلوقات المربوبات، ﴿كُلٌّ﴾ أي: جميعها، ﴿لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ مُطيعون، منقادون لإرادته فيما قضاه عليهم وقدره.

﴿٢٧﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ من العدم ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بالبعث ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ أي: أن الإعادة أهون، مع أنه لا يُعجزه شيء، ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: الوصف الأعلىٰ، فالله عَزَّوَجَلَّ موصوفٌ بكلِّ كمال ومنزه عن كل نقص: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ:١١]، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُغلب، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في فعله وأمره.

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿٢٨﴾ ﴿ضَرَبَ﴾ يُبين ﴿لَكُم مَّثَلًا﴾ شبهًا ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ بحالكم، إذ أنهم كانوا يعبدون حجارةً صمَّاء وجعلوها مُشاركة لله عَزَّوَجَلَّ فيما هو من خصائصه، فهل يا تُرىٰ سيرضون بهذا الأمر في أنفسهم؟، ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ من عبيدكم، ﴿مِّن شُرَكَآءَ﴾ يشاركونكم بالسوية، ﴿فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ من الأموال والأنعام؟، ﴿فَأَنتُمْ﴾ وهم، ﴿فِيهِ سَوَآءٌ﴾؟ هذا أمرٌ لا يكون، بل إنكم ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: تخافون أن يُشاركوكم في أموالكم ويُقاسموكم كما يخاف الحرُّ شريكه الحر في المال.

وفي حديث الحارث الأشعري، قال رسول الله ﷺ: **«إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي بِخَمْسٍ كَلِمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ، وَآمُرَكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ: أَوَّلُهُنَّ أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَإِنَّ مَثَلَ مَنْ أَشْرَكَ بِاللهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اشْتَرَىٰ عَبْدًا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بِذَهَبٍ أَوْ وَرِقٍ، قَالَ: هَذِهِ دَارِي، وَهَذَا عَمَلِي فَاعْمَلْ وَأَدِّ إِلَيَّ، فَجَعَلَ يَعْمَلُ وَيُؤَدِّي إِلَىٰ غَيْرِ سَيِّدِهِ، فَأَيُّكُمْ يَسُرُّهُ أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ؟»** أخرجه الترمذي.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما ضربنا هذا المثل، ﴿نُفَصِّلُ﴾ نُبين، ﴿الْآيَاتِ﴾ الحجج والبراهين، ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ شرع الله، والواقع أن هؤلاء لا يعقلون ولا يفقهون، ولذلك عبدوا هذه الحجارة وهذه الأوثان، وشركوها مع الله عَزَّوَجَلَّ، مع ظهور عجزها وخورها.

٢٩ ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: كفروا، ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾: أي: آراءهم الفاسدة الكاسدة، ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بغير حجةٍ ولا بُرهان، ﴿فَمَنْ يَهْدِي﴾ يوفق، ﴿مَنْ أَضَلَّ﴾ أغواه، ﴿اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾؟ من مانعين يمنعونهم من عذاب الله وبطشه.

٣٠ ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ انصب وجهك يا رسول الله، ومن كان علىٰ طريقك، ﴿لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾: أي: خالصًا، ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾: أي: أن الدِّين، والقيام به هو فطرةُ اللهِ التي فطر الناس عليها، والمعنىٰ: الزم يا محمد ومن آمن معك، ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ وهي دينه، ﴿لَا تَبْدِيلَ﴾ لا تغيير، ﴿لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ ودينه، ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ القويم الذي شرعه الله، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وفي معنىٰ هذا ما جاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال النبي ﷺ: **«مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ»** متفق عليه.

ولم يقل: أو يمسلمانه؛ لأنه علىٰ الإسلام، والإيمان بفطرته التي فطر وجبل الله الناس عليها، ثم قرأ النبي ﷺ: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾.

• والْفِطْرَةُ:

هي العهد الذي أخذه الله علىٰ الناس، بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف:١٧٢]، وقد تقدم خلاف أهل العلم في هذا، وبَيَّنَّا أن الصحيح أن الله عَزَّوَجَلَّ أخرج ذرية آدم من صلبه.

ثم خاطبهم بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ يدلُّ علىٰ هذا المعنىٰ حديث أنس في الصحيحين قال رسول الله ﷺ: **«يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وتعالىٰ لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا: لَوْ كَانَتْ لَكَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ: أَنْ لَا تُشْرِكَ - أَحْسِبُهُ قَالَ: وَلَا أُدْخِلَكَ النَّارَ - فَأَبَيْتَ إِلَّا الشِّرْكَ»**، فكل من ألفاظ العموم، **«كُلِّ مَوْلُودٍ»** من الذكور والإناث، **«يُولَدُ عَلَىٰ الْفِطْرَةِ»**، ثم بعد ذلك يستمر علىٰ هذا الأمر حتىٰ يُعرب عنه لسانه، ولذلك كان شأن أبناء المُشركين وأبناء المؤمنين في الجنة؛

لأنهم علىٰ الفطرة، كما بُيِّنَ ذلك في تفسير سورة الإسراء، عند قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥].

أما ابن كثير فذهب إلىٰ أنهم من آبائهم، وهذا قولٌ غيرهُ أقوىٰ منه؛ لحديث سَمُرة في البخاري: « **وَأَمَّا الرَّجُلُ الطَّوِيلُ الَّذِي فِي الرَّوْضَةِ فَإِنَّهُ إِبْرَاهِيمُ ﷺ، وَأَمَّا الوِلْدَانُ الَّذِينَ حَوْلَهُ فَكُلُّ مَوْلُودٍ مَاتَ عَلَىٰ الفِطْرَةِ» قَالَ: فَقَالَ بَعْضُ المُسْلِمِينَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَأَوْلاَدُ المُشْرِكِينَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَأَوْلاَدُ المُشْرِكِينَ»** أخرجه البخاري.

﴿٣١﴾ ﴿مُنِيبِينَ﴾ راجعين، ﴿إِلَيْهِ﴾ إلىٰ الله بالتوبة والإقبال، ﴿وَاتَّقُوهُ﴾: بفعل أمره واجتناب نهيه وزجره، ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ المفروضة، ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين اشركوا، وجعلوا مع الله غيره.

❁ وهذا دليل علىٰ أن ترك الصلاة شرك وكفر، وفي حديث جابر قال رسول الله ﷺ: **«إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ، تَرْكُ الصَّلَاةِ»** أخرجه مسلم.

﴿٣٢﴾ ولا تكونوا ﴿مِنَ﴾ المشركين، ﴿الَّذِينَ فَرَّقُوا﴾ جزأوا، ﴿دِينَهُمْ﴾ فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه، ﴿وَكَانُوا شِيَعًا﴾ صاروا فِرقًا مختلفة، اليهود والنصارىٰ.

❁ وهذا نهي عن البدع والأهواء المضلة، ولو تمسك المسلمون بدينهم والتزموا هذا النهي لسمت عقيدتهم، لكن إلىٰ الله المشتكىٰ من كثرة الموافقين للكفار إما كليا أو جزئيًا، وكثرت الأحزاب، وتنوعت، وصار الناس في حيص بيص، إلا ما رحم ربي، وقليل ما هم، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: **«تَفَرَّقَتِ اليَهُودُ عَلَىٰ إِحْدَىٰ وَسَبْعِينَ أَوْ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَالنَّصَارَىٰ مِثْلَ ذَلِكَ وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً»** أخرجه الترمذي.

﴿كُلُّ حِزْبٍ﴾ من هذه الأحزاب والفِرق المخالفة لشرع الله وسنة رسول الله ﷺ، ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ من الفكرة والطريقة والأهواء، ﴿فَرِحُونَ﴾ راضون بأهوائهم وطرقهم.

ولذلك قلَّ أن تقع منهم التوبة والإنابة، ففي حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ، ثُمَّ لَا يَعُودُونَ فِيهِ»** متفق عليه.

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **« أَبَىٰ اللهُ أَنْ يَقْبَلَ عَمَلَ صَاحِبِ بِدْعَةٍ حَتَّىٰ يَدَعَ بِدْعَتَه »** أخرجه ابن ماجه (٥٠).

وفي معنىٰ حديث أَنَسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«إِنَّ اللهَ حَجَزَ أَوْ قَالَ حَجَبَ التَّوْبَةَ عَنْ كُلِّ صَاحِبِ بِدْعَةٍ»** اخرجه ابن أبي عاصم (٣٧) أي: لا يوفق للتوبة، كما قال غير واحد من السلف.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿٣٣﴾ ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ﴾ أصاب المشركين، ﴿ضُرٌّ﴾ بلاءٌ وشدة، ﴿دَعَوْا۟ رَبَّهُم﴾ الذي هو خالقهم ورازقهم، فلم يدعوا أصنامهم، وأوثانهم لعلمهم بضعفها، ﴿مُّنِيبِينَ﴾ راجعين تائبين، ﴿إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ مطرًا وخيرًا ورزقًا، ﴿إِذَا فَرِيقٌ﴾ طائفة ﴿مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ يُنددون ويعودون إلىٰ ما كانوا عليه، وهذا كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء:٦٧].

﴿٣٤﴾ وهذا الفعل منهم، ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ واللام لام العاقبة، ﴿فَتَمَتَّعُوا۟﴾ بباطلكم ولهوكم ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، مغبة ذلك عند البعث والنشور، كما قال تعالىٰ: ﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ [محمد:١٢] لفترةٍ يسيرة ﴿وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾.

﴿٣٥﴾ ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾ حجة وعذرًا، ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ ينطق ﴿بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾ بشركهم ويأذن لهم في ذلك؟ والواقع أن الله عَزَّوَجَلَّ إنما أنزل ما ينهاهم عن الشرك والتنديد، ولكنهم كذبوا الرسل وردوا دعوتهم.

﴿٣٦﴾ ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾ مطراً وخصباً ﴿فَرِحُوا۟ بِهَا﴾ وربما أضافوه إلىٰ كواكبهم، وغير ذلك، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ﴾ قحطٌ وشدةٌ، ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾؛ بسبب ذنوبهم ومعاصيهم، ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ ييأسون من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ، بخلاف المؤمنين الذين يرجعون إلىٰ الله بالدعاء والتوبة والإنابة.

❁ **والقنوط الكلي من رحمة الله** عَزَّوَجَلَّ يعتبر كفراً أكبر مُخرج من الملة.

٣٧ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ﴾ يوسع ﴿ٱلرِّزْقَ﴾ العطاء ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ من عباده، ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يُضيق علىٰ من يشاء، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ حُجَج وعلامات وبراهين ظاهرة علىٰ قدرة الله، ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ينقادون ويقرون.

﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾.

٣٨ ﴿فَـَٔاتِ﴾ أعط ﴿ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ سواءً كان حقُّهُ من الإرث أو من العطايا المستحبات، فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال قال رسول الله ﷺ: **«مَنِ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»**، ﴿وَٱلْمِسْكِينَ﴾ أعطه حقه، وهو الذي لا يجد قوتًا، ولا يُفطن له فيُتصدق عليه، ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أعطه حقه، وهو عابر الطريق إذا احتاج إلىٰ من يقوم به، ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الإيتاء، ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ يفعلون ذلك إخلاصًا لله وابتغاء ثواب الله سبحانه وتعالىٰ.

❁ مع أن الآية فيها إثبات صفة الوجه لله سبحانه وتعالىٰ: كما يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، وهي صفةٌ ذاتية أزلية أبدية.

﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الذين يفعلون ما تقدم من الإنفاق، ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ بنيل المطلوب والسلامةِ من المرهوب.

٣٩ ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم﴾ أعطيتم، ﴿مِّن رِّبًا﴾ زيادة، أي: ما تعاملتم به من الزيادة، ﴿لِّيَرْبُوَا۟﴾ يكثر ﴿فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟﴾ يكثر ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ بل إنه يكون ذنبًا عليكم ويؤدي إلىٰ قِلَّةِ أموالكم، فعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: **«مَا أَحَدٌ أَكْثَرَ مِنَ الرِّبَا، إِلَّا كَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهِ إِلَىٰ قِلَّةٍ»** أخرجه ابن ماجه، ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾؛ تُضاعف لهم حسناتهم وتربوا لهم أموالهم.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: **«مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا»** أخرجه مسلم.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: **«يَا ابْنَ آدَمَ أَنْفِقْ، أُنْفِقْ عَلَيْكَ»** متفق عليه.

وعنه قال رسول الله ﷺ **«مَا تَصَدَّقَ أَحَدٌ بِصَدَقَةٍ مِنْ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، إِلَّا أَخَذَهَا الرَّحْمَنُ بِيَمِينِهِ، وَإِنْ كَانَتْ تَمْرَةً، فَتَرْبُو فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ حَتَّىٰ تَكُونَ أَعْظَمَ مِنَ الْجَبَلِ، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ أَوْ فَصِيلَهُ»** متفق عليه.

﴿٤٠﴾ ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ من العدم، ﴿ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ أعطاكم ومنحكم، ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ بعد استيفاء آجالِكُم، ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾؛ يبعثكم بعد موتكم، ﴿هَلْ مِن شُرَكَائِكُم﴾ من الأصنام والأوثان، ﴿مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾؟ الجواب: لا؛ لعجزهم وضعفهم وخورهم، ﴿سُبْحَانَهُ﴾: تنزيهٌ لله عَزَّوَجَلَّ عن الشريك والمثيل والنظير، ﴿وَتَعَالَىٰ﴾ تعاظم، ودلت علىٰ علو القدر والقهر والذات، ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يُنددون.

﴿٤١﴾ ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ﴾ فسادُ الثمرات، والبركات ﴿فِي الْبَرِّ﴾ اليابسة ﴿وَالْبَحْرِ﴾ الماء، ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ عملت، ﴿أَيْدِي النَّاسِ﴾ من الذنوب والمعاصي، ﴿لِيُذِيقَهُم﴾ ليصيبهم الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ جزاء بعض ذنوبهم السيئة، ولو آخذهم بما عملوا ما ترك علىٰ ظهرها من دابة، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ بالتوبة والإنابة في الدنيا، أو يحشرون إليه فيجازيهم بأعمالهم.

❁ **وليس المراد بالفساد في هذه الآية**: ظهور الزنا والسرقة والخمر، ونحو ذلك، هذه جِنايتهم وأسباب سيئاتهم. بل المراد بالآية الفساد الذي يلحق البركات والأموال والزروع والثمار والأبناء ويكون بسبب ما كسبت أيدهم من المعاصي والسيئات، وهذا بسبب إعراض الناس عن توحيد الله ابتداءً، ثم عن ملازمةِ طاعته واتباع سنة نبيه ﷺ، فهذه من الآيات العظيمات، التي فيها من الوعيد والوعد ما الله به عليم.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿٤٢﴾ ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ التي دمر الله علىٰ أهلها كأرض سدوم والأحقاف وثمود ﴿فَانظُرُوا﴾ تفكروا ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ عقوبة ونهاية ﴿الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ فأُهلكوا بكفرهم.

﴿٤٣﴾ ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ واخلص عبادتك، ﴿لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ المستقيم، وهو دين الإسلام، ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ إذا جاء يوم القيامة، ﴿لَّا مَرَدَّ﴾ لا راد، ﴿لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ فيُحشر الناس إلىٰ ربهم، لا يستطيعون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا، وإنما يسلم في ذلك اليوم من أتىٰ الله بقلب سليم، ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ يتفرقون فريق في الجنة وفريق في السعير.

﴿٤٤﴾ ﴿مَن كَفَرَ﴾ منهم: ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ أي: وبال كفره وشؤم معصيته، ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ من التوحيد فما دونه، ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ يوطؤون المضاجع ويسوونها، وهو كناية عن الحياة السعيدة في قبورهم وفي حشرهم.

﴿٤٥﴾ ﴿لِيَجْزِيَ﴾ يثيب الله، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ الثواب العظيم المُضاعف، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ مفهومه: أنه يُحب المؤمنين.

❁ وفيها: إثبات صفة المحبة لله عَزَّوَجَلَّ وهي من الصفات الفعلية؛ خلافًا لما ذهب إليه الأشاعرة والمعتزلة والجهمية، إذ أنهم يعطلون الله عَزَّوَجَلَّ من صفاته.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿٤٦﴾ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ أي: الدلائل العظيمة علىٰ وحدانيته: ﴿أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ بالمطر، ﴿وَلِيُذِيقَكُم﴾ يصيبكم، ﴿مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أي: نعمة المطر وما يليها من الخصب والزرع، ﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ﴾ السفن في البحر، ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ بمشيئته، ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟﴾ لتطلبوا، ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ الرزق الحلال في البحر والبر، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ نعمه العظيمة فيضاعف لكم الأجر والرزق كما قال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧].

(٤٧) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ يا محمد: ﴿رُسُلاً﴾ مبشرين ومنذرين، ﴿إِلَى قَوْمِهِمْ﴾ أممهم، ﴿فَجَاؤُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الحُجج الواضحات البالغات فكفروا، ﴿فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ بسبب كفرهم وبغيهم.

❁ والانتقام هنا: العذاب الدنيوي وسيأتي العذاب الأُخروي.

﴿وَكَانَ حَقًّا﴾ واجبًا ﴿عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الموحدين، فإن الله عَزَّوَجَلَّ ينصرهم والعاقبة لهم في الدنيا والآخرة، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر:٥١].

(٤٨) ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ﴾ تحرك، ﴿سَحَابًا﴾ فتنشره، ﴿فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ هاهنا وهاهنا حتىٰ يُغطي الأرض التي يُريد الله عَزَّوَجَلَّ أن يسقيها، ﴿وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا﴾ قطعًا متفرقة، ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾ المطر والقطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ من السحاب، ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ بنعمة الله لهم ويفرحون بالمطر.

(٤٩) ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾ المطر: ﴿مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾ يائسين، وهذا يقع كثيرًا والله المستعان، إذا قحطت البلاد تجد أن الناس يُصيبهم شيء من اليأس، وإذا نزل المطر فرحوا واستبشروا، وإذا كثر المطر ضجروا.

كما في حديث أنس في الصحيحين: يَا رَسُولَ اللهِ هَلَكَتِ الْأَمْوَالُ، وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ، فَادْعُ اللهَ يُغِثْنَا، قَالَ: فَرَفَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: **«اللهُمَّ أَغِثْنَا، اللهُمَّ أَغِثْنَا، اللهُمَّ أَغِثْنَا»**، قَالَ أَنَسٌ: وَلَا وَاللهِ مَا نَرَىٰ فِي السَّمَاءِ مِنْ سَحَابٍ وَلَا قَزَعَةٍ، وَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ سَلْعٍ مِنْ بَيْتٍ وَلَا دَارٍ، قَالَ: فَطَلَعَتْ مِنْ وَرَائِهِ سَحَابَةٌ مِثْلُ التُّرْسِ، فَلَمَّا تَوَسَّطَتِ السَّمَاءَ انْتَشَرَتْ، ثُمَّ أَمْطَرَتْ، قَالَ: فَلَا وَاللهِ مَا رَأَيْنَا الشَّمْسَ سَبْتًا، قَالَ: ثُمَّ دَخَلَ رَجُلٌ مِنْ ذَلِكَ الْبَابِ فِي الْجُمُعَةِ الْمُقْبِلَةِ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ قَائِمٌ يَخْطُبُ، فَاسْتَقْبَلَهُ قَائِمًا، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ هَلَكَتِ الْأَمْوَالُ وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ، فَادْعُ اللهَ يُمْسِكْهَا عَنَّا، قَالَ: فَرَفَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: **«اللهُمَّ حَوْلَنَا وَلَا عَلَيْنَا، اللهُمَّ عَلَىٰ الْآكَامِ، وَالظِّرَابِ، وَبُطُونِ الْأَوْدِيَةِ، وَمَنَابِتِ الشَّجَرِ»**.

(٥٠) ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾ المطر الذي ينزله الله برحمته، في الثمار والزروع، ﴿كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ بعد يباسها، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ هذا مثل ضربه الله؛ لقدرته علىٰ بعث الموتىٰ وإحيائهم بعد دفنهم وكونهم صاروا رفاتًا، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجز.

﴿٥١﴾ ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ عاتية مضرة، فاهلكت الزرع ﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ قد تغير لونه؛ بسبب شدة الريح وبرودتها فذهب بهاؤه وماؤه، وربما أتلفت ثمره، ﴿لَظَلُّوا﴾ مكثوا، ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد هلاك الزرع، ﴿يَكْفُرُونَ﴾ بنعم الله فيجحدون ما سلف من النعمة.

فهذا هو حال المعرض بين أشر وبطر، وبين يأس وقنوط فإذا أنعم الله عَزَّوَجَلَّ عليه بطر، وإذا أخذه الله عَزَّوَجَلَّ قنط، أما المؤمن فإذا أعطاه الله شكر، وإذا منعه استغفر.

﴿٥٢﴾ ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ في قبورهم، ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾ النداء ﴿إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ فكذلك لا تسمع الكافرين فهم أموات عن سماع التوحيد والسنة.

﴿٥٣﴾ ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ﴾ الكفار ﴿عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ عن انحرافهم، ﴿إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ مستسلمون، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ۝١١ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ۝١٢﴾ [الأعلى:٩-١٢].

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ۝٥٤﴾.

﴿٥٤﴾ ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ أوجدكم: ﴿مِنْ ضَعْفٍ﴾ وهو النطفة، ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ يخرج صغيرًا لا يستطيع أن يلوي علىٰ نفع نفسه، ثم يشتد شأنه حتىٰ يصير شابًا يافعًا، ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا﴾، وعجزاً كما قال تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ [الأحقاف:١٥]، ﴿وَشَيْبَةً﴾ يبيض شعره، وتضعف عظامه، ويلحقه الفتور، ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ ذكرًا وأنثىٰ، وقويًا وضعيفًا، ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ﴾ بتدبير خلقه، ﴿الْقَدِيرُ﴾ الذي لا يُعجزه شيء.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ۝٥٥ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٥٦ فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۝٥٧ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٩ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝٦٠﴾.

٥٥ ﴿وَ﴾ اذكر يا محمد: ﴿يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ القيامة، فيحاسب الله الكافرين علىٰ سوء صنيعهم، ولكنهم يكذبون، كما قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣]، و﴿يُقْسِمُ﴾ يحلف ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ الكافرون، ﴿مَا لَبِثُوا﴾ بقوا في قبورهم ﴿غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ وقت يسير كما قال تعالىٰ: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف:٣٥].

﴿كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ﴾ يصرفون عن الحق في دنياهم وأخراهم، ففي الدنيا كذبوا الحق الذي جاءت به الرسل، وفي الآخرة انكروا المحسوس من اللبث الطويل.

٥٦ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ﴾ أعطوا، ﴿ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ العلم النافع، والعمل الصالح، ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ﴾ مكثتم في قبوركم، ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ في حكم الله القدري الكوني، ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ والنشور، وهو يوم القيامة، ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ الذي كنتم به تُكذبون، ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ لكفركم وشرككم، وهذا اللُبث هو المشار إليه بقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٠].

۞ وهذا دليل علىٰ حاجة الناس إلىٰ أهل العلم في دنياهم وأُخراهم.

٥٧ ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة: ﴿لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ كفروا، ﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾ عذرهم، ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ يُطلب منهم العتبة والرجوع.

٥٨ ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ للعظة والعبرة؛ لبيان حال المؤمنين وحال الكافرين.

﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ حجة من القرآن أو السنة، ﴿لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ رادين لها مُعارضين لها: ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ يا معاشر المسلمين: ﴿إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ علىٰ باطل، وهذا كذب منهم وزور، كما قيل في المثل: رمتي بدائها وانسلت.

٥٩ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما أنهم صُرفت قلوبهم علىٰ رد الحق الذي جاء به الأنبياء: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ﴾ يغلف، ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلا تنفع فيهم موعظة، ولا يستفيدون من بُشرىٰ: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧١].

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: ما وعدك به من نصرتك وإظهارك علىٰ عدوك؛ فإذا أردت النصر لا بد من الصبر، وفي حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: **«وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا»** أخرجه الترمذي.

❁ فهذه الآية يحتاج الدعاة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ إلىٰ العمل بها أكثر من غيرهم؛ لأنهم يُخالطون الناس ويقع لهم التكذيب والإعراض، فإذا أرادوا سلامة الحال والمآل وهدوء البال.

﴿فَٱصْبِرْ﴾ لُحكم ربك الكوني، وعلىٰ حُكم ربك الشرعي، وكن بعيدًا عن المعاصي والسيئات، ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بنصر المؤمنين وتمكينهم ﴿حَقٌّ﴾ ثابت لا يخلف، وهو المشار إليه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي﴾ [النور:٥٥].

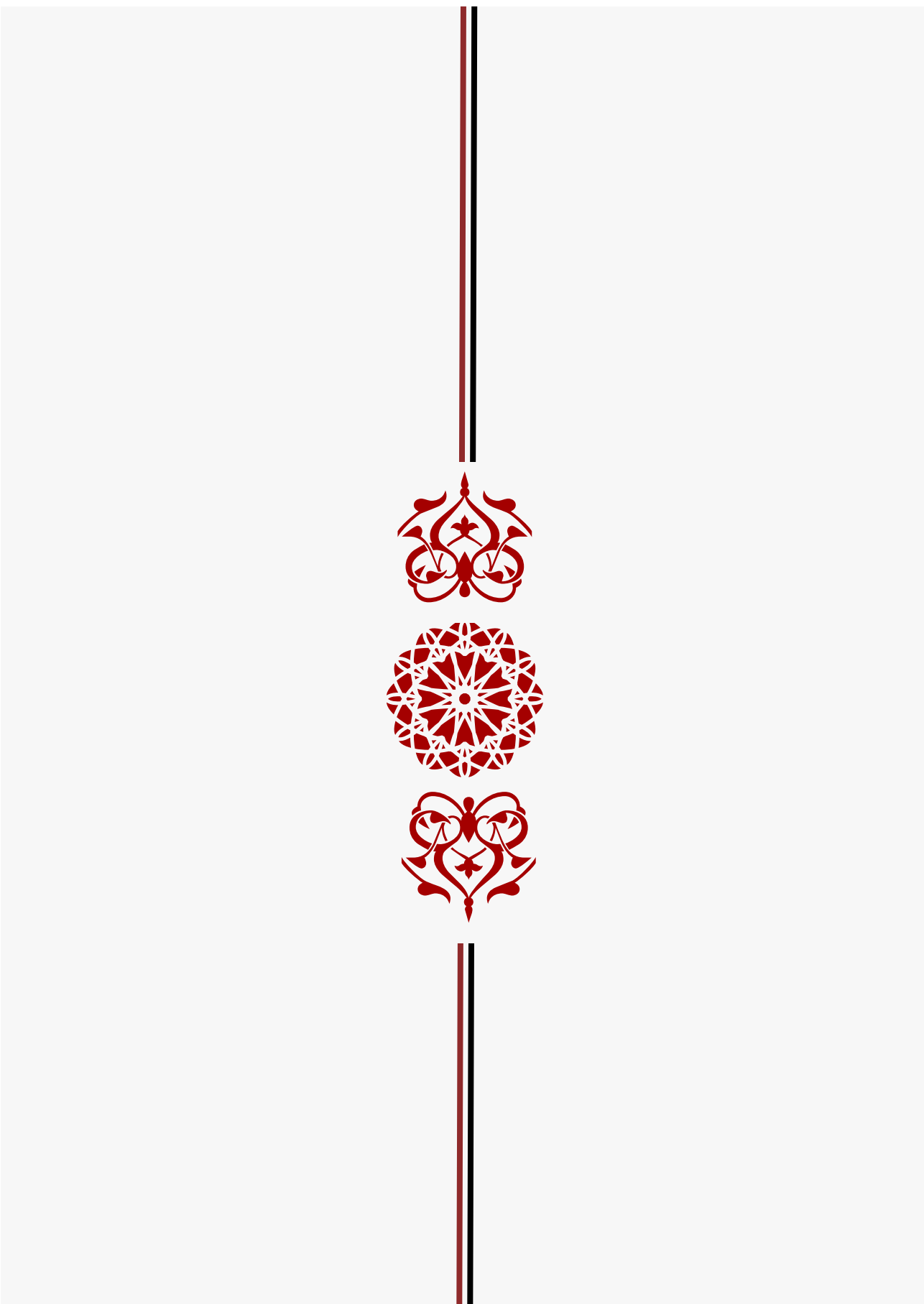
﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ يستجهلنك ويحملنك علىٰ خفة العقل وخفة الخُلق: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ بالبعث والحساب.

❁ **والاستدلال بعموم هذه الآية** علىٰ الداعي إلىٰ الله الحذر من أن يقع في خفةٍ بسبب معارضة وأذىٰ أهل البدع ، ولو أننا حققنا هذه الآية لرأينا النصر العظيم والعز والتمكين، وحصل لنا من هدوء البال وصلاح الحال ما الله به عليم.

وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

تم تفسير سورة الروم

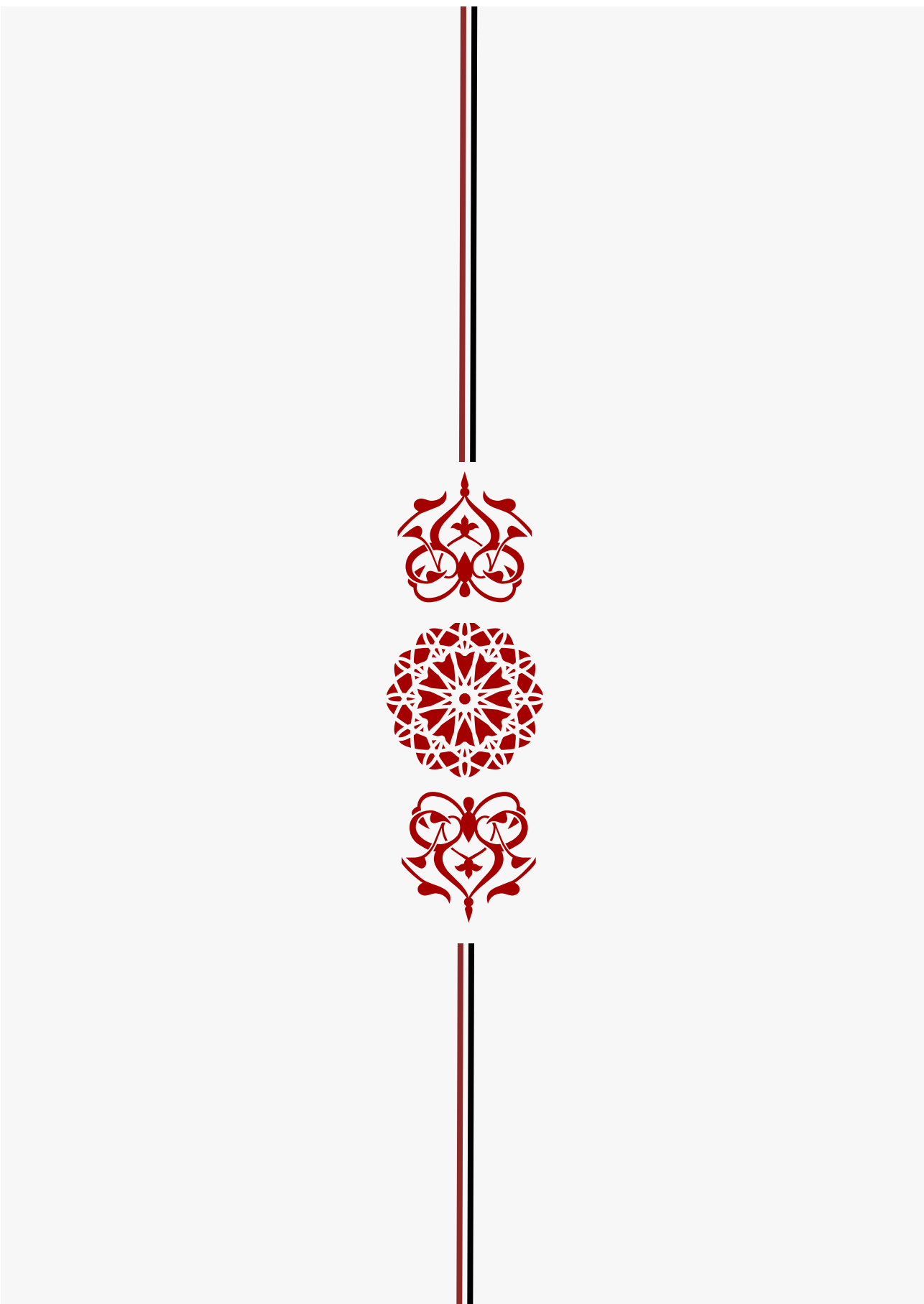






تَفْسِيرُ سُورَةِ لُقْمَانَ





سُورَةُ لُقْمَانَ

مَكِّيَّةٌ، وآياتها أَرْبَعَةٌ وثَلاثون آيَةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾.

١ ﴿الٓمٓ﴾.

٢ ﴿تِلْكَ﴾ أي: هذه: ﴿آيَاتُ﴾ حُجج: ﴿الْكِتَابِ﴾ القرآن: ﴿الْحَكِيمِ﴾ المُحكم الذي: ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢].

٣ ﴿هُدًى﴾ سبيل هدىٰ، ودلالة ﴿وَرَحْمَةً﴾ للمؤمنين يخرجهم الله به من الظلمات إلىٰ النور، ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ المؤمنين الموحدين.

٤ ﴿الَّذِينَ﴾ من شأنهم أنهم: ﴿يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ المفروضة، ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ المكتوبة، ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ﴾ البعث والنشور، ﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾ يعترفون ويُقرون.

٥ ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الذين تقدم وصفهم: ﴿عَلَىٰ هُدًى﴾ علم وتوفيق: ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ سبحانه وتعالىٰ، ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ بنيل المطلوب، والسلامة من المرهوب، في الدنيا والآخرة.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٦ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ٨ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٩﴾.

٦ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ الغناء، ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عن دينه، ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ صفة كاشفة، إذ لا علم في إباحة الغناء والخنا والفجور والزور ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ﴾ لعبًا وسخرية، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ موجع.

وكان عبد الله بن مسعود يُقسم: أن هذه الآية نزلت في الغناء، وقد قال إبراهيم النخعي: الغناء يُنبت النفاق في القلب، وقال بعضهم: الغناء رقية الزنا، والنبي ﷺ يقول: **«لَيَكُونَنَّ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ، يَسْتَحِلُّونَ الحِرَ وَالحَرِيرَ، وَالخَمْرَ وَالمَعَازِفَ»** أخرجه البخاري عن الحارث الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٧ ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ﴾ تقرء ﴿عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا﴾ أي: القرآن وما فيه من الحُجج والبيان، ﴿وَلَّىٰ﴾ أعرض ﴿مُسۡتَكۡبِرٗا﴾ عن سماع الحق، ﴿كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ﴾ حملاً يمنع السماع، ﴿فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ في الآخرة، وفي الدنيا قد يُصيبه الله بقسوة القلب وضيق الحال.

٨ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ يوم القيامة.

٩ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ﴾ لا يُخلف، ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي لا يُغلب، ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في خلقه وفعله.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ١٠ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ١١﴾.

١٠ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ السبع الطباق، ﴿بِغَيۡرِ عَمَدٖ﴾ أعمدة: ﴿تَرَوۡنَهَا﴾ قال الحسن ليس لها عمد مرئية، ولا غير مرئية ﴿وَأَلۡقَىٰ﴾ طرح ﴿فِي الأَرۡضِ رَوَاسِيَ﴾ جبال شامخات: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾ كي لا تميد بكم، وتضطرب وتتحرك، ﴿وَبَثَّ فِيهَا﴾ في الأرض ﴿مِن كُلِّ دَابَّةٖ﴾ مما يدب علىٰ وجهها، وفيه من المصالح ما الله به عليم، ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ السَّمَاءِ﴾ السحاب، ﴿مَاء﴾ مطرًا، ﴿فَأَنبَتۡنَا فِيهَا﴾ أي: في الأرض، ﴿مِن كُلِّ زَوۡجٖ﴾ نوع، ﴿كَرِيمٍ﴾ حسن.

(١١) ﴿هَٰذَا﴾ الذي ذكرت لكم وتعاينونه، ﴿خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ من الأصنام والأوثان، ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ في شرك بعيد سحيق.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾.

(١٢) ﴿وَ﴾ الله ﴿لَقَدْ آتَيْنَا﴾ أعطينا ﴿لُقْمَانَ﴾ الحكيم.

وكان لقمان رجلاً صالحًا آتاه الله الحكمة، ولم يكن نبيًا على الصحيح من أقوال أهل العلم، ولو لم يكن من حكمته إلا ما قصه الله سبحانه وتعالىٰ في هذه السورة العظيمة من الأمر بالتوحيد فما دونه من مكارم الأخلاق، زد على ذلك ما ذُكِرَ من شأنه: أنه كان يتميز بالأمانة، ومن أقواله أيضًا: ما جاء عن عبد الله بن عمر عند أحمد: **«إِنَّ لُقْمَانَ الْحَكِيمَ كَانَ يَقُولُ: إِنَّ اللهَ** عَزَّوَجَلَّ **إِذَا اسْتَوْدَعَ شَيْئًا حَفِظَهُ»**.

﴿الْحِكْمَةَ﴾ العقل والعلم والعمل به والإصابة في الأمور، ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ ومما أمره الله به: أن يكون شاكرًا له على هذا الخير الذي منحهُ الله إياه فإن الشكر سبب لزيادة النِعم، بل إن الشكر تثبت به النعمة الموجودة، وتستجلب به النعمة المفقودة، ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧]، ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ وأعرض: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عن العالمين، ﴿حَمِيدٌ﴾ محمودٌ بلسان الحال والمقال، ومن غناه أنه قال: **«يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَىٰ أَتْقَىٰ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَىٰ أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا»** أخرجه مسلم عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١٣) ﴿وَ﴾ اذكر: ﴿إِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ﴾ يحثه ويرشده وينصحه ويأمره: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ بدأ به؛ لأنه الذنب العظيم الذي لا يُغفر، ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ ولما نزل قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ﴾ [الأنعام:٨٢]، شق ذلك على الصحابة فقال النبي ﷺ: **«إِنَّهُ لَيْسَ بِذَاكَ، أَلَا تَسْمَعُ إِلَىٰ قَوْلِ لُقْمَانَ لِابْنِهِ:** ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾**»** متفق عليه عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿١٤﴾ ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ إحسانًا، ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا﴾ شدة، ﴿عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ على شدة وضعف، ﴿وَفِصَٰلُهُۥ﴾ فطامه: ﴿فِى عَامَيْنِ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

۞ ومن هنا استنبط ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وغيره أن أقل الحمل ستة أشهر علىٰ ما تقدم في سورة البقرة.

﴿أَنِ ٱشْكُرْ﴾ فضلي عليك بقلبك ولسانك وجوارحك، ﴿لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ أي: أطعهما في طاعة الله، ﴿إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ بالبعث والنشور، فأجازيك علىٰ ذلك.

﴿١٥﴾ ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾ حملك الأب والأم، ﴿عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ إنما الطاعة في المعروف، ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ من الإحسان إليهما ببرهما وطاعتهما والإنفاق عليهما، ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ﴾ طريق، ﴿مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾ رجع إليَّ بالإخلاص والطاعة، ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ في البعث والنشور، ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ أُخبركم: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيجازي المُحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾.

﴿١٦﴾ ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ﴾ وزن الخطيئة ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ﴾ الحجر الصلب، ﴿أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ لا تخفىٰ عليه خافية، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ باستخراجها، واللطف يُطلق علىٰ العلم بدقائق الأمور، وله معنىٰ آخر: وهو اللطف بعباده والإحسان إليهم، ﴿خَبِيرٌ﴾ عالم بمكانها.

(١٧) ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة، ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ ما وافق الكتاب والسنة أعلاه: لا إله إلا الله، وأدناه: إماطة الأذىٰ عن الطريق، ﴿وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ ما خالف الكتاب والسنة أعلاه: الشرك، وأدناه: الأذىٰ يكون في الطريق فلا يُزال، ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ﴾ من القدر الكوني أو الأذىٰ، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ يعني: الاتيان بهذه الأمور المذكورة في هذه الآية من عزم الأمور، من الأمور التي تدل علىٰ أن صاحبها صاحب عزيمة، ويأتي بما أُلزم به.

(١٨) ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ﴾ تُميل وتصرف، ﴿خَدَّكَ﴾ وجهك كبرًا وتعاظمًا: ﴿لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ﴾ فرحًا متبخترًا متكبرًا، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ﴾ متكبر في مشيه، ﴿فَخُورٖ﴾ علىٰ الناس بحاله.

(١٩) ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ﴾ أي: ليكن مشيك قصدًا لا تخيلًا ولا إسراعًا، وإنما هو بالوقار والسكينة، ﴿وَٱغۡضُضۡ﴾ اخفض، ﴿مِن صَوۡتِكَۚ﴾ حين الكلام والحديث، ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ لأنها رفيعة الصوت.

﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٢٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ٢١ وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٢٢ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٢٣ نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ ٢٤ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٥ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٢٦﴾.

(٢٠) ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ﴾ وتشاهدوا، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ﴾ هيأ ﴿لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من النجوم السيارة، والكواكب التي تهتدون بها، ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الواسعة من نبات وشجر ونبات، ﴿وَأَسۡبَغَ﴾ وسع ﴿عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ﴾ الكثيرة، ﴿ظَٰهِرَةٗ﴾ ترونها ﴿وَبَاطِنَةٗۗ﴾ لا ترونها كالعقل والعلم، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ﴾ أي: يُخاصم في التوحيد وغيره، ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى﴾ من ربه، ﴿وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ كتاب نير واضح، وإنما هو اتباع الهوىٰ والرأي.

(٢١) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ على محمد ﷺ، ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ من عبادة الأصنام والأوثان، ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ﴾ بهذا الأمر بشبهة اتباع الآباء ﴿يَدْعُوهُمْ﴾ يرشدهم ويوصلهم ﴿إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ وهو عذاب جهنم إن ماتوا على الشرك والتنديد.

(٢٢) ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: يُخلص دينه لله، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في عمله موحد في فعله وقوله واعتقاده، ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ﴾ تمسك وتعلق ﴿بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ لا إله إلا الله التي لا يُخاف انقطاعها، وقيل بالعهد الأوثق ﴿وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ﴾ نهاية ﴿الأُمُورِ﴾ تكون على ما قضاه وقدره.

(٢٣) ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ الله الذي قدر عليه ذلك وقضاه؛ لعلمه بفساده، ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ يوم القيامة، ﴿فَنُنَبِّئُهُم﴾ نخبرهم، ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ من خير أو شر يجازون عليه، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ لا تخفى عليه خافية.

(٢٤) ﴿نُمَتِّعُهُمْ﴾ نمهلهم ﴿قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ نُلجئهم: ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ بغير رضًا منهم ولا محبة له.

(٢٥) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ﴾ السبع الطباق، ﴿وَالأَرْضَ﴾ الواسعة، ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ لا ينسبون ذلك إلى آلهتهم وأصنامهم، لعلمهم بعجزها ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي له ما في السماوات، وما في الأرض المحمود على جميل فعاله وخصاله، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حين يعبدون الأصنام والأوثان.

(٢٦) ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وما بينهما، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ الغنى الذاتي عبده الناس أو كفروا، كقوله ﷺ، فيما يرويه عن ربه عَزَّوَجَلَّ: «**يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي، فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَىٰ أَتْقَىٰ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَىٰ أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ**» اخرجه مسلم عن أبي ذر.

﴿الْحَمِيد﴾ المحمود علىٰ جميل وكمال صفاته، وعلىٰ عظيم هباته.

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿٢٧﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ يعني: لو أن جميع ما في الأرض من الشجر عبارة عن أقلام، ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ عبارة عن مداد، ﴿مَّا نَفِدَتْ﴾ فرغت وفنيت ﴿كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ الكونية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يغلب ولا يعجز، ﴿حَكِيمٌ﴾ في جميع شأنه.

في هذه الآية دليل علىٰ أن الله يتكلم أزلًا وأبدًا، وما جاء أنه يوصف بالسكوت فالمعنىٰ أنه لم يذكر حكمًا في هذه المسألة.

دليل ذلك حديث أبي هريرة قال: يَا رَسُولَ اللهِ، إِسْكَاتُكَ بَيْنَ التَّكْبِيرِ وَالقِرَاءَةِ مَا تَقُولُ؟ قَالَ: **«أَقُولُ: اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ، كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ، اللَّهُمَّ نَقِّنِي مِنَ الخَطَايَا كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ، اللَّهُمَّ اغْسِلْ خَطَايَايَ بِالْمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالبَرَدِ»** متفق عليه، وسماه سكوتا؛ لأنه لم يظهره، ومثله قول النبي ﷺ: **«وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ عَفْوٌ»**، أي: لم يُنزل فيه حُكمًا.

﴿٢٨﴾ ﴿مَّا خَلْقُكُمْ﴾ إيجادكم في الدنيا، ﴿وَلَا بَعْثُكُمْ﴾ يوم القيامة، ﴿إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أي: كخلق نفس واحدة، وهذا رد عليهم حيث أنكروا البعث والنشور، ﴿إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم، ﴿بَصِيرٌ﴾ بأفعالكم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾.

٢٩ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ﴾ يُدخل ﴿ٱللَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ﴾ يدخل ﴿ٱلنَّهَارَ فِي ٱللَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ﴾ المشرقة، ﴿وَٱلْقَمَرَ﴾ المنير، ﴿كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلىٰ وقت ومكان معلوم: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ مطلع.

٣٠ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي تقدم ذِكره من أن الله عَزَّوَجَلَّ صرف الليل والنهار والشمس والقمر لخدمة الإنسان وما إليه: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ لا إله غيره، ولا رب سواه، ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ من الأصنام والأوثان، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ علىٰ عرشه، ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ الواسع.

❁ وفي هذه الآية معنىٰ لا إله إلا الله وأنه لا معبود بحق إلا الله.

٣١ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ﴾ السفن، ﴿تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ﴾ الخِضم: ﴿بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ يجريها الله فيُرسل الرياح لتحريكها وعدم سكونها، ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ من حججه وعجائبه الدالة علىٰ عظيم قدرته، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ علامات وحُجج وبراهين: ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ كثير الصبر علىٰ أمر الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿شَكُورٍ﴾ كثير الشكر لنعمه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ۝٣٢ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٣٣﴾ [الشورىٰ:٣٢-٣٣].

٣٢ ﴿وَ﴾ اذكر يا محمد: ﴿إِذَا غَشِيَهُم﴾ أحاط بهم: ﴿مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾ كالجبال المرتفعة، كاد أن يهلكهم فعند ذلك ﴿دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ لا يدعون أصنامهم وآلهتهم؛ لعلمهم أنها عاجزة عن نفعهم وعن ضرهم في هذا الموطن، ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ﴾ سلمهم وخلصهم وأنجاهم، ﴿إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ اليابسة، ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ موحد، وقيل: مقتصد في القول مع أنه من الكفار، فبعضهم أشد قولًا من بعض، ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾ غدار وفي الحديث «**آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ**» ومنها: «**وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ**»، ﴿كَفُورٍ﴾ كافر بنعمة الله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٣٣ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌۢ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝٣٤﴾.

٣٣ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ وحدوه واعبدوه، ﴿وَٱخْشَوْا۟﴾ خافوا: ﴿يَوْمًا﴾ وهو يوم القيامة من شأنه: ﴿لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾

[الأنعام:١٦٤]، وقول النبي ﷺ لأبي رمثة: «أَمَا إِنَّهُ لَا يَجْنِي عَلَيْكَ وَلَا تَجْنِي عَلَيْهِ»، بل يكون الحال أنه: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦﴾ [عبس:٣٤-٣٦].

﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ﴾ أو يدفع، ﴿عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ بل ربما طلب بعضهم من حسنات الآخر إن كانت بينهم مظالم، إلا أن المؤمنين يشفع بعضهم في بعض، فربما شفع الأب في ابنه أو الابن في أبيه ما داموا من أهل الإسلام، ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ فيما أخبر به من الساعة وغيرها، ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ﴾ تشغلنكم وتخدعنكم: ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ وزخارفها ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم﴾ يخدعكم، ﴿بِٱللَّهِ﴾ بحلم الله وتأخير العذاب عنكم، ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ الشيطان إذ يفتنكم عن طاعة الله والتزام شرعه وأمره.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ أي: العلم الذي اختص به علىٰ من سواه أوله: ﴿عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ القيامة فلا يعلم متىٰ هي إلا هو ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ المطر، فلا يعلم متىٰ يكون المطر إلا هو، وما يقع في أخبار الطقس إنما هو توقعات علىٰ سير سحب قد رصدوها، وقد يقع بها المطر وقد لا يقع ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ فروج النساء وغيرهن من الإناث، وما يقع من إخبار الأطباء أنه ذكر أو أنثىٰ إنما يكون بعد النظر في الجهاز الذي يظهر آلة الجنين، فليس من الغيب المطلق في شيء، ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ﴾ تحصل، ﴿غَدًا﴾ من الأعمال أو الأرزاق ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ تقبض وتدفن، ويسمىٰ هذا بالغيب المطلق الذي اختص الله عَزَّوَجَلَّ بعلمه، ففي البخاري عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «مَفَاتِحُ الغَيْبِ خَمْسٌ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾».

وفي حديث جبريل: «مَفَاتِحُ الغَيْبِ خَمْسٌ لاَ يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ: لاَ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلَّا اللهُ، وَلاَ يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ إِلَّا اللهُ، وَلاَ يَعْلَمُ مَتَىٰ يَأْتِي المَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا اللهُ، وَلاَ تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ، وَلاَ يَعْلَمُ مَتَىٰ تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللهُ» أخرجه أحمد، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ بعباده ظاهرًا وباطنًا.

❁ وهذه الآية دليل علىٰ عِلم الله عَزَّوَجَلَّ المُطلق الذي لا يُشاركه فيه غيره، فمن ادعىٰ هذا العلم المُطلق كفر، ومن هذا الوجه كفر الساحر، ومن في بابه من الكهان والعرافين

❁ وفيها ردٌ لىٰ البوصيري صاحب البردة ومن يعتقد عقيدته إذ يقول قي النبي صلىٰ الله عليه وسلم.

فـإن مـن جـودك الـدنيا وضـرتها ومـن علومـك علـم اللـوح والقلـم

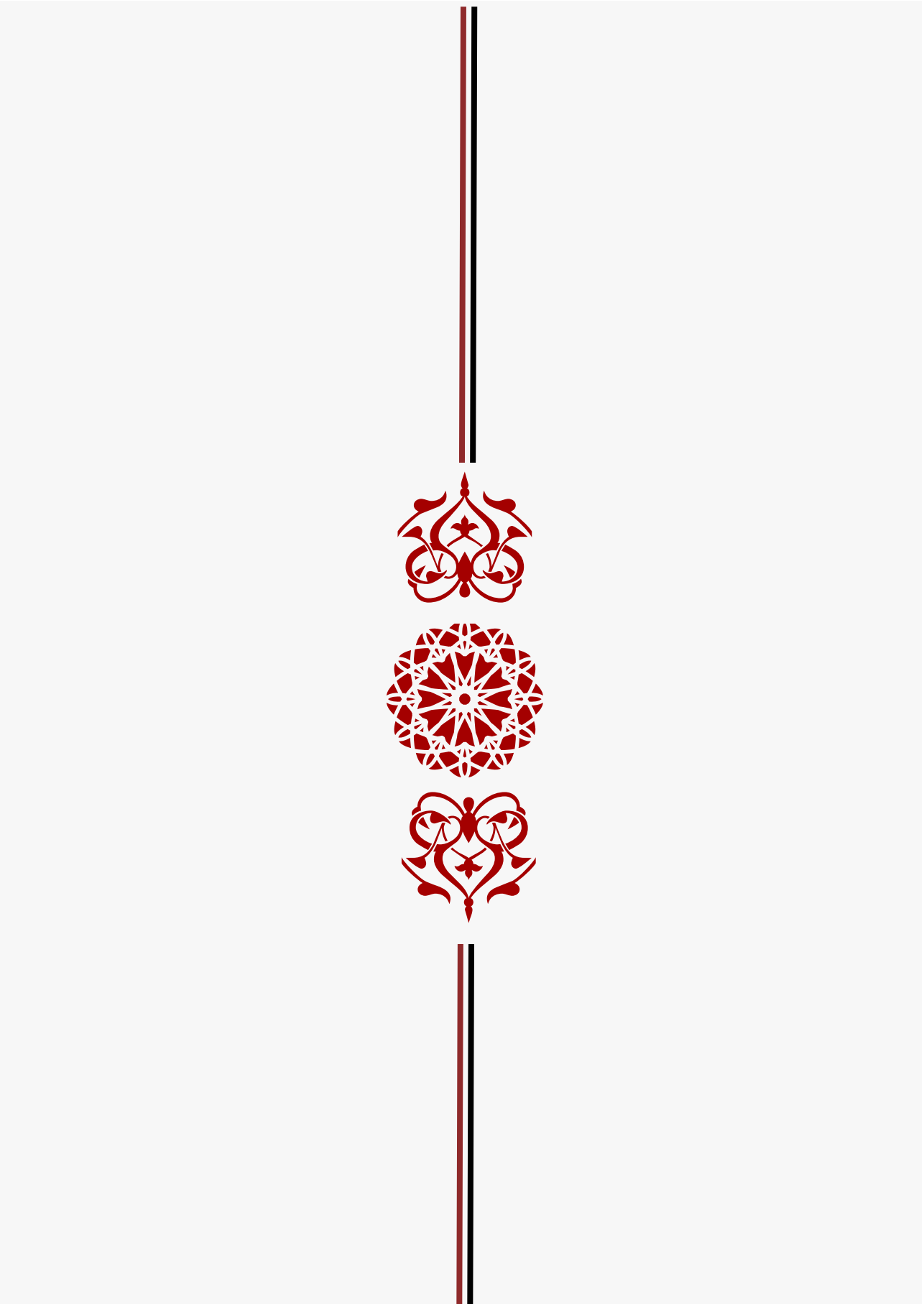
وَالْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ لقمَان



تَفْسِيرُ سُورَةِ السَّجْدَةِ





سُورَةُ السَّجْدَةِ

مَكِّيَّةٌ، وَآيَاتُهَا ثَلَاثُونَ آيَةً.

قال عطاء: إلا ثلاث آيات من قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ [السجدة:١٨] إلىٰ: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ﴾ [السجدة:٢٠].

وفي حديث أبي هريرة في الصحيحين: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ، يَوْمَ الْجُمُعَةِ: الم تَنْزِيلُ السَّجْدَةِ، وَهَلْ أَتَىٰ عَلَىٰ الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣﴾.

١ {الٓمٓ}.

٢ ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ القرآن، ﴿لَا رَيْبَ﴾ لا شك: ﴿فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٣ ﴿أَمْ﴾ بل ﴿يَقُولُونَ﴾ الكفار ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ اختلقه واصطنعه من جراء نفسه، ﴿بَلْ﴾ القرآن الكريم، ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ تكلم به و ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣﴾ [الشعراء:١٩٣]، ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ وهم أهل مكة، ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي: في الفترة التي بين عيسىٰ ومحمد ﷺ، وكانوا أمة أُمية لا تكتب ولا تحسب، ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ إلىٰ الدين الحق.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾.

٤ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ وسيأتي بيان ذلك في تفسير سورة فُصلت بإذن الله، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ علا، وارتفع، وصعد، واستقر.

وفي هذا رد علىٰ الحلولية والاتحادية الذين يزعمون: أن الله في كل مكان، متحداً أو حالاً في مخلوقاته وهذا قول كفري ينبغي التحذير منه، وبيان أن الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ عرشه، وتكلمت بحمد الله في هذا الكتاب بعدة مواطن عن هذه الصفة العظيمة ومن أراد التزود بالرد علىٰ شبه المعطلة فاليرجع إلىٰ كتابي "سلامة الخلف في طريقة السلف" والحمد لله.

﴿مَا لَكُم﴾ يا معاشر المشركين، ﴿مِّن دُونِهِ﴾ من دون الله من الأصنام والأوثان: ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ ناصر يتولىٰ شأنكم وينصركم، ﴿وَلَا شَفِيعٍ﴾ يشفع لكم إلا بإذنه، ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون.

٥ ومن شأنه أنه: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ أي: يحكمه ويقضيه، ﴿مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي: في السماء والأرض، أو ينزل أمره من أعلىٰ السماء إلىٰ الأرض السابعة، وحيث شاء الله من ملكوته، فيُسعد ويشقي ويُغني ويفقر ويُعز ويُذل ويكرم ويهين ويعطي ويمنع من شاء من عباده، ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ﴾ يصعد: ﴿إِلَيْهِ﴾ ذلك الأمر، ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ في الدنيا بينما رجع إليه في لحظة.

٦ ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الذي خلق السماوات والأرض وكان من شأنه ما تقدم: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ ما غاب عن العيان، ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ ما كان ظاهرًا للعيان المشهود، فلا تخفىٰ عليه الظواهر والبواطن، ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُغلب، ﴿الرَّحِيمِ﴾ بعباده المؤمنين.

٧ ﴿الَّذِي﴾ من شأنه أنه: ﴿أَحْسَنَ﴾ أتقن، ﴿كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤]، ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ﴾ آدم، ﴿مِن طِينٍ﴾ علىٰ غير مثال سابق.

٨ ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ﴾ ذريته: ﴿مِن سُلَالَةٍ﴾ نطفة؛ لأنها تُسل من الإنسان، ﴿مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ ضعيف كما قال ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان:٢].

٩ ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾ أتمه بعد أن صار نطفة فعلقة فمضغة فعظامًا فَكُسِيت عظامه لحمًا، ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾ من الأرواح التي عنده، ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ منَّة منه، فالسمع يسمعون به المسموعات، والبصر يُبصرون به المبصرات، والأفئدة يتعقلون بها شرع الله ومعرفة ما ينفعهم، ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: قليلٌ الذين يشكرون الرب علىٰ هذه النعم.

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآئِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ١٠ قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ١١ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ١٢ وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٣ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمۡۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٤﴾.

١٠ ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ أي: الكفار: ﴿أَءِذَا ضَلَلۡنَا﴾ ضعفنا وهلكنا: ﴿فِي الأَرۡضِ﴾ وصرنا ترابًا ورفاتًا، ﴿أَئِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭ﴾ أنبعث بعد موتنا؟، ﴿بَلۡ﴾ الواقع أن ﴿هُم بِلِقَآئِ رَبِّهِمۡ﴾ بالبعث بعد الموت، ﴿كَٰفِرُونَ﴾ جاحدون.

١١ ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم﴾ يقبض أرواحكم ﴿مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ ومن معه من الأعوان، ﴿ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ﴾ وكله الله بقبض الأرواح، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ﴾ تحشرون فيجازيكم علىٰ أعمالكم، ولا تعارض بين هذه الآية وبين قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ﴾ [الزمر:٤٢]، ﴿تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام:٦١]، فملك الموت يتصرف بأمر الله، والملائكة الذين هم تحت ملك الموت يأمرهم وينهاهم، ولا يثبت شيء في اسمه.

١٢ ﴿وَلَوۡ تَرَىٰ﴾ ولو تعلم يا محمد ﴿إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ الكافرون يوم القيامة: ﴿نَاكِسُواْ﴾ مطرقي وخافضي، ﴿رُءُوسِهِمۡ﴾ إلىٰ الأرض لسوء فعلهم في الدنيا ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ حياءً وندمًا مما فعلوه من الشرك وغيره، لرأيت عجبًا يقولون مع ندامتهم: ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا﴾ ما كنا مكذبين به، ﴿وَسَمِعۡنَا﴾ منك تصديق ما أتت به الرُسل ولا ينفعهم ذلك، ﴿فَٱرۡجِعۡنَا﴾ فارددنا إلىٰ الأرض: ﴿نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ بما كنا به مكذبين وهم كاذبون، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٨].

١٣ ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا﴾ كونًا ﴿لَأٓتَيۡنَا﴾ أعطينا ﴿كُلَّ نَفۡسٍ﴾ من المكلفين ﴿هُدَىٰهَا﴾ توفيقها ورشدها للإيمان، ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّ﴾ وجب، ﴿ٱلۡقَوۡلُ﴾ القضاء والحكم: ﴿مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ﴾ الجن، ﴿وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ من الكافرين منهم، وذلك أن الله لما خلق الجنة والنار وعدهما بملئهما، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: **«لاَ يَزَالُ يُلْقَىٰ فِيهَا وَتَقُولُ:**

هَلْ مِنْ مَزِيدٍ، حَتَّىٰ يَضَعَ فِيهَا رَبُّ العَالَمِينَ قَدَمَهُ، فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَىٰ بَعْضٍ، ثُمَّ تَقُولُ: قَدْ، قَدْ» متفق عليه.

١٤ ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ يوم القيامة، وتركتم الإيمان به، ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ تركناكم من الرحمة، ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ الذي لا ينقطع، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والتكذيب.

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ١٥ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ١٦ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٧﴾.

١٥ ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ ويقر بها، ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ﴾ وعظوا، ﴿بِهَا﴾ وقُرئت عليهم وعلموها، ﴿خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ يُصلون لله عَزَّوَجَلَّ ويُعظمونه، ونزهوه عن كل نقص وعيب، ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن عبادته والإيمان به.

١٦ ومن حالهم أنهم: ﴿تَتَجَافَىٰ﴾ ترتفع ﴿جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ الموضع الذي يضطجع عليه، وهو الفراش يقومون للتهجد والصلاة، ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ يصلون له ويعبدونه، ﴿خَوْفًا﴾ من عذابه، ﴿وَطَمَعًا﴾ في رحمته، ﴿وَ﴾ حالهم أنهم: ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ أعطيناهم، ﴿يُنفِقُونَ﴾ فجمعوا بين عبادة الله عَزَّوَجَلَّ وبين الإحسان إلىٰ المخلوقين.

عن أنس بن مالك: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾: "كانوا يتيقَّظون ما بين المغرب والعشاء يُصلُّون، قال: وكان الحسن يقول: "قيام الليل" **أخرجه أبو داود (١٣٢١).**

❁ وفيها: فضيلة قيام الليل، وقد تقدم شيء من ذلك عند قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ **[الإسراء:٧٩]**، وفي حديث أبي هريرة عند أبي داود، من شعر عبد الله بن رواحة في النبي ﷺ:

وَفِينَا رَسُولُ اللهِ يَتْلُو كِتَابَهُ ... إِذَا انْشَقَّ مَعْرُوفٌ مِنَ الْفَجْرِ سَاطِعُ
أَرَانَا الْهُدَىٰ بَعْدَ الْعَمَىٰ فَقُلُوبُنَا ... بِهِ مُوقِنَاتٌ أَنَّ مَا قَالَ وَاقِعُ
يَبِيتُ يُجَافِي جَنْبَهُ عَنْ فِرَاشِهِ ... إِذَا اسْتَثْقَلَتْ بِالْكَافِرِينَ الْمَضَاجِعُ

١٧ ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم﴾ أي: للمؤمنين الموحدين، ﴿مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ مما تقر به أعينهم وتنشرح به أفئدتهم: ﴿جَزَاءً﴾ ثوابًا مضاعفًا، ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، من الطاعات

والمبرات وفي حديث أبي هريرة في الصحيحين: «**قَالَ اللهُ** عَزَّوَجَلَّ: **أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ**»، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧].

وفي حديث المغيرة بن شعبة: «**سَأَلَ مُوسَىٰ رَبَّهُ، مَا أَدْنَىٰ أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً، قَالَ: هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَ مَا أُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، فَيُقَالُ لَهُ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، كَيْفَ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ، وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِمْ، فَيُقَالُ لَهُ: أَتَرْضَىٰ أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا؟ فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: لَكَ ذَلِكَ، وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ، فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ: رَضِيتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: هَذَا لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ، وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ، وَلَذَّتْ عَيْنُكَ، فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ، قَالَ: رَبِّ، فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ، قَالَ: وَمِصْدَاقُهُ فِي كِتَابِ اللهِ** عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ﴾ [السجدة: ١٧] **الْآيَةَ**»، أخرجه مسلم.

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿١٨﴾ ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا﴾ مقرًا بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا، ﴿كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾ كافرًا، ﴿لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾، فالمؤمن أفضل من ملئ الأرض من الكفار، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩]، وقال: ﴿لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [الحشر:٢٠].

﴿١٩﴾ ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ التي يأوون إليها ويُخلدون فيها، ﴿نُزُلًۢا﴾ ضيافة ومكرمة، ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ من الصالحات من التوحيد فما دونه.

٢٠ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ﴾ كفروا، ﴿فَمَأۡوَىٰهُمُ﴾ الذي يأوون إليه يوم القيامة، ﴿ٱلنَّارُ﴾ يُخلدون فيها وبئس القرار، ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ﴾ من غمٍ، ﴿أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ تكفرون وتستبعدون.

۞ وقد يستدل بهذه الآية وأمثالها المعتزلة والخورج الذين يقولون بخلود أصحاب الكبائر في النار، ولا حجة لهم في ذلك علىٰ ما هو مبين في أصل عقيدة أهل السنة والجماعة من خروج الموحدين من النار، وقد قال رسول الله ﷺ: **«شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»** أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وهو من الأحاديث المتواترة.

٢١ ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾ القتل، وقيل: عذاب القبر، ﴿دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ عذاب النار ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ إن قيل: بالقتل لعلهم أن يرجعوا ويتوبوا من كفرهم وبغيهم، وإن أراد به عذاب القبر كما هو قول جمهور العلماء: يرجعون ويُحشرون إلىٰ الله فيزيدهم عذابًا ونكالًا.

٢٢ ﴿وَمَنۡ﴾ لا ﴿أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ﴾ وُعظ، ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ الشرعية، ﴿ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ﴾ علمًا وتعلمًا وعملًا، ﴿إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ الكافرين: ﴿مُنتَقِمُونَ﴾ في الدنيا والآخرة، والآية علىٰ عمومها فقد ينتقم الله عَزَّوَجَلَّ ممن كان إجرامه دون كفره.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآئِهِۦۖ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٢٣ وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ٢٤ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ٢٥ أَوَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍۖ أَفَلَا يَسۡمَعُونَ ٢٦ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلۡمَآءَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡجُرُزِ فَنُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا تَأۡكُلُ مِنۡهُ أَنۡعَٰمُهُمۡ وَأَنفُسُهُمۡۖ أَفَلَا يُبۡصِرُونَ ٢٧ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡفَتۡحُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٨﴾.

٢٣ ﴿وَلَقَدۡ آتَيۡنَا﴾ أعطينا ﴿مُوسَى الْكِتَابَ﴾ التوراة، ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرۡيَةٖ﴾ في شك ﴿مِّن لِّقَآئِهِۦۖ﴾ أي: ليلة المعراج، ﴿وَجَعَلۡنَٰهُ﴾ التوراة، ﴿هُدٗى﴾ دالًا ومُرشدًا ﴿لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، وفي حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَلَىٰ مُوسَىٰ بْنِ عِمْرَانَ** عَلَيْهِ السَّلَامُ **، رَجُلٌ آدَمُ طُوَالٌ جَعْدٌ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ، وَرَأَيْتُ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ مَرْبُوعَ الْخَلْقِ إِلَىٰ الْحُمْرَةِ**

وَالْبَيَاضِ، سَبْطَ الرَّأْسِ، وَأُرِيَ مَالِكًا خَازِنَ النَّارِ، وَالدَّجَّالَ فِي آيَاتٍ أَرَاهُنَّ اللهُ إِيَّاهُ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [السجدة:٢٣] ».

﴿٢٤﴾ ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ﴾ من صالحي بني إسرائيل، ﴿أَئِمَّةً﴾ قادة في الخير يُهتدىٰ ويُقتدىٰ بهم، ﴿يَهْدُونَ﴾ يهتدون، ﴿بِأَمْرِنَا﴾ بما أنزله الله وأوحاه، ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾ علىٰ دينهم والتزموا شرعهم، ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ يؤمنون، وفي هذا المعنىٰ يقول شيخ الإسلام: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين.

﴿٢٥﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ﴾ يحكم: ﴿بَيْنَهُمْ﴾ بين المؤمنين والكافرين، وبين أهل السنة وأهل البدعة ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من الأقوال والأفعال كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر:٣١].

﴿٢٦﴾ ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ يتبين لهم، ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ من الأمم السابقة، ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ في حال رحلة شتائهم ورحلة صيفهم، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَاتٍ﴾ علامات واضحات وحجج قويات، ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ يستجيبون لآيات الله ومواعظه.

﴿٢٧﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يتفكروا، ﴿أَنَّا نَسُوقُ﴾ نرسل، ﴿الْمَاءَ﴾ السحاب الذي ينزل منه المطر، ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ اليابسة التي لا تُنبت، ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا﴾ بعد إنزاله، ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ﴾ دوابهم، ﴿وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ إلىٰ عظيم نعمة الله عليهم.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿٢٨﴾ ﴿وَيَقُولُونَ﴾ الكفار من باب استعجال العذاب: ﴿مَتَىٰ﴾ يكون، ﴿هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾ النصر أو يوم القيامة، ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في قولكم يا معاشر المسلمين.

﴿٢٩﴾ ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿يَوْمَ ٱلْفَتْحِ﴾ الفصل بين العباد، وهو يوم القيامة، حين ﴿لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ﴾ توحيدهم وإقرارهم وتصديقهم الواقع بعد رؤية العذاب، ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ يُمهلون، ويؤخرون.

﴿٣٠﴾ ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ﴾ ما يحل بهم، ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ ما نعدهم من العذاب .

❁ وقيل: نسختها آية السيف، ولا دليل علىٰ ذلك، لكن الغالب عند العلماء: أن الآيات التي كان فيها الأمر بالصبر والإعراض ونحو ذلك كان قبل السيف، ثم أمره الله عَزَّوَجَلَّ بجهادهم كما قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التحريم:٩].

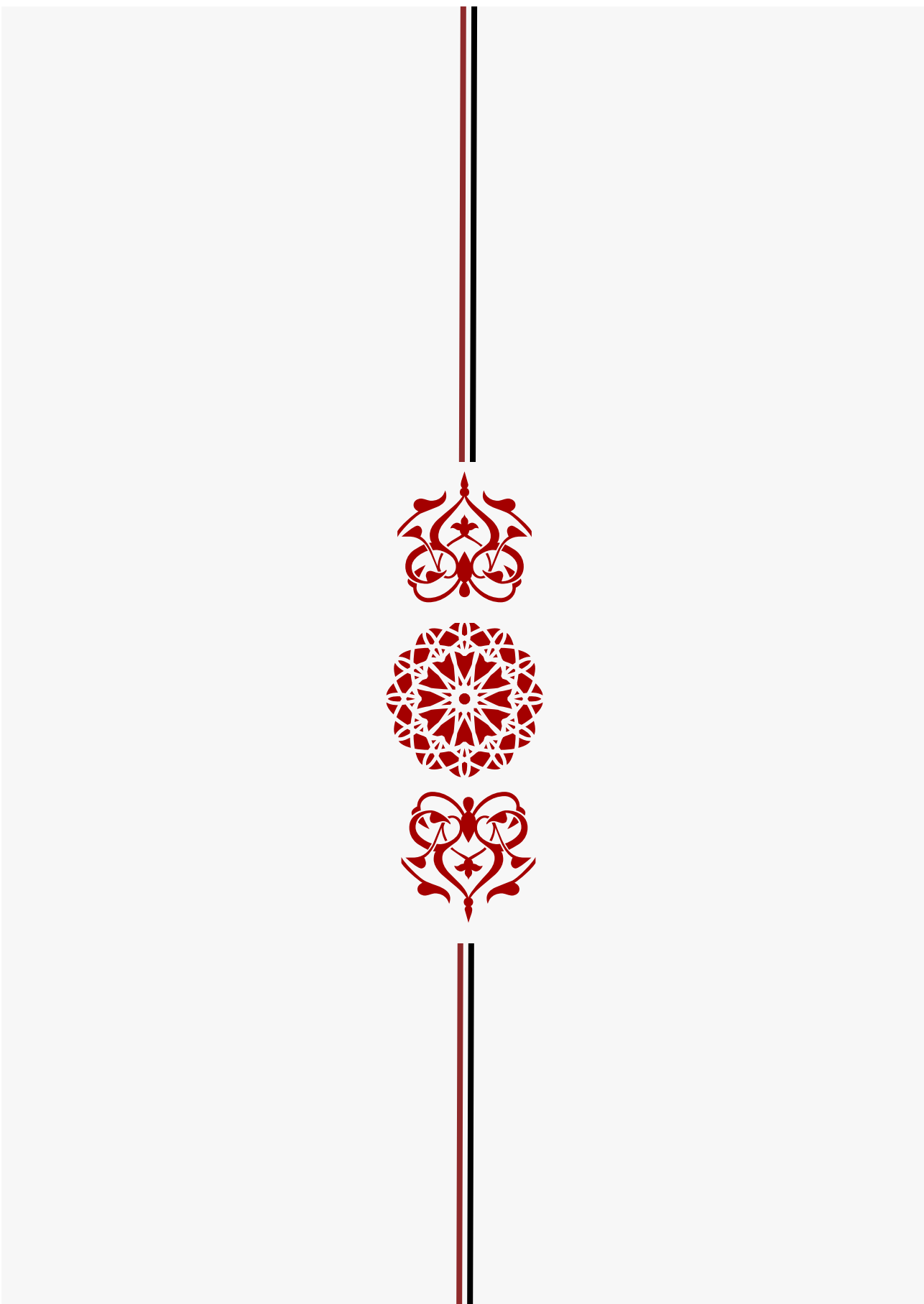
وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ السَّجْدَةِ



تَفْسِيرُ سُورَةِ الْأَحْزَابِ





سُورَةُ الْأَحْزَابِ

مَدَنِيَّةٌ، وَآيَاتُهَا ثَلَاثَةٌ وَسَبْعُونَ آيَةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٣﴾.

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أي: داوم علىٰ تقواه، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ [النساء:١٣٦]، وقد قال رسول الله ﷺ: **«إِنِّي لَأَتْقَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَخْشَاكُمْ لَهُ»** متفق عليه.

و(التقوىٰ): هي فعل المأمور، وترك المحظور، والصبر علىٰ المقدور، ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ من أهل مكة وغيرهم، ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ من أهل المدينة كعبد الله بن أبي بن سلول ومن معه؛ لأن الكافرين والمنافقين لا يُريدون بك إلا الخبال، ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بخلقه، ﴿حَكِيمًا﴾ في تدبيره، فإذا أمَر بأمرٍ ينبغي أن يؤخذ به؛ لأنه علىٰ مقتضىٰ العلم والحكمة، وإذا نهىٰ عن أمرٍ ينبغي أن يُجتنب؛ لأنه علىٰ مقتضىٰ العلم والحكمة.

(٢) ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ القرآن وما إليه من السنة، ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من خيرٍ أو شر، ﴿خَبِيرًا﴾ مطلعًا لا تخفىٰ عليه خافية.

(٣) ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ اعتمد وثق بالله عَزَّوَجَلَّ، في جلب منافعك ودفع مضارك، ﴿وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً﴾ حافظًا وناصرًا لمن توكل عليه.

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾.

﴿٤﴾ وكما أن الله عَزَّوَجَلَّ ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ بحيث يكون في أمرين في حال واحد، لابد أن يتفرغ، فإذا دخل في الصلاة تفرغ لها، وقد قال رسول الله ﷺ: **«إِنَّ فِي الصَّلَاةِ لَشُغْلًا»**، وذكر الرجل خرج مخرج الغالب، وإلا فالمرأة والرجل لكلِّ واحدٍ منهما قلبٌ وعقلٌ واحد، لا يصلح أن يشغل نفسه بشيئين في آنٍ واحد، فإن هذا يؤدي إلىٰ تشتت الذهن، ﴿وَ﴾ كذلك، ﴿مَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ﴾ زوجاتكم ﴿ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ﴾ كأن يقول أنت علي كظهر أمي ﴿أُمَّهَاتِكُمْ﴾ في الحرمة.

❁ وأحكام الظهار تأتي في سورة المُجادَلة، وهي قول الرجل لزوجته: أنتِ عليَّ كظهر أمي، وذهب الجمهور إلىٰ أنه قول الرجل لزوجته: أنتِ عليّ كأيِّ جزءٍ من محارمه، كأن يقول: كظهر أختي أو كرجل أختي أو كرجل أمي أو نحو ذلك، أو أمي أو أختي أو خالتي.

وذهب الظاهرية، -وهو اختيار شيخنا مقبل رحمه الله- أن الظهار قول الرجل: أنت عليَّ كظهر أمي، فإذا علَّقَهُ بظهرها فإنها لا تحل له إلا بعد كفارة الظهار، وهي: عتق رقبة، فإن عجز صام شهرين متتابعين، فإن عجز أطعم ستين مسكينًا علىٰ الترتيب، وليست علىٰ التخيير.

﴿وَ﴾ كذلك، ﴿مَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ﴾ أي: الذين يُنسبون إليكم، وليسوا بأبناءٍ لكم ممن تتبنونه، ﴿أَبْنَاءَكُمْ﴾ صلبية.

📖 سَبَبُ النُّزُولِ:

وكان نزول هذا في شأن النبي ﷺ، حيث تبنىٰ زيد بن حارثة؛ وذلك أن زيد بن حارثة كان قد سُرِقَ في صِغَرِهِ، ثم بيع في مكة، وكان عبدًا لخديجة بنت خويلد، فوهبته لرسول الله ﷺ، فما زال أبوه يلتمسه، حتىٰ جاءه الخبر أنه في مكة، فلما جاء أبوه ذكر للنبي ﷺ الشأن فقال: يا محمد هذا ولدي سُرِقَ عليَّ وجئتُ أُفاديه بما شئت من المال، فقال له النبي ﷺ: **«أو غير ذلك»** قال: وما هو؟ قال: **«هذا زيد، فإن اختاركم ذهب إليكم»** فعرضوا عليه أنفسهم، فقال: ما كنتُ لأختار علىٰ محمدٍ ﷺ أحدًا، فتبناه النبي ﷺ، ففرح أبوه بذلك، ثم عاد إلىٰ بلده، فكان الشأن أن زيداً يُقال له: زيد بن محمد، وكان الشأن في مبدأ الإسلام أن المتبنىٰ يرث ممن تبناه كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡۚ﴾ **[النساء:٣٣]**.

❁ ثم نسخ الله هذا الحكم بقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡۚ﴾.

﴿وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ﴾ ممن تبنونهم، ﴿أَبۡنَآءَكُمۡۚ﴾ أي: كأبنائكم في النسب، ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ التبني ﴿قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ﴾ أي: بأنهم أبناء لكم فهو قول لا حقيقة له، ونسب غير ثابت، ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ﴾ الصدق فيعمل به عباده، ﴿وَهُوَ يَهۡدِي﴾ يُرشد ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ إلىٰ الطريق القويم والصراط المستقيم.

﴿ٱدۡعُوهُمۡ﴾ ونادوهم ﴿لِـَٔابَآئِهِمۡ﴾ الذين ولدوهم، فزيد هو ابن حارثة، فنسبتهم إلىٰ آبائهم، ﴿هُوَ أَقۡسَطُ﴾ أعدل وأقوم، ﴿عِندَ ٱللَّهِۚ﴾.

وفي البخاري من حديث عبد الله بن عمر أن زيد بن حارثة مولىٰ رسول الله ﷺ، ما كُنَّا ندعوه إلا زيد بن محمد، حتىٰ نزل القرآن، ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِـَٔابَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ﴾ كأنهم كانوا أولاد زنا، أو كانوا قد أُخِذوا في اللقطة، أو بسبب كارثة وقعت، حتىٰ لم يُعلم آباؤهم، ﴿فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾ إخوة لكم، يُقال لأحدهم: فلان ابن عبد الله، ﴿وَمَوَٰلِيكُمۡۚ﴾ أولياؤكم في الدين، ليس المُراد بمواليكم عبيدكم؛ لأن الحر لا يكون عبدًا.

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ، رَجُلٌ أَعْطَىٰ بِي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَىٰ مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِهِ أَجْرَهُ» أخرجه البخاري.

﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ إثم، ﴿فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ أي: من دعائهم إلىٰ غير آبائهم بغير قصدٍ، كقوله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، ﴿وَلَٰكِن﴾ تؤاخذون في، ﴿مَّا تَعَمَّدَتْ﴾ قصدت ﴿قُلُوبُكُمْ﴾ فعله ويقول النبي ﷺ: «وَمَا أَخْشَىٰ عَلَيْكُمُ الْخَطَأَ وَلَكِنْ أَخْشَىٰ عَلَيْكُمُ الْعَمْدَ» أخرجه أحمد عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَكَانَ اللهُ غَفُورًا﴾ متجاوزًا، ﴿رَّحِيمًا﴾ بكم، وفي حديث سعد بن أبي وقاص قال النبي ﷺ: «مَنِ ادَّعَىٰ إِلَىٰ غَيْرِ أَبِيهِ، وَهُوَ يَعْلَمُ فَالْجَنَّةُ عَلَيْهِ حَرَامٌ» متفقٌ عليه.

٦ ومع ذلك ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ محمد ﷺ ﴿أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ الولاية العامة؛ من حيث وجوب طاعته والتزام أمره، يقضي ديونهم ويهتم لشأنهم، ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ أمهاتهم في الحرمة لا في النسب، فلا يجوز، مع ذلك النظر إليهن والخُلوة بِهِنَّ؛ لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب:٥٣]، قال الشافعي: تزوج الزبير أسماء بنت أبي بكر وهي أخت أم المؤمنين، ولم يقل: هي خالة المؤمنين، اهـ.

❐ **ومن هذا اختلافهم في معاوية هل يُقال فيه: خال المؤمنين؟**

فللعلماء فيه قولان الأول: المنع، والثاني: الجواز.

والصحيح أنه لا يُقال فيه ذلك، وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: «مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَأَنَا أَوْلَىٰ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ﴾ فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ مَاتَ وَتَرَكَ مَالًا فَلْيَرِثْهُ عَصَبَتُهُ مَنْ كَانُوا، وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا، فَلْيَأْتِنِي فَأَنَا مَوْلَاهُ» متفق عليه.

﴿وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ ينصرونهم ويرثونهم.

❁ وهذه ناسخة لما كان عليه الناس في مبدأ الإسلام، حيث آخىٰ النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار، فكان الأنصاري يرث المهاجري، والمهاجري يرث الأنصاري، حتىٰ أنزل الله هذه الآية.

❁ والآية عُمدة في باب ميراث أولي الأرحام.

﴿فِي كِتَابِ اللهِ﴾ في حكم الله، ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الأنصار ﴿وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ من هاجر إليهم، ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ من الهِباتِ والصدقات ونحو ذلك، فهذا لا حرج فيه ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ﴾ اللوح المحفوظ، وقيل في التوراة، ﴿مَسْطُورًا﴾ مرقومًا.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ۝٧ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٨﴾.

٧ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ عهدهم في الوفاء بالعهود والمواثيق وفي تبليغ دين الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَٰقَ النَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٨١﴾ [آل عمران:٨١]، ﴿وَمِنكَ﴾ يا محمد، ﴿وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ وهم أولوا العزم من الرسل، ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا﴾ عهداً ﴿غَلِيظًا﴾ مؤكداً في عدم كتمِ دين الله، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ﴾ [المائدة:٦٧]، وأخذ الله العهد علىٰ هؤلاء الرسل.

٨ ﴿لِيَسْأَلَ﴾ يوم القيامة ﴿الصَّادِقِينَ﴾ الموحدين المؤمنين ﴿عَن صِدْقِهِمْ﴾ عن توحيدهم والتزامهم لشرع الله عَزَّوَجَلَّ، فمن التزم ذلك أكرمه الله في الدارين، ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الآخرة، وقد يُصيبهم في الدنيا القتل في حالِ قوة المسلمين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢﴾.

٩ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا﴾ اشكروا ﴿نِعْمَةَ اللهِ﴾ نعم الله الكثيرة ﴿عَلَيْكُمْ﴾ ومنها ما وقع لكم حين حاصركم المُشركون الذين تحزبوا من مكة وغيرها، وكانوا ثلاثة ألاف مقاتل، ﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ يعني: الأحزاب: قريشٌ وغطفان ونقض العهد معهم يهود قريظة، ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ وهي ريح الصبا، كما في حديث ابن عباس في الصحيحين، قال النبي ﷺ: «**نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ**»، ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ الملائكة؛ لكنها لم

تُقاتل، وإنما كان في نزولها تثبيت المؤمنين ﴿وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ مطلعًا علىٰ حالكم وشأنكم، وكان النبي ﷺ قد حفر خندقًا مع أصحابه.

وكان من قولهم في حال رَجَزِهم:

وَاللهِ لَـوْلَا اللهِ مَـا اهْتَـدَيْنَا ... وَلَا تَصَـدَّقْنَا وَلَا صَـلَّيْنَا
فَـأَنْزِلَنْ سَـكِينَةً عَلَيْنَـا ... وَثَبِّـتِ الْأَقْـدَامَ إِنْ لَاقِيْنَـا
إِنْ الْأُولَـىٰ قَـدْ بَغَـوْا عَلَيْنَـا ... إِذَا أَرَادُوا فِتْنَـةً أَبَيْنَـا

ويرفع صوته بقوله: أبينا أبينا.

ولحق المسلمون حرجًا وضيقًا وجوعًا، حتىٰ أن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رجع إلىٰ امرأته، وقال: «لقد رأيتُ في وجهِ النبي ﷺ الجوع، هل عندكِ من شيء؟ قالت: نعم، فقام إلىٰ داجنٍ لهم فذبحها، وقامت إلىٰ شيءٍ من شعير فطحنته، ثم قالت: اذهب إلىٰ رسول الله ﷺ خامس خمسة، ولا تفضحني.

فلما أخبر النبي ﷺ، نادىٰ: **«يَا أَهْلَ الْخَنْدَقِ ، إِنَّ جَابِرًا قَدْ صَنَعَ سُؤْرًا فَحَيَّ هَلًا بِكُمْ»**، قَالَ: فَقَامَ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ.

فَلَمَّا دَخَلْتُ عَلَىٰ امْرَأَتِي قُلْتُ: وَيْحَكِ ، جَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَمَنْ مَعَهُمْ.

فَقَالَتْ: بِكَ وَبِكَ فَقُلْتُ: قَدْ فَعَلْتُ الَّذِي قُلْتِ، وَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْدُمُ النَّاسَ فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: **«ادْخُلُوا وَلَا تَضَاغَطُوا»**، فَأَخْرَجْتُ لَهُ عَجِينًا ، فَبَصَقَ فِيهِ وَبَارَكَ ، ثُمَّ عَمَدَ إِلَىٰ بُرْمَتِنَا ، فَبَصَقَ وَبَارَكَ.

ثُمَّ قَالَ: **«ادْعُ خَابِزَةً فَلْتَخْبِزْ مَعِي»**، فَجَعَلَ يَكْسِرُ الْخُبْزَ ، وَيَجْعَلُ عَلَيْهِ اللَّحْمَ، وَيُخَمِّرُ الْبُرْمَةَ وَالتَّنُّورَ إِذَا أَخَذَ مِنْهُ، وَيُقَرِّبُ إِلَىٰ أَصْحَابِهِ، فَلَمْ يَزَلْ يَكْسِرُ الْخُبْزَ وَيَغْرِفُ وَهُمْ أَلْفٌ، فَأُقْسِمُ بِاللهِ لَقَدْ أَكَلُوا حَتَّىٰ شَبِعُوا فَتَرَكُوهُ، وَإِنَّ بُرْمَتَنَا لَتَغِطُّ كَمَا هِيَ.

وأرسل النبي ﷺ حذيفة في ليلةٍ مظلمة، حتىٰ قال: **«أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟»** فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: **«أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟»** فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: **«أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟»**، فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، فَقَالَ: **«قُمْ يَا حُذَيْفَةُ، فَأْتِنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ»**، فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا إِذْ دَعَانِي بِاسْمِي أَنْ أَقُومَ.

قَالَ: «**اذْهَبْ فَأْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ**»، فَلَمَّا وَلَّيْتُ مِنْ عِنْدِهِ جَعَلْتُ كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَّامٍ حَتَّىٰ أَتَيْتُهُمْ، فَرَأَيْتُ أَبَا سُفْيَانَ يَصْلِي ظَهْرَهُ بِالنَّارِ، فَوَضَعْتُ سَهْمًا فِي كَبِدِ الْقَوْسِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْمِيَهُ.

فَذَكَرْتُ قَوْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «**وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ**»، وَلَوْ رَمَيْتُهُ لَأَصَبْتُهُ فَرَجَعْتُ وَأَنَا أَمْشِي فِي مِثْلِ الْحَمَّامِ، فَلَمَّا أَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَفَرَغْتُ قُرِرْتُ، فَأَلْبَسَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ فَضْلِ عَبَاءَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ يُصَلِّي فِيهَا، فَلَمْ أَزَلْ نَائِمًا حَتَّىٰ أَصْبَحْتُ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ قَالَ: «**قُمْ يَا نَوْمَانُ**» **اخرجه مسلم.**

ونَدَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّاسَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ، فَانْتَدَبَ الزُّبَيْرُ، ثُمَّ نَدَبَهُمْ، فَانْتَدَبَ الزُّبَيْرُ، ثُمَّ نَدَبَهُمْ، فَانْتَدَبَ الزُّبَيْرُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيٌّ وَحَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ**» **متفق عليه.**

١٠ وكان من شأنهم: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ﴾ أي: من فوق الوادي من قِبَلِ المشرق، وهم أسدٌ وغطفان، وعليهم مالك بن عوف النصري، وعيينة بن حصن الفزاري في ألفٍ من غطفان، ومعهم طليحة بن خويلد الأسدي في بني أسد، وحيي بن أخطب في يهود بني قريظة، ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ يعني: من بطن الوادي من قِبَلِ الغرب، وهم قريش وكنانة عليهم أبو سفيان بن حرب في قريش ومن تبعه، وأبو الأعور عمرو بن سفيان السلمي من قِبَلِ الخندق، ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ مالت وشخصت من الرعب، ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ فزالت عن أماكنها حتىٰ بلغت الحلقوم من الفزع المُلازم؛ لأنهم حاصروهم ونقضت قريظة العهود، فظنوا أنهم أُحيط بهم، وفزعهم وخوفهم علىٰ الإسلام واستئصاله، وكان خوفًا طبيعيًا من بطش العدو، ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ ظن المنافقون استئصال محمدٍ ﷺ، وظن المؤمنون النصر والظَّفَر لهم في قول بعض المفسرين.

لكن الذي يظهر أن ما لحق المسلمين هو من استبطاء النصر، كقوله: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ **[البقرة: ٢١٤]**.

١١ ﴿هُنَالِكَ﴾ في غزوة الأحزاب ﴿ٱبْتُلِىَ﴾ اختبر ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ بهذا الحصار، ﴿وَزُلْزِلُوا۟﴾ اضطربوا، ﴿زِلْزَالًا﴾ اضطرابًا، ﴿شَدِيدًا﴾ بسبب ما لحقهم من الفزع، فحفروا الخندق علىٰ

جوعٍ وأحاط بهم العدو، وهم في استقبال العدو الصائل المتحزب، وإذا بقريظة تنقض العهد من خلفهم.

﴿١٢﴾ ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شك، وهم المنافقون، ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ من النصر والظفر، ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ أماني، وهذا بلاءٌ آخر في حال الشدة، وهم يؤنبون ويتكلمون علىٰ المؤمنين، ما تجد عندهم التثبيت والإعانة والنصر.

﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾.

﴿١٣﴾ ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ﴾ جماعة ﴿مِّنْهُمْ﴾ من المنافقين، ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾ يعني: المدينة كانت تُسمىٰ يثرب، وقد نهىٰ النبي ﷺ عن تسميتها بهذا الاسم، وسماها طابة، وسميت المدينة، ﴿لَا مُقَامَ﴾ قدرة وثبات ﴿لَكُمْ﴾ في مواجهة العدو، ﴿فَٱرْجِعُوا۟﴾ إلىٰ مساكنكم، ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ﴾ من المنافقين، ﴿ٱلنَّبِىَّ﴾ في العودة والتخلف عن الخروج، ﴿يَقُولُونَ﴾ كذبًا، ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ خالية ضائعة نخشىٰ عليها من العدو والسُّرَّاق ونحو ذلك، وهذا من خوفهم وهلعهم، ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن﴾ ما ﴿يُرِيدُونَ﴾ بهذا العذر، ﴿إِلَّا فِرَارًا﴾ من الزحف، وخذيلة لأهل الإسلام.

﴿١٤﴾ ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم﴾ البيوت أو المدينة ﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ جوانبها ونواحيها، ﴿ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ﴾ الشرك والردة، ﴿لَـَٔاتَوْهَا﴾ أي: الردة سريعًا، ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا﴾ يعني: سرعان ما يُشركون ويندون ويُظهرون ما كانوا يُبطنون.

﴿١٥﴾ ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل غزوة الأحزاب، ﴿لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ لا يفرون من عدوهم ولا ينهزمون ولكنهم نكثوا، ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ﴾ ميثاق الله ﴿مَسْـُٔولًا﴾ يجب الوفاء به، قال يزيد بن رومان: هم بنوا حارثة، هموا يوم أحد أن يفشلوا مع بني سلمة، فلما نزل فيهم ما نزل عاهدوا الله ألا يعودوا لمثلها.

(١٦) ﴿قُل﴾ لهم يا محمد: ﴿لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ﴾ الهروب، ﴿إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾، فـ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران:١٨٥]، و ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [النساء:٧٨]، ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ﴾ تنعمون وتعيشون بعد فراركم ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ ويلحقكم الأجل.

(١٧) ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم﴾ يُجيركم، ﴿مِّنَ اللهِ﴾ القوي الذي لا يُغلب، ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا﴾ هزيمة أو عذابًا، ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ نصرًا ونعمة، ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللهِ وَلِيًّا﴾ قريبًا ينفعهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم.

﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾.

(١٨) ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ﴾ المثبطين ﴿مِنكُمْ﴾ للناس عن رسول الله ﷺ ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ تثبيطًا عن الخير ﴿هَلُمَّ﴾ تعالوا وارجعوا ﴿إِلَيْنَا﴾ واتركوا محمدًا ﷺ، فلا تشهدوا معه الحرب، إنا نخاف عليكم الهلاك، ﴿وَلَا يَأْتُونَ﴾ يحضرون، ﴿الْبَأْسَ﴾ الحرب، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ رياءً وسمعة، لكن مع ذلك ينصر الله أولياءه، فقد ثبت المسلمون وتزلزل المنافقون، والله المستعان.

(١٩) ﴿أَشِحَّةً﴾ أي: المنافقون بخلاء ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بالنفقة في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، وبخلاء بأنفسهم أن يقاتلوا معكم، فإذا وجد البخل وجد الجُبن، وإذا وجدت الشجاعة وجد الكرم، خُلُقان لا يجتمعان في القلب، ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ﴾ الفزع والحرب، ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ نظر الخائف، ﴿كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ يُقلب بصره هاهنا وهاهنا، ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ﴾ آذوكم ورموكم، ﴿بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ ذَرِبَة يعني: في شدة الخوف ولا كلمة، وفي حال الأمن يؤذون المسلمين بألسنتهم، ﴿أَشِحَّةً﴾ حريصين ﴿عَلَى الْخَيْرِ﴾ أي: عند الغنيمة يُشاحون المؤمنين، ﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ يقروا بقلوبهم، وينقادوا بجوارحهم، ﴿فَأَحْبَطَ اللَّهُ﴾ وأبطل، ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ جهادهم وغير ذلك من الأعمال، ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ لا يُعجزه شيء.

❁ وهذا من الأدلة علىٰ حبوط عمل الكافر.

﴿يَحْسَبُونَ﴾ أي: المنافقون يظنون، ﴿الْأَحْزَابَ﴾ قريشًا وغطفان واليهود ﴿لَمْ يَذْهَبُوا﴾ يعني: ينصرفوا، ﴿وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ﴾ يرجع إليهم القتال بعد الذهاب، ﴿يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ﴾ في البادية بعيدًا عن الحرب، ويكونون ﴿فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ﴾ أخباركم، وما آل إليه أمركم، ﴿وَلَوْ كَانُوا﴾ أي: أهل النفاق، ﴿فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ بل، ﴿مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة:٤٧]، كما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ عمن تخلَّفَ عن غزوةِ تبوك.

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾.

﴿٢١﴾ ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ هذه الآية عُمْدة في وجوب التأسي والاقتداء برسول الله ﷺ، فالأسوة القدوة الصالحة، فيجب علىٰ المسلمين أن يتأسوا برسول الله ﷺ في اعتقاداتهم وأقوالهم وأفعالهم ومعاملاتهم وفي جميع شأنهم، إذا ارادوا السعادة الدنيوية والأخروية، فالنبي ﷺ كان في الحرب من أهلِ الشجاعة والصبر والمجالدة، وكان في العبادة أشد الناس إقبالًا علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، وكان في المعاملة أصدق وخير الناس وأحسنهم خلقًا، وهكذا من أراد السعادة في الدارين فليتأسَىٰ برسول الله ﷺ إن كان يرجو من الله أن يُكرمه وينعمه، ويرجو اليوم الآخر ويعمل له ويخشىٰ العقاب إذا بُعِثَ.

ونظائر هذه الآية كثيرة: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥]، ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:٣١]، ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور:٥٦]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال:٢٤].

﴿٢٢﴾ ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا﴾ قالوا تسليمًا لأمرِ الله وتصديقًا لوعده: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ أي: من النصر والتمكين، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ في سورة البقرة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ

أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة:٢١٤].

﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا﴾ بربهم، ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ لحكمه القدري والشرعي، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ، **«قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ** عَلَيْهِ السَّلَامُ **حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ** ﷺ» حِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

﴿٢٣﴾ ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِۖ﴾ من الثبات ونصرة الدين ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ وفَّىٰ بنذره في أحد ومات شهيدًا، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُۖ﴾ في هذه الغزوة وغيرها، ﴿وَمَا بَدَّلُواْ﴾ غيروا عهدهم ﴿تَبْدِيلًا﴾ كما فعل المنافقون.

وفي الصحيحين من حديث أنس بن مالك، قال: غَابَ عَمِّي أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ عَنْ قِتَالِ بَدْرٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ غِبْتُ عَنْ أَوَّلِ قِتَالٍ قَاتَلْتَ المُشْرِكِينَ، لَئِنِ اللهُ أَشْهَدَنِي قِتَالَ المُشْرِكِينَ لَيَرَيَنَّ اللهُ مَا أَصْنَعُ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ، وَانْكَشَفَ المُسْلِمُونَ، قَالَ: **«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلاَءِ - يَعْنِي أَصْحَابَهُ - وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلاَءِ، - يَعْنِي المُشْرِكِينَ - ثُمَّ تَقَدَّمَ»**، فَاسْتَقْبَلَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، فَقَالَ: يَا سَعْدُ بْنَ مُعَاذٍ، الجَنَّةَ وَرَبِّ النَّضْرِ إِنِّي أَجِدُ رِيحَهَا مِنْ دُونِ أُحُدٍ، قَالَ سَعْدٌ: فَمَا اسْتَطَعْتُ يَا رَسُولَ اللهِ مَا صَنَعَ، قَالَ أَنَسٌ: فَوَجَدْنَا بِهِ بِضْعًا وَثَمَانِينَ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ أَوْ طَعْنَةً بِرُمْحٍ، أَوْ رَمْيَةً بِسَهْمٍ وَوَجَدْنَاهُ قَدْ قُتِلَ وَقَدْ مَثَّلَ بِهِ المُشْرِكُونَ، فَمَا عَرَفَهُ أَحَدٌ إِلَّا أُخْتُهُ بِبَنَانِهِ قَالَ أَنَسٌ: كُنَّا نُرَىٰ أَوْ نَظُنُّ أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَشْبَاهِهِ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِۖ﴾».

﴿٢٤﴾ ﴿لِيَجْزِيَ﴾ يثيب ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ الذين وفوا بعهدهم، ﴿بِصِدْقِهِمْ﴾ جزاء صدقهم فكان هذا الابتلاء والاختبار ليثيب الله الصادقين -بسبب صدقهم- النصر والتمكين في الدنيا، والثواب في الآخرة، ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ الناقضين للعهد والميثاق، ﴿إِن شَآءَ﴾ لكن لم يقع هذا عليهم في الدنيا، إلا ما كان من ضيق الصدور، ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ يهدي من يشاء منهم إلىٰ الإيمان، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ متجاوزًا عن عباده المؤمنين.

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾.

﴿٢٥﴾ ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ﴾ أرجع الله ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من قريش وغطفان إلىٰ ديارهم، ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾ بحقدهم لم يشفِ صدورهم بنيل ما أرادوا، ﴿لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا﴾ ظفرًا ونصرًا، ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ بالريح والملائكة، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا﴾ في ملكه ﴿عَزِيزًا﴾ في انتقامه .

﴿٢٦﴾ ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم﴾ عاونوهم ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ قريظة، ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ من حصونهم ومعاقلهم؛ وذلك حين انصرف الأحزاب راجعين إلىٰ بلادهم، انصرف النبي ﷺ والمؤمنون عن الخندق إلىٰ المدينة ووضعوا السلاح.

فلما كان الظهر أتىٰ جبريل رسول الله ﷺ معتجرًا بعمامة من استبرق علىٰ بغلة عليها رحالة، وعليها قطيفة من ديباج، ورسول الله ﷺ عند زينب بنت جحش وهي تغسل رأسه وقد غسلت شقه، فقال: قد وضعت السلاح يا رسول الله؟ قال: **«نعم»** فقال جبريل: عفا الله عنك ما وضعت الملائكة السلاح منذ أربعين ليلة، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم، ثم قال النبي ﷺ: **«لاَ يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ العَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ»**، وذهب المسلمون إلىٰ قريظة، فمنهم من لم يصلِّ العصر إلا فيها، ومنهم من صلىٰ دونها وأخذ الأمر علىٰ أنه علىٰ الاستعجال إليها، وكلٌّ أصاب؟

﴿وَقَذَفَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ ﴿فِي قُلُوبِهِمُ﴾ قريظة ﴿الرُّعْبَ﴾ الخوف، ﴿فَرِيقًا﴾ منهم ﴿تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ﴾ تسترقون، ﴿فَرِيقًا﴾ طائفة أخرىٰ بحكم سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإنه كان قد قال: اللهم إن كنتَ قد أبقيت من حرب قريش شيء فأبقني له، وقال: اللهم لا تمتني حتىٰ تقر عيني في بني قريظة، فلما نزل النبي ﷺ في بني قريظة خيرهم أن ينزلوا علىٰ حكم من؟ فاختاروا النزول علىٰ حكم سعد بن معاذ، وكان حليفهم، فقضىٰ فيهم بحكم الملك؛ أن تُقتل مقاتلتهم وتُسبىٰ ذراريهم. **متفق عليه.**

﴿٢٧﴾ ﴿وَأَوْرَثَكُمْ﴾ ملككم، ﴿أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ﴾ مساكنهم، ﴿وَأَمْوَالَهُمْ﴾ جعلها لكم غنيمة، ﴿وَ﴾ وأورثكم وملككم، ﴿أَرْضًا لَّمْ تَطَؤُوهَا﴾ وهذا وعد بأرض خيبر، وأرض الروم، وبغيرها من البلدان، ﴿وَكَانَ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ لا يُعجزه شيء.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٢٩ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ٣٠ ❁ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ٣١﴾.

(٢٨) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾ وبهجتها ﴿فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ﴾ أعطيكن بعض العطية ﴿وَأُسَرِّحۡكُنَّ﴾ أطلقكن وأفارقكن ﴿سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

📖 وَفِي أَسْبَابِ النُّزُولِ:

أن نساء النبي ﷺ سألنه النفقة وشددن عليه في ذلك، وآذينه بغيرة بعضهن، فهجرهن النبي ﷺ تسعة وعشرين ليلة، ثم خيرهن، فعن جابر بن عبد الله قال: دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ يَسْتَأْذِنُ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَوَجَدَ النَّاسَ جُلُوسًا بِبَابِهِ، لَمْ يُؤْذَنْ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ، قَالَ: فَأُذِنَ لِأَبِي بَكْرٍ، فَدَخَلَ، ثُمَّ أَقْبَلَ عُمَرُ، فَاسْتَأْذَنَ فَأُذِنَ لَهُ، فَوَجَدَ النَّبِيَّ ﷺ جَالِسًا حَوْلَهُ نِسَاؤُهُ، وَاجِمًا سَاكِتًا، قَالَ: فَقَالَ: لَأَقُولَنَّ شَيْئًا أُضْحِكُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَوْ رَأَيْتَ بِنْتَ خَارِجَةَ، سَأَلَتْنِي النَّفَقَةَ، فَقُمْتُ إِلَيْهَا، فَوَجَأْتُ عُنُقَهَا، فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَقَالَ: **«هُنَّ حَوْلِي كَمَا تَرَىٰ، يَسْأَلْنَنِي النَّفَقَةَ»**، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ إِلَىٰ عَائِشَةَ يَجَأُ عُنُقَهَا، فَقَامَ عُمَرُ إِلَىٰ حَفْصَةَ يَجَأُ عُنُقَهَا، كِلَاهُمَا يَقُولُ: تَسْأَلْنَ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ، فَقُلْنَ: وَاللهِ لَا نَسْأَلُ رَسُولَ اللهِ ﷺ شَيْئًا أَبَدًا لَيْسَ عِنْدَهُ، ثُمَّ اعْتَزَلَهُنَّ شَهْرًا - أَوْ تِسْعًا وَعِشْرِينَ - ثُمَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾ [الأحزاب:٢٨]، حَتَّىٰ بَلَغَ: ﴿لِّلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [الأحزاب:٢٩].

قَالَ: فَبَدَأَ بِعَائِشَةَ، فَقَالَ: **«يَا عَائِشَةُ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَعْرِضَ عَلَيْكِ أَمْرًا أُحِبُّ أَنْ لَا تَعْجَلِي فِيهِ حَتَّىٰ تَسْتَشِيرِي أَبَوَيْكِ»**، قَالَتْ: وَمَا هُوَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَتَلَا عَلَيْهَا الْآيَةَ، قَالَتْ: أَفِيكَ يَا رَسُولَ اللهِ، أَسْتَشِيرُ أَبَوَيَّ؟ بَلْ أَخْتَارُ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَالدَّارَ الْآخِرَةَ، وَأَسْأَلُكَ أَنْ لَا تُخْبِرَ امْرَأَةً مِنْ نِسَائِكَ بِالَّذِي قُلْتُ، قَالَ: **«لَا تَسْأَلُنِي امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ إِلَّا أَخْبَرْتُهَا، إِنَّ اللهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّتًا، وَلَا مُتَعَنِّتًا، وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا»**.

□ وَقَدِ اخْتَلَفَ أَهْلُ العِلْمِ هَلِ التَّخْيِيرُ يُعْتَبَرُ طَلَاقًا أَمْ لَا؟

والصحيح أنه ليس بطلاق، فإن النبي ﷺ قد خَيَّر نساءه، ولم يكن طلاق.

(٢٩) ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا﴾ ثوابًا ﴿عَظِيمًا﴾ مضاعفًا كما سيأتي.

(٣٠) ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ معصية ظاهرة، وهي النشوز وسوء الخُلُق في تفسير ابن عباس وهو الظاهر هنا؛ لأن نساء الأنبياء مصانات عن الزنا، ﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ بسبب أنها كفرت النعمة، وعصت رسول الله ﷺ، وقد أكرمها الله به، ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ هينًا لا يُعجزه شيء.

(٣١) ﴿وَمَن يَقْنُتْ﴾ يُطع ﴿مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ تُلازم الأعمال الصالحة، ﴿نُّؤْتِهَآ﴾ نعطها، ﴿أَجْرَهَا﴾ ثوابها، ﴿مَّرَّتَيْنِ﴾ خلاف غيرها من النساء، وهذا فضلُ الله يؤتيه من يشاء، ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ أعددنا، ﴿لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ في الجنة.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.

(٣٢) ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ يعني: قدركُنَّ عالي ومنزِلَتُكُن رفيعة، كما يُقال: ينبغي أن تتحمل المسؤولية فأنت غير الناس، ﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾ أطعتن الله عَزَّوَجَلَّ بفعل المأمور وترك المحظور، ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ﴾ تلن، ﴿بِٱلْقَوْلِ﴾ وترققنه لغير محرم، ﴿فَيَطْمَعَ﴾ فيكن بسبب ذلك، ﴿ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ مرض شهوة وفجور، ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ يعني: لا خضوع فيه.

❁ فصوت المرأة ليس بعورةٍ علىٰ إطلاقه، وإنما العورة في صوت المرأة إذا خرج إلىٰ الخضوع، ورققته وجمَّلَتْهُ.

❁ وإذا كان هذا الأمر لنساء النبي ﷺ في أُناسٍ صبحوا النبي ﷺ، فكيف بزمننا! الذي فشا شره وقلَّ خيره، وتجد من يدعو إلىٰ اختلاط النساء بالرجال، ويُرغب في ذلك، وربما قال: قلبي نظيف، ولو كان قلبه نظيفًا لكان قلبه متقيًا لله عَزَّوَجَلَّ متابعًا لرسول الله ﷺ.

﴿٣٣﴾ ﴿وَقَرْنَ﴾ التزمن القرار، ﴿فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ أي: لا تخرجن إلا لحاجة، ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾ عند خروجكن لحاجة، فتظهرن محاسنكن، فهو ﴿تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ فتخرج إحداهن متطيبة متزينة، فعن أبي موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: **«الْمَرْأَةُ عَوْرَةٌ ، فَإِذَا خَرَجَتْ اسْتَشْرَفَهَا الشَّيْطَانُ»** أخرجه أحمد

وعن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: **«كَانَتِ امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، قَصِيرَةٌ تَمْشِي مَعَ امْرَأَتَيْنِ طَوِيلَتَيْنِ، فَاتَّخَذَتْ رِجْلَيْنِ مِنْ خَشَبٍ، وَخَاتَمًا مِنْ ذَهَبٍ مُغْلَقٌ مُطْبَقٌ، ثُمَّ حَشَتْهُ مِسْكًا، وَهُوَ أَطْيَبُ الطِّيبِ، فَمَرَّتْ بَيْنَ الْمَرْأَتَيْنِ، فَلَمْ يَعْرِفُوهَا، فَقَالَتْ بِيَدِهَا هَكَذَا»** متفق عليه.

فينبغي للمرأة أن تكون في قرار بيتها ولا تخرج إلا لحاجةٍ شرعية مع لزوم الحجاب والعفة، ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة، ﴿وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المكتوبة، ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ بفعل المأمور وترك المحظور، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالىٰ بهذه الأوامر والنواهي، ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ الإثم ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ بيت النبي ﷺ، ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ يُنقيكم ويُطهر أعمالكم.

وفي حديث أمِّ سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: في بيتي أُنزلت: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ قَالَتْ: فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَىٰ فَاطِمَةَ، وَعَلِيٍّ، وَالْحَسَنِ، وَالْحُسَيْنِ، فَقَالَ: **«هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي»**، قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَمَا أَنَا مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ؟ قَالَ: **«بَلَىٰ إِنْ شَاءَ اللهُ»** أخرجه الترمذي.

وعن زيد بن أرقم: **«قَالَ لَهُ حُصَيْنٌ: وَمَنْ أَهْلُ بَيْتِهِ؟ يَا زَيْدُ أَلَيْسَ نِسَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ؟ قَالَ: نِسَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَلَكِنْ أَهْلُ بَيْتِهِ مَنْ حُرِمَ الصَّدَقَةَ بَعْدَهُ، قَالَ: وَمَنْ هُمْ؟ قَالَ: هُمْ آلُ عَلِيٍّ وَآلُ عَقِيلٍ، وَآلُ جَعْفَرٍ، وَآلُ عَبَّاسٍ قَالَ: كُلُّ هَؤُلَاءِ حُرِمَ الصَّدَقَةَ؟ قَالَ: نَعَمْ»** أخرجه مسلم.

❁ والذين ينتسبون إلىٰ رسول الله ﷺ لهم مزيد فضل لا يُنكره أهل السنة.

لكن هذا الفضل لصالحيهم، وليس لمجرد النسبة، فقد انتسب إلىٰ آل البيت قومٌ أكبهم الله علىٰ وجوههم في نار جهنم، بل إن أصل بيت النبي ﷺ أبوه عبد الله بن عبد المطلب،

وأمُّه آمنة بنت وهب، وعمه أبو طالب، وعمه أبو لهب في النار بنصوص الوحيين، وفي حديث

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ لَمَّا بَعَثَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَىٰ الْيَمَنِ خَرَجَ مَعَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُوصِيهِ مُعَاذٌ رَاكِبٌ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ تَحْتَ رَاحِلَتِهِ فَلَمَّا فَرَغَ قَالَ: **«يَا مُعَاذُ إِنَّكَ عَسَىٰ أَنْ لَا تَلْقَانِي بَعْدَ عَامِي هَذَا لَعَلَّكَ أَنْ تَمُرَّ بِمَسْجِدِي وَقَبْرِي»**.

فَبَكَىٰ مُعَاذٌ خَشَعًا لِفِرَاقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ثُمَّ الْتَفَتَ رَسُولُ ﷺ نَحْوَ الْمَدِينَةِ فَقَالَ: **«إِنَّ أَهْلَ بَيْتِي هَؤُلَاءِ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ أَوْلَىٰ النَّاسِ بِي وَإِنَّ أَوْلَىٰ النَّاسِ بِي الْمُتَّقُونَ مَنْ كَانُوا حَيْثُ كَانُوا اللَّهُمَّ إِنِّي لَا أُحِلُّ لَهُمْ فَسَادَ مَا أَصْلَحْتَ وَايْمُ اللهِ لَيَكْفُوُنَ أُمَّتِي عَنْ دِينِهَا كَمَا يُكْفَأُ الإناء في البطحاء»**. أخرجه ابن حبان (٦٤٧).

﴿٣٤﴾ ﴿وَٱذْكُرْنَ﴾ اعملن بـ ﴿مَا يُتْلَىٰ﴾ يقرأ، ﴿فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ القرآن ﴿وَٱلْحِكْمَةِ﴾ السنة، في قول جميع المفسرين كما نقله الشافعي في الرسالة، ففي الآية الرد علىٰ الفرقة القرآنيةالضالة المضلة، بل إن من أنكر حجية السنة كفر، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ أي: مطلعًا علىٰ أعمالِ أوليائه وأصفيائه، وإن دقت حافظًا لهم.

❁ و(**اللَّطِيْفُ**): العليم ببواطن الأمور، وظواهرها، وبصغائر الأمور، وكبارها.

وقيل: هو الذي يلطف بعباده، وكلا المعنيين ثابت لله عَزَّوَجَلَّ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص: ٢٠٧):

وَهُـــوَ اللَّطِيـــفُ بِعَبْـــدِهِ وَلِعَبْـــدِهِ	واللَّطـــفُ فِـــي أوصَـــافِهِ نَوعَـــان
إدرَاكُ أســـرارِ الأمُـــورِ بِخِـــبرَةٍ	واللَّطـــفُ عِنـــدَ مَوَاقِـــعِ الإحسِـــان
فيُرِيـــكَ عِزَّتَـــهُ ويُبـــدِي لُطفَـــهُ	وَالعَبـدُ فِـي الغَفَـلَاتِ عَـن ذَا الشَّـان

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْقَـٰنِتَـٰتِ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلصَّـٰدِقَـٰتِ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰبِرَٰتِ وَٱلْخَـٰشِعِينَ وَٱلْخَـٰشِعَـٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَـٰتِ وَٱلصَّـٰٓئِمِينَ وَٱلصَّـٰٓئِمَـٰتِ وَٱلْحَـٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَـٰفِظَـٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾.

﴿٣٥﴾ ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ﴾ وذلك في أزواج النبي ﷺ ومن سار علىٰ سيرهن، ﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ المطيعين ﴿وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْقَـٰنِتَـٰتِ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلصَّـٰدِقَـٰتِ وَٱلصَّـٰبِرِينَ

﴿وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ علىٰ ما أمر الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾ المتواضعين، وقيل أراد به خشوع الصلاة، ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾ سواءً الزكاة المفروضة أو الصدقات المندوبة، ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ شهر رمضان، وإن تطوع فحسن، ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ الحافظ لفرجه علىٰ غير زوجٍ وما ملكت يمين، هذا في حق الرجال، وأما الزوجة فلا يجوز لها إلا الزوج فقط، ويحرم عليها غيره.

❁ **وبهذه الآية يستدل** العلماء علىٰ تحريم العادة السرية، فمن واقعها فليس بحافظٍ لفرجه، **ويُستدل بها** علىٰ تحريم السحاق بين النساء، فالمتعاطية لذلك ليست بحافظة لفرجها.

﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ سواءً ذِكْر اللسان أو ذكر الطاعة، ﴿أَعَدَّ﴾ هيَّأ ﴿ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً﴾ لذنوبهم، ﴿وَأَجْرًا﴾ ثوابًا ﴿عَظِيمًا﴾ مضاعفًا، وهذه آية جامعة لأفعال الخير والبر.

❁ **وفيها أن الرجال والنساء يتساوون من حيث الأوامر والنواهي**، إلا ما جاء بخصوصه فقد بينه الله وبينه رسول الله ﷺ، وهذه الآية يدخل فيها المتقدمون من المسلمين والمتأخرون، فكل من سلك هذا المسلك فهو موعودٌ بالمغفرة والأجر العظيم.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾.

﴿٣٦﴾ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى﴾ أَمَرَ، ﴿ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾ بأمرٍ من الأمور، ﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ الاختيار ﴿مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ بحيث يختارون ما شاءوا، ويتركون ما شاءوا، بل يجب عليهم الانقياد والالتزام، ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ﴾ هلك، ﴿ضَلَٰلًا﴾ هلاكًا، ﴿مُّبِينًا﴾ واضحًا بيِّنًا.

۞ ولو أخذ الناس بهذه الآية لصلح حالهم، فإن كثيرًا من الناس يُعارضون الوحي بآرائهم وأقيستهم وأهوائهم وعقولهم، بينما المؤمن لا خيرة له أمام حكم الله وأمر رسوله ﷺ.

﴿٣٧﴾ ﴿وَإِذْ تَقُولُ﴾ يا محمد، ﴿لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ﴾ بالهداية والنعم الكثيرة، ﴿عَلَيۡهِ﴾ وهو زيد بن حارثة، ﴿وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ﴾ أنت، بحيث أعتقته وتبنيته قبل أن تُنهَىٰ عن ذلك وأحسنت إليه، وزوجته بزينب بنت جحش، وهي من سادات قُريش، وكان زيد مولىٰ من الموالي، ﴿أَمۡسِكۡ﴾ ابقِ ﴿عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ﴾ لا تُطلقها، ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ فيها، ﴿وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ﴾ أنه لو طلقها لتزوجتها، ﴿مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ﴾ مظهره ومجليه، ﴿وَتَخۡشَى﴾ تستحي ﴿ٱلنَّاسَ﴾ في هذا الأمر بعينه ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ﴾ فلو كان النبي ﷺ سيكتم شيئًا من القرآن لكتم هذه الآية، ولكنه كان مُبلغًا لما أوحاه الله إليه، وما زالت آية تُتْلىٰ إلىٰ يوم القيامة.

وعَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: كُنْتُ مُتَّكِئًا عِنْدَ عَائِشَةَ، فَقَالَتْ: ... لَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ كَاتِمًا شَيْئًا مِمَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ لَكَتَمَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ فَلَمَّا﴾ **[الأحزاب:٣٧]. أخرجه مسلم.**

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ﴾ زيد بن حارثة مولىٰ رسول الله ﷺ قتل في مؤتة ﴿مِّنۡهَا﴾ زينب بنت جحش ﴿وَطَرٗا﴾ حاجة وطلقها خطبها رسول الله ﷺ، فهبت لتستخير ربها فأكرمها سبحانه وتعالىٰ بقوله: ﴿زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾ فزوجها الله من فوق سبع سموات، واكنت تفتخر علىٰ زوجات رسول الله ﷺ بذلك تقول زوجكن أهاليكن، وزوجني لله من فوق سبع سموات، وفعلا أنها نعم الكرامة، ومن هذه القصة تعرف عظيم شأن الاستخارة.

وفي صحيح مسلم عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: لَمَّا انْقَضَتْ عِدَّةُ زَيْنَبَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِزَيْدٍ: **«فَاذْكُرْهَا عَلَيَّ»**، قَالَ: فَانْطَلَقَ زَيْدٌ حَتَّىٰ أَتَاهَا وَهِيَ تُخَمِّرُ عَجِينَهَا، قَالَ: فَلَمَّا رَأَيْتُهَا عَظُمَتْ فِي صَدْرِي، حَتَّىٰ مَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَنْظُرَ إِلَيْهَا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ ذَكَرَهَا، فَوَلَّيْتُهَا ظَهْرِي، وَنَكَصْتُ عَلَىٰ عَقِبِي، فَقُلْتُ: يَا زَيْنَبُ: أَرْسَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَذْكُرُكِ، قَالَتْ: مَا أَنَا بِصَانِعَةٍ شَيْئًا حَتَّىٰ أُوَامِرَ رَبِّي، فَقَامَتْ إِلَىٰ مَسْجِدِهَا، وَنَزَلَ الْقُرْآنُ، وَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَدَخَلَ عَلَيْهَا بِغَيْرِ إِذْنٍ، قَالَ، فَقَالَ: وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَطْعَمَنَا الْخُبْزَ وَاللَّحْمَ حِينَ امْتَدَّ

النَّهَارُ، فَخَرَجَ النَّاسُ وَبَقِيَ رِجَالٌ يَتَحَدَّثُونَ فِي الْبَيْتِ بَعْدَ الطَّعَامِ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَاتَّبَعْتُهُ، فَجَعَلَ يَتَتَبَّعُ حُجَرَ نِسَائِهِ يُسَلِّمُ عَلَيْهِنَّ، وَيَقُلْنَ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ وَجَدْتَ أَهْلَكَ؟ قَالَ: فَمَا أَدْرِي أَنَا أَخْبَرْتُهُ أَنَّ الْقَوْمَ قَدْ خَرَجُوا أَوْ أَخْبَرَنِي، قَالَ: فَانْطَلَقَ حَتَّىٰ دَخَلَ الْبَيْتَ، فَذَهَبْتُ أَدْخُلُ مَعَهُ، فَأَلْقَىٰ السِّتْرَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَنَزَلَ الْحِجَابُ، قَالَ: وَوُعِظَ الْقَوْمُ بِمَا وُعِظُوا بِهِ: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]».

﴿لِكَيْ لَا﴾ لئلا ﴿يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾ ضيقًا وإثمًا ﴿فِىٓ أَزْوَٰجِ﴾ زوجات ﴿أَدْعِيَآئِهِمْ﴾ الذين تبنوهم في الجاهلية، ﴿إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ حاجة وطلقوهن، ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولًا﴾ قضاءً مقضيًا كائنًا ماضيًا لا مانع منه ولا حائل دونه.

٣٨ ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي: من عَتَبٍ أو إثم، ﴿فِيمَا فَرَضَ﴾ أباح ﴿ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ طريقةُ الله، ﴿فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾ من الأنبياء والمرسلين، ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا﴾ قضاءً، ﴿مَّقْدُورًا﴾ مقضيًا.

❁ **ويستدل بهذه الآية على إثبات القدر**، وأن ما قضاه الله وقدره لا يمكن أن يتخلف بحال، وأنه لا يكون في ملك الله عَزَّوَجَلَّ إلا ما شاء فقضاه وقدره.

٣٩ ثم مدح الله الأنبياء بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾ إلىٰ خلقه، فيبلغونها علىٰ أمانتها، ﴿وَيَخْشَوْنَهُۥ﴾ في سرهم وجهرهم، ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ﴾ لا يخشون مقالة الناس ولا فعل الناس، ﴿وَكَفَىٰ بِاللهِ حَسِيبًا﴾ حافظًا لهم، ولأعمالهم ناصرًا ومعينًا.

قال ابن كثير رحمه الله (٦/ ٤٢٧): "وسيد الناس في هذا المقام؛ بل وفي كل مقام محمد رسول الله ﷺ، فإنه قام بأداء الرسالة وإبلاغها إلىٰ أهل المشارق والمغارب إلىٰ جميع أنواع بني آدم، وأظهر الله تعالىٰ كلمته ودينه وشرعه علىٰ جميع الأديان والشرائع، فإنه قد كان النبي قبله إنما يبعث إلىٰ قومه خاصة، وأما هو ﷺ فإنه بعث إلىٰ جميع الخلق عربهم وعجمهم ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى﴾ [الأعراف:١٥٨]، ثم ورث مقام البلاغ عنه أمته من بعده، فكان أعلىٰ من قام بها بعده أصحابه رضي الله عنهم، بلغوا عنه كما أمرهم به في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، في ليله ونهاره، وحضره وسفره، وسره وعلانيته،

فرضي الله عهنم وأرضاهم ثم ورثه كل خلف عن سلفهم إلىٰ زماننا هذا، فبنورهم يقتدي المهتدون، وعلىٰ منهجهم يسلك الموفقون، فنسأل الله الكريم المنان أن يجعلنا من خلفهم".اهـ.

﴿٤٠﴾ ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ﴾ ﷺ، ﴿أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ فليس هو ولد زيد بن حارثة، وكان قد تبناه في الجاهلية، لكن الإسلام جاء بنسخ هذا الحكم، فنهاهم الله أن يُسموه بزيد بن محمد؛ ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ أرسله الله بالهدىٰ ودين الحق، ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أي: آخرهم، كما قال ﷺ: **«وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لَا نَبِيَّ بَعْدِي»**.

وقد ذهب القاديانية اتباع الميراز غلام أحمد، ومن لا يُحسن إلىٰ أن معنىٰ: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ (زينة النبيين)، وهذا تفسيرٌ باطل يُريدون به تجويز النبوة بعد محمدٍ ﷺ، والواقع أن من ادعىٰ النبوةَ بعد محمدٍ ﷺ أو آمن بها في غير محمدٍ ﷺ فهو كافر كفر أكبر مُخرج من الملة.

وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: **«مَثَلِي وَمَثَلُ الأَنْبِيَاءِ كَمَثَلِ قَصْرٍ أُحْسِنَ بُنْيَانُهُ، تُرِكَ مِنْهُ مَوْضِعُ لَبِنَةٍ، فَطَافَ بِهَا النُّظَّارُ يَتَعَجَّبُونَ مِنْ حُسْنِ بِنَائِهِ إِلا مَوْضِعَ تِلْكَ اللَّبِنَةِ، لَا يَعِيبُونَ سِوَاهَا، فَكُنْتُ أَنَا سَدَدْتُ مَوْضِعَ تِلْكَ اللَّبِنَةِ، خُتِمَ بِيَ الْبُنْيَانُ، وَخُتِمَ بِيَ الرُّسُلُ»** متفق عليه، هذا لفظ البغوي في شرح السنة، وجاء في الصحيحين عن أبي موسىٰ وغيره بنحو هذا اللفظ، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ مطلعًا لا تخفىٰ عليه خافية.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾.

﴿٤١﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ بطاعته ولزوم مرضاته، ويدخل في ذلك ذكر اللسان، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران:١٩١]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء:١٠٣].

﴿٤٢﴾ ﴿وَسَبِّحُوهُ﴾ نزهوه، وقيل: صلوا له، ﴿بُكْرَةً﴾ صلاة الصبح، ﴿وَأَصِيلاً﴾ صلاة العصر، وقد يدخل فيها صلاة الظهر، وقيل: صلاة الظهر والعشاءين.

❁ فهذه الآية استُدلَّ بها علىٰ الأوقات الخمسة؛ فما بعد الظهر إلىٰ الليل يُسمىٰ أصيلًا.

﴿٤٣﴾ ﴿هُوَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾ يذكركم، ﴿وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ يدعون لكم فالصلاة من الله الذكر في الملأ الأعلىٰ، والصلاة ومن الملائكة الدعاء كما قال أبو العالية، فعليكم أن تذكروا الله كثيرًا ليذكركم، وتلازموا طاعته لتستغفر لكم الملائكة وتدعوا لكم، ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ الكفر ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ التوحيد والإسلام، ﴿وَكَانَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ في دنياهم وأخراهم، وهي رحمة واصلة خاصة بالمؤمنين، بينما الرحمة العامة قد يرحم الكافر في الدنيا بإطعامه ورزقه؛ ولكنه لا تناله رحمة في الآخرة.

﴿٤٤﴾ ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ تحية المؤمنين ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ ويدخلون الجنة، ﴿سَلَٰمٌ﴾ أي: يُسلم الله عليهم ويُسلم عليهم ملائكته، ويُسلمون علىٰ بعضهم؛ وهم في سلام من الآفات، ومما يلحقهم من الحوادث، ﴿وَأَعَدَّ﴾ هيَّأ، ﴿لَهُمْ أَجْرًا﴾ ثوابًا ﴿كَرِيمًا﴾ واسعًا حسنًا عظيمًا في الجنة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾.

﴿٤٥﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ شاهدًا للرسل بالتبليغ، ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ لمن آمن بالجنة، ﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن كذب بالنار.

﴿٤٦﴾ ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ﴾ الكوني الشرعي، ﴿وَسِرَاجًا﴾ مصباحًا، ﴿مُّنِيرًا﴾ سماه سراجًا؛ لأنه يُهتدىٰ به كالسراج يُستضاءُ به في الظلمة،

وفي قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾.

❁ دليلٌ علىٰ وجوبِ الإخلاص والمتابعة، فقوله: ﴿إِلَى اللهِ﴾ إخلاص، وقوله: ﴿بِإِذْنِهِ﴾ متابعة، فمن دعاء إلىٰ غير الله عَزَّوَجَلَّ فقد أشرك، ومن دعا إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بغير إذنه فقد ابتدع.

﴿٤٧﴾ ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ وهو الجنة والدرجات العلىٰ، والنعيم المقيم.

﴿٤٨﴾ ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ فيما يأمرون به، ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ أي: اصبر علىٰ أذاهم، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ اعتمد عليه في جلب المنافع ودفع المضار، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ حافظًا ونصيرًا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾﴾.

﴿٤٩﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ﴾ تزوجتم، ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ بعقد نكاح، ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ بالجماع، ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ﴾ لا بالشهور ولا بالأقراء، ﴿تَعْتَدُّونَهَا﴾ وهذا إذا لم يختلِ بها، أما إذا اختلىٰ بها فقد مسَّها، ويلزمها العدة ويلزمه المهر إن فارقها في هذا الحال علىٰ قول جماهير العلماء، ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ اعطوهن شيئًا من المال في حال الطلاق خلاف المهر، ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ أي: خلوا سبيلهن بالمعروف بغير ضررٍ أو مضارة.

﴿٥٠﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: مهورهن، ﴿وَ﴾ أحللنا لك، ﴿مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ من سبي الكفار كصفية وجويرية ومارية وقد أعتقهن رسول الله ﷺ وتزوجهن، وأما مارية فصارت أم ولد، ﴿وَ﴾ أحللنا لك نكاح، ﴿بَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ﴾ أي: ما كان من زوجاته من نساء قريش، ﴿وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ﴾ يعني: ما كان من نساء بني زهرة، ﴿ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ إلىٰ المدينة.

قال ابن كثير رحمه الله: "هذا عدل وسط بين الإفراط والتفريط؛ فإن النصارىٰ لا يتزوجون المرأة إلا إذا كان الرجل بينه وبينها سبعة أجداد فصاعدا، واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت أخته، فجاءت هذه الشريعة الكاملة الطاهرة بهدم إفراط النصارىٰ، فأباح بنت العم والعمة، وبنت الخال والخالة، وتحريم ما فرطت فيه اليهود من إباحة بنت الأخ والأخت، وهذا بشع فظيع".اهـ.

﴿وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ قيل: هي خولة بنت حكيم، وقيل: أم سليم ﴿إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا﴾ يتزوجها ﴿خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ يعني: أن الهبة خاصة بالنبي ﷺ، فلا يجوز لامرأةٍ أن تهب نفسها لأحدٍ، وزواج المرأة بنفسها يعتبر سفاحًا لا نكاحًا، ففي حديث أبي موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: **«لَا نِكَاحَ إِلَّا بِوَلِيٍّ»** أخرجه أبو داود.

وفي حديث سهل بن سعد: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ جَاءتْهُ امْرَأَةٌ، فَقالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي قَدْ وَهَبْتُ نَفْسِي لَكَ، فَقَامَتْ قِيَامًا طَوِيلا، فَقَامَ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، زَوِّجْنِيهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ بِهَا حَاجَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«هَلْ عِنْدَكَ مِنْ شَيءٍ تُصْدِقُهَا إِيَّاهُ؟»**، فَقَالَ: مَا عِنْدِي إِلا إِزَارِي هَذَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«إِنْ أَعْطَيْتَهَا إِيَّاهُ جَلَسْتَ لَا إِزَارَ لَكَ، فَالْتَمِسْ شَيْئًا»**، فَقَالَ: مَا أَجِدُ، فَقَالَ: **«فَالْتَمِسْ وَلَوْ خَاتَمًا مِنْ حَدِيدٍ فَذَهَبَ ثُمَّ رَجَعَ، فَقَالَ: لَا، وَاللهِ، يَا رَسُولَ اللهِ، وَلَا خَاتِمًا مِنْ حَدِيدٍ، وَلَكِنْ هَذَا إِزَارِي - قَالَ سَهْلٌ: مَا لَهُ رِدَاءٌ - فَلَهَا نِصْفُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا تَصْنَعُ بِإِزَارِكَ؟ إِنْ لَبِسْتَهُ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهَا مِنْهُ شَيْءٌ، وَإِنْ لَبِسَتْهُ لَمْ يَكُنْ عَلَيْكَ مِنْهُ شَيْءٌ»**، فَجَلَسَ الرَّجُلُ، حَتَّىٰ إِذَا طَالَ مَجْلِسُهُ قَامَ، فَرَآهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُوَلِّيًا، فَأَمَرَ بِهِ فَدُعِيَ، فَلَمَّا جَاءَ قَالَ: **«مَاذَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ؟»** قَالَ: مَعِي سُورَةُ كَذَا وَسُورَةُ كَذَا - عَدَّدَهَا - فَقَالَ: **«تَقْرَؤُهُنَّ عَنْ ظَهْرِ قَلْبِكَ؟»** قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: **«اذْهَبْ فَقَدْ مُلَّكْتُهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ»** متفق عليه.

﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا﴾ أوجبنا وشرعنا ﴿عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ﴾ أي: في شأن النكاح والعدد، ﴿وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ من حيث الاستبراء، وجواز التمتع بها، ﴿لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ﴾ تأثم يا محمد، ذلك حتىٰ لا يقولوا: كيف تزوج محمدٌ ﷺ بأرملةِ ابنه؟ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا﴾ متجاوزًا، ﴿رَّحِيمٗا﴾ موفقًا.

۞ تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ عَزَلۡتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ وَلَا يَحۡزَنَّ وَيَرۡضَيۡنَ بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمٗا ٥١ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبًا ٥٢

٥١ ﴿تُرۡجِي﴾ تؤخر جماع، ﴿مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ﴾ من زوجاتك، ﴿وَتُـٔۡوِيٓ﴾ تضم، ﴿إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ﴾ وهذا حين نزلت آية التخيير، وقد ضمَّهُنَّ ﷺ جميعًا، ﴿وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ﴾ طلبت، ﴿مِمَّنۡ

﴿عَزَلْتَ﴾ اجتنبت، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ يعني: لو عزل إحداهن، ثم طلبها لا حرج عليه ولا إثم في ذلك، ﴿ذَلِكَ﴾ الحكم ﴿أَدْنَى﴾ أقرب، ﴿أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ يرضين، ﴿وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾؛ لأن المرأة تحتاج إلىٰ صبرٍ ورفقٍ لاسيما المُعدد لما يقع في نفسها من شدة الغيرة والوجد، فإذا كان الله عَزَّوَجَلَّ قد أمر نبيه بالإحسان إلىٰ النساء من باب أن تقرَّ أعينهن ولا يلحقهن الحزن والضيم، وهكذا يُراعي قلوبهن، فلابد من المداراة، ومن دارىٰ سلمت له دنياه وأخراه، ومن لم يُدارِ سيعلم أنه كان مخالفًا لأسباب السعادة، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ من أمرِ النساء، والميل إلىٰ بعضهن ﴿وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا﴾ بأحوالكم، ﴿حَلِيمًا﴾ متجاوزًا، فمع علمه يحلم علىٰ عباده ويتجاوز عنهم، عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْسِمُ بَيْنَ نِسَائِهِ، فَيَعْدِلُ. قَالَ عَفَّانُ: وَيَقُولُ: **«هَذِهِ قِسْمَتِي»** ثُمَّ يَقُولُ: **«اللهُمَّ هَذَا فِعْلِي فِيمَا أَمْلِكُ، فَلَا تَلُمْنِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلَا أَمْلِكُ»** اخرجه احمد.

﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ حرَّمَ عليه سبحانه وتعالىٰ الزواج بعد هذه التسع النسوة، إكرامًا لهن حين خيَّرهنَّ النبي ﷺ فاخترنه وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: **«من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه»** اخرجه احمد، انظر هجرهن شهرًا؛ لما كُنَّ يطلبنه من زيادة النفقة، ولِما وقع منهن من شدة الغيرة، فأنزل الله آية التخيير، فلما خيرهن اخترن رسول الله ﷺ، فعاجلهن الله عَزَّوَجَلَّ بالإثابة في الدنيا قبل الآخرة، ﴿وَلَآ﴾ يحل لك، ﴿أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ حتىٰ ولو أعجبتك، ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ من السبايا، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ مطلعًا لا تخفىٰ عليه خافية، وحافظًا لأعمال العباد.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾.

٥٣ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ وهذا أمرٌ بالحجاب، وعدم الدخول إلا بعد الاستئذان، ﴿إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ﴾ يرخص، ﴿لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ﴾ منتظرين ﴿إِنَىٰهُ﴾ نضوجه، ﴿وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ﴾ إلىٰ بيت النبي ﷺ، ﴿فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ﴾ من طعامهم وشربتم من شرابهم، ﴿فَٱنتَشِرُواْ﴾ لا يبقىٰ الإنسان إلا إذا آنس الإذن بالبقاء، ﴿وَلَا﴾ تجلسوا بعد ذلك، ﴿مُسۡتَـٔۡنِسِينَ﴾ يستأذن بعضكم، ﴿لِحَدِيثٍۚ﴾ بعض وهذا قبل الحجاب، وإلا ما كان لهم أن يُخالفوا شرع الله، ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ﴾ الجلوس، ﴿كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ﴾ أن يطلب، ﴿مِنكُمۡۖ﴾ الانصراف، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾ أن يأمر بالحق.

❁ وفيه إثبات صفة الحياء لله علىٰ ما يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه.

﴿وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ﴾ طلبتموهن ﴿مَتَٰعٗا﴾ حاجة ﴿فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ﴾ من خلف حجاب لا تنظروا إليهن ولا ينظرن إليكم، ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ الفعل ﴿أَطۡهَرُ﴾ أزكىٰ وأسلم، ﴿لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ﴾.

❁ وإذا كان هذا في شأن الصحابة مع زوجات النبي ﷺ، فكيف بحال الناس في هذا الزمن المتأخر؟ فبعدهم عن النساء وفتنتهن أولىٰ وأولىٰ وأولىٰ، وفي هذا رد علىٰ دعاةِ ما يُسمون بالتحرر ونزع الحجاب، فإن طهارة القلوب وسلامتها مع العفة، والبعد عن الخلطة بالنساء الأجنبيات.

﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ بالمكث للحديث، ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ﴾ تتزوجوا، ﴿أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ﴾ فإنهن أمهات المؤمنين، ولا يجوز لأحد أن يتزوج أمه، قيل بأن بعضهم، قال: لئن مات محمد ﷺ لأتزوجن فلانة، فنهىٰ الله عَزَّوَجَلَّ عن ذلك، فهن محرماتٌ من حيث الزواج، ولا يجوز أن يُختلىٰ بهن، أو يُدخل عليهن، ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ﴾ الفعل والقول، ﴿كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ أي: الزواج بهن.

وفي عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا تَزَوَّجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ، دَعَا القَوْمَ فَطَعِمُوا ثُمَّ جَلَسُوا يَتَحَدَّثُونَ، وَإِذَا هُوَ كَأَنَّهُ يَتَهَيَّأُ لِلْقِيَامِ، فَلَمْ يَقُومُوا فَلَمَّا رَأَىٰ ذَلِكَ قَامَ، فَلَمَّا قَامَ قَامَ مَنْ قَامَ، وَقَعَدَ ثَلاَثَةُ نَفَرٍ، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ لِيَدْخُلَ فَإِذَا القَوْمُ جُلُوسٌ، ثُمَّ إِنَّهُمْ قَامُوا، فَانْطَلَقْتُ فَجِئْتُ فَأَخْبَرْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَنَّهُمْ قَدِ انْطَلَقُوا، فَجَاءَ حَتَّىٰ دَخَلَ فَذَهَبْتُ أَدْخُلُ،

فَأَلْقَى الحِجَابَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣] الآيَةَ متفق عليه.

وهذه أيضًا من موافقات عمر للقرآن، فإن الله عَزَّوَجَلَّ أنزل في شأنه: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ حين تأخروا عن الخروج.

٥٤ ﴿إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا﴾ تُظهروه، ﴿أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾ في نفوسكم فتسرونه، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾ لا تخفىٰ عليه خافية.

٥٥ ﴿لَّا جُنَاحَ﴾ إثم، ﴿عَلَيۡهِنَّ﴾ أي: علىٰ أزواجِ النبي ﷺ في الدخول عليهن بعد ضرب الحجاب.

﴿فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ﴾ فهؤلاء محارم علىٰ التأبيد، فلا بأس أن يدخلوا بعد الاستئذان، كما تقدم في سورة النور، ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ﴾ بفعل المأمور، وترك المحذور، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا﴾ مطلعًا لا تخفىٰ عليه خافية من أعمال العباد.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ٥٧ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ٥٨﴾.

٥٦ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ صلاةُ الله ذكره في الملأ الأعلىٰ، وصلاة الملائكة الدعاء له، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾.

وأكمل ما يُصلىٰ عليه به ما جاء عن أبي مسعود وكعب بن عجرة: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ الصَّلاَةُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ البَيْتِ؟، فَإِنَّ اللهَ قَدْ عَلَّمَنَا كَيْفَ نُسَلِّمُ عَلَيْكُمْ؟ قَالَ: **«قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَىٰ آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَىٰ آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ»** متفق عليه.

وعن أَبي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُمْ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ؟ قَالَ: قُولُوا: **«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَىٰ آلِ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَىٰ آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ»**، أخرجه مسلم.

وفي فضل الصلاة عليه ما أخرجه مسلم عن أبي هريرة وعبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ صَلَّىٰ عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا»**.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ»** أخرجه أحمد.

﴿٥٧﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ﴾ بعبادة غيره أو بِسَبِّهِ، وجعل الصاحبة والولد له، أو بغير ذلك من أنواع الأذىٰ، ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ يؤذون رسوله ﷺ بسببه، أو بغير ذلك من أنواع الأذىٰ، ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ طردهم من رحمته، ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ موجعًا.

وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ بقول الله تعالىٰ: **« مَنْ عَادَىٰ لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ»** أخرجه البخاري.

وفي حديث أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: **«يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ: وَأَنَا الدَّهْرُ»** متفق عليه.

وفي حديث أبي موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: **«لَا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَىٰ أَذًىٰ يَسْمَعُهُ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ إِنَّهُ يُشْرَكُ بِهِ وَيُجْعَلُ لَهُ وَلَدٌ وَهُوَ يُعَافِيهِمْ وَيَدْفَعُ عَنْهُمْ وَيَرْزُقُهُمْ»** متفق عليه.

﴿٥٨﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ بغير إثمٍ ركبوه، أو فعلٍ اقترفوه، ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟﴾ تحملوا ﴿بُهْتَٰنًا﴾ فعلاً شنيعًا، وكذبًا عظيمًا ﴿وَإِثْمًا﴾ وزرًا، ﴿مُّبِينًا﴾ بينًا.

وفي حديث أبي برزة وابن عمر قال رسول الله ﷺ: **«يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ، وَلَمْ يُفْضِ الإِيمَانُ إِلَىٰ قَلْبِهِ: لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَاتِ الْمُسْلِمِينَ، تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ، فَيَفْضَحَهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِهِ»** أخرجه أحمد.

ومن أشد من يؤذي المؤمنين في هذا الزمن اليهود والنصارىٰ والمبتدعة والجواسيس ومن إليهم، فهم معرضون لهذا الوعيد العظيم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٥٩﴾.

٥٩ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ﴾ وهي الملاءة التي تشتمل بها المرأة فوق الدرع والخمار، وفيه أمرٌ بالحجاب.

وهذا من موافقات عمر، ففي الصحيحين: أن عمر كان يقول: يا رسول الله حجب نساءك، خَرَجَتْ سَوْدَةُ بَعْدَمَا ضُرِبَ الحِجَابُ لِحَاجَتِهَا، وَكَانَتِ امْرَأَةً جَسِيمَةً لاَ تَخْفَى عَلَى مَنْ يَعْرِفُهَا، فَرَآهَا عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ فَقَالَ: يَا سَوْدَةُ، أَمَا وَاللهِ مَا تَخْفَيْنَ عَلَيْنَا، فَانْظُرِي كَيْفَ تَخْرُجِينَ، قَالَتْ: فَانْكَفَأَتْ رَاجِعَةً، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ فِي بَيْتِي، وَإِنَّهُ لَيَتَعَشَّى وَفِي يَدِهِ عَرْقٌ، فَدَخَلَتْ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي خَرَجْتُ لِبَعْضِ حَاجَتِي، فَقَالَ لِي عُمَرُ كَذَا وَكَذَا، قَالَتْ: فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ ثُمَّ رُفِعَ عَنْهُ، وَإِنَّ العَرْقَ فِي يَدِهِ مَا وَضَعَهُ، فَقَالَ: **«إِنَّهُ قَدْ أُذِنَ لَكُنَّ أَنْ تَخْرُجْنَ لِحَاجَتِكُنَّ»**، ثم نزلت آية الحجاب.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الحجاب ﴿أَدۡنَىٰٓ﴾ أقرب، ﴿أَن﴾ لا، ﴿يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ﴾ يتعرض لهن.

وفي هذا رد على من زعم أن تغطية الوجه ليس بواجب، فإنها إذا كشفت الوجه عُرِفَت، وجمال المرأة في وجهها.

والنبي ﷺ قال للخاطب قال: **«هل نظرت إليها»**، فالقول بأن تغطية الوجه في حق المرأة إنما هو مستحب يُعتبر قولاً مخالفاً لأدلة الوحيين، وهو زلة ممن قال به من العلماء.

وتمسكوا بمثل حديث المرأة التي جاءت تسأل النبي ﷺ، وجعل الفضل بن عباس ينظر إليها، وليس فيه دلالة على أن النبي ﷺ أقرها، ولا أنها كانت كاشفة لوجهها، فقد يظهر أحيانًا الجمال بغير ذلك، أو أنها فعلت ذلك بغير إذن النبي ﷺ، فلا تُتْرَك الأدلة الظاهرة البينة الواضحة في وجوب ضرب الحجاب على المرأة بمثل هذا الدليل المتشابه، فيُرد إلى المُحكم البيِّن الواضح، فلو كشفت وجهها لعُرِفَت، ولو عُرِفَت لربما لحقها الأذى.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا﴾ متجاوزًا، ﴿رَّحِيمٗا﴾ مما قد يقع فيه الإنسان من القصور مع إرادة الخير، فضُرِبَ الحِجاب من باب الرحمة بالنساء والشفقة عليهن وعدم تعرضهن للفتنة.

وكثير من الناس يُخالفون هذه الآية شهوةً أو شبهةً، فلا يستقيم لهم حال، فاختلاط المرأة بالرجل والرجل بالمرأة من أسباب الفساد.

﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾.

﴿٦٠﴾ ثم هدد الله عَزَّوَجَلَّ المنافقين بقوله: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ عن نفاقهم وأذىٰ رسول الله ﷺ ومن معه من المؤمنين، ﴿وَ﴾ ينتهي ﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ فجور، ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ بالكذب، ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ لنسلطنَّك عليهم حتىٰ تقتلهم، وتُخلي منهم المدينة لكن لم يقع هذا الإغراء، فالنبي ﷺ لم يُقاتل المنافقين، إنما كان هذا علىٰ التهديد، ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ﴾ في المدينة ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ﴾ [التحريم:٩]، وكان جهاده للمنافقين باللسان لا بالسنان.

﴿٦١﴾ ﴿مَّلْعُونِينَ﴾ مطرودين من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟﴾ وجدوا وأُدركوا، ﴿أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾ يعني: لو أن الله سلطه عليهم سيكون هذا حالهم أينما وجدوا قُتِلوا.

﴿٦٢﴾ ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾ طريقةُ الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿فِى﴾ إهلاك، ﴿الَّذِينَ خَلَوْا﴾ مضوا، ﴿مِن قَبْلُ﴾ من الأمم السالفة، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ﴾ لطريقة الله في إهلاك الظالمين، ﴿تَبْدِيلًا﴾ تحويلًا وتغييرًا؛ فالسنن الكونية تجري في إهلاك الظالمين وفي إعزاز المؤمنين الموحدين.

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾.

﴿٦٣﴾ ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ﴾ الكفار ﴿عَنِ السَّاعَةِ﴾ القيامة، كقوله تعالىٰ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ [الأعراف:١٨٧]، ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد، ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ﴾ لا يعلم وقت قيامها إلا الله، ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف:١٨٧]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ﴾ [لقمان:٣٤]، ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ يعلمك يا رسول الله ﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ فعليهم أن يستعدوا بالعمل.

﴿٦٤﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ طردهم من رحمته، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ جهنم يصلونها، وبئس المصير.

﴿٦٥﴾ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ لا يتحولون عنها إلىٰ غيرها ، ﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يشفع لهم، ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم ويُدافع عنهم.

❁ وهذا دليلٌ علىٰ أبدية النار.

﴿٦٦﴾ وذلك، ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ يمشون عليها، وتُحيط بهم، ﴿يَقُولُونَ﴾ متحسرين علىٰ أنفسهم، ﴿يَٰلَيْتَنَآ﴾ في حياتنا الدنيا، ﴿أَطَعْنَا ٱللَّهَ﴾ بتوحيده وبما أمر، ﴿وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ باتباعه في دعوته إلىٰ التوحيد، وما كان من سوىٰ ذلك.

﴿٦٧﴾ ﴿وَقَالُوا۟﴾ معتذرين عن ضلالهم، ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا﴾ رؤساءنا، ﴿وَكُبَرَآءَنَا﴾ عظماءنا، ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ حرفونا عن الطريق القويم، والصراط المستقيم.

﴿٦٨﴾ ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: ضعفي عذاب ما نحنُ فيه، هم يعلمون أنهم ما سيخرجون من النار، فما قالوا: أخرجنا وأبقهم، ﴿وَٱلْعَنْهُمْ﴾ اطردهم وأقصهم ﴿لَعْنًا كَبِيرًا﴾ وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٨].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾.

﴿٦٩﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ﴾ أي: لا تؤذوا رسول الله ﷺ كما آذىٰ بنوا إسرائيل موسىٰ بن عمران، حيث قالوا بأنه آدر كبير الخصيتين، ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟﴾ برأه الله وأظهر أنه لا عيب فيه، ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ مقربًا مُكرمًا.

وبيانه ما في الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال ﷺ: **«إِنَّ مُوسَىٰ كَانَ رَجُلًا حَيِيًّا سِتِّيرًا لَا يُرَىٰ مِنْ جلده شيء استحياء فَآذَاهُ مَنْ آذَاهُ مِنْ بَنِي إسرائيل، فقالوا ما تستر موسىٰ هَذَا التَّسَتُّرَ إِلَّا مِنْ عَيْبٍ بجلده، إمّا برص وإما أُدْرَةٌ وَإِمَّا آفَةٌ، وَإِنَّ اللهَ أَرَادَ أَنْ يُبَرِّئَهُ مِمَّا قَالُوا، فخلا يومًا وحده ليغتسل فَوَضَعَ ثِيَابَهُ عَلَىٰ الْحَجَرِ، ثُمَّ اغْتَسَلَ فَلَمَّا فَرَغَ أَقْبَلَ إِلَىٰ ثِيَابِهِ لِيَأْخُذَهَا وَإِنَّ الْحَجَرَ عَدَا بِثَوْبِهِ، فَأَخَذَ مُوسَىٰ عَصَاهُ وَطَلَبَ الْحَجَرَ، فَجَعَلَ يَقُولُ ثَوْبِي حَجَرُ، ثَوْبِي حَجَرُ، حَتَّىٰ انْتَهَىٰ إِلَىٰ مَلَأٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَرَأَوْهُ عُرْيَانًا أَحْسَنَ مَا خَلَقَ اللهُ،**

وبرأه مِمَّا يَقُولُونَ، وَقَامَ الْحَجَرُ فَأَخَذَ ثَوْبَهُ فَلَبِسَهُ وَطَفِقَ بِالْحَجَرِ ضَرْبًا بعصاه، فو الله إِنَّ بِالْحَجَرِ لَنَدَبًا مِنْ أَثَرِ ضَرْبِهِ ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا أَوْ خَمْسًا».

٧٠ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ صوابًا موافقًا للحق.

٧١ فإن فعلتم ذلك، ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ الظاهرة والباطنة، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ يتجاوز عنكم، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ بالجنة والسلامة من النار.

❁ وكان النبي ﷺ يأتي بهذه الآية في خطبة الحاجة، في كل جمعةٍ وفي كل كلمةٍ وموعظةٍ؛ وذلك لما فيها من العظة والعبرة، وقد أحسن من قال:

وَإِنْ لَمْ تَجِدْ قَوْلًا سَدِيدًا تَقُولُهُ ... فَصَمْتُكَ عَنْ غَيْرِ السَّدَادِ سَدَادُ

والقول السديد يُطلق على الفعل أيضًا، لقول رسول الله ﷺ: **«مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالعَمَلَ بِهِ، فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ»** أخرجه البخاري، والسداد في طاعةِ الله وطاعةِ رسوله قولًا وفعلًا، وعدم السداد في معصية الله ورسوله ﷺ قولًا وفعلًا.

❁ وفيه أن صلاح الأقوال والمعتقدات والأحوال عائدٌ إلى طاعةِ الله وطاعةِ رسوله ﷺ، ولا أنعم بهذا الأمر من أهل السنة والجماعة.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾.

٧٢ ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾ الدين وتكاليفه، ﴿عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ﴾ امتنعن، ﴿أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ خوفًا ووجلًا من عدم المجيء بها، ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا﴾ لنفسه، ﴿جَهُولًا﴾ بعاقبته، ومع ذلك أكرم الله من حمل الأمانة، وأداها كما شرع وأمر بالنعيم المقيم والرفعة في الدارين، وأهان من تمرد ولم يقم بها.

وقد تُطلق الأمانة على غير الدين، فعن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ أول ما بُعِثَ يقول: **«اعْبُدُوا اللهَ وَحْدَهُ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَاتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّدْقِ وَالعَفَافِ وَالصِّلَةِ وأَدَاءِ الأَمَانة»** أخرجه البخاري.

٧٣ والحكمة من ذلك، ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ في الدنيا والآخرة بما خانوا الأمانة، ونقضوا الميثاق، ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾

بقبول توبتهم، ورفع درجاتهم، ﴿وَكَانَ اللهُ غَفُورًا﴾ متجاوزًا عمن دعاه ورجاه، ﴿رَّحِيمًا﴾ بهم يهديهم إلىٰ أقومِ الطرق، وأحسن السُبُل.

قال ابن قتيبة: ﴿عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾ ليظهر نفاق المنافق وشرك المُشرك فيُعذبهم الله، ويظهر إيمان المؤمن فيتوب الله عليه، أي: يعود عليه بالرحمة والمغفرة إن حصل منه تقصيرٌ في بعض الطاعات.

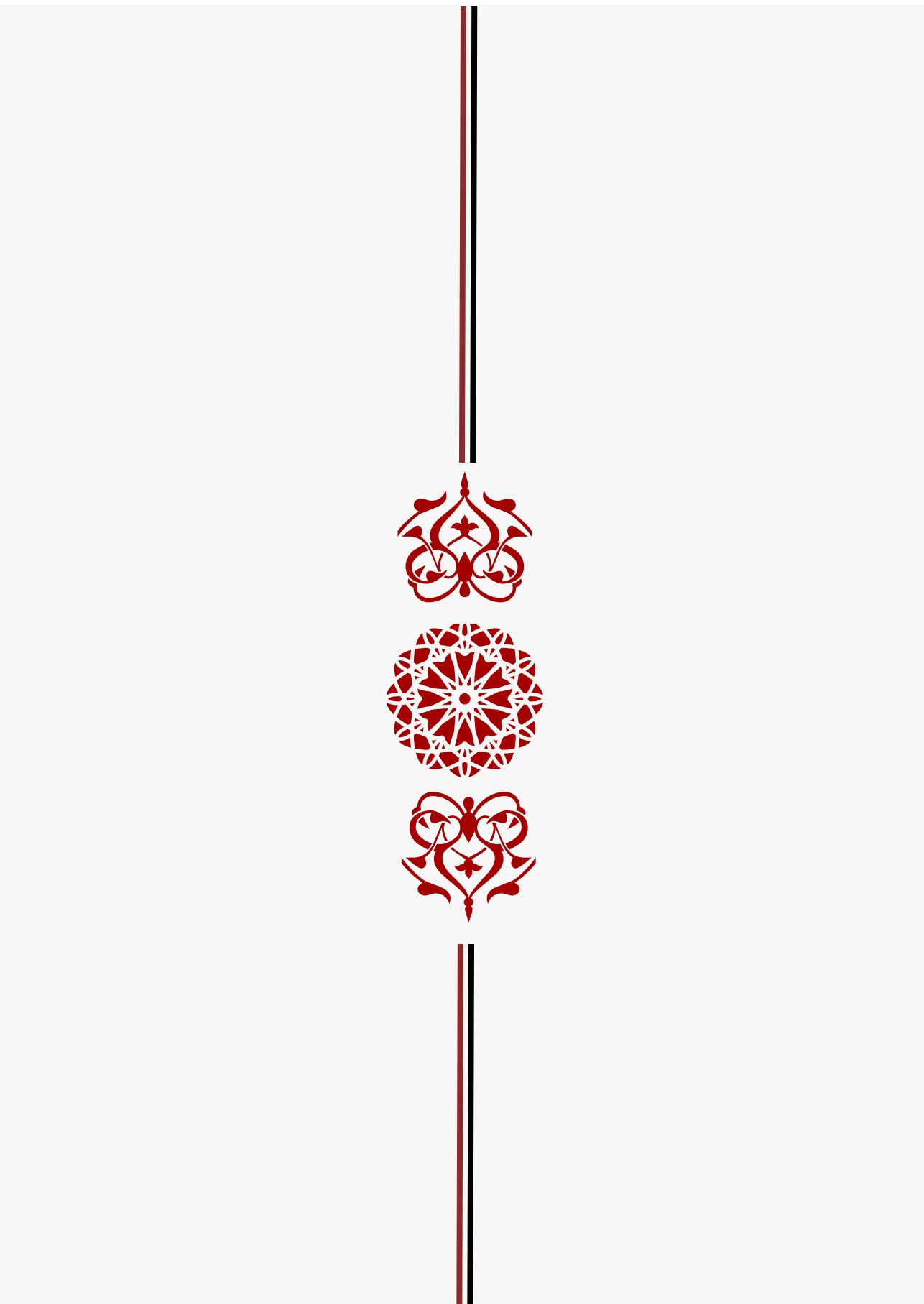
وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْأَحْزَابِ



تَفْسِيرُ سُورَةِ سَبَأ





سُورَةُ سَبَأ

مَكِّيَّةٌ، وَآيَاتُهَا أَرْبَعَةٌ وَخَمْسُونَ آيَةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾.

(١) ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ كما هو له في الدنيا؛ لأن نعيم الدارين، وما يتعلق بهما عائدٌ إلىٰ الله خلقًا وإيجادًا، وعدلًا وحكمة، ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ في فعله وخلقه، ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ المطلع عليهم ظاهرًا وباطنًا.

(٢) ومن ذلك أنه تعالىٰ ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ﴾ ما يدخل ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من المطر والحبوب ونحوها، ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من الزروع وغيرها، ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من المطر، ﴿وَمَا يَعْرُجُ﴾ يصعد، ﴿فِيهَا﴾ من الملائكة وأعمال العباد، ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ﴾ الموفق للخير والصلاح، ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ المتجاوز عن الذنوب والساتر لها.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

(٣) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إنكارًا للبعث والنشور ﴿لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ القيامة ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى﴾ يُقسم بالله، وهذه أحد المواطن الثلاث التي يُقسم فيها بالله علىٰ إثبات البعث والنشور، ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ أي: الساعة، فهو سبحانه ﴿عَٰلِمِ الْغَيْبِ﴾ وهو ما غاب عن العيان، ﴿لَا يَعْزُبُ﴾ لا يغيب ﴿عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ وزن ذرة نملة صغيرة أو هباء ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ وهو اللوح المحفوظ.

٤ والحكمة من ذلك: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ يثيب ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بالأجر الحسن والثواب العظيم، ﴿أُولَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ تجاوز ﴿وَرِزْقٌ﴾ عطاء، ﴿كَرِيمٌ﴾ حسن واسع وهي الجنة، كما أنهم يسعدون ويطمئنون في الدنيا كما قال تعالىٰ ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

٥ ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا﴾ عملوا، ﴿فِي﴾ الصد عن ﴿آيَاتِنَا﴾ القرآن، بقولهم: سحر ونحوه، ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ مسابقين يحسبون أنهم يفوتوننا ويسلمون من عقاب الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ﴾ في الآخرة، ﴿عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ وهو سوء العذاب وأشده.

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ٧ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ٨ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ٩﴾.

٦ ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ والمراد بهم: عبد الله بن سلام، ومن كان علىٰ شاكلته ممن دخل في الإسلام، ﴿الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ القرآن والسنة، ﴿هُوَ الْحَقَّ﴾ الثابت، ﴿وَيَهْدِي﴾ يرشد، ﴿إِلَىٰ صِرَاطِ﴾ طريق، ﴿الْعَزِيزِ﴾ الذي لا يغلب ولا يمانع ﴿الْحَمِيدِ﴾ المحمود في جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، وهذا الصراط هو الإسلام، كما قال تعالىٰ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦].

٧ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ معارضين ومنكرين للبعث والنشور: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ﴾ نخبركم ونرشدكم: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ﴾ يُخبركم أنكم، ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ﴾ قطعتم فكنتم عظامًا ورفاتًا، ﴿كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ كل تقطيع، ﴿إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وهو البعث بعد الموت.

٨ هل ﴿أَفْتَرَىٰ﴾ اختلق ﴿عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بهذا القول، ﴿أَم بِهِ جِنَّةٌ﴾ جنون، والواقع: ﴿بَلِ﴾ إن الكفار، ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يقرون، ﴿بِالْآخِرَةِ﴾ والبعث والنشور هم، ﴿فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ عن الحق.

٩ ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا﴾ ينظروا ويتأملوا، ﴿إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ والقرىٰ التي أُهلكت ودُمرت، ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ﴾ نغيب ﴿بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ كما خسفنا باللذين من

قبلهم كقارون، ﴿أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا﴾ صاعقة: ﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾ فنهلكهم بها، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرنا من قدرتنا، ﴿لَآيَةً﴾ عبرة وعظة: ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ رجاعٌ إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بقلبه وجوارحه.

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾.

﴿١٠﴾ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ﴾ النبي الكريم، ﴿مِنَّا فَضْلًا﴾ النبوة والكتاب، وقلنا: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي﴾ سبحي، ﴿مَعَهُ﴾ مع داود عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد قال تعالىٰ عنه: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:٣٠]، ﴿وَالطَّيْرَ﴾ أيضًا مسبحة معه، ﴿وَأَلَنَّا﴾ لينا، ﴿لَهُ الْحَدِيدَ﴾ فصار الحديد يتشكل لا يحتاج إلىٰ نار في يد داود عَلَيْهِ السَّلَامُ، فكان حدادًا يصنع منه آلات الحرب وغير ذلك.

﴿١١﴾ ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾ دروعًا كوامل واسعات، ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ نسج الدرع وهو مكان المسامير بحيث يُقدره ثم يُصلحه مسمارًا بسهولة، فلا تقع فيه الزيادة فتشقه ولا يصغر فيبقىٰ غير ثابت ﴿وَاعْمَلُوا﴾ آل داود، ﴿صَالِحًا﴾ الطاعات، ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فأجازكم علىٰ أعمالكم.

﴿١٢﴾ ﴿وَ﴾ اذكر إذ سخرنا، ﴿لِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ﴾ يركبها، وتسير به كما قال تعالىٰ: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ [الأنبياء:٨١]، ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ﴾ جريها بالغداة مسيرة شهر ﴿وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ جريها بالعشي، فيستطيع أن يذهب إلىٰ المكان الذي يُريد ويرجع إلىٰ مكانه غدوة وعشية، ﴿وَأَسَلْنَا﴾ أذبنا، ﴿لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ النحاس أذابه الله عَزَّوَجَلَّ بحيث يستعمله كيف شاء، ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ما يُريد، ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ إذ سخرهم له وأمرهم بطاعته حين قال: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ [ص:٣٥]، ﴿وَمَن يَزِغْ﴾ أي: يعدل ويميل: ﴿مِنْهُمْ﴾

من الجن ﴿عَنْ أَمْرِنَا﴾ الذي أمرناهم به من طاعة سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿نُذِقْهُ﴾ نصبه، ﴿مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ عذاب جهنم في الآخرة، وفي الدنيا يُسلط الله عليهم ما شاء.

﴿١٣﴾ ومن شأن الجن أنهم: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ يصنعون، ﴿لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ﴾ مجالس واسعات ومساجد وأبنية، ﴿وَتَمَاثِيلَ﴾ صور مجسمة.

وليس فيها إباحة صور ذوات الأرواح فهو حرام، لقول رسول الله ﷺ: **«كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ»** أخرجه مسلم عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: حَشَوْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وِسَادَةً فِيهَا تَمَاثِيلُ كَأَنَّهَا نُمْرُقَةٌ، فَجَاءَ فَقَامَ بَيْنَ البَابَيْنِ وَجَعَلَ يَتَغَيَّرُ وَجْهُهُ، فَقُلْتُ: مَا لَنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: **«مَا بَالُ هَذِهِ الوِسَادَةِ؟»**، قَالَتْ: وِسَادَةٌ جَعَلْتُهَا لَكَ لِتَضْطَجِعَ عَلَيْهَا، قَالَ: **«أَمَا عَلِمْتِ أَنَّ المَلاَئِكَةَ لاَ تَدْخُلُ بَيْتًا فِيهِ صُورَةٌ، وَأَنَّ مَنْ صَنَعَ الصُّورَةَ يُعَذَّبُ يَوْمَ القِيَامَةِ يَقُولُ: أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ»** متفق عليه.

وقد تكون علىٰ غير صورة ذات روح، أو أن الصور كانت في عهدهم غير محرمة، والله أعلم.

❁ وشرعنا جاء بتحريم الصور لأمرين: سد ذرائع الشرك، فإن أول شرك وقع في الناس كان سببه الصور، والمنع من مضاهاة خلق الله.

﴿و﴾ يعملون له، ﴿جِفَانٍ﴾ وهي القصاع الكبيرة العظيمة، ﴿كَالْجَوَابِ﴾ الحياض التي يُجمع فيها الماء، ﴿وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾ ثابتات لها قوائم لا يتحركن من أماكنهن، وكانوا يصعدون لهن بالسلالم، ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ لله عَزَّوَجَلَّ علىٰ نعمه، وفضله عليكم، ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ من يشكر الله علىٰ نعمه.

﴿١٤﴾ ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا﴾ حكمنا: ﴿عَلَيْهِ الْمَوْتَ﴾ أي: بالموت، ﴿مَا دَلَّهُمْ﴾ أرشدهم ﴿عَلَىٰ مَوْتِهِ﴾ إلىٰ موته، ﴿إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ﴾ وهي الأرضة، ﴿تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ﴾ العصا، فلما سقطت العصا سقط سليمان، ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ وقع من القيام ﴿تَبَيَّنَتِ﴾ عَلِمت ﴿الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا﴾ مكثوا الوقت لطويل ﴿فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ إذ أنهم كانوا يدعون علم الغيب، ففضحهم الله بهذا الأمر إذ مكثوا سنةً يعملون ويدأبون وينصبون لجهلهم بموته.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾.

﴿١٥﴾ ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ وهم قوم سبأ في أرض مأرب من اليمن، ﴿فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ﴾ عبرة وعظة، علىٰ قدرة الله عَزَّوَجَلَّ فقد كانت لهم ﴿جَنَّتَانِ﴾ بستانان ﴿عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ فيها من أنواع الزروع والثمار والفواكه حتىٰ ذُكر من شأنهم أن المرأة تمشي بجرابها علىٰ رأسها، فلا تخرج إلا وقد امتلأ دون أن تأخذ شيئًا من ذلك الزرع والثمر، ﴿كُلُوا﴾ علىٰ الإباحة، ﴿مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ من عطاء ربكم الواسع، ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ علىٰ ذلك يزدكم من نعمه، ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ في مائها وتربتها وطيب هوائها إذ تصلح لجميع أنواع الثمار والزروع، ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ متجاوز عنهم إذا شكروا.

﴿١٦﴾ وكان حالهم ﴿فَأَعْرَضُوا﴾ عن توحيد الله عَزَّوَجَلَّ وطاعته، ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ سيل السد، أو السيل الذي لا يُطاق شديد الانحدار حتىٰ أنه أتىٰ علىٰ السدود والأراضي، فأخذها وتركها قاعًا صفصفًا، ﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾ شأنها دون ما سبق بكثير، ﴿ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ الأراك وثمرته القليلة، ﴿وَأَثْلٍ﴾ شجر معروف، قليل النفع يصلح لأسقف البيوت، ونحو ذلك،﴿وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ وهوأحسنها حالًا مع كثرة شوكه يأكلون من نبقه، ويستظلون بشجره، وتأكل دوابهم من ورقه، فالنعمة لما كُفرت صاروا إلىٰ أدنىٰ حالٍ بعد ذلك، نعوذ بالله من الخسران.

﴿١٧﴾ ﴿ذَلِكَ﴾ العذاب والنكال الذي نزل بهم ﴿جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا﴾ أي: بسبب كفرهم وإعراضهم عن شكر الله، ﴿وَهَلْ نُجَازِي﴾ بالعذاب والآيات: ﴿إِلَّا الْكَفُورَ﴾ المُعرض.

﴿١٨﴾ ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ أهل سبأ، ﴿وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ الشام، ﴿قُرًى ظَاهِرَةً﴾ متواصلة، كان إذا سافر أحدهم من اليمن لا يبيت إلا في قرية لا يخاف علىٰ نفسه جوعًا ولا

يخاف علىٰ نفسه تقطعًا، ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ علىٰ مسافات ومراحل، ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ لا تخافون عدوًا ولا جوعًا ولا عطشًا، فبطروا وطغوا وكفروا.

﴿١٩﴾ ﴿فَقَالُوا﴾ كبراً وبغياً ﴿رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ اجعل بيننا وبين الشام الفلوات والمفاوز نركب فيها الرواحل، ونتزود فيها من الأزواد، ﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بهذه الدعوة، وفي حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لَا تَدْعُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ، وَلَا تَدْعُوا عَلَىٰ أَوْلَادِكُمْ، وَلَا تَدْعُوا عَلَىٰ أَمْوَالِكُمْ تُوَافِقُوا مِنَ اللهِ سَاعَةً يُسْأَلُ فِيهَا عَطَاءٌ، فَيَسْتَجِيبُ لَكُمْ»** أخرجه مسلم.

فاستجبنا دعوتهم، ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ﴾ بعد اجتماعهم وقوتهم، ﴿أَحَادِيثَ﴾ كأمس الدابر يتحدث الناس عنهم، ﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ﴾ فرقناهم ﴿كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ كل تفريق، فصاروا في بلدان متفاوته يصعب اجتماعهم.

قَالَ الشَّعْبِيُّ: لَمَّا غَرِقَتْ قُرَاهُمْ تَفَرَّقُوا فِي الْبِلَادِ، أَمَّا غَسَّانُ فَلَحِقُوا بِالشَّامِ وَمَرَّ الْأَزْدُ إِلَىٰ عَمَّانَ، وَخُزَاعَةُ إِلَىٰ تِهَامَةَ، وَمَرَّ آلُ خُزَيْمَةَ إِلَىٰ الْعِرَاقِ، وَالْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ إِلَىٰ يَثْرِبَ، وَكَانَ الَّذِي قَدِمَ مِنْهُمُ الْمَدِينَةَ عَمْرُو بْنُ عَامِرٍ وَهُوَ جَدُّ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور، ﴿لَآيَاتٍ﴾ عظات وعبر، ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ كثير الصبر عن معاصي الله، ﴿شَكُورٍ﴾ لنعمه.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿٢٠﴾ ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ﴾ حقق، ﴿عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ من أنه سيغويهم، كما قال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص:٨٢]، ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٧]، ﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾ انقادوا له في الكفر والضلال، ﴿إِلَّا فَرِيقًا﴾ طائفة، ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ حيث أطاعوا ربهم والتزموا شرعه.

(٢١) ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ﴾ للشيطان ﴿عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ من حجة أو قدرة في إضلالهم، ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ علم وقوع، وإلا فإن الله بكل شيء عليم ﴿مَن يُؤْمِنُ﴾ يقر ويستيقن ﴿بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ أي: تكذيب في وقوعها، ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ رقيب ومُطلع وحافظ لأعمالهم لا تخفىٰ عليه، وهذا كقول الله عَزَّوَجَلَّ مُخبراً عن إبليس عليه لعائن الله: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم:٢٢].

(٢٢) ﴿قُلِ﴾ لهم يا رسول الله: ﴿ٱدْعُوا﴾ اعبدوا ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ واعتقدتم أنهم آلهة، ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأصنام والأوثان فإنهم، ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فضلًا أن يكون لهم مُلك أكثر من هذا، ﴿وَمَا لَهُمْ﴾ للأصنام والأوثان، ﴿فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ مشاركة بل مُلكهما خاص بالله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَمَا لَهُۥ﴾ سبحانه وتعالىٰ، ﴿مِنْهُم﴾ من الأصنام والأوثان، ﴿مِّن ظَهِيرٍ﴾ من مُعين.

وهذه ثلاثة علائق تُصوِّغُ لهم عبادة غير الله وكلها مقطوعة عنهم، فهذه الآلهة المزعومة ليس لها مُلك ولا شِرْكٌ ولا إعانة، فبقي معهم الاحتجاج بطلب الشفاعة كما قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣].

(٢٣) فقال الله عَزَّوَجَلَّ راداً لهذا العذر: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ﴾ أي: عند الله، ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ ولا يأذن الله عَزَّوَجَلَّ إلا لمؤمن في مؤمن، كما قال: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨]، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ﴾ رُفِعَ الفزع والخوف ﴿عَن قُلُوبِهِمْ﴾ عن قلوب الملائكة الذين سمعوا كلام الله: ﴿قَالُوا﴾ الملائكة لحملة العرش ومن إليهم ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ أي: في وحيه وتنزيله، ﴿قَالُوا﴾ قال جبريل: قال الله عَزَّوَجَلَّ ﴿ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ في سماه علىٰ عرشه بائن من خلقه العلي في قدره وقهره، ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ العظيم الواسع.

وفي ذلك حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال رسول الله ﷺ: **«إِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يُوحِيَ بِأَمْرٍ تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ، فَإِذَا تَكَلَّمَ أَخَذَتِ السَّمَاوَاتِ مِنْهُ رَجْفَةٌ مِنْ خَوْفِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فَإِذَا سَمِعَ ذَلِكَ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ، صُعِقُوا وَخَرُّوا سُجَّدًا، فَيَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَيُكَلِّمُ**

اللهُ مِنْ وَحْيِهِ بِمَا أَرَادَ، فَيَنْتَهِي بِهِ جِبْرِيلُ عَلَىٰ الْمَلَائِكَةِ، كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ قَالَ أَهْلُهَا: مَاذَا قَالَ رَبُّنَا يَا جِبْرِيلُ؟ فَيَقُولُ جِبْرِيلُ: قَالَ الْحَقَّ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ. قَالَ: فَيَقُولُونَ كُلُّهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ جِبْرِيلُ، حَتَّىٰ يَنْتَهِيَ بِهِمْ جِبْرِيلُ حَيْثُ أَمَرَهُ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» متفق عليه.

﴿۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿٢٤﴾ ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿مَن يَرْزُقُكُمْ﴾ يُعطيكم: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ﴾ وهذا أمرٌ معلوم عند الخاص والعام، من أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴿وَإِنَّا﴾ أهل الإسلام، ﴿أَوْ إِيَّاكُمْ﴾ يا أهل الكفر والإجرام، ﴿لَعَلَىٰ هُدًى﴾ رشاد ﴿أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

۞ وهذا من باب التنزل، يقول لهم: يا إما أنتم علىٰ شك ونحن علىٰ يقين، وإما نحن علىٰ شك وأنتم علىٰ يقين؛ لكن الواقع: أن المؤمنين أهدىٰ سبيلًا وأقوم طريقًا، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ **[الإسراء:٨٤]**.

﴿٢٥﴾ ﴿قُل﴾ لهم يا محمد: ﴿لَّا تُسْـَٔلُونَ﴾ يوم القيامة ﴿عَمَّآ أَجْرَمْنَا﴾ عملنا، ﴿وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ تفعلون فسيجازىٰ كل واحد بعمله، كما قال تعالىٰ: ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ **[البقرة:١٣٩]**.

﴿٢٦﴾ ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ يوم القيامة، ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ﴾ يَحكمُ: ﴿بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ الصدق الثابت، ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ﴾ الحاكم القاضي: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأعمال عباده.

﴿٢٧﴾ ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿أَرُونِىَ﴾ أعلموني عن ﴿ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ﴾ بالله عَزَّوَجَلَّ وجعلتموهم له، ﴿شُرَكَآءَ﴾ من الأصنام، وأعلموني بحالها هل تستطيع أن ترزقكم أو تخلقكم؟ ﴿كَلَّا﴾ فهي عاجزة، ﴿بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ﴾ في ملكه، والعزيز في أمره الذي لا يغلب، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في تصريف عباده، ويجازيهم علىٰ النحو الذي أراد، وعلىٰ الشريعة التي أمر.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٨ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٩ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ ٣٠﴾.

٢٨ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا محمد ﴿إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ لجميع الناس.

وهذا كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨]، وفي حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ كما في حديث جابر: «**بُعِثْتُ إِلَىٰ الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ**»، وفي رواية: «**وَبُعِثْتُ إِلَىٰ النَّاسِ عَامَّةً**»، وفي رواية: «**وَأُرْسِلْتُ إِلَىٰ الْخَلْقِ كَافَّةً**» متفق عليه.

﴿بَشِيرًا﴾ بالجنة، ﴿وَنَذِيرًا﴾ من النار والعذاب، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بسبب إعراضهم وبُعدهم عن طاعة ربهم.

٢٩ ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: الكفار معارضة لدعوة النبي ﷺ: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ﴾ متىٰ تكون الساعة؟ ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم أن هناك بعث ونشور؟

٣٠ ﴿قُلْ لَّكُمْ مِّيعَادُ يَوْمٍ﴾ وهو يوم القيامة، ﴿لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف:١٨٧]، فإذا جاء أمرها لا تتأخر.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ٣١ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۡ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ٣٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٣٣﴾.

٣١ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ معارضة للحق وكبرًا وعنادًا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ مهما أتيت فيه من الحُجج والبينات، ﴿وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب السالفة، ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ يا محمد ﴿إِذِ الظَّالِمُونَ﴾ يوم القيامة، ﴿مَوْقُوفُونَ﴾ محبوسون في موقف الحساب ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في عرصات القيامة، ﴿يَرْجِعُ﴾ يرد ﴿بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾ اللوم، ﴿يَقُولُ الَّذِينَ

﴿ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ الاتباع، ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ القادة، ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ﴾ صددتمونا عن الهدىٰ وعن طريق الاستقامة ﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ موحدين.

٣٢ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ﴾ أزغناكم وأملناكم: ﴿عَنِ ٱلْهُدَىٰ﴾ العلم والخير، ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾ به رسول الله ﷺ ﴿بَل كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ كافرين بترك الإيمان، وهذه المعارضة كقوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الصافات:٢٧-٣١].

٣٣ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ﴾ السبب في عدم إيماننا: ﴿مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: مكركم بنا في الليل والنهار؛ لصدنا عن الهدىٰ، والإسلام، تارة بالطعن في رسول الله، وتارة في الطعن في القرآن، وتارة في الطعن في الاتباع، وتارة بالترهيب وتارة بالترغيب، إلىٰ غير من أوجه الصد، ولي بحمد الله رسالة مستقلة في طرق الصادين عن السنة والإسلام.

﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ﴾ نجحده،﴿وَنَجْعَلَ﴾ نصير ﴿لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ مُثلاء ونُظراء من الأصنام والأوثان، ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ﴾ جميعًا المستضعفون والمستكبرون، ﴿لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ عيانًا، ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ﴾ القيود، ﴿فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ﴾ يوم القيامة، ﴿إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ بسبب كفرهم، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾ [الحاقة:٣٠-٣٢].

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

٣٤ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ﴾ طائفة وقبيلة من قبلك يا محمد، ﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾ يخوفهم الله من عقابه، ﴿إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ﴾ رؤساؤها وأغنياؤها: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ يا معاشر الرُسل: ﴿كَٰفِرُونَ﴾ معرضون، وهذا كالتسلية لمحمد ﷺ.

٣٥ ﴿وَقَالُواْ﴾ الكفار ﴿نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا﴾ منكم، ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ وهذه علة عليلة بل ميتة كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالٗا وَوَلَدًا ٧٧ أَطَّلَعَ ٱلۡغَيۡبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ٧٨ كَلَّاۚ سَنَكۡتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّٗا ٧٩ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأۡتِينَا فَرۡدٗا ٨٠﴾ [مريم:٧٨-٨٠].

٣٦ ﴿قُلۡ﴾ لهم يا محمد: ﴿إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ﴾ يوسع: ﴿ٱلرِّزۡقَ﴾ العطاء، ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ من عباده، ﴿وَيَقۡدِرُ﴾ يضيق علىٰ من شاء، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ فباب الدنيا يُعطيه الله من يحب ومن لا يُحب، وباب الإيمان لا يُعطيه إلا من يُحب.

٣٧ ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ﴾ يا معاشر الكافرين، ﴿وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم﴾ التي تفتخرون بها، ﴿بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ﴾ قربة، إنما ينتفع الإنسان بعمله الصالح، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات: ١٣]، ﴿إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ هذا هو القريب من الله، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ٥٤ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ٥٥﴾ [القمر:٥٤-٥٥].

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ﴾ ثواب ﴿ٱلضِّعۡفِ﴾ أي: أن الله يُضاعف لهم الحسنات، فعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال قال رسول الله ﷺ: **« مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَأَزِيدُ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَجَزَاؤُهُ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا أَوْ أَغْفِرُ وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً، وَمَنْ لَقِيَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطِيئَةً لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَقِيتُهُ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً»** أخرجه مسلم.

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، قَالَ: **«إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا، كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا، كَتَبَهَا اللهُ عَزَّوَجَلَّ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَىٰ سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ إِلَىٰ أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا، كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا، كَتَبَهَا اللهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً»** متفق عليه.

﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ أي: بسبب أعمالهم، ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ﴾ القصور المرتفعة في الجنة، ﴿آمِنُونَ﴾ من عذاب الله وغضبه، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ [العنكبوت:٥٨].

❁ وفي هذا رد علىٰ المُرجئة الذين يخرجون الأعمال من مسمىٰ الإيمان

٣٨ ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ﴾ يعملون: ﴿فِي آيَاتِنَا﴾ في إبطال حجتنا، ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ معاندين ويحسبون أنهم يعجزوننا ويفوتوننا، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ وقد أحاطت بهم النار من جميع الجهات، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝٩﴾ [الهمزة:٨-٩].

٣٩ ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ﴾ يوسع، ﴿ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾ يضيق، ﴿لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ إذا كان في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ خير المُعطين.

وفي حديث أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: **«أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ»**، متفق عليه، وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ العِبَادُ فِيهِ، إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلاَنِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا»**، متفق عليه، وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يقول النبي ﷺ: **«مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ»** اخرجه مسلم.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ۝٤١ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝٤٢ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ ۚ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٤٣ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ۝٤٤ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝٤٥﴾.

٤٠ ﴿وَ﴾ اذكر يا محمد: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ يجمعهم: ﴿جَمِيعًا﴾ الإنس والجن، ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ لأن الكفار زعموا: أنهم عبدوا الملائكة وتقربوا إليها.

﴿٤١﴾ ﴿قَالُوا﴾ الملائكة ﴿سُبْحَانَكَ﴾ ننزهك أن يكون لك شريك في ملكك، بل ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ﴾ نحن نتولاك ولا نتولاهم، ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ الشياطين، ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ يعني: مصدقون للشياطين الجن.

﴿٤٢﴾ ﴿فَالْيَوْمَ﴾ يوم القيامة ﴿لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا﴾ لا القادة يملكون للمستضعفين، ولا المستضعفون يملكون للقادة، ﴿وَلَا ضَرًّا﴾ ما أحد يستطيع يضر الآخر بالشفاعة وغيرها، ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ كفروا: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ﴾ الشديد: ﴿الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾، وقد تقدم قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الأعراف: ٣٨، ٣٩].

﴿٤٣﴾ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ﴾ تقرأ ﴿عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ الحجج، ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ واضحة ظاهرة، ﴿قَالُوا مَا هَٰذَا﴾ إن هذا: ﴿إِلَّا رَجُلٌ﴾ يريدون محمداً ﷺ، ﴿يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ﴾ يصرفكم، ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ﴾ من الأحجار والأصنام والأوثان، ﴿وَقَالُوا مَا هَٰذَا﴾ القرآن الذي يتلىٰ عليكم، ﴿إِلَّا إِفْكٌ﴾ كذب: ﴿مُّفْتَرًى﴾ مختلق، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا﴾ ما هذا: ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهرٌ بيِّن.

فانظر كم تختلف أقوالهم في الحال الواحد! إفك مفترىٰ، رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم، سحر مبين، وذلك لاضطرابهم وعدم ثباتهم.

﴿٤٤﴾ ﴿وَمَا آتَيْنَاهُم﴾ أعطيناهم: ﴿مِّن كُتُبٍ﴾ قبل القرآن، ﴿يَدْرُسُونَهَا﴾ يقرؤونها، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ﴾ إلىٰ كفار مكة ﴿قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ من رسول وإنما بقيت عندهم من شرائع دعوة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿٤٥﴾ ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم الكافرة كعاد، وثمود، وقوم إبراهيم، وقوم لوط وغيرهم، ﴿وَمَا بَلَغُوا﴾ أي: كفار مكة، ﴿مِعْشَارَ﴾ أي: عُشر، ﴿مَا آتَيْنَاهُمْ﴾ ما أعطينا الأمم الخالية، من الملك والتمكين، ﴿فَكَذَّبُوا رُسُلِي﴾ وردوا دعوتهم فسلك كفار قريش سبيلهم، ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ إنكاري عليهم، كما قال تعالىٰ: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ

أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٠].

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ ﴾.

﴿٤٦﴾ ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿إِنَّمَآ أَعِظُكُم﴾ آمركم وأوصيكم، ﴿بِوَٰحِدَةٍ﴾ بخصلة واحدة وهي: ﴿أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ﴾ لأجل الله، "ومعناه أن تقوموا للنظر في أمر محمد صلىٰ الله عليه وآله وسلم قياما خالصا لله تعالىٰ ليس فيه اتباع هوىٰ ولا ميل، وليس المراد بالقيام هنا القيام علىٰ الرجلين إنما المراد القيام بالأمر والجدّ فيه" **أفاده ابن جزي** ﴿مَثْنَىٰ﴾ اثنين اثنين، ﴿وَفُرَٰدَىٰ﴾ واحدًا واحدًا، ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾ تفكر اعتبار ﴿مَا بِصَاحِبِكُم﴾ وهو محمد ﷺ، ﴿مِّن جِنَّةٍ﴾ من الجنون بل هو أعقلكم وأزكاكم وأعلمكم وأفضلكم، ﴿إِنْ هُوَ﴾ ما هو ﴿إِلَّا نَذِيرٌ﴾ مخوف: ﴿لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ يوم القيامة.

﴿٤٧﴾ ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد من باب التنزل: ﴿مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ ثواب ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ مع أنه يقول: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [ص:٨٦]، ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ ثوابي ﴿إِلَّا عَلَى اللهِ﴾ ألقاه يوم ألقاه، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ مُطلع.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ ۖ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿٤٨﴾ ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ﴾ ينزل ويؤيد ويتكلم ﴿بِالْحَقِّ﴾ الثابت الصدق الذي لا خُلف فيه، ﴿عَلَّٰمُ الْغُيُوبِ﴾ صيغة مبالغة من العلم بالمغيبات، ومن باب أولىٰ أنه عالم بالمشاهدات.

وهذا من الأسماء المركبة، وقد نقل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله الإجماع علىٰ جواز دعاء الله بها؛ لأنها من الأسماء الحسنىٰ، كما بينت ذلك في كتابي "القواعد الحسان في أسماء وصفات الرحمن"

﴿٤٩﴾ ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿جَاءَ الْحَقُّ﴾ وهو القرآن، ﴿وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ أي: ذهب الباطل وزهق فلم يبقَ منه بقية، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾ [الأنبياء:١٨]، وكما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء:٨١].

﴿٥٠﴾ ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ﴾ انحرفت عن الصراط المستقيم، ﴿فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ﴾ وفقت ﴿فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ بسبب وحي الله لي فهو فضله آتاني إياه، ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ﴾ لدعائي، ﴿قَرِيبٌ﴾ ممن رجاه، وهو علىٰ عرشه.

﴿٥١﴾ ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا﴾ ذهلوا عند البعث حين يخرجون من قبروهم، ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ فلا مهرب، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص:٣]، ﴿وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ من تحت أقدامهم حيث يُشار إلىٰ النار، فيتقادعون فيها تقادع الفراش.

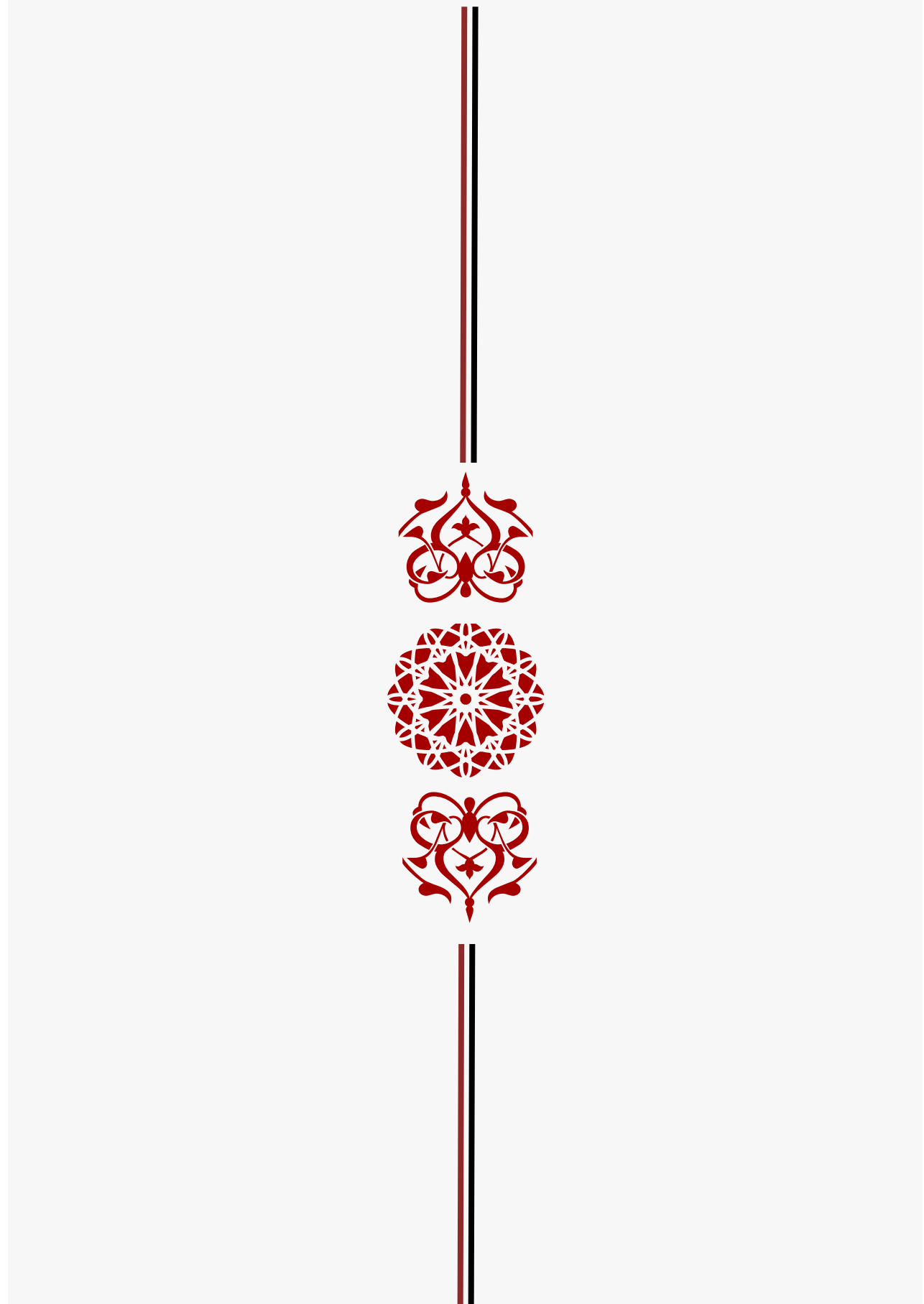
﴿٥٢﴾ ﴿وَقَالُوا﴾ حين عاينوا العذاب ﴿آمَنَّا بِهِ﴾ بمحمد ﷺ، وبالبعث والنشور، وهذا الإيمان لا ينفع، لأنه في وقت انقطاع التوبة، ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ﴾ كيف لهم تناول ما بَعُدَ عنهم وهو الإيمان والتوبة، ﴿مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي: من الآخرة إلىٰ الدنيا، فلا عودة ولا توبة ولا إنابة.

﴿٥٣﴾ ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ﴾ أي: بمحمد ﷺ وبالقرآن: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل البعث والنشور، ﴿وَيَقْذِفُونَ﴾ يرمون محمداً ﷺ ﴿بِالْغَيْبِ﴾ بالتهم والظنون الكاذبة، ﴿مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ الظن الكاذب.

﴿٥٤﴾ ﴿وَحِيلَ﴾ فصل ومنع، ﴿بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ يرغبون فيه عند رؤية العذاب، من الإيمان والتوبة بالموت، ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ﴾ بأمثالهم، ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ من قبلهم الذين كفروا وأعرضوا، وهم نظراؤهم الذين سلكوا سبيلهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ﴾ ظنٍ وموقع ريبة فلم يهتدوا.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

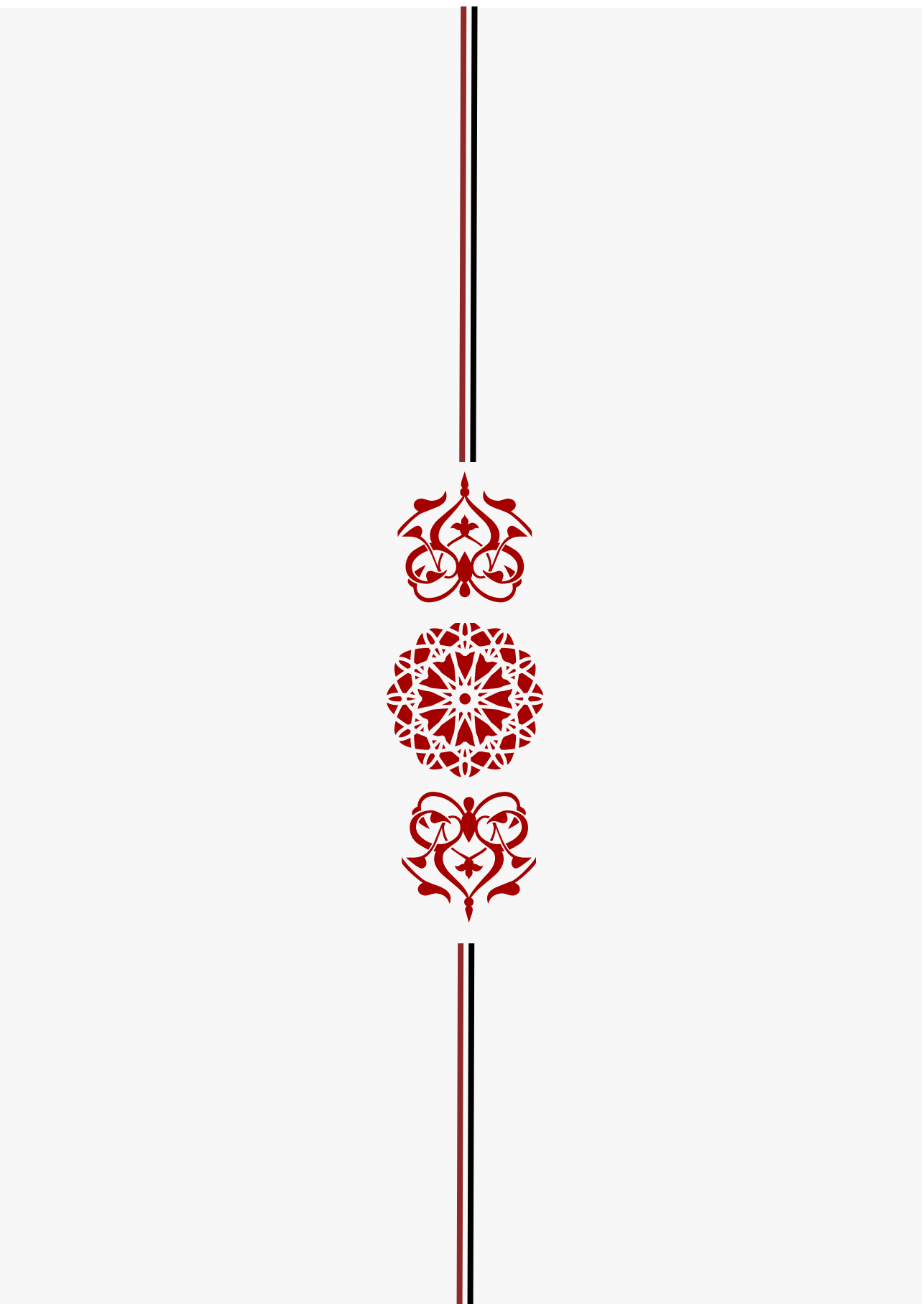
تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ سَبَأ





تَفْسِيرُ سُورَةِ فَاطِرِ





سُورَةُ فَاطِرٍ

مَكِّيَّةٌ، وَآيَاتُهَا خَمْسَةٌ وَأَرْبَعُونَ آيَةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾﴾.

(١) ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ﴾ خالق ومُبدع: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ﴾ ذوي، ﴿أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ أي: بعضهم له جناحان، وبعضهم له ثلاثة أجنحة وبعضهم له أربعة أجنحة ويزيد فيها ما يشاء، وهو قوله: ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾، قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قوله: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ [النجم:١٨]، قال: «**رَأَى جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ**»، متفق عليه، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يُعجزه شيء.

(٢) ﴿مَّا يَفْتَحِ﴾ يعطي ويهب ﴿ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾ من مطر ورزق: ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ فلا يستطيع أحد أن يمنعها.

وفي حديث ابن عباس قال رسول الله ﷺ: «**وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَىٰ أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ**» أخرجه الترمذي.

﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾ من الأرزاق وغيرها: ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُغلب، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في جميع شأنه سبحانه وتعالىٰ.

وفي حديث المغيرة بن شعبة: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ: «**لَا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، اللهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ**»، متفق عليه.

٣ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ نعم الله الكثيرة عليكم، ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بالمطر، ﴿وَ﴾ من: ﴿ٱلأَرْضِ﴾ بالنبات، والجواب أنه لا خالق سواه كما أنه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا إله سواه، ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ تُصرفون عن الهدىٰ إلىٰ الضلالة.

٤ ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ يا محمد: ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ من نوح فمن بعده، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلأُمُورُ﴾ أي: يُرجعون إلىٰ الله فيجازيهم علىٰ أعمالهم، وأمور العباد علىٰ مقتضىٰ إرادة الله الكونية لا خُلف لها ولا تحول.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٨﴾.

٥ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ الساعة، ﴿حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ﴾ لا تفتننكم وتشغلكم، ﴿ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بزخرفها وبهرجها، ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ﴾ يشغلكم ﴿بِاللهِ الْغَرُورُ﴾ قيل: الشيطان، وقيل الأماني، والله المستعان.

٦ ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ يتربص بكم الدوائر، ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ أي: كونوا في عداوة له كما أنه معادٍ لكم فلا تركنوا إليه أبدًا، فلا يُخلص في نصح ولا في وسوسة ولا في توجيه، ومن شأنه: ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ﴾ من يتولاه منهم: ﴿لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ من أصحاب جهنم.

٧ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في جنهم موجع، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ سترٌ وتجاوز، ﴿وَأَجْرٌ﴾ ثواب، ﴿كَبِيرٌ﴾ عظيم واسع.

٨ ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾.

قيل: المُزين هو الله في قول أغلب المفسرين، والآية عامة قال ابن عباس: نزلت في أبي جهل ومشركي مكة، وقال سعيد بن جبير: نزلت في أصحاب الأهواء والبدع، وقال قتادة: منهم الخوارج الذين يستحلون دماء المسلمين وأموالهم، فأما أهل الكبائر فليسوا منهم، وقيل: زينه له الشيطان بالوسواس.

❁ والذي يظهر أن المزين هنا هو الله عَزَّوَجَلَّ، حيث خذلهم ولم يوفقهم، ولو كان الشيطان لأظهر اسمه، والله اعلم.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ يصرفه عن الهُدىٰ لعلمه أنه ليس أهلًا للهداية، ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ يوفقه للخير العظيم؛ لعلمه به، ﴿فَلَا تَذْهَبْ﴾ تهلك ﴿نَفْسُكَ﴾ يا محمد: ﴿عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ يعني: من شدة الهم والحزن فهدايتهم وضلالهم إلىٰ الله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية:٢١-٢٢]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ وهذا علىٰ التهديد.

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝٩ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ۝١٠ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝١١﴾.

٩ ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ مبشرة برحمته، ﴿فَتُثِيرُ﴾ تحرك ﴿سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ يصرفه الله حيث شاء، ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ بعد يباسها، ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ كما أحيا الله الأرض بعد موتها كذلك تُخرجون من قبوركم، وفي حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في مسلم قال رسول الله ﷺ: «**ثُمَّ يُنْزِلُ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ، كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ**»، ثم يُنفخ في الصور: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨].

١٠ ﴿مَن كَانَ﴾ منكم ﴿يُرِيدُ﴾ يطلب: ﴿ٱلْعِزَّةَ﴾ الرفعة في الدنيا والآخرة، ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ يعز من يشاء ممن أطاعه واتقاه، ويذل من يشاء ممن عصاه، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون:٨].

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ﴾ يرفع ﴿ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ ذكر الله، وغيره من الطاعات.

﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ اللهُ إليه، وقيل: العمل الصالح: يرفع الكلم الطيب، قال الحسن وقتادة: الكلم الطيب ذكر الله، والعمل الصالح: أداء فرائضه، فمن ذكر الله ولم يؤدِ فرائضه رُدَّ كلامه علىٰ عمله، وليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال، فمن قال حسنًا وعَمِلَ غير صالح رد الله عليه قوله، ومن قال حسنًا

وعمل صالحًا يرفع العمل ذاك بأن الله يقول: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾.

۞ وفي الآية دليل علىٰ علو الله علىٰ عرشه؛ ولهذا يصعد الكلم الطيب من الأرض إلىٰ السماء.

﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ فيتعاطونها، وهي الشرك فما دونه، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ يوم القيامة، ﴿وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ يبطل ويهلك، فلا تقوم لهم قائمة، كما قال تعالىٰ: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ [المائدة:٦٤]، ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠].

(١١) ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم﴾ آدم ﴿مِّن تُرَابٍ ثُمَّ﴾ خلقكم ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ الماء الدافق، ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ ذكرانًا وإناثًا، ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ سواء كان المحمول ذكرًا أم أنثىٰ، ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ يطول في عمره، ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ أي: من عمر آخر، ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ وهو اللوح المحفوظ.

۞ واعلم أن مافي اللوح المحفوظ لا يتغير، وقيل: المعنىٰ: أن يكون له أجلان في الكتاب الذي بيد الملك أجل إن أطاع الله ووصل رحمه، كما قال النبي ﷺ: **«مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»**، وأجل إن لم يفعل ذلك، فأمت ما في اللوح المحفوظ لا يلحقه تغير ولا تبديل.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ كتابة الآجال والأعمال، والبعث، والنشور وجميع ما كان.

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾.

(١٢) ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ﴾ المالح والعذب، ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ طيب حلو شديد العذوبة ﴿سَآئِغٌ﴾ مريء سهل الانحدار ﴿شَرَابُهُۥ﴾ يتلذذ الناس بمائه، ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ شديد

الملوحة ربما لا يستطيع أن يتمضمض به العبد إلا بشدة، ﴿وَمِن كُلٍّ﴾ من البحر المالح والعذب، ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وهو السمك والحيتان وما كان من البحر المالح فهو ألذ وأطيب.

﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً﴾ قيل: منهما، وقيل: من أحدهما وهو المالح، ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ مثل اللؤلؤ حيث يُخرز ويُطرز وربما وُضِعَ في الملابس وكان عقدًا علىٰ العُنق ونحو ذلك، ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ﴾ السفن: ﴿فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ مَواخِرَ جمع ماخرة علىٰ وزن فاعلة من المخر، وهو الشق الذي يظهر عند جري السفية؛ ﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ من رزقه، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ نعمه فيزيدكم خيرًا إلىٰ خيركم.

﴿١٣﴾ ﴿يُولِجُ﴾ يُدخل: ﴿الَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي الَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ لا يخلفه ولا يتأخر، ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ الذي لا يُعجزه شيء، ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ المُطلق في الدنيا والآخرة، ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ من الأصنام والأوثان، ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ هو اللفافة التي تكون حول نواة التمر.

﴿١٤﴾ ﴿إِن تَدْعُوهُمْ﴾ أي: هذه الأصنام والأوثان، ﴿لَا يَسْمَعُوا﴾ لا يستجيبوا ﴿دُعَاءَكُمْ﴾ طلبكم ﴿وَلَوْ سَمِعُوا﴾ بأذانهم ﴿مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ لعجزهم فهم صمٌ بكم عمي، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ ينكرون عبادتكم لهم فيقولون إنما كانوا يعبدون الجن، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ﴾ يُخبرك، ﴿مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ مُطلع عالم بالأشياء.

﴿۞ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾.

﴿١٥﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ فقرًا مُطلقًا، فالحاجة في الإنسان لازمة كما أن غنىٰ الله عَزَّوَجَلَّ لازم، ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عن خلقه، ﴿الْحَمِيدُ﴾ المحمود: في إحسانه إليهم فعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ قال الله عَزَّوَجَلَّ: «**يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَىٰ أَتْقَىٰ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَىٰ أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا**

نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يُنْقِصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ».

١٦ ومن عظيم قدرته أنه ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ يهلككم أيها الناس؛ بسبب معاصيكم وذنوبكم، ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ لا يعصونه، كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَالَكُم﴾ [محمد:٣٨].

١٧ ﴿وَمَا ذَلِكَ﴾ تبديل الخلق، ﴿عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ بشديد، بل أمره: ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

١٨ ﴿وَلَا تَزِرُ﴾ تحمل، ﴿وَازِرَةٌ﴾ نفس مذنبة، ﴿وِزْرَ﴾ ذنب، ﴿أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ﴾ نفس، ﴿مُثْقَلَةٌ﴾ بذنوبها غيرها: ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ بل ربما فر منه فكلٌ يتعاطىٰ ذنبه، ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ تخوف وتزجر، ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ يخافونه مع أنهم لم يروه، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ المفروضة، ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾ بالأعمال الصالحة: ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ الرجوع والبعث والنشور، وأما المعرض فلا ينتفع بذلك.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾.

١٩ ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ يعني: الجاهل والعالم، والمؤمن والمُشرك.

٢٠ ﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ﴾ الشرك، ﴿وَلَا النُّورُ﴾ التوحيد.

٢١ ﴿وَلَا الظِّلُّ﴾ الهدىٰ، ﴿وَلَا الْحَرُورُ﴾ الردىٰ، وقال المفسرون: الظل: الجنة، والحرور: النار.

٢٢ ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ﴾ أهل الإيمان، ﴿وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ أهل الكفر والإجرام، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ﴾ سمع إجابة وعظة واستفادة، ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ﴾ الكفار الذين حالهم كحال، ﴿مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ الأموات.

❁ **فبهذه الآية استدل العلماء علىٰ أن أهل القبور لا يُسمعون**، لكن قد جاءت أدلة علىٰ أنهم يسمعون ويُحمل علىٰ أنهم يسمعون ما أسمعهم الله إياه كقرع النعال، وسَمِعَ أهل بدر حين خاطبهم النبي ﷺ.

وفي حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي أخرجه مسلم رقم(٢٨٧٤)، وحديث عمرأخرجه رقم(٢٧٨٣) وفيهما: أن رسول الله ﷺ نادىٰ أهل القليب، ثم قال عمر: يا رسول الله، كيف تكلم أجساداً لا أرواح فيها؟ قال: «**ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا شيئاً**».

هذا لفظ حديث عمر رضي الله عنه، وفي لفظ حديث أنس رضي الله عنه، «**ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا**».

وجاء في حديث عائشة عند البخاري رقم(٣٩٧٩)، ومسلم رقم(٩٣٢) وفيه: أن رسول الله ﷺ قام علىٰ القليب، وفيه قتلىٰ بدر من المشركين فقال لهم ما قال: «**إنهم لسيمعون ما أقول**»، إنما قال: «**إنهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول حقاً**»، ثم قرأت: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ [النمل:٨٠]، ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر:٢٢].

وقد أحتج بالحديث الأول طائفة وادعت: أن الأموات يسمعون مطلقاً، وذهبت طائفة أخرىٰ: إلىٰ أنهم لا يسمعون واحتجوا بحديث عائشة، وجعلوا قصة أهل القليب إنما هي معجزة للنبي ﷺ من باب التوبيخ، كما جاء عن قتادة في البخاري رقم(٣٩٧٦) قال: "أحياهم الله حتىٰ أسمعهم قوله توبيخاً وتصغيراً، ونقمة وحسرة وندامة".

وقال القاضي عياض في «إكمال المعلم» (٣/ ٣٧٢): "اعتد بعض الناس بحديث القليب فقال: إن الميت يسمع، وهذا غير صحيح عند أهل الأصول؛ لأن الحياة شرط في السمع فلا يسمع غير حي، وحمل بعض الناس ذلك أنهم أعيدت إليهم الحياة حتىٰ سمعوا تقريعه عليه السلام لهم".اهـ

وهذا القول أظهر من القول الأول، ويؤيده قول قتادة المنقول سابقاً.

وإلىٰ القول بالخصوصية في أهل القليب، ذهب المازري كما نقله عنه النووي في «شرح مسلم» (٧/ ٢٠٦).

وقال الحافظ في «الفتح» تحت باب دعاء النبي ﷺ علىٰ كفار قريش وهلاكهم يوم بدرٍ.

وقال السهيلي (ما محصله): إن في نفس الحديث ما يدل علىٰ خرق العادة بذلك للنبي ﷺ؛ لقول الصحابة له: تخاطب أقوماً قد جيفوا؛ فأجابهم بالقول المتقدم: «**ما أنتم بأسمع لما أقول منهم**».اهـ

وقال أيضاً رحمه الله: في باب ما جاء في عذاب القبر في كلام طويل: وقال ابن التين: لا معارضة بين حديث ابن عمر والآية؛ لأن الموتىٰ لا يسمعون بلا شك، لكن إذا أراد الله إسماع ما ليس من شأنه السمع لا يمتنع.اهـ

قال الألوسي في الآيات البينات في عدم سماع الأموات (٦٨) نقلاً عن السفارني في كتابه «البحور الزاخرة في أحوال الآخرة»: وأنكرت عائشة رضي الله عنها سماع الموتىٰ، وقالت: ما قال رسول الله ﷺ: «إنهم ليسمعون الآن ما أقول» إنما قال: «ليعلمون الآن ما كنت أقول لهم، إنه حق» ثم قرأت قوله تعالىٰ: ﴿إنك لا تسمع الموتىٰ﴾، ﴿وما أنت بمسمع من في القبور﴾.اهـ

قال ابن رجب في «أهوال القبور»: وقد وافق عائشة علىٰ نفي سماع الموتىٰ كلام الأحياء طائفة من العلماء، ورجحه القاضي أبو يعلي من كبار أصحابنا في كتابه «الجامع الكبير» واحتجوا بما احتجت به وأجابوا علىٰ حديث قليب بدر، بما أجابت به عائشة رضي الله عنها، وبأنه يجوز أن يكون ذلك معجزة مختصة بالنبي ﷺ توبيخاً وتصغيراً، ونقمة وحسرة وندامة، وذهبت طوائف من أهل العلم إلىٰ سماع الموتىٰ كلام الأحياء في الجملة.اهـ

والراجح في المسألة أن الموتىٰ لا يسمعون مطلقاً، وإنما يسمعون متىٰ أراد الله إسماعهم كما في أحاديث المسألة وغيرها.

وهذا هو القول الذي تدعمه الأدلة، وأما إسماع أهل القليب فكما تقدم أنه خصيصة للنبي ﷺ أراد بها إهانتهم وتبكيتهم، وزيادة الحسرة عليهم، وراجع إن شئت الآيات البينات في عدم سماع الأموات.

وقال ابن التين لا معارضة بين حديث ابن عمر والآية؛ لأن الموتىٰ لا يسمعون بلا شك، لكن إذا أراد الله تعالىٰ إسماع ما ليس من شانه السماع لم يمتنع، كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ﴾ [الأحزاب:٧٢]. الآية وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت:١١]. الآية. اهـ. توسعت في هذا لتعلم عظيم بُعد عباد القبور عن قول أهل العلم والفهم، والله المستعان.

﴿٢٣﴾ ﴿إِنْ﴾ ما ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ مخوف للعباد من عذاب الله وبطشه ليس عليك هداهم كما قال تعالىٰ ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٧٢].

﴿٢٤﴾ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا محمد: ﴿بِالْحَقِّ﴾ الصدق الثابت، ﴿بَشِيرًا﴾ بالجنة، ﴿وَنَذِيرًا﴾ من النار، ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ﴾ طائفة، ﴿إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ من أنفسهم يبشرهم، وينذرهم إذ أن جميع الرسل اتفقوا في هذا الأمر.

﴿٢٥﴾ ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ يا محمد: ﴿فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وأصحاب مدين، والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات فكذبوهم وأعرضوا عن دعوتهم، ﴿جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الدلائل الواضحات علىٰ صدقهم ونبوتهم، ﴿وَبِالزُّبُرِ﴾ الكتب، ﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ علىٰ التأكيد وإلا فالزبر هي الكتب.

﴿٢٦﴾ ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ﴾ أهلكت، ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ إنكاري عليهم، ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة:٨].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿٢٧﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ السحاب ﴿مَاءً﴾ مطرًا، ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ هذا حلو وهذا مز، وهذا مالح وهذا أبيض وهذا أحمر، ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ﴾ طرق وخطوط التي تكون في الجبال، ﴿بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ يعني: يختلف ألوانها بحسب صخورها، ﴿وَغَرَابِيبُ﴾ طرائق ﴿سُودٌ﴾.

﴿٢٨﴾ ﴿وَ﴾ خلقنا أيضًا، ﴿مِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ كما أنها تختلف في لونها، تختلف في بعض صفاتها وهيئاتها، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما اختلفت ألوان الثمار، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ﴾ يَخاف ربه سبحانه وتعالىٰ: ﴿مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ هذا من التقديم والتأخير: إنما يخشىٰ العلماءُ اللهَ، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ في ملكه، ﴿غَفُورٌ﴾ لعباده.

❁ وفي هذه الآية فضل العلماء علىٰ غيرهم فهم أهل الخشية والخوف من الله عَزَّوَجَلَّ لعلمهم به، وبما له، ولعلمهم بالأوامر والنواهي، وهذا هو الفارق بين علماء السوء وعلماء

الهدىٰ، وقد توسعت بحمد الله في ذكر فضائل العلم والعلماء في غير ما كتاب ومنها "الوسائل الجلية في نصرة الدعوة السلفية".

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿٢٩﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ﴾ يقرؤون مع التدبر ﴿كِتَابَ اللهِ﴾ القرآن، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ المفروضة، ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ الزكاة المكتوبة والصدقات المستحبة، ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ والسر في النفل أفضل والجهر في الزكاة أفضل ﴿يَرْجُونَ﴾ أي: يؤملون عند الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿تِجَارَةً﴾ جزاء أعمالهم: ﴿لَّن تَبُورَ﴾ لا يلحقها كساد ولا هلاك بل ثواب دائم.

فعن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: **«الْجَاهِرُ بِالْقُرْآنِ كَالْجَاهِرِ بِالصَّدَقَةِ، وَالْمُسِرُّ بِالْقُرْآنِ كَالْمُسِرِّ بِالصَّدَقَةِ»** أخرجه أبو داود.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: وذكر منهم: **«وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّىٰ لَا تَعْلَمَ يَمِينُهُ مَا تُنْفِقُ شِمَالُهُ»** متفق عليه، فهؤلاء حالهم أنهم :

﴿٣٠﴾ ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ﴾ يعطيهم الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُجُورَهُمْ﴾ ثوابهم كاملًا موفرًا، ﴿وَيَزِيدَهُم﴾ مع ذلك: ﴿مِّن فَضْلِهِ﴾ أحسانًا إليهم، الحسنة بعشرة أمثالها إلىٰ أضعاف كثيرة ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ﴾ متجاوز عن ذنوبهم، ﴿شَكُورٌ﴾ لأعمالهم يُضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف إلىٰ أضعاف كثيرة.

﴿٣١﴾ ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمد: ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾ القرآن، ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ الصدق الثابت، ﴿مُصَدِّقًا﴾ شاهدًا وموافقًا، ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من التوراة والإنجيل وبقية الكتب، ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ﴾ مُطلع علىٰ أعمالهم الظاهرة والباطنة، ﴿بَصِير﴾ بأفعالهم لا تخفىٰ عليه خافية.

٣٢ ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآن، ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ أمة محمد حيث فضلهم علىٰ بقية الأمم، كما تقدم في تفسير سورة آل عمران، ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ بالتفريط في بعض الواجبات، وارتكاب بعض الكبائر، ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ يأتي بالفرائض وربما قصر في النوافل، ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ المحافظ علىٰ الفرائض والنوافل: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ القدري والشرعي، ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي تقدم من المسابقة إلىٰ الخيرات وميراث الكتاب، ﴿هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ الواسع.

وقد اختلفوا في الظالم اختلافًا كثيرًا؛ لكن هو ما تقدم بيانه، والمراد بهم: أصحاب الكبائر لا الصغائر، أما الصغائر فتكفرها الصلاة والصيام والصدقة.

٣٣ ثم قال مبينًا للفضل الكبير الذي أعد لهم: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ بساتين ﴿عَدْنٍ﴾ إقامة: ﴿يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ﴾ يلبسون ويزينون ﴿فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ﴾ ما يوضع علىٰ المعصم ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ حيث أن الله أباحها للرجال في الجنة وحرمها عليهم في الدنيا، ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ ويُحلون باللؤلؤ، ﴿وَلِبَاسُهُمْ﴾ مع ذلك: ﴿فِيهَا حَرِيرٌ﴾ خالص ناعم، وهو مُحرم علىٰ الرجال في الدنيا ومُباح للمؤمنين في الآخرة.

٣٤ ﴿وَقَالُوا﴾ المؤمنون حين دخولهم الجنة، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ﴾ أزال ﴿عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ حزن الدنيا وهمها، وحزن النار وكربتها، ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ متجاوز، ﴿شَكُورٌ﴾ مضاعف لعباده الحسنات وعظيم الهبات، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَنْعَمُ لَا يَبْأَسُ، لَا تَبْلَىٰ ثِيَابُهُ وَلَا يَفْنَىٰ شَبَابُهُ»** أخرجه مسلم.

٣٥ وله الحمد تعالىٰ فهو ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا﴾ أسكننا، ﴿دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾ التي لا تحول عنها، ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ سبحانه وتعالىٰ من غير حول لهم ولا قوة، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت قال رسول الله ﷺ: **«مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ دَاخِلٌ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ»**، قِيلَ: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: **«وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ»** متفق عليه، فالباء المنفي باء العوض، وفي قوله: ﴿أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:٤٣]، الباء المثبتة باء السبب، ﴿لَا يَمَسُّنَا﴾ يصبنا، ﴿فِيهَا نَصَبٌ﴾ تعب، ﴿وَلَا يَمَسُّنَا﴾ يصيبنا، ﴿فِيهَا لُغُوبٌ﴾ إعياء من التعب، وقال ابن جزي: "النصب تعب البدن، واللغوب تعب النفس".

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَۖ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ٣٦ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ٣٧ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٣٨﴾.

٣٦ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ خالدين فيها، ﴿لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ﴾ فيستريحون، ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ﴾، حتىٰ يومًا واحداً، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر:٤٩]، فما يُخفف عنهم، ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ﴾ كافر يُعذب في النار ويُخلد فيها: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ﴾ [النساء:٥٦].

٣٧ ﴿وَهُمۡ﴾ الكفار، ﴿يَصۡطَرِخُونَ﴾ يستغيثون، ﴿فِيهَا﴾ في النار، ويقولون في صراخهم: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا﴾ منها وأرجعنا إلىٰ الأرض، ﴿نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ﴾ وهيهات: ﴿كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٠]، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٨]، فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ ألم نُطل أعماركم حتىٰ لو أراد أحدكم أن يتذكر تذكر وتاب وأناب، ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ﴾ يخوفكم بطش الله، قيل: الشيب، **والصحيح**: أنه محمد ﷺ، ﴿فَذُوقُواْ﴾ العذاب الأليم ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين ﴿مِن نَّصِيرٍ﴾ ينصرهم وينقذهم مما هم فيه، وفي حديث أبي هريرة عند البخاري: قال رسول الله ﷺ: **«أَعْذَرَ اللهُ إِلَىٰ امْرِئٍ أَخَّرَ أَجَلَهُ، حَتَّىٰ بَلَّغَهُ سِتِّينَ سَنَةً»**، وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند الترمذي قال رسول الله ﷺ: **«أَعْمَارُ أُمَّتِي مَا بَيْنَ السِّتِّينَ إِلَىٰ السَّبْعِينَ، وَأَقَلُّهُمْ مَنْ يَجُوزُ ذَلِكَ»**.

٣٨ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بمعنىٰ: أنه بكل شيء عليم، لا تخفىٰ عليه خافية من المعلومات كما لا يغيب عنه شيء من المبصرات، ولا يفوته شيء من المسموعات.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾.

﴿٣٩﴾ ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ يخلف بعضكم بعضًا، وجعل الأمم تخلف بعضها بعضًا، ﴿فَمَن كَفَرَ﴾ بالله ورسله ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ يُجازىٰ به، ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ﴾ بغضًا، ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ بُعدًا، كما أن المؤمن يزداد بإيمانه قربًا من الله، فالكافر يزداد بكفره بُعدًا من الله.

﴿٤٠﴾ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ أخبروني، ﴿شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ تعبدون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأصنام والأوثان، ﴿أَرُونِى﴾ أخبروني وأعلموني ﴿مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾؟ لم يخلقوا شيئًا؛ لعجزهم بل هم مخلوقون مربوبون، ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾ مشاركة ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مع الله تعالىٰ الله عن ذلك، ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا﴾ من السماء يتعلمون ما فيه ﴿فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ﴾ دلائل ﴿مِّنْهُ﴾ علىٰ أن لهم مشاركة، وأن لهم ملك إلىٰ غير ذلك؟.

﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ الغرور: ما يغر الإنسان مما لا أصل له، قيل: الشيطان، وقيل غير ذلك **وهو الأظهر**.

﴿٤١﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ﴾ يقبض، ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ﴾ تتحرك من أماكنها، ﴿وَلَئِن زَالَتَآ﴾ تحركتا وزلزلتا ﴿إِنْ﴾ ما ﴿أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ غيره؛ لعجزهم، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا﴾ بعباده، فيؤخر العقوبة عنهم لعلهم أن يتوبوا ﴿غَفُورًا﴾ متجاوز؛ ولهذا يُنذر ويُمهل ولا يُعاجل بالعقوبة.

﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾.

﴿٤٢﴾ ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ أي: الكفار، ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ غاية أيمانهم البليغة، ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ رسول ﴿لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ﴾ أطوع وأرشد، ﴿مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ من اليهود والنصارى، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ ينذرهم النار ويخوفهم منها، وهو محمد ﷺ: ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ بُعدًا عن الهدى، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٤- ١٢٥].

﴿٤٣﴾ وفعلوا ذلك ﴿ٱسْتِكْبَارًا﴾ كبراً ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ﴾ بالمؤمنين، ﴿و﴾ مع ذلك ﴿لَا يَحِيقُ﴾ يعود وبال ذلك ﴿ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ﴾ عاقبته عليهم دون غيرهم، ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق:١٥-١٧]، ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ ما ينظرون، ﴿إِلَّا سُنَّتَ﴾ طريقة الله في إهلاك ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الذين خالفوا رسلهم وكفروا بهم ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ﴾ تغييراً في إهلاك المخالفين للرُسل، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾.

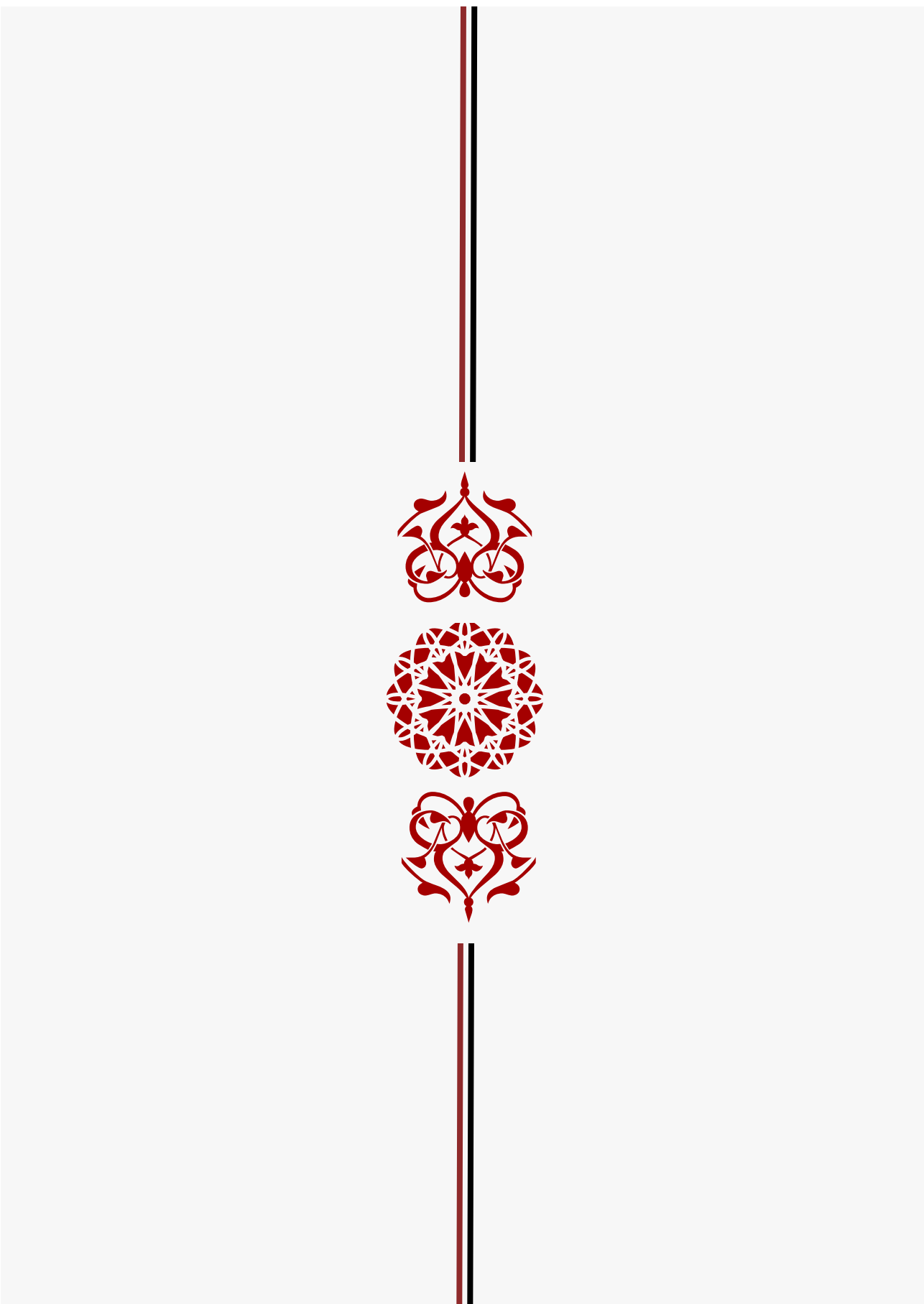
﴿٤٤﴾ ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا﴾ كفار قريش ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ في رحلتهم في شتائهم وصيفهم ﴿فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾ نهاية ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ حيث دمر الله عليهم، ﴿وَكَانُوا﴾ الأمم السابقة ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ﴾ من قريش ﴿قُوَّةً﴾ وأكثر جمعًا، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ لكمال علمه وقدرته، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا﴾ لا يجهل، ﴿قَدِيرًا﴾ لا يعجز.

❁ **والقاعدة عند أهل السنة والجماعة**: أن الصفات السلبية يُثبت بها كمال الضد، والصفة السلبية قد يُثبت بها عدة صفات ثبوتية، فانظر لما نفىٰ العجز أثبت العلم والقدرة، فإن العاجز إما لجهله وإما لعدم قدرته، والله عَزَّوَجَلَّ متصف بكمال العلم وبكمال القدرة.

﴿٤٥﴾ ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ﴾ ويعاجل، ﴿النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا﴾ من الشرك والمعاصي ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ أي: جميع الدواب تهلك بسبب خطايا بني آدم، ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ﴾ يمهلهم ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ﴾ وقت ﴿مُّسَمًّى﴾ وهو يوم القيامة، وقيل: الموت، أو موعد هلاكهم، ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ الوقت المعلوم المحدد، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ مطلعًا، فيجازي أهل الطاعة علىٰ طاعتهم، وأهل الشرك علىٰ إشراكهم، ومن كان من أهل المعاصي فيما دون الشرك فهم تحت المشيئة إن شاء عفا عنهم وإن شاء عذبهم .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

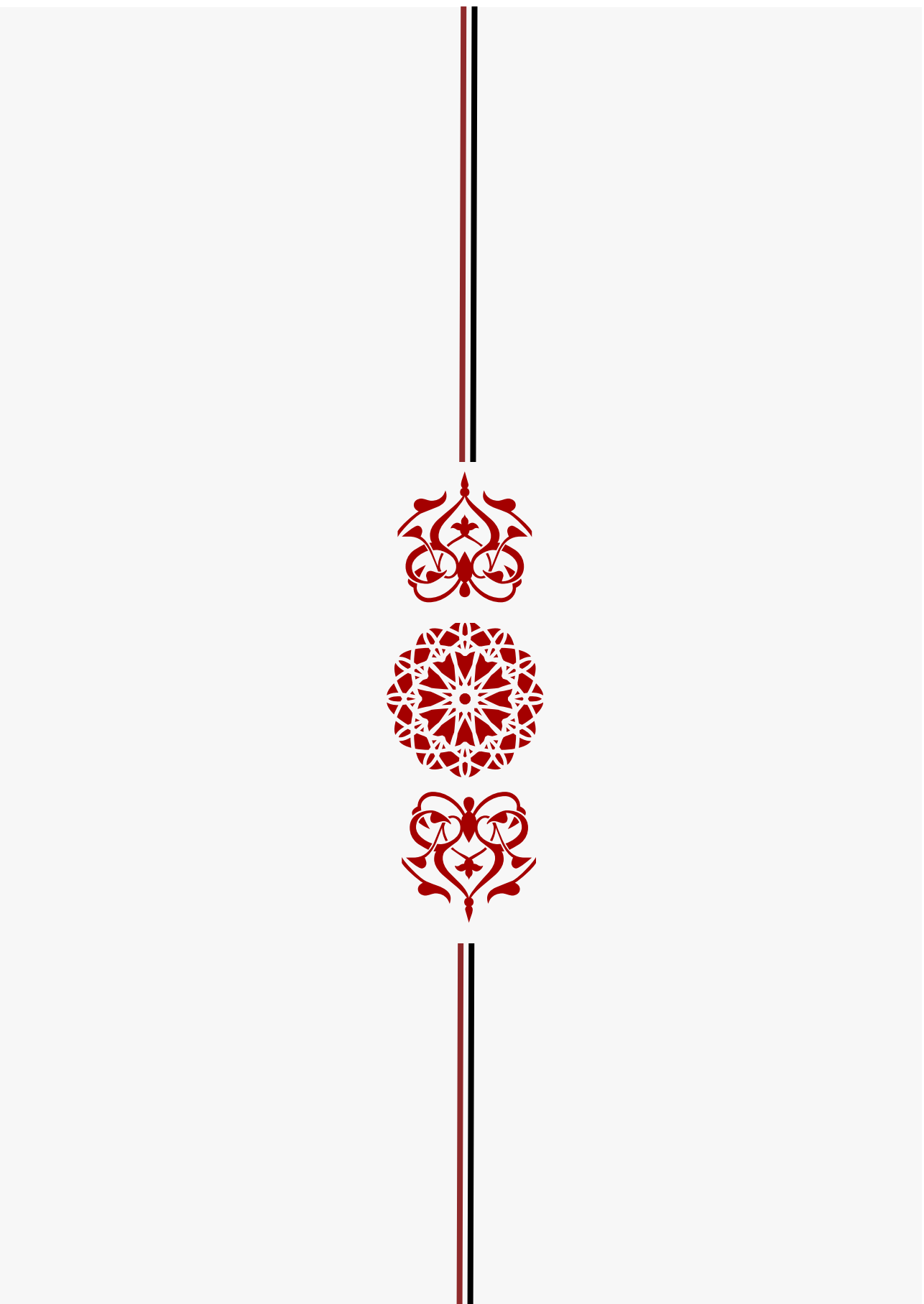
تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ فَاطِرٍ





تَفْسِيرُ سُورَةِ يس





سُورَةُ يس

مَكِّيَّةٌ، وآياتها ثَلَاثَةٌ وَثَمَانُونَ آيَةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝١١ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ۝١٢﴾.

١ ﴿يسٓ﴾ من الأحرف المقطعة التي تقدم الكلام عليها في تفسير سورة البقرة، ويأتي تفسير سورة ق، والقول فيها: أنها أحرف لا معاني لها أنزلها الله عَزَّوَجَلَّ للتنبيه، وقيل: للتحدي والإعجاز، وقال بعضهم: ﴿يس﴾ يا محمد، وقيل: يا رجل، **والصحيح الأول**.

٢ ﴿وَٱلْقُرْءَانِ﴾ أقسم الله عَزَّوَجَلَّ بالقرآن، ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ في خبره، والحكيم في أمره، والحكيم في نهيه وزجره، كما قال تعالىٰ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ **[فصلت:٤٢]**.

٣ ﴿إِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أرسله ربُ العالمين: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ **[الشعراء:١٩٥]**، وبعثه إلىٰ الناس كافة كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ **[الأنبياء:١٠٧]**، وكما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى﴾ **[الأعراف:١٥٨]**.

٤ وإنك يا محمد: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ طريق قويم بيِّن لا اعوجاج فيه.

والصراط ينقسم إلىٰ **صراط حسي:** وهو الجسر الممدود علىٰ متن جهنم، يجوزه المؤمنون يوم القيامة، **وصراط معنوي:** وهو الإسلام ففي حديث النواس بن سمعان:

«فَالصِّرَاطُ: الْإِسْلَامُ» اخرجه احمد، فمن استقام علىٰ الصراط المعنوي استقام علىٰ الصراط الحسي، ومن اعوج في دنياه اعوج في أُخراه.

٥ وهذا الصراط: ﴿تَنزِيلَ﴾ أي: أن الله عَزَّوَجَلَّ أنزله علىٰ محمدٍ ﷺ، ﴿الْعَزِيزِ﴾ الذي لا يُغلب، ﴿الرَّحِيمِ﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء، فمن رحمته: أن أنزل القرآن؛ لإخراج الناس من الظلمات إلىٰ النور.

٦ والحكمة من إنزال هذا القرآن: ﴿لِتُنذِرَ﴾ لتحذر به، ﴿قَوْمًا﴾ وهم أهل مكة، ﴿مَّآ أُنذِرَ﴾ خوف ﴿آبَاؤُهُمْ﴾ فما جاءهم من رسول، ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ عن دعوة الله عَزَّوَجَلَّ.

٧ ثم أخبر عن حال الناس مع الوحي المنزل فقال والله: ﴿لَقَدْ حَقَّ﴾ ثبت ووجب، ﴿الْقَوْلُ﴾ العقاب: ﴿عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾ ممن أشرك وندد، وهذا كقوله: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١]، ﴿فَهُمْ﴾ لذلك ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يستجيبون ولا ينتهون ولا يرعوون، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١].

٨ والسبب في عدم استجابتهم: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾ صيرنا، ﴿فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ جمع غل فصارت الأغلال المعنوية لا الحسية في أعناقهم، والغِل: رد اليد إلىٰ العُنق، ﴿فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ﴾ قد رُفِعت، ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ رفعوا رؤوسهم مع إغماض أعينهم فلا يستفيدون موعظةً ولا ينزجرون عن زاجر.

٩ ﴿وَجَعَلْنَا﴾ صيرنا ﴿مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ أمامهم ﴿سَدًّا﴾ حاجزاً ومانعًا فلا يستجيبون لنداء الله عَزَّوَجَلَّ؛ ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ حاجزا عن الهداية، ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾ غطيناهم بالضلالة، ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ الحق مع ظهور دلائله وحججه.

١٠ ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ﴾ يستوي عند هؤلاء الكفار، ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ خوفتهم وحذرتهم بطش الله، ونقمته، ﴿أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ لم تحذرهم ولم تخوفهم، ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يستجيبون، إذ قد ختم الله عليهم بالضلالة لعلمه بهم.

١١ ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ ينتفع بإنذارك: ﴿مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ القرآن فاستجاب لنداء الحق وأخذ به، ﴿وَخَشِيَ﴾ خاف: ﴿الرَّحْمَٰنَ﴾ مع حبه وتعظيمه وإجلاله، ﴿بِالْغَيْبِ﴾ في حال خلوته لإيمانه بالله خافه واتقاه، وطمع في رضاه، واجتنب مساخطه وما يأباه، ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾

تجاوز عن ذنوبه، ﴿وَأَجْرٍ﴾ ثواب ﴿كَرِيمٍ﴾ حسن حيث يلقاها حسنات مضاعفات في: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩].

۝١٢ ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي﴾ أي: الله عَزَّوَجَلَّ، علىٰ التعظيم ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يوم القيامة، ونبعثهم من قبورهم ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟﴾ في الدنيا من أعمالٍ صالحات أو سيئات كما قال تعالىٰ: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف:٨٠]، ﴿وَ﴾ نكتب، ﴿ءَاثَارَهُمْ﴾ ما بقي بعد موتهم من صالح أعمالهم أو سيئها، فحُفِظت آثارهم خيرها وشرها.

وقيل المراد ﴿مَا قَدَّمُوا۟﴾ أعمالهم التي باشروها بأنفسهم ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ﴾ ما كانت من بعدهم، وهم الدعاة إليها.

وقد أراد بنو سلمة أن ينتقلوا إلىٰ قرب المسجد فقال لهم النبي ﷺ: **«دِيَارَكُمْ تُكْتَبْ آثَارُكُمْ»** أي: الزموا دياركم، ومن أعظم الآثار الباقية: العلوم النافعة التي ينتفع بها العباد فتصحح بها عقائدهم، وتستقيم بها عباداتهم، وتحسن بها معاملاتهم.

۞ فهذه الآية دليل واضح جليٌّ علىٰ فضل العلم وملازمة أهله، وعلىٰ فضل الخطابة والكتابة وغير ذلك من هذه الشؤون.

فعن جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»** أخرجه مسلم، ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾ من الأقوال والأفعال والذوات، ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ حفظناه، ﴿فِىٓ إِمَامٍ﴾ كتاب، ﴿مُّبِينٍ﴾ واضح وهو اللوح محفوظ.

وفي السنة لعبد الله بن أحمد رحمه الله عن أَبُو جَعْفَرٍ الْخَطْمِيُّ، قَالَ: شَهِدْتُ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَقَدْ دَعَا غَيْلَانَ لِشَيْءٍ بَلَغَهُ فِي الْقَدَرِ، فَقَالَ لَهُ: " وَيْحَكَ يَا غَيْلَانُ، مَا هَذَا الَّذِي بَلَغَنِي عَنْكَ؟ قَالَ: يُكْذَبُ عَلَيَّ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَيُقَالُ عَلَيَّ مَا لَمْ أَقُلْ؟ قَالَ: مَا تَقُولُ فِي الْعِلْمِ؟ قَالَ: قَدْ نَفِدَ الْعِلْمُ.، قَالَ: فَأَنْتَ مَخْصُومٌ، اذْهَبِ الْآنَ فَقُلْ مَا شِئْتَ، وَيْحَكَ يَا غَيْلَانُ، إِنَّكَ إِنْ أَقْرَرْتَ بِالْعِلْمِ خُصِمْتَ وَإِنْ جَحَدْتَهُ كَفَرْتَ، وَإِنَّكَ إِنْ تُقِرَّ بِهِ فَتُخْصَمَ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَجْحَدَهُ فَتُكَفَّرَ، ثُمَّ قَالَ: تَقْرَأُ يَاسين؟ قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ: اقْرَأْ ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ [يس: ١-٢]، إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ٧] قَالَ: قِفْ، كَيْفَ تَرَىٰ؟ قَالَ: كَأَنِّي لَمْ أَقْرَأْ هَذِهِ الْآيَةَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ: زِدْ، فَقَرَأَ ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ

أَغْلَلًا فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [يس: ٨-٩]، قَالَ: قَالَ عُمَرُ رَحِمَهُ اللهُ: قُلْ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾ [يس: ٩-١٠].

قَالَ: كَيْفَ تَرَىٰ؟ " قَالَ: كَأَنِّي لَمْ أَقْرَأْ هَذِهِ الْآيَاتِ قَطُّ، وَإِنِّي لَأُعَاهِدُ اللهَ أَنْ لَا أَتَكَلَّمَ فِي شَيْءٍ مِمَّا كُنْتُ أَتَكَلَّمُ فِيهِ أَبَدًا، قَالَ: " اذْهَبْ، فَلَمَّا وَلَّىٰ، قَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ كَاذِبًا فِيمَا قَالَ فَأَذِقْهُ حَرَّ السِّلَاحِ، قَالَ: فَلَمْ يَتَكَلَّمْ زَمَنَ عُمَرَ رَحِمَهُ اللهُ، فَلَمَّا كَانَ زَمَنَ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ جَاءَ رَجُلٌ لَا يَهْتَمُّ لِهَذَا وَلَا يَنْظُرُ فِيهِ، فَتَكَلَّمَ غَيْلَانُ، فَلَمَّا وُلِّيَ هِشَامٌ، أَرْسَلَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: أَلَيْسَ قَدْ عَاهَدْتَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ لِعُمَرَ أَنْ لَا تَتَكَلَّمَ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ أَبَدًا، ؟ قَالَ: أَقِلْنِي فَوَاللهِ لَا أَعُودُ، قَالَ: لَا أَقَالَنِي اللهَ إِنْ أَقَلْتُكَ، هَلْ تَقْرَأُ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَاقْرَأْ، فَقَرَأَ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قَالَ: قِفْ عَلَامَ اسْتَعَنْتَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ بِيَدِهِ لَا تَسْتَطِيعُهُ إِلَّا بِهِ، أَوْ عَلَىٰ أَمْرٍ فِي يَدِكَ أَوْ بِيَدِكَ؟ اذْهَبُوا بِهِ فَاقْطَعُوا يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ، وَاضْرِبُوا عُنُقَهُ، وَاصْلُبُوهُ ".

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿١٣﴾ ﴿وَاضْرِبْ﴾ واجعل، ﴿لَهُم﴾ لأهل مكة، ﴿مَّثَلًا﴾ لعلهم يتعظون وينزجرون إذا سمعوه، ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ بلدة من البلدان الله أعلم ما هي، وذكر أهل التفسير أنها إنطاكية ﴿إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ الذين أرسلهم الله عَزَّوَجَلَّ إليهم.

﴿١٤﴾ ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ﴾ يدعونهم إلىٰ التوحيد وملازمة طاعة رب العبيد، ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ ردوا دعوتهما وأعرضوا عنهما، ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ أمددناهم ﴿بِثَالِثٍ﴾ حتىٰ تظهر الحجج البينات الواضحات لعلهم يستجيبون، ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ أي: الرُسل لهؤلاء المخالفين، ﴿إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ من رب العالمين.

١٥ ﴿قَالُوا﴾ الكفار المعرضون المخالفون، كيف أوحىٰ إليكم و ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ والجواب أن الله عَزَّوَجَلَّ أرسل الرُسل من البشر، كما قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ﴾ [التغابن: ٦]، ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ إلينا، ﴿مِن شَىْءٍ﴾ من وحي، ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ في دعواكم أنكم مرسلون.

١٦ ﴿قَالُوا﴾ رسلهم، ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ ولو علم الله عَزَّوَجَلَّ كذبنا لأهلكنا ودمرنا ودمدم علينا، فهذا القول منهم إشعار بأن الله عَزَّوَجَلَّ لا يرضىٰ أن يُكذب عليه كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة:٤٤-٤٦].

١٧ ﴿وَمَا عَلَيْنَآ﴾ واجب ومتعين، ﴿إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ التبليغ لدين الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ الواضح الجلي، والحال كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص:٥٦].

١٨ ﴿قَالُوٓا﴾ قومهم ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا﴾ تشاءمنا ﴿بِكُمْ﴾ وبدعوتكم، وما جاءنا إلا الشر منذ رأيناكم، ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ﴾ تكفوا عن دعوتكم لنا، ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ رميناكم بالحجارة وهو أشد أنواع الموت، ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم﴾ يصيبنكم، ﴿مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ موجع.

١٩ ﴿قَالُواْ﴾ رسلهم: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ شؤمكم، وخيركم وشركم معكم ليس نحن الذين جئنا به، أتقولون هذا القول بسبب: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُمْ﴾ ذكرناكم وأرشدناكم إلىٰ الحق والهدىٰ، ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ معرضون متجاوزون لأمر الله واقعون في المعاصي والسيئات فجاءكم الشؤم من قِبل أنفسكم؛ لأن السيئات تجر إلىٰ البلاوي الكثيرات كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورىٰ:٣٠].

﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

٢٠ ﴿وَ﴾ لما ردوا دعوتهم وسمع بعض أهل الصلاح بهم: ﴿جَاء مِنْ أَقْصَا﴾ أبعد مكان في ﴿ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ يسرع في مشيه لنصح قومه، واسمه فيما يذكرون حبيب النجار والله أعلم، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فيما أمروكم به من توحيد ربكم ونهوكم وزجروكم من الشرك وغيره.

٢١ ﴿ٱتَّبِعُوا﴾ تابعوا: ﴿مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ﴾ يطلبكم، ﴿أَجْرًا﴾ مالًا وثوابًا، وقد يقول قائل: قد يدعوك إلىٰ الضلالة ولا يسألك أجرًا، فرد هذا بقوله: ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ في دعوتهم لكم إلىٰ الحق والصلاح، فمثلهم يطاعون.

٢٢ وكأنهم أنكروا عليه: كيف تتبع هؤلاء؟ قال: ﴿وَمَا لِيَ﴾ ما الذي يمنعني أن ﴿لَآ أَعْبُدُ﴾ أوحد، ﴿ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ خلقني وهو الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تبعثون يوم القيامة فيجازيكم علىٰ أعمالكم.

٢٣ ﴿ءَأَتَّخِذُ﴾ استفهام بمعنىٰ الإنكار ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ غيره ﴿ءَالِهَةً﴾ من الأصنام والأوثان أعبدها وأرجوها وهي عاجزة صماء بكماء، ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾ بشرٍ أو قحطٍ أو فقر أو مرض، ﴿لَّا تُغْنِ﴾ لا تمنع ﴿عَنِّي شَفَٰعَتُهُمْ﴾ لعجزها؛ ولأن الله عَزَّوَجَلَّ لم يأذن لها كما قال تعالىٰ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥]، ﴿شَيْـًٔا﴾ حقيرًا أو كبيرًا، ﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾ يسلموني مما أنا فيه من الشدة، إنما الأمر لله سبحانه وتعالىٰ، فهذا حال الأصنام وحال عابديها معها، وهكذا حال القبور المعبودة من دون الله وحال عابديها معها لا تغني عن أصحابها شيئًا، ولكن تلبيس الشياطين عليهم.

٢٤ ﴿إِنِّيٓ إِذًا﴾ إن اتبعتكم فيما تدعوني إليه، ﴿لَّفِى ضَلَٰلٍ﴾ خطأ وهلاك، ﴿مُّبِينٍ﴾ واضح بين ظاهر.

٢٥ ثم قال قولته المشهورة: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ﴾ أقررت وأيقنت، ﴿بِرَبِّكُمْ﴾ الذي خلقكم ﴿فَٱسْمَعُونِ﴾ أي اسمعوا قولي.

وعند ذلك تمالؤوا عليه وقتلوه، وقيل بأن الخطاب كان لرسل الله عَزَّوَجَلَّ واستظهره ابن كثير.

(٢٦) فكان إكرام الله عَزَّوَجَلَّ له أن: ﴿قِيلَ﴾ له ﴿ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾ معززًا مكرمًا متفضلًا عليك بأنواع الكرامات والهبات، ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ﴾ يطلعون: وهذا من أعظم النصح والدعوة إلىٰ الله: أنه بعد موته وحين أكرمه الله عَزَّوَجَلَّ بالجنة يقول هذا.

(٢٧) ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ بغفران ذنوبي وستر عيوبي، ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ في جنات النعيم مع: ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء:٦٩].

وفي الآية دليل علىٰ نعيم القبر للمؤمنين، وما في القبر من النعيم والعذاب، أمر مجمع عليه، مع دلالة الكتاب والسنة، ولا ينكره إلا مطموس البصيرة.

الجزء الثالث والعشرون

﴿ ۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ٢٨ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ٢٩ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٠ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ٣١ وَإِن كُلٞ لَّمَّا جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ٣٢ ﴾.

(٢٨) ثم عاجلهم الله بعقوبته، ولم يبعث إليهم غيرهم وإنما قال: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ملكًا لإهلاكهم فشأنهم أيسر من ذلك: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ ملائكة لإنذارهم.

(٢٩) ﴿إِن﴾ ما ﴿كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ صوت عظيم قطع أفئدتهم وأُهلِكوا به، ﴿فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ﴾ خمدت أرواحهم، وأجسامهم فلا تجد لهم حركة.

(٣٠) ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾ قيل: بأن هذا قول الله عَزَّوَجَلَّ، وقيل: بأنه قول العباد يتحسرون علىٰ أنفسهم يوم القيامة، وقيل المعنىٰ يا ويل العباد وأيٍ كان فالحسرة لاحقة للعباد الذين لم يستجيبوا لأمر الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ يدعوهم إلىٰ الله ويحذرهم من بطشه وعذابه، ﴿إِلَّا كَانُواْ﴾ الكفار، ﴿بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ يسخرون ويعرضون كما قال من قال: ما رأينا أسمن بطونًا ولا أجبن عند اللقاء من أصحاب محمد ﷺ فأنزل الله: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ٦٥ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ ٦٦﴾ [التوبة:٦٥-٦٦].

۞ وهذه طبيعة المخالفين: أنهم يستهزئون بالمستقيمين في كل وقت وحين، ففي هذا الزمان ربما يتهمون أهل السنة الذين يقبلون علىٰ الخير: تارة بأنهم متشددون، وأنهم

تكفيريون، مع إنكار أهل الحق علىٰ التكفيريين، والخوارج المخالفين، وتارة كذا، وكذا فهذه سنة سائرة في كل من دعا إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، فما علىٰ الداعي إلا أن يصبر ويحتسب ويُرفق بالناس في دعوتهم إلىٰ الخير.

٣١ ثم يقول الله عَزَّوَجَلَّ مهددًا لأهل مكة: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ ألم يُخبروا، ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ دمرنا ﴿قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ الخاليات والأمم السالفات، كما قال تعالىٰ: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٠]، ﴿أَنَّهُمْ﴾ أي: الأمم الخالية، ﴿إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ لا يعودون وإنما يبعثون يوم القيامة فيجازيهم الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ أعمالهم.

٣٢ وبيانه: ﴿وَإِن كُلٌّ﴾ أي: هذه الأمم السالفة، ﴿لَّمَّا جَمِيعٌ﴾ كلهم، ﴿لَّدَيْنَا﴾ يوم القيامة، ﴿مُحْضَرُونَ﴾ مع أعمالهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝٥١ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٢﴾ [يس:٥١-٥٢].

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ۝٣٣ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ۝٣٤ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۝٣٥ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٦ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ۝٣٧ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٣٨ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ۝٣٩ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٤٠ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝٤١ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ۝٤٢ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ۝٤٣ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ۝٤٤﴾.

٣٣ ﴿وَءَايَةٌ﴾ علامة وحجة ﴿لَّهُمُ﴾ علىٰ البعث والنشور، ﴿ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ الجدباء التي لا مطر فيها ولا نبات، ﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾ بإنزال المطر، ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ متراكبًا، ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ ويطعمون، ويأكلون أيضًا دوابهم.

(٣٤) ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ في هذه الأرض، ﴿جَنَّاتٍ﴾ بساتين وافرة، ﴿مِن نَّخِيلٍ﴾ قد ارتفعت سوقه وآتىٰ ثماره، ﴿وَأَعْنَابٍ﴾ لذيذات ومتنوعات في أكلهن، ﴿وَفَجَّرْنَا﴾ شققنا ﴿فِيهَا﴾ في الأرض ﴿مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ الأنهار والآبار التي يسقون بها مزارعهم.

(٣٥) وكل هذا ﴿لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ﴾ قوتنا وفواكه مما يخرج من هذه الأشجار، ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ ما صنعته أيديهم من مأكولات أو نحو ذلك، وقيل هذا علىٰ النفي أي: ليأكلوا من ثمر هذه الأشجار، ولم تعمله أيديهم، وإنما هو صنع الله عَزَّوَجَلَّ، وهو اختيار ابن جرير ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ نعمة الله عَزَّوَجَلَّ عليهم، ومن شكر الله عَزَّوَجَلَّ: فعل المأمور وترك المحظور.

(٣٦) ﴿سُبْحَانَ﴾ تنزيه لله عَزَّوَجَلَّ، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَاجَ﴾ الأصناف، ﴿كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ هذا مز، وهذا حلو، وهذا حامض، وهذا مر، ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ هذا صالح وهذا طالح، وهذا بر وهذا فاجر، وهذا ذكر وهذا أنثىٰ ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ من المخلوقات.

(٣٧) ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ﴾ علامة وحجة علىٰ وجود الله عَزَّوَجَلَّ وقدرته ﴿ٱللَّيْلُ﴾ العظيم والآية التي تغطي الأرض، ﴿نَسْلَخُ﴾ ننزع ﴿مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ الضياء المبصر، ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ وهكذا تزال الظلمة فإذا هم مبصرون.

(٣٨) ﴿وَ﴾ من آياته العظام الدالة علىٰ قدرته وقوته ﴿ٱلشَّمْسُ﴾ المشرقة المحرقة حيث ﴿تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ ومستقرها تحت العرش كما في حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ؟»**، قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: **«فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّىٰ تَسْجُدَ تَحْتَ العَرْشِ، فَتَسْتَأْذِنَ فَيُؤْذَنُ لَهَا وَيُوشِكُ أَنْ تَسْجُدَ، فَلاَ يُقْبَلَ مِنْهَا، وَتَسْتَأْذِنَ فَلاَ يُؤْذَنَ لَهَا يُقَالُ لَهَا: ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَطْلُعُ مِنْ مَغْرِبِهَا»** متفق عليه، فعند ذلك تقوم الساعة، ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الجريان، ﴿تَقْدِيرُ﴾ قدره، ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الذي لا يُغلب، ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ بكل شيء ومنها العلم بمصالح للعباد.

وفي هذا رد علىٰ أصحاب الهيئة الجديدة، الذين يزعمون أن الشمس ثابتة، والأرض تدور، مخالفين للأدلة الصريحة الصحيحة، والله المستعان.

(٣٩) ﴿وَ﴾ من آياته ﴿ٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ ثمانية وعشرين منزلة، يبدأ هلالاً، ثم يكبر حتىٰ يصير بدرًا، ثم يرجع حتىٰ يصير هلالًا ثم يكون محاقًا، فيعلم الناس به الحساب وما هو من

شأنهم، كما قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا﴾ [يونس: ٥].

فَجَعَلَ الشَّمْسَ لَهَا ضَوْءٌ يَخُصُّهَا، وَالْقَمَرَ لَهُ نُورٌ يَخُصُّهُ، وَفَاوَتَ بَيْنَ سَيْرِ هَذِهِ وَهَذَا، فَالشَّمْسُ تَطْلُعُ كُلَّ يَوْمٍ وَتَغْرُبُ فِي آخِرِهِ عَلَىٰ ضَوْءٍ وَاحِدٍ، وَلَكِنْ تَنْتَقِلُ فِي مَطَالِعِهَا وَمَغَارِبِهَا صَيْفًا وَشِتَاءً، يَطُولُ بِسَبَبِ ذَلِكَ النَّهَارُ وَيَقْصُرُ اللَّيْلُ، ثُمَّ يَطُولُ اللَّيْلُ وَيَقْصُرُ النَّهَارُ، وَجَعَلَ سُلْطَانَهَا بِالنَّهَارِ فَهِيَ كَوْكَبٌ نَهَارِيٌّ.

وَأَمَّا الْقَمَرُ فَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ يَطْلُعُ فِي أَوَّلِ لَيْلَةٍ مِنَ الشَّهْرِ ضَئِيلًا قَلِيلَ النُّورِ، ثُمَّ يَزْدَادُ نُورًا فِي اللَّيْلَةِ الثَّانِيَةِ وَيَرْتَفِعُ مَنْزِلَةً، ثُمَّ كُلَّمَا ارْتَفَعَ ازْدَادَ ضِيَاءً وَإِنْ كَانَ مُقْتَبَسًا مِنَ الشَّمْسِ حَتَّىٰ يَتَكَامَلَ نُورُهُ فِي اللَّيْلَةِ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ، ثُمَّ يَشْرَعُ فِي النَّقْصِ إِلَىٰ آخِرِ الشَّهْرِ. أفاده ابن كثير

﴿حَتَّىٰ عَادَ﴾ صار القمر ﴿كَٱلْعُرْجُونِ﴾ العذق ﴿ٱلْقَدِيمِ﴾ اليابس.

ولهذا لا يُسمىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بالقديم؛ لأن القديم قبله قديم، وإنما يُسمىٰ بالأول الذي ليس قبله شيء، وأما الوصف بالقدم فلا حرج منه ومنه قول النبيّ ﷺ: **«أعوذُ باللهِ العظيمِ، وبوجهِهِ الكريمِ، وسُلطانِه القديمِ، من الشَّيطانِ الرَّجيمِ»**. أخرجه أبو داود، عن عبد الله بن عَمرو بن العاص.

(٣٩) ومع هذا التتابع: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ﴾ تلحق، ﴿ٱلْقَمَرَ﴾ فلكل سلطانه، ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ﴾ بل يتعاقبان بأمر الله عز جل، فلا يتعاقب ليلان حتىٰ يكون بينهما نهار ﴿وَكُلٌّ﴾ من الشمس والقمر والنجوم المسخرات، ﴿فِى فَلَكٍ﴾ يعني: المكان الذي تجري فيه كالشكل البيضاوي كما يذكر شيخ الإسلام وغيره، ﴿يَسْبَحُونَ﴾ يجرون.

(٤١) ﴿وَءَايَةٌ﴾ علامة وعظة وذكرىٰ، ﴿لَّهُمْ﴾ للكفار، ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قيل: المراد بالذرية هنا: الآباء، إذ أن الله عَزَّوَجَلَّ حملهم في سفينة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، واستبعد هذا القول السعدي رحمه الله قال: لأن هذا خلاف ظاهر القرآن، فالذرية تُطلق ويراد بها الأبناء، أو تُطلق ويراد بها أنفسهم، فيقول: بأن الله حملهم: ﴿فِى ٱلْفُلْكِ﴾ السفينة الكبيرة، ﴿ٱلْمَشْحُونِ﴾ المملوء بالركاب، بما ينتفع به العباد من البضاعات وغيرها، فقد سخر الله من الفُلك في هذا الزمن ما لم يكن في الزمن الماضي، فكانت السفن تجري علىٰ الأشرعة وعلىٰ الأجداف، وتمشي علىٰ الريح، أما الآن فقد صنعت سفن عملاقة تشتغل بالنار وبالمواد البترولية ونحو ذلك فصارت تحمل الأطنان العظيمة.

﴿٤٢﴾ ﴿وَخَلَقْنَا﴾ أوجدنا، ﴿لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ من مثل سفينة نوح سفن كثيرة، وقيل: الإبل، ويدخل فيه أيضًا ما خلقه الله عَزَّوَجَلَّ من الطائرات، والسيارات، والقطارات وأنواع ما يُركب، ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾ عليه ويحملون معهم أمتعتهم وحوائجهم.

﴿٤٣﴾ ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ في هذه السفن، حيث تتحطم في أوساط البحار، ﴿فَلَا صَرِيخَ﴾ منقذ ﴿لَهُمْ﴾ من هذه الضيقة، ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ مما أصابهم، وقيل: لا يسمعهم أحد حتىٰ وإن صرخوا ونادوا وطلبوا العون قد لا يستطيع أحد أن ينقذهم إلا أن يشاء الله عَزَّوَجَلَّ، وهكذا في باب الطائرات كم من حوادث يهلك فيها المئات، فهو الذي يحفظ هذا الكائن العظيم في ذلك الجو الفسيح وإلا لتاهت وضاعت وهلك من فيها.

﴿٤٤﴾ ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾ إلا أن نرحمهم من الغرق، يعني: إنقاذهم، ﴿وَ﴾ يتمتعون بعد ذلك الإبحار، ﴿مَتَاعًا﴾ تمتع، ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ زمن يأتيهم الموت.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿٤٥﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ للكفار، ﴿ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ الآخرة، ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ الدنيا، ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ يرحمكم الله عَزَّوَجَلَّ بسبب فعلكم للمأمور وترككم للمحظور؛ لكنهم لم يفعلوا ذلك.

﴿٤٦﴾ فحالهم ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ﴾ حجة شرعية أو كونية، ﴿مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ الدالة علىٰ قدرته وتوحيده، ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ غير مستجيبين، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١]،

فلا ينتفعون بموعظة ولا ينتفعون بذكرىٰ، بل الإعراض شعارهم ودثارهم: وانظر إلىٰ هذا لمثل البليغ الذي وصف الله عَزَّوَجَلَّ به الكفار في حال إعراضهم عن الكتاب والسنة: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ﴾ [المدثر:٥٠]، حمير وحش في الصحراء، ﴿مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ [المدثر:٥٠]، جعلت تفر، وفرارها ذلك: ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر:٥١]، من الأسد، فهم يفرون من كلام الله وكلام رسوله ﷺ كفرار الحُمر الوحشية من الأُسُد.

(٤٧) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ للكفار ﴿أَنفِقُوا﴾ في أوجه الخيرات والمبرات بإعطاء المساكين والمحتاجين، ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أعطاكم الله ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مستكبرين مستهزئين، ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بمحمد ﷺ، ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ ووسع عليه.

فاستدلوا بالمشيئة ولا دلالة لهم فيها، فإن الله عَزَّوَجَلَّ قد أمر بطاعته ومرضاته وسلوك سُبل الهداية، فالواجب عليهم أن يلتزموا المأمور وأن يتركوا المحظور، ثم إن وقع أحدهم في معصية تاب وأناب ولا حرج عند ذلك أن يقول: شاء الله وفعل، ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ ما أنتم يا معاشر المسلمين بأمرنا بالإنفاق علىٰ هؤلاء المساكين، ﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ خطأ ﴿مُّبِينٍ﴾ ظاهر إذ تسألوننا هذا السؤال، وقيل: بأن القائل أهل الإسلام قالوا للكافرين: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ في هلاك وبعد بين واضح.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

(٤٨) ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: الكفار من باب المكابرة والإعراض، ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ الساعة؟ قالوا ذلك استعجالًا أو تكذيبًا، كما قال تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقد قال تعالىٰ: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ﴾ [الشورىٰ: ١٨] ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ يا معشر المسلمين في قولكم أن ثمت بعث ونشور.

(٤٩) فكان الجواب: ﴿مَا يَنظُرُونَ﴾ ينتظرون، ﴿إِلَّا صَيْحَةً﴾ نفخة ﴿وَاحِدَةً﴾ في الصور، ﴿تَأْخُذُهُمْ﴾ تهلكهم.

فعن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ يقول: «**كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الصُّورِ قَدِ الْتَقَمَ الصُّورَ، وَحَنَىٰ جَبْهَتَهُ، وَأَصْغَىٰ سَمْعَهُ، يَنْتَظِرُ مَتَىٰ يُؤْمَرُ**» أخرجه الترمذي وغيره، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [الحاقة: ١٣]، وإذا هم قد هلكوا جميعًا، وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال النبي ﷺ: «**ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّوَرِ فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدُهُمْ إِلَّا أَصْغَىٰ لِيتًا**

وَرَفَعَ لِيتًا، قَالَ: فَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ، قَالَ: فَيَصْعَقُ ثُمَّ يَصْعَقُ النَّاسُ» أخرجه مسلم.

﴿تَأْخُذُهُمْ﴾ تُهلكهم، ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ في حال خصام، أي يتشاجرون ويتخاصمون في أسواقهم ونواديهم ولهذا قال النبي ﷺ: **«لَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا عَلَىٰ شِرَارِ الْخَلْقِ»** أخرجه مسلم عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال العلماء: يكثر الخصام في آخر الزمان سواء في المسائل العلمية أو العملية، فبينما هم يختصمون في أسواقهم أو في معايشهم إذ نفخ في الصور، فهلكوا.

٥٠ ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ عند ذلك، ﴿تَوْصِيَةً﴾ كتابة وصية، ﴿وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ لتفقد أحوالهم، فإذا هلكوا جاءت الصعقة الثانية.

٥١ ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ بها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، ﴿فَإِذَا هُم﴾ الأموات، ﴿مِّنَ الْأَجْدَاثِ﴾ القبور، ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ يخرجون مسرعين، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج:٤٣]، وكقوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ۝١٤﴾ [النازعات:١٣-١٤].

والذي ينفخ في الصور هو إسرافيل عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال النبي ﷺ: ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ - أَوْ قَالَ يُنْزِلُ اللهُ - مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ أَوِ الظِّلُّ - نُعْمَانُ الشَّاكُّ - فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَىٰ، فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ، وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ، قَالَ: ثُمَّ يُقَالُ: أَخْرِجُوا بَعْثَ النَّارِ، فَيُقَالُ: مِنْ كَمْ؟ فَيُقَالُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، قَالَ فَذَاكَ يَوْمَ يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا، وَذَلِكَ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ "أخرجه مسلم.

٥٢ وعند رؤية ما كانوا يكذبون به ﴿قَالُوا﴾ يا حسرتنا، متألمين علىٰ أنفسهم ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ من الويل، ﴿مَنْ بَعَثَنَا﴾ أخرجنا، ﴿مِن مَّرْقَدِنَا﴾ قبورنا.

قال بعض أهل العلم: إن الله عَزَّوَجَلَّ يرفع عنهم العذاب قبل قيام الساعة، قال قتادة وأبي بن كعب والحسن ومجاهد: ينامون قبل البعث، قال قتادة: وذلك بين النفختين.

وقال بعض أهل العلم: المراد به مرقد بالنسبة للآخرة؛ لأنهم حين يرون ما في الآخرة من الأهوال وشدة العذاب يرون أن القبر مع ما فيه من العذاب مرقدًا، فلا حجة للمعتزلة ومن إليهم من الرافضة في إنكار عذاب القبر والحياة البرزخية بهذه الآية؟

وهب أن هذه الآية مُشكِلةٌ فُترد إلىٰ المُحكمات من قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦].

وعذاب القبر ثابت بالكتاب والسنة الإجماع، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٠]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾ [الواقعة:٨٨-٩٤].

وفي الأدعية المأثورة: **«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَمِنْ عَذَابِ النَّارِ، وَمِنْ فِتْنَةِ المَحْيَا وَالمَمَاتِ، وَمِنْ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ»**.

فكان الجواب من المؤمنين أو الملائكة علىٰ قولهم: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا﴾، ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ في كتابه.

وذكر اسم الرحمن دون غيره؛ لأن في ذلك اليوم تتمحض رحمات الله عَزَّوَجَلَّ لعباده المؤمنين، فعن سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: **«إِنَّ لِلَّهِ مِائَةَ رَحْمَةٍ، فَمِنْهَا رَحْمَةٌ بِهَا يَتَرَاحَمُ الْخَلْقُ بَيْنَهُمْ، وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ»** اخرجه مسلم، فهو الرحمن يرحم عباده ويُكرمهم بدخول الجنة والتجاوز عن سيئاتهم وزلاتهم ورفع درجاتهم، ﴿وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ في تبليغهم لهذا الأمر إذ أنهم حذروا قومهم مما سيكون بعد البعث والنشور، فأبىٰ الكافرون إلا الإعراض.

﴿إِن كَانَتْ﴾ ما كانت هذه النفخة: ﴿إِلَّا صَيْحَةً﴾ نفخة، ﴿وَاحِدَةً﴾ في ذلك القرن العظيم الذي خلقه الله عَزَّوَجَلَّ فينفُخ فيه إسرافيل، ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ﴾ جميع المكلفين ﴿لَّدَيْنَا﴾ عندنا ﴿مُحْضَرُونَ﴾ أُحضِروا مع أعمالهم، أي: حيث يجمع الله عَزَّوَجَلَّ الأولين والآخرين بل والدواب، ثم يُقضىٰ بين العباد، فيقال للدواب: كوني ترابًا، وأما أهل التكليف من الجن والإنس فإنهم يُجازون علىٰ أعمالهم.

٥٤ ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ يوم القيامة، ﴿لَا تُظْلَمُ﴾ تنقص، ﴿نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ لأن الله عَزَّوَجَلَّ حكم عدل، يقول: ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر:١٧]، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦]، ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ﴾ في آخرتكم، ﴿إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في دنياكم، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

فعلىٰ الإنسان أن يُعد لنفسه، بالعمل الصالح قبل أن يأتِ ذلك اليوم ويقول: كنت وكنت، كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**فَيَلْقَىٰ الْعَبْدَ، فَيَقُولُ: أَيْ فُلْ أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ فَيَقُولُ: بَلَىٰ، قَالَ: فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي، ثُمَّ يَلْقَىٰ الثَّانِيَ فَيَقُولُ: أَيْ فُلْ أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ، وَتَرْبَعُ، فَيَقُولُ: بَلَىٰ، أَيْ رَبِّ فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي، ثُمَّ يَلْقَىٰ الثَّالِثَ، فَيَقُولُ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ آمَنْتُ بِكَ، وَبِكِتَابِكَ، وَبِرُسُلِكَ، وَصَلَّيْتُ، وَصُمْتُ، وَتَصَدَّقْتُ، وَيُثْنِي بِخَيْرٍ مَا اسْتَطَاعَ، فَيَقُولُ: هَاهُنَا إِذًا، قَالَ: ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: الْآنَ نَبْعَثُ شَاهِدَنَا عَلَيْكَ، وَيَتَفَكَّرُ فِي نَفْسِهِ: مَنْ ذَا الَّذِي يَشْهَدُ عَلَيَّ؟ فَيُخْتَمُ عَلَىٰ فِيهِ، وَيُقَالُ لِفَخِذِهِ وَلَحْمِهِ وَعِظَامِهِ: انْطِقِي، فَتَنْطِقُ فَخِذُهُ وَلَحْمُهُ وَعِظَامُهُ بِعَمَلِهِ، وَذَلِكَ لِيُعْذِرَ مِنْ نَفْسِهِ، وَذَلِكَ الْمُنَافِقُ وَذَلِكَ الَّذِي يَسْخَطُ اللهُ عَلَيْهِ**» أخرجه مسلم.

﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ۝٥٥ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ۝٥٦ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ۝٥٧ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ۝٥٨﴾.

٥٥ ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ﴾ يوم القيامة، ﴿فِى شُغُلٍ﴾ عن غيرهم قد شُغِلوا بالأكل والشرب والتنعم بما هم فيه، وقيل: شُغِلوا بفض الأبكار ﴿فَٰكِهُونَ﴾ يتلذذون بما هم فيه من الخير، كما قال تعالىٰ: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤].

٥٦ ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ﴾ زوجاتهم، ﴿فِى ظِلَٰلٍ﴾ ظل ممدود لا شمس فيه ولا حر ولا برد، كما قال تعالىٰ: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ۝١٣ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ۝١٤﴾ [الإنسان: ١٣-١٤]، ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ البسط الوافرة، والسرر العظيمة الجميلة، ﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾ جالسون، فيتحدثون بما أنعم الله عَزَّوَجَلَّ عليهم من أنواع النعيم، ويُكرمون بما

شاءوا من الملذات والمأكولات والمشروبات والمطعومات، بل وأعظم من ذلك النظر إلىٰ وجه الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال تعالىٰ: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥].

٥٧ ﴿لَهُمْ فِيهَا﴾ أي: في الجنة، ﴿فَٰكِهَةٌ﴾ من كل الثمرات، ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ ما يطلبون.

فيكون المؤمن علىٰ أريكته فما تمناه جاء إليه، كما قال تعالىٰ: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة:٣٣]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَوْمًا يُحَدِّثُ وَعِنْدَهُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ البَادِيَةِ: " أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ اسْتَأْذَنَ رَبَّهُ فِي الزَّرْعِ، فَقَالَ لَهُ: أَوَلَسْتَ فِيمَا شِئْتَ؟ قَالَ: بَلَىٰ، وَلَكِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَزْرَعَ، فَأَسْرَعَ وَبَذَرَ، فَتَبَادَرَ الطَّرْفَ نَبَاتُهُ وَاسْتِوَاؤُهُ وَاسْتِحْصَادُهُ وَتَكْوِيرُهُ أَمْثَالَ الجِبَالِ، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: دُونَكَ يَا ابْنَ آدَمَ، فَإِنَّهُ لاَ يُشْبِعُكَ شَيْءٌ "، فَقَالَ الأَعْرَابِيُّ: يَا رَسُولَ اللهِ، لاَ تَجِدُ هَذَا إِلَّا قُرَشِيًّا أَوْ أَنْصَارِيًّا، فَإِنَّهُمْ أَصْحَابُ زَرْعٍ، فَأَمَّا نَحْنُ فَلَسْنَا بِأَصْحَابِ زَرْعٍ، فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ» أخرجه البخاري.

وعند الترمذي عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: الْمُؤْمِنُ إِذَا اشْتَهَىٰ الوَلَدَ فِي الجَنَّةِ كَانَ حَمْلُهُ وَوَضْعُهُ وَسِنُّهُ فِي سَاعَةٍ كَمَا يَشْتَهِي.

٥٨ ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا﴾ أي: أن الله عَزَّوَجَلَّ يُسلِم عليهم، وهذه بشارة بالسلامة السرمدية التي لا يلحقهم بعدها عناء فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: **« يُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا»** أخرجه مسلم، **وهذه الأربع إذا تأملناها هي مفسدات الدنيا، المرض بعد الصحة، والشيخوخة بعد الشباب، والموت بعد الحياة، والبُؤس بعد النعيم، وهي مفقودة في الجنة، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَنْعَمُ لَا يَبْأَسُ، لَا تَبْلَىٰ ثِيَابُهُ وَلَا يَفْنَىٰ شَبَابُهُ»** أخرجه مسلم.

﴿مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ وعبر بالرب الرحيم دون غيره من الأسماء؛ لأنه يحفظ ويرحم عباده المؤمنين، كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣].

﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٥٩ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٠ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦١ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ٦٢ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٦٣ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٦٤ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٦٥ وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ ٦٦ وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا وَلَا يَرۡجِعُونَ ٦٧ وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِۖ أَفَلَا يَعۡقِلُونَ ٦٨﴾.

٥٩ ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ﴾ تميزوا، ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ عن المسلمين بحيث يكون لهم مكان خاص، فيكون أهل الإجرام في ناحية، وأهل الإسلام في ناحية، وهذا التميز يقع في أرض المحشر، ثم بعد ذلك يتمايزون فيدخل الكفار النار وبئس القرار، ويدخل المؤمنون الجنة يتنعمون خالدين فيها أبدًا.

٦٠ ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ موبخا الكافرين: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ﴾ أوصيكم وأكلفكم وآمركم وأخبركم وأعلمكم، ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ تتخذوه إلهًا وتطيعونه، ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي الشيطان ﴿لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ وعداوته ظاهرة، ومثل هذا ينبغي أن يُتقىٰ ويُجتنب، لكنهم مع ذلك اتبعوه.

٦١ ﴿وَ﴾ كان الأمر لكم ﴿أَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ﴾ وحدوني، ﴿هَٰذَا صِرَٰطٞ﴾ طريق، ﴿مُّسۡتَقِيمٞ﴾ ودين قويم يوصل إلىٰ رب العالمين، وهو الحق المعظم والواجب المفخم الذي لا يقبل الله سواه.

٦٢ ﴿وَلَقَدۡ أَضَلَّ﴾ حرف الشيطان عن الحق، ﴿مِنكُمۡ جِبِلّٗا﴾ جيلًا أو خلقًا: ﴿كَثِيرًاۖ﴾ بسبب طاعتهم له، ﴿أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ﴾ أن طاعة الشيطان سبب لضلالكم وبعدكم، وأن الشيطان لا يجوز أن يتابع؛ لأنه عدو بيّن واضح.

٦٣ ثم يقال لهم تقريعا حين تقرب النار وتبرز، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩١]، ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ أي: أدخلوها، ﴿ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ علىٰ ألسنة الرُسل وتتوعدون بها.

٦٤ ﴿ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ﴾ ادخلوها، وتحيط بكم، ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ أي: بسبب كفركم.

٦٥ ويلتمس أهل الكفر الأعذار والكذب والتلبيس كما كانوا في الدنيا، فيكون الحال: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ فيصيرون خرسا، فلا يتكلمون؛ ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ﴾ تشهد عليهم، ﴿وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ وجوارحهم، ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ يعملون، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٠].

٦٦ ﴿وَلَوْ نَشَآءُ﴾ أي: في ذلك اليوم، ﴿لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ أذهبنا نور أعينهم، ﴿فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ﴾ للدخول إليه طمعًا في الوصول إلىٰ الجنة، ولكنهم سيسقطون في النار، ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ وقد اُسْتِدل بالآية علىٰ شأن الدنيا من أن الله لو شاء هداهم، ولكنه أضلهم لسوء فعالهم والله أعلم.

٦٧ ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ﴾ غيَّرنا أشكالهم قردة وخنازير أو حجارة كما قال بعض أهل العلم، ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ علىٰ طريقتهم التي هم عليها، ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا﴾ ذهابًا، ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ بل يبقون في أماكنهم، فإن كانت الآية في شأن الآخرة معناه: أن الله عَزَّوَجَلَّ سيدخلهم النار ويبقيهم فيها، وإن كانت الآية في شأن الدنيا معناه: أن الله عَزَّوَجَلَّ قد أمهلهم حتىٰ لقوا الله عَزَّوَجَلَّ بسيء أعمالهم.

٦٨ ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ﴾ نطيل عمره، ﴿نُنَكِّسْهُ﴾ من التنكيس؛ وهو الرجوع، ﴿فِى ٱلْخَلْقِ﴾ يعود إلىٰ أرذل العمر، وكان من دعاء النبي ﷺ: **«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ الْهَرَمِ»**، ويقول: **«وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أُرَدَّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ»** متفق عليه عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لأن الإنسان إذا عاد إلىٰ أرذل العُمر يعود كالطفل، ربما يبول في ملابسه، ويتلاعب به الأطفال، ولا يُحسن التصرف ولا الفِعال، ويكون كالثقل علىٰ أسرته، ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ ويتعظون ويستجيبون.

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٧٠﴾.

٦٩ ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ أي: محمدًا ﷺ: ﴿ٱلشِّعْرَ﴾ لأن الكفار زعموا أن القرآن شِعر، وأن محمدًا ﷺ شاعر، فنفىٰ الله عَزَّوَجَلَّ عنه هذا، ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ أي: لا يجوز ولا يكون له ذلك، فإن النبوة التي أُوتيها والقرآن الذي أُوحيَّ إليه فيه الخير العظيم، وحتىٰ لا يلتبس الأمر علىٰ الملبسين والمشككين، وأما ما جاء عند جندب أن النبي ﷺ قال: **«أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ، أَنَا ابْنُ**

عَبْدِ الْمُطَّلِبْ» متفق عليه، فهذا ليس بشعر، وما كان يكرره النبي ﷺ من أشعار أصحابه، قد ذكر بعضهم أنه ربما انحرف عليه البيت فلا يقول الشعر، ﴿إِنْ هُوَ﴾ الكتاب الذي أوتيه ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ موعظة، ﴿وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ بين واضح أنزله رب العالمين، والحكمة من نزوله.

٧٠ ﴿لِيُنذِرَ﴾ يخوف به، ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ حياة القلب، ﴿وَيَحِقَّ﴾ يثبت ويجب، ﴿الْقَوْلُ﴾ عدم الإيمان والعذاب، ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ فلا يستجيبون ولا يرعوون ويموتون على شركهم وكفرهم، فيدخلون النار وفيها يخلدون.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

٧١ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ بنوا آدم ما أنعم الله عليهم به، ﴿أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ مما عملنا، فأُضِيفَ إلى اليد والمراد بها: الذات المتصفة باليد، ﴿أَنْعَامًا﴾ يعني: خلق لهم أنعاماً من الإبل، والبقر، والغنم، ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ يتزودون منها فيستفيدون منها في شؤونهم

❁ فالله عَزَّوَجَلَّ موصوف بيدين حقيقيتين: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]،.

وقد زعم أهل البدع من الملاحدة أن هذا من التناقض، فقد جاء في القرآن أن لله عز وجل يد ويدين وأيادي.

- والقول أن قوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك:١]، أن اليد إذا أُفرِدت أفادت العموم.

- والأمر الثاني: أن أقل الجمع اثنان، أو أنه جاء به على التعظيم، فلا دلالة لأهل البدع في نفي صفة اليدين، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤]،

٧٢ ﴿وَذَلَّلْنَاهَا﴾ سخرناها ﴿لَهُمْ﴾ طائعة، ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ يركبون ويحملون أمتعتهم عليها، ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ من لحومها وسمنها ولبنها، فمما هو ركوب فقط: الحمير، ومما هو مركوب ومأكول: الخيل والإبل، ومنها ما هو مأكول فقط: الغنم والضأن والبقر، فسبحان الله كيف هي الإبل طويلة الجسم عظيمة القوة، ولو لم يذللها الله عَزَّوَجَلَّ لربما

ضرب الإنسان وإذا به قد هلك، ومع ذلك يقوده الطفل الصغير؛ كما قال تعالىٰ: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف:١٣].

٧٣ ﴿وَلَهُمْ فِيهَا﴾ في هذه الأنعام، ﴿مَنَٰفِعُ﴾كثيرة: يأكلون من لحمها، ويشربون من لبنها، ويدهنون من شحمها، ويتداوون بأبوالها مثل: الإبل، ثم يأخذون جلودها فتكون لهم كالفُرش، ﴿وَمَشَارِبُ﴾ كثيرة، ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ هذه النعم العظيمة.

٧٤ ﴿وَ﴾ ولكنهم مع هذه النعم: ﴿ٱتَّخَذُوا﴾ هؤلاء المشركون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾ أصنامًا يعبدونها ويرجونها ويتوكلون عليها، من دون الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: تنصرهم فيما هم فيه من الشأن.

٧٥ والواقع أن هذه الأصنام: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ منعهم مما ينوبهم لعجزهم، كما قال تعالىٰ: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾ [الأعراف:١٩١-١٩٢]، ﴿وَهُمْ﴾ الكفار، ﴿لَهُمْ﴾ لأصنامهم وأوثانهم: ﴿جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ يجتمعون حولها ويتمسحون ويتبركون بها، ويدعونها ويرجونها وهي عاجز عن نفعهم.

٧٦ ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ لا تحزن لقولهم من أنك شاعر، أو ساحر، أو كاهن، أو مبتور أو غير ذلك، وهنا الوقف واجب، فلا يجوز وصل الآية، ﴿إِنَّا نَعْلَمُ﴾ هذا علىٰ التهديد، ﴿مَا يُسِرُّونَ﴾ من القول، ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وسيجازون عليه في يوم القيامة.

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

٧٧ ثم ضرب الله عَزَّوَجَلَّ مثلًا علىٰ البعث والنشور؛ إذ أن كثيرًا من الكفار كانوا ينكرونه فيقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ المنكر للبعث والنشور، ﴿أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ صغيرة من مني الرجل مع مشيج المرأة، ﴿فَإِذَا هُوَ﴾ بعد أن يكبر، ﴿خَصِيمٌ﴾ مخاصم

مجادل، ﴿مُّبِينٌ﴾ فصيح، ألا يتعظ بهذا: أن الله عَزَّوَجَلَّ أوجده من العدم وصار مخاصمًا، ومبينًا، وقويًا، ويذهب، ويأتي.

(٧٨) ﴿وَضَرَبَ﴾ الكافر ﴿لَنَا مَثَلًا﴾ علىٰ أنه لا بعث ولا نشور، ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ بداية خلقه، ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ يابسة مفتتة، يقوله مستنكرًا للبعث والنشور، وقد أخذ بعضهم عظمًا ففته قال: أيحيي الله عَزَّوَجَلَّ هذا بعد أن يصير ترابًا.

(٧٩) فكان الجواب: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿يُحْيِيهَا﴾ يعيدها الله بعد موتها، ﴿ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ﴾ خلقها، ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ من العدم، والإعادة أسهل من النشأة، كما قال: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِۦَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة:٤٠]، ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ﴾ خلقه وأوجده، ﴿عَلِيمٌ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤]، لا تخفىٰ عليه خافية.

(٨٠) ومن عظيم شأنه أنه: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ﴾ الرطب، ﴿نَارًا﴾ يابسة محرقة، ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ تقدحون النار قيل: بعد أن تيبس تصير نارًا، وقيل: بأن في الحجاز شجرتين المرخ والعفار إذا دُقتا وجُمِعَ بينهما يخرج منهما النار، فالذي أخرج النار اليابسة من الرطب، قادرٌ علىٰ إحياء الإنسان الرطب من العظم اليابس.

(٨١) ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ مع عظمهما وعجيب خلقهما، ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ بشراً، كما قال تعالىٰ: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر:٥٧]، ﴿بَلَىٰ﴾ سيكون ذلك، ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ صيغة مبالغة من الخالق الذي لا يعجزه شيء، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يصلح به الحال والمآل، وبما يوجد ويُهلك سبحانه وتعالىٰ.

(٨٢) فـ ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ﴾ قضاؤه ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾ عَظُمَ أو صَغُرْ، ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ لا يتخلف ولا يتأخر، وقول بعضهم: أمره بين الكاف والنون غلط، والصواب أن يقول: أمره بعد الكاف والنون، أو يقول: أمره بالكاف والنون.

(٨٣) ﴿فَسُبْحَٰنَ﴾ تنزيه، ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ﴾ ملك، ﴿كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازي كل واحد بعمله، والله المستعان.

وسورة يس عظيمة قد ذكروا في فضلها أحاديث مثل حديث: **«اقْرَءُوا عَلَىٰ مَوْتَاكُمْ يس»**، ولا يصح، وحديث: **«وَيس قَلْبُ الْقُرْآنِ»**، ولا يصح، ومنهم من تعود قراءتها بين مغرب وعشاء في كل ليلة لا سيما الذكر الجماعي لبعض البلدان ولا دليل علىٰ ذلك.

فتبقىٰ هذه السورة فيها ما تقدم بيانه من الدلائل والحجج القوية؛ لإثبات ألوهية الله عَزَّوَجَلَّ، وإثبات النبوة والرسالة، وما يتعلق بالبعث والنشور، والله المستعان.

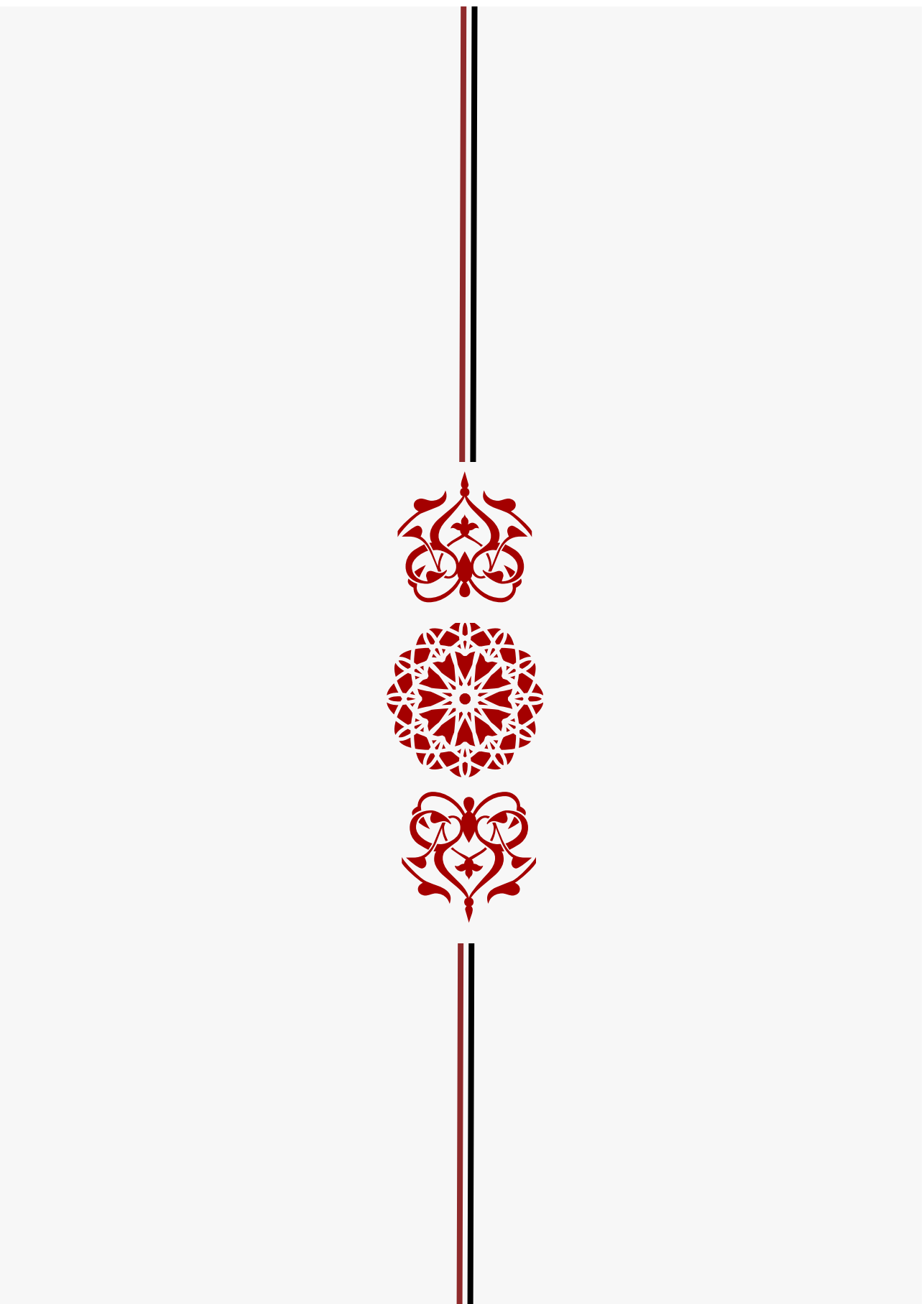
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ يس



تَفْسِيرُ سُورَةِ الصَّافَاتِ





سُورَةُ الصَّافَاتِ

مَكِّيَّةٌ، وَآيَاتُهَا اثْنَتَانِ وَثَمَانُونَ وَمِائَةُ آيَةٍ.

وفيها حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَأْمُرُنَا بِالتَّخْفِيفِ، وَيَؤُمُّنَا بِالصَّافَّاتِ» **أخرجه النسائي.**

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ۝٥ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾.

١ ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا﴾ الملائكة، تصف للصلاة عند ربها؛ ففي حديث جابر بن سمرة قال النبي ﷺ: **«أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟»**، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَكَيْفَ تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟ قَالَ: **«يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الْأُوَلَ، وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ»** **أخرجه مسلم.**

٢ ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا﴾ الملائكة تزجر السحاب.

٣ ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ الملائكة تبلغ القرآن، ثم بعد ذلك يُتلىٰ.

٤ والمُقسم عليه ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٦٣﴾ **[البقرة:١٦٣]**، لا شريك له في خلقه، كما لا شريك له في حُكمه، كما لا شريك له في عبادته، وهذا خلاف دين المشركين كما سيأتي قال تعالىٰ: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ **[يوسف:٣٩]**.

٥ وإلهكم هو: ﴿رَبُّ﴾ صاحب وخالق ومالك ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الواسعات المرفوعات بغير عمد، ﴿وَٱلأَرْضِ﴾ المبسوطة لمنافع العباد، ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من المخلوقات، ﴿وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ مشارق الشمس والقمر والنجوم، وخصها بالذكر لدلالتها علىٰ المغارب.

٦ ثم يُخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن الحكمة من خلقها: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ للناظرين ﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ أي: زينها بالنجوم والكواكب، ويعرف ذلك من ينظر إلىٰ السماء حيث يرىٰ الكواكب والنجوم تتلألأ فيها، ويتعجب من حسنها وبهائها وكثرتها، وخُلِقت النجوم لثلاثة: عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إِنَّمَا جَعَلَ هَذِهِ النُّجُومَ لِثَلاثِ خِصَالٍ: جَعَلَهَا زِينَةً لِلسَّمَاءِ وَجَعَلَهَا يُهْتَدَىٰ بِهَا، وَجَعَلَهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ. فَمَنْ تَعَاطَىٰ فِيهَا غَيْرَ ذَلِكَ فَقَدْ قَالَ: رَأْيَهُ وأخطأ حَظَّهُ وَأَضَاعَ نَصِيبَهُ وَتَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ.

٧ ﴿وَحِفْظًا﴾ وجعل هذه النجوم للسماء حفظًا: ﴿مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧﴾ متمرد يصل إلىٰ السماء لاستراق السمع.

٨ حتىٰ ﴿لَا يَسَّمَّعُونَ﴾ أي الشياطين، وقرأ بعضهم لا يسمعون بالسكون ﴿إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ الكتبة من الملائكة، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: " إِذَا قَضَىٰ اللهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتِ المَلاَئِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَالسِّلْسِلَةِ عَلَىٰ صَفْوَانٍ - قَالَ عَلِيٌّ: وَقَالَ غَيْرُهُ: صَفْوَانٍ يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ - فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ، قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ، قَالُوا لِلَّذِي قَالَ: الحَقَّ، وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُو السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُو السَّمْعِ هَكَذَا وَاحِدٌ فَوْقَ آخَرَ - وَوَصَفَ سُفْيَانُ بِيَدِهِ، وَفَرَّجَ بَيْنَ أَصَابِعِ يَدِهِ اليُمْنَىٰ، نَصَبَهَا بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ - فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشِّهَابُ المُسْتَمِعَ قَبْلَ أَنْ يَرْمِيَ بِهَا إِلَىٰ صَاحِبِهِ فَيُحْرِقَهُ، وَرُبَّمَا لَمْ يُدْرِكْهُ حَتَّىٰ يَرْمِيَ بِهَا إِلَىٰ الَّذِي يَلِيهِ، إِلَىٰ الَّذِي هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ، حَتَّىٰ يُلْقُوهَا إِلَىٰ الأَرْضِ - وَرُبَّمَا قَالَ سُفْيَانُ: حَتَّىٰ تَنْتَهِيَ إِلَىٰ الأَرْضِ - فَتُلْقَىٰ عَلَىٰ فَمِ السَّاحِرِ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ، فَيُصَدَّقُ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ يُخْبِرْنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، يَكُونُ كَذَا وَكَذَا، فَوَجَدْنَاهُ حَقًّا؟ لِلْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ " أخرجه مسلم، وفي حديث عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: مَا قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الْجِنِّ وَمَا رَآهُمُ انْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إِلَىٰ سُوقِ عُكَاظٍ وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ. وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ. فَرَجَعَتِ الشَّيَاطِينُ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَقَالُوا: مَا لَكُمْ. قَالُوا: حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ. قَالُوا: مَا ذَاكَ إِلَّا مِنْ شَيْءٍ حَدَثَ. فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا. فَانْظُرُوا مَا هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ فَانْطَلَقُوا يَضْرِبُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا. فَمَرَّ النَّفَرُ الَّذِينَ أَخَذُوا نَحْوَ تِهَامَةَ - وَهُوَ بِنَخْلٍ عَامِدِينَ إِلَىٰ سُوقِ عُكَاظٍ وَهُوَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الْفَجْرِ - فَلَمَّا سَمِعُوا

الْقُرْآنَ اسْتَمَعُوا لَهُ. وَقَالُوا: هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ فَرَجَعُوا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ. فَقَالُوا: يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا. فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عَلَىٰ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: **«قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ»** اخرجه مسلم.

﴿وَيُقْذَفُونَ﴾ الجن يُرمون بالشهب، ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ من كل اتجاه من أفاق السماء طرداً لهم وإبعاداً.

٩ ﴿دُحُورًا﴾ تدحرهم وتردهم عن السماوات، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ دائم مستمر شديد، وقد تصل إلىٰ الجني قبل أن يبلغ الكلمة إلىٰ من دونه، وقد تسبق الكلمة إلىٰ من دونه ثم يكون له الهلاك، وفي هذا عِظة وعبرة أن أصحاب الباطل قد يصبرون علىٰ باطلهم ولو كان فيه الهلكة؛ وهذا لشدة عداوة الجان للإنسان.

١٠ ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ﴾ اختلس ﴿الْخَطْفَةَ﴾ الكلمة، ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ﴾ كوكب ﴿ثَاقِبٌ﴾ مضيء، شديد السرعة لا يخطئه، يقتله أو يحرقه أو يخبله، قال عطاء: سمىٰ النجم الذي يرمي به الشياطين ثاقباً لأنه يثقبهم .

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾.

١١ ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ سلهم يا محمد، ﴿أَهُمْ﴾ أي: الكفار، ﴿أَشَدُّ﴾ أقوىٰ، ﴿خَلْقًا﴾ حتىٰ ينكروا البعث والنشور، ﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَا﴾ من هذه المخلوقات العظيمات، ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم﴾ أي: أصل الإنسان، ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ ملتصق بعضه ببعض.

١٢ ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ من إنكارهم للبعث والنشور مع عظم الدلائل علىٰ ذلك، زد علىٰ ذلك: ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ وهم مع إنكارهم للبعث يسخرون من المؤمنين وممن يخبرهم بالعبث والنشور، وقيل يسخرون من تعجبك، وجاء في بعض القراءات: بَلْ عَجِبْتُ وَيَسْخَرُونَ، وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله : **«قَدْ عَجِبَ اللهُ مِنْ صَنِيعِكُمَا بِضَيْفِكُمَا اللَّيْلَةَ»** متفق عليه.

❁ فيه: إثبات صفة العجب لله عَزَّوَجَلَّ وهو عجب يليق بجلاله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، والعجب يأتي علىٰ معنيين الأول من خروج الشأن عن نظائره وهذا الذي يثبت لله عَزَّوَجَلَّ، والثاني من خفاء لأسباب، وهذا منفي عن الله، فإن الله بكل شيء عليم.

⑬ ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا۟﴾ بالآيات الشرعية أو الكونية: ﴿لَا يَذْكُرُونَ﴾ لا يتذكرون ولا يستجيبون ولا يتعظون.

⑭ ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً﴾ علامة وحجة مما بين الله عَزَّوَجَلَّ فيها صدق رسالة محمد ﷺ وما إليه: ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ يسخرون، ويستهزؤون، وقيل: يدعي بعضهم بعضاً إلىٰ السخرية.

⑮ ﴿وَقَالُوٓا۟﴾ الكفار المعارضين ﴿إِنْ﴾ ما، ﴿هَٰذَآ﴾ القرآن، ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ واضح بيّن، وهذه إحدىٰ كذباتهم فقد قالوا: سحر يؤثر، وقالوا: أساطير الأولين، وقالوا: شعر وقالوا غير ذلك؛ وقد قال أُنَيس أخو أبي ذر: وَقَدْ عَرَضْتُ قَوْلَهُ عَلَىٰ أَقْرَاءِ الشُّعَرَاءِ، فَوَاللهِ مَا هُوَ بِشَاعِرٍ، وَسَمِعْتُ قَوْلَ الْكُهَّانِ، فَلَا وَاللهِ مَا هُوَ بِكَاهِنٍ، وَلَا وَاللهِ مَا هُوَ بِمَجْنُونٍ أخرجه مسلم.

⑯ ومن العجب أيضاً إنكارهم للبعث وقولهم: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ قد تناثرت الأجزاء، ﴿وَعِظَٰمًا﴾ مفتتة، ﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ لمخرجون من قبورنا، وسبب ذلك قياسهم قدرة الرب عَزَّوَجَلَّ بقدرة الإنسان الضعيف.

⑰ ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ كذلك يُخرجون من قبورهم.

⑱ ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿نَعَمْ﴾ ستبعثون ويُبعث آباؤكم، ﴿وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾ حقيرون ذليلون.

⑲ ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ﴾ نفخة في الصور من إسرافيل عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ﴿وَٰحِدَةٌ﴾ لا تثنىٰ ﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ قيامًا ينتظرون لما هم فيه من الأهوال والأحوال.

⑳ ﴿وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا﴾ دعوا علىٰ أنفسهم بالويل والثبور حين رأوا البعث والنشور، ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ يوم الجزاء.

(٢١) ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ الحكم حيث يفصل الله عَزَّوَجَلَّ فيه بين العباد كما قال تعالىٰ: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورىٰ:٧]، ﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ وتنكرونه وتدَّعون أنه من الأقوال التي لا دليل عليها.

﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

(٢٢) وعند ذلك يقول الله عَزَّوَجَلَّ للملائكة: ﴿ٱحْشُرُوا۟﴾ اجمعوا، ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ كفروا، ﴿وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ ممن هو علىٰ شاكلتهم، ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ من الشمس والقمر والأصنام والأوثان.

(٢٣) ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ غير الله، ﴿فَٱهْدُوهُمْ﴾ دلوهم وأوصلوهم، ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ﴾ طريق ﴿ٱلْجَحِيمِ﴾ والعذاب الأليم، فيوضعون في النار جميعًا العباد والمعبود، في نار: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم:٦]، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨-٩٩].

(٢٤) ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ﴾ أوقفوهم، ﴿إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ يُسألون عن أعمالهم، وما كانوا يفترون في الدنيا، وفي حديث أَبِي بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وله طرق: **«لَنْ يَزُولَ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّىٰ يَسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ، وَعَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ، وَفِيمَا أَنْفَقَهُ»** أخرجه الترمذي.

(٢٥) ﴿مَا لَكُمْ﴾ يا معاشر الكافرين، خاضعون منقادون ﴿لَا تَنَاصَرُونَ﴾ لا ينصر بعضكم بعضًا وأنتم في الدنيا تتناصرون وتتعاونون علىٰ الباطل.

(٢٦) ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ لعجزهم وضعفهم لا يستطيعون رد قول ولا إحداث شيء.

(٢٧) ﴿وَ﴾ وحين دخلوا في النار وبئس القرار كان شأنهم أن: ﴿أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي السادة والأتباع.

(٢٨) ﴿قَالُوا﴾ الأتباع والضعفاء، ﴿إِنَّكُمْ﴾ يا معاشر السادة، ﴿كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ بالقوة والغلبة فتصدوننا عن الاستقامة والدين.

(٢٩) ﴿قَالُوا﴾ المستكبرون ﴿ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ مقرين بالحق فنضلكم بل كنتم علىٰ ما نحن عليه من الباطل.

(٣٠) ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۖ﴾ حجة، ولم نتخذ معكم القوة، ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾ مجاوزين لحكم الله عَزَّوَجَلَّ مخالفين لدين رب العالمين، فانظر كيف يتبرأ بعضهم من بعض، وهذا كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُمْۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَۚ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سبأ: ٣١-٣٣].

وتأتي البراءة العُظمىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم:٢٢]، فلن ينفعك من سعىٰ في إضلالك وإغوائك في الدنيا، ولن يتحمل عنك وزرًا، ولن يقبل منك عتابًا.

(٣١) ﴿فَحَقَّ﴾ وجب ﴿عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآۖ﴾ وهي قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]، ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ العذاب الأليم.

(٣٢) ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ﴾ صددناكم عن الهدىٰ وصرتم مثلنا، ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ جميعًا نحن وأنتم ﴿غَٰوِينَ﴾ في الغواية واقعين.

٣٣ ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ جميعًا الرؤساء والأتباع، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة، ﴿فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [البقرة:٤٨]، كما اشتركوا في المعصية في الدنيا، كما قال تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِي ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الأعراف:٣٨-٣٩].

٣٤ ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ كما فعلنا بهؤلاء ﴿نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ بالكافرين.

٣٥ ﴿إِنَّهُمْ﴾ كفار قريش ﴿كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ قولوا ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وحققوا هذه الكلمة، واستجيبوا لنداء الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ويُعرضون عن الإيمان ويتعالون ويتعاظمون.

❁ **وهذا دليل علىٰ أن سبب كفر أكثر الناس الاستكبار**، كما قال تعالىٰ: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٣٤]، وقال تعالىٰ: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:١٤٦].

٣٦ وكانت حجتهم مع استكبارهم: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ معارضةً ورداً ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا﴾ هُبل، واللات، والعزىٰ، ومناة وغير ذلك من الحجارة والأصنام، ﴿لِشَاعِرٍ﴾ محمد، ﴿مَّجْنُونٍ﴾ لا يدري ما يقول، وهذا من سفههم الذي صار عليه أكثر الكافرين، كما قال تعالىٰ: ﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات:٥٣].

٣٧ ﴿بَلْ﴾ الواقع أن محمداً ﷺ، ﴿جَآءَ بِالْحَقِّ﴾ الثابت والصدق من الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَصَدَّقَ﴾ وافق ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ في دعوتهم إلىٰ عبادة رب العالمين، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم﴾ [النحل:٣٦].

٣٨ ﴿إِنَّكُمْ﴾ يا معاشر الكفار، ﴿لَذَآئِقُواْ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾ في النار والجحيم.

٣٩ ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ﴾ في الآخرة، ﴿إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من الشرك والمعاصي، كما قال تعالىٰ: ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر:١٧].

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿إِلَّا﴾ لكن، ﴿عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ الذين أخلصوا لله العبادة، فإنهم لا يُعذبون، بل يُكرمون وينعمون.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ الذين أخلصوا لربهم ظاهرًا وباطنًا، ﴿لَهُمْ﴾ في الجنة، ﴿رِزْقٌ﴾ عطاء، ﴿مَّعْلُومٌ﴾ يأتيهم في الصباح والمساء، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢]، ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة:٣٣].

وهذا الرزق ﴿فَوَاكِهُ﴾ أنواع منه الفواكة، والثمار اليانعة، ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ بغير ذلة ولا زحام ولا استشراف، بل لهم غاية الكرامة.

﴿فِي جَنَّاتِ﴾ بساتين ﴿النَّعِيمِ﴾ يتنعمون فيها من غير انقطاع، وهذا الرزق المعلوم.

وجلوسهم يكون: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ سواءً هم وأزواجهم، أم هم وأصحابهم حين يلتقون علىٰ تلك السُرر المرفوعة التي عليها الأرائك والفُرش، يحدث بعضهم بعضًا بما كان من إكرام الله عَزَّوَجَلَّ لهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ [الطور:٢٥-٢٨].

وهم مع ذلك: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾ أي علىٰ كل واحد منهم، ﴿بِكَأْسٍ﴾ فيه خمر ﴿مِن مَّعِينٍ﴾ شراب نابع من العيون، كما قال تعالىٰ: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾ [الواقعة:١٧-١٨]، أي: أنهار تجري من ماء، وخمر، وعسل، ولبن وغير ذلك مما يشربونه.

وصفة هذا الشراب: ﴿بَيْضَاءَ﴾ صافية، أشد بياضًا من اللبن ﴿لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾ يتلذذ بها شاربها، ويتنعمون بشربها، ويتفكهون بتناولها.

وخمرها: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ سكرة فلا تذهب عقولهم كما هو حال من يشرب الخمر في الدنيا، ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ بالفتح يسكرون فتذهب عقولهم، وبالكسر كما في سورة الواقعة لا ينفذ شرابهم.

﴿٤٨﴾ ﴿وَعِندَهُمْ﴾ من الخير العظيم: ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ حوريات ونساء مؤمنات عفيفات قد قَصُرت أطرافهن إلا علىٰ أزواجهن، ﴿عِين﴾ جميلات واسعات الأعين، والعرب يمدحون المرأة التي قد اتسعت عينها.

﴿٤٩﴾ ومن صفة هذه النساء: ﴿كَأَنَّهُنَّ﴾ في البهاء والجمال، ﴿بَيْضٌ﴾ وقيل: در وياقوت، ولؤلؤ ﴿مَّكْنُونٌ﴾ لم يُمس أو يتغير.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿٥٠﴾ ﴿فَأَقْبَلَ﴾ أهل الجنة ﴿بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ حين شرابهم وتقابلهم في الجنة، ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ عن عظيم كرم الله لهم، وعما حل بالكافرين.

﴿٥١﴾ ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ من أهل الجنة ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ صاحب في الدنيا.

﴿٥٢﴾ ﴿يَقُولُ﴾ مستبعدًا للبعث والنشور ﴿أَئِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ أبلغ بك الأمر أن تصدق محمدًا ﷺ أن هنالك بعث ونشور، وأن هناك جزاء وعقاب، فكيف تصدق.

﴿٥٣﴾ ﴿أَئِذَا مِتْنَا﴾ وأكلتنا الأرض ﴿وَ﴾ بلغ الأمر حتىٰ ﴿كُنَّا﴾ صرنا ﴿تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ مبعوثون مؤاخذون بأعمالنا.

﴿٥٤﴾ ﴿قَالَ﴾ المؤمن في الجنة ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ مشرفون إلىٰ لنار.

﴿٥٥﴾ ﴿فَٱطَّلَعَ﴾ أشرف ورأىٰ النار، ﴿فَرَآهُ﴾ نظر القرين السيء المشرك ﴿فِي سَوَآءِ﴾ وسط ﴿الْجَحِيمِ﴾ قد غشيته بنارها وعذابها.

﴿٥٦﴾ فنداه المؤمن فـ: ﴿قَالَ تَٱللَّهِ﴾ والله، ﴿إِن كِدتَّ﴾ قاربت ﴿لَتُرْدِينِ﴾ أن تهلكني بصدك عن الإسلام وأكون مثلك.

﴿٥٧﴾ ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ﴾ إنعام، ﴿رَبِّي﴾ عليَّ بالهداية، ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ معك في لنار، وفعلًا إن الصاحب ساحب، ومن جالس جانس، فعليك بمجالسة أهل الصلاح؛ لتدل

وتُرشد إلىٰ الفلاح، وإياك ومجالسة أهل الطلاح فإنهم يجرونك إلىٰ ما ترىٰ من الخسران، والله المستعان.

(٥٨) ثم قال المؤمن مغبطاً نفسه بما أعطاه الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾:

(٥٩) ﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ﴾ في الدنيا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ بعد دخولنا الجنة، مخبراً بكرم الله عَزَّوَجَلَّ عليه.

(٦٠) ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ وهو السلامة من العذاب ﴿لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي امتن الله عَزَّوَجَلَّ به علىٰ المؤمنين، كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران:١٨٥]، فوزًا لا خسارة بعده.

(٦١) ثم قال المؤمن، وقيل هو من قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا﴾ النعيم في الجنة، ﴿فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ في الدنيا، وأما في الآخرة فلا عمل إنما هو الجزاء.

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

(٦٢) ﴿أَذَٰلِكَ﴾ المذكور من حال أهل الجنة ﴿خَيْرٌ نُّزُلًا﴾ منزلاً لما فيه من النعيم، ﴿أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ شجرة في النار يأكلون منها فتتقطع بطونهم من شدة حرارتها فيقولون: كنا نتزقم في الدنيا أي: نشرب الماء حتىٰ تذهب الحرارة فيؤتون بالحميم: ﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾ [الدخان:٤٥]، فهم في عذاب في حال أكلهم وشربهم.

(٦٣) ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا﴾ أي: شجرة الزقوم، ﴿فِتْنَةً﴾ محنة، ﴿لِّلظَّالِمِينَ﴾ لكفار مكة وذلك: أن النبي ﷺ حين توعدهم بها، قالوا: انظروا إلىٰ محمد يقول: بأن في النار شجرة والنار تأكل الشجر، فلا يمكن أن تنبت فيها، وهذا من تكذيبهم.

(٦٤) ثم قال الله في شأنها: ﴿إِنَّهَا﴾ أي: شجرة الزقوم، ﴿شَجَرَةٌ﴾ عظيمة كبيرة، ﴿تَخْرُجُ فِي أَصْلِ﴾ قعر وقرار ﴿الْجَحِيمِ﴾ النار.

(٦٥) ومن شأنها أن: ﴿طَلْعُهَا﴾ ثمرها المشبه بطلع النخل، ﴿كَأَنَّهُ﴾ في قباحته وسوء منظره، ﴿رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ وشبهها برؤوس الشياطين، وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين؛ لأنه قد استقر في نفوسهم أن الشياطين قبيحة المنظر، وقيل الشياطين الحيات، **والأول أظهر**.

(٦٦) ومع ذلك: ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ أي الكفار في الجحيم ﴿لَأَكِلُونَ مِنْهَا﴾ ولا يستطيعون التخلص من ذلك؛ لجوعهم الشديد، حتىٰ يأكلوا الزقوم، والضريع، كما قال تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧﴾ **[الغاشية:٦-٧]**، ثم يتسلط عليهم عطش شديد حتىٰ يشربوا المهل وغير ذلك من الشراب القبيح المنظر والمخبر، ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ الخاوية الجائعة.

(٦٧) ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا﴾ بعد أكلهم، وعطشهم ﴿لَشَوْبًا﴾ مزجًا ﴿مِّنْ حَمِيمٍ﴾ ماء بالغ غاية الحرارة، وقيل: الرصاص المذاب ﴿كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ﴾ **[الدخان:٤٥]**.

(٦٨) ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ﴾ بعد شربهم ومع هذا العذاب كله، ﴿لَإِلَى﴾ عذاب، ﴿ٱلْجَحِيمِ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ **[الرحمن: ٤٤]**، فلا يخرجون منها ولا يجاوزونها، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ **[البقرة:١٦٧]**.

(٦٩) والسبب في هذا: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا﴾ وجدوا ﴿ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ﴾ كافرين فقلدوهم.

(٧٠) ﴿فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ طريقهم في الكفر ﴿يُهْرَعُونَ﴾ يسرعون، فلم يستجيبوا لدعوة رسول الله ﷺ، وإلا لسلموا من هذا العذاب والنكال.

(٧١) ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ﴾ انحرف عن الإسلام ﴿قَبْلَهُمْ﴾ قبل كفار قريش، ﴿أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ من الأمم السالفة في الأيام الخوالي، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ **[يوسف:١٠٣]**.

(٧٢) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ بعثنا ﴿فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾ رسلًا وأنبياء يخوفونهم وينذرونهم العذاب الأليم، ويبشرونهم بما أعد الله للمؤمنين من النعيم.

(٧٣) ﴿فَٱنظُرْ﴾ يا محمد ومن معك من المؤمنين: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾ نهاية ومآل ﴿ٱلْمُنذَرِينَ﴾ الذين أنذرتهم رسلهم دمر الله عليهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ **[هود:١٠٢]**.

(٧٤) ﴿إِلَّا﴾ لكن، ﴿عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ سلموا من ذلك، فإنهم أصحاب النجاة في الدنيا والآخرة؛ لأنهم أخلصوا العبادة لله عَزَّوَجَلَّ، وبادروا إلىٰ مرضاته، وتابعوا محمدًا ﷺ.

﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾.

(٧٥) ﴿و﴾ واذكر يا محمد، ﴿لَقَدْ نَادَىٰنَا﴾ دعانا ﴿نُوحٌ﴾ علىٰ قومه، وذلك حين قال: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ [القمر:١٠]، ﴿فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ لدعائه.

(٧٦) ﴿وَنَجَّيْنَاهُ﴾ سلمناه، ﴿وَأَهْلَهُ﴾ المؤمنين ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ الطوفان الذي أغرق الأرض حتىٰ قال: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ [هود:٤٣]، فرحمه الله ومن معه في السفينة.

(٧٧) ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ فهو أبو البشرية الثاني، فلا أحد ممن هو الآن موجود إلا ويعود نسبه إلىٰ نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(٧٨) ﴿وَتَرَكْنَا﴾ أبقينا ﴿عَلَيْهِ﴾ ذِكرًا حسنًا وثناءً جميلًا ﴿فِي الْآخِرِينَ﴾ من الأنبياء والأمم إلىٰ يوم القيامة.

(٧٩) ﴿سَلَامٌ﴾ منا ﴿عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾؛ لما كان عليه من طريق الخير والأمانة يسلم عليه في جميع الطوائف.

(٨٠) ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ كما جازيناهم ﴿نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ المؤمنين الطائعين بأن يُذكروا بالخير والجميل، ويُكرمون في الآخرة بالأجر الجزيل.

(٨١) ﴿إِنَّهُ﴾ أي: نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ المستجيبين كما قال الله عَزَّوَجَلَّ في شأنه: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء:٣].

(٨٢) ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا﴾ بالطوفان ﴿الْآخَرِينَ﴾ من الكافرين الذين لم يكونوا معه في السفينة.

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾.

﴿٨٣﴾ ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ﴾ أي: من أتباع نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ الموافقين له في شرعته، المتبعين لملته، ﴿لإِبْرَاهِيم﴾ ابن آزر عَلَيْهِ السَّلَامُ .

﴿٨٤﴾ وكان من شأنه ﷺ: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ من الشرك والخرافات والبدع.
فكان معمورًا بالتوحيد والسنة ومحبة الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولذلك اتخذه الله خليلًا، كما قال: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء:١٢٥] وقال عنه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾ [النحل: ١٢٠، ١٢١]، والقلب السليم صاحبه منتفع يوم القيامة، كما قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩]، وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: **«كُلُّ مَخْمُومِ الْقَلْبِ، صَدُوقِ اللِّسَانِ»**. قَالُوا: صَدُوقُ اللِّسَانِ نَعْرِفُهُ، فَمَا مَخْمُومُ الْقَلْبِ؟ قَالَ: **«هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ، لَا إِثْمَ فِيهِ، وَلَا بَغْيَ، وَلَا غِلَّ، وَلَا حَسَدَ»** أخرجه ابن ماجه.

قال ابن القيم رحمه الله "إغاثة اللهفان " (٧/ ١):

وقد اختلفت عبارات الناس فىٰ معنىٰ القلب السليم، والأمر الجامع لذلك: أنه الذىٰ قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خبره. فسلم من عبودية ما سواه، وسلم من تحكيم غير رسوله. فسلم فىٰ محبة غير الله معه ومن خوفه ورجائه والتوكل عليه، والإنابة إليه، والذل له، وإيثار مرضاته فىٰ كل حال والتباعد من سخطه بكل طريق. وهذا هو حقيقة العبودية التىٰ لا تصلح إلا لله وحده. اهـ

﴿٨٥﴾ ﴿إِذْ قَالَ﴾ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿لأَبِيهِ﴾ آزر، ﴿وَقَوْمِهِ﴾ من أهل بابل، ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ منكرًا عليهم عبادة الأصنام والأوثان والنجوم والكواكب.

﴿٨٦﴾ ﴿أَئِفْكًا﴾ كذبًا، ﴿ءَالِهَةً﴾ تدعونها من: ﴿دُونَ اللهِ﴾ سبحانه وتعالىٰ، ﴿تُرِيدُونَ﴾ تريدونها وترغبون إليها.

٨٧ ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ما قولكم في رب العالمين؟ وما ظنكم أنه فاعل بكم إذا لقيتموه وأنتم تشركون معه غيره، هل كان عاجزًا حتىٰ اتخذ له من يعينه وينصره ويقوم معه؟ أم أن ظنكم السيء برب العالمين هو الذي جعلكم تتخذون هذه الأصنام والأوثان وتعبدونها من دون الملك العلام سبحانه وتعالىٰ.

٨٨ ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ﴾ متفكرًا متأملًا، وهذا من الحيلة التي أراد أن يتوصل بها إلىٰ تكسير أصنامهم، قال قتادة: والعرب تقول لمن تفكر نظر في النجوم، يعني أنه نظر في السماء متفكراً.

٨٩ ﴿فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ﴾ مريض ضعيف عن الخروج معكم في عيدكم، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: " لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَطُّ إِلَّا ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ، ثِنْتَيْنِ فِي ذَاتِ اللهِ، قَوْلُهُ: إِنِّي سَقِيمٌ، وَقَوْلُهُ: بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا، وَوَاحِدَةٌ فِي شَأْنِ سَارَةَ، فَإِنَّهُ قَدِمَ أَرْضَ جَبَّارٍ وَمَعَهُ سَارَةُ، وَكَانَتْ أَحْسَنَ النَّاسِ، فَقَالَ لَهَا: إِنَّ هَذَا الْجَبَّارَ، إِنْ يَعْلَمْ أَنَّكِ امْرَأَتِي يَغْلِبْنِي عَلَيْكِ، فَإِنْ سَأَلَكِ فَأَخْبِرِيهِ أَنَّكِ أُخْتِي، فَإِنَّكِ أُخْتِي فِي الْإِسْلَامِ، فَإِنِّي لَا أَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ مُسْلِمًا غَيْرِي وَغَيْرَكِ، فَلَمَّا دَخَلَ أَرْضَهُ رَآهَا بَعْضُ أَهْلِ الْجَبَّارِ، أَتَاهُ فَقَالَ لَهُ: لَقَدْ قَدِمَ أَرْضَكَ امْرَأَةٌ لَا يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تَكُونَ إِلَّا لَكَ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا فَأُتِيَ بِهَا فَقَامَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَىٰ الصَّلَاةِ، فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ لَمْ يَتَمَالَكْ أَنْ بَسَطَ يَدَهُ إِلَيْهَا، فَقُبِضَتْ يَدُهُ قَبْضَةً شَدِيدَةً، فَقَالَ لَهَا: ادْعِي اللهَ أَنْ يُطْلِقَ يَدِي وَلَا أَضُرُّكِ، فَفَعَلَتْ، فَعَادَ، فَقُبِضَتْ أَشَدَّ مِنَ الْقَبْضَةِ الْأُولَىٰ، فَقَالَ لَهَا مِثْلَ ذَلِكَ، فَفَعَلَتْ، فَعَادَ، فَقُبِضَتْ أَشَدَّ مِنَ الْقَبْضَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ، فَقَالَ: ادْعِي اللهَ أَنْ يُطْلِقَ يَدِي، فَلَكِ اللهَ أَنْ لَا أَضُرَّكِ، فَفَعَلَتْ، وَأُطْلِقَتْ يَدُهُ، وَدَعَا الَّذِي جَاءَ بِهَا فَقَالَ لَهُ: إِنَّكَ إِنَّمَا أَتَيْتَنِي بِشَيْطَانٍ، وَلَمْ تَأْتِنِي بِإِنْسَانٍ، فَأَخْرِجْهَا مِنْ أَرْضِي، وَأَعْطِهَا هَاجَرَ. قَالَ: فَأَقْبَلَتْ تَمْشِي، فَلَمَّا رَآهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ انْصَرَفَ، فَقَالَ لَهَا: مَهْيَمْ؟ قَالَتْ: خَيْرًا، كَفَّ اللهُ يَدَ الْفَاجِرِ، وَأَخْدَمَ خَادِمًا " قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَتِلْكَ أُمُّكُمْ يَا بَنِي مَاءِ السَّمَاءِ» **متفق عليه**، وقد ذكر العلماء: أن هذا من المعاريض، وأنه سقيم من معبوداتهم ومما يشركون ويندون.

٩٠ ﴿فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ﴾ يعني: ذهبوا إلىٰ آلهتهم وأصنامهم يعبدونها من دون الله، ﴿مُدْبِرِينَ﴾ تركوه وراءهم وذهبوا.

(٩١) ﴿فَرَاغَ﴾ مال ميلة خفيفة ﴿إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ معبوداتهم من الأصنام، ﴿فَقَالَ﴾ متهكمًا مستهزئًا بها: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ وذلك أنهم كانوا قد وضعوا لها غذاء.

(٩٢) ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ أعجزتم عن ذلك أيها الحجارة الصماء البكماء، ومثلكم يعبد من دون الله.

(٩٣) ﴿فَرَاغَ﴾ أقبل ﴿عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا﴾ تكسيرًا، ﴿بِٱلْيَمِينِ﴾ بالقوة، وقيل: بيده اليمنىٰ كسرها تكسيرًا.

(٩٤) ﴿فَأَقْبَلُوٓاْ﴾ عباد الأصنام، ﴿إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ يسرعون، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ في سورة الأنبياء: ﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء:٥٩-٦٧].

(٩٥) فـ ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ﴾ منكراً عليهم ثابتًا في مواجهتهم: ﴿مَا تَنْحِتُونَ﴾ أصنامًا تنحتونها بأيديكم، وتصورونها بأنفسكم.

(٩٦) ﴿وَاللَّهُ﴾ مع أن الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿خَلَقَكُمْ﴾ أوجدكم من العدم، ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ وخلق أصنامكم التي تعملونها فهو المعبود بحق، وغيره إن عُبِدَ فبباطل.

وفي هذه الآية ردٌّ علىٰ المعتزلة فإن الله خالق العباد وخالق أفعالهم، وهم يزعمون أن الله لم يخلق أفعال العباد، جهلًا منهم، وإنكارًا للقدر، وعند أهل السنة أن مراتب القدر أربعة، قلت في المنظومة الزعكرية:

سَادِسُهَا الْإِيمَانُ بِالْأَقْدَارِ ... مَا كَانَ فِي الْأَبْرَارِ وَالْفُجَّارِ
جَمِيعُهَا مَخْلُوقَةٌ لِرَبِّي ... فَحَقِّقِ الْحَقَّ وَقُلْ لِي حَسْبِي
مَرَاتِبُ الْأَقْدَارِ فِيهَا أَرْبَعُ ... قَدْ حَقَّقُوهَا قَبْلَ ذَا فَلْتَسْمَعُوا
عِلْمٌ كِتَابَةٌ لَهُ تَعَالَىٰ ... مَشِيئَةٌ خَلْقٌ بِذَا قَدْ قَالَا

﴿٩٧﴾ ﴿قَالُواْ﴾ كبرًا وإعراضًا: ﴿ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا﴾ رفيعًا وأوقدوا فيه النار، ﴿فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾ حتىٰ يموت موتة لم يمتها قبله أحد، أرادوا أن ينكلوا به.

﴿٩٨﴾ ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا﴾ مكرًا وقتلًا، ﴿فَجَعَلْنَـٰهُمُ﴾ صيرناهم، ﴿ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ المذمومين المدحورين، وأما إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ فقد سلمه الله عَزَّوَجَلَّ فقال: ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء:٦٩].

﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَـٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَـٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَـٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾.

﴿٩٩﴾ ﴿و﴾ بعد أن نجاه الله منهم وسلمه من مكرهم وبطشهم: ﴿قَالَ﴾ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ﴾ مهاجر ﴿إِلَىٰ رَبِّى﴾ فار بدينه إلىٰ الأرض المباركة أرض الشام، وخرج معه ابن أخيه لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ﴿سَيَهْدِينِ﴾ سيوفقني إلىٰ سبيل الخير والرشاد.

﴿١٠٠﴾ ﴿رَبِّ هَبْ لِى﴾ أعطني ذرية ﴿مِنَ الصَّـٰلِحِينَ﴾ الموحدين إذ لم يكن معه ولد وقد كَبُرَ سنه ورق عظمه.

﴿١٠١﴾ ﴿فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ﴾ وهو إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأمه هاجر عَلَيْهَا السَّلَامُ، ﴿حَلِيمٍ﴾ في خلقه وطبعه؛ فلا يعاجل بالعقوبة، ولا يستعجل في أمره.

﴿١٠٢﴾ ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ شب وبلغ معه مبلغ الخروج والدخول، وهو الوقت الذي يفرح الرجل بابنه أشد الفرح؛ لأنه قد ارتفعت عنه التبعات، بخلاف الصغير يحتاج أن تغسله، وتنظفه، وأن تسقيه، رأىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه يذبح ولده، ورؤيا الأنبياء وحي، ﴿قَالَ يَـٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ كما تُذبح الشاة تقربًا إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ﴾ احكم حكمك، وهذا موقف عظيم بل من أشد المواقف: أن يؤمر الإنسان بذبح ولده ووحيده في حال سعيه ونفعه، ولكن لم يكن من ذلك بد، قيل بأن السبب: أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ قد شَغُفَ بحب إسماعيل، والله عَزَّوَجَلَّ قد اتخذه خليلًا فأراد الله أن يختبره في ذلك، ﴿قَالَ﴾ إسماعيل

﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ به، ﴿سَتَجِدُنِيٓ﴾ عند ذلك ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ رد الأمر إلىٰ الله من المهمات؛ لأن الإنسان قد يضعف ويَجبن، ﴿مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ الراضين بحكم الله عَزَّوَجَلَّ.

وقد ذهب اليهود والنصارىٰ ومن اغتر بتفسيراتهم إلىٰ أن الذبيح إسحاق، وهذا كلام غير صحيح، لأمور:

- الأول: أن أسحاق لم يكن قد وُجِد.

- الثاني: أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لما بُشر بإسحاق بُشر بعده بيعقوب، فمعلوم أنه ما كان ليؤمر بذبحه وقد بُشر بولده.

- الثالث: أن الله عَزَّوَجَلَّ قص علينا شأن إسماعيل، ثم قال في سياقه القصة: ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات:١١٢]، فكانت البشارة بعد إرادة الذبح.

الرابع: أن إسحاق موصوف بالغلام العليم، وإسماعيل موصوف بالغلام الحليم أي: صاحب الصبر والتؤدة والسكينة.

﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾ استسلما لله عَزَّوَجَلَّ جميعًا إبراهيم وولده، ﴿وَتَلَّهُۥ﴾ أي: ألقاه وأضجعه: ﴿لِلۡجَبِينِ﴾ علىٰ وجهه حتىٰ لا ينظر إلىٰ وجهه فيتحرج من ذبحه.

ففرج الله عنه الشدة: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾ أي: كف عن هذا الأمر.

﴿قَدۡ صَدَّقۡتَ﴾ حققت، ﴿ٱلرُّءۡيَآۚ﴾ عملت بما أوحاه الله إليك، ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ بالسلامة والكرامة ﴿نَجۡزِي﴾ نثيب ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أصحاب الإحسان مع الله عَزَّوَجَلَّ: بالتزام أمره، ومع المخلوقين: ببذل الندىٰ وكف الأذىٰ أي: أن الله يسلمهم ويدافع عنهم ويُكرمهم.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ﴾ الاختبار ﴿ٱلۡمُبِينُ﴾ الواضح الجلي أن تؤمر بذبح ولدك.

﴿وَفَدَيۡنَٰهُ﴾ أي: إسماعيل ﴿بِذِبۡحٍ عَظِيمٍ﴾ يعني: الكبش، وأما أنه كبش نزل من الجنة ما عندنا ما يدل عليه فالله أعلم.

﴿وَتَرَكۡنَا﴾ أبقينا ﴿عَلَيۡهِ﴾ علىٰ إبراهيم ﴿فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ الذكر الحسن والتأسي به والدعاء الطيب، وفعلًا لا يُصلىٰ علىٰ النبي ﷺ لا سيما في الصلاة إلا وتُقرن الصلاة بإبراهيم فعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ، قَالَ: أَتَانَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ فِي مَجْلِسِ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ، فَقَالَ لَهُ بَشِيرُ بْنُ سَعْدٍ: أَمَرَنَا اللهُ تَعَالَىٰ أَنْ نُصَلِّيَ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ، فَكَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ؟ قَالَ: فَسَكَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، حَتَّىٰ تَمَنَّيْنَا أَنَّهُ لَمْ يَسْأَلْهُ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قُولُوا اللهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَىٰ آلِ إِبْرَاهِيمَ وَبَارِكْ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ**

وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَىٰ آلِ إِبْرَاهِيمَ فِي الْعَالَمِينَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، وَالسَّلَامُ كَمَا قَدْ عَلِمْتُمْ» متفق عليه.

وإبراهيم داخل فيهم، فما زال يُذكر بالثناء الحسن، حتىٰ اليهود والنصارىٰ ادعوا أنه منهم مع أنه قبلهم، ولكن الذين هم علىٰ طريقة محمد ﷺ ومن معه كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:٦٨].

(١٠٩) ﴿سَلَٰمٌ﴾ من الله عَزَّوَجَلَّ، ودعاء بالسلامة: ﴿عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ لإسلامه واستقامته.

(١١٠) ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما جازينا إبراهيم بهذه الكرامة، ﴿نَجْزِي﴾ نثيب ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الموحدين المطيعين، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠].

(١١١) ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا﴾ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المستجيبين المقرين، المبادرين إلىٰ طاعة رب العالمين.

(١١٢) ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ﴾ أي إبراهيم كرامةً له ومجازاة علىٰ طاعته، ﴿بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا﴾ من امرأته سارة ابنًا و ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ المنقادين لرب العالمين وهذا غاية ما يريده الرجل الصالح.

(١١٣) ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ جعلنا البركة في إبراهيم، ﴿وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَۚ﴾ وفي ولده، ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا﴾ حيث أن أكثر الأنبياء منهم ﴿مُحْسِنٌ﴾ من ذرية إسماعيل وإسحاق، ﴿وَظَالِمٌ﴾ مؤمن والمعنىٰ أن البركة في محسنهم، وهو الملازم للتوحيد، ﴿لِّنَفْسِهِۦ﴾ كافر، أو مسرف علىٰ نفسه بالمعاصي، ﴿مُبِينٌ﴾ واضح وظاهر الظلم والبغي.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١١٤ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ١١٥ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ١١٦ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ١١٧ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ١١٨ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي ٱلْءَاخِرِينَ ١١٩ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١٢٠ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ١٢١ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٢٢﴾.

(١١٤) ﴿وَ﴾ اذكر يا محمد: ﴿لَقَدْ مَنَنَّا﴾ وأعطينا العطاء الكثير وأوصلنا الهبات العظيمة وأجلها النبوة والرسالة: ﴿عَلَىٰ مُوسَىٰ﴾ ابن عمران، ﴿وَهَٰرُونَ﴾ أخوه الأكبر.

(١١٥) ﴿وَنَجَّيْنَٰهُمَا﴾ سلمناهما، وخلصناهما، ﴿وَقَوْمَهُمَا﴾ بني إسرائيل، ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الشدة العظيمة، فنجاهم حين لحقهم فرعون وجنوده، فكان اليم أمامهم وفرعون خلفهم فـ: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ٦١ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي

سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الشعراء:٦١-٦٦].

﴿١١٦﴾ ﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ﴾ موسىٰ وهارون ومن معهم، ﴿فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ المنتصرين علىٰ فرعون وسحرته.

﴿١١٧﴾ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة، ﴿ٱلْمُسْتَبِينَ﴾ المستنير، وهي البينة الواضحة في أحكامها وفي أوامرها وأخبارها.

﴿١١٨﴾ ﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا﴾ دللناهما ووفقناهما، ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ الطريق ﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ الدين القويم: وهو الإسلام الحنيف.

﴿١١٩﴾ ﴿وَتَرَكْنَا﴾ أبقينا ﴿عَلَيْهِمَا فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾ بالذكر الحسن لما كانا عليه من الطاعة لله عَزَّوَجَلَّ، والدعوة إلىٰ الخير، والثبات علىٰ الدين.

﴿١٢٠﴾ ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ دعوة بالسلامة لهما في الدنيا والآخرة، وإخبار أن الله سلم عليهما.

﴿١٢١﴾ ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ كما جزينا موسىٰ وهارون عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ، ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يجزون بالحسنات إحسانًا.

﴿١٢٢﴾ ﴿إِنَّهُمَا﴾ أي: استحقا هذا الأمر لأنهما: ﴿مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المستجيبين المقرين المنيبين.

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾.

﴿١٢٣﴾ ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ﴾ هو إدريس، كما في مصحف ابن مسعود، وقيل هو نبي من أنبياء بني إسرائيل، ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الذين أرسلهم الله إلىٰ القوم المخالفين، وكان من شأنه.

﴿١٢٤﴾ ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ داعيًا لهم إلىٰ التوحيد ومحذرًا لهم من الشرك والتنديد: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ توحدون الله عَزَّوَجَلَّ، وتلتزمون أمره، وتستجيبون لدعوته.

﴿١٢٥﴾ ﴿أَتَدْعُونَ﴾ تعبدون، ﴿بَعْلًا﴾ صنمًا يقال له: بعل، ولهذا سميت مدينتهم بعلبك، ﴿وَتَذَرُونَ﴾ تتركون عبادة الله، ﴿أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ فلا تعبدونه.

﴿١٢٦﴾ ﴿وَاللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ أوجدكم، وخلقكم، وأمدكم، وأعانكم، ﴿وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ الذين تقدموا قبلكم فهو الذي خلقهم.

﴿١٢٧﴾ ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ وأعرضوا عن عبادة الله، ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ إلىٰ العذاب الأليم يوم القيامة، وهكذا كل مبطل سيحضر ويجد عمله أمامه.

﴿١٢٨﴾ ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ من قومه فإنهم نجوا من العذاب؛ لإخلاصهم لله عَزَّوَجَلَّ وانقيادهم له.

﴿١٢٩﴾ ﴿وَتَرَكْنَا﴾ أبقينا ﴿عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ الذكر الحسن بسبب دعوته واستجابته وصلاح حاله.

﴿١٣٠﴾ ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ﴾ آل ياسين: وهو إلياس، وقيل محمد ﷺ.
- وَالصَّحِيحُ الْأَوَّلُ.

﴿١٣١﴾ ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ كما جزيناه، ﴿نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ وهذا من كرم الله عَزَّوَجَلَّ وشكره: أن يضاعف لأهل الإحسان إحسانًا، ويجازيهم بالسيئات عفوًا وغفرانًا.

﴿١٣٢﴾ ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ المنيبين المخبتين المتقين لرب العالمين.

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

﴿١٣٣﴾ ﴿وَإِنَّ لُوطًا﴾ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو ابن أخي إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، خرج مهاجراً مع إبراهيم إلىٰ بلاد الشام ﴿لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ إلىٰ أهل سدّوم.

﴿١٣٤﴾ ﴿إِذْ نَجَّيْنَاهُ﴾ سلمناه وخلصناه، ﴿وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ من العذاب المهين الذي صبحهم الله به، كما قال تعالىٰ: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر:٧٤].

﴿١٣٥﴾ ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي﴾ زوجته، ﴿فِي الْغَابِرِينَ﴾ بقيت معهم وأُهلكت بسبب نفاقها ونصرتها لقومها.

وكان ذنبهم: الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ والفاحشة التي ما سبقهم إليها أحد من العالمين إذ كانوا يأتون: ﴿ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٥﴾ [الشعراء:١٦٥]، وهذا الصنف لا خير فيه، فالرجل إذا ابتُلِيَ في نفسه ورضي أن يؤتىٰ كما تؤتىٰ المرأة يُصبح من أسوأ الناس خُلقًا، فتذهب مروءته، وتضعف ديانته إن كان من أهل الإسلام، ومن رضي في نفسه رضي بغيره؛ ولذلك كان حد هذه الفاحشة العظيمة القتل سواءً كان محصنًا أو غير محصن، فقد أجمع الصحابة علىٰ قتله، واختلفوا في كيفية قتله فقال بعضهم: يُلقىٰ من شاهق، وقال بعضهم: يُحرق بالنار، وقال بعضهم: يُرجم بالحجارة إلىٰ غير ذلك، فهي فعلة شنيعة سيئة انتشرت في هذه الأيام بسبب دعاة الإجرام وسموهم بغير اسمهم؛ تزيينًا لباطلهم فسموهم بالمثليين، ومجتمع الميم، ونحو ذلك من الأسماء.

١٣٦ ﴿ثُمَّ دَمَّرۡنَا﴾ أهلكنا ﴿ٱلۡأٓخَرِينَ﴾ الذين لم يُسلموا ويدخلوا في دينه.

١٣٧ ﴿وَإِنَّكُمۡ﴾ يا معاشر قريش، ﴿لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم﴾ علىٰ ديارهم في ذهابكم ورجوعكم من وإلىٰ الشام بالتجارة ﴿مُّصۡبِحِينَ﴾ وقت الصباح.

١٣٨ ﴿وَ﴾ تمرون عليهم ﴿بِٱلَّيۡلِۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أمر الله؛ فتنزجرون عن شرككم حين رأيتم ما قد حل بهم من الدمار والخزي والبوار.

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٣٩ إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ١٤٠ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ ١٤١ فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ١٤٢ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤٤ فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ ١٤٥ وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ١٤٦ وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ١٤٧ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ١٤٨﴾.

١٣٩ ﴿وَإِنَّ يُونُسَ﴾ بن مَتّىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، ﴿لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ أرسله الله عَزَّوَجَلَّ إلىٰ قومه يدعوهم إلىٰ التوحيد والإيمان.

١٤٠ فكان من شأنه: ﴿إِذۡ أَبَقَ﴾ خرج مغاضبًا حين أبىٰ قومه الإيمان وركب: ﴿إِلَى ٱلۡفُلۡكِ﴾ السفينة، ﴿ٱلۡمَشۡحُونِ﴾ المحمل بأنواع البضائع والأمتعة.

١٤١ وبينما هم في البحر اغتلم عليهم، وكان أصحاب السفينة أصحاب عدل فقالوا: لابد أن ننقص من حِمل السفينة، من تقع عليه القرعة: ﴿فَسَاهَمَ﴾ قارع يونس عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ﴾ المغلوبين الذين نالهم أن يُلقىٰ في البحر.

(١٤٢) ﴿فَٱلْتَقَمَهُ﴾ ابتلعه ﴿ٱلْحُوتُ﴾ حين إلقائه إلىٰ البحر وهو من أكبر الحيوان، ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ مُلام علىٰ فعله من خروجه من عند قومه مغاضبًا، أو أنه قد لحقه الحرج حين ألقوه ولم يجد بُدًا من مطاوعتهم.

(١٤٣) ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ الذاكرين لرب العالمين قبل الإلقاء وبعده، فالعبادة سبب لصرف الشرور والآثام عن الإنسان، وكان تسبيحه في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧].

(١٤٤) ﴿لَلَبِثَ﴾ بقي ﴿فِى بَطْنِهِۦٓ﴾ حيث يصير له قبراً، ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ يوم القيامة.

(١٤٥) ﴿فَنَبَذْنَٰهُ﴾ ألقيناه وطرحناه، ﴿بِٱلْعَرَآءِ﴾ المكان الخالي حول البحر، من الشجر والبناء ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ مريض عليل، ضعيف البدن لمكثه في بطن الحوت.

(١٤٦) ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ تظله، وهي القرع الدباء، قيل: لأنها تطرد الذباب وباردة، وكبيرة الورق، وناعمة ويؤكل نيا ومطبوخاً.

(١٤٧) ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ﴾ بعد ذلك، ﴿إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ بل يزيدون، وليس المعنىٰ: أن الله شك في عددهم، أو أنه لا يعلم عددهم، فقد قال بعض أهل العلم المعنىٰ: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ﴾ في العدد، ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ في نظر الناظر، حيث يظنهم أكثر من مائة ألف، وقيل: المعنىٰ وأرسلناه إلىٰ مائة ألف ويزيدون، فيكون (أو) بمعنىٰ الواو.

(١٤٨) ﴿فَـَٔامَنُوا۟﴾ به، ﴿فَمَتَّعْنَٰهُمْ﴾ أبقيناهم ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ وسلم الله عَزَّوَجَلَّ قوم يونس من الدمار والبوار بسبب توبتهم، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس:٩٨].

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾.

(١٤٩) ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ اسألهم يا محمد سؤال توبيخ، ﴿أَلِرَبِّكَ﴾ الخالق الرازق المالك المدبر: ﴿ٱلْبَنَاتُ﴾ الإناث، مع أنه منزه عن الولد والصاحبة وهذه: قسمة ضيزىٰ، مع ما فيها من الباطل، فمن عجيب شأنهم: أنهم أضافوا إلىٰ أنفسهم، وإلىٰ آلهتهم الذكور، وأضافوا إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ البنات، وحالهم كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ

مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل: ٥٨]، فجعلوا لله ما كرهوه لأنفسهم، ﴿وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ﴾، كقوله تعالىٰ: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ [النجم: ٢١، ٢٢].

﴿١٥٠﴾ ﴿أَمْ﴾ بل هل ﴿خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾ مطلعون، فالواقع: ليس لله البنات، ولم يخلق الملائكة إناثًا، بل هذا من إفكهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف:١٩].

﴿١٥١﴾ ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ﴾ من كذبهم وباطلهم، ﴿لَيَقُولُونَ﴾ زورًا وبهتانًا قولًا عظيمًا سيئًا.

﴿١٥٢﴾ ﴿وَلَدَ ٱللَّهُ﴾ صار منه الولد، ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في دعواهم وقولهم، وهذا من أعظم الذنب قال الله: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾ [مريم:٩٠-٩١].

﴿١٥٣﴾ ثم قال منكراً عليهم: ﴿أَصْطَفَى﴾ أختار، استفهام توبيخ، ﴿ٱلْبَنَاتِ﴾ الضعيفات ﴿عَلَى ٱلْبَنِينَ﴾ يعني: كيف يختار الذين هم عندكم في الدون لنفسه وهو المالك المتصرف في هذا العالم.

﴿١٥٤﴾ ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ ما هذا الحُكم الجائر المخالف لبداءة العقل السليم.

﴿١٥٥﴾ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون وتنزجرون عن هذا القول الباطل.

﴿١٥٦﴾ ﴿أَمْ﴾ هل ﴿لَكُمْ سُلْطَٰنٌ﴾ حجة، ﴿مُّبِينٌ﴾ بينة تأتوني بها حتىٰ نصدقكم ونأخذ بقولكم، فلم يكن لديهم سلطان ولا حجة.

﴿١٥٧﴾ ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ﴾ الذي تلقيتم منه هذا الكلام السيء، ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ولا كتاب لكم.

﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾.

﴿١٥٨﴾ ﴿وَ﴾ ومن عجيب فسادهم أنهم: ﴿جَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ حيث زعموا: أن الملائكة بنات الله وأمهاتهن سروات الجن، وهذا قول قبيح يستحي الإنسان أن يذكره في حق الله عَزَّوَجَلَّ، تعالىٰ الله عن قولهم علواً كبيراً: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون:٤]، ﴿وَلَقَدْ

عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ﴾ عَلِمَ الجن: ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ يوم القيامة بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ فيجازيهم بأعمالهم.

١٥٩ ﴿سُبْحَانَ ٱللَّهِ﴾ تنزيه لله عَزَّوَجَلَّ، ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ عما يصفه به هؤلاء المشركون المنددون، فهذا أقبح السب: أن يُجعل لله عَزَّوَجَلَّ الولد، وفي حديث أَبِي مُوسَىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«لَا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَىٰ أَذًىٰ يَسْمَعُهُ مِنَ اللهِ** عَزَّوَجَلَّ، **إِنَّهُ يُشْرَكُ بِهِ، وَيُجْعَلُ لَهُ الْوَلَدُ، ثُمَّ هُوَ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ»** متفق عليه، وإنما يحتاج إلىٰ الولد المخلوق الذي يضعف، ويموت ويحتاج إلىٰ الصاحبة من يحتاج إلىٰ من يقوم بشأنه، والله عَزَّوَجَلَّ الغني الحميد.

١٦٠ ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ من أنهم لا يحضرون للعذاب، لصلاح أعمالهم، أو أنهم وصفوا الله عَزَّوَجَلَّ كما يليق بجلال وجه وعظيم سلطانه، فيصفونه بأحسن الوصف من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، بخلاف هؤلاء المشركين الممثلين.

١٦١ ﴿فَإِنَّكُمْ﴾ يا معاشر الكفار، ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ من الأصنام والآلهة والأوثان.

١٦٢ ﴿مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ علىٰ ما تعبدون ﴿بِفَٰتِنِينَ﴾ ما تستطيعون إضلال أحد ولا هداية أحد.

١٦٣ ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ﴾ بإضلال الله عَزَّوَجَلَّ له، يُضله بعلمه أنه ليس أهلًا للهداية، ﴿صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ فيدخل النار فتكون محيطة به.

١٦٤ وقال الملائكة مبينة أنهم عبيد لله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا مِنَّآ﴾ أحد من ملائكة الله، ﴿إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ﴾ مكان عند الله عَزَّوَجَلَّ يعبدونه، ويرجونه، ويتوسلون إليه: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر:٧]، ﴿مَّعْلُومٌ﴾ لا يتعداه إلىٰ غيره، كما قال تعالىٰ: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧].

١٦٥ ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ﴾ أي: الملائكة، ﴿ٱلصَّآفُّونَ﴾ للصلاة لله عَزَّوَجَلَّ، وفي حديث جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ، قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: **«أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟»** فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ، وَكَيْفَ تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟ قَالَ: **«يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الْأُوَلَ وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ»** أخرجه مسلم (٤٣٠)، وعَنْ أَبِي ذَرٍّ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ أَيُّ الْكَلَامِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: **«مَا اصْطَفَىٰ اللهُ لِمَلَائِكَتِهِ أَوْ لِعِبَادِهِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ»** أخرجه مسلم (٢٧٣١).

١٦٦ ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ المنزهون لله عَزَّوَجَلَّ مما يقوله الكافرون والمبطلون.

﴿وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُواْ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾.

﴿١٦٧﴾ ﴿وَإِن كَانُواْ﴾ وقد كانوا يعني أهل مكة، ﴿لَيَقُولُونَ﴾ قبل مجيء محمد ﷺ.

﴿١٦٨﴾ ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا﴾ كتاباً ﴿مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ مما أتىٰ قوم موسىٰ وقوم عيسىٰ حتىٰ نأخذ به.

﴿١٦٩﴾ ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ المنيبين المستقيمين، ومع ذلك قد جاءهم القرآن.

﴿١٧٠﴾ ﴿فَكَفَرُواْ بِهِۦ﴾ أعرضوا عنه ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ حين يبعثون بين يدي ربهم فيجازيهم العذاب الأليم.

﴿١٧١﴾ ثم قال الله مبشراً عباده المؤمنين بالنصر والتمكين: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ في الدنيا وفي الآخرة، وهي قوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ **[المجادلة: ٢١]**، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ **[غافر:٥١]**.

﴿١٧٢﴾ ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ علىٰ أعدائهم بنصر الله لهم.

﴿١٧٣﴾ ﴿وَإِنَّ جُندَنَا﴾ حزب الله ﴿لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ المتمكنون.

﴿١٧٤﴾ ﴿فَتَوَلَّ﴾ أعرض ﴿عَنْهُمْ﴾ يا محمد، ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ حتىٰ يأتيهم العذاب الذي أوعدهم الله به.

﴿١٧٥﴾ ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ أنظرهم إذا نزل بهم العذاب، ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ العذاب بأعينهم حين لا ينفعهم البصر.

﴿١٧٦﴾ ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾، أي إنهم إنما يستعجلون عذاب الله، كما قال تعالىٰ: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ **[المعارج:١]**، وقالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ **[الأنفال:٣٢]**، فكانوا يسألون النبي ﷺ أن يعاجلهم بالعقوبة.

(١٧٧) ﴿فَإِذَا نَزَلَ﴾ وقع العقاب والعذاب، ﴿بِسَاحَتِهِمْ﴾ بدارهم ونزل جيش المسلمين بهم، ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ فبئس ما يصبحون به، ولهذا لما نزل النبي ﷺ خيبر قال: **«اللهُ أَكْبَرُ، خَرِبَتْ خَيْبَرُ إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ، فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ»** متفق عليه عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يعني: جاءهم الجيش وصبحهم ولا سلامة لهم إلا أن يسلمهم الله عَزَّوَجَلَّ.

(١٧٨) ﴿وَتَوَلَّ﴾ أعرض، ﴿عَنْهُمْ﴾ يا محمد، ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ هذا تكرار للوعيد علىٰ الكفار وأنهم مُهلكون معذبون.

(١٧٩) ﴿وَأَبْصِرْ﴾ أنظر ما يكون منهم، ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ العذاب إذا أراد الله إهلاكهم.

(١٨٠) ولما ذكر الله عَزَّوَجَلَّ أقوال المخالفين بزعمهم أن لله عَزَّوَجَلَّ البنات، أو خلق الملائكة بنات، أو أنه بينه وبين الجِنة نسبًا قال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ﴾ نزه نفسه المقدسة، ﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ أي: صاحب العزة.

وهذا دليل علىٰ أن كل اسم يتضمن صفة، فالعزيز هو صاحب العزة، كما أن القوي صاحب القوة ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ يصفه به المبطلون من التمثيل أو التعطيل.

(١٨١) ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ لسلامة قولهم؛ ولحسن اعتقادهم وفعلهم.

(١٨٢) ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الموصوف بالكمال المقدس أزلًا وأبدًا، فيُحمد علىٰ فضله، وعدله، وكل كماله وجلاله وجميل خصاله، ويُحمد علىٰ كل حال.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَىٰ اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَىٰ الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ»** متفق عليه.

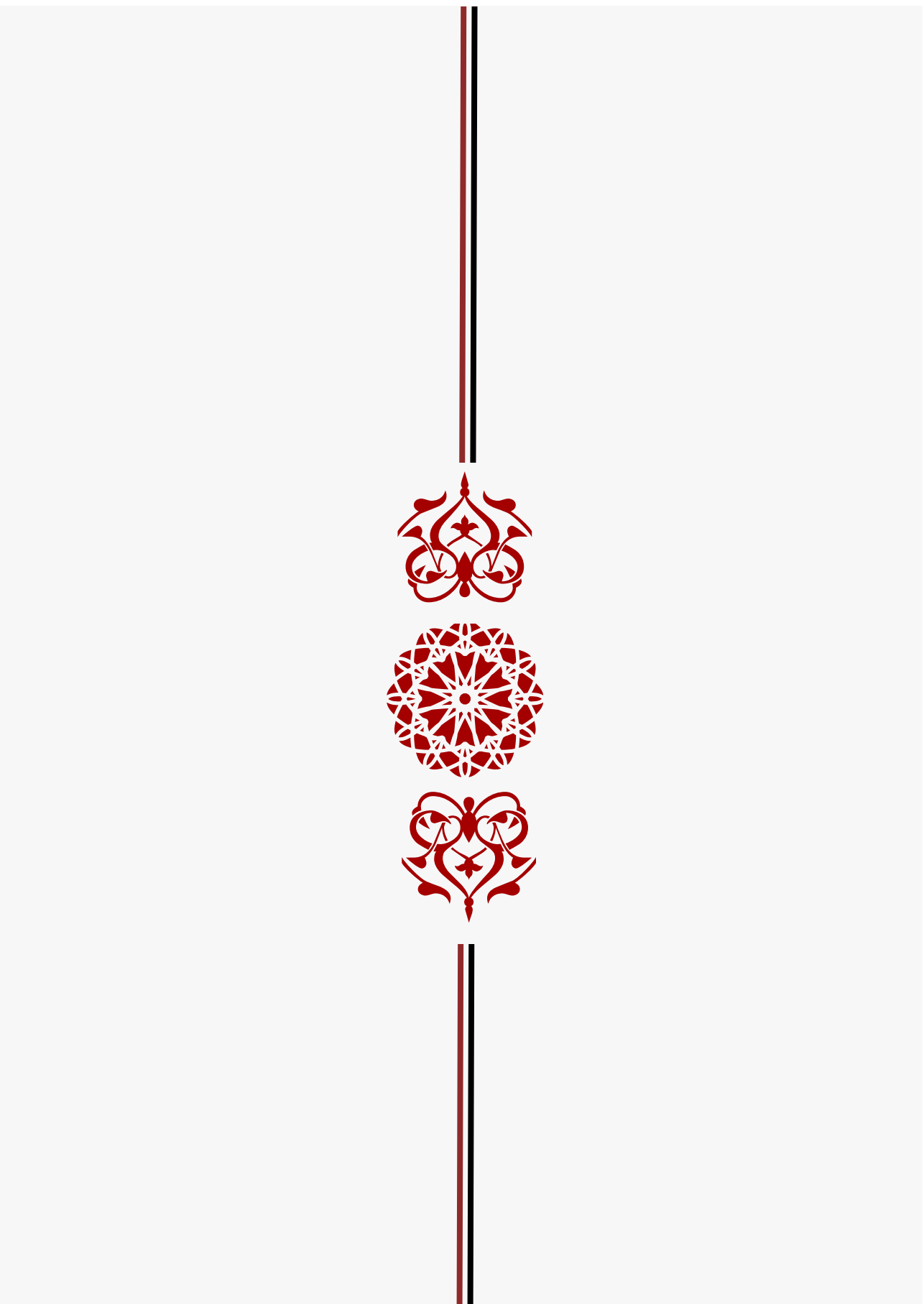
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الصَّافَّاتِ



تَفْسِيرُ سُورَةِ ص





سُورَةُ ص

مَكِّيَّةٌ، وَآيَاتُهَا ثَمَانِيَةٌ وَثَمَانُونَ آيَةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۖ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ۝٨ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ۝٩ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ۝١٠ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ۝١١﴾.

١ ﴿صٓ﴾ تقدم أنه من الحروف المقطعة التي افتتح الله عَزَّوَجَلَّ بها عدة سور من القرآن، وغالبًا يأتي بعدها الحلف أو وصف للقرآن، ﴿وَٱلْقُرْءَانِ﴾ أي: أقسم الله عَزَّوَجَلَّ بالقرآن، ﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ أي: ذي الشرف والعزة والرفعة، وقيل: الذي فيه الذكر من الترغيب والترهيب والوعد والوعيد.

٢ والمقسم عليه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: الجالب لهم إلىٰ عدم الإيمان، ﴿فِى عِزَّةٍ﴾ قوة ومنعة وطيش وبطش، ﴿وَشِقَاقٍ﴾ مخالفة لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فلا يهولنك ذلك.

٣ فـ ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ من أمم سابقة سالفة، ﴿فَنَادَوا۟﴾ حين هلاكهم وصاحوا، ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ هل من مرجع وسلامة؟ فلم يكن لهم ذلك.

٤ ﴿وَعَجِبُوٓا۟﴾ أي: كفار قريش، ﴿أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ وهو محمد ﷺ ينذرهم النار وبطش الله وغضبه، ويدعوهم إلىٰ عبادة الله وحده، يعرفون صدقه، ونسبه، وأمانته ومع ذلك كذبوه، ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ في رد دعوته: ﴿هَٰذَا سَٰحِرٌ﴾ يتعاطىٰ السحر والشعوذة والكهانة والعرافة، ﴿كَذَّابٌ﴾ في قوله، وهذا من تلبيسهم.

وإلا ففي حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن النبي ﷺ قال لهم: **«أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ مِنْ سَفْحِ هَذَا الجَبَلِ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟»** قَالُوا: مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا» متفق عليه، وهذا

دليل علىٰ اعترافهم بصدقه، ولما اختلفوا في من يضع الحجر الأسود في مكانه من الكعبة ودخل عليهم رسول الله ﷺ قالوا: دخل الصادق الأمين، وجعلوه حكمًا بينهم.

٥ والذي يُنكرونه علىٰ محمد ﷺ إنما هو دعوته إلىٰ التوحيد، يظهر ذلك من قولهم: ﴿أَجَعَلَ﴾ صير ﴿ٱلْآلِهَةَ﴾ التي يعبدونها مع كثرتها: هُبل، واللات، والعزىٰ، ومناة وغير ذلك من الآلهة الصغيرة والكبيرة، ﴿إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ وهو الله سبحانه وتعالىٰ، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ عجيب ودعوة جديدة ما علمنا ولا سمعنا بها.

وهذا لتنكس الفطر، وإلا فإن الإله الواحد المتصرف في العالم العلوي والسفلي والمستحق للعبادة هو الله عَزَّوَجَلَّ، وقد أقر هؤلاء أن الله هو الخالق، الرازق، المالك، المدبر لا شريك له في ذلك، فكان الواجب عليهم الإقرار بأنه: لا معبود بحق إلا هو، وانظر إلىٰ عجيب شأنهم يتعجبون من الدعوة إلىٰ التوحيد، كما هو حال كثير من الناس ممن ينتسب إلىٰ الإسلام يتعجبون من الدعوة إلىٰ السنة، والحال كما قال بعضهم:

يعيرني الواشون أني أحبها وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

٦ ﴿وَٱنطَلَقَ﴾ خرج وذهب ﴿ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ الكبار والسادة مثبتين لأصحابهم علىٰ كفرهم، قائلين لهم: ﴿أَنِ ٱمْشُوا۟﴾ امضوا، ﴿وَٱصْبِرُوا۟﴾ تصبروا، ﴿عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ أي: علىٰ عبادتها والثبات علىٰ هذا الدين، ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الدعوة إلىٰ التوحيد ﴿لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ أي: شيء مدبر ومكر بآلهتكم فكونوا علىٰ حذر منه.

فانظر كيف يصبر بعضهم بعضًا علىٰ الشرك والكفر، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الفرقان: ٤١، ٤٢].

٧ ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ الدين أو القرآن، ﴿فِى ٱلْمِلَّةِ﴾ الفترة، ﴿ٱلْآخِرَةِ﴾ السابقة، ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ القول، ﴿إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ مكذوب مزعوم، وهي علة عليه يحتج كل مبطل.

٨ ثم اعترضوا علىٰ اختيار الله لمحمد ﷺ لإنزال القرآن عليه فقالوا: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ القرآن والوحي ﴿مِنۢ بَيْنِنَا﴾ دون غيره كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:٣١]، ﴿بَلْ هُمْ﴾ الوقع أنهم ﴿فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِىٰ﴾ ريب من القرآن

ومن جاء به، ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ﴾ يصيبهم، ﴿عَذَابِ﴾ فإذا ذاقوا العذاب عند ذلك سيعرفون أنهم كانوا علىٰ شرك وضلال وبعد.

٩ ﴿أَمْ عِندَهُمْ﴾ يا محمد، ﴿خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ من النبوة وغيرها، فيعطونها لمن شاءوا ويمنعوها عمن شاءوا، حتىٰ يعترضوا علىٰ إرسال محمد ﷺ، ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ القوي الغالب، ﴿ٱلْوَهَّابِ﴾ كثير العطاء، يَهبُ لمن يشاء ما شاء، ويمنع من شاء.

١٠ ﴿أَمْ لَهُم﴾ لهؤلاء الكفار، ﴿مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يتصرفون فيهما، ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من المخلوقات، والجواب: ليس لهم ذلك، ﴿فَلْيَرْتَقُواْ﴾ ليصعدوا ﴿فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ إلىٰ السماء وليستمعوا قرآنًا، أو ليتمكنوا من الحكم بما أرادوا.

١١ وحالهم أنهم في قتالهم مع رسول الله ﷺ: ﴿جُندٌ﴾ جماعة، ﴿مَّا هُنَالِكَ﴾ من أهل مكة، ﴿مَهْزُومٌ﴾ يرجع بالخيبة والهزيمة في الفتح يوم بدر، ﴿مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ الذين تحزبوا علىٰ المؤمنين وعادوهم وأعرضوا عنهم، وهذا كقولهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر:٤٣-٤٥].

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾.

١٢ فلا يحزنك فعلهم فقد، ﴿كَذَّبَتْ﴾ أعرضت، ﴿قَبْلَهُمْ﴾ قبل قريش ﴿قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو﴾ صاحب ﴿ٱلْأَوْتَادِ﴾ البناء المحكم وقيل القوة والمنعة، وقيل: الجبال العالية الرفيعة، وقيل: أنه حين قتل امرأته عمل لها أوتادًا في الأرض وربطها فيها.

١٣ ﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾ الشجرة، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ تحزبوا ضد أنبيائهم ورسلهم، ولحقهم الهوان وكان النصر لأهل الإيمان والإسلام في كل عصر وأوان.

١٤ ﴿إِن﴾ ما ﴿كُلٌّ﴾ كل واحد ممن تقدم، ﴿إِلَّا كَذَّبَ﴾ رد دعوة الرسل ﴿ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ﴾ وجب عليهم ﴿عِقَابِ﴾ وإن تأخر فهو لاحق بهم في الدنيا والآخرة أو فيهما.

١٥ ﴿وَمَا يَنظُرُ﴾ ينتظر ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أهل مكة، ﴿إِلَّا صَيْحَةً﴾ نفخة، ﴿وَٰحِدَةً﴾ قوية، ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ من رجوع فلا يقومون بعدها ولا يرتفع لهم شأن.

(١٦) ﴿وَ﴾ مع ذلك: ﴿قَالُوا﴾ مكابرة لشدة بغضهم لدين محمد ﷺ ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ قسطنا من العذاب، وقيل: الكتاب، أي ما كتبت علينا وقيل: الهلكة ﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: قبل يوم القيامة، وهذا كقولهم: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج:١]، وكقولهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال:٣٢].

﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾.

(١٧) ﴿ٱصْبِرْ﴾ يا محمد ومن معك، ﴿عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ من السب والشتم والإعراض، ﴿وَٱذْكُرْ﴾ لمزيد تصبير لك ولقومك، ﴿عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهو من أنبياء بني إسرائيل ومن أشهرهم وأشدهم، ﴿ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ القوة، ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ رجاع إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.

(١٨) ومن عجيب شأنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا﴾ ذللنا ﴿ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ﴾ الجبال الشامخة الصلدة الصماء، ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ الله وينزهنه ﴿بِٱلْعَشِيِّ﴾ في المساء، ﴿وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ في الصباح؛ إذ كان حسن الصوت، بالقراءة، ففي حديث أَبِي مُوسَىٰ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَبِي مُوسَىٰ: **«لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَسْتَمِعُ لِقِرَاءَتِكَ الْبَارِحَةَ، لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ»** متفق عليه.

(١٩) ﴿وَ﴾ سخرنا له: ﴿ٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ مجتمعة، فكان إذا سبح لله عَزَّوَجَلَّ وقرأ الزبور تجتمع عليه الطيور ترتل بترتيله وتسبح بتسبيحه، ﴿كُلٌّ﴾ منهما ﴿لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ رجاع.

(٢٠) ﴿وَشَدَدْنَا﴾ قوينا له ﴿مُلْكَهُ﴾ وقد ذكروا: أن حرسه في اليوم ثلاثون ألفاً لا يعود عليهم إلىٰ العام، وكان في محرابه يعبد الله عَزَّوَجَلَّ، وملكه علىٰ أتم الملك وأحسنه، ﴿وَآتَيْنَاهُ﴾ أعطيناه مع ذلك: ﴿الْحِكْمَةَ﴾ النبوة، ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ حسن الكلام، وقيل: هي قول: أما بعد، وقيل: التصرف في القضاء بين الناس علىٰ أحسن الوجوه.

﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿٢١﴾ ﴿وَهَلْ﴾ وقد ﴿أَتَاكَ﴾ يا محمد، ﴿نَبَأُ﴾ خبر ﴿الْخَصْمِ﴾ الذين دخلوا علىٰ داود إلىٰ محرابه في يوم قد مُنع الناس أن يدخلوا عليه، ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا﴾ علوا علىٰ داود ﴿الْمِحْرَابَ﴾ مكان عبادته.

﴿٢٢﴾ ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ﴾ من غير الباب المعهود ﴿فَفَزِعَ﴾ خاف ﴿مِنْهُمْ﴾ إذ كيف يدخلون بدون إذن، ومن أين جاءوا فـ ﴿قَالُوا﴾ له ﴿لَا تَخَفْ﴾ من بطشنا ولا من مكرنا نحن، ﴿خَصْمَانِ﴾ بيننا خصومة حيث، ﴿بَغَىٰ﴾ تجاوز ﴿بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ قيل: كيف يبغىٰ بعضهم علىٰ بعض وهم ملائكة؛ والجواب أن هذا في ظاهر الدعوىٰ، وأنهم يريدون الحق والإنصاف، ﴿فَاحْكُمْ﴾ اقض ﴿بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ بالقسط، ﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾ تمل في حكمك ﴿وَاهْدِنَا﴾ دلنا وأرشدنا، ﴿إِلَىٰ سَوَاءِ﴾ وسط ﴿الصِّرَاطِ﴾ الطريق وهو أحسنه وقوامه.

﴿٢٣﴾ ﴿إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ قيل: امرأة، وقيل: ضأن الغنم علىٰ ظاهرها، ﴿وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ فطمع فيها ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ أعطنيها، وخلها في كفالتي أتم بها المائة، ﴿وَعَزَّنِي﴾ أحرجني وغلبني، ﴿فِي الْخِطَابِ﴾ في القول حتىٰ استجبت له ودفعت إليه هذه النعجة أو كدت أن أدفعها.

﴿٢٤﴾ ﴿قَالَ﴾ داود عَلَيْهِ السَّلَامُ قاضيا قبل أن يسمع إجابة الخصم: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ﴾ بطلب، ﴿نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ﴾ قيل معناه: إن كان الأمر كما تقول فقد ظلمك، وقيل: قال ذلك بعد اعتراف خصمه بما قال.

وما يذكره كثير من المفسرين في هذا الموطن: بأن داود كان له تسعة وتسعون امرأة جميلة، وكان له قائد له امرأة أرادها داود فأراد أن يتخلص منه فأرسله علىٰ جيش حتىٰ يُقتل، فهذا كله كذب لا يُلتفت إليه ولا ينقل إلا علىٰ سبيل البيان؛ ولذلك نُعرض عن ذكره في مثل هذا الموطن.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ﴾ أصحاب الشراكة، ﴿لَيَبْغِى﴾ يتجاوز ﴿بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ فيقع بينهم بغي وتجاوز، بأخذ حقه وعدم الإنصاف، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الذين يلتزمون أمر الله، فهؤلاء لا يقع بينهم ذلك، ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ بالنسبة للمجتمع الظالم الغاشم، فلما قضىٰ داود بينهما، قيل: نظر أحدهما إلىٰ صاحبه فضحك، وصعدا إلىٰ السماء، فعلم داود أن الله تعالىٰ ابتلاه، وذلك قوله: ﴿وَظَنَّ﴾ استيقن وعلم، ﴿دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ ابتليناه واختبرناه بهذا الأمر، ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾ تاب مما وقع فيه ﴿وَخَرَّ﴾ وقع ﴿رَاكِعًا﴾ ساجدًا لله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَأَنَابَ﴾ راجعا إلىٰ الله بالتوبة.

﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ قربة، ومكانة عالية ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ حسن مرجع في الآخرة وهو الجنة.

❁ وقد سجد النبي ﷺ فيها، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ¶، قَالَ: (ص) لَيْسَ مِنْ عَزَائِمِ السُّجُودِ، وَقَدْ **«رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَسْجُدُ فِيهَا»** أخرجه البخاري.

㉕ ﴿فَغَفَرْنَا﴾ تجاوزنا ﴿لَهُ﴾ عن ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما وقع فيه من الذنب، ﴿وَإِنَّ لَهُ﴾ لداود عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ قربىٰ، ومكرمة عظيمة ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ حسن مرجع، إذا كان يوم القيامة؛ أدخله الله الجنة.

㉖ ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً﴾ ممكنًا ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يرجع الناس إليك لقضاء حوائجهم وحل قضاياهم، ﴿فَٱحْكُم﴾ اقض ﴿بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ بالعدل، ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ لا تمل وتتبع هوىٰ نفسك، ﴿فَيُضِلَّكَ﴾ يغويك ويحرفك ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عن طريق الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ﴾ ينحرفون، ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ﴾ موجع ﴿بِمَا نَسُوا۟﴾ تركوا ذكر ﴿يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ يوم القيامة، وتركوا العمل له.

❁ وفي هذه الآية ترغيب وترهيب للحكام والقضاة: أن يلتزموا شرع الله ظاهرًا وباطنًا؛ لأن مخالفة ذلك سبب للعذاب الأليم.

وفي حديث بريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**القُضَاةُ ثَلاَثَةٌ: قَاضِيَانِ فِي النَّارِ، وَقَاضٍ فِي الجَنَّةِ، رَجُلٌ قَضَىٰ بِغَيْرِ الحَقِّ فَعَلِمَ ذَاكَ فَذَاكَ فِي النَّارِ، وَقَاضٍ لاَ يَعْلَمُ فَأَهْلَكَ حُقُوقَ النَّاسِ فَهُوَ فِي النَّارِ، وَقَاضٍ قَضَىٰ بِالحَقِّ فَذَلِكَ فِي الجَنَّةِ**» أخرجه أبو داود.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسولَ الله ﷺ قال: «**مَن وَلِيَ القضاءَ فقد ذُبِحَ بغير سِكِّين**» أخرجه أبو داود.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾.

(٢٧) ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء﴾ المرتفعة، ﴿وَالأَرْضَ﴾ الواسعة، ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا بَطِلاً﴾ عبثًا، كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:١١٥]، ﴿ذَلِكَ﴾ الظن أننا خلقناهما عبثًا لغير حكمة ﴿ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ حيث ظنوا بالله ما لا يليق به من أنها وجدت لغير حكمة، ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ النَّارِ﴾ يوم القيامة.

(٢٨) ﴿أَمْ﴾ لا ﴿نَجْعَلُ﴾ نُصَيِّرُ، ﴿الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ﴾ بالكفر وغير ذلك، ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ﴾ المنيبين المخبتين الرجاعين إلىٰ الله، ﴿كَالْفُجَّارِ﴾ الكفار أصحاب الإجرام، فهذا لا يكون، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ في معنىٰ ذلك: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝٣٦﴾ [القلم:٣٥-٣٦]، وقال: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر:٢٠]، وقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ۝ وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ ۝ وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الْحَرُورُ﴾ [فاطر:١٩-٢١].

(٢٩) وهذا القرآن ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿مُبَارَكٌ﴾ فيه بركات عظيمات، وهبات جليلات في أجوره وعلومه والأخذ به، فهو الكتاب المحفوظ عن التحريف والتغيير والزيادة والنقصان، أتمه الله عَزَّوَجَلَّ وأكمله، وحفظه، وهذا ليس لغيره، وما أجمل فيه أو أطلق بينته السنة علىٰ ما هو معلوم في موطنه، ﴿لِّيَدَّبَّرُواْ آيَاتِهِ﴾ ليتفكروا في آياته، ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ﴾ يتعظ من وعده ووعيده ﴿أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾ أصحاب العقول السليمة والفطر المستقيمة.

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿٣٠﴾ ﴿وَوَهَبْنَا﴾ أعطينا، ﴿لِدَاوُۥدَ﴾ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ، ﴿سُلَيْمَانَ﴾ نبي كريم، وليس معنىٰ ذلك: أنه ليس له إلا سليمان من الأولاد، فيذكرون أنه كان متزوجًا لمائة امرأة، والذي أُعطي النبوة هو سليمان، والله أعلم ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ مدح له، ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ رجاع إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿٣١﴾ وكان من شأنه: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ﴾ بالعصر، ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾ نوع من الخيل قيل: هي التي تقوم علىٰ ثلاث أرجل وطرف حافر الرابعة، وهذا من الملك الذي وهبه الله إياه ومُلك الملوك يكون بالأبهة ونحو ذلك فخرج للنظر إليها حتىٰ غربت الشمس، وفاتته صلاة العصر.

﴿٣٢﴾ ﴿فَقَالَ﴾ متحسرًا علىٰ فوات الصلاة، ﴿إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ أي: المال، وهو هنا: الخيل، ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾ طاعة ربي وهي الصلاة هنا، ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ﴾ اختفت الشمس، ﴿بِٱلْحِجَابِ﴾ أي غابت في الأفق، أو غابت عنه الخيل لظلمة الليل.

﴿٣٣﴾ فقال غضبًا لله عَزَّوَجَلَّ: ﴿رُدُّوهَا عَلَىَّ﴾ أي: الخيل، ﴿فَطَفِقَ﴾ شرع، ﴿مَسْحًۢا﴾ قطعًا ﴿بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ يضربها في رؤوسها ويقطع أرجلها حتىٰ يتخلص مما شغله عن طاعة الله وعبادته، وقد قال بعضهم: ردوها عليَّ بحيث يمسح بيده علىٰ أعناقها وسوقها، وهذا غير صحيح، أن تكون قد شغلته عن طاعة الله ثم يقوم ويشتغل بها مرة أخرىٰ.

﴿٣٤﴾ ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾ اختبرناه وابتليناه، بسلب ملكه ﴿وَأَلْقَيْنَا﴾ وضعنا، ﴿عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ﴾ كرسي ملكه، ﴿جَسَدًا﴾ شيطانًا، ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ رجع إلىٰ ملكه بعد أيام.

وقد ذكر المفسرون في هذا الموطن: أن سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان إذا أراد أن يغتسل لا يطمئن لأحد من نسائه إلا واحدة فيعطيها الخاتم لكي لا يدخل بالخاتم معه، وفي يوم أعطاها ثم ذهب لحاجته ورجع وقد دخل شيطان بصورة سليمان فأخذ منها الخاتم

وذهب، فلما رجع سليمان إليها قال: أين الخاتم؟ قالت: قد أعطيتك، فجعل ذلك الشيطان يتصرف في الملك ويحكم بأحكام استغربها الناس وعجبوا من شأنها، فما زال الشأن بسليمان حتىٰ أعاد الله عَزَّوَجَلَّ إليه مُلكه بعد فترة.

ويذكر المفسرون كثيراً من الإسرائيليات التي لا دليل عليها، ومن ذلك: أنه ذهب إلىٰ ساحل البحر فوجد أُناسًا فقال: إني سليمان فضربه بعضهم ثم رحموه فأعطوه سمكةً أو سمكتين، فبينما هو يريد الأكل منها إذ وجد الخاتم ثم عاد له مُلكه.

٣٥ ﴿قَالَ﴾ سليمان بعد أن أعاد الله ملكه: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي﴾ ذنبي وما صدر مني، ﴿وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا﴾ عظيمًا، ﴿لَّا يَنۢبَغِي﴾ لا يصلح، ﴿لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ وهو تسخير الجن، وكلام الطير والحيوان له، ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ عظيم العطاء.

٣٦ ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾ طيبة لا شدة فيها، ﴿تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ﴾ حيث أراد، ﴿رُخَآءً﴾ يعني: ليس فيها ما يقع من الرياح العواتي التي تؤدي إلىٰ التخريب والدمار، ﴿حَيۡثُ أَصَابَ﴾ حيث شاء، وكان يسير عليها مسيرة شهر في غدوة أو عشية.

٣٧ ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ سخرها الله له، ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ﴾ منهم من يبني، ومنهم من يغوص في البحار، ويذكرون: أن سليمان هو أول من استخرج اللؤلؤ من البحار.

٣٨ ﴿وَءَاخَرِينَ﴾ وهم مردة الجن، ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ مربطين ومصفدين، ﴿فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾ في سلاسل الحديد.

٣٩ و﴿هَٰذَا﴾ الملك ﴿عَطَآؤُنَا﴾ الذي وهبناه لك، ﴿فَٱمۡنُنۡ﴾ أعط من شئت ﴿أَوۡ أَمۡسِكۡ﴾ عن الإعطاء ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ لا حساب عليك في ذلك فجعل الله الأمر له، إن شاء أن يُعطي ويوسع لمن أعطاه، وإن شاء أن يُمسك، فليس عليه في ذلك تبعات.

٤٠ ﴿وَإِنَّ لَهُۥ﴾ لسليمان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ﴿عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ﴾ قربىٰ، ﴿وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ مرجع في الآخرة.

﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ٤١ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ٤٢ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٤٣ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ٤٤﴾.

٤١ ﴿وَٱذۡكُرۡ﴾ يا محمد، ﴿عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ﴾ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ بعد أن طال عليه المرض لثمانية عشرة سنة، فيما يذكر أهل التفسير، وقلاه البعيد والقريب، ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ﴾ أصابني،

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ﴾ شدة مرض، ﴿وَعَذَابٍ﴾ في جسده حيث صار أجربًا، تركه القريب والبعيد، ثم جاءه الفرج من الله عَزَّوَجَلَّ بعد هذا النداء: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء:٨٤].

٤٢ وكان من شأنه: أن الله عَزَّوَجَلَّ قال له: ﴿ٱرْكُضْ﴾ اضرب ﴿بِرِجْلِكَ﴾ في الأرض، يخرج بسببها ماء ﴿هَٰذَا﴾ الماء، ﴿مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ﴾ ماء تغتسل منه بارد، ﴿وَشَرَابٌ﴾ تشرب منه فأذهب الله ما به من العلة ورده جميلًا كما كان.

٤٣ ﴿وَوَهَبْنَا﴾ أعطينا ﴿لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ﴾ مكرمة فوق المكرمة، شفاه ووهب له أهله: زوجته، وأبناؤه، ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ من الخيرات العظام، ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ لأيوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ عِظة، ﴿لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ لأصحاب العقول، و عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: « **بَيْنَمَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ عُرْيَانًا خَرَّ عَلَيْهِ رِجْلُ جَرَادٍ مِنْ ذَهَبٍ، فَجَعَلَ يَحْثِي فِي ثَوْبِهِ، فَنَادَىٰ رَبُّهُ: يَا أَيُّوبُ أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتُكَ عَمَّا تَرَىٰ؟ قَالَ: بَلَىٰ، يَا رَبِّ، وَلَكِنْ لاَ غِنَىٰ بِي عَنْ بَرَكَتِكَ** » اخرجه البخاري.

٤٤ وكان قد أقسم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يمينًا: أن يجلد امرأته مائة جلدة؛ وذلك فيما يذكرون: أنها لم تجد ما تطعمه به، فقطعت قصتها وباعتها في طعام له، فأخذته الغيرة فأقسم، وكانت امرأته محسنة صالحة فأكرمه الله برحمته لها وإبراء قسمه: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب﴾ أي: عصا فيها مائة شمراخ، ﴿فَٱضْرِب بِّهِۦ﴾ امرأتك ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾ في يمينك اضربها ضربة واحدة كأنك ضربتها مائة ضربة، ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ لم يشكُ ولم يتسخط، ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ رجاع إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ في مطالبه الدنيوية والأخروية.

❁ **وهنا فائدة ولطيفة ذكرها بعض أهل العلم قالوا:** السلامة مع السعة أحسن من البلاء مع الصبر؛ وذلك أن سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وهب الله له المُلك العظيم وقال فيه: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، وأيوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ابتُليَ بهذا البلاء الجسيم وقال الله فيه: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٥ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ٤٦ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ٤٧ وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ٤٨ هَٰذَا ذِكۡرٞۚ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ٤٩ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ٥٠ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ٥١ ۞ وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ ٥٢ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ٥٣ إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ٥٤﴾.

﴿٤٥﴾ ﴿وَٱذۡكُرۡ﴾ يا محمد، ﴿عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، ﴿وَإِسۡحَٰقَ﴾ ولده، ﴿وَيَعۡقُوبَ﴾ ولد الولد، ﴿أُوْلِي﴾ أصحاب، ﴿ٱلۡأَيۡدِي﴾ القوة في الإيمان، والاستقامة والاستجابة، ﴿وَالأَبْصَارِ﴾ البصائر والعلم.

﴿٤٦﴾ ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم﴾ أخصصناهم، ﴿بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾ أي: بشدة ذكرهم للآخرة وتعلقهم بها، وهذا دليل علىٰ عظيم الإيمان وحسن العمل.

﴿٤٧﴾ ﴿وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا﴾ أي: من تقدم ذكرهم، ﴿لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ﴾ في منزلة رفيعة اصطفاهم الله واختارهم، ﴿الأَخْيَارِ﴾ في أقوالهم وأعمالهم، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٣٣]، وقال: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُ﴾ [القصص:٦٨].

﴿٤٨﴾ ﴿وَٱذۡكُرۡ﴾ أيضًا: ﴿إِسۡمَاعِيلَ﴾ ابن إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ، ﴿وَالْيَسَعَ﴾ قيل: عيسىٰ، وقيل غير ذلك، ﴿وَذَا الْكِفْلِ﴾ ذكروا: أنه رجل أصلحه الله في ليلة، واختلفوا في نبوته، وذكروا أنه كفل مائة نبي فروا إليه من القتل، والله أعلم، ﴿وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾ كل من تقدم ذكره كان من الأخيار في علمه وعمله.

﴿٤٩﴾ ﴿هَٰذَا﴾ الذي تقدم: ﴿ذِكۡرٞۚ﴾ شرفٌ لك ولقومك وعظة وعبرة، ﴿وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ في الآخرة، ﴿لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ جميل مرجع في الآخرة؛ وهي الجنة.

﴿٥٠﴾ وهي: ﴿جَنَّٰتِ﴾ عظيمات وبساتين وافرات ﴿عَدۡنٖ﴾ إقامة لا تحول عنها، ﴿مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ ويستقبلهم الملائكة يحيونهم ويسلمون عليهم، ويستقبلهم أزواجهم وخدمهم، كما قال تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

(٥١) وحالهم أنهم: ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ متربعين ﴿فِيهَا﴾ علىٰ سرر مصفوفة، ﴿يَدْعُونَ﴾ يُعطون، ﴿فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ من كل زوجٍ بهيج، ومهما طلبوا وجدوا ﴿وَشَرَابٍ﴾ من أي شيء شاؤوا من خمر وزنجبيل وغير ذلك.

(٥٢) ﴿وَعِندَهُمْ﴾ في الجنة مع هذا النعيم: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ زوجات قد قصرت أطرافهن علىٰ أزواجهن لا ينظرن إلىٰ غيرهم، ﴿أَتْرَابٌ﴾ متقاربات في السن.

(٥٣) ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ يا أهل الإسلام، ﴿لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ ليوم الجزاء والمعاد.

(٥٤) ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي تقدم، ﴿لَرِزْقُنَا﴾ عطاؤنا لكم، ﴿مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾، انقطاع، كما قال تعالىٰ: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة:٣٣].

❁ وهذا دليل علىٰ أبدية الجنة، وأنها لا تفنىٰ ولا تبيد.

﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۖ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾.

(٥٥) ﴿هَٰذَا﴾ الذي ذكرناه للمسلمين، ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ﴾ للكافرين، ﴿لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ شر مرجع وحال.

(٥٦) ﴿جَهَنَّمَ﴾ نار تلظىٰ، ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ يدخلون فيها فتحيط بهم، ﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ فبئس الفراش، كما قال تعالىٰ: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ﴾ [الأعراف:٤١].

(٥٧) و ﴿هَٰذَا﴾ أي العذاب المذكور ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ ليتذوقوا شدة العذاب، ومنه: ﴿حَمِيمٌ﴾ شراب شديد الحرارة، ﴿وَغَسَّاقٌ﴾ شديد البرودة، فيعذبون بشدة الحر وشدة البرد، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾﴾ [النبأ:٢٤-٢٥].

وقيل (الغساق) شديد النتن، وقيل هو ما يسيل من القيح والصديد من جلود أهل النار ولحومهم وفروج الزناة من قوله: غسقت عينه إذا انصبت.

(٥٨) ﴿وَ﴾ ينالهم عذاب ﴿ءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ﴾ من نوعه مثل الحميم والغساق ﴿أَزْوَٰجٌ﴾ أصناف، قريبة إلىٰ الحرارة، وإلىٰ شدة البرودة، فيعذبهم الله عَزَّوَجَلَّ بسبب كفرهم وإعراضهم.

(٥٩) ويقال لهم عند دخول النار: ﴿هَـٰذَا فَوْجٌ﴾ موكب، ﴿مُّقْتَحِمٌ﴾ داخل ﴿مَّعَكُمْ﴾ إلىٰ النار، ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ﴾ لا سعة لهم، ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ﴾ سيدخلونها ويُعذبون فيها.

(٦٠) وعند ذلك ﴿قَالُوا۟﴾ الأتباع للسادة ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ﴾ يعني: كلٌ يتبرأ من الآخرة، ﴿أَنتُمْ﴾ يا معشر القادة والسادة ﴿قَدَّمْتُمُوهُ﴾ قربتم ﴿لَنَا﴾ هذا الضلال والكفر الذي أوصلنا إلىٰ هذا الحال، ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ جهنم.

(٦١) ﴿قَالُوا۟﴾ الأتباع ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَـٰذَا﴾ شرعه وسنه ﴿فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ﴾ كلٌ يدعو علىٰ صاحبه، والجواب: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ **[الأعراف:٣٨]**، كقوله: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ **[الأحزاب: ٦٧-٦٨]**.

(٦٢) ﴿وَقَالُوا۟﴾ الكفار وهم في النار يُعذبون: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم﴾ نظنهم في الدنيا ﴿مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾ ويريدون بهم أهل الإسلام.

(٦٣) ﴿أَتَّخَذْنَـٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾ كنا نسخر منهم ونستهزئُ بهم وهم علىٰ الحق، ﴿أَمْ زَاغَتْ﴾ مالت ﴿عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ لم نرهم في النار؛ لأنهم في مكان غير المكان الذي نحن فيه، والواقع أنهم في الجنة، أبدلهم الله خيرًا كما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَـٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ **[المطففين:٢٩-٣٦]**.

(٦٤) ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الذي تقدم: ﴿لَحَقٌّ﴾ ثابت وهو: ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ سيتخاصمون في النار بهذا الذي ذكره الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿٦٥﴾ ﴿قُلْ﴾ يا محمد لكفار قريش: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾ أحذركم من بطش الله وغضبه وناره، ولست عليكم بمسيطر ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ﴾ معبود يحق، ﴿إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ﴾ المنفرد بذاته وصفاته وأفعاله، ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ الذي قهر كل شيء، فلا يجوز أن يشرك معه غيره لا ملكًا مقربًا ولا نبيًا مرسلًا.

﴿٦٦﴾ وهو تعالىٰ: ﴿رَبُّ﴾ مالك: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ وهو: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ القوي الذي لا يغلب، ﴿ٱلْغَفَّارُ﴾ للمؤمنين والمتجاوز عنهم.

﴿٦٧﴾ ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد، ﴿هُوَ﴾ القرآن ﴿نَبَأٌ﴾ خبر ﴿عَظِيمٌ﴾ من الرب الكريم ومع ذلك.

﴿٦٨﴾ ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ لم تستجيبوا له ولم تأخذوا به.

﴿٦٩﴾ و﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ﴾ الملائكة مع ربهم، ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ حين خلق آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

﴿٧٠﴾ ﴿إِن﴾ ما ﴿يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ بالقرآن، ﴿إِلَّآ أَنَّمَآ﴾ لأني، ﴿أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ مُنذر ومبلغ ومبين ما أوحي إلي ليس عندي أكثر من ذلك.

﴿٧١﴾ واذكر يا محمد: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ مُخاطبًا لهم: ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ وهو آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وقد تقدم ذِكر ما يتعلق بشأنه في سورة البقرة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ

لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٣٠].

(٧٢) ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ أي: خلقته وأتممت خلقه، ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ أي: من الأرواح التي عند الله عَزَّوَجَلَّ فلا يوصف الله عَزَّوَجَلَّ بالروح؛ لأن الروح معنىٰ يقوم بنفسه، فإضافته إلىٰ الله إضافة تشريف أو خلق أو مُلك وإيجاد، وكان قد خلقه الله عَزَّوَجَلَّ أجوف، وجعل الشيطان يطوف به فلما رأىٰ أنه أجوف عَلِمَ أنه خلق لا يتمالك، ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ طاعة لله عَزَّوَجَلَّ.

(٧٣) ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ استجابة لأمر الله، وحالهم كما قال تعالىٰ: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦].

(٧٤) ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾، لم يقع منه السجود لحسده فقد ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف:٥٠]، ﴿ٱسْتَكْبَرَ﴾ علا وتجبر ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فصار من الكافرين، بعد أن كان مع الملائكة المقربين يعبد الله عَزَّوَجَلَّ في السماوات العُلىٰ.

(٧٥) ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا﴾ شرفتُ و ﴿خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ إثبات صفة اليدين لله عَزَّوَجَلَّ ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ عن أمري، ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ المترفعين المتعاظمين.

(٧٦) فـ ﴿قَالَ أَنَا﴾ وبئس ما قال: ﴿خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ وهو كاذب في هذه الجملة، ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ فأخطأ في الجملتين الأولىٰ: قوله أنه خير منه، والثانية: تفضيله النار علىٰ الطين، فإن النار ليست محل حياة لا سيما في الدنيا، أما الطين فهو مكان الحياة فقياسه فاسد؛ ولذلك قالوا: أول من قاس إبليس.

❁ **وفي هذا دليل علىٰ أن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ خلقه الله بيديه حقيقةً لأن الله ثنىٰ اليدين، والله** عَزَّوَجَلَّ موصوف بيدين حقيقيتين، كما قال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤]، كما يليق بجلاله، وقد خلق الله آدم بيده، وكتب التوراة بيديه، وغرس جنة عدن بيده، ولو كان خلق آدم بالقدرة كما يقول المعتزلة والجهمية، ومن إليهم لقال إبليس: خلقتني بقدرتك وخلقته بقدرتك.

(٧٧) ﴿قَالَ﴾ الله له عند ذلك: ﴿فَٱخْرُجْ﴾ مذمومًا مدحورًا، ﴿مِنْهَا﴾ من الجنة، ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٍ﴾ مُبعد.

(٧٨) ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي﴾ الطرد والإبعاد، ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾ فلا يُقبل منه عمل ولا رجوع.

(٧٩) فعند ذلك: ﴿قَالَ﴾ الخبيث: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِي﴾ أخرني، ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ قال العلماء: أراد الخبيث ألا يجد طعم الموت.

(٨٠) ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ المؤخرين.

(٨١) ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ أي: يوم يقضي الله عَزَّوَجَلَّ بقبض نفسه قبل الساعة.

(٨٢) ﴿قَالَ﴾ الشيطان ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ لأضلنهم، ﴿أَجْمَعِينَ﴾ فيه: إثبات صفة العزة لله عَزَّوَجَلَّ، وفي هذا رد علىٰ الجهم ومن إليه: إذ أن الشيطان أعرف بربه منهم، فجهم حين سُئل عن الله فقال: لا موجود ولا معدوم، ولا فوق ولا تحت، ولا داخل ولا خارج، ولا متصل ولا منفصل، وإبليس يُقسم بالله.

❁ وفيه: جواز القسم بالصفة، ولا فرق في ذلك بين الصفات الخبرية والفعلية علىٰ الصحيح.

(٨٣) ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ استثناهم لا لأنه لا يريد إغواءهم لكنه عاجز عن إغوائهم، وإلا فهو حريص علىٰ الجميع، المؤمن والكافر، والبر والفاجر.

(٨٤) ﴿قَالَ﴾ الله له: ﴿فَالْحَقُّ﴾ وصفي، وقيل الحق مني، ﴿وَ﴾ أنا ﴿الْحَقَّ﴾ أقوله.

(٨٥) ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ النار الموقدة، ﴿مِنكَ﴾ يا إبليس وذريتك ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ سواءً من كفار الجن أو كفار الإنس، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

وفي حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ، حَتَّىٰ يَضَعَ فِيهَا رَبُّ الْعِزَّةِ، تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، قَدَمَهُ فَتَقُولُ: قَطْ قَطْ، وَعِزَّتِكَ وَيُزْوَىٰ بَعْضُهَا إِلَىٰ بَعْضٍ**» متفق عليه، ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠].

وقد وعد الله الجنة بملئها والنار بملئها: أما النار فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ فَيَقُولُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، فَيَضَعُ قَدَمَهُ فِيهَا، فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَىٰ بَعْضٍ، وَتَقُولُ: بِعِزَّتِكَ قَطْ قَطْ، وَلَا يَزَالُ فِي الْجَنَّةِ فَضْلٌ حَتَّىٰ يُنْشِئَ اللهُ خَلْقًا آخَرَ**» متفق عليه.

وما جاء أن الله يُنشئ للنار خلقًا لا يستقيم، لعدم ثبوتها، ولمخالفتها قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

٨٦ ﴿قُلْ﴾ قل لهم يا محمد: ﴿مَا أَسْـَٔلُكُمْ﴾ لا أطلبكم يا معشر قريش ﴿عَلَيْهِ﴾ علىٰ هذا البلاغ: ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ من مال وعطاء وثواب، ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ حيث أبلغكم بما لم يأمرنِ الله به.

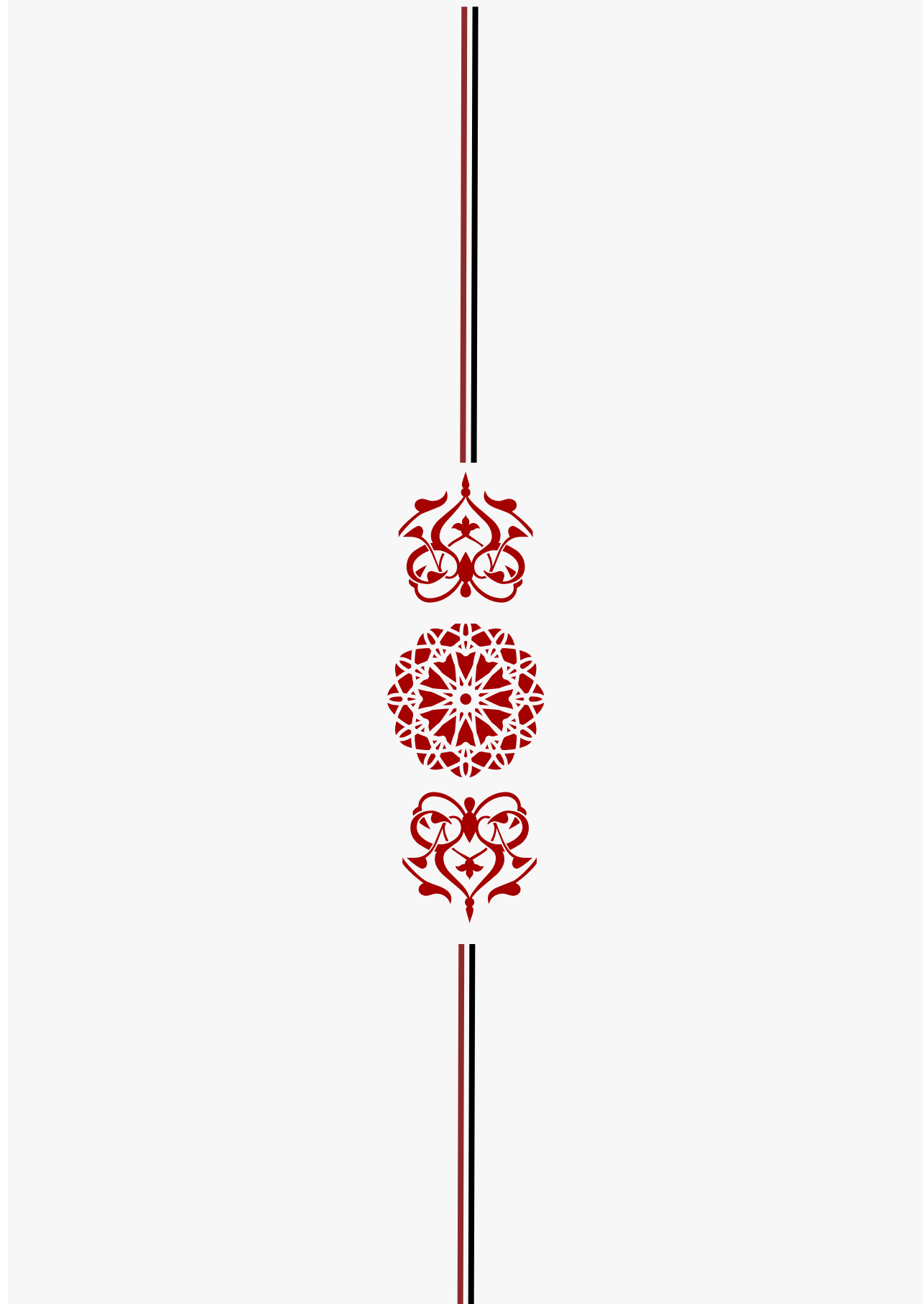
٨٧ ﴿إِنْ﴾ ما ﴿هُوَ﴾ القرآن: ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ وعظة، ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ الأنس والجن.

❁ وهذا دليل علىٰ أن نبوة النبي ﷺ إلىٰ جميع المكلفين من الجن والإنس.

٨٨ ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ﴾ يا كفار مكة ومن إليكم ﴿نَبَأَهُۥ﴾ صدق خبره، ﴿بَعْدَ حِينٍۭ﴾ حين ينصر الله عَزَّوَجَلَّ الإسلام ويظهره، وحين تبعثون وتجدون ما كان يذكره محمد ﷺ واقع وحق، وهذا بيان لفضل القرآن العظيم الذي هو كلام الله ووحيه وتنزيله أوحاه إلىٰ محمد ﷺ، وحفظه الله من عبث العابثين، ومن الزيادة والتحريف، كما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩].

وَالْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

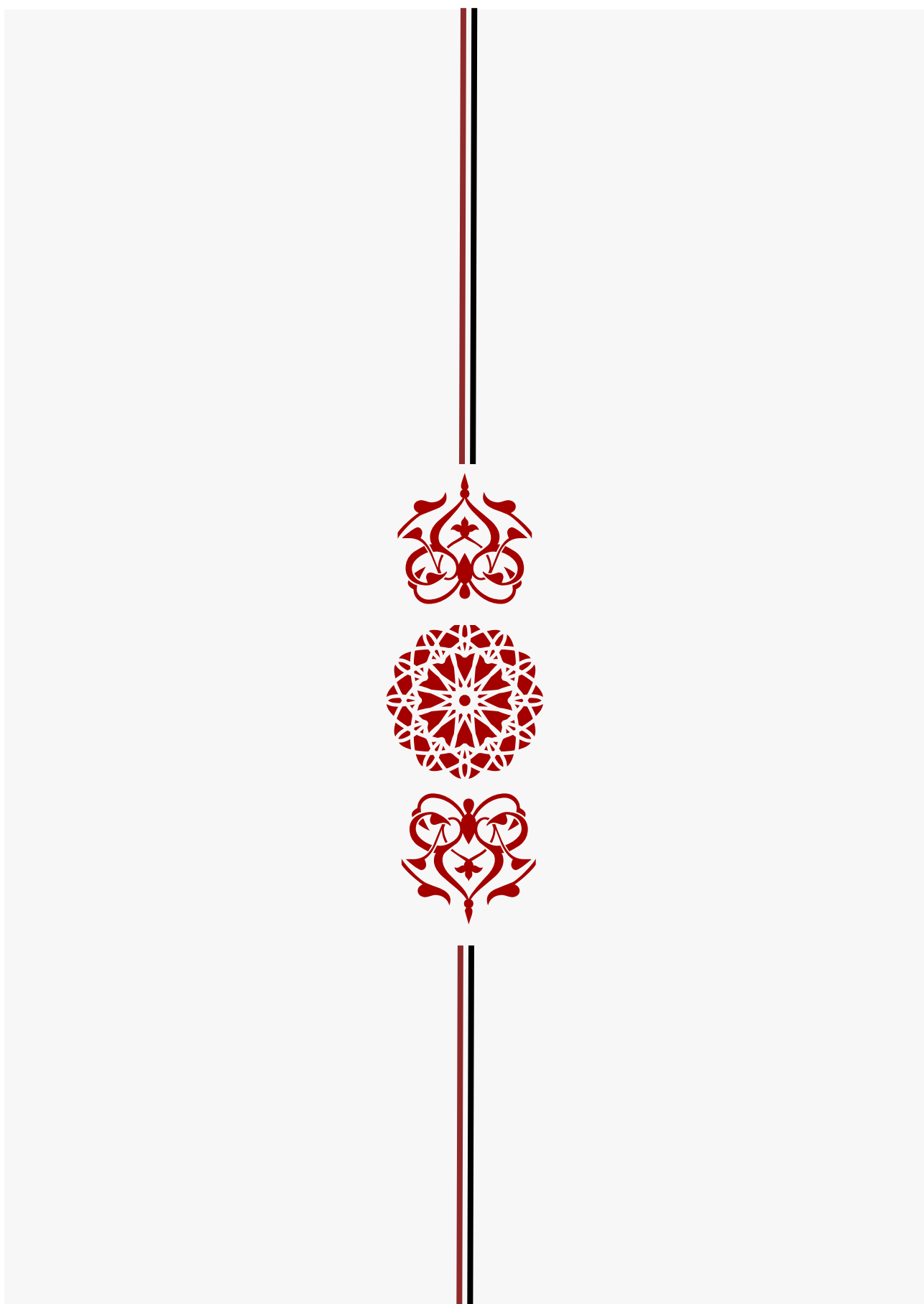
تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ ص





تَفْسِيرُ سُورَةِ الزُّمَرِ





سُورَةُ الزُّمَرِ

مَكِّيَّةٌ، وَآيَاتُهَا خَمْسَةٌ وَسَبْعُونَ آيَةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٤ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ۝٥﴾.

١ ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: أن القرآن نزل: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾، ابتدأه فسمعه منه جبريل ونزل به علىٰ محمد ﷺ، كما قال تعالىٰ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٥]، ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الذي لا يُغلب، ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ في أفعاله وأقواله فكلها علىٰ مقتضىٰ حكمته ليس فيها عبث أو باطل.

٢ ﴿إِنَّآ﴾ علىٰ التعظيم لجلال الله عَزَّوَجَلَّ ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ عليك يا محمد، ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآن، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالصدق الثابت، ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ﴾ وحده وتقرب إليه بأنواع القرب حال كونك ﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ فلا تشرك معه غيره لا ملكًا مقربًا ولا نبيًا مرسلًا، لقبول العمل، والنية شرط؛ فعن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال قال رسول الله ﷺ يقول: **«إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»** متفق عليه، فمن عبد الله عَزَّوَجَلَّ ولم يُخلص له في العبادة فعبادته مردودة عليه، ومن عبد الله ولم يتابع محمدًا ﷺ فعبادته مردودة عليه، فالإخلاص والمتابعة: قطب رحىٰ قبول العبادة.

ورحم الله السعدي إذ يقول:

النيــة شــرط الصــالح العمــل ... بهــا الصــلاح والفســاد للعمــل

٣ ﴿أَلَا﴾ للتنبيه ﴿لِلَّهِ﴾ عَزَّوَجَلَّ الذي لا يُشاركه غيره، ﴿ٱلدِّينُ﴾ العبادة، ﴿ٱلْخَالِصُ﴾ الخالصة، ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ كفروا، ﴿ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ آلهة يعبدونها ويستنصرون بها حيث

اتخذوا أصنامًا وأوثانًا وقالوا: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ﴾ ما نتقرب إليهم ونعطيهم النذور وغير ذلك: ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ﴾ لطلب القربة والوسيلة ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ ومتىٰ كان الله يعبد بالواسطة ﴿زُلۡفَىٰٓ﴾ قربىٰ.

۞ وهذه شبهة شيطانية أدخلها عليهم: حيث زعم أن هؤلاء قوم صالحون، وأنتم علىٰ معاصي وسيئات، ولن تستطيعوا أن تصلوا إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ إلا بواسطتهم،

وتأمل قولهم: ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ما قالوا: يقربونا إلىٰ هبل، واللات، والعزىٰ، ومناة ومع ذلك لم تقبل منهم هذه الدعوىٰ والعذر، وقد كانوا يطوفون بالبيت، ويقول أحدهم: لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، قَالَ: فَيَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«وَيْلَكُمْ، قَدْ قَدْ»**، يعني: يكفي إلىٰ هنا، فَيَقُولُونَ: إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ، تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ، **أخرجه مسلم عن ابن عباس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقد كانوا يقرون بالله في الجملة إلا أنهم كانوا يشركون ويندون فسماهم الله عَزَّوَجَلَّ كفاراً.

۞ فليحذر عباد القبور من هذه الشبهة الشيطانية: من أن فلان ولي، أو قطب، أو وتد يقربني إلىٰ عَزَّوَجَلَّ، فإن صرف العبادة لغير الله كفر أكبر مخرج من الملة لا ينتفع صاحبها بشيء من عمله، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ **[الفرقان:٢٣]**.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ﴾ يفصل ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ بين أهل الإيمان وأهل الكفر والإجرام في الدنيا بل ويوم القيامة، ﴿فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ ويجزي كل عامل بعمله، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي﴾ لا يوفق ﴿مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ﴾ في قوله وفعله ﴿كَفَّارٞ﴾ كافر بربه وهذه صيغة مبالغة.

﴿لَّوۡ أَرَادَ﴾ شاء ﴿ٱللَّهُ﴾ يا محمد، ﴿أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا﴾ كما يقول الكافرون، ﴿لَّٱصۡطَفَىٰ﴾ اختار ﴿مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ وهذا من باب الرد عليهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ٩١ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ٩٢﴾ **[مريم:٨٨-٩٢]**، وهذا كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾ **[الزخرف:٨١]**، مع أنه يُتمنع أن يكون له ولد فهو الغني الأول سبحانه وتعالىٰ.

﴿سُبۡحَانَهُۥ﴾ أن يكون له ولد أو تكون له صاحبه، ومن أعظم السب لله، أن يدعىٰ له الصاحبة والولد فعن أبي موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: **«لَا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَىٰ أَذًىٰ يَسْمَعُهُ مِنَ اللهِ** عَزَّوَجَلَّ، **إِنَّهُ يُشْرَكُ بِهِ، وَيُجْعَلُ لَهُ الْوَلَدُ، ثُمَّ هُوَ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ»** متفق عليه، ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ﴾ الفرد الذي لا شريك له ولا مثيل، ﴿ٱلۡقَهَّارُ﴾ لعباده قهرهم بحكمه القدري الكوني.

وهو تعالىٰ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ العالية المرتفعة ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ الواسعة المبسوطة ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالصدق ليس بالباطل والعبث، وهو تعالىٰ: ﴿يُكَوِّرُ﴾ يلف ويدخل ﴿ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ﴾ فيذهب ضوؤه، ﴿وَيُكَوِّرُ﴾ ويلف ويدخل ﴿ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ فيظهر نوره وقيل: إذا طال النهار قصر الليل، وإذا قصر النهار طال الليل، ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ في دؤوب وذهاب ورجوع، ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ قد ضربه الله وبينه لها، فيعلم الناس بهما السنين والحساب، ويستفيدون من ضوئها ومن حرها، ﴿أَلَا هُوَ﴾ الله، ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُغلب، ﴿ٱلْغَفَّارُ﴾ لعباده المؤمنين والغفر التجاوز والصفح.

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٦ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۝٨﴾.

﴿خَلَقَكُم﴾ يا بني الإنسان ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ وهي آدم، ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ حواء، ﴿وَأَنزَلَ﴾ خلق ﴿لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ الإبل والبقر والغنم ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ أصناف كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝١٤٣ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٤٣-١٤٤]، وقوله: ﴿وَأَنزَلَ﴾ قيل: خلق، وقيل: المعنىٰ أنزلها من ظهور وأصلاب آبائها إلىٰ فروج أمهاتها، ﴿يَخْلُقُكُمْ﴾ يوجدكم سبحانه وتعالىٰ، ﴿فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ وأنتم بين نطفة وعلقة ومضغة، ﴿خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ طوراً بعد طور، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا

فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤].

وفي حديث عبد الله بن مسعود: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ مَلَكًا فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ» متفق عليه، ﴿فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ ظلمة الرحم، والمشيمة، والبطن، ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الذي خلقكم وصرفكم هو ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ مالككم ورازقكم الذي لا يعجزه شيء، ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ المُطلق فلا شريك له ولا معين ولا ظهير، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ كما أنه الرب المتصرف والمتفرد بالربوبية كذلك هو المتفرد بالألوهية الحقة، ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ تؤفكون عن هذا الخير، وعن الهداية إلىٰ غيرها إلا بسبب الإعراض الذي في قلوبهم.

﴿إِن تَكْفُرُوا﴾ بالشرك والإعراض والكبر والعناد ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ﴾ مستغني ﴿عَنكُمْ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، فليس معنىٰ: أن الله أمركم بعبادته؛ أنه بحاجة إليكم فهو القائل: «يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَىٰ أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا»، ما يضر الله، «يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَىٰ أَتْقَىٰ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا» اخرجه مسلم عن ابي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

إذًا أن الله عَزَّوَجَلَّ هو الغني الحميد أزلًا وأبدًا، أطاعوه أم عصوه، آمنوا به أم كفروه، وإنما هو ابتلاء واختبار، ﴿وَلَا يَرْضَىٰ﴾ إثبات صفة الرضا، ﴿لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ أن يكفروا، فلا يرضاه لهم ولا يحبه منهم.

❁ مع أن الله خالق كل شيء خلق الخير وهو يحبه وخلق الشر وهو يبغضه لحكمة علمها.

﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟﴾ الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ نعمه ومنها: الدخول في الإسلام، بتوحيده وإخلاص الدين له ﴿يَرْضَهُ لَكُمْ﴾، كما قال: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، ﴿وَلَا تَزِرُ﴾ تحمل، ﴿وَازِرَةٌ﴾ نفس ﴿وِزْرَ﴾ ذنب، ﴿أُخْرَىٰ﴾ كما قال النبي ﷺ: «وَلَا يَجْنِي وَالِدٌ عَلَىٰ وَلَدِهِ»

أخرجه ابن ماجه عن عمرو بن الأحوص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فكلٌ يؤخذ بجريرة نفسه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦].

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم﴾ يوم القيامة، ﴿مَّرْجِعُكُمْ﴾ فيبعثكم وتخرجون من قبوركم، ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ يخبركم، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تعملونه وتقولونه، فكله مسطر علىٰ العبد ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ لا تخفىٰ عليه خافية، كما قال تعالىٰ: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر:١٩]، ويوم القيامة: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾ [الطارق:٩-١٠].

﴿وَ﴾ اذكر، ﴿إِذَا مَسَّ﴾ أصاب ﴿الإِنسَانَ﴾ الكافر المعرض ﴿ضُرٌّ﴾ شدة ومرض وحاجة، ﴿دَعَا رَبَّهُۥ﴾ الكريم العظيم، ﴿مُنِيبًا﴾ راجعًا، ﴿إِلَيْهِ﴾ مستغيثا به بينما إذا كان في نعمة دعا الأصنام والأوثان، ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ﴾ أعطاه، ﴿نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ خيرًا ومكرمة، ﴿نَسِىَ﴾ ترك، ﴿مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ يعني: نسي أن الله عَزَّوَجَلَّ أعطاه ما كان يحتاج إليه ولم تستطع الأصنام والأوثان أن يعطوه، ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ نظراء ومثلاء من الأصنام والأوثان، ﴿لِّيُضِلَّ﴾ ليصرف الناس، ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ عن طريقه الحق وهو الإسلام، وهذا كقوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهذا الصنف: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ﴾ الذي أنت عليه من أكلك وشربك، كما قال تعالىٰ: ﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد:١٢]، ﴿قَلِيلاً﴾ ثم تموت، ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ حين البعث والنشور، كما قال: ﴿قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠].

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٩ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾.

ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ مفضلًا للمؤمن الطائع بعد أن ذكر حال العاصي الفاجر: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ﴾ قائم، ﴿ءَانَآءَ﴾ ساعات، ﴿ٱلَّيْلِ﴾ أوله وأوسطه وأواخره، ﴿سَاجِدًا﴾ يصلي؛ فالسجود يُطلق علىٰ الصلاة، لأنه من أشرف أحوالها ﴿وَقَآئِمًا﴾ يدعو الله ويرجوه، ﴿يَحْذَرُ﴾ يخاف ﴿ٱلْءَاخِرَةَ﴾ وما فيها من العذاب الأليم، ﴿وَيَرْجُواْ﴾ يؤمل ﴿رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ بدخوله الجنة ومغفرة

ذنبه، ﴿هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ بالأسماء والصفات، ويعلمون دينه وشرعه ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ جُهال لا سيما أهل الكفر والعناد، ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾ يتعظ، ﴿أُوْلُوا﴾ أصحاب ﴿الأَلْبَاب﴾ العقول السليمة والفطر المستقيمة، بخلاف من لا لب له ولا عقل، فهو كالبهيمة.

﴿قُلْ يَعِبَادِ﴾ مناديًا لأشرف الخلق ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ انقادوا لله عَزَّوَجَلَّ ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ بفعل المأمور وترك المحظور، ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ مع الله عَزَّوَجَلَّ بطاعته وعبادته، ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ انشراح الصدور، وقضاء حاجات، وتفريج كربات، وحسن الحال كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

وقيل الحسنة الجنة قد يقول قائل: هناك من المؤمنين من يُعذب ويُسجن ويُشرد وفي حالة يرثىٰ لها في هذه الدنيا؟ نقول: هذا الصنف قد أشار الله إليه بقول: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ أي: إذا ضُيق عليك في بلد فهاجر إلىٰ غيره، ما جعل الله عليك من حرج في البقاء في ذلك البلد، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء:١٠٠]، عطاء ومنة وفضل.

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى﴾ يعطىٰ ﴿الصَّابِرُونَ﴾ بجميع أنواع الصبر: الصبر علىٰ طاعة الله، وعلىٰ أقدار الله، وعن نواهي الله، ﴿أَجْرَهُم﴾ ثوابهم يوم القيامة، ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ دون عدٍ أو مقدار لكثرته.

❁ وهذا دليل علىٰ عظيم أجر الصابرين.

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾.

(١١) ﴿قُلْ﴾ يا محمد، ﴿إِنِّيٓ أُمِرْتُ﴾ أمرني الله ﴿أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾: أن أوحده: ﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ لا أشرك معه غيره لا ملكًا مقربًا ولا نبيًا مرسلًا، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه: **«أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»** أخرجه مسلم.

(١٢) ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ المستسلمين لله بالتوحيد والمنقادين له بالطاعة في هذه الأمة.

(١٣) ﴿قُلْ﴾ يا محمد للكافرين الذين تمردوا علىٰ شرع الله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ بعدم توحيده ولزوم أمره، ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهو عذاب النار، وبئس القرار، يخلد فيه من أشرك.

(١٤) ﴿قُلِ﴾ لهم: ﴿ٱللَّهَ أَعْبُدُ﴾ أي: أنا أعبد الله، ﴿مُخْلِصًا﴾ حال كوني مخلصًا له في عبادتي، ﴿لَّهُۥ دِينِي﴾ له تعبدي، يكرره لبيان درجة الإخلاص.

(١٥) ﴿فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ من الأوثان والأصنام وهذا ليس علىٰ التقرير، وإنما هو علىٰ التهكم بهم، والإعراض عنهم: كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون: ١ - ٦].

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ الخسارة العظيمة التي لا بعدها، ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟﴾ فقدوا، ﴿أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فصار من أهل النار في الذل والهوان، ﴿أَلَا ذَٰلِكَ﴾ الخسران ﴿هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ الواضح الذي لا نجاة بعده.

(١٦) ومن خسرانهم لأنفسهم أن: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ﴾ أغطية ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف:٤١]، ﴿وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ مهاد وفرش من النار، ﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب والحال المذكور ﴿يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ الذين يقبلون وعده ووعيده فينزجرون عن معصيته، ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ اتقوا الله عَزَّوَجَلَّ بفعل أمره وترك نهيه وزجره.

(١٧) ﴿وَ﴾ حال ﴿ٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟﴾ ابتعدوا وجانبوا: ﴿ٱلطَّٰغُوتَ﴾ الأصنام، وطاعة الشيطان ﴿أَن يَعْبُدُوهَا﴾ يتقربوا إليها، ﴿وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ رجعوا إليه ووحدوه، ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

❁ وَقَدْ ذُكِرَ أَنَّ لَهُمْ أربع بشَارَاتٍ:

– **البشارة الأولىٰ**: في الدنيا بالثناء الحسن، فعن أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنَ الْخَيْرِ، وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ؟ قَالَ: **«تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَىٰ الْمُؤْمِنِ»** أخرجه مسلم، يُثنىٰ عليه بالخير ويُحب ويود، وكما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم:٩٦].

– **البشارة الثانية**: عند الموت: كما في حديث البراء بن عازب: **«وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ، وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ»**، أخرجه احمد بطوله.

– **البشارة الثالثة**: يوم البعث والنشور: كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت:٣٠].

– **البشارة الرابعة**: الرؤيا الصالحة يراها المؤمن، أو ترىٰ له؛ فعن عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: **«لَمْ يَبْقَ مِنَ النُّبُوَّةِ إِلَّا الْمُبَشِّرَاتُ» قَالُوا: وَمَا الْمُبَشِّرَاتُ؟ قَالَ: «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ»**.

﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ فيه: فضيلة التبشير بذكر آيات، وأحاديث الوعد؛ حتىٰ يعلموا ما لهم عند الله فيزدادون عبادة وطاعة.

﴿١٨﴾ والذين يُبشرون بهذه البشارات هم: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ﴾ القرآن والسنة، ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ﴾ وكله حسن، فيستجيبون لأمر الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ وفقهم الله وعلَّمهم وأعانهم، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أصحاب العقول السليمة.

﴿١٩﴾ ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ﴾ وجب وثبت ﴿عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ وهي قوله تعال: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]، أنه يعذب في النار ويخلد فيها، ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ﴾ تخلص، ﴿مَن فِي النَّارِ﴾ ما كان ولا يكون، كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [المدثر:٤٨-٤٩]، وقال: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر:١٨]، حتىٰ أبو طالب مع أنه أحاط النبي ﷺ، وغضب له ورباه لم يخرج من النار، إنما هو في ضحضاح من النار، بشفاعة النبي ﷺ أن يخفف عنه العذاب.

﴿٢٠﴾ ﴿لَٰكِنِ﴾ حال: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ راقبوا ﴿رَبَّهُمْ﴾ غير ما ذُكر، بل إن ﴿لَهُمْ غُرَفٌ﴾ قصور في الجنة عالية مرتفعة، ﴿مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾ أعلىٰ منها، ﴿مَّبْنِيَّةٌ﴾ من در، وياقوت، وذهب، وفضة، فعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: **«إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ مِنَ الْأُفُقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوِ الْمَغْرِبِ، لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ»** متفق عليه، ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ بأنواع المشروب من عسل، وخمر، ولبن، وماء، ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ لهم، ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ لكمال عدله وفضله سبحانه وتعالىٰ.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿٢١﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أخبرني: ﴿أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ السحاب ﴿مَاءً﴾ مباركًا، طهوراً، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ **[الفرقان: ٤٨]**، ﴿فَسَلَكَهُ﴾ جعله يدخل من خلال الحجارة، ﴿يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ برك وعيون، ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ﴾ أي بالماء ﴿زَرْعًا﴾ نباتاً ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ ثماره وطعمه، ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ ييبس، ﴿فَتَرَاهُ﴾ بعد خضرته ونضارته ﴿مُصْفَرًّا﴾ في لونه لا نضارة فيه ولا نفع، ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا﴾ فانيًا يابسًا هالكًا، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ عظة ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، أصحاب العقول.

﴿٢٢﴾ ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ وسعة لقبول الحق بحيث ارتاح بالإسلام، وذهبت عنه الأحزان، وحصل له الطمأنينة والأمان، ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ﴾ هداية ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ الله الذي هداه وسدده واجتباه، ﴿فَوَيْلٌ﴾ عذاب شديد ﴿لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾ الذين قست قلوبهم فصارت كالحجارة أو أشد قسوة، بعيدة عن الحق غير قابلةٍ له ﴿مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ من طاعة الله، ﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ﴾ هلاك، ﴿مُبِينٍ﴾ بين واضح، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ

عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١].

﴿٢٣﴾ ﴿اللهُ﴾ عَزَّوَجَلَّ، ﴿نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ أبلغه وأحسنه وأصدقه وهو القرآن، ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ متشابها في الحسن والائتلاف وعدم الاختلاف، بوجه من الوجوه، فيشبه بعضه بعضًا في قصصه وأخباره وأحكامه وإعجازه فلا يتناقض، ﴿مَّثَانِىَ﴾ ربما تتكرر القصة والحكم عدة مرات لا يخالف بعضه بعضًا، ﴿تَقْشَعِرُّ﴾ تضطرب وتخشع وتخاف وتوجل، ﴿مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ خوفًا من الله عَزَّوَجَلَّ، قيل: المراد بالجلود: القلوب، وقيل: المراد بها: ظاهرها وهو أن المؤمن إذا سمع آيات الوعيد تخوف، بخلاف أهل النفاق والإجرام، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة:١٢٤-١٢٥].

﴿ثُمَّ تَلِينُ﴾ تسكن وتطمئن ﴿جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ﴾ إذا سمعوا الوعد بالجنة ورضوان الله، ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ﴾ إذا سمعوا البشارات، إذ أن صلاح الحال في صلاح القلوب فعن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: **«أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلُحَتْ صَلُحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»** متفق عليه، ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من التأثر بالقرآن، ﴿هُدَى اللهِ﴾ توفيق الله، ﴿يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ ممن علمه أهلًا للهداية، ﴿وَمَن يُضْلِلِ﴾ يخذله، ﴿اللهُ﴾ ممن علمه أهلًا للغواية، ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ موفق إلىٰ الحق ولا سبيل له إلىٰ ذلك، ولا يكاد.

﴿٢٤﴾ ﴿أَفَمَن﴾ فهل يستوي هذا الصنف مع الكفار الذين أحدهم ﴿يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ﴾ وهو أشرف أعضائه ﴿سُوٓءَ﴾ شدة ﴿ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ وذلك أن الكافر يُرمىٰ علىٰ وجهه في النار، فأول ما تصيب النار أشرف الأعضاء لديه؛ وهذا لإذلاله، ﴿وَقِيلَ﴾ تقول الخزنة ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ للكافرين، ﴿ذُوقُوا۟﴾ هذا العذاب، جزاء ﴿مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ تعملون من الأعمال السيئة.

٢٥ ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط ومن إليهم، ﴿فَأَتَىٰهُمُ الْعَذَابُ﴾ في الدنيا: ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ حيث دمدم الله عليهم هذا بصاعقة، وهذا بصيحة، وهذا بطوفان.

٢٦ ﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ﴾ بذلك العذاب ﴿الْخِزْيَ﴾ الفضيحة ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ وأنكىٰ وأشد، إذ أنه في النار، ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ لكنهم لا يعلمون؛ لجهلهم بدين رب العالمين؛ ولإعراضهم عن تعلمه وتعليمه.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾.

٢٧ ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا﴾ بينا ﴿لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ المنزل علىٰ محمد ﷺ ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أمثال الخير والشر ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتعظون، والحال كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣]، وكما قال: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

٢٨ فجعلناه وصيرناه ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ عربيًا واضح الألفاظ والمعاني حتىٰ تقوم عليهم به الحجة الرسالية، ﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ لا خلل فيه ولا لبس ولا اختلاف ولا نقض، لا في ألفاظه ولا في معانيه،

وقال السدي: غير مخلوق، وحكىٰ سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار قال: أدركت الناس منذ سبعين سنة، أدركت أصحاب النبي ﷺ فمن دونهم يقولون: الله خالق وما سواه مخلوق، إلَّا القرآن، فإنه كلام الله، منه خرج، وإليه يعود. بمعنىٰ أنه صفة الله وكلامه ووحيه وتنزيله، ومن زعم أنه مخلوق فهو كافر كفراً أكبر مخرج من الملة، قال ابن القيم:

ولقد تقلد كفرهم خمسون في ... عشر من العلماء في البلدان
واللالكائي الإمام حكاه عنهم ... بل حكاه قبله الطبراني

﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ بفعل المأمور وترك المحظور.

(٢٩) ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً﴾ للمشرك والموحد: ﴿رَّجُلاً﴾ عبداً مملوكًا، ﴿فِيهِ﴾ عدة: ﴿شُرَكَاءُ﴾ ثلاثة أو أربعة، ﴿مُتَشَاكِسُونَ﴾ متنازعون مختلفون وأخلاقهم سيئة كيف سيكون بينهم؟ هذا يلطمه، وهذا يضربه، وهذا يرده، وهذا يطرده، ﴿وَرَجُلًا﴾ عبداً ﴿سَلَمًا﴾ خالصًا ﴿لِّرَجُلٍ﴾ واحد، وهذا الرجل معه علىٰ أحسن حال، ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً﴾؟ الجواب: لا يستويان، فهذا مثل ضربه الله عَزَّوَجَلَّ للموحد الذي يعبد إلهًا واحدًا، وهو الله عَزَّوَجَلَّ، وللمشرك الذي يعبد عدة أصنام وآلهة، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي بين الحق من الضلال، والنور من الظلمة، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ لإعراضهم، ﴿لاَ يَعْلَمُونَ﴾ ما ينزل الله عَزَّوَجَلَّ من الآيات والأحكام.

(٣٠) ﴿إِنَّكَ﴾ يا محمد، ﴿مَيِّتٌ﴾ أي ستموت وتفارق هذه الحياة، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن﴾ [آل عمران:١٤٤]، ﴿وَإِنَّهُم﴾ الكفار، ﴿مَّيِّتُونَ﴾ مثلك.

(٣١) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ فيما أنتم فيه في الدنيا من التوحيد والشرك فيفصل الله بينكم وعن عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ قَالَ الزُّبَيْرُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَتُكَرَّرُ عَلَيْنَا الخُصُومَةُ بَعْدَ الَّذِي كَانَ بَيْنَنَا فِي الدُّنْيَا؟ قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ: إِنَّ الأَمْرَ إِذًا لَشَدِيدٌ» **أخرجه الترمذي**، فإذا كان بينك وبين أخيك خصومة في الدنيا ولم يقع بينكم الصُلح يوشك أن تقع الخصومة يوم القيامة بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ.

الجزء الرابع والعشرون

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾.

(٣٢) ﴿فَمَنْ﴾ فلا ﴿أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ بأن له صاحبة أو ولداً، أو أن الملائكة بنات الله، أو أن له شريكًا في ملكه أو معينًا أو ظهيرًا من خلقه، ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ

﴿جَآءَهُۥٓ﴾ القرآن الذي جاء به محمد ﷺ، ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾ منزل ومقام ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ بلىٰ وسيكون سوء الجحيم.

٣٣ ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾ وهو محمد ﷺ، وقيل جبريل وقيل الأنبياء جميعًا ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ وأقر بالوحي المنزل؛ ويدخل فيهم الذين آمنوا بمحمد ﷺ، وآمنوا بالأنبياء، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ المخبتون المنيبون إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.

٣٤ ﴿لَهُم﴾ ثواب ذلك ﴿مَّا يَشَآءُونَ﴾ يوم القيامة ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ جنة: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة:٣٣]، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥]، ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف:٧١]، ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ﴾ ثواب ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الموحدين المسلمين الذين أحسنوا مع الله عزو جل بتوحيده، ومع رسوله ﷺ بمتابعته، ومع الناس ببذل الندىٰ وكف الأذىٰ وطلاقة الوجه، فالإحسان كلمة جامعة قال عنها رسول الله ﷺ: **«أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»** اخرجه مسلم عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٣٥ ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ﴾ يمحو ويُذهِب ويعفو ويتجاوز ويستر ﴿عَنْهُمْ﴾ عن المؤمنين ﴿أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ من السيئات، ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم﴾ ثوابهم علىٰ الأعمال الصالحة، ﴿بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ حيث يضاعف لهم الحسنة بعشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف إلىٰ أضعاف كثيرة كما جاء في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام:١٦٠].

وعَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُحْرِزٍ، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لِابْنِ عُمَرَ كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: فِي النَّجْوَىٰ؟ قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ: **«يُدْنَىٰ الْمُؤْمِنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ رَبِّهِ عَزَّوَجَلَّ، حَتَّىٰ يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُ؟ فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ أَعْرِفُ، قَالَ: فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَإِنِّي أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَىٰ صَحِيفَةَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ، فَيُنَادَىٰ بِهِمْ عَلَىٰ رُءُوسِ الْخَلَائِقِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ اللهِ»** اخرجه مسلم.

(٣٦) ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ﴾ من كرمه وجوده وعنايته بعبده الذي قام بعبوديته ﴿بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ محمد ﷺ الجواب: بلىٰ يكفيه، ويمنعه، ويحفظه، ويحرسه، ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾ يا محمد، ﴿بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ بالأصنام والأوثان أنها ستؤذيك أو تذهب عقلك، وقد كان الكفار يقولون في شأن خالد بن الوليد: يا عزىٰ خبليه حين هدمها؛ ولكنها عاجزة عن ذلك، ﴿وَمَن يُضْلِلِ﴾ يزيغه ﴿اللَّهُ﴾ عن طريق الحق والهدىٰ، ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ من موفق، وإذ أضلهم الله عَزَّوَجَلَّ، إنما أضلهم؛ لعلمه بهم أنهم ليسوا أهلًا للهداية، كما قال: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل:٣٣].

(٣٧) ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ﴾ يوفق ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ مزيغ عن الحق ولو أُلقيت عليه جميع شبه الدنيا فهو ثابت ثبوت الجبال الرواسي علىٰ الإسلام والاستقامة، ربط الله علىٰ قلبه وألبسه الثبات والسكينة، ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾ قويٌ غالب، ﴿ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ ينتقم ممن عصاه وتمرد علىٰ شرعه ودينه.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

(٣٨) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ أي كفار قريش: ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ المرفوعة، ﴿وَالأَرْضَ﴾ المبسوطة، ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ بلسان حالهم ومقالهم ﴿اللَّهُ قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿أَفَرَأَيْتُم﴾ أخبروني، ﴿مَّا تَدْعُونَ﴾ تعبدون ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ من الأصنام والأوثان، ﴿إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ مرض أو سقم أو قحط أو فقر، ﴿هَلْ هُنَّ﴾ هذه الأصنام ﴿كَٰشِفَٰتُ﴾ رافعات ودافعات ﴿ضُرِّهِۦٓ﴾ عني؟ الجواب: لا، لسن مستطيعات لذلك، ﴿أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ﴾ رزقًا، أو عطاء، أو صحة، أو سعة، ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ﴾ مانعات ﴿رَحْمَتِهِۦ﴾ الجواب: لا، فهي آلهة عاجزة عن جلب النفع كما أنها عاجزة عن دفع الضر ﴿قُلْ﴾ لهم عند ذلك: ﴿حَسْبِىَ اللَّهُ﴾ أي: الله كافيني، ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ﴾ يعتمد ﴿الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ المؤمنون المنيبون المخلصون، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣].

(٣٩) ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد، ﴿يَاقَوْمِ﴾ أهل مكة، ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ علىٰ شاكلتكم وطريقتكم، وهذا ليس علىٰ الإباحة والتخيير، وإنما هو علىٰ التهديد، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٤]، ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ بما أوحاه الله إليَّ من القرآن والسنة، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يوم القيامة.

(٤٠) ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ﴾ أليم: ﴿يُخْزِيهِ﴾ يذله علىٰ رؤوس الأشهاد، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود:١٨]، ﴿وَيَحِلُّ﴾ يجب، ﴿عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ لا يزول عنه، ولا يتحول.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾.

(٤١) ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآن، ﴿لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ بالصدق لهدايتهم وتعليمهم وبيان الصواب الذي لا غيره، ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ وفق للهداية وسلك سبيلها، ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ نفع نفسه والله غني عنه وعن عبادته، ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ زاغ ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ ضر نفسه والله غني عنه وعن جميع شأنه، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم﴾ يا محمد، ﴿بِوَكِيلٍ﴾ بحفيظ لأعمالهم، فإن الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يحفظها، وقد وكل بها ملائكة يكتبونها، زد علىٰ ذلك: أن الأشهاد يشهدون يوم القيامة بما عمله العبد، كما قال تعالىٰ: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف:٨٠].

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

(٤٢) ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى﴾ يقبض ﴿ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ فتفارق الروح الجسد، ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ وهذه الموتة الصغرىٰ.

❁ فَالنَّفْسُ لَهَا تَعَلُّقَانِ بِالْجَسَدِ:

– **الأول:** أن تفارقه بالكلية، وهذه هي الموتة التي بعدها البعث والنشور.

– **الثاني:** تُقبض في حال النوم وتبقىٰ له الحياة من حيث النفس ونحو ذلك، فإذا ردها الله عَزَّوَجَلَّ إليه ردها إلىٰ وقت معلوم.

﴿فَيُمْسِكُ﴾ يقبض ﴿ٱلَّتِي قَضَىٰ﴾ حكم ﴿عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ فيُمسك روحه عنده لا تعود إليه، ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ النفس التي لم يقضِ عليها الموت، ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾ وقت وأمد ﴿مُسَمًّى﴾ معلوم فيأتيه ملك الموت فيقبض روحه، وفي حديث حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كان النبي ﷺ إذا قام من نومه قال: **«الْحَمْدُ لله الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ»** أخرجه البخاري (٦٣١٢)، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ التوفي والإرسال، ﴿لَآيَاتٍ﴾ حُجج واضحات بينات، ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في هذه الآيات فيستجيبون لأمر الله ويبتعدون عن نهيه وزجره.

٤٣ ﴿أَمِ﴾ بل إن الكافرين ﴿ٱتَّخَذُوا﴾ أصناما وآلهة تكون لهم ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾ يشفعون لهم عند الله، ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿أَوَلَوْ كَانُوا۟﴾ هؤلاء الشفعاء: ﴿لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا﴾ من السماوات والأرَضين وغيرها، ﴿وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أنكم تعبدونهم فهي حجارة صماء بكماء فأنىٰ لها النفع والضر، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥]، ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨].

٤٤ ﴿قُل﴾ لهم يا محمد ﴿لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ مُلكًا وأمرًا وقبولًا، ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لا شريك له فيهما كما لا شريك له في عبادته، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة فيجازيكم علىٰ أعمالكم.

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

٤٥ ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ﴾ في القرآن، ﴿ٱشْمَأَزَّتْ﴾ نفرت وساءت، ﴿قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ وربما ضاقت بسبب عدم إيمانهم بالوعد والوعيد، ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ الأصنام والأوثان، ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يفرحون ويسرون بخلاف المؤمن، إذا ذُكِرَ الله وجل قلبه، وإذا تُليت عليه آياته زادته إيمانًا، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ

إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

﴿٤٦﴾ ﴿قُلِ﴾ يا محمد: ﴿اللَّهُمَّ﴾ يا ﴿فَاطِرَ﴾ خالق ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ﴾ ما غاب عن الأنظار، ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ العالم المشهود، ﴿أَنتَ تَحْكُمُ﴾ تفصل ﴿بَيْنَ عِبَادِكَ﴾ يوم القيامة، ﴿فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيميز الناس: ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى:٧].

وعند مسلم عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ النبي ﷺ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ افْتَتَحَ صَلَاتَهُ: **«اللهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»**.

﴿٤٧﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ كفروا في يوم القيامة، ﴿مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من الذهب والفضة والأموال والأنعام، ﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ يُضاف إليه، ﴿لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ﴾ شدة ﴿الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ حتىٰ يدفعه مرة، كما قال تعالىٰ: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾ [المعارج:١١-١٤].

وفي حديث أنس قال رسول الله ﷺ: **«لَوْ كَانَتْ لَكَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ: أَنْ لَا تُشْرِكَ - أَحْسِبُهُ قَالَ: وَلَا أُدْخِلَكَ النَّارَ - فَأَبَيْتَ إِلَّا الشِّرْكَ»** متفق عليه.

﴿وَبَدَا﴾ ظهر، ﴿لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ يتوقعون لأنهم كانوا يظنون: أنهم مُكرمون معززون، بل إن بعضهم يزعم: أنه إذا رجع إلىٰ الله سيكون له مالًا وولدًا، كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾ [مريم:٧٧-٧٨].

﴿٤٨﴾ ﴿وَبَدَا﴾ ظهر يوم القيامة، ﴿لَهُمْ سَيِّئَاتُ﴾ أعمالهم السيئة، من الشرك والبدعة والمعاصي، ﴿مَا كَسَبُوا﴾ ما جرحته أيديهم وأرجلهم وقلوبهم وألسنتهم، ﴿وَحَاقَ﴾ حلَّ ﴿بِهِم﴾ ونزل، ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ يسخرون، فكانوا إذا مروا بالمؤمنين يتضاحكون، كما

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ٣٠﴾ [المطففين:٣٠-٣١]، وفي القيامة لقوا جزاء أعمالهم.

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭۚ بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٩ قَدۡ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٥٠ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ٥١ أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٥٢﴾.

﴿٤٩﴾ ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرٌّ﴾ قحط ومرض وشدة وفقر، ﴿دَعَانَا﴾ أي: دعا الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ﴾ أعطيناه، ﴿نِعۡمَةٗ مِّنَّا﴾ صحة ومالًا، ﴿قَالَ﴾ الجاحد، ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ﴾ أعطيته، ﴿عَلَىٰ عِلۡمِۭ﴾ مني بطريقة الكسب والتجارة فرد النعمة التي أعطاه الله والصحة التي منحه الله إلىٰ نفسه، وقد اعتبر بعض السلف كابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن قولهم: لولا الكلب لدخل السارق: أنه من الشرك الأصغر.

فعن زيد بن خالد الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ يقول: **«أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي، وَكَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي، وَمُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ»** متفق عليه.

علىٰ تفصيل لأهل العلم: إن كان يعتقد أن الكوكب هو الذي أنزل المطر فهو كافر كفر أكبر مخرج من الملة، وإن كان يعتقد أنه سبب، وأضاف النعمة إليه؛ فيكون شركًا أصغراً.

﴿بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ﴾ له واختبار ومحنة، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ بسبب الغفلة التي تسلطت علىٰ قلوبهم.

﴿٥٠﴾ ﴿قَدۡ قَالَهَا﴾ هذه المقولة إنكارًا وجحدًا لنعمة الله عَزَّوَجَلَّ ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ قارون، ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ﴾ دفع ﴿عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ ما كانوا يعملون، كما قال تعالىٰ: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ﴾ [القصص:٧٨].

﴿٥١﴾ ﴿فَأَصَابَهُمۡ﴾ حل بهم، ﴿سَيِّـَٔاتُ﴾ جزاء: ﴿مَا كَسَبُواْ﴾ ما عملوا، ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أهل مكة، ﴿سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ سيحل بهم العذاب الأليم، وقد حل بهم

يوم بدر، قُتِلَ وأُسِرَ سراتهم، ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: بسالمين أو بفارين، فأين يفرون والله عَزَّوَجَلَّ هو طالبهم؟.

❁ وفي هذه الآية وعيد عظيم علىٰ: أن الإنسان لا يأمن مكر الله.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾ أي: الكفار بل ومن إليهم من جميع المُكلفين: ﴿أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ﴾ يوسع: ﴿ٱلرِّزْقَ﴾ العطاء، ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ من عباده، ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يقتر ويضيق علىٰ بعضهم فالأمر أمره، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ دلائل واضحات لأهل الإيمان، فكم من إنسان إذا أعطاه الله عَزَّوَجَلَّ ووسع عليه بطر وكفر، وكم من إنسان إذا ضُيِّقَ عليه أقبل علىٰ الطاعة، وتأمل قول الراوندي:

كم عالم عالم أعيت مذاهبه ... وجاهل جاهل تلقاه مرزوقاً

هذا الذي جعل الأفهام حائرة ... وصير العالم النحرير زنديقاً

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾.

📖 قيل نزلت بالمدينة، والذي يظهر أنها نزلت في مكة.

ففي الصحيحين عن ابن عباس: أَنَّ نَاسًا مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ قَتَلُوا فَأَكْثَرُوا، وَزَنَوْا فَأَكْثَرُوا، ثُمَّ أَتَوْا مُحَمَّدًا ﷺ، فَقَالُوا: إِنَّ الَّذِي تَقُولُ وَتَدْعُو لَحَسَنٌ، وَلَوْ تُخْبِرُنَا أَنَّ لِمَا عَمِلْنَا كَفَّارَةً، فَنَزَلَ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان:٦٨]، وَنَزَلَ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾.

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ تجاوز الحد بالشرك أو غيره من المعاصي ﴿لَا تَقْنَطُوا۟﴾ تيئسوا ﴿مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ ومن مغفرته لذنوبكم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ من الشرك فما دونه لمن تاب وأناب.

❁ وهذه الآية لا تتعارض مع قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٨]، فآية النساء في حق من مات علىٰ الشرك، وآية الزمر في حق من كان باقيًا في الدنيا، فإذا تاب وأناب غفر الله له جميع الذنوب.

كما قال تعالىٰ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، وفي حديث عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال قال رسول الله ﷺ: **«أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟ وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا؟ وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟»** أخرجه مسلم.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ﴾ الذي يستر، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ الذي يوفق.

وعن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «لَمَّا اجْتَمَعْنَا لِلْهِجْرَةِ اتَّعَدْتُ أَنَا وَعَيَّاشُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ وَهِشَامُ بْنُ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ، وَقُلْنَا: الْمِيعَادُ بَيْنَنَا التَّنَاضِبُ مِنْ أَضَاةِ بَنِي غِفَارٍ، فَمَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ لَمْ يَأْتِهَا فَقَدْ حُبِسَ فَلْيَمْضِ صَاحِبَاهُ، فَأَصْبَحْتُ عِنْدَهُ أَنَا وَعَيَّاشُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ وَحُبِسَ عَنَّا هِشَامٌ وَفُتِنَ فَافْتُتِنَ، بِالْمَدِينَةِ فَكُنَّا نَقُولُ: مَا اللهُ بِقَابِلٍ مِنْ هَؤُلَاءِ تَوْبَةً، قَوْمٌ عَرَفُوا اللهَ وَآمَنُوا بِهِ، وَصَدَّقُوا رَسُولَهُ ثُمَّ رَجَعُوا عَنْ ذَلِكَ لِبَلَاءٍ أَصَابَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا، وَكَانُوا يَقُولُونَ لِأَنْفُسِهِمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فِيهِمْ: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾، إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾.

قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَكَتَبْتُهَا بِيَدِي كِتَابًا، ثُمَّ بَعَثْتُ بِهَا إِلَىٰ هِشَامٍ، فَقَالَ هِشَامُ بْنُ الْعَاصِ: فَلَمَّا قَدِمَتْ عَلَيَّ خَرَجْتُ بِهَا إِلَىٰ ذِي طُوًىٰ، فَجَعَلْتُ أَصْعَدُ بِهَا وَأُصَوِّبُ لِأَفْهَمَهَا، فَقُلْتُ: اللهُمَّ فَهِّمْنِيهَا، وَفَرَقْتُ إِنَّمَا أُنْزِلَتْ فِينَا لِمَا كُنَّا نَقُولُ فِي أَنْفُسِنَا، وَيُقَالُ فِينَا، فَرَجَعْتُ فَجَلَسْتُ عَلَىٰ بَعِيرِي فَلَحِقْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقُتِلَ هِشَامٌ شَهِيدًا بِأَجْنَادِينَ فِي وِلَايَةِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ » أخرجه البيهقي في الصغرىٰ.

٥٤ ﴿وَأَنِيبُوٓاْ﴾ ارجعوا، ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾ بالتوبة، ﴿وَأَسۡلِمُواْ﴾ استسلموا واخلصوا، ﴿لَهُۥ﴾ العبادة ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ في الدنيا أو في الآخرة، ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ لا تمنعون.

٥٥ ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ﴾ القرآن الذي هو ﴿أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ فأحلوا حلاله وحرموا حرامه، ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ﴾ فجأة علىٰ حين غرة، ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ٩٧ أَوَأَمِنَ أَهۡلُ

ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف:٩٧-٩٩].

فكم من إنسان منعم بين أبنائه ما يظن أن يأتيه الله عَزَّوَجَلَّ، وإذا به بين ليلة وضحاها كأمس الدابر، لم يقدم لنفسه، ولم يتقرب إلىٰ ربه، وعن عبد الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال كان في دعاء النبي ﷺ: **«اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ، وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ، وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ، وَجَمِيعِ سَخَطِكَ»** أخرجه مسلم.

٥٦ ويكون قولهم: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾ إذا نزل بهم العذاب متحسرة علىٰ ما نزل بها: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ﴾ أي: يا حسرتي وندامتي، ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ﴾ ما ضيعت، ﴿فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ في حق الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ المستهزئين بالمؤمنين المصلين الموحدين.

٥٧ ﴿أَوْ تَقُولَ﴾ نفس من باب الاعتراف والإقرار، ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى﴾ وفقني، ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الموحدين المسلمين.

٥٨ ﴿أَوْ تَقُولَ﴾ نفس ﴿حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ﴾ متحسرة متندمة ﴿لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً﴾ رجعة، ﴿فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

٥٩ لكن كل هذه دعاوىٰ يردها قول الله: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ﴾ القرآن والبينات الشرعية، ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا﴾ رددتها، ﴿وَٱسْتَكْبَرْتَ﴾ أعرضت عنها كِبرًا وعنادًا، ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بالله رب العالمين.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

٦٠ ﴿وَ﴾ يكون الشأن ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ حيث ﴿تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ﴾ وكفروا وقالوا في الله وفي أسمائه وصفاته ما لم يأذن به الله، ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ كالحة كاسفة، كقول الله

عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران:١٠٦]، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ [يونس:٢٧]، ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾ مستقر ومأوىٰ ﴿لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ بلىٰ إنها مأواهم، ففي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال رسول الله ﷺ: **«يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَمْثَالَ الذَّرِّ، فِي صُوَرِ النَّاسِ، يَعْلُوهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّغَارِ، حَتَّىٰ يَدْخُلُوا سِجْنًا فِي جَهَنَّمَ، يُقَالُ لَهُ: بُولَسُ، فَتَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْيَارِ، يُسْقَوْنَ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ، عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ»** أخرجه أحمد.

٦١ ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ﴾ يسلم في ذلك اليوم، ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ﴾ بفوزهم وظفرهم بسبب أعمالهم الصالحات، ﴿لَا يَمَسُّهُمُ﴾ يصيبهم ﴿ٱلسُّوٓءُ﴾ العذاب، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لأن الله عَزَّوَجَلَّ لا يجمع علىٰ عبد حزنين أو فرحين، فمن كان من أهل الأشر والبطر والفرح في الدنيا حزن يوم القيامة، ومن كان من أهل الحزن في الدنيا فرح يوم القيامة، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ عِبَادًا يَغْبِطُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ»** قِيلَ: مَنْ هُمْ؟ لَعَلَّنَا نُحِبُّهُمْ. قَالَ: **«هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِنُورِ اللهِ مِنْ غَيْرِ أَرْحَامٍ وَلَا أَنْسَابٍ، وُجُوهُهُمْ نُورٌ عَلَىٰ مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، لَا يَخَافُونَ إِنْ خَافَ النَّاسُ وَلَا يَحْزَنُونَ إِنْ حَزِنَ النَّاسُ»**، أخرجه أبو يعلىٰ.

٦٢ ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ مخلوق، وأسماء الله عَزَّوَجَلَّ وصفاته غير مخلوقة، والقرآن صفته غير مخلوق، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ حفيظ عليم لا تخفىٰ عليه خافية.

٦٣ ومن عظيم شأنه أن ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ﴾ مفاتيح أو خزائن، ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وله الأمر، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة:٥]، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الشرعية كالقرآن ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ في دنياهم وأخراهم.

٦٤ ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ﴾ من الأصنام والأوثان ﴿أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ بدين الله عَزَّوَجَلَّ وحقه، وهذا دليل علىٰ جهلكم وقلة علمكم إذ تأمرونني أن أعبد الحجارة الصماء وأترك عبادة رب الأرض والسماء الذي لا يعجزه شيء.

٦٥ ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ يا محمد، ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ من الرسل، ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ بالله غيره ﴿لَيَحْبَطَنَّ﴾ يذهبن ﴿عَمَلُكَ﴾ سُدىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا

عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣]، ﴿وَلَتَكُونَنَّ﴾ في الآخرة ﴿مِنَ الْخَٰسِرِينَ﴾ الكافرين.

❁ **وهذا دليل على تعين الخوف من الشرك**، وأن الشرك محبط لجميع العمل، وهذا التهديد لرسول الله صلىٰ الله عليه تهديد لغيره وإلا فالنبي ﷺ معصوم من أن يقع منه ذلك، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ في شأنه: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٧٤].

٦٦ ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ﴾ أي: اخلص له العبادة، ﴿وَكُن مِّنَ الشَّٰكِرِينَ﴾ بقلبك ولسانك وجوارحك.

٦٧ ﴿وَ﴾ سبب كفر الكافرين وإعراض المعرضين أنهم: ﴿مَا قَدَرُواْ﴾ ما عظموا ﴿اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ تعظيمه وما أنزلوه حق منزلته حين عبدوا غيره من الأصنام والأوثان، فإن الله عَزَّوَجَلَّ الكبير العظيم الخالق الرازق المالك المدبر، ثم يجعل له شركاء من حجارة صماء ومن مخلوقات حقيرة، ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ الأرض الواسعة يقبضها الله سبحانه وتعالىٰ في يده، ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ العظام الغليظات الواسعات التي جاء في شأنها: «**مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَىٰ الْأَرْضِ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، ثُمَّ مَا بَيْنَ كُلِّ سَمَاءَيْنِ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَغِلَظُ كُلِّ سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ حَتَّىٰ عَدَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ، مَا بَيْنَ كُلِّ سَمَاءَيْنِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، ثُمَّ قَالَ: هَلْ تَدْرُونَ مَا فَوْقَ ذَلِكَ؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: فَإِنَّ فَوْقَ ذَلِكَ العَرْشَ وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّمَاءِ بُعْدُ مَا بَيْنَ السَّمَاءَيْنِ. ثُمَّ قَالَ: هَلْ تَدْرُونَ مَا الَّذِي تَحْتَكُمْ؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: فَإِنَّهَا الأَرْضُ. ثُمَّ قَالَ: هَلْ تَدْرُونَ مَا الَّذِي تَحْتَ ذَلِكَ؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: فَإِنَّ تَحْتَهَا أَرْضًا أُخْرَىٰ، بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسِ مِائَةِ سَنَةٍ حَتَّىٰ عَدَّ سَبْعَ أَرَضِينَ، بَيْنَ كُلِّ أَرْضَيْنِ مَسِيرَةُ خَمْسِ مِائَةِ سَنَةٍ. ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ أَنَّكُمْ دَلَّيْتُمْ بِحَبْلٍ إِلَىٰ الأَرْضِ السُّفْلَىٰ لَهَبَطَ عَلَىٰ اللهِ. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد:٣]»، ﴿مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا﴾ [الأنبياء:١٠٤]، كطي الصحيفة.

وقد جاء في حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**يَطْوِي اللهُ** عَزَّوَجَلَّ **السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَىٰ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ. ثُمَّ يَطْوِي الْأَرَضِينَ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟**» متفق عليه، وهذا لفظ

مسلم وذكر الشمال فيه شاذ بل منكر تفرد بها عمر بن حمزة وهو ضعيف، واللفظ المحفوظ: « **ويأخذ الأرض بيده الأخرىٰ**» وفي حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «**وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ**» أخرجه مسلم.

﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيه لله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَتَعَالَىٰ﴾ تعظيم لله عَزَّوَجَلَّ، ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ عما يقولون ويفعلون، وقد قال مثل قولهم اليهود حيث قالوا: ما أنزل الله علىٰ بشر من شيء فأنزل الله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ﴾ [الأنعام:٩١]، وفي الصحيحين عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال يهودي والنبي ﷺ قرأ هذه الآية فقال: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالْأَرَضِينَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالْجِبَالَ وَالشَّجَرَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَىٰ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْمَلِكُ**»، فضحك رسول الله ﷺ تصديقا للحبر.

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿٦٨﴾ ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ نفخة الفزع، التي تؤخذ فيها أرواح العباد، ﴿فَصَعِقَ﴾ هلك ومات ﴿ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ من المخلوقات، ﴿إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ ممن سلمه الله، ويكون ملك الموت آخر من يموت، ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾ وهي نفخة البعث والنشور، ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ﴾ من قبورهم، ﴿يَنظُرُونَ﴾ يمنةً ويسرة.

وقد جاء في حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال رسول الله ﷺ: «**ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ – أَوْ قَالَ يُنْزِلُ اللهُ – مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ أَوِ الظِّلُّ – نُعْمَانُ الشَّاكُّ – فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَىٰ، فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ**» أخرجه مسلم، ثم يخرجون من قبورهم سراعًا ينسلون إلىٰ أرض المحشر، كما قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: ٤٣].

❁ **(والصُّور)**: قرن عظيم لا يعلم مقدار ما هو عليه إلا الله عَزَّوَجَلَّ، ينفخ فيه إسرافيل أحد الملائكة المقربين وأحد الكروبيين المعظمين، فإذا نفخ فيه لا يبقىٰ أحد ممن قضىٰ الله عليه الموت إلا مات، ثم ينفخ فيه أخرىٰ فلا يبقىٰ ميت إلا أحياه الله.

وهذا دليل علىٰ عظم شأن هذا الصور، فعن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ يقول: **«كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الصُّورِ قَدِ الْتَقَمَ الصُّورَ، وَحَنَىٰ جَبْهَتَهُ، وَأَصْغَىٰ سَمْعَهُ، يَنْتَظِرُ مَتَىٰ يُؤْمَرُ»** أخرجه الترمذي.

٦٩ ﴿وَأَشْرَقَتِ﴾ أضاءت ﴿ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ وذلك: أن الله عَزَّوَجَلَّ يكور الشمس والقمر وتُلقىٰ في النار ولا يبقىٰ إلا نور الملك الجبار، يقوي الله عَزَّوَجَلَّ الناس علىٰ رؤيته وإلا فقد قال النبي ﷺ: **«حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَىٰ إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»** أخرجه مسلم، ﴿وَوُضِعَ﴾ طرح، ﴿ٱلْكِتَابُ﴾ كتب أعمال العباد، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٤].

﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ يشهدون علىٰ أممهم، وتشهد عليهم أممهم، ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ الملائكة الذين يكتبون أعمال بني آدم، ﴿وَقُضِىَ﴾ حُكِمَ، ﴿بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ بالعدل، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

٧٠ ﴿وَوُفِّيَتْ﴾ جُزيت ﴿كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ من خير أو شر، ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ لا تخفىٰ عليه خافية، وإنما جعل عليهم الشهود والكنية إظهاراً لعدله، وبعد الفصل والمقاصة بين العباد في تلك العرصات، ومع شدة الأحوال، والأهوال، يأتي بعد ذلك.

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٧١ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ٧٢﴾.

٧١ ﴿وَسِيقَ﴾ دُفِعَ، ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ سوقًا شديدًا تنهرهم الملائكة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم:٨٦]، ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ إلىٰ النار جماعات،

وأفواجًا بعضهم علىٰ إثر بعض ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾ ووصلوا إلىٰ أبوابها، ﴿فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ فجأة عليهم أي: بغير تدرج وهو من أشد أنواع العذاب.

وفي الصحيحين عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: **« عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا، فَاسْقِنَا، فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلَا تَرِدُونَ؟ فَيُحْشَرُونَ إِلَىٰ النَّارِ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ»** أخرجه مسلم.

﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ﴾ حراسها عند ذلك مبكتين لهم: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ من أنفسكم، ﴿يَتۡلُونَ﴾ يقرؤون، ﴿عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ﴾ القرآن والسنة، ﴿وَيُنذِرُونَكُمۡ﴾ يخوفونكم، ﴿لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ أي: جاءتنا الرسل وبلغونا بأمر الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ﴾ وجبت، ﴿كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فلا سبيل لهم إلىٰ الخلاص.

﴿٧٢﴾ ثم ﴿قِيلَ﴾ للكفار عند ذلك: ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ بئس القرار وبئس المكان المسكون مكان المتكبرين، طعامهم الزقوم، وشرابهم الضريع، ولباسهم النار، وفرشهم نار، ومع ذلك يسلسلون ويُغلون، كما قال تعالىٰ: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ٣٠ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ٣١ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ ٣٢﴾ [الحاقة:٣٠-٣٢]، ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف:٤١]، ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ٢١﴾ [الحج:١٩-٢١].

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٧٤ وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۚ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّۚ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٥﴾.

﴿٧٣﴾ ﴿وَسِيقَ﴾ وساق الملائكة برفق، ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ﴾ معززين مكرمين وفودًا علىٰ النجائب، كما قال تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا﴾ [مريم: ٨٥]، ﴿إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ﴾ جماعات يتبع بعضهم بعضًا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾ وقفوا علىٰ بابها ﴿وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ وفي قراءة: وَفُتِّحَتْ أَبْوَابُهَا بشفاعة رسول الله ﷺ بخلاف النار ما إن جاء أصحابها حتىٰ فتحت لهم والتهمتهم.

أما الجنة فقد قال النبي ﷺ: «آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتفْتِحُ، فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ» اخرجه مسلم عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ من ملائكة الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ يحيونهم بالسلام، ﴿طِبْتُمْ﴾ في حياة طيبة بسبب أعمالكم الطيبة، ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ منعمين: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة:٣٣]، نسأل الله أن يجعلنا من أهلها.

٧٤ ﴿وَقَالُوا﴾ أهل الجنة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا﴾ انجز لنا ﴿وَعْدَهُ﴾ وأعطانا الجنة وأدخلنا فيها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٤]، وقال: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، ﴿وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ﴾ أرض الجنة، ﴿نَتَبَوَّأُ﴾ ننزل: ﴿مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾.

وفي صحيح مسلم عن المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَدْنَىٰ أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً، قَالَ: هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَ مَا أُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، فَيُقَالُ لَهُ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، كَيْفَ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ، وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِمْ، فَيُقَالُ لَهُ: أَتَرْضَىٰ أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا؟ فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: لَكَ ذَلِكَ، وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ، فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ: رَضِيتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: هَذَا لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ، وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ، وَلَذَّتْ عَيْنُكَ، فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ، قَالَ: رَبِّ، فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ، قَالَ: وَمِصْدَاقُهُ فِي كِتَابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً﴾ [السجدة: ١٧] الْآيَةَ».

٧٥ ﴿وَتَرَى﴾ في ذلك اليوم ﴿الْمَلَائِكَةَ﴾ العظام المسبحة بحمد الملك العلام الطائعة لله عَزَّوَجَلَّ لا تعصيه فيما أمر: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦]، ﴿حَافِّينَ﴾ محيطين، ﴿مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ العظيم الكريم الذي استوىٰ عليه الرب الكريم، ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ ينزهون، ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ﴾ حُكِمَ، ﴿بَيْنَهُم﴾ بين الناس جميعًا أهل الجنة وأهل النار، ﴿بِالْحَقِّ﴾ الثابت الواقع، ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فيُحمد علىٰ فضله سبحانه وتعالىٰ وعدله.

قال قتادة: افتتح الله الخلق بالحمد في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ﴾، واختتم بالحمد في قوله: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥].

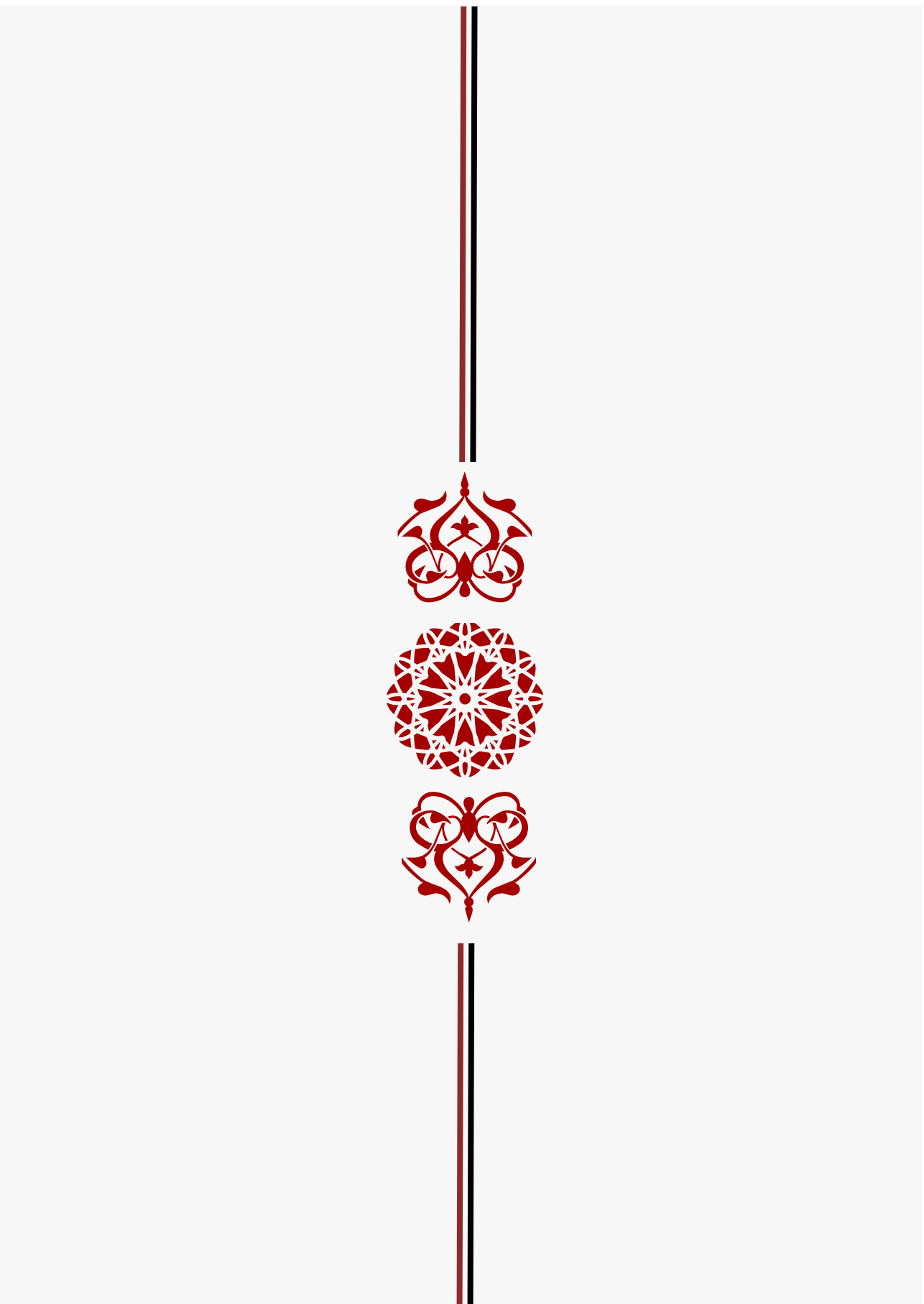
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الزُّمَرِ



تَفْسِيرُ سُورَةِ غَافِرٍ





سُورَةُ غَافِرٍ

مَكِّيَّةٌ، وَآيَاتُهَا خَمْسَةٌ وَثَمَانُونَ.

وهي أول سور الـ﴿ حمٓ ﴾، وهي سبع سور، ومن أسمائها سورة المؤمن.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٤﴾.

١ وقد اختلف في معنىٰ: ﴿ حمٓ ﴾ فقيل: بأنه اسم من أسماء الله، وفي حديث الْمُهَلَّبَ بْنَ أَبِي صُفْرَةَ أنه: أَخْبَرَه مَنْ، سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: " إِنْ بُيِّتُمُ اللَّيْلَةَ فَقُولُوا: حم لَا يُنْصَرُونَ "، والذي يظهر أن: ﴿ حمٓ ﴾ من الحروف المقطعة التي افتتح الله بها ما شاء من السور، وقد تقدم الكلام عليها مراراً.

٢ ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ القرآن، ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ﴾ الذي لا يُغلب، ﴿ ٱلْعَلِيمِ﴾ بحال عباده، فلا تخفىٰ عليه خافية، من أمورهم وأسباب مصالحهم.

وهذا دليل علىٰ أن القرآن كلام الله غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، سمعه منه جبريل وبلغ جبريل محمدًا ﷺ.

٣ ﴿غَافِرِ﴾ أي: أن الله ساتر، ومتجاوز عن ﴿ٱلذَّنۢبِ﴾ المعصية، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه:٨٢]، وفي حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ القدسي قال الله عَزَّوَجَلَّ: **«يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ»** اخرجه مسلم، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:١٣٥].

﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ الرجوع إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، وقبولها إذا أتىٰ بشروطها علىٰ الوجه الشرعي والتوبة واجبة من كل ذنب، ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ لمن لم يتب من ذنوبه فهو قوي لا يعجزه شيء يعاقب الكافرين بأشد أنواع العذاب، وهذا من الجمع بين الترغيب والترهيب،

﴿ذِي ٱلطَّوْلِۖ﴾ صاحب المن، والعطاء، والفضل، والجود، والكرم والإحسان، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا إله بحق غيره ولا رب سواه، ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ يوم القيامة، فيجازي الناس بأعمالهم.

٤ ﴿مَا يُجَٰدِلُ﴾ يخاصم، ﴿فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ القرآن، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالله ورسله وكتبه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦] ﴿فَلَا﴾ تحزن عليهم ولا، ﴿يَغُرُّكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾ أي: لا تغتر بانتصارهم وبكثرة أموالهم وأتباعهم فهو ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ [آل عمران:١٩٧]، زائل، ﴿ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ﴾ [آل عمران:١٩٧]، مستقرهم ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران:١٩٧]، الفراش، كما قال تعالىٰ: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍۚ وَكَذَٰلِكَ﴾ [الأعراف: ٤١].

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٦﴾.

٥ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي: قبل قريش، ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ وهو أول رسول إلىٰ أهل الأرض، ﴿وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْۖ﴾ والأمم المتتابعة، من بعد قوم نوح، ﴿وَهَمَّتْ﴾ عزمت ﴿كُلُّ أُمَّةٍۭ﴾ طائفة، ﴿بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُۖ﴾ ؛ليقتلوه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠]، وقال تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ۝٨٨﴾ [الأعراف:٨٨]، ﴿وَجَٰدَلُواْ﴾ خاصموا، ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ المعارض للقرآن والسنة، ﴿لِيُدْحِضُوا﴾ يردوا ويهزموا ﴿بِهِ الْحَقَّ﴾ الوحي، ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ في الدنيا بالقتل ونحوه، وفي الآخرة عذاب النار، ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ فقد كان عقاباً شديداً.

٦ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: كما عذبت هؤلاء ودمدمت عليهم بسبب ذنوبهم ومعاصيهم، ﴿حَقَّتْ﴾ وجبت، ﴿كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ الكونية، ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ لا يخرجون منها ولا يتنعمون، وهي قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة:١٣].

﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٩﴾.

٧ ثم ذكر الله عَزَّوَجَلَّ من لطفه بعباده المؤمنين أن سخر لهم من يستغفرون لهم وهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ﴾ العرش السرير.

❁ وهو سقف المخلوقات، وأكبرها، وأولها علىٰ الصحيح استوىٰ عليه الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، وذكر أهل العلم: أن حملته أربعة ويستدلون ببيت أمية بن أبي الصلت، وقد سمعه النبي ﷺ وأقره:

رَجُلٌ وَثَوْرٌ تَحْتَ رِجْلِ يَمِينِهِ وَالنَّسْرُ لِلْأُخْرَىٰ وَلَيْثٌ مُرْصَدُ

وذهب بعضهم: إلىٰ أنهم ثمانية ويستدلون بحديث العباس المسمىٰ بحديث الأوعال؛ وهو حديث ضعيف من طريق عبد الله بن عميرة الكوفي مجهول، ولبعضه شواهد.

ولفظه: قَالَ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ: كُنْتُ فِي الْبَطْحَاءِ فِي عِصَابَةٍ فِيهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَمَرَّتْ بِهِمْ سَحَابَةٌ، فَنَظَرَ إِلَيْهَا، فَقَالَ: **«مَا تُسَمُّونَ هَذِهِ؟»** قَالُوا: السَّحَابَ، قَالَ: **«وَالْمُزْنَ»** قَالُوا: وَالْمُزْنَ، قَالَ: **«وَالْعَنَانَ»** قَالُوا: وَالْعَنَانَ " قَالَ أَبُو دَاوُدَ: **«لَمْ أُتْقِنِ الْعَنَانَ جَيِّدًا»** قَالَ: **«هَلْ تَدْرُونَ مَا بُعْدُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟»** قَالُوا: لَا نَدْرِي، قَالَ: **«إِنَّ بُعْدَ مَا بَيْنَهُمَا إِمَّا وَاحِدَةٌ أَوِ اثْنَتَانِ أَوْ ثَلَاثٌ وَسَبْعُونَ سَنَةً، ثُمَّ السَّمَاءُ فَوْقَهَا كَذَلِكَ»** حَتَّىٰ عَدَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ **«ثُمَّ فَوْقَ السَّابِعَةِ بَحْرٌ بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلَاهُ مِثْلُ مَا بَيْنَ سَمَاءٍ إِلَىٰ سَمَاءٍ، ثُمَّ فَوْقَ ذَلِكَ ثَمَانِيَةُ أَوْعَالٍ بَيْنَ أَظْلَافِهِمْ وَرُكَبِهِمْ مِثْلُ مَا بَيْنَ سَمَاءٍ إِلَىٰ سَمَاءٍ، ثُمَّ عَلَىٰ ظُهُورِهِمُ الْعَرْشُ مَا بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلَاهُ مِثْلُ مَا بَيْنَ سَمَاءٍ إِلَىٰ سَمَاءٍ، ثُمَّ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فَوْقَ ذَلِكَ»** أخرجه أبو داود.

وأما يوم القيامة: فهم ثمانية بنص القرآن، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ [الحاقة:١٧]، وهم ملائكة عِظام شداد يحملون العرش العظيم الكبير الذي ما الكرسي فيه إلا كحلقة في فلاة، وما السماوات والأرض في الكرسي إلا كحلقة في فلاة، والله عَزَّوَجَلَّ فوق ذلك، وفي حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: **«إِنَّ اللهَ أَذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ دِيكٍ**

قَدْ مَرَقَتْ رِجْلَاهُ الْأَرْضَ، وعُنُقُهُ مُنْثَنٍ تَحْتَ الْعَرْشِ، وَهو يَقُولُ: سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَكَ رَبَّنَا، فَرَدَّ عَلَيْهِ: لَا يَعْلَمُ ذَلِكَ مَنْ حَلَفَ بِي كَاذِبًا» أخرجه أبو داود.

﴿وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ من الملائكة الكروبيين الطائعون لله، ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ ينزهونه ويقدسونه، ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ يقرون له بالتوحيد، وقد جعلهم الله علىٰ ذلك: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦]، ﴿وَ﴾ من شأنهم أنهم ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾ يطلبون المغفرة والرحمة والتجاوز والعفو والصفح: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾، وهذا من كرم الله عَزَّوَجَلَّ، وقد أمر الله النبي ﷺ أن يستغفر للمؤمنين فقال: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد:١٩]، وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تُصَلِّي عَلَىٰ أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مَجْلِسِهِ، تَقُولُ: اللهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللهُمَّ ارْحَمْهُ، مَا لَمْ يُحْدِثْ، وَأَحَدُكُمْ فِي صَلَاةٍ مَا كَانَتِ الصَّلَاةُ تَحْبِسُهُ»** متفق عليه.

يقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً﴾ يتوسلون إلىٰ الله برحمته الواسعة، ﴿وَعِلْمًا﴾ بكل شيء لا تخفىٰ عليه خافية، ﴿فَٱغْفِرْ﴾ تجاوز ﴿لِلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ رجعوا وأنابوا، ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾ طريقك، ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ النار.

﴿٨﴾ ومن تمام دعائهم، ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ المقامة ﴿ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ علىٰ ألسنة رُسلك، ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ ألحقه بهم.

وقد ذهب كثير من أهل العلم: إلىٰ أن بنات النبي ﷺ وزوجاته مع النبي ﷺ في درجته، ويلتحق ببناته أزواجهن، كما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الطور:٢١]، فلا ينزل الأعلىٰ إلىٰ الأدنىٰ، ولكن يرفع الأدنىٰ إلىٰ الأعلىٰ، وهذا من كرم الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُغلب، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في فعله وأمره.

﴿٩﴾ ومن دعائهم: ﴿وَقِهِمُ﴾ سلمهم وجنبهم ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ المعاصي، وما يقع بسبب المعاصي من العقوبات، ﴿وَمَن تَقِ﴾ تسلمه من، ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ العقوبات، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ القيامة، ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾ رحمة واسعة، ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ﴾ الربح ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ الوافر الذي لا بعده، كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾.

﴿١٠﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ﴾ يوم القيامة، وهم في النار قد مقتوا أنفسهم حين عرضت عليهم سيئاتهم ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾ غضب الله وكرهه وبغضه لكم، ﴿أَكْبَرُ﴾ أعظم ﴿مِن مَّقْتِكُمْ﴾ شدة بغضكم ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ الآن ﴿إِذْ﴾ وذلك حين كنتم، ﴿تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ﴾ بالله ورسله: ﴿فَتَكْفُرُونَ﴾ تعرضون.

﴿١١﴾ ﴿قَالُواْ﴾ أي: الكفار، ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ الأولىٰ لما كانوا في أصلاب آبائهم قبل وجودهم، والثانية: حين قبض أرواحهم، ﴿وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ الأولىٰ حين خرجوا من بطون أمهاتهم، والثانية: في الآخرة، ﴿فَٱعْتَرَفْنَا﴾ أقررنا ﴿بِذُنُوبِنَا﴾ وخطايانا وسيئاتنا، ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ﴾ من النار ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾ طريق والجواب: لا خروج ولا طريق لذلك.

﴿١٢﴾ ﴿ذَٰلِكُم﴾ الذي حل بكم من العذاب، ﴿بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ﴾ عُبِدَ ووحد ﴿ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ﴾ لا شريك له ﴿كَفَرْتُمْ﴾ وأشركتم ونددتم، ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ﴾ يُعبد معه غيره من الأصنام والأوثان: ﴿تُؤْمِنُواْ﴾ وتفرحوا وتقروا، ﴿فَٱلْحُكْمُ﴾ الفصل، ﴿لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ﴾ علىٰ عرشه، العلي في ذاته، والعلي في صفاته: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ:١١]، ﴿ٱلْكَبِيرِ﴾ العظيم الواسع.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾.

(١٣) والله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ الشرعية والكونية؛ ليزداد إيمان المؤمنين، وإعراض المعرضين، ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ السحاب، ﴿رِزْقًا﴾ مطرًا، ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ يتعظ، ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ يرجع إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ تائبًا مخلصًا، ويأخذ بأمره وينتهي عن زجره.

(١٤) ﴿فَادْعُوا﴾ اعبدوا ووحدوا ﴿ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾ بقلوبكم وجوارحكم لا تشركوا معه غيره لا ملكًا مقربًا ولا نبيًا مرسلًا، ﴿لَهُ ٱلدِّينَ﴾ الطاعة، ﴿وَلَوْ كَرِهَ﴾ أبغض ﴿ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ عبادتكم؛ فلن يقع منهم الرضا عن المؤمنين، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة:١٢٠]، وقد قال تعالىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:٣٣].

(١٥) والله عَزَّوَجَلَّ هو: ﴿رَفِيعُ﴾ عالي ﴿ٱلدَّرَجَـٰتِ﴾ مباين لجميع مخلوقاته وهو كما قال: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ [المعارج:٣]، فهو صاحب الدرجات الرفيعة، ﴿ذُو﴾ صاحب ﴿ٱلْعَرْشِ﴾ العظيم الواسع، ﴿يُلْقِى﴾ ينزل ﴿ٱلرُّوحَ﴾ الوحي، وقيل: القرآن، وقيل: جبريل، ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ من قوله، ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص:٦٨]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عمران:٣٣]، ﴿لِيُنذِرَ﴾ يحذر، ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ يوم اللقاء فيلتقي الأبرار والفجار وجميع المخلوقات يُحشرون في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر.

(١٦) ﴿يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ﴾ ظاهرون، ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾ سرائرهم كظواهرهم، كما قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾﴾ [الطارق:٩-١٠]، ويقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ المُطلق الذي لا يُشاركه غيره؟ مع أن الملك لله في كل زمان، لكن في ذلك اليوم تتمحض المُلكية ويرىٰ كل واحد ألا شيء معه، فيجيب نفسه تعالىٰ: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ﴾ الذي لا شريك له، ﴿ٱلْقَهَّارِ﴾ لعباده.

(١٧) ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ يوم القيامة، ﴿تُجْزَىٰ﴾ تثاب ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ﴾ مكلفة من الجن والإنس ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ عملت من المؤمنين والكفار، ومن الأبرار والفجار، ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ كما أن الله ليس بظلام في كل زمان، لكن في ذلك اليوم يتمحض عدل الله عَزَّوَجَلَّ ويعجز العباد عن المظالمة فيما بينهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ مع كثرة الناس والأعمال إلا أنه يقضي بينهم في

قريب نصف ذلك اليوم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]

(١٨) ﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾ يا محمد، ﴿يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ﴾ القيامة إذا قَرُبت، كما قال تعالىٰ: ﴿أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ۝٥٧ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨﴾ [النجم:٥٧-٥٨]، ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ﴾ قلوب العباد، ﴿لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ قد ارتفعت بسبب الضيق الذي هم فيه، ﴿كَٰظِمِينَ﴾ ساكتين لا يستطيعون البوح بما في نفوسهم، ولا يستطيعون الاستغاثة والاستعانة، ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين، ﴿مِنْ حَمِيمٍ﴾ صديق، ﴿وَلَا شَفِيعٍ﴾ قريب يشفع لهم، ﴿يُطَاعُ﴾، وإن قدرت شفاعتهم لا يطاعون مع أنهم لا يشفعون إلا لمن رضىٰ الله أقواله وأفعاله، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وهؤلاء حالهم كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر:٤٨].

(١٩) ومن شأنه أنه عَزَّوَجَلَّ أحاط علمه بكل شيء ومن ذلك: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ قيل: الحركة، ومسارقة النظر ونحو ذلك وعن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ جاءه رجل أراد أن يبايعه فتأخر في بيعته، ثم مد يده وتأخر ثم بايعه، فلما انتهىٰ قال لهم: **«أَمَا كَانَ فِيكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ يَقُومُ إِلَىٰ هَذَا حَيْثُ رَآنِي كَفَفْتُ يَدِي عَنْ بَيْعَتِهِ فَيَقْتُلُهُ؟»** فَقَالُوا: مَا نَدْرِي يَا رَسُولَ اللهِ، مَا فِي نَفْسِكَ أَلَا أَوْمَأْتَ إِلَيْنَا بِعَيْنِكَ. قَالَ: **«إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ أَنْ تَكُونَ لَهُ خَائِنَةُ الْأَعْيُنِ»** أخرجه أبو داود.

﴿وَ﴾ يُعلم، ﴿مَا تُخْفِي﴾ تستر ﴿الصُّدُورُ﴾ القلوب وهذا أعظم مما يكون من خائنة الأعين فلا يخفىٰ علىٰ الله شيء البتة.

(٢٠) ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِي﴾ يحكم يوم القيامة، ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالعدل، ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ يُعبدون، ﴿مِن دُونِهِ﴾ من الأصنام والأوثان، ﴿لَا يَقْضُونَ﴾ لا يحكمون: ﴿بِشَيْءٍ﴾ لعجزهم وضعفهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لكلام عباده، ﴿الْبَصِيرُ﴾ بأفعالهم.

﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ۝٢١ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۖ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٢٢﴾.

(٢١) ﴿أَوَلَمْ﴾ هؤلاء المكذبون برسالتك يا محمد ﴿يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ الواسعة التي من حولهم مثل: أرض ثمود، وعاد، وسبأ، ﴿فَيَنظُرُوا﴾ نظرة تفكر وتأمل، ﴿كَيْفَ كَانَ﴾ جزاء

ونهاية، و ﴿عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ﴾ من الكافرين فدمدم الله عليهم ودمرهم، فمنهم من أهلكه بالريح، ومنهم من أهلكه بالمطر، ومنهم من أهلكه بالصيحة أو الصعقة مع أنهم: ﴿مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ﴾ من قريش ﴿أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾ شدة ومنعة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

﴿وَآثَارًا فِي الأَرْضِ﴾ بالبناء والعمران ومع ذلك لم ينفعهم فانظر إلىٰ بيوت قوم صالح، بيوت عالية حُفِرت في الجبال، وانظر إلىٰ السدود التي بناها اليمنيون حجارتها يعجز عن حملها بعض الشِّيَوَلات، وهكذا الأوتاد التي بناها فرعون بناء محكماً مصمداً، وقد عجز الناس عن معرفة كنه ذلك البناء.

﴿فَأَخَذَهُمُ﴾ أهلكهم ودمر عليهم، ﴿ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ﴾ بمعاصيهم، ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ من مدافع أو مُسّلِم يقيهم مكر الله عَزَّوَجَلَّ وعذابه.

﴿ذَلِكَ﴾ العذب الذي نزل بهم: ﴿بِأَنَّهُمۡ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم﴾ الذين أرسلهم الله: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ الوحي المبين والأدلة الواضحات، ﴿فَكَفَرُواْ﴾ أعرضوا، ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾ بذنوبهم وشركهم ﴿إِنَّهُۥ قَوِيّٞ﴾ لا يُغلب، ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ شديد الحساب والانتقام ممن عصاه وتمرد علىٰ شرعه.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٢٣ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ ٢٤ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ٢٥ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ٢٦ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ٢٧﴾.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ﴾ موسىٰ بن عمران رسولاً إلىٰ بني إسرائيل، ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ التوراة، ﴿وَسُلۡطَٰنٖ﴾ حجة، ﴿مُّبِينٍ﴾ واضحة ظاهرة.

﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾ ملك مصر في حينه الذي ادعىٰ الربوبية وقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، ﴿وَهَٰمَٰنَ﴾ وزيره، ﴿وَقَٰرُونَ﴾ صاحب الأموال الكثيرات الذي خسف الله به الأرض فهو يتجلل فيها إلىٰ يوم القيامة، ﴿فَقَالُواْ﴾ رادين لدعوته هذا: ﴿سَٰحِرٞ﴾ كاهن

عراف، ﴿كَذَّاب﴾ فيما يقول: وهذا من بغيهم وظُلمهم، وتجد أن أكثر المعارضين يتهمون الأنبياء بهذه التهم التي هم برآء منها، وهذا من اضطرابهم فتارة يقولون ساحر، وتارة يقولون كذاب، وتارة يقولون مجنون.

٢٥ ﴿فَلَمَّا جَاءهُم﴾ موسىٰ ﴿بِالْحَقِّ﴾ التوراة ﴿مِنْ عِندِنَا﴾، وأمرهم بعبادة الله وحده، ﴿قَالُواْ اقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ الَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ تنكيلًا بهم، ﴿وَاسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ﴾ أبقوهن للاستخدام والامتهان، وهذه هي المرة الثانية في القيام بهذه الفعلة الشنيعة، حيث قتلهم في الأول خشية ظهور النبي؛ الذي نهايته علىٰ يده، وفي الثانية حين آمنوا بموسىٰ عليه السلام، ولذلك قالوا: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ [الأعراف:١٢٩].

﴿وَمَا كَيْدُ﴾ مكر ﴿الْكَافِرِينَ﴾ بالمؤمنين ﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ هلاك لا أثر له.

٢٦ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لمن حوله، من الوزراء ونحوهم ﴿ذَرُونِيٓ﴾ دعوني، ﴿أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ وأتخلص منه حتىٰ لا يشغلنا بهذه الدعوة التي جاء بها، ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ لإنقاذه، وهذا من الكبر، ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ﴾ يغير ﴿دِينَكُمْ﴾ ملتكم، وهذه من أسوأ النصائح، فقد كان دينهم الشرك والكفر، ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ﴾ يعلي ويشيع، ﴿فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ مع أن موسىٰ جاء بالتوحيد، والفساد ما عليه فرعون من دعوىٰ الربوبية والبغي والظلم، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص:٤]، وإنما هذا من تقليب الحقائق.

٢٧ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ﴾ مستغيثًا بالله ومستعيذًا به: ﴿إِنِّي عُذْتُ﴾ والعوذ يكون من المرهوب، ﴿بِرَبِّي﴾ خالقي، ذكره بهذه الاسم؛ لأنه يقتضي: الاحاطة، والنصر، والحفظ، والكلاءة، ﴿وَرَبِّكُم﴾ المحيط بكم، ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ فرعون ومن إليه، ﴿لَّا يُؤْمِنُ﴾ لا يقر، ﴿بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ يوم القيامة.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿٢٨﴾ ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ﴾ بعد أن غضب الله عَزَّوَجَلَّ ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ من القبط من قوم فرعون، ولم يُذكر لنا اسمه، والله أعلم، ﴿يَكْتُمُ﴾ يستر ﴿إِيمَانَهُ﴾ إقراره وانقياده وتصديقه لموسىٰ ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾ كيف تستحلون قتله بغير جرم ﴿أَن﴾ لأن ﴿يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ كالمنكر عليهم، ﴿وَقَدْ جَاءَكُم بِٱلْبَيِّنَاتِ﴾ الحجج الدالة علىٰ صدقه، ومنها العصا واليد، ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ خالقكم، ﴿وَإِن يَكُ كَاذِبًا﴾ في دعواه أنه رسول الله ﴿فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ وسيناله الجزاء علىٰ كذبه، ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا﴾ في دعواه: أنه رسول الله فكذبتموه، ﴿يُصِبْكُم﴾ ينالكم بسبب إعراضكم ﴿بَعْضُ﴾ العذاب ﴿ٱلَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ يتوعدكم به، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي﴾ لا يوفق، ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ مشرك متجاوز في المعاصي والسيئات، ﴿كَذَّابٌ﴾ في قوله وفعله.

وهذه الآية بعينها استدل بها أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين أراد كفار قريش أن يقتلوا محمدًا ﷺ ففي البخاري عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، قَالَ: سَأَلْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو، عَنْ أَشَدِّ مَا صَنَعَ المُشْرِكُونَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: رَأَيْتُ عُقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ، جَاءَ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي، " فَوَضَعَ رِدَاءَهُ فِي عُنُقِهِ فَخَنَقَهُ بِهِ خَنْقًا شَدِيدًا، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّىٰ دَفَعَهُ عَنْهُ، فَقَالَ: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِٱلْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [غافر: ٢٨].

وأخرجه أحمد بأطول من هذا: عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قُلْتُ لَهُ: مَا أَكْثَرَ مَا رَأَيْتَ قُرَيْشًا أَصَابَتْ مِنْ رَسُولِ اللهِ، فِيمَا كَانَتْ تُظْهِرُ مِنْ عَدَاوَتِهِ؟ قَالَ: حَضَرْتُهُمْ وَقَدِ اجْتَمَعَ أَشْرَافُهُمْ يَوْمًا فِي الْحِجْرِ، فَذَكَرُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ.

فَقَالُوا: مَا رَأَيْنَا مِثْلَ مَا صَبَرْنَا عَلَيْهِ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ قَطُّ، سَفَّهَ أَحْلَامَنَا، وَشَتَمَ آبَاءَنَا، وَعَابَ دِينَنَا، وَفَرَّقَ جَمَاعَتَنَا، وَسَبَّ آلِهَتَنَا، لَقَدْ صَبَرْنَا مِنْهُ عَلَىٰ أَمْرٍ عَظِيمٍ، أَوْ كَمَا قَالُوا.

قَالَ: فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَأَقْبَلَ يَمْشِي، حَتَّىٰ اسْتَلَمَ الرُّكْنَ، ثُمَّ مَرَّ بِهِمْ طَائِفًا بِالْبَيْتِ، فَلَمَّا أَنْ مَرَّ بِهِمْ غَمَزُوهُ بِبَعْضِ مَا يَقُولُ.

قَالَ: فَعَرَفْتُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ مَضَىٰ، فَلَمَّا مَرَّ بِهِمُ الثَّانِيَةَ، غَمَزُوهُ بِمِثْلِهَا، فَعَرَفْتُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ مَضَىٰ، ثُمَّ مَرَّ بِهِمُ الثَّالِثَةَ، فَغَمَزُوهُ بِمِثْلِهَا.

فَقَالَ: **«تَسْمَعُونَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَمَا وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِالذَّبْحِ»**.

فَأَخَذَتِ الْقَوْمَ كَلِمَتُهُ، حَتَّىٰ مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا كَأَنَّمَا عَلَىٰ رَأْسِهِ طَائِرٌ وَاقِعٌ، حَتَّىٰ إِنَّ أَشَدَّهُمْ فِيهِ وَصَاةً قَبْلَ ذَلِكَ لَيَرْفَؤُهُ بِأَحْسَنِ مَا يَجِدُ مِنَ الْقَوْلِ، حَتَّىٰ إِنَّهُ لَيَقُولُ: انْصَرِفْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، انْصَرِفْ رَاشِدًا، فَوَاللهِ مَا كُنْتَ جَهُولًا.

قَالَ: فَانْصَرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، حَتَّىٰ إِذَا كَانَ الْغَدُ، اجْتَمَعُوا فِي الْحِجْرِ وَأَنَا مَعَهُمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: ذَكَرْتُمْ مَا بَلَغَ مِنْكُمْ وَمَا بَلَغَكُمْ عَنْهُ، حَتَّىٰ إِذَا بَادَأَكُمْ بِمَا تَكْرَهُونَ تَرَكْتُمُوهُ فَبَيْنَمَا هُمْ فِي ذَلِكَ، إِذْ طَلَعَ عليهم رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَوَثَبُوا إِلَيْهِ وَثْبَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَأَحَاطُوا بِهِ، يَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ الَّذِي تَقُولُ كَذَا وَكَذَا؟ لِمَا كَانَ يَبْلُغُهُمْ عَنْهُ مِنْ عَيْبِ آلِهَتِهِمْ وَدِينِهِمْ.

قَالَ: فَيَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **« نَعَمْ، أَنَا الَّذِي أَقُولُ ذَلِكَ»**، قَالَ: فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا مِنْهُمْ أَخَذَ بِمَجْمَعِ رِدَائِهِ، قَالَ: وَقَامَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ، دُونَهُ، يَقُولُ وَهُوَ يَبْكِي: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨] ؟ ثُمَّ انْصَرَفُوا عَنْهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَأَشَدُّ مَا رَأَيْتُ قُرَيْشًا بَلَغَتْ مِنْهُ قَطُّ.

﴿٢٩﴾ ﴿يَاقَوْمِ﴾ هذا قول المؤمن، ﴿لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ﴾ غالبين ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مصر وما إليها حيث كانت تحت تصرف فرعون ومن إليه، ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ﴾ عذاب: ﴿ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ كما توعد موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقال البغوي: "المعنىٰ لكم الملك اليوم، فلا تتعرضون لعذاب الله بالتكذيب وقتل النبي فإنه لا مانع من عذاب الله إن حل بكم"اهـ.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ رادًا لهذه النصيحة المباركة: ﴿مَآ أُرِيكُمْ﴾ من الرأي والنصيحة ﴿إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ لنفسي، وبئس الرأي رأيه، ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ﴾ أرشدكم، ﴿إِلَّا سَبِيلَ﴾ طريقة ﴿ٱلرَّشَادِ﴾ بل هو سبيل الغي والعناد.

❁ وبهذا تعلم أن ما كل من قال لك: أنا علىٰ الحق تقبل كلامه، لا تقبل إلا ممن عُلِمَ بأدلته أنه علىٰ الحق، فهذا فرعون مع كفره وبغيه وعناده يقول: ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾، أي رشاد في قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤﴾ [النازعات:٢٤]؟ وأي رشاد في قوله: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص:٣٨]، وأي رشاد في فعله، وهو يقتل أبناءهم ويستحي نساءهم.

٣٠ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ﴾ يكرر لهم النصيحة، ويحذرهم بأس الله عَزَّوَجَلَّ وعذابه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾ أن يحل وينزل بكم ﴿مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ كما حل بالأمم السابقة الذين تحزبوا علىٰ الباطل وردوا الحق، وكذبوا الرسل.

٣١ ﴿مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾ عادتهم في الإقامة علىٰ التكذيب فحصل لهم الغرق، ﴿وَعَادٖ﴾ حيث أهلكهم بالريح، ﴿وَثَمُودَ﴾ أهلكهم بالصيحة، ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ من الأمم التي ذُكِرت لكم، ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ إنما أهلكهم بذنوبهم، ولكن العباد هم الذين يظلمون أنفسهم بمعصية الله عَزَّوَجَلَّ وبعدهم عن طاعته، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [النحل: ٣٣].

٣٢ ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾ يوم القيامة، ينادي بعضهم بعضًا، ويناديهم الله، وَقَدْ رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَالْحَسَنِ، وَالضَّحَّاكِ: أَنَّهُمْ قَرَؤُوا: "يَوْمَ التَّنَادِّ" بِتَشْدِيدِ الدَّالِّ مِنْ نَدَّ الْبَعِيرُ: إِذَا شَرَدَ وَذَهَبَ.

وَقِيلَ: لِأَنَّ الْمِيزَانَ عِنْدَهُ مَلَكٌ، وَإِذَا وَزَنَ عَمَلَ الْعَبْدِ فَرَجَحَ نَادَىٰ بِأَعْلَىٰ صَوْتِهِ: أَلَا قَدْ سَعِدَ فَلَانُ بْنُ فُلَانٌ سَعَادَةً لَا يَشْقَىٰ بَعْدَهَا أَبَدًا. وَإِنْ خَفَّ عَمَلُهُ نَادَىٰ: أَلَا قَدْ شَقِيَ فَلَانُ بْنُ فُلَانٍ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: يُنَادَىٰ كُلُّ قَوْمٍ بِأَعْمَالِهِمْ: يُنَادَىٰ أَهْلُ الْجَنَّةِ أَهْلَ الْجَنَّةِ، وَأَهْلُ النَّارِ أَهْلَ النَّارِ.

وَقِيلَ: سُمِّيَ بِذَلِكَ لِمُنَادَاةِ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَهْلَ النَّارِ: ﴿أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ﴾ [الأعراف: ٤٤]، وَمُنَادَاةُ أَهْلِ النَّارِ أَهْلَ الْجَنَّةِ: ﴿أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠]، وَلِمُنَادَاةِ أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ أَهْلَ الْجَنَّةِ وَأَهْلَ النَّارِ، كَمَا هُوَ مَذْكُورٌ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ.

وَاخْتَارَ الْبَغَوِيُّ وَغَيْرُهُ: أَنَّهُ سُمِّيَ بِذَلِكَ لِمَجْمُوعِ ذَلِكَ. وَهُوَ قَوْلٌ حَسَنٌ جَيِّدٌ، وَاللهُ أَعْلَمُ. أفاده ابن كثير.

﴿٣٣﴾ وهذا اليوم يكون ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ فارين من عذاب الله ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ من منقذ يجيركم، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ من موفق إلىٰ الهدىٰ.

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿٣٤﴾ ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ أتاكم، ﴿يُوسُفُ﴾ ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ﴿مِن قَبْلُ﴾ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ حيث دعاهم إلىٰ توحيد الله عَزَّوَجَلَّ إذ كان عزيزاً عليهم، ومنه قوله: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف:٣٩]، وجاءهم بالحجج الواضحات، ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ﴾ في ريب أي لزمتم الشك ولم تفارقوه، ولم تدخلوا في الإسلام، إنما طاعتهم لمجرد الوزارة والجاه الدنيوي ﴿مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ﴾ من الحق، ﴿حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ﴾ مات، ﴿قُلْتُمْ﴾ بلسان حالكم أو مقالكم: ﴿لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ فاستبعدوا إرسال رسول يقيم الحجة الرسالية علىٰ الناس، وهذا غير صحيح فإن الله يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥].

❁ **وبهذه الآية استدل العلماء**: علىٰ أنه لا يلزم أن الرسول يأتي بشريعة جديدة، فإن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ رسول وكان علىٰ شريعة من سبقه من آبائه يعقوب وإسحاق وإبراهيم عليهم السلام.

﴿كَذَلِكَ﴾ كما فعل بكم ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ علىٰ نفسه بالمعاصي والشركيات، ﴿مُّرْتَابٌ﴾ شكاك في دين الله عَزَّوَجَلَّ، فيصرف الإنسان عن الهدىٰ بسبب شبهة شيطانية يتسلط بها الشيطان عليه.

(٣٥) ثم قال في بيان هذا الصنف هم: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾ يخاصمون، ﴿فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ الشرعية، ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ حجة، ﴿أَتَاهُمْ﴾ من الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾ بغضًا: ﴿عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ المجادلة بالباطل.

❁ ولهذا كان السلف يكرهون الجدال، ويقول بعضهم: اذهب إلىٰ شاك مثلك، ويقول الآخر: من جعل دينه عرضة للخصومات أكثر التنقل.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: بسبب الجدال بالباطل، ﴿يَطْبَعُ﴾ يغلف ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ﴾ في نفسه عن سماع الحق ومتكبر عن قبوله ﴿جَبَّارٍ﴾ بكثرة ظلمه وعدوانه، ولا ينقاد للحق فلا يسمع نصيحة ولا يستفيد من موعظة؛ لأن الران قد علا علىٰ قلوبهم، كما قال تعالىٰ: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤].

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾.

(٣٦) ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ عند ذلك علىٰ سبيل الرد والتكذيب: ﴿يَاهَامَانُ﴾ وزيره، ﴿ٱبْنِ لِي صَرْحًا﴾ وهو البناء العالي الذي يراه الناس سُميَ صرحًا؛ لأنه يظهر، ﴿لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ﴾ أصل ﴿الأَسْبَاب﴾ السبل التي توصلني إلىٰ رب موسىٰ كما زعم.

❁ **وبهذه الآية استدل العلماء:** علىٰ أن موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أخبر أن ربه في السماء؛ لأن فرعون أراد أن يبني بناءً حتىٰ يتوصل إلىٰ السماء.

(٣٧) ﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ طرقها وأبوابها ﴿فَأَطَّلِعَ﴾ أشرف وأصل ﴿إِلَىٰ إِلَٰهِ﴾ معبود ﴿مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ﴾ يعني: موسىٰ، ﴿كَاذِبًا﴾ فيما يقول إن له ربًا غيري ﴿وَكَذَلِكَ﴾ السبب الذي جعله لا يدخل في الإسلام، ﴿زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ السيء حيث كان متكبرًا وحوله الملأ يشهدون له بالباطل، ﴿وَصُدَّ﴾ منع ﴿عَنِ السَّبِيلِ﴾ الطريق؛ لعلمه أنه ليس أهلًا للهداية، ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ﴾ في إبطال دعوة موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ في فساد وهلاك.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿٣٨﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ﴾ أي: في النسب، ﴿ٱتَّبِعُونِ﴾ أطيعونِ، ﴿أَهْدِكُمْ﴾ أدلكم، ﴿سَبِيلَ﴾ طريق، ﴿ٱلرَّشَادِ﴾ الهدىٰ.

﴿٣٩﴾ ﴿يَٰقَوْمِ﴾ يكررها حتىٰ يكون أوقع في قلوبهم، ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ وما فيها من النعيم، ﴿مَتَٰعٌ﴾ زائل، ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ القيامة، ﴿هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ الذي لا يُتحول عنها، فيبقىٰ أهل الجنة في قرارها ويبقىٰ أهل النار في قرارها.

﴿٤٠﴾ ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً﴾ معصية، ﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ لا تضاعف، ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ يعني: طاعة، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ إكرامًا من الله لهم، ﴿يُرْزَقُونَ﴾ يعطون ﴿فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بغير منع ولا يتقدر بجزاء، كما قال تعالىٰ: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥]، وقال: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة:٣٣]، وقد قال السلف: الويل لمن سبقت آحاده عشراته، يعني: أن الله عَزَّوَجَلَّ جعل السيئة بمثلها، وجعل الحسنة بعشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف، ويأتي يوم القيامة وسيئاته أكثر من حسناته!.

﴿٤١﴾ ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾ إلىٰ السلامة، بلزوم توحيد الله وطاعته ﴿وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ إلىٰ الشرك وإلىٰ سبل الهلكة، فهم لا يقولون: ادخل معنا النار؛ لأنهم لا يؤمنون بهذا أصلًا، ولكن يدعونه إلىٰ أعمال تؤدي به إلىٰ النار.

﴿٤٢﴾ ﴿تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ﴾ لأشرك بالله، فالكفر والشرك قد يكون معناها واحد، وقد يكون الكفر بغير شرك كسب الله عَزَّوَجَلَّ وسب رسوله، وامتهان القرآن ونحو ذلك، ﴿وَأُشْرِكَ

بِهِۦ﴾ أجعل له شريكًا، ﴿مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ﴾ ما ليس لي به حجة ولا سلطان ولا برهان، ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ﴾ أرشدكم وأدلكم، ﴿إِلَى ٱلْعَزِيزِ﴾ الذي لا يُغلب، ﴿ٱلْغَفَّارِ﴾ الذي يغفر لعباده ويتجاوز عنهم.

﴿٤٣﴾ ﴿لَا جَرَمَ﴾ حقًا وقيل لا كذب، ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ من الشرك وعبادة الأصنام والأوثان، ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾ حقيقة، ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ لأنه دين باطل لا حقيقة له إنما هو من الشيطان، ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ﴾ مرجعنا، ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ يوم القيامة، ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ المتجاوزين علىٰ أنفسهم بالشرك، ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ يُخلدون فيها فبئس القرار.

﴿٤٤﴾ ﴿فَسَتَذْكُرُونَ﴾ تتذكرون، ﴿مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ من هذا الوعظ والدلالة والإرشاد، لكن حين لا ينفعكم التذكر، بعد أن يقع الفأس في الرأس، ﴿وَأُفَوِّضُ﴾ أُرجع، ﴿أَمْرِىٓ﴾ حالي، ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ وهذا من عظيم التوكل، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ فيهدي من يستحق الهداية ويضل من يستحق الإضلال، وله الحجة البالغة والقدرة النافذة.

﴿٤٥﴾ ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ سلمه الله من، ﴿سَيِّـَٔاتِ﴾ خطايا ﴿مَا مَكَرُوا۟﴾ من إرادة قتله، ﴿وَحَاقَ﴾ لحق ونزل، ﴿بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ﴾ فرعون وقومه، ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ شدة العذاب.

﴿٤٦﴾ وهو ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ تعرض أرواحهم عليها، ﴿غُدُوًّا﴾ صبحًا، ﴿وَعَشِيًّا﴾ مساءً، ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ والبعث والنشور، ﴿أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ وهو معهم، ﴿أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ النار وبئس القرار.

۞ وهذه الآية من أدلة عذاب القبر بل هي من أصرح الأدلة القرآنية في هذه المسألة، فقد ذكر الله تعالىٰ ما يتعلق بها في برزخها، ثم عقب بما يقع عليها يوم القيامة.

❐ وَقَدِ اسْتَشْكَلَ بَعْضُهُمْ: **فقال: هذه الآية مكية**، ولما كان النبي ﷺ في المدينة وأخبرت تلك اليهودية بعذاب القبر أنكر ذلك عليها، ثم كان بعد ذلك تعوذه من عذاب القبر، وفي رواية أنه قال: «**يَهُودُ تُعَذَّبُ فِي قُبُورِهَا**».

قال العلماء: أخبره الله عَزَّوَجَلَّ في هذه الآية بعرض الأرواح ولم يخبره بعذاب الأجسام، أو أن هذه الآية في حق الكفار وكان يظن أن العذاب متعلق بالكافر، حتىٰ أوحىٰ الله إليه أن عصاة المسلمين إن أراد الله أن يعذبهم عذبهم.

﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿٤٧﴾ ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ﴾ يتخاصمون ويتجادلون، أي: أهل النار، ﴿فِي النَّارِ﴾ يوم القيامة، ﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاؤُ﴾ التابعون: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ المتبوعون الذين دعوهم إلىٰ الباطل: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ نطيعكم ونسير بسيركم، ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ﴾ تدفعون: ﴿عَنَّا نَصِيبًا﴾ حظًا ﴿مِّنَ﴾ عذاب ﴿النَّارِ﴾.

﴿٤٨﴾ ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ السادة المُتَّبوعون، ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾ في النار نحن وأنتم، ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ﴾ قضىٰ، ﴿بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ بالحكم الصادق العادل، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦]، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الأعراف: ٣٨- ٣٩]

﴿٤٩﴾ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ﴾ حين أيقنوا الهلكة ودعوا الله عَزَّوَجَلَّ فلم يستجب لهم، ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ حراس النار، ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ﴾ سبحان الله، لم يوفقوا أن يقولوا: ادعوا ربنا؛ لأنهم كانوا يشركون به ويندون: ﴿يُخَفِّفْ عَنَّا﴾ لم يقولوا: يخرجنا من النار؛ لأنهم قد علموا أنهم لن يخرجوا منها، ﴿يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ لشدة ما نزل بهم.

﴿٥٠﴾ ﴿قَالُوا﴾ خزنة النار وحراسها: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالحجج الواضحات والدلائل الظاهرات، ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ كانوا يأتوننا بذلك، ﴿قَالُوا﴾ الملائكة ﴿فَادْعُوا﴾ أنتم ربكم، ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ ذهاب وهلاك فلا يستجاب لهم ولا ينتفعون به.

﴿٥١﴾ ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ علىٰ أعدائهم، بالغلبة والقهر ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بقتل عدوهم وسبيهم، وبعد موتهم بالانتقام من عدوهم ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ ينصرهم

بالحجج الواضحة البينة، ويدخلهم الجنة، والأشهاد: الرسل يشهدون علىٰ أممهم وتشهد الأمم علىٰ رسلهم، ويشهد الملائكة علىٰ الناس كل بعمله، وتشهد كذلك أعضاء الإنسان عليه، وتشهد الأرض بما عمل عليها، كما قال: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة:٤]، والله فوق ذلك لا تخفىٰ عليه خافية.

٥٢ ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين، ﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾ اعتذارهم واستعتابهم، ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ الطرد من رحمة الله، ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ النار وبئس القرار.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ٥٣ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٥٤ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ٥٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ٥٦ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٥٧ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓـُٔ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ٥٨﴾.

٥٣ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾ العلم والتوفيق والسداد، ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة.

٥٤ فيها ﴿هُدًى﴾ دلالة وإرشاد، ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ موعظة، ﴿لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ لأصحاب العقول السلمية والفطر المستقيمة.

٥٥ ﴿فَٱصْبِرْ﴾ يا محمد علىٰ أذىٰ قريش، ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ بنصر أوليائه وهزيمة أعدائه، ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ والله عَزَّوَجَلَّ قد أمره بالاستغفار في مواطن كثيرة مع أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه تعليمًا للأمة ومنه قوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ٣﴾ [النصر:١-٣]، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ صلِّ شاكرًا لربك ﴿بِٱلْعَشِىِّ﴾ المساء، ﴿وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ الصباح، قال الحسن: يعني صلاة العصر والفجر.

❁ وبهذه الآية يُستدل علىٰ أذكار الصباح والمساء، وأهمية المسارعة فيها، والمحافظة عليها.

٥٦ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ يخاصمون، ﴿فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ﴾ حجج، ﴿أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ﴾ أي: ما في قلوبهم، لأن الصدر موضع القلب، فكني به عن القلب ﴿إِلَّا كِبۡرٞ﴾ تعاظم وتعالىٰ كحال إبليس في رد الحق، قال تعالىٰ: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٣٤]، ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ لن يبلغوا محل ما يظنون؛ لأنهم دون ذلك، ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾ والاستعاذة: طلب العوذ بأن يُسلمك الله، من الشر ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لدعائك، ﴿ٱلۡبَصِيرُ﴾ بحالك.

٥٧ وقد جادلوا في خلق أنفسهم وبعثها بعد موتها فقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ السبع الطباق، ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ الواسعة، ﴿أَكۡبَرُ﴾ أعظم، ﴿مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ﴾ قيل: المراد به الدجال، من العام الذي يراد به الخصوص، وقال بعض العلماء: لم يُذكر الدجال في القرآن.

❁ **ومن باب الفائدة** فإن أجمع حديث صحيح في ذكر الدجال **أخرجه مسلم** عن النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ.

قَالَ: ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الدَّجَّالَ ذَاتَ غَدَاةٍ، فَخَفَّضَ فِيهِ وَرَفَّعَ، حَتَّىٰ ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ، فَلَمَّا رُحْنَا إِلَيْهِ عَرَفَ ذَلِكَ فِينَا، فَقَالَ: **«مَا شَأْنُكُمْ؟»** قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ ذَكَرْتَ الدَّجَّالَ غَدَاةً، فَخَفَّضْتَ فِيهِ وَرَفَّعْتَ، حَتَّىٰ ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ، فَقَالَ: **«غَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفُنِي عَلَيْكُمْ، إِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ، فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ، وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ، فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ وَاللهُ خَلِيفَتِي عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ، إِنَّهُ شَابٌّ قَطَطٌ، عَيْنُهُ طَافِئَةٌ، كَأَنِّي أُشَبِّهُهُ بِعَبْدِ الْعُزَّىٰ بْنِ قَطَنٍ، فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ، فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ، إِنَّهُ خَارِجٌ خَلَّةً بَيْنَ الشَّأْمِ وَالْعِرَاقِ، فَعَاثَ يَمِينًا وَعَاثَ شِمَالًا، يَا عِبَادَ اللهِ فَاثْبُتُوا»** قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا لَبْثُهُ فِي الْأَرْضِ؟ قَالَ: **«أَرْبَعُونَ يَوْمًا، يَوْمٌ كَسَنَةٍ، وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ، وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ»** قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ فَذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَسَنَةٍ، أَتَكْفِينَا فِيهِ صَلَاةُ يَوْمٍ؟ قَالَ: **«لَا، اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ»** قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا إِسْرَاعُهُ فِي الْأَرْضِ؟ قَالَ: " كَالْغَيْثِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ، فَيَأْتِي عَلَىٰ الْقَوْمِ فَيَدْعُوهُمْ، فَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ، فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ، وَالْأَرْضَ فَتُنْبِتُ، فَتَرُوحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ، أَطْوَلَ مَا كَانَتْ ذُرًا، وَأَسْبَغَهُ ضُرُوعًا، وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ، ثُمَّ يَأْتِي الْقَوْمَ، فَيَدْعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ، فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ، فَيُصْبِحُونَ مُمْحِلِينَ لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَيَمُرُّ بِالْخَرِبَةِ، فَيَقُولُ لَهَا: أَخْرِجِي كُنُوزَكِ، فَتَتْبَعُهُ كُنُوزُهَا كَيَعَاسِيبِ النَّحْلِ، ثُمَّ يَدْعُو رَجُلًا مُمْتَلِئًا شَبَابًا، فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ فَيَقْطَعُهُ جَزْلَتَيْنِ رَمْيَةَ الْغَرَضِ، ثُمَّ يَدْعُوهُ فَيُقْبِلُ

وَيَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ، يَضْحَكُ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللهُ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ، فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ، بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ، وَاضِعًا كَفَّيْهِ عَلَىٰ أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ، إِذَا طَأْطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ، وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ، فَلَا يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفَسِهِ إِلَّا مَاتَ، وَنَفَسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ، فَيَطْلُبُهُ حَتَّىٰ يُدْرِكَهُ بِبَابِ لُدٍّ، فَيَقْتُلُهُ، ثُمَّ يَأْتِي عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ قَوْمٌ قَدْ عَصَمَهُمُ اللهُ مِنْهُ، فَيَمْسَحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ وَيُحَدِّثُهُمْ بِدَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لجهلهم بالله عَزَّوَجَلَّ؛ ولأعراضهم عن تدبر آياته.

٥٨ ﴿وَمَا﴾ لا ﴿يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ﴾ عن الحق، ﴿وَٱلْبَصِيرُ﴾ الذي يبصر الحق ويعمل به، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓـُٔ﴾ الكافر المعرض، ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ ما أقل ما تتعظون مع هذه الحجج الواضحة البينة.

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

٥٩ ﴿إِنَّ السَّاعَةَ﴾ القيامة، ﴿لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ﴾ لا شك فيها، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بخبر الله عَزَّوَجَلَّ وخبر رسوله ﷺ، والمكذب بالبعث كافر.

٦٠ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ﴾ ممتنًا علىٰ عباده ودالًا لهم علىٰ أحسن طريق يوصلهم إليه: ﴿ٱدْعُونِىٓ﴾ دعاء مسألة ودعاء عبادة، فدعاء العبادة مثل: الصلاة، والصيام، والحج، والزكاة، ودعاء المسألة كقولك: اللهم اغفر لي، اللهم ارحمني، ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ دعاؤكم، وأحقق لكم طلبكم ورجاءكم فلا أنفع من الدعاء، فعن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ **[غافر:٦٠] أخرجه أبو داود (١٤٧٩).**

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ يتكبرون، ﴿عَنْ عِبَادَتِى﴾ طاعتي، ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ يُحشرون إليها ذليلين صاغرين.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿٦١﴾ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ﴾ مُظلمًا: ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾، ﴿وَ﴾ جعل لكم: ﴿ٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ لتبتغوا فيه من فضله، وهذا من عظيم نعمه علىٰ عباده، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۚ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص:٧٠-٧٢]، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾ [النبأ:١٠-١١].

﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ﴾ صاحب فضل عظيم واسع: ﴿عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ بل يشركون ويندون، بحيث ينزل المطر فيضيفونه إلىٰ النجم، فعَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ، قَالَ: صَلَّىٰ بِنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ فِي إِثْرِ السَّمَاءِ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَىٰ النَّاسِ فَقَالَ: «**هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟**» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: "أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ" **متفق عليه**.

﴿٦٢﴾ ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ﴾ الموصوف بما تقدم هو: ﴿رَبُّكُمْ﴾ خالقكم ورازقكم ومدبركم، ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من المخلوقات لا يخرج شيء في هذا الكون عن خلقه وملكه وأمره، ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا إله بحق غيره ولا رب سواه، ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ تُصرفون عن عبادته وطاعته مع توافر الحجج.

﴿٦٣﴾ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما صُرف هؤلاء عن الإيمان، ﴿يُؤْفَكُ﴾ يُصرف، ﴿الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ ينكرون ويردون.

٦٤ ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ﴾ منةً منه وفضل ﴿الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ مستقرة تسكنون عليها، وتركبون فيها، وتبنون فيها إلىٰ غير ذلك لا يلحقكم ضرر، ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ مرفوعًا عاليًا، ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ خلقكم علىٰ صورة حسنة، كما قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، فليس في المخلوقات مثل الإنسان عقلاً وإرادةً وعملاً إلىٰ غير ذلك، ﴿وَرَزَقَكُم﴾ أعطاكم ﴿مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ الحلال، ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ خالقكم ورازقكم ومدبركم فيجب أن تعبدوه وتفردوه بما هو له، ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ﴾ تعالىٰ وتعاظم عن صفات النقص والعيب، وهو ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وكل ما سوىٰ الله عَزَّوَجَلَّ عالم.

٦٥ ﴿هُوَ الْحَيُّ﴾ الذي لا يموت، كما قال تعالىٰ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨]، ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا إله بحق غيره ولا رب سواه، ﴿فَادْعُوهُ﴾ اعبدوه ووحدوه، ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ لا تشركوا معه غيره لا ملكًا مقربًا ولا نبيًا مرسلًا، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه: **«مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»** أخرجه مسلم، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ المذكور بالثناء والمحبة والتعظيم علىٰ فعاله وخصاله، ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

٦٦ ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿إِنِّي نُهِيتُ﴾ نهاني الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ تعبدون ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ من الأصنام والأوثان، ﴿لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ﴾ القرآن: ﴿مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ﴾ أمرني الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَنْ أُسْلِمَ﴾ استسلم وأنقاد: ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ﴾ [الروم:٣٠]، وقال: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا﴾ [آل عمران:١٩].

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٦٧ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ٦٨﴾.

٦٧ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم بقية الخلق كانوا من التزاوج، إلا ما كان من عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ حيث يجتمع مني الرجل ومني المرأة في فرج المرأة فيصير مشيجًا، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ﴾ [الإنسان:٢]، ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ يعني: يصير كالعلقة: وهي قطعة صغيرة حمراء أغلبها دم، ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ بعد مضي تسعة أشهر في الغالب، ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ تكبروا، وتشبوا، وتعقلوا، وتتكامل قواكم، ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا﴾ هرمين وتردون إلىٰ أرذل العُمر، ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ يموت

صغيرًا أو شابًا أو كهلًا، ﴿وَلِتَبْلُغُوا﴾ جميعًا، ﴿أَجَلاً﴾ كتابًا ﴿مُّسَمًّى﴾ معلومًا وهو الموت، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ توحيد الله وقدرته وأمر الله وأمر رسوله ﷺ بمثل هذه الآيات البينات.

﴿٦٨﴾ ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ من شاء سبحانه وتعالىٰ، ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ﴾ حكم وأمضىٰ: ﴿أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ لا يعجزه شيء، ولو أراد أن يخلق السماوات والأرض التي خلقها في ستة أيام بقوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ لخلقها، لكن لله الحكمة البالغة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿٦٩﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ يُخاصمون: ﴿فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الشرعية وربما الكونية، ﴿أَنَّىٰ﴾ كيف ﴿يُصْرَفُونَ﴾ عن الهدىٰ ولا يستجيبون لأمر الله عَزَّوَجَلَّ وداعي رسول الله ﷺ مع أنه تكلم بلغتهم، وكان أفصحهم، وأبلغهم، وأنصحهم.

﴿٧٠﴾ ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ القرآن، ﴿وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ التوحيد، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ يوم القيامة ويستيقنون صدق الرسل؛ ولكن حيث لا ينفعهم العلم.

﴿٧١﴾ وذلك ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾ تُغل الأيادي والأرجل إلىٰ العنق، ﴿وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾: يقيدون ويُربطون بها و ﴿يُسْحَبُونَ﴾ بها علىٰ وجوههم.

﴿٧٢﴾ ﴿فِى ٱلْحَمِيمِ﴾ في النار المحرقة، ﴿ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ يسجنون، وهذا من شديد عذاب الله، ومن أسوأ الأحوال التي تلحق الكفار، كما قال تعالىٰ: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾ [الحاقة:٣٠-٣٢]، ما السبب: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحاقة:٣٣-٣٧].

﴿٧٣﴾ ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ﴾ معاتبة لهم ليزدادوا عذابًا إلىٰ عذابهم: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ من الأصنام والأوثان وتندون وتجعلونها مثيلة لله عَزَّوَجَلَّ فتنصركم.

(٧٤) ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ غير الله، ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ ذهبوا وولوا عنا، ثم يستدركون كذبًا وزورًا: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا﴾ نعبد، ﴿مِن قَبْلُ شَيْئًا﴾ من الأصنام والأوثان يكذبون على الله المطلع على السرائر والظواهر، كما قالوا: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ۝٢٣ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:٢٣-٢٤]، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما فعل الله عَزَّوَجَلَّ بهؤلاء وصُرفوا عن الهداية: ﴿يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ يزيغهم؛ لعلمه أن قلوبهم ليست أهلًا للهداية.

(٧٥) ﴿ذَٰلِكُم﴾ العذاب الشديد، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ﴾ تبطرون وتأشرون وتفسدون ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ بالشرك وغيره، ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ تفرحون وتختالون، حيث كانوا يتبخترون في مشيهم وفي جميع حالهم.

(٧٦) ﴿ادْخُلُوا﴾ يا معاشر الكفار، ﴿أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ وهي سبعة أبواب كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر:٤٤]، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا تخرجون منها أبدًا، ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى﴾ مستقر ومأوى ﴿الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ الكافرين.

(٧٧) ﴿فَاصْبِرْ﴾ يا محمد ومن كان متبعًا لك، ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ بإعلاء كلمته وإذلال كلمة الكفر، ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ في حياتك: ﴿بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ من القتل والعذاب والتنكيل، ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل أن يصيبهم ما توعدهم الله به، ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ ويحاسبون على سيء أعمالهم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ۝٧٨﴾.

(٧٨) ثم يقول الله عَزَّوَجَلَّ لمحمد ﷺ مصبرًا له: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ بعثنا، ﴿رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ إلى أقوامهم وأممهم، ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ في القرآن، ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ والذين ذكروا في القرآن خمسة وعشرون، كما قال بعضهم:

في تلك حجتنا منهم ثمانية ... من بعد عشر ويبقى سبعة وهم
إدريس هود شعيب صالح وكذا ... ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

ويريد بقوله: في تلك حجتنا قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام: ٨٣ - ٨٦].

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ﴾ بوحي أو أمر، ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ القدري الكوني وهكذا الشرعي، فالرسول طائع لربه؛ ولذلك كانوا يأتون النبي ﷺ يسألونه عن بعض شيء فيبقىٰ ساكتًا حتىٰ يأتيه الوحي، ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ القدري الكوني: وهو الساعة أو الهلاك، ﴿قُضِيَ﴾ حُكِمَ، ﴿بِالْحَقِّ﴾ الصدق الثابت، ﴿وَخَسِرَ﴾ هلك ﴿هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ لحقهم الخسار إما بهلاكهم أو بهلاك أموالهم، أو بسبي نسائهم، وهكذا في الآخرة بالعذاب الأليم.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿٧٩﴾ ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ﴾ صير ﴿لَكُمُ الأَنْعَامَ﴾ الخيل، والبغال، والحمير، وهكذا بهيمة الأنعام: البقر، والغنم، والإبل، ﴿لِتَرْكَبُوا﴾ أي: لتركبوا بعضها، فيُركب الخيل، والبغال، والإبل، والحمار، ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ كالإبل ويجوز أكل الخيل، لحديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، **«أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَهَىٰ يَوْمَ خَيْبَرَ عَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ، وَأَذِنَ فِي لُحُومِ الْخَيْلِ»** متفق عليه، ويؤكل البقر والضأن والمعز، بشرط ذكاته.

﴿٨٠﴾ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ في الأنعام، ﴿مَنَافِعُ﴾ كثيرة، تلبسون من جلدوها، وتصنعون لباسًا من شعرها، وتشربون من ألبانها، ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً﴾ أي: في حال ركوبكم، ﴿فِي صُدُورِكُمْ﴾ قد عزمتم عليها، ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ﴾ السفن ﴿تُحْمَلُونَ﴾ في البحر علىٰ السفينة، وفي الأرض علىٰ الجمل والبغل، وقد وجدت السيارات والطائرات والكثير من الناقلات، وكله خلق الله.

٨١ ﴿وَيُرِيكُمْ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿آيَاتِهِ﴾ دلائل قدرته لتتعظوا، ﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ يريكم الآيات الكونية والشرعية فأي آية تنكر وتجحدون؟.

٨٢ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ أهل مكة ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ في حال رحلتهم للتجارة، ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ نهاية ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أهلكهم الله عَزَّوَجَلَّ ودمر عليهم في آخر أمرهم، ﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ﴾ أكثر من قريش عددًا وعدة، ﴿وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ منعة، ﴿وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ قد عمروا البلاد وشيدوا القصور العظيمة، وحفروا الأنهار وبنوا السدود ﴿فَمَا أَغْنَى﴾ دفع ﴿عَنْهُمْ﴾ العذاب ﴿مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، يعملون، وقيل هي بمعنىٰ الاستفهام أي شيء أغنىٰ عنهم كسبهم.

٨٣ ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الهدىٰ الذي أنزله الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿فَرِحُوا﴾ بطروا ورضوا، ﴿بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ قال مجاهد: هو قولهم نحن أعلم ولن نبعث سمىٰ ذلك علما علىٰ ما يدعونه ويزعمون، ﴿وَحَاقَ﴾ نزل: ﴿بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ يسخرون ويردون ويكذبون.

٨٤ ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ عذابنا، ﴿قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ لا شريك له وهذا لا ينفعهم، فإن فرعون حين أُلقي في اليم ولحقه الغرق قال: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ **[يونس:٩٠]**، فكان الجواب: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۝٩١ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ **[يونس:٩١-٩٢]**، فالله عَزَّوَجَلَّ يقبل توبة العبد ما لم يغرغر، ﴿وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ من الأصنام والأوثان.

٨٥ ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ﴾ إقرارهم في ذلك اليوم لأنهم لم يتوبوا في زمن تُقبل فيه التوبة، إذ أن التوبة تقبل قبل طلوع الشمس من مغربها، وقبل الغرغرة، ﴿لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ عذابنا، ﴿سُنَّتَ اللَّهِ﴾ طريقة الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿الَّتِي قَدْ خَلَتْ﴾ مضت، ﴿فِي﴾ إهلاك، ﴿عِبَادِهِ﴾ المتمردين وإعزاز المؤمنين، ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ﴾ يوم القيامة ﴿الْكَافِرُونَ﴾ حيث خسروا أنفسهم إذ يُعذبون في الحميم، وخسروا أهاليهم وأبنائهم، وخسروا دنياهم وأُخراهم.

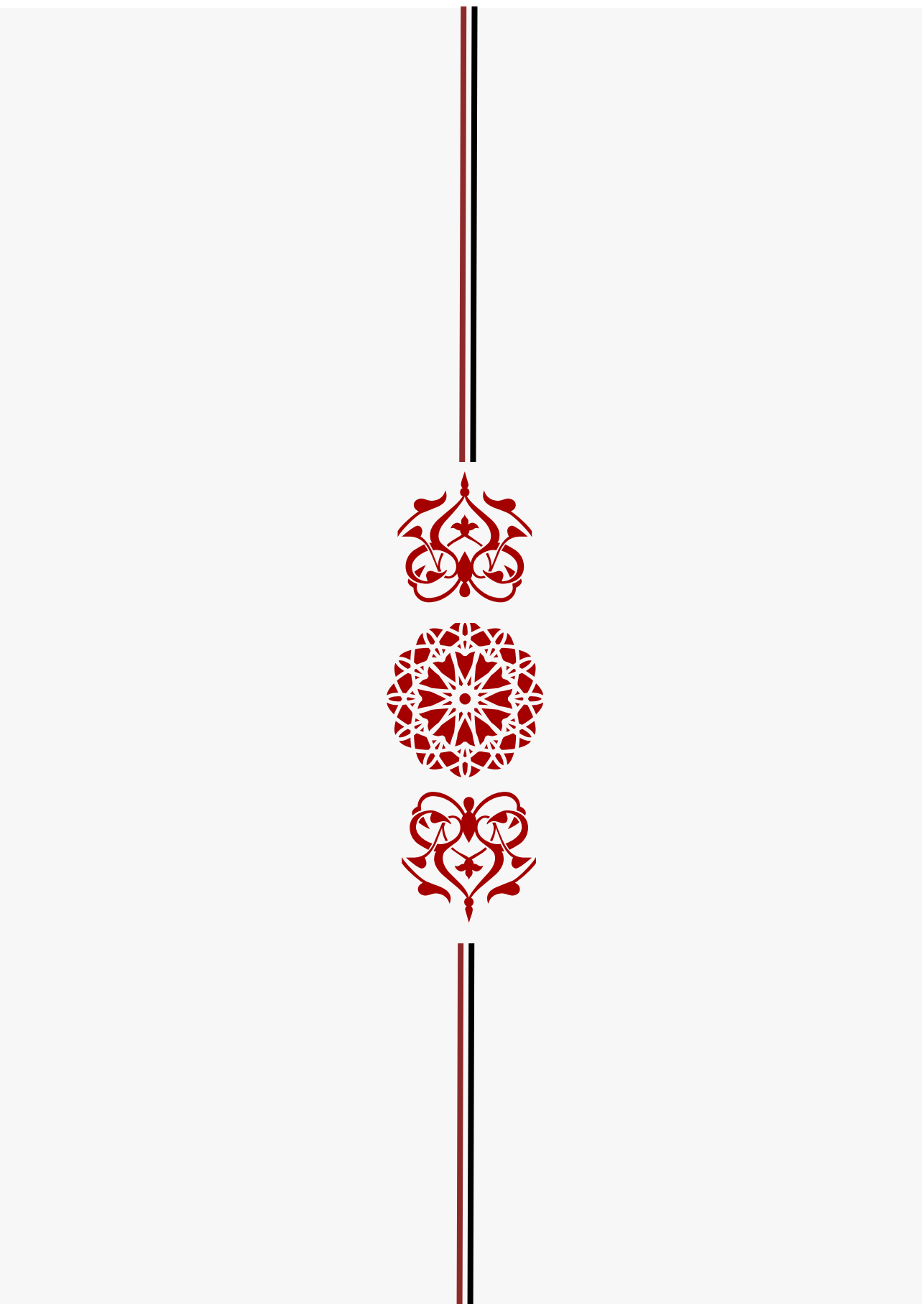
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ غَافِرٍ



تَفْسِيرُ سُورَةِ فُصِّلَتْ







سُورَةُ فُصِّلَتْ

مَكِّيَّةٌ، وَآيَاتُهَا أَرْبَعَةٌ وَخَمْسُونَ آيَةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨﴾.

(١) ﴿حمٓ﴾ تقدم القول في الأحرف المقطعة التي يفتتح بها السور.

(٢) والمعنىٰ أن هذا القرآن ﴿تَنزِيلٌ﴾ منزل، ﴿مِّنَ﴾ للابتداء حيث تكلم الله عز وجل به حقيقة، وسمعه منه جبريل، ونزل به علىٰ محمد ﷺ، ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء، ومن أعظمها إنزال الكتاب وإرسال الرسول دلالة علىٰ أن القرآن، وأن الرسول ﷺ رحمة من الله عَزَّوَجَلَّ.

(٣) وهذا القرآن ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ﴾ بينت، ووضحت، وأحكمت، ﴿آيَاتُهُ﴾ الشرعية، ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ بلغة العرب الفصيحة، تكلم الله عَزَّوَجَلَّ به كما يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه.

❁ وهذا يدل علىٰ عظيم هذه اللغة التي اختارها الله عَزَّوَجَلَّ أن تكون لغة القرآن، ولغة النبي ﷺ، بل ذكر بعض أهل العلم: أنها لغة أهل الجنة.

﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ما فيه من الأحكام فيستجيبون لأمره وينتهون عن نهيه وزجره، وأما الجاهلون الذين لا يزيدهم الهدىٰ إلا ضلالا، والبيان إلا عمىٰ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ١٠] فلا ينتفعون به.

٤ ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: هذا القرآن مبشرًا للمؤمنين بالخير العظيم عاجلاً وآجلاً، ﴿وَنَذِيرًا﴾ للكافرين، وقد حوىٰ البشارة والنذارة في كثير من مواطنه، ﴿فَأَعْرَضَ﴾ تولىٰ، ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ أهل مكة، ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ القرآن سماع قبول، ولا يستجيبون ولا يعون.

٥ ﴿وَقَالُوا﴾ معتذرين لأنفسهم بعدم قبوله: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ أغطية قد طُبِعَ عليها لا تفقه، ﴿مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ من التوحيد وغيره، ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ ثقل لا نسمع ما تقول، ﴿وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ فلا نراك ويمنعنا من فهم ما تقول، وهذه كلها معنويات صرفهم الله بها عن توحيده وعن اتباع نبيه؛ بسبب إعراضهم، كما قال تعالىٰ: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة:١٠]، وقال: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ﴾ [البقرة:٧]، ﴿فَاعْمَلْ﴾ يا محمد بما أنت عامل، ﴿إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ بما نحن فيه، وهذا هو غاية الإعراض نعوذ بالله.

٦ ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ آكل وأشرب وأدخل الأسواق مثلكم، وإنما يميزني أنه: ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ من الله عَزَّوَجَلَّ بالقرآن ونحوه، ﴿أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ لا شريك له في ربوبيته، وألوهيته، وأسمائه وصفاته، ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ أي: توجهوا إلىٰ الله بالطاعة وسيروا علىٰ صراطه المستقيم، وإياكم والاعوجاج، قال حذيفة: "يا معشر القراء استقيموا فقد سبقتم سبقًا بعيدًا، فإن أخذتم يمينًا وشمالًا لقد ضللتم ضلالًا بعيدًا" **أخرجه البخاري**.

﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ من ذنوبكم، وتقصيركم، ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ المنددين، في دنياهم وأخراهم، وشأن الاستقامة عظيم فعَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللهِ الثَّقَفِيِّ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ قَالَ: **«قُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ، فَاسْتَقِمْ»** **أخرجه مسلم**.

٧ ﴿الَّذِينَ﴾ لا يقولون لا إله إلا الله و﴿لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ لا يطهرون أنفسهم، وقيل لا يزكون أعمالهم بالتوحيد وقيل: مع إشراكهم لا يأتون الزكاة.

وَقَدْ ظَنَّ بَعْضُهُمْ: أنها دالة علىٰ وجوب إخراج الزكاة، والكلام في هذا الباب: أن الزكاة نزلت فرضيتها بمكة، وحددت الأنصبة في السنة الثانية بالمدينة، وأرسل النبي ﷺ السعاة لجلبها في السنة التاسعة من الهجرة.

﴿وَهُم﴾ مع كفرهم ومنعهم لحق الله ﴿بِالآخِرَةِ﴾ بالبعث والنشور وما يليه، ﴿هُمْ كَافِرُونَ﴾ لا يؤمنون.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ﴾ ثواب ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ مقطوع بل يجري عليهم حتىٰ وهم في قبورهم.

فعن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا كَانَ عَلَىٰ طَرِيقَةٍ حَسَنَةٍ مِنَ الْعِبَادَةِ، ثُمَّ مَرِضَ، قِيلَ لِلْمَلَكِ الْمُوَكَّلِ بِهِ: اكْتُبْ لَهُ مِثْلَ عَمَلِهِ إِذَا كَانَ طَلِيقًا، حَتَّىٰ أُطْلِقَهُ، أَوْ أَكْفِتَهُ إِلَيَّ»** أخرجه أحمد.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: **«إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»** أخرجه مسلم.

وعَنْ سَلْمَانَ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: **«مَنْ رَابَطَ يَوْمًا أَوْ لَيْلَةً كَانَ لَهُ كَصِيَامِ شَهْرٍ لِلْقَاعِدِ، وَمَنْ مَاتَ مُرَابِطًا فِي سَبِيلِ اللهِ، أَجْرَىٰ اللهُ لَهُ أَجْرَهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُ: أَجْرَ صَلَاتِهِ وَصِيَامِهِ وَنَفَقَتِهِ، وَوُقِيَ مِنْ فَتَّانِ الْقَبْرِ، وَأَمِنَ مِنَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ»** أخرجه أحمد (٢٣٧٢٧)، وأصله في مسلم بلفظ مقارب.

ويوم القيامة ينالون ثواب أعمالهم، ولا ينقطع كما قال تعالىٰ في وصف الجنة: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة:٣٣].

﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۝١١ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝١٢﴾.

﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ يا معشر قريش، ﴿لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ وهو الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾ نظراء ومثلاء تعالىٰ الله عن ذلك، ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي خلقهن، ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ فلا يجوز لكم أن تمثلوه بغيره وأن تُشْرِكوا غيره معه.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ في الأرض ﴿رَوَاسِيَ﴾ جبالًا شامخات، ﴿مِن فَوْقِهَا﴾ لتثبيتها، ﴿وَبَارَكَ فِيهَا﴾ جعل البركة في أقواتها وفي زراعاتها، وفيما يخرج منها، ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ كتب أرزاق أهلها، وما يحتاج إليه العباد، وجميع الكائنات، ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً

﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أي: استوت استواءً، وقال قتادة: من سأل عنه، فهكذا الأمر سواء لا زيادة ولا نقصان جوابًا لمن سأل في كم خلقت الأرض؟.

❐ **وقد يظن الظَّان أن هذه مجموع ستة أيام، ويشكل عليه قوله تعالىٰ:** ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ﴾ [الفرقان:٥٩] ؟.

والجواب: أنه خلق الأرض في يومين، وقدر فيها أقواتها في يومين فصارت أربعة أيام، ثم خلق السماوات في يومين فهي ستة أيام.

﴿١١﴾ ﴿ثُمَّ﴾ بعد خلق الأرض، ﴿اسْتَوَىٰ﴾ علا وارتفع وقصد ﴿إِلَى﴾ خلق، ﴿السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ يعني: قبل أن تكون جرمًا عظيمًا سميكًا، ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ﴾ لا يبعد أنه قال لها قولًا وكلمها كلامًا كما هو ظاهر القرآن وسمعتا منه؛ لأن الله لا يعجزه شيء، ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ طائعات أو كارهات، ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا﴾ انقيادا لأمري، ﴿طَائِعِينَ﴾ لله رب العالمين.

﴿١٢﴾ ﴿فَقَضَاهُنَّ﴾ صيرهن، ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ متطابقات، ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ ولو أراد أن يقول كن لكان؛ لكن لله الحكمة البالغة والحجة الدامغة، وذهب اليهود: إلىٰ أن الله ارتاح في اليوم السابع، وهذا من جهلهم بربهم، ومن طعنهم في الواحد القهار؛ ولذلك قال الله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨].

﴿وَ﴾ بعد أن خلق السماوات الطباق، ﴿أَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ بما يتعلق بها من الأملاك الذين يعبدونه فيها، ﴿وَزَيَّنَّا﴾ حسنا ﴿السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾ القريبة من الأرض، ﴿بِمَصَابِيحَ﴾ النجوم والكواكب، ﴿وَحِفْظًا﴾ للسماء بالشهب حيث تُرمىٰ علىٰ الشياطين إذا أرادوا أن يسترقوا السمع، كما بين الله ذلك في غير ما موطن، وقد ذكرناه عند تفسير سورة الصافات، ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: هذا التقدير في العالم العلوي والسلفي هو ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ الذي لا يُغلب، ﴿الْعَلِيمِ﴾ بمنافع العباد.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿١٣﴾ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ عن دين الإسلام وتولوا وأبوا إلا الشرك: ﴿فَقُلْ﴾ لهم ﴿أَنذَرْتُكُمْ﴾ حذرتكم وخوفتكم، ﴿صَٰعِقَةً﴾ صيحة تحل بكم فتهلككم، ﴿مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ﴾ قوم هود، ﴿وَثَمُودَ﴾ قوم صالح.

📖 وفي أسباب النزول:

اجْتَمَعَتْ قُرَيْشٌ يَوْمًا فَقَالُوا: انْظُرُوا أَعْلَمَكُمْ بِالسِّحْرِ وَالْكَهَانَةِ وَالشِّعْرِ، فَلْيَأْتِ هَذَا الرَّجُلَ الَّذِي فَرَّقَ جَمَاعَتَنَا وَشَتَّتْ أَمْرَنَا وَعَابَ دِينَنَا فَلْيُكَلِّمْهُ وَلْيَنْظُرْ مَاذَا يَرُدُّ عَلَيْهِ، فَقَالُوا: مَا نَعْلَمُ أَحَدًا غَيْرَ عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، فَقَالُوا: أَنْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ، فَأَتَاهُ عُتْبَةُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ خَيْرٌ أَمْ عَبْدُ اللهِ؟ فَسَكَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: أَنْتَ خَيْرٌ أَمْ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ؟ فَسَكَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ تَزْعُمُ أَنَّ هَؤُلَاءِ خَيْرٌ مِنْكَ فَقَدْ عَبَدُوا الْآلِهَةَ الَّتِي عِبْتَهَا، وَإِنْ كُنْتَ تَزْعُمُ أَنَّكَ خَيْرٌ مِنْهُمْ فَتَكَلَّمْ حَتَّىٰ نَسْمَعَ قَوْلَكَ ، إِنَّا وَاللهِ مَا رَأَيْنَا سَخْلَةً قَطُّ أَشْأَمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْكَ، فَرَّقْتَ جَمَاعَتَنَا وَشَتَّتَ أَمْرَنَا وَعِبْتَ دِينَنَا وَفَضَحْتَنَا فِي الْعَرَبِ حَتَّىٰ لَقَدْ طَارَ فِيهِمْ أَنَّ فِي قُرَيْشٍ سَاحِرًا، وَأَنَّ فِي قُرَيْشٍ كَاهِنًا، وَاللهِ مَا نَنْتَظِرُ إِلَّا مِثْلَ صَيْحَةِ الْحُبْلَىٰ أَنْ يَقُولَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ بِالسُّيُوفِ حَتَّىٰ نَتَفَانَىٰ أَيُّهَا الرَّجُلُ، إِنْ كَانَ إِنَّمَا بِكَ الْبَاءَةُ فَاخْتَرْ أَيَّ نِسَاءِ قُرَيْشٍ وَنُزَوِّجُكَ عَشْرًا، وَإِنْ كَانَ إِنَّمَا بِكَ الْحَاجَةُ جَمَعْنَا لَكَ حَتَّىٰ تَكُونَ أَغْنَىٰ قُرَيْشٍ رَجُلًا وَاحِدًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«أَفَرَغْتَ؟»**، قَالَ: نَعَمْ، فَقَرَأَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىاللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿حمٓ*تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ [فصلت:١-٢]» حَتَّىٰ بَلَغَ «﴿أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت:١٣]، **فَقَالَ عُتْبَةُ: حَسْبُكَ حَسْبُكَ مَا عِنْدَكَ غَيْرَ هَذَا؟ قَالَ: «لَا»**، فَرَجَعَ إِلَىٰ قُرَيْشٍ فَقَالُوا: مَا وَرَاءَكَ؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ شَيْئًا أَرَىٰ أَنَّكُمْ تُكَلِّمُونَهُ بِهِ إِلَّا وَقَدْ كَلَّمْتُهُ بِهِ، فَقَالُوا: فَهَلْ أَجَابَكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: لَا وَالَّذِي نَصَبَهَا بَيِّنَةً مَا فَهِمْتُ شَيْئًا مِمَّا قَالَ غَيْرَ أَنَّهُ أَنْذَرَكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ

صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ، قَالُوا: وَيْلَكَ يُكَلِّمُكَ رَجُلٌ بِالْعَرَبِيَّةِ لَا تَدْرِي مَا قَالَ؟، قَالَ: لَا وَاللهِ مَا فَهِمْتُ شَيْئًا مِمَّا قَالَ غَيْرَ ذِكْرِ الصَّاعِقَةِ. وذكر ابن كثير رحمه الله عدة روايات تدل علىٰ ثبوتها في الجملة.

١٤ ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ﴾ حيث أرسل هوداً إلىٰ عاد، وصالحاً إلىٰ ثمود، ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ من قبلهم ومن بعدهم، يقولون لهم: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أن توحدوا الله، وهذا معنىٰ لا إله إلا الله، ﴿قَالُواْ﴾ رادين لدعوتهم: ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ وهذا أمر تتابع عله الكفار: أنهم يسألون الله إنزال الملائكة لإنذارهم، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام:٩]، ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ يا معاشر المرسلين: ﴿كَٰفِرُونَ﴾ معرضون منددون، والاحتجاج بالقدر علىٰ الكفر والمعاصي لا يستقيم، فإن الله عَزَّوَجَلَّ لم يقبلها من غيرهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النحل:٣٥].

١٥ ﴿فَأَمَّا عَادٌ﴾ القبيلة العاتية القوية، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾ [الفجر:٦-٧]، أي: ذات البيوت التي قد رفعوا الأعمدة فيها، والخيام، التي قد نصبوها، ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ تكبروا فكفروا وأعرضوا: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ صفة كاشفة فليس تمت كبر بحق، ﴿وَقَالُواْ﴾ متبجحين متعاظمين: ﴿مَنْ أَشَدُّ﴾ أعظم، ﴿مِنَّا قُوَّةً﴾ وأكثر عددًا وعدة، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ ويتفكروا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ﴾ أوجدهم من العدم، ﴿هُوَ أَشَدُّ﴾ أعظم، ﴿مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ لا يعجزه شيء، ﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ ويكذبون.

١٦ ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ شديدة، ﴿صَرْصَرًا﴾ عاتية باردة، ﴿فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ متتابعات، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧﴾ [الحاقة:٤- ٧]، ويذكرون في معنىٰ الصرصر: أن لها صوت شديد يزلزلهم، ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ﴾ الهون الشديد، ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فيهلكون به، ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ وأشد، ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ لا يحفظون.

(١٧) ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ﴾ قوم صالح، ﴿فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ أرشدناهم، وبينا لهم طريق الحق والهدىٰ حين أرسلنا إليهم صالحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وسألوه آية فأعطيناه ناقةً: ﴿فَٱسْتَحَبُّواْ﴾ اختاروا وأحبوا: ﴿ٱلْعَمَىٰ﴾ الكفر، ﴿عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ الإسلام، ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ﴾ صيحة من السماء فأصبحوا لا يلوون علىٰ شيء، ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ الذي أهانهم الله به، ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ بسبب أعمالهم السيئة.

(١٨) ﴿وَنَجَّيْنَا﴾ أنجينا وسلمنا وخلصنا؛ من هذا العذاب والخزي والهوان، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ بفعل المأمور وترك المحظور.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

(١٩) ﴿وَ﴾ اذكر يا محمد: ﴿يَوْمَ يُحْشَرُ﴾ يُجمع، ﴿أَعْدَآءُ ٱللَّهِ﴾ الكفار ﴿إِلَى ٱلنَّارِ﴾ تسوقهم الملائكة، ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يجمعونهم ثم يلقونهم في النار كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم:٨٦].

(٢٠) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ أي: النار، ﴿شَهِدَ﴾ أخبر ﴿عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ﴾ بذنوبهم التي كانوا يتعاطونها بسمعهم من سماع الأغاني والزور، ﴿وَأَبْصَٰرُهُمْ﴾ بالذنوب التي كانوا يتعاطونها بأبصارهم، ﴿وَجُلُودُهُم﴾ التي هي عليهم: ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والمعاصي.

وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ هَلْ نَرَىٰ رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «**هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ فِي الظَّهِيرَةِ، لَيْسَتْ فِي سَحَابَةٍ؟**» قَالُوا: لَا، قَالَ: «**فَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لَيْسَ فِي سَحَابَةٍ؟**» قَالُوا: لَا، قَالَ: " فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ، إِلَّا كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا، قَالَ: فَيَلْقَىٰ الْعَبْدَ، فَيَقُولُ: أَيْ فُلْ أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ فَيَقُولُ: بَلَىٰ، قَالَ: فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي،

ثُمَّ يَلْقَىٰ الثَّانِيَ فَيَقُولُ: أَيْ فُلْ أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ، وَتَرْبَعُ، فَيَقُولُ: بَلَىٰ، أَيْ رَبِّ فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي، ثُمَّ يَلْقَىٰ الثَّالِثَ، فَيَقُولُ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ آمَنْتُ بِكَ، وَبِكِتَابِكَ، وَبِرُسُلِكَ، وَصَلَّيْتُ، وَصُمْتُ، وَتَصَدَّقْتُ، وَيُثْنِي بِخَيْرٍ مَا اسْتَطَاعَ، فَيَقُولُ: هَاهُنَا إِذًا، قَالَ: ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: الْآنَ نَبْعَثُ شَاهِدَنَا عَلَيْكَ، وَيَتَفَكَّرُ فِي نَفْسِهِ: مَنْ ذَا الَّذِي يَشْهَدُ عَلَيَّ؟ فَيُخْتَمُ عَلَىٰ فِيهِ، وَيُقَالُ لِفَخِذِهِ وَلَحْمِهِ وَعِظَامِهِ: انْطِقِي، فَتَنْطِقُ فَخِذُهُ وَلَحْمُهُ وَعِظَامُهُ بِعَمَلِهِ، وَذَلِكَ لِيُعْذِرَ مِنْ نَفْسِهِ، وَذَلِكَ الْمُنَافِقُ وَذَلِكَ الَّذِي يَسْخَطُ اللهُ عَلَيْهِ " أخرجه مسلم (٢٩٦٨).

(٢١) ﴿وَقَالُوا﴾ أهل النار ﴿لِجُلُودِهِمْ﴾ معاتبين لها: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ﴾ أخبرتم ﴿عَلَيْنَا﴾ بما كنا نعمل يعني: ونحن نسعىٰ في خلاصكم وسلامتكم من النار؟ ﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ﴾ فهو الذي جعلنا نتكلم، وهو ﴿ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ ممن يتكلم، ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمۡ﴾ أوجدكم، ﴿أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ فلا يعجزه أن يجعل الكلام علىٰ جوارحهم، ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ تحشرون.

(٢٢) ﴿وَمَا كُنتُمۡ﴾ يا معاشر الكفار، ﴿تَسۡتَتِرُونَ﴾ تظنون، ﴿أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ﴾ استيقنتم، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ وهذا لجهلهم بربهم فإن الله بكل شيء عليم، ولو تأملت السبب الذي أوصل الكفار إلىٰ عبادة غير الله لوجدت أنه ظن السوء، كما قال تعالىٰ: ﴿وَظَنَنتُمۡ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ وَكُنتُمۡ قَوۡمَۢا بُورٗا﴾ [الفتح:١٢]، فظنوا أن لله شريكـًا، ومثيلاً، ونظيراً.

قَالَ مَعْمَرٌ: وَتَلَا الْحَسَنُ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ ثُمَّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«قال الله تعالىٰ أَنَا مَعَ عَبْدِي عِنْدَ ظَنِّهِ بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا دَعَانِي»** ثُمَّ افْتَرَّ الْحَسَنُ يَنْظُرُ فِي هَذَا فَقَالَ: أَلَا إِنَّمَا عَمَلُ النَّاسِ عَلَىٰ قَدْرِ ظُنُونِهِمْ بِرَبِّهِمْ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَأَحْسَنَ الظَّنَّ بِرَبِّهِ فَأَحْسَنَ الْعَمَلَ، وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ فَأَسَاءَا الظَّنَّ بِاللهِ فَأَسَاءَا الْعَمَلَ.

(٢٣) ﴿وَذَٰلِكُمۡ﴾ الذي أفسدكم، ﴿ظَنُّكُمُ﴾ السيء، ﴿ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ﴾ أركسكم ودمدم عليكم به، وعَنْ جَابِرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ، قَبْلَ وَفَاتِهِ بِثَلَاثٍ، يَقُولُ: **«لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللهِ الظَّنَّ»** أخرجه مسلم، ﴿فَأَصۡبَحۡتُم﴾ صرتم ﴿مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ الخسران المبين، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الزمر:١٥].

﴿٢٤﴾ ﴿فَإِن يَصْبِرُواْ﴾ على النار، ﴿فَٱلنَّارُ مَثْوًى﴾ مأوىً ومستقر ﴿لَّهُمْ﴾ يعذبون فيها في كل الأوقات واللحظات، ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ﴾ يطلبون العتبىٰ والرجوع، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦]، ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ ما كان لهم أن يرجعوا إلىٰ هذه الدنيا، بل يقال لهم: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [المؤمنون:١٠٨].

﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿٢٥﴾ ﴿وَقَيَّضْنَا﴾ جعلنا، ﴿لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾ من الجن، ﴿فَزَيَّنُوا۟﴾ جمَّلوا وحسنوا، ﴿لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من الباطل وعبادة غير الله، وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ، إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ»** قَالُوا: وَإِيَّاكَ؟ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: **«وَإِيَّايَ، إِلَّا أَنَّ اللهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ، فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ»** متفق عليه.

قيل: فَأسلَمَ أي: أن الجني أسلم، وقيل: فَأسلَمُ أي: أنا أسلم من مكره، والمعنىٰ الأول أظهر، ومع ذلك هؤلاء القرناء ليس لهم قدرة علىٰ سوق الإنسان إلىٰ المعصية إنما يوسوسون ويزينون الباطل، فإذا أطاعهم وقع في حبالهم.

﴿وَحَقَّ﴾ وجب ﴿عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ في أنهم من أهل النار، ﴿فِي أُمَمٍ﴾ مع أمم، ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ ولت وذهبت ﴿مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ لدنياهم وأخراهم.

﴿٢٦﴾ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ محذرين من سماع القرآن والأخذ بسنة النبي عليه الصلاة والسلام: ﴿لَا تَسْمَعُوا﴾ لا تستمعوا: ﴿لِهَذَا الْقُرْءَانِ﴾ وذكروا أنهم كانوا يجعلون في آذانهم القطن وما في بابه؛ حتىٰ لا يسمعوا كلام محمد ﷺ، بل كانوا يحذرون الناس من سماعه.

فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ ضِمَادًا، قَدِمَ مَكَّةَ وَكَانَ مِنْ أَزْدِ شَنُوءَةَ، وَكَانَ يَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ، فَسَمِعَ سُفَهَاءَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، يَقُولُونَ: إِنَّ مُحَمَّدًا مَجْنُونٌ، فَقَالَ: لَوْ أَنِّي رَأَيْتُ هَذَا الرَّجُلَ لَعَلَّ

اللهَ يَشْفِيهِ عَلَىٰ يَدَيَّ، قَالَ فَلَقِيَهُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي أَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ، وَإِنَّ اللهَ يَشْفِي عَلَىٰ يَدِي مَنْ شَاءَ، فَهَلْ لَكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَمَّا بَعْدُ»** قَالَ: فَقَالَ: أَعِدْ عَلَيَّ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ، فَأَعَادَهُنَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، قَالَ: فَقَالَ: لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ، وَقَوْلَ السَّحَرَةِ، وَقَوْلَ الشُّعَرَاءِ، فَمَا سَمِعْتُ مِثْلَ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ، وَلَقَدْ بَلَغْنَ نَاعُوسَ الْبَحْرِ، قَالَ: فَقَالَ: هَاتِ يَدَكَ أُبَايِعْكَ عَلَىٰ الْإِسْلَامِ، قَالَ: فَبَايَعَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«وَعَلَىٰ قَوْمِكَ»**، قَالَ: وَعَلَىٰ قَوْمِي. **أخرجه مسلم.**

﴿وَٱلْغَوْاْ فِيهِ﴾ من اللغو: وهو الكلام الباطل، حذروا منه، وسفهوه، وقيل جحدوه وأنكروه ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾؛ محمداً وتنتصرون عليه بالحجة.

﴿٢٧﴾ ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ جزاء هذا القول، ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ في الدنيا بالقتل، وفي الآخرة بالنار، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ نجازيهم: ﴿أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ يعني: يجزون سوء العذاب علىٰ أسوأ أعمالهم السيئة.

﴿٢٨﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب المذكور، ﴿جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ﴾ يوم القيامة، ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ لا يزحزحون عنها ولا تخفف عنهم، ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ يكذبون.

﴿٢٩﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يوم القيامة، ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا﴾ حرفنا عن الاستقامة، ﴿مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ لأن أكثر الناس يضل بفعل جليسه وأنيسه إما الجني وإما الإنسي، ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ أسفل منا في العذاب من باب الانتقام، ﴿لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ في الدرك الأسفل من النار، ومع ذلك لكل ضعف، وعذاب علىٰ عمله.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿٣٠﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ بألسنتهم، واعتقدوه بقلوبهم، وعملوا بجوارحهم، ، ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ علىٰ أمر الله عَزَّوَجَلَّ والتزموا شرعه وسنة نبيه ﷺ، وفي حديث: سُفْيَانَ بْنِ

عَبْدِ اللهِ الثَّقَفِيِّ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا غَيْرَكَ قَالَ: «**قُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ، ثُمَّ اسْتَقِمْ**» أخرجه مسلم.

❁ وفي هذا دليل: علىٰ أن القول المجرد لا يكفي حتىٰ ينضاف إليه انقياد الجوارح.

﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ﴾ تنزل، ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾ قيل: في حياتهم تثبتهم وتحفظهم من أمر الله، وقيل: عند موتهم، وعند بعثهم؛ تبشرهم برضوان الله، **وهذا الأظهر**.

ففي حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ، حَتَّىٰ يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَتَّىٰ يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، اخْرُجِي إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ**» أخرجه أحمد.

﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾ مما تقدمون عليه، ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ علىٰ ما فاتكم، ﴿وَأَبْشِرُوا﴾ استبشروا، ﴿بِالْجَنَّةِ﴾ التي أعدها الله عَزَّوَجَلَّ للمؤمنين، ﴿الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ وعدكم الله عَزَّوَجَلَّ إياها في كتابه وعلىٰ لسان رسوله ﷺ، وهذه من أعظم البشارات حتىٰ أن المؤمن يقوم في قبره يمسح وجهه ويقول: دعوني أصلي لربي مستبشرًا منشرحًا، كما في حديث جابر عند ابن أبي عاصم.

﴿٣١﴾ ﴿نَحْنُ﴾ الملائكة ﴿أَوْلِيَاؤُكُمْ﴾ أنصاركم وأحباؤكم، ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بتثبيتكم وعونكم ونصرتكم، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ يشفعون لهم ويقومون في شأنهم، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ أي: في الجنة، ﴿مَا تَشْتَهِي﴾ تود وترغب فيه ﴿أَنفُسُكُمْ﴾ من المشتهيات من المطعومات، والملبوسات، والمشروبات والمنكوحات وغير ذلك، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ ما تتمنونه وتطلبونه، كما قال تعالىٰ: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [ق:٣٥].

﴿٣٢﴾ ﴿نُزُلًا﴾ ضيافة ورزقًا وعطاءً وإنعامًا، فعن أبي موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**مَنْ غَدَا إِلَىٰ الْمَسْجِدِ أَوْ رَاحَ أَعَدَّ اللهُ لَهُ نُزُلًا فِي الْجَنَّةِ كُلَّمَا غَدَا أَوْ رَاحَ**»، متفق عليه، ﴿مِّنْ غَفُورٍ﴾ يستر ويتجاوز عن الذنوب، و ﴿رَّحِيمٍ﴾ موفق للطاعات.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿٣٣﴾ ﴿وَمَنْ﴾ لا ﴿أَحْسَنُ قَوْلًا﴾ وفعلاً ﴿مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلىٰ توحيده وطاعته وقيل: المؤذن، والصحيح أنه علىٰ عمومه فيشمل الدعوة إلىٰ الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ويدخل في ذلك: الدعوة إلىٰ التوحيد، وذروتهم الرسل ومن سلك سبيلهم، ويدخل المؤذنون في هذا المعنىٰ إذا أخصلوا لربهم.

وعن معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«المؤذنون من أطول الناس أعناقًا يوم القيامة»**، **أخرجه مسلم.**

﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ وعمل الصالحات بفعله، مع صلاح قوله ﴿وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ المستسلمين لله بالتوحيد المنقادين له بالطاعة وعند عبد الرزاق عن الْحَسَنُ البصري: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ﴾ **[فصلت: ٣٣]** فَقَالَ: " هَذَا حَبِيبُ اللهِ ، هَذَا وَلِيُّ اللهِ ، هَذَا صَفْوَةُ اللهِ ، هَذَا خِيرَةُ اللهِ ، هَذَا أَحَبُّ أَهْلِ الْأَرْضِ إِلَىٰ اللهِ ، أَجَابَ اللهَ فِي دَعْوَتِهِ ، وَدَعَا النَّاسَ إِلَىٰ مَا أَجَابَ اللهَ فِيهِ مِنْ دَعْوَتِهِ ، وَعَمِلَ صَالِحًا فِي إِجَابَتِهِ ﴿وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ هَذَا خَلِيفَةُ اللهِ ".

﴿٣٤﴾ ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ﴾ المعروف والخير، ﴿وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ الإعراض والشر، ﴿ادْفَعْ﴾ عن نفسك الشر الذي يأتي إليك: ﴿بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ العفو والصفح، كما قال تعالىٰ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ **[الأعراف:١٩٩]**، ﴿فَإِذَا﴾ فعلت ذلك يكون: ﴿ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ﴾ صديق ﴿حَمِيمٌ﴾ ناصر ويذهب ما في قلبه.

﴿٣٥﴾ ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أي: هذه الخصلة، والوصية بالعفو والصفح، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ علىٰ كظم الغيظ، واحتمال المكروه ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ﴾ نصيب ﴿عَظِيمٍ﴾ من الصبر وسعة الصدر، وحسن التأسي برسول الله ﷺ.

﴿٣٦﴾ ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾ يصيبنك، أو يصرفنك، أو يفتننك، أو يأتينك: ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ وسواس، أو صارف، ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ ؛ لأنه لا يجير من الشيطان إلا الله، فعن أبي

هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا وَكَذَا؟ حَتَّىٰ يَقُولَ لَهُ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَ ذَلِكَ، فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ وَلْيَنْتَهِ**» متفق عليه.

وقد أمر الله بالاستعاذة من الشيطان في مواطن: في سورة الأعراف، وسورة المؤمنون، وهذه السورة، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لاستعاذتك ودعائك، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بحالك وبما يصلحك.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿٣٧﴾ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾ العظام والدلائل البينات علىٰ قدرته: ﴿ٱلَّيْلُ﴾ الذي يغطي البسيطة، ﴿وَٱلنَّهَارُ﴾ المشرق، ﴿وَٱلشَّمْسُ﴾ التي جعلها الله عَزَّوَجَلَّ سراجًا منيرًا، ﴿وَٱلْقَمَرُ﴾ الذي جعله الله آية الليل لمعرفة السنين والحساب، ويُهتدىٰ به في الليلة المظلمة، فعبدهما الكفار؛ ولهذا قال الله: ﴿لَا تَسْجُدُوا۟﴾ لا تصلوا، ﴿لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟﴾ صلوا ﴿لِلَّهِ ٱلَّذِى﴾ خلقكم، ووحدوه ونزهوه: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ توحدون، وقد عُبدت الشمس والقمر في اليمن في الزمن القديم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل:٢٤].

﴿٣٨﴾ ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ تكبروا، عن عبادة الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ من الملائكة، لا يفترون عن عبادته بل، ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ﴾ ينزهونه ويصلون له، ﴿بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ لا يتعبون ولا يفترون، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء:١٩-٢٠].

﴿٣٩﴾ ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة علىٰ عظيم قدرته: ﴿أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ يابسةً لا خضار فيها ولا حياة، ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ﴾ المطر، ﴿اهْتَزَّتْ﴾ أنبتت، ﴿وَرَبَتْ﴾ ظهر فيها الخير من العشب وغيره فصارت جميلة المنظر والمخبر، يتلذذ بالنظر إليها وبالأكل من شجرها وثمرها، وتأكل كذلك الدواب من عشبها، ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا﴾ بعد موتها، ﴿لَمُحْىِ﴾ باعث،

﴿الْمَوْتَى﴾ من قبورهم يوم القيامة، ﴿ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض؛ لكمال علمه وقدرته.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿٤٠﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾ يميلون، ﴿فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ الشرعية عن المعنىٰ الذي أراده الله عَزَّوَجَلَّ، وكذلك الكونية بإضافتها إلىٰ غير الله، فالإلحاد في الآيات الشرعية: بتحريفها وتغييرها وتبديلها، والإلحاد في الآيات الكونية: أن يعتقد أن لله شريكًا وظهيراً ومعينًا، ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ بل نحن مطلعون عليهم، وعلىٰ أعمالهم وأقوالهم.

ففي هذه الآية تهديد شديد للمعطلة والممثلة والمفوضة الذين ألحدوا في أسماء الله عَزَّوَجَلَّ وصفاته وآياته الشرعية، فحرفوها عن دلالتها وغيروها عما أراد الله منها، فزعموا أن الله ليس له صفات، فشبهوه بالمعدومات والممتنعات، تعالىٰ الله عن قولهم علواً كبيراً.

﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ﴾ كأبي جهل، وأمية بن خلف ومن إليهم، ﴿خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ كأبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي ومن إليهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ فستلقون جزاء أفعالكم السيئة يوم القيامة، وهذا الأمر علىٰ التهديد والوعيد، ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يبصر بعينين حقيقيتين لا تخفىٰ عليه خافية ويعلم ما تفعلون، فيجازيكم علىٰ أعمالكم.

﴿٤١﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ﴾ القرآن، ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أتاهم به محمد ﷺ، ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ القرآن ﴿لَكِتَٰبٌ﴾ مكتوب، ﴿عَزِيزٌ﴾ منيع فهو كلامه لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله، عزيز لما فيه من العزة والكرامة، وعزيز منيع لا يُستطاع أن يُغير فيه أو يُبدل.

﴿٤٢﴾ ومن عظيم وصفه أنه: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ الزور، ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ أي: ليس للباطل إليه سبيل، وقيل الباطل الشياطين فلا يستطيعون تغيير معانيه أو الزيادة

والنقصان منه؛ لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩]، ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ﴾ في فعله وأمره، ﴿حَمِيدٍ﴾ محمود في جميع شأنه.

﴿٤٣﴾ ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ﴾ من الأذىٰ ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ كعيسىٰ، وموسىٰ، وإبراهيم، ونوح ومن إليهم: من أنك ساحر، وكاهن، وكذاب إلىٰ غير ذلك، فلا تبتأس بقولهم، ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو﴾ صاحب ﴿مَغْفِرَةٍ﴾ للمؤمنين الموحدين التائبين، ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ عذاب موجع، للكافرين المعرضين.

﴿٤٤﴾ ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ﴾ أي: القرآن، ﴿قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾ بلغة العجم، ﴿لَّقَالُوا﴾ معارضين ذلك، ﴿لَوْلَا﴾ هلا، ﴿فُصِّلَتْ﴾ وضحت وجُليت، ﴿ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ يعني: أيكون القرآن أعجمي والرسول عربي؟ هذا لا يستقيم.

وقيل: المعنىٰ أنهم أضافوا الفعل إلىٰ مولىٰ ابن الحضرمي، وهو أعجمي، والنبي ﷺ كان يحدثهم بالعربية الفصيحة وهذا لا يستقيم.

وقيل: أن يكون القرآن بعضه أعجمي وبعضه عربي.

﴿قُلْ هُوَ﴾ القرآن، ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ انقادوا، ﴿هُدًى﴾ هداية إلىٰ طريق الخير والرشاد، كما قال تعالىٰ عن الجن: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن:٢]، ﴿وَشِفَاءٌ﴾ لما في الصدور لمن آمن به واتبع هداه، وقيل: شفاءٌ لما في الأبدان، ولا يمنع أنه شفاء لما في الصدور والأبدان، كما قال تعالىٰ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء:٨٢].

وعن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَانُوا فِي سَفَرٍ، فَمَرُّوا بِحَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ، فَاسْتَضَافُوهُمْ فَلَمْ يُضِيفُوهُمْ، فَقَالُوا لَهُمْ: هَلْ فِيكُمْ رَاقٍ؟ فَإِنَّ سَيِّدَ الْحَيِّ لَدِيغٌ أَوْ مُصَابٌ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: نَعَمْ، فَأَتَاهُ فَرَقَاهُ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ، فَبَرَأَ الرَّجُلُ، فَأُعْطِيَ قَطِيعًا مِنْ غَنَمٍ، فَأَبَىٰ أَنْ يَقْبَلَهَا، وَقَالَ: حَتَّىٰ أَذْكُرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَأَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ وَاللهِ مَا رَقَيْتُ إِلَّا بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ فَتَبَسَّمَ وَقَالَ: **«وَمَا أَدْرَاكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟»** ثُمَّ قَالَ: **«خُذُوا مِنْهُمْ، وَاضْرِبُوا لِي بِسَهْمِ مَعَكُمْ»** متفق عليه.

﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالقرآن وبمحمد ﷺ، ﴿فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ ثقل، وهذا الوقر والثقل معنوي لا حسي، فلا يسمعون القرآن سمع استجابة ولا ينقادون له، ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾

ظلمة، فلم يستفيدوا منه بسبب بعدهم عن تعاليمه وعدم أخذهم به، فصاروا كالعُمي الذين لا يُبصرون، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الكفار، ﴿يُنَادَوْنَ﴾ كمن ينادىٰ، ﴿مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ فلا يسمع صوتًا، ولا يعقل قولًا، ولا يبصر حركة، فلو كنت قريبًا من الأعمىٰ ربما تمسه بيدك، أو يسمع صوتك ولو كنت قريبًا من الأصم ربما رأىٰ حركة فمك، لكن بسبب البعيد لا يدري ولا يسمع ما تقول، فحال الكفار مع القرآن كحال الأعمىٰ الأصم البعيد من المتكلم، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧١].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿٤٥﴾ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة، ﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ بين مكذب ومصدق، كما اختلف في القرآن بين مصدق ومكذب، إذًا: فاصبر يا محمد كما صبر موسىٰ، وقد قال تعالىٰ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥]، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ وعدٌ وقولٌ علىٰ أن الله عَزَّوَجَلَّ لا يُعاجل بالعقوبة ولكن يُملي إلىٰ وقت معلوم، ﴿لَقُضِىَ﴾ حُكِمَ وفصل، ﴿بَيْنَهُمْ﴾ بالحق، وأُهلك المبطلون، ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي الكفار ﴿لَفِى شَكٍّ﴾ ريب، ﴿مِّنْهُ﴾ من القرآن ﴿مُرِيبٍ﴾ عجيب، يعني: تكذيبهم للقرآن تارة يقولون: يعلمه بشر، وتارة يقولون: أساطير الأولين، وتارة يقولون: سحر يؤثر، وتارة يقولون: كذب إلىٰ غير ذلك، ما استقام لهم قول لا في القرآن ولا في محمد عليه الصلاة والسلام.

﴿٤٦﴾ ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ من ذكر أو أنثىٰ، ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ تنتفع به ويلقىٰ أجره يوم القيامة، ﴿وَمَنْ أَسَآءَ﴾ عمل السيئات، ﴿فَعَلَيْهَا﴾ يُجازىٰ به يوم القيامة إن كان شركًا وإن كان دون الشرك فهو تحت المشيئة إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه، ﴿وَمَا رَبُّكَ﴾ يا محمد، ﴿بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ لكمال عدله، فإن الصفات المنفية تدل علىٰ كمال الضد فالله عَزَّوَجَلَّ كما قال عن نفسه: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]، وفي حديث أَبِي ذَرٍّ عند مسلم، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فِيمَا رَوَىٰ عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنَّهُ قَالَ: **«يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا»**.

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿٤٧﴾ ﴿إِلَيْهِ﴾ إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ﴿يُرَدُّ﴾ يرجع، ﴿عِلْمُ﴾ وقوع ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ القيامة وهذا كقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ﴾ [الأعراف:١٨٧]، وقال: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الأحزاب:٦٣].

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال: «**خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللهُ**»، فَتَلَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان:٣٤]، **أخرجه البخاري**.

﴿وَ﴾ يعلم ﴿مَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ﴾ فاكهة، وفي قراءة: من ثَمرة، ﴿مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ من الأماكن التي يخرج منها الثمر، فإن الشجرة حين تبدأ في الإنتاج أول ما يظهر الأكمام، ثم يخرج الثمر، ﴿وَ﴾ يعلم ﴿مَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾ سواءً أنثىٰ بني آدم أو غير بني آدم، ﴿وَلَا تَضَعُ﴾ من مولود: ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ سواءً كان ذكرًا أو أنثىٰ، بل ويعلم ما سيكون من شأنهم ﴿وَ﴾ واذكر ﴿يَوْمَ﴾ يوم القيامة، ويقول لهم: ﴿يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ الذين كنتم تعبدونهم من دوني من الأصنام والأوثان، ﴿قَالُوا۟﴾ الكفار، ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾ أعلمناك وأخبرناك، ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ علىٰ أن معك شريك، فيكذبون أنفسهم فيما كانوا يزعمونه في الدنيا.

﴿٤٨﴾ ﴿وَضَلَّ﴾ ذهب، ﴿عَنْهُم﴾ عن لكفار ﴿مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ﴾ يشركون ويندون، ﴿مِن قَبْلُ﴾ في الدنيا، ﴿وَظَنُّوا۟﴾ استيقنوا، ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ من مهرب؛ لأنهم أضاعوا المهرب في حياتهم، ولو فروا إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ لوجدوا عظيم ذلك يوم القيامة.

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿٤٩﴾ ﴿لَّا يَسْـَٔمُ﴾ لا يُصاب بالسآمة، ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ جنس الإنسان، ﴿مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ طلب الخير من رزق، وصحة، وعافية، وغنًا، ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ من بؤس، ومرض، وفقر، ﴿فَيَـُٔوسٌ﴾ من روح الله، ﴿قَنُوطٌ﴾ من رحمة الله، وهذا حال جنس الإنسان المعرض، وأما المؤمن، فحاله كما قال رسول الله ﷺ: **«عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»** اخرجه مسلم عن صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿٥٠﴾ ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ﴾ أعطيناه أي الإنسان، ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ مطرًا، ونعمةً، وصحةً، وغنًا، ﴿مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ﴾ فقر وشدة، ﴿مَسَّتْهُ﴾ نزلت به، ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾ استحقه بعملي، فيكفر النعمة، ولا يردها إلىٰ الله، يقول: أنا أحق بهذا، وما أعطاني الله إلا أني أهل له، أو أنه يقول أوتيته علىٰ علم، ودراية بوجوه المكاسب ﴿وَمَا أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ وهذا تكذيب بالبعث والنشور، ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ يوم القيامة، ﴿إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ الجنة فكما أعطاني في الدنيا يُعطيني في الآخرة.

📖 وفي أسباب النزول:

عَنْ خَبَّابٍ، قَالَ: **«كَانَ لِي عَلَىٰ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ دَيْنٌ، فَأَتَيْتُهُ أَتَقَاضَاهُ»**، فَقَالَ لِي: لَنْ أَقْضِيَكَ حَتَّىٰ تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ، قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: إِنِّي لَنْ أَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ حَتَّىٰ تَمُوتَ ثُمَّ تُبْعَثَ، قَالَ: وَإِنِّي لَمَبْعُوثٌ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ؟ فَسَوْفَ أَقْضِيكَ إِذَا رَجَعْتُ إِلَىٰ مَالٍ وَوَلَدٍ، قَالَ: فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧] إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٠] متفق عليه.

﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ﴾ لنخبرن ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾ في دنياهم يوم القيامة لا يخفىٰ شيء من أعمالهم، كما قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤]، ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ شديد موجع.

٥١ ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا﴾ وسعنا، ﴿عَلَى الإِنسَانِ﴾ بصحة أو رزق، ﴿أَعْرَضَ﴾ عن الطاعة، واستكبر عن الانقياد لأمر الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَنَأَى﴾ بَعُدَ ﴿بِجَانِبِهِ﴾ يعني: مثله كالذي يفر من عندك إلىٰ جانب آخر، كقوله: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ [الذاريات:٣٩]، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ المصائب والمحن والفقر، ﴿فَذُو دُعَآءٍ﴾ لله عَزَّوَجَلَّ، ﴿عَرِيضٍ﴾ كثير، فيطيل المسألة في الأمر الواحد، وفعلًا هذا حال كثير من الناس ممن لم يكن طائعًا في حال رخائه، وأما في حال الشدة فالجميع يلجؤون إلىٰ الله، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٦٧].

٥٢ ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني، ﴿إِن كَانَ﴾ هذا القرآن: ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم﴾ جحدتم وأعرضتم عنه، وعن آياته ﴿مَنْ أَضَلُّ﴾ أي: لا أضل، ﴿مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍ﴾ مخاصمة ومجدلة، وبعد عن تعلم الكتاب والسنة، والعمل بهما، ﴿بَعِيدٍ﴾ عن الاستقامة، وأهل الخير.

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌ ۝٥٤﴾.

٥٣ ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ أي: كفار قريش ومن إليهم، ﴿ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ﴾ أي: الحجج، والعلامات الظاهرة علىٰ قوة الله وقدرته وحسن تصرفه، وقيل: المراد بها القرىٰ التي أهلكها الله في طرقهم، ولا يُمنع الاستدلال بالآية علىٰ الآيات الفلكية، ﴿وَ﴾ نريهم آيات بينات عظيمات ﴿فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ في نفسه أو في نفس غيره.

كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢١]، ولو تفكر الإنسان في نفسه لرأىٰ من عجيب قدرة الله عَزَّوَجَلَّ ما يبهره، قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠ فَذَكِّرْ ۖ إِنَّمَآ

أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾﴾ [الغاشية:١٧-٢١]، فكم في الإنسان من حواس وأعضاء وأدوات، لا يجد النقص فيها إلا إذا أصابه شيءٌ من المرض، فعند ذلك يعلم عظيم ما كان عليه من النعمة، فالشاهد: أن الله عَزَّوَجَلَّ جعل لنا آيات في أنفسنا لو كنا نتعظ.

كما قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ [الروم:٥٤].

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ﴾ يظهر ﴿لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ القرآن الصادق، أو يتبين لهم يوم القيامة، أو يتبين لهم أن النبي ﷺ هو الحق فكله داخل في هذا المعنىٰ.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ أولم يكفهم أن ربك شاهد علىٰ صدق القرآن.و ﴿أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ مطلع، كما قال تعالىٰ: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر:١٩]، فلو كان محمد ﷺ كاذبًا في ما قاله لأخذه الله عَزَّوَجَلَّ.

كما قال: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة: ٤٤ – ٤٧].

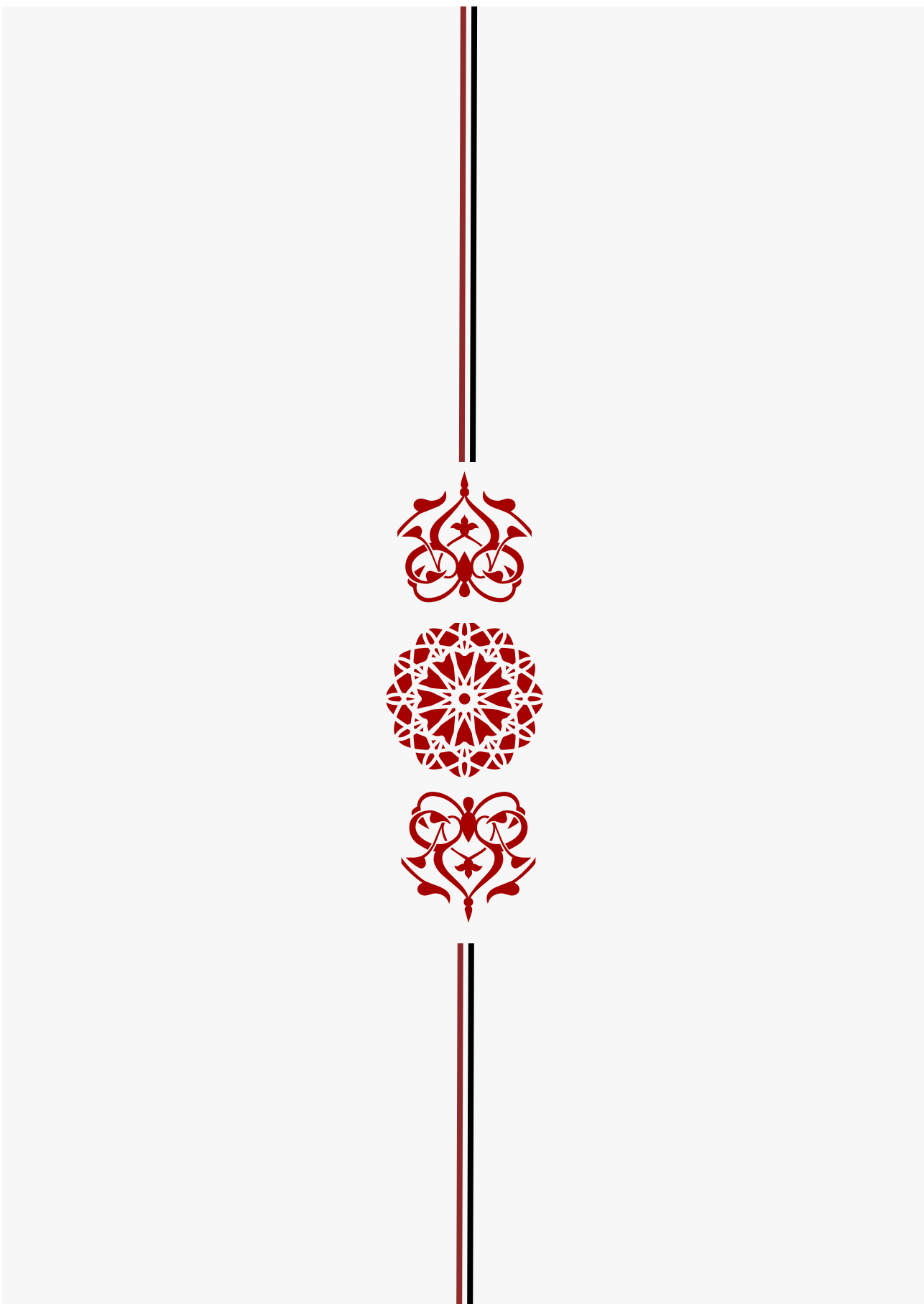
﴿٥٤﴾ ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ﴾ يا محمد، ﴿فِى مِرْيَةٍ﴾ في شك وريب وإعراض، ﴿مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ من البعث والنشور يوم القيامة، ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ من أعمالهم، وأفعالهم، وأقوالهم ﴿مُّحِيطٌ﴾ مطلع ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف:٦٩].

وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ.
تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ فُصِّلَتْ



تَفْسِيرُ سُورَةِ الشُّورَى





سُورَةُ الشُّورَى

مَكِّيَّةٌ، وَآيَاتُهَا ثَلَاثَةٌ وَخَمْسُونَ آيَةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٤ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝٦﴾.

١ ﴿حمٓ﴾.

٢ {عٓسٓقٓ}.

٣ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما أنه أنزل الكتاب، وأرسل الرسل، ﴿يُوحِيٓ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ من الأنبياء والمرسلين كنوح، وإبراهيم، وموسىٰ، وعيسىٰ ومن إليهم، والذي يوحي إليك هو ﴿ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُغلب، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في فعله وأمره علىٰ مقتضىٰ الحكمة، فلا تناقض فيه ولا اختلاف.

٤ ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ملكًا وتصرفًا نهيًا وأمرًا، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ بذاته علىٰ عرشه، كما قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، والأدلة علىٰ ذلك كثيرة، منها قوله تعالىٰ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠]، وقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلىٰ:١]، كما أنه العلي في صفاته، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ:١١]، ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ الواسع الكبير في ذاته وصفاته.

٥ ﴿تَكَادُ﴾ تقرب: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ الطباق الشديدة، ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ يتشققن، ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾ خشيةً لله، وتعظيمًا لشأنه، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ الكرام، ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ ينزهون، ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ ويحمدونه، فيجمعون بين التسبيح فالتحميد، والتسبيح تنزيه عن صفات النقص والعيب، والتحميد إثبات لصفات الكمال، ﴿وَ﴾ هم مع ذلك، ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾ يطلبون المغفرة، ﴿لِمَن

فِي ٱلْأَرْضِ﴾ من المؤمنين، ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ المتجاوز، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ المسدد والموفق لعباده المؤمنين.

٦ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ الكفار ﴿ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ﴾ الأصنام والأوثان، ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ نصراء يعبدونهم ويطيعونهم، ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ حافظ لأعمالهم عالم بأقوالهم وأحوالهم لا تخفىٰ عليه خافية، وسيجازيهم عليها يوم القيامة، ﴿وَمَآ أَنتَ﴾ يا محمد: ﴿عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ بحفيظ ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورىٰ:٤٨].

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

٧ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: كما أوحينا إلىٰ من تقدم، بكتب يقرؤونها ويعملون بها، ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا محمد: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ فيه من العلوم ما جعله أفضل الكتب، والمهيمن عليها، المحفوظ من عبث العابثين، وهو كما قال تعالىٰ: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٥]، سمعه جبريل من الله، وسمعه محمد ﷺ من جبريل، والحكمة من ذلك الإيحاء: ﴿لِّتُنذِرَ﴾ تخوف من بطش الله وعذابه، ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ مكة؛ لأنها كانت أكبر القرىٰ، وهي معظمة في كل ملة، ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من القبائل والبلدان، ﴿وَتُنذِرَ﴾ تخوف، ﴿يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ يوم القيامة، سُمي بيوم الجمع؛ لأن الله يجمع فيه بين العباد ويقضي بينهم، ﴿لَا رَيْبَ﴾ لا شك ﴿فِيهِ﴾ لعلهم يستجيبون لك، فإن كفروا وأعرضوا ضروا أنفسهم، فيكون الناس فيه علىٰ حالين لا ثالث لهما: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ ينعمون، ﴿وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ يعذبون، وهذا أمر مفروغ منه في علم الله عَزَّوَجَلَّ.

ففي حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَفِي يَدِهِ كِتَابَانِ، فَقَالَ: **«أَتَدْرُونَ مَا هَذَانِ الكِتَابَانِ؟»** فَقُلْنَا: لَا يَا رَسُولَ اللهِ إِلَّا أَنْ تُخْبِرَنَا، فَقَالَ لِلَّذِي فِي يَدِهِ اليُمْنَىٰ: **«هَذَا كِتَابٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ فِيهِ أَسْمَاءُ أَهْلِ الجَنَّةِ وَأَسْمَاءُ آبَائِهِمْ**

وَقَبَائِلِهِمْ، ثُمَّ أُجْمِلَ عَلَىٰ آخِرِهِمْ فَلَا يُزَادُ فِيهِمْ وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُمْ أَبَدًا»، ثُمَّ قَالَ لِلَّذِي فِي شِمَالِهِ: «هَذَا كِتَابٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ فِيهِ أَسْمَاءُ أَهْلِ النَّارِ وَأَسْمَاءُ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ، ثُمَّ أُجْمِلَ عَلَىٰ آخِرِهِمْ فَلَا يُزَادُ فِيهِمْ وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُمْ أَبَدًا»، فَقَالَ أَصْحَابُهُ: فَفِيمَ العَمَلُ يَا رَسُولَ اللهِ إِنْ كَانَ أَمْرٌ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ؟ فَقَالَ: «سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، فَإِنَّ صَاحِبَ الجَنَّةِ يُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ وَإِنْ عَمِلَ أَيَّ عَمَلٍ، وَإِنَّ صَاحِبَ النَّارِ يُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ وَإِنْ عَمِلَ أَيَّ عَمَلٍ»، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدَيْهِ فَنَبَذَهُمَا، ثُمَّ قَالَ: «فَرَغَ رَبُّكُمْ مِنَ العِبَادِ فَرِيقٌ فِي الجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ» أخرجه أحمد.

٨ ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ﴾ صيرهم، ﴿أُمَّةً﴾ ملة، ﴿وَٰحِدَةً﴾ لا اختلاف بينهم، ﴿وَلَٰكِن﴾ جعل هذا الاختلاف الواقع بينهم للاختبار والابتلاء، ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ﴾ منهم، ﴿فِي رَحْمَتِهِۦ﴾ وهم أهل الإيمان والإحسان، ويضل من يشاء، فيصير من أصحاب الضلال والغواية، ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الكافرون، ﴿مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ﴾ يعينهم ويتولىٰ شأنهم، ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ينصرهم من دون الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم﴾ [البقرة:٢٥٧]، وولاية الطاغوت قاصرة ضعيفة عاجزة.

٩ ﴿أَمِ﴾ بل ﴿ٱتَّخَذُوا۟﴾ كفار قريش، ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ من دون الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ أصناماً وأوثاناً يعبدونهم ويودونهم ويتقربون إليهم، ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾ الحافظ لعباده ولأعمالهم والناصر والمحب لهم، ﴿وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فيبعثهم من قبورهم يوم القيامة، أو أنه يحيي من مات قلبه وصار كافرًا، فيصبح من المؤمنين، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ﴾ [الأنعام:١٢٢]، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء؛ لكمال علمه وقدرته.

١٠ ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ﴾ من المسائل العلمية أو العملية، ﴿فَحُكْمُهُۥٓ﴾ فالحكم فيه ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلىٰ كتابه وإلىٰ سنة رسوله ﷺ، بعد موته ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ حافظي وناصري، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ اعتمدت، ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أرجع في جميع شؤوني.

١١ وهو سبحانه وتعالىٰ: ﴿فَاطِرُ﴾ خالق، ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ولم يعجزه ذلك، ﴿جَعَلَ﴾ صير وخلق، ﴿لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ مثلكم، ﴿أَزْوَٰجًا﴾ أي: لتسكنوا إليها، وجعل بينكم مودة ورحمة، وجعل منها الأبناء، والذرية إلىٰ غير ذلك من المصالح الحالية والمآلية

﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾ ذكر وأنثىٰ؛ ليستديم النسل، فتأكلوا من لحمها، وتشربوا من لبنها، ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ يخلقكم ويوجدكم: ﴿فِيهِ﴾ أي: في الأرحام ثم تخرجون إلىٰ الأرض.

والله تعالىٰ اسمه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ لا في ذاته، ولا في أسمائه وصفاته، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لمن دعاه، ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ بحال من أطاعه وعصاه.

❁ **وهذه الآية عمدة في باب الأسماء والصفات،** فهي دالة علىٰ إثبات الكمال المقدس لله عَزَّوَجَلَّ من كل وجه، لأنها تضمنت النفي والإثبات.

وقد ضل قوم إذ أخذوا بنفيها، وهم الجهمية والمعتزلة: حيث زعموا أن معنىٰ قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ لا صفات له، بل بلغ الأمر بالجهمية إلىٰ نفي الأسماء والصفات، وهذا ضلال بعيد.

وضل الممثلة حيث أخذوا بإثباتها، فزعموا أن السمع والبصر يلزم منه مشابهة ومماثلة سمع وبصر المخلوقين، وعلىٰ هذا فقس في جميع الصفات التي يذكرونها، وسَلِمَ أهل السنة والجماعة حيث جمعوا بين نفيها وإثباتها، فأثبتوا لله عَزَّوَجَلَّ ما أثبته لنفسه وما أثبته له رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تمثيل ولا تكييف ولا تعطيل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

فمن فهم هذه الآية وتأملها حق التأمل سهل عليه، فهم باب الأسماء والصفات، فله صفات تليق بجلاله، وليس كمثله شيء، فنقول: لله وجه ليس كمثله شيء، وسمع ليس كمثله شيء، وبصر ليس كمثله شيء، ويغضب ليس كمثله شيء، ويرضىٰ ليس كمثله شيء؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ الكامل من كل وجه.

﴿١٢﴾ ﴿لَهُۥ﴾ سبحانه وتعالىٰ: ﴿مَقَالِيدُ﴾ مفاتيح الأرزاق وغيرها في: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ﴾ يوسع، ﴿ٱلرِّزْقَ﴾ العطاء، ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ من عباده، ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يمسك ويقبض عن غيرهم، ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ بمن يوسع له وبمن يقتر عليه، فله الحكمة البالغة والحجة الدامغة ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [سورة الأنبياء:٢٣].

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ١٣ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ١٤ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۡۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۡۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٥﴾.

١٣ ﴿شَرَعَ﴾ بين وسن ﴿لَكُم﴾ يا أهل الإسلام: ﴿مِّنَ الدِّينِ﴾ الملة، ﴿مَا وَصَّىٰ﴾ أمر، ﴿بِهِۦ نُوحًا﴾ وهو أول أنبياء الشريعة إلىٰ أهل الأرض، قال مجاهد أوصيناك وإياه يا محمد ديناً واحداً، ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ من القرآن والسنة كذلك وصية من الله، كما قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام:١٥١]، ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام:١٥٢]، ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣].

﴿وَمَا وَصَّيْنَا﴾ أمرنا، ﴿بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ النبي الكريم، ﴿وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ ابن مريم وهؤلاء الخمسة هم أولوا العزم من الرسل، ذكرهم الله في هذا الموطن، وذكرهم في سورة الأحزاب، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ﴾ [الأحقاف:٣٥]، وهذه الوصية والأمر لهم جميعًا ولأممهم معهم، ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ دين التوحيد، ولا يقام الدين إلا بالإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ، والمتابعة لرسول الله ﷺ.

والدين الذي جاءت به الرسل وأنزلت به الكتب هو عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا﴾ تتحزبوا وتبتدعوا: ﴿فِيهِ﴾ والواقع الذي حصل من الأمم ما دل عليه حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ إِحْدَىٰ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَافْتَرَقَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً»** اخرجه أبو داود. نسأل الله السلامة والعافية، ولم يسلم منهم إلا من سلك سبيل النبي ﷺ، علىٰ منهج السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين، فهم الفرقة الناجية الطائفة المنصورة، حققوا الاعتصام بالدين

كما أمر الله وشرع ووصىٰ، ولا يكون ذلك إلا بأخذ الدليل، فيه العصمة، وما سواه سبب للفتنة، كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

﴿كَبُرَ﴾ عَظُمَ، ﴿عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الكافرين، ﴿مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ من التوحيد والإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنهم كانوا يعبدون آلهة كثيرة، فإذا قيل لهم: اعبدوا الله وحده تعجبوا من ذلك وتعاظموه وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥]، ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ﴾ يصطفي، ﴿إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾ من عباده ممن علمه أهلًا لذلك، ﴿وَيَهْدِىٓ﴾ يوفق، ﴿إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ من يرجع ويتوب من الذنوب.

١٤ ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟﴾ تحزبوا أي: اليهود والنصارىٰ، ومن إليهم من أهل البدع والأهواء، ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ وقامة عليهم الحجة، وكان تفرقهم: ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ بسبب بغيهم وتجاوزهم علىٰ بعضهم، إذ لم يلتزموا شرع الله بالتحاكم إلىٰ كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ﴾ كونية، ﴿سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ في تأخير العذاب، ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو يوم القيامة، ﴿لَّقُضِىَ﴾ فُصِلَ، ﴿بَيْنَهُمْ﴾ وعُجلت لهم العقوبة في الدنيا، ﴿وَإِنَّ﴾ الجيل المتأخر، ﴿ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد من تقدمهم وقلدوهم، ﴿لَفِى شَكٍّ﴾ ريب وحيرة، ﴿مِّنْهُ﴾ من الدين والإيمان، لكثرة اختلافهم علىٰ أنبيائهم، ﴿مُرِيبٍ﴾ عجيب؛ فلذلك ينبغي للمسلم أن يكون متمسكًا بالكتاب والسنة، بعيدًا عن البدعة والجدال والخصومات.

١٥ ﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ الطريق الذي شرعه الله لنوح، وإبراهيم، وموسىٰ، وعيسىٰ ولك يا محمد: ﴿فَٱدْعُ﴾ الناس إلىٰ طاعة الله عَزَّوَجَلَّ والتزام شرعه، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥]، ﴿وَٱسْتَقِمْ﴾ أنت في نفسك ومن تاب معك علىٰ عبادة الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَمَآ أُمِرْتَ﴾ أمرك الله، فإذا كان النبي ﷺ يؤمر بالاستقامة فكيف بنا نحن الذين كثرت مخالفاتنا، وضعف يقيننا، وقلت أعمالنا.

❁ وفيه: أن الاستقامة لا تكون إلا علىٰ أمر الله، فمن أراد أن يستقيم علىٰ هواه أو علىٰ فكره أو علىٰ طريقه ضل.

﴿وَلَا تَتَّبِعْ﴾ لا تتابع: ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ ميل نفوسهم في تحليل الحرام وتحريم الحلال والابتداع في دين الله عَزَّوَجَلَّ، فإن الهوىٰ سبب الإشراك والبدعة والضلالة، ﴿وَقُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ وهو القرآن، وما أنزل من الكتب المتقدمة، ﴿وَأُمِرْتُ﴾ أمرني الله، ﴿لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ في حال الخصومة، ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ فيجب علينا أن نعبده جميعًا، لا إله غيره، فإن أعرضتم ﴿لَنَا أَعْمَٰلُنَا﴾ فنجازىٰ عليها، ﴿وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ تجازون عليها، كقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١].

❁ النَّسْخُ: وقيل في هذه الآية أنها منسوخة بآية السيف.

﴿لَا حُجَّةَ﴾ لا خصام ولا جدال، ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ بعد أن تبين الحق، مع أن سلطان النبي ﷺ ظاهر قاهر لكن هذا من باب المناظرة لهم، ﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ يوم القيامة فيقضي بالحق وهو خير الحاكمين، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [سبأ: ٢٦]، ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾، وإليه الرجوع، فيجازىٰ كل عاملٍ بعمله.

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾.

﴿١٦﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ﴾ يجادلون المؤمنين، ﴿فِى ٱللَّهِ﴾ وفي كتابه، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ﴾ استجاب الناس لدعوته، ﴿حُجَّتُهُمْ﴾ مجادلتهم، ﴿دَاحِضَةٌ﴾ باطلة، ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ فجدالهم مهزوم، وراجع إليهم، ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ من الله عَزَّوَجَلَّ بسبب جدالهم بالباطل، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ موجع يوم القيامة.

﴿١٧﴾ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآن، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الصدق الثابت، ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ العدل الذي لا ظلم فيه، ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ يا محمد: ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ القيامة ﴿قَرِيبٌ﴾ شأنها إذ أن الكفار كانوا يستعجلونها.

(١٨) وإنما ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا﴾ بالساعة ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ بسبب تكذيبهم وشكهم وريبهم ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ وانقادوا لمحمد ﷺ، ﴿مُشْفِقُونَ﴾ خائفون: ﴿مِنْهَا﴾ من الساعة لعلمهم أن فيها من الأهوال والعذاب والشدة ما الله به عليم، ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ الذي أخبر الله عَزَّوَجَلَّ به، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ [الحجر:٨٥]، ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ﴾ يجادلون ويشكون: ﴿فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلٍ﴾ هلاك وجهل، ﴿بَعِيدٍ﴾ سحيق؛ وذلك أنهم لم يؤمنوا بقرآن ولا سنة.

(١٩) ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ برٌ رفيقٌ عليهم وبهم، فيلطف بهم بحيث: يعينهم، ويؤيدهم، وينصرهم، ومن لطفه بهم: إرسال الرسل وإنزال الكتب، ومن لطفه بهم: التوفيق والإعانة والتسديد، ومن لطفه بهم: إنزال المطر والرزق، ولطف الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ عباده واسع، ﴿يَرْزُقُ﴾ يعطي ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من برهم وفاجرهم، ومؤمنهم وكافرهم هذا من حيث الرزق العام الذي هو الطعام والشراب وما إليه، وأما الرزق الخاص الذي هو الهدىٰ والتقىٰ فهو خاص بالمؤمنين، ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِيُّ﴾ الذي لا يعجز، ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلب.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِي حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّٰتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾.

(٢٠) ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ﴾ يطلب بعمله ﴿حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ ثوابها الموعود، ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِي حَرْثِهِۦ﴾ يقبل الله عَزَّوَجَلَّ منه ويزيد له الحسنة بعشر أمثالها، كما قال تعالىٰ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وعن أبي سَعِيدٍ الخُدْرِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: **« إِذَا أَسْلَمَ العَبْدُ فَحَسُنَ إِسْلاَمُهُ، يُكَفِّرُ اللهُ عَنْهُ كُلَّ سَيِّئَةٍ كَانَ زَلَفَهَا، وَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ القِصَاصُ: الحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَىٰ سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ، وَالسَّيِّئَةُ بِمِثْلِهَا إِلَّا أَنْ يَتَجَاوَزَ اللهُ عَنْهَا »** أخرجه البخاري.

﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾ عمله ورغبته من أجل الدنيا ولم يقدم للآخرة: ﴿نُؤْتِهِۦ﴾ نعطه، ﴿مِنْهَا﴾ نصيبه وحظه من الدنيا بقدر ما عمل من أجله، ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ من حظ، وفي حديث أُبيّ بن كعب: **«بَشِّرْ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِالسَّنَاءِ وَالرِّفْعَةِ فِي الدِّينِ، وَالنَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ فِي الْأَرْضِ، فَمَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ عَمَلَ الْآخِرَةِ لِلدُّنْيَا، لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الْآخِرَةِ نَصِيبٌ»** أخرجه أحمد.

وعن يعلىٰ بن أمية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أَذن رسولُ الله ﷺ بالغزو وأنا شيخٌ كبيرٌ، ليس لي خادمٌ، فالتمستُ أجيراً يكفيني وأُجْري له سَهْمَه، فوجدتُ رجلاً، فلما دنا الرحيلُ أتاني، فقال: ما أدري ما السُّهْمانُ، وما يبلغُ سَهمي؟ فسَمِّ لي شيئًا كان السهمُ أو لم يكن، فسمّيتُ له ثلاثةَ دنانيرَ، فلما حضرتْ غنيمتُه أردتُ أن أُجريَ له سهمَه، فذكرتُ الدنانيرَ، فجئتُ النبيَّ ﷺ فذكرتُ له أَمرَه، فقال: **«ما أجِدُ له في غزوته هذه في الدنيا والآخرةِ، إلا دنانيرَه التي سمَّىٰ»** أخرجه أبو داود (٢٥٢٧).

﴿أَمْ لَهُمْ﴾ للكفار يا محمد، ﴿شُرَكَٰٓؤُا﴾ لله عَزَّوَجَلَّ في ملكه أو في خلقه أو في عبادته، ﴿شَرَعُوا۟﴾ سنوا وفرضوا ﴿لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ الطريقة والملة ﴿مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ ما لم يأمر الله به.

وهذه الآية رد علىٰ أهل البدع، وأن أي شرع لم يأتِ من الله فليس بشرع وصاحبه علىٰ خطر عظيم، ففي الصحيحين عن أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ لُحَيِّ بْنِ قَمْعَةَ بْنِ خِنْدِفَ أَبَا بَنِي كَعْبٍ هَؤُلَاءِ، يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ»** وهو أول من سيب السوائب، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾ الحكم في تأخير العذاب إلىٰ يوم القيامة، ﴿لَقُضِىَ﴾ حكم وفصل، ﴿بَيْنَهُمْ﴾ في الدنيا فيما كانوا فيه يختلفون، ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ موجع.

﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾ خائفين وجلين، ﴿مِمَّا كَسَبُوا۟﴾ عَمِلوا، ﴿وَهُوَ﴾ العذاب، ﴿وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ نازل بهم لا يستطيعون الفرار منه، ولا التحول عنه، ولا دفعه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ﴾ محاسن وملذات ﴿ٱلْجَنَّٰتِ﴾ البساتين جُمِعت لكثرة الجنان التي تكون لكل عبد علىٰ حدته، ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ﴾ من الأطعمة والألبسة وأنواع التنعم من تبعل وغيره، ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى

جَنَّٰتِ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۢ﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥]، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ﴾ الخير، ﴿ٱلۡكَبِيرُ﴾ الواسع الذي يعطيه الله عَزَّوَجَلَّ لعباده المؤمنين.

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۚ وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿٢٣﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الفضل ﴿ٱلَّذِي﴾ ذكره الله، ﴿يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، فتجد أن القرآن نزل بالبشارة والنذارة، ﴿قُل﴾ لهم يا محمد: ﴿لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾ أطلبكم ﴿عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾ ثوابًا في تبليغي للقرآن والسنة، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص:٨٦]، ﴿إِلَّا﴾ أن الذي أطلبه منكم ﴿ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ أن تحفظوا قرابتي وتودوني وتصلوا رحمي، وجاء عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَىٰ مَا أَتَيْتُكُمْ بِهِ مِنَ البَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ أَجْرًا، إِلَّا أَنْ تَوَادُّوا اللهَ، وَأَنْ تَقَرَّبُوا إِلَيْهِ بِطَاعَتِهِ**»، قال ابن كثير: وهذا قول حسن.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [الشورىٰ: ٢٣]- فَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: قُرْبَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: عَجِلْتَ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَكُنْ بَطْنٌ مِنْ قُرَيْشٍ، إِلَّا كَانَ لَهُ فِيهِمْ قَرَابَةٌ، فَقَالَ: «**إِلَّا أَنْ تَصِلُوا مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مِنَ القَرَابَةِ**».

﴿وَمَن يَقۡتَرِفۡ﴾ يعمل، ﴿حَسَنَةٗ﴾ طاعة ﴿نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ﴾ بالتضعيف، كما قال تعالىٰ: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠]، ﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٞ﴾ لعباده متجاوز عنهم، ﴿شَكُورٞ﴾ يُضاعف لهم الأعمال، فالحسنة بعشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف؛ فهو سبحانه الشكور الشاكر.

﴿٢٤﴾ ﴿أَمۡ﴾ بل ﴿يَقُولُونَ﴾ أي: الكفار، ﴿ٱفۡتَرَىٰ﴾ اختلف ﴿عَلَى اللهِ كَذِبٗا﴾ هذا القرآن، ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ﴾ يطبع ﴿عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ لو كان الأمر كما يقولون ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ﴾ يزيل ﴿ٱلۡبَٰطِلَ﴾، وهذا كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة:٤٤-٤٧].

وبهذه الآية استدل العلماء علىٰ صدق الرسل، فإن من ادعىٰ النبوة والرسالة وهو كاذب يعاجله الله بعقوبة تُظهر فساد أمره، بينما رسل الله عَزَّوَجَلَّ يبقىٰ أحدهم يدعو إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ وإلىٰ توحيده وربنا عَزَّوَجَلَّ يمكنه وينصره ويسدده ولا يخذله، فهذا دليل علىٰ صدق نبوته.

﴿وَيُحِقُّ﴾ يظهر: ﴿ٱلْحَقَّ﴾ الدين، ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ القدرية الكونية والشرعية، ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ لا تخفىٰ عليه خافية، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

﴿٢٥﴾ ﴿وَهُوَ﴾ تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ﴾ ممن عاد وأناب ورجع إلىٰ ربه، ﴿عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ من عباده المؤمنين المخبتين، ومن لازم التوبة: الإخلاص، والمتابعة، والإقلاع عن الذنب، والندم علىٰ عدم العود، بل إنه تعالىٰ يفرح لتوبة عبده، فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: **«لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ إِذَا اسْتَيْقَظَ عَلَىٰ بَعِيرِهِ، قَدْ أَضَلَّهُ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ»** أخرجه مسلم، وعَنْ أَبِي مُوسَىٰ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: **«إِنَّ اللهَ** عَزَّوَجَلَّ **يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّىٰ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»** أخرجه مسلم.

﴿وَيَعْفُوا۟﴾ يتجاوز ويصفح: ﴿عَن ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ ممن تاب وأناب وهكذا من مات من أهل التوحيد ولم يتب فعسىٰ أن تناله الشفاعة، فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ يقول: **«شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»** أخرجه الترمذي، عَنْ أَبِي مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«خُيِّرْتُ بَيْنَ الشَّفَاعَةِ وَبَيْنَ أَنْ يَدْخُلَ نِصْفُ أُمَّتِي الْجَنَّةَ، فَاخْتَرْتُ الشَّفَاعَةَ، لِأَنَّهَا أَعَمُّ وَأَكْفَىٰ، أَتُرَوْنَهَا لِلْمُتَّقِينَ؟ لَا، وَلَكِنَّهَا لِلْمُذْنِبِينَ الْخَطَّائِينَ الْمُتَلَوِّثِينَ»** أخرجه ابن ماجه.

﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أي عالم بجميع ما فعلتم.

﴿٢٦﴾ ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: يستجيب الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات دعاءهم ورجاءهم، ﴿وَيَزِيدُهُم﴾ علىٰ ما سألوه ﴿مِّن فَضْلِهِۦ﴾ يسألونه الشيء فيعطيهم أضعاف ما يسألون، ويصرف عنهم كثيراً مما لم يستعيذوا منه، ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ﴾ المعرضون الملحدون، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ موجع يوم القيامة.

﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾.

﴿٢٧﴾ ﴿وَلَوْ بَسَطَ﴾ وسع ﴿ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ﴾ العطاء وأعطاهم فوق حاجتهم، ﴿لِعِبَادِهِۦ﴾ المؤمنين والكافرين؛ لأن الرزق العام يُعطيه الله عَزَّوَجَلَّ للمؤمن والكافر والبر الفاجر، ﴿لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من البغي: وهو التجاوز، فيبغي بعضهم علىٰ بعض، بالقتل والخصومة ونحوها، ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ﴾ من الرزق، ﴿بِقَدَرٍ﴾ بتقدير ﴿مَّا يَشَآءُ﴾ مما فيه صلاحهم، وينزل الماء بقدر فتنبت به الثمار وتجري به الزروع ويقع به نفع، ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ﴾ عليم بأحوالهم الظاهرة والباطنة، ﴿بَصِيرٌ﴾ بأفعالهم.

﴿٢٨﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ المطر الذي يغيث الله به البلاد والعباد بعد قحط وجدب، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ يأسوا من نزوله، ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ أي: المطر والنعمة بين العباد، فعن عَائِشَةَ، زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ، تَقُولُ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا كَانَ يَوْمُ الرِّيحِ وَالْغَيْمِ، عُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، وَأَقْبَلَ وَأَدْبَرَ، فَإِذَا مَطَرَتْ سُرَّ بِهِ، وَذَهَبَ عَنْهُ ذَلِكَ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ: **«إِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ عَذَابًا سُلِّطَ عَلَىٰ أُمَّتِي»**، وَيَقُولُ، إِذَا رَأَىٰ الْمَطَرَ: **«رَحْمَةٌ»** أخرجه مسلم، ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ للمؤمنين المكرم والمعز لهم، ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ في صفاته العظيمة.

﴿٢٩﴾ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ دلائل قدرته العظيمة: ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ العظيمات المرتفعات، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ الواسعة المبسوطة، ﴿وَمَا بَثَّ﴾ فرق ونشر ﴿فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ مما يدب من الحيوان والإنسان والطير وغير ذلك، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ يوم القيامة، ﴿إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء، كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة:١٣-١٥]، وقال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾[النازعات:١٣-١٤].

(٣٠) ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ﴾ فقرٍ أو محنةٍ، ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ بذنوبكم وأعمالكم السيئة، ﴿وَيَعْفُواْ﴾ يتجاوز ويصفح: ﴿عَن كَثِيرٍ﴾ من الذنوب والمعاصي، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر:٤٥].

(٣١) ﴿وَمَا أَنتُم﴾ يا معاشر الكفار، ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ بفائتين وهاربين: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ لأنهم لا ملجأ لهم من الله أين المفر والإله الطالب؟ ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ يحفظكم ويدافع عنكم، ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يعينكم، فمن كان الله وليه فهو المحفوظ المنصور، ومن كان وليه الشيطان فهو المقطوع المبتور.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

(٣٢) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾ دلائل قدرته الكونية العظيمة: ﴿الْجَوَارِ﴾ السفن، ﴿فِي الْبَحْرِ﴾ الخضم، ﴿كَالْأَعْلَامِ﴾ الجبال المرتفعة، ولا سيما في هذا الزمان تشاهد السفن في البحر كالجبل العظيم المرتفع تجوبه، وتمخر فيه محملة بآلاف الأطنان مما يستفيده الإنسان، من الذي أجراها؟ ومن الذي سخر لها البحر الخضم؟ هو الله عَزَّوَجَلَّ.

(٣٣) ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ﴾ يوقف ﴿الرِّيحَ﴾ حتىٰ لا يحرك الموج، ﴿فَيَظْلَلْنَ﴾ تبقىٰ السفن، ﴿رَوَاكِدَ﴾ واقفات، ﴿عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ لا حركة لها، وحتىٰ هذه السفن التي تشتغل بالمحركات لو توقفت أمواج البحر كم عساها تمشي؟ وتتحرك؛ لكن جعل الله عَزَّوَجَلَّ أمواج البحر لا سيما المحيطات والأعماق كالجبال المرتفعات فتساعد السفن في حركتها، وفي الزمن القديم كانت السفن تمشي بالريح والأشرعة، فلو توقفت الريح وقفت السفينة، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ علامات بينات واضحات علىٰ أقدار الله، ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ صبور علىٰ الطاعة، وما ينوب الإنسان، ﴿شَكُورٍ﴾ علىٰ النعم، وهذا لا يكون إلا المؤمن، فعن صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»** أخرجه مسلم.

(٣٤) ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ يهلكهن ويدمرهن بالغرق، ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ بذنوبهم، ﴿وَيَعْفُ﴾ يصفح ويتجاوز: ﴿عَن كَثِيرٍ﴾ من الذنوب والمعاصي.

(٣٥) ﴿وَيَعْلَمَ﴾ وفي قراءة: وَيَعْلَمُ، ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ يخاصمون بالباطل، ﴿فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ الشرعية، وهو القرآن والسنة يبطلوها، ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ من فوات ولا سلامة ولا مهرب من بطش الله ونقمته.

(٣٦) ﴿فَمَآ أُوتِيتُم﴾ أعطيتم ﴿مِّن شَىْءٍ﴾ تتمتعون به من المآكل، والمشارب، والمناكح، ﴿فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ثم هو زائل ونافد لا بقاء له، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ محفوظ في يوم ينتفع به العبد، لكنه لا يكون إلا ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ انقادوا وبادروا بعمل الصالحات والبعد عن السيئات ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يعتمدون، أي: أن أعمال المؤمنين محفوظة لهم، بخلاف أعمال الكافرين فإن الله عَزَّوَجَلَّ يحيلها هباءً منثورًا.

﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾.

(٣٧) ﴿وَالَّذِينَ﴾ من شأنهم أنهم: ﴿يَجْتَنِبُونَ﴾ يبتعدون عن: ﴿كَبَٰٓئِرَ﴾ الكبائر وهي ما توعد عليه بنار أو لعنة أو حرمان من جنة أو كان عليه حد أو براءة من صاحبه، ومن ترك الكبائر كفر الله عنه الصغائر، ومن لازم الكبائر أُوخذ بالكبائر والصغائر إلا أن يعفو الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال تعالىٰ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: **«الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمْعَةُ إِلَىٰ الْجُمْعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَىٰ رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ»** أخرجه مسلم.

﴿الإِثْمِ﴾ الذنوب مثل القتل ونحوه، ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ الزنا واللواط، ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟﴾ علىٰ غيرهم لسبب أو لآخر: ﴿هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ يصفحون ويتجاوزون، وكان النبي ﷺ لا يغضب إلا أن تنتهك حرمة الله فيغضب لله عَزَّوَجَلَّ، وهذه كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

(٣٨) ﴿وَ﴾ من شأنهم أيضًا أنهم: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ انقادوا وأجابوا داعي الله، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ المفروضة، ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ يتشاورون، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران:١٥٩]، حتىٰ يصلوا إلىٰ الرأي الصائب والقول المتعين الواجب، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ أعطيناهم، ﴿يُنفِقُونَ﴾ يتصدقون في أوجه الخير والبر.

(٣٩) ﴿وَ﴾ من شأنهم أيضًا أنهم: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ﴾ نزل بهم: ﴿الْبَغْيُ﴾ من غيرهم: ﴿هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ لأنفسهم بمثل ما بُغِيَ عليهم لا يتجاوزون ذلك ولا يظلمون.

(٤٠) ﴿وَجَزَاءُ﴾ عقوبة المسيء بـ﴿سَيِّئَةٍ﴾ كالقتل ونحوه يُصاب به الإنسان، ﴿سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ من غير زيادة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩]، ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥] وليس المراد بالسيئة هنا الذنب، وإنما المراد بالسيئة المجازاة القاتل يُقتل، والسارق تُقطع يده.

﴿فَمَنْ عَفَا﴾ عن ظالمه، ﴿وَأَصْلَحَ﴾ بعفوه، فإذا كان العفو لا صلاح فيه فهو عفو فاسد، فلو أن رجلًا قتل آخر ثم قال لك: أخطأت وأغواني الشيطان وزللت، وقد عُلِمَ أنه ليس بلاج في هذا الباطل، فهذا يعفىٰ عنه بينما لو كان لاجًا في باطله فلا يجوز أن يُعفىٰ عنه؛ لأنه عفو لا صلاح فيه، ﴿فَأَجْرُهُ﴾ ثوابه العظيم الواسع إذ لم يحد بمقدار، ﴿عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ المعتدين.

❁ **قال العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند هذه الآية كما في شرح رياض الصالحين (١/ ١٨٠):**

"وفي هذه الآية حثٌّ علىٰ صبر الإنسان علىٰ أذية الناس، ومغفرته لهم ما أساؤوا إليه فيه؛ ولكن ينبغي أن يعلم أن المغفرة لمن أساء إليك ليست محمودة علىٰ الإطلاق؛ فإن الله تعالي قيد هذا بأن يكون العفو مقرونًا بالإصلاح فقال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورىٰ: ٤٠]، أما إذا لم يكن في العفو والمغفرة إصلاح فلا تعف ولا تغفر.

مثال ذلك: لو كان الذي أساء إليك شخصًا معروفًا بالشر والفساد، وأنك لو عفوت عنه لكان في ذلك زيادة في شره.

ففي هذه الحال الأفضل أن لا تعفو عنه، بل تأخذ بحقك من أجل الإصلاح، أما إذا كان الشخص إذا عفوت عنه لم يترتب علىٰ العفو عنه مفسدة؛ فإن العفو أفضل؛ لأن الله يقول: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورىٰ:٤٠]".اهـ.

٤١ ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ﴾ من المؤمنين المبغىٰ عليهم، فأخذ حقه ﴿بَعْدَ ظُلْمِهِۦ﴾ من ظالمه من غيرزيادة وتجاوز: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ مؤاخذة، بشرط عدم التجاوز، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«الْمُسْتَبَّانِ مَا قَالَا فَعَلَىٰ الْبَادِئِ، مَا لَمْ يَعْتَدِ الْمَظْلُومُ»** اخرجه أبو داود.

٤٢ ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾ المؤاخذة: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ بالقتل والضرب والنهب وغير ذلك ﴿وَيَبْغُونَ﴾ أي: يتجاوزون، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ بغير وجه شرعي يبيح لهم ذلك ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدنيا والآخرة.

٤٣ ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ علىٰ المظلمة، ﴿وَغَفَرَ﴾ تجاوز، مع شدة ذلك علىٰ النفس وحبها للانتصار والانتصاف، لكنه فعل ذلك العفو والتجاوز، طاعة لله ورجاء لثوابه وخوفًا من عقابه، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الصبر والتجاوز، ﴿لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ من الأمور التي لا ينالها إلا أصحاب العزائم والهمم القوية، وهي دليل علىٰ قوة بأس، ورباطة جأش لدىٰ المظلوم.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾.

٤٤ ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ يزيغه عن الهدىٰ، ﴿فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ﴾ ناصر، ﴿مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ ينصره من الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يوم القيامة والنار أمامهم، ﴿يَقُولُونَ﴾ لربهم ﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ﴾ رجوع، ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾ من طريق، كما قال تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠١].

٤٥ ﴿وَتَرَىٰهُمْ﴾ الكافرين يوم القيامة: ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ علىٰ النار، ﴿خَٰشِعِينَ﴾ ذليلين منكسرين، ﴿مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ الذي تسلط عليهم بسبب كفرهم وعنادهم وبغيهم.

﴿يَنظُرُونَ﴾ بأعينهم ﴿مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ نظرة خفية خوفًا من النار، وما هم فيه من الخزي والعار، وقيل: بأنهم ينظرون بقلوبهم؛ لأنهم عمي كما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه:١٢٤].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ في ذلك اليوم: ﴿إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ حقًا، ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين ﴿فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ دائم مستمر.

﴿٤٦﴾ ﴿وَمَا كَانَ لَهُم﴾ في ذلك اليوم: ﴿مِّنْ أَوْلِيَآءَ﴾ نصراء وأحبه، ﴿يَنصُرُونَهُم﴾ يدفعون عنهم ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ما هم فيه من العذاب والهوان ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ بسبب كفره وبعده، ﴿فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ طريق للنجاة ولا مهرب ولا خلاص.

﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿٤٧﴾ فإن أردتم السلامة من هذه الأهوال فـ ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم﴾، أجيبوا محمداً ﷺ في دعواتكم إلىٰ عبادة ربكم ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ﴾ القيامة ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ لا يستطيع أحد علىٰ دفعه، ﴿مَا لَكُم﴾ في ذلك اليوم، ﴿مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ﴾ مكان تلتجؤون وتختفون فيه، ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ من نصير ومنكر يغير ما يلحقكم، فقد صاروا عاجزين لا مأوىٰ يأويهم، ولا من يدافع عنهم.

﴿٤٨﴾ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟﴾ عن دعوتك يا محمد وأبوا الدخول في الإسلام، ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ شاهدًا محاسبًا حافظًا لأعمالهم، ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ والنذارة لا الهداية والتوفيق، كما قال تعالىٰ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية:٢١-٢٢]، وقال: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الأعلى:٩]، وقال: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا﴾ أصبنا ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ أي: جنس الإنسان في الدنيا: ﴿مِنَّا رَحۡمَةٗ﴾ رزقًا حسنًا أو صحةً أو مطرًا: ﴿فَرِحَ بِهَا﴾ واستبشر، ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ﴾ من قحط ومرض وغيره: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ بذنوبهم، ﴿فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ﴾ جحود يعدد المصائب، وينسىٰ النعم، يعني: إن أعطاه الله عَزَّوَجَلَّ لم يشكر، وإن منعه الله عَزَّوَجَلَّ كان متسخطًا معترضًا، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ٢١ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ٢٢﴾ [المعارج:١٩-٢٢].

٤٩ ﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ المُلك المُطلق الذي لا يُشاركه فيه شيء، ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ من بني الإنسان، ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ يعني: أن الناس ينقسمون من حيث الأبناء إلىٰ أربعة أقسام: من يرزقه الله ذكورًا، ومن يرزقه الله إناثًا، ومن يرزقه الله إناثًا وذكورًا، وهو قوله: ﴿أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا﴾، ومن يكون عقيمًا.

ومن فسرها بالخاص قال: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا﴾ لوط عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ، ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ .

٥٠ ﴿أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗا﴾ محمد ﷺ حيث رزقه الأبناء والبنات، ﴿وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ﴾ كعيسىٰ ويحيىٰ، ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٞ﴾ بعباده، ﴿قَدِيرٞ﴾ علىٰ كل شيء، لا يعجزه شيء.

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ٥١ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ٥٣﴾.

٥١ ولما قال المشركون: ﴿لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞ﴾ [البقرة:١١٨]، ردَّ الله عليهم بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ ممن أرسلهم الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا﴾ يوحي إليه أمرًا فيستقر في نفسه أنه من الله فعن حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: **«إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي أَنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّىٰ تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ»** أخرجه البزار.

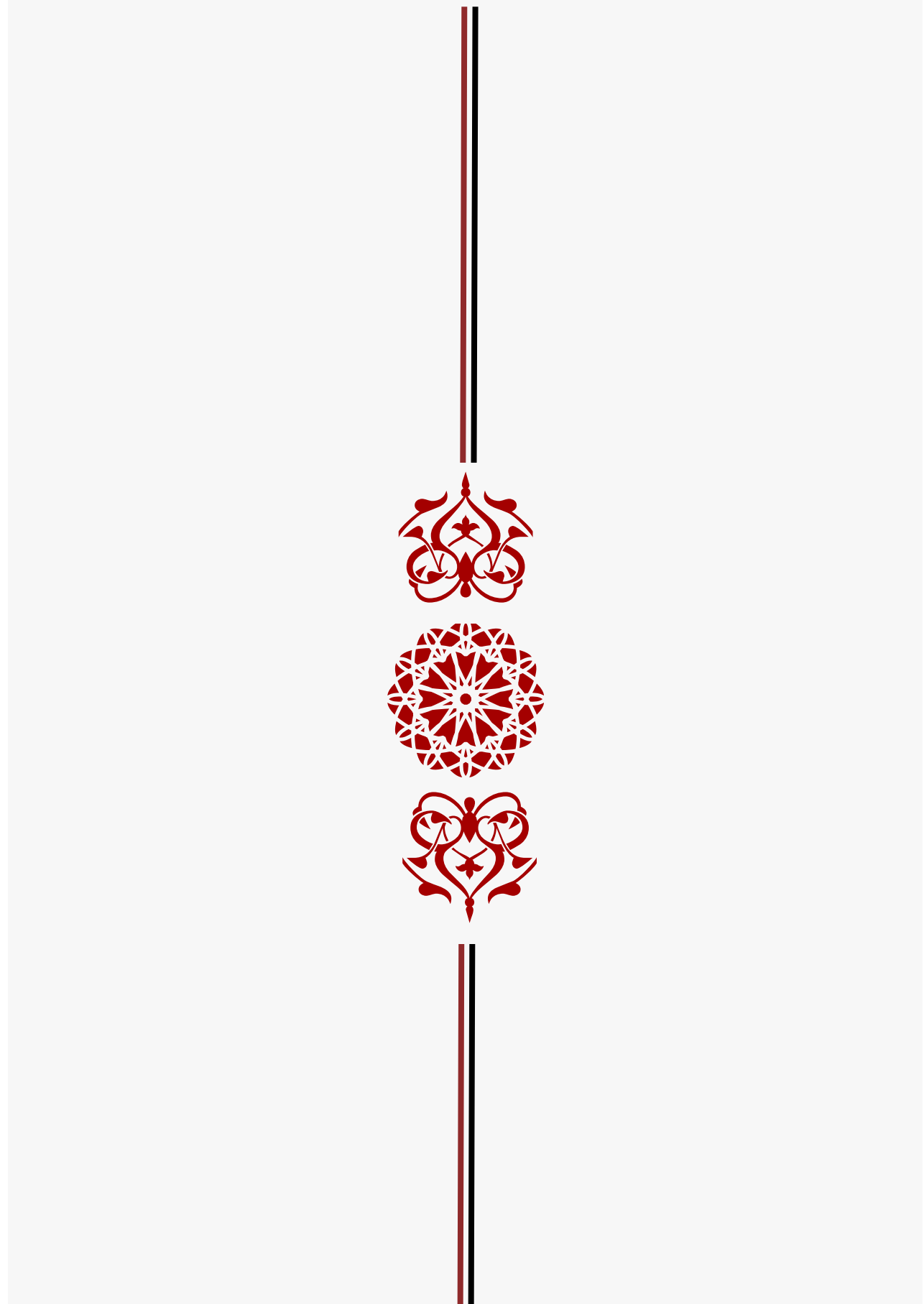
﴿أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ كما كلم الله عَزَّوَجَلَّ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ من الملائكة كجبريل حيث أُنزل علىٰ محمد ﷺ، ﴿فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ أي: ينزل ما شاء الله عَزَّوَجَلَّ من الوحي نذارة وبشارة، ﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ﴾ علىٰ عرشه وفي أسمائه وذاته، ﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله.

٥٢ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ يا محمد، ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ كما أوحينا إلىٰ الذين من قبلك: ﴿رُوحًا﴾ وهو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقيل: القرآن، ﴿مِّنْ أَمْرِنَا﴾ أي: بأمرنا بقول الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى﴾ قبل إرسال جبريل إليك، ﴿مَا ٱلْكِتَٰبُ﴾ القرآن، ﴿وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ الأعمال الصالحة، مع أن كل نبي كان علىٰ شريعة من قبله يعبد الله عَزَّوَجَلَّ بالتوحيد.

فالنبي ﷺ كان يتعبد لله عَزَّوَجَلَّ بدين إبراهيم وكان موحدًا ولم يكن في يوم مشركًا ولا منددًا، ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ﴾ أي: الوحي، ﴿نُورًا﴾ يُستضاء به، ﴿نَّهْدِى﴾ نوفق، ﴿بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ ممن علمه أهلًا للهداية، ﴿وَإِنَّكَ﴾ يا محمد، ﴿لَتَهْدِىٓ﴾ تدل وترشد: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ﴾ طريقٍ، ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾ قويم.

٥٣ ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ طريق الله ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ ترجع يوم القيامة، فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء إساءته، وهكذا في الدنيا ترجع الأمور إلىٰ ما قدره الله عَزَّوَجَلَّ وقضاه، لا يمكن لأحد أن يقدم أو يؤخر.

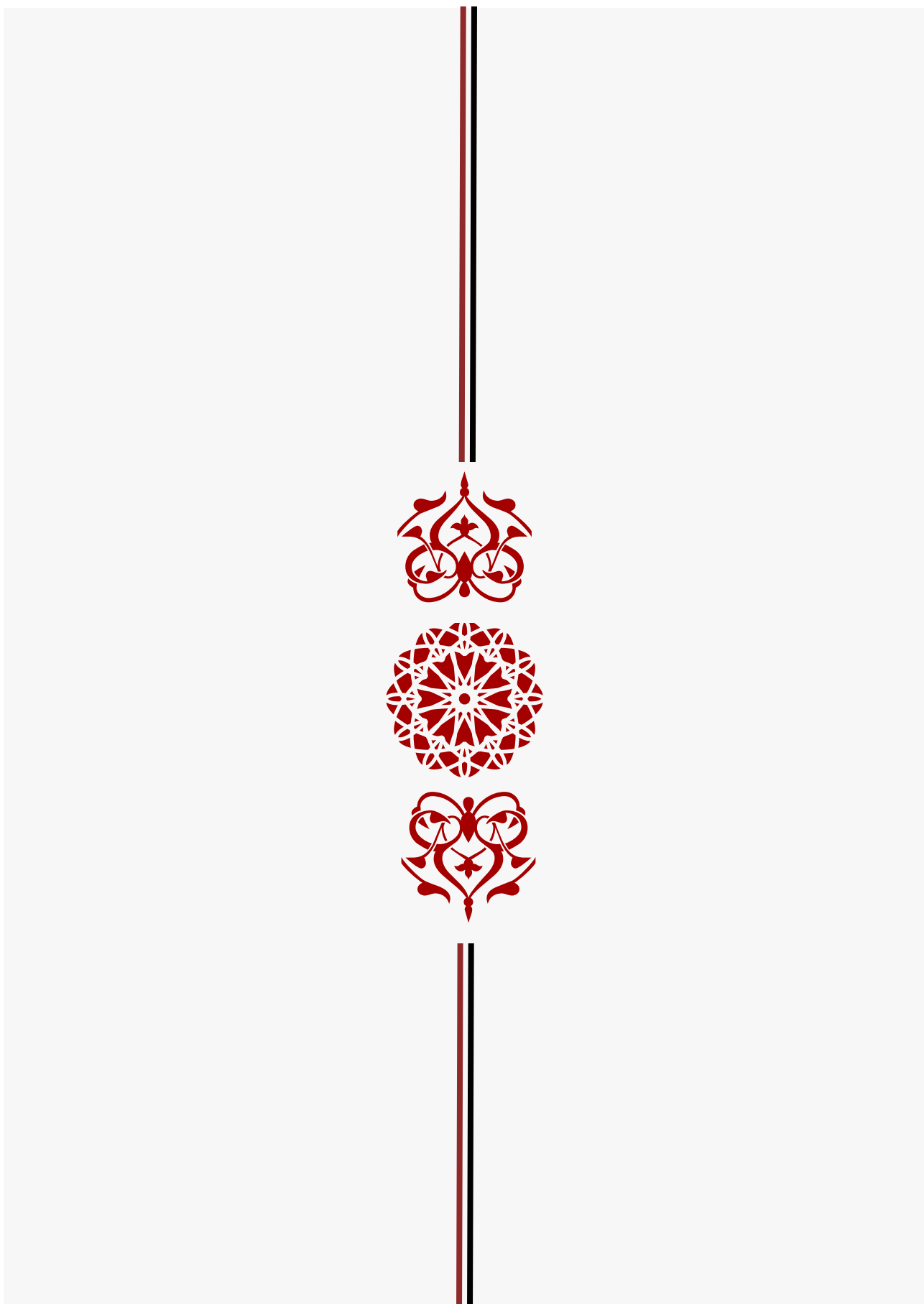
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.
تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الشُّورَى





تَفْسِيرُ سُورَةِ الزُّخْرُفِ





سُورَةُ الزُّخْرُفِ

مَكِّيَّةٌ، وَآيَاتُهَا تِسْعَةٌ وَثَمَانُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾.

١ ﴿حمٓ﴾.

٢ ﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾ القرآن، ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ الوضح البين في ألفاظه ومعانيه.

٣ فـ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ﴾ صيرناه، وقيل بيناه، وقيل وصفناه ﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ أي: أنزله الله بلسان عربي مبين، ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أمر الله، فتستجيبون لأمره، وتنتهون عن نهيه وزجره.

وقد استدل المبتدعة من المعتزلة وغيرهم بهذه الآية: على أن القرآن مخلوق، واستدلالهم باطل.

فإن القرآن كلام الله غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود، تكلم الله عَزَّوَجَلَّ به حقيقةً وسمعه منه جبريل، ثم بلغه جبريل محمدًا عليه الصلاة والسلام، وجَعَلَ إما أن تنصب مفعولين أو تنصب مفعولًا واحدًا، فإذا نصبت مفعولًا واحدًا فهي بمعنىٰ: خَلق، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام:١]، وإذا عُدِت إلىٰ مفعولين فهي بمعنىٰ: صَيَرَ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٤].

٤ ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ القرآن ذكره ﴿فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ اللوح المحفوظ، كما قال تعالىٰ: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ۝٢٢﴾ [البروج: ٢١- ٢٢]، ﴿لَدَيْنَا﴾ أي: عند الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿لَعَلِىٌّ﴾ أي: أنه كتاب له شأن ومنزلة ورفعة ومكانة وشرف، ﴿حَكِيمٌ﴾ محكم وهذا وصف للقرآن العظيم: بأن أخباره وأوامره ونواهيه كلها حكمة، ومذكورة بالوصف الأعلىٰ عند كل مسلم وموحد.

٥ ثم يقول للكافرين بعد إعراضهم عن استماع كلام ربنا عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَنَضْرِبُ﴾ نمنع، ﴿عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ﴾ نزول الذكر، ﴿صَفْحًا﴾ إعراضًا، ﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ بسبب إسرافكم، قال البغوي: مَعْنَاهُ: أَفَنَتْرُكُ عَنْكُمُ الْوَحْيَ وَنُمْسِكُ عَنْ إِنْزَالِ الْقُرْآنِ فَلَا نَأْمُرُكُمْ وَلَا نَنْهَاكُمْ مِنْ أَجْلِ أَنَّكُمْ أَسْرَفْتُمْ فِي كُفْرِكُمْ وَتَرَكْتُمُ الْإِيمَانَ؟ اسْتِفْهَامٌ بِمَعْنَى الْإِنْكَارِ، أَيْ لَا نَفْعَلُ ذَلِكَ، وَهَذَا قَوْلُ قَتَادَةَ وَجَمَاعَةٍ. اهـ

٦ ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ﴾ في الأمم السابقة قبل مبعث النبي ﷺ.

٧ ﴿وَمَا يَأْتِيهِم﴾ وما كان يأتيهم ﴿مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ يسخرون ويردون دعوته، كما قال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝٥٣﴾ [الذاريات:٥٢-٥٣].

٨ ﴿فَأَهْلَكْنَآ﴾ دمرنا وانتقمنا، ﴿أَشَدَّ﴾ أقوىٰ، ﴿مِنْهُم بَطْشًا﴾ ظلمًا وجورًا، ﴿وَمَضَىٰ﴾ ذهب ﴿مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ في إهلاكهم ودمارهم.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١١ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝١٢ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ۝١٤﴾.

٩ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ أي: كفار قريش، ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ﴾ القوي الذي لا يُغلب، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بكل شيء، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤]، وهذا دليل علىٰ إثباتهم للربوبية في الجملة، ولكنهم أشركوا ونددوا في الألوهية، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

١٠ والعزيز العليم هو: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ﴾ خلق ﴿لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ فراشًا مستوية تمشون فيها وتزرعون، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ طرقًا بين جبالها وفي أوديتها ووهادها، ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إلىٰ أماكن نزولكم وإلىٰ قضاء معايشكم.

(١١) ﴿وَ﴾ من شأنه تعالىٰ أنه: ﴿ٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ السحاب، ﴿مَآءًۢ﴾ مطرًا، ﴿بِقَدَرٍ﴾ مقدر لما يحتاجه الناس، فلم يجعله طوفانًا تذهب معه الأرض والمساكن، ﴿فَأَنشَرۡنَا﴾ أحيينا، ﴿بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ﴾ يابسة، ﴿كَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾ تبعثون من قبوركم، وهذا مثلٌ ضربه الله عَزَّوَجَلَّ لبيان: أنه لا يعجزه إخراج الناس من قبورهم، كما لا يعجزه إحياء الأرض الميتة بالمطر.

(١٢) ﴿وَ﴾ من شأنه تعالىٰ أنه: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا﴾ المثلاء والنظراء من كل صنف، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ﴾ السفن، ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ الإبل والخيل، ﴿مَا تَرۡكَبُونَ﴾ وهذا من عظيم منة الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ الإنسان؛ لأنه إذا مشىٰ في حاجته ضعف وتعب وعجز عن الحمل فسخر الله ما سخر، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٨].

(١٣) ﴿لِتَسۡتَوُۥاْ﴾ تعلوا، ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ ظهور الأنعام وغيره من المركوب ﴿ثُمَّ تَذۡكُرُواْ﴾ تشكروا، ﴿نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ﴾ نِعَمْ ربكم عليكم، ومنها: ﴿إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ﴾ أي: علىٰ الدابة أو المركوب، ﴿وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ﴾ منزهين مثنين عليه ﴿ٱلَّذِي سَخَّرَ﴾ هيء من فضله ﴿لَنَا هَٰذَا﴾ المركوب، ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ﴾ مطيقين، وهذا من نعمة الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ العبد: أن يكون ذاكرًا له في حال ركوبه وفي جميع شأنه.

وقد جاء من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن النبي ﷺ كان إذا وضع رجله في السرج قال: **«بِسْمِ اللهِ، فَلَمَّا اسْتَوَىٰ عَلَيْهَا قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ، وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ، ثُمَّ حَمِدَ اللهَ ثَلَاثًا»** أخرجه أبو داود.

(١٤) ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا﴾ يوم القيامة ﴿لَمُنقَلِبُونَ﴾، راجعون، فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿١٥﴾ ﴿وَجَعَلُوا﴾ صيروا ﴿لَهُ﴾ لله، ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾ الملائكة، ﴿جُزْءًا﴾ نصيبًا جعلوهم إناثًا، ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ يعني الكافر ﴿لَكَفُورٌ﴾ جحود لنعم الله ﴿مُبِينٌ﴾ وكفره بيّن واضح.

﴿١٦﴾ ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ وهم الملائكة، هذا سؤال إنكار يعني: كيف يتخذ البنات، ﴿وَأَصْفَاكُمْ﴾ أعطاكم واختصكم، ﴿بِالْبَنِينَ﴾ ، كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا﴾ [الإسراء: ٤٠]، وقال: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ [النجم:٢١-٢٢]، وهذا من عظيم كفرهم: أنهم جعلوا لله عَزَّوَجَلَّ البنات، مع أنه المنزه عن الصاحبة والولد، وجعلوا مع ذلك الملائكة بنات؛ فمن وصفهم بالإناث كفر.

﴿١٧﴾ ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ﴾ أي: أحد الكافرين، ﴿بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾ من أن له بنتًا، ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ﴾ صار وجهه، ﴿مُسْوَدًّا﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى التُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النحل:٥٨-٥٩]، يعني: كيف يرضىٰ لله البنت ولا يرضها لنفسه، ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ حزين مهموم مغموم.

﴿١٨﴾ ﴿أَوَمَنْ يُنَشَّأُ﴾ يربي ويكبر ﴿فِي الْحِلْيَةِ﴾ في الزينة.

والمعنىٰ: أتجعلون لله البنات اللاتي من شأنهن: أنهم ينشأن في الحلية أي: لا جمال لهن إلا بالزينة بخلاف الرجل، فالرجل لا يحتاج إلىٰ أن يتزين بالذهب، والحامورات ومثل هذه الأشياء التي تتزين بها النساء، بينما المرأة لا بد لها أن تتزين، وإلا ربما ما استساغ زوجها البقاء معها، فكيف تُجعل البنات لله.

﴿وَهُوَ﴾ أي ما أضيف إلىٰ الله ﴿فِي ٱلْخِصَامِ﴾ الجدال ﴿غَيْرُ مُبِينٍ﴾ فإذا خاصمت لا بد أن يقع في كلامها الاضطراب، كما قال بعضهم: والله ما أنتِ بنعم الولد بِرُكِ سرقة، ونصركِ بكاء، يعني: إذا أرادت أن تنصر أباها أو أخاها أو زوجها بكت، وإذا أرادت أن تعطي لأبيها أو لأخيها سرقت من بيت زوجها، مع أن الإسلام أعطاها حقها؛ لكن هذا لبيان أن الكفار جعلوا لله البنات مع أنهم كانوا يتنزهون منهن بل يقتلونهن.

١٩ ﴿وَجَعَلُوا۟﴾ صيروا ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، كما قال: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦]، ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦]، ﴿إِنَٰثًا﴾ بناتًا ونساء، ﴿أَشَهِدُوا۟﴾ اطلعوا وحضروا ﴿خَلْقَهُمْ﴾ حين خلقوا حتىٰ يقولوا هذا القول، كما قال تعالىٰ: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾ [الصافات: ١٥٠]، ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ﴾ سيكتب قولهم علىٰ أن الملائكة بنات الله، ﴿وَيُسْـَٔلُونَ﴾ عنه يوم القيامة، وهذه مسبة عظيمة لله عَزَّوَجَلَّ ولملائكته.

٢٠ ﴿وَقَالُوا۟﴾ معتذرين عن شركهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمْ﴾ الأصنام والشياطين، وهذا اعتذار بارد لم يقبله الله عَزَّوَجَلَّ لا شرعًا ولا قدرًا، فلو أن رجلًا ضُرب بحجرة ثم قال: لو شاء الله ما ضربت، هل سيُعفىٰ عنه أم أن هذا الاعتذار يُعتبر من السفه؟ وهكذا شرعًا فإن الله كفرهم حين زعموا: أنهم عبدوا غيره لمشيئته، ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ﴾ القول، ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ من كتاب ولا سنة، ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يكذبون.

٢١ ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا﴾ يقرؤونه ويتلونه ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ من قبل مبعث محمد ﷺ، ﴿فَهُم بِهِۦ﴾ بالكتاب الذي أُنزل إليهم ﴿مُسْتَمْسِكُونَ﴾ الجواب: لا كتاب أُنزل إليهم، وليسوا بمستمسكين بشيء مما تقدم من دين إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ومن إليه.

٢٢ ﴿بَلْ﴾ كان عذرهم أنهم ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ﴾ أدركنا ﴿ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ ملة، ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ أي ورائهم ﴿مُّهْتَدُونَ﴾ مقتدون، فهم مقلدون لآبائهم في شركهم وكفرهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨].

(٢٣) ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ مثل هذا الاعتذار أننا: ﴿مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ﴾ في مدينة أو أمة، ﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾ ينذرهم بطش الله عَزَّوَجَلَّ وغضبه، ﴿إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ﴾ المتكبرون والمتعالون فيها، ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾ ملة، ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ سائرون.

فعذرهم التقليد؛ وقد ذكر الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب النجدي رحمه الله في كتابه: مسائل الجاهلية: أن التقليد من أعظم مسائلهم.

(٢٤) ﴿قَٰلَ﴾ لهم رسول الله ﷺ ﴿أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم﴾ أتيتكم، ﴿بِأَهۡدَىٰ﴾ بأقوم وأحسن، ﴿مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ﴾ وهو القرآن المبين، والوحي الكريم، ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ معرضون.

(٢٥) ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ أهلكناهم ودمرناهم، ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ حيث جعلهم الله كأمس الدابر، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٢٨﴾.

(٢٦) ﴿وَ﴾ اذكر، ﴿إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ﴾ آزر، ﴿وَقَوۡمِهِۦٓ﴾ عباد الكواكب، ﴿إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ﴾ يعني: يتبرأ من آلهتهم ومعبوداتهم.

(٢٧) ﴿إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ وهو الله الذي خلقني، ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ﴾ سيوفقني لأقوم السبل.

وفي هذه الآية معنىٰ لا إله إلا الله؛ لأنها تتكون من نفي وإثبات، فالنفي في قوله: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ﴾، والإثبات في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ﴾.

وبهذا تعلم تعين وجوب البراءة من المشركين ودينهم، كما قال تعالىٰ: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة:٤].

(٢٨) ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ﴾ أي: لا إله إلا الله، ﴿بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ﴾ لا يزال من ذريته من يقولها، ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ إلىٰ ربهم يوم القيامة فيجازيهم بأعمالهم.

وفي معنىٰ لا إله إلا الله وفضلها أقول: السبب في كونها أفضل الذكر أنها دالة علىٰ التوحيد و علىٰ بيان حق الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ العبيد وكثير من المسلمين يجهلون معنىٰ هذه الكلمة ، فبعضهم يظن أن لا إله إلا الله لا خالق إلا الله و بعضهم يقول لا معبود إلا الله و أقبح من ذلك قول بعضهم لا موجود إلا الله و الحق في هذا أن معناها لا معبود بحق إلا الله كما قال الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج:٦٢].

ومعنىٰ ذلك أنه لا يدعىٰ إلا الله ولا يتوكل إلا علىٰ الله و لا يخاف خوف العبادة إلا من الله ولا يرجىٰ عبادة إلا الله و لا يستعين فيما لا يقدر عليه إلا الله إلا بالله و معناها أنه لا يصلىٰ إلا لله ولا ينذر إلا لله ولا يذبح إلا الله ويسأل كشف الضر و جلب النافع الله عَزَّوَجَلَّ في ذلك إلىٰ غير ذلك من أنواع العبادة، وشروطها سبعة ذكرتها في منظومتي الزعكرية.

شُرُوطُهَا سَبْعٌ وَزِدْهَا وَاحِدَا ... فَحَقِّقَنْ وَلَا تَكُنْ مُعَانِدَا
عِلْمٌ مَحَبَّةٌ يَقِينٌ وَالْقَبُولْ ... صِدْقٌ وَإِخْلَاصٌ فَحَقِّقْ مَا أَقُولْ
وَالْكُفْرُ بِالطَّاغُوتِ يَا سَعِيدُ ... وَالِانْقِيَادُ شَرْطُهَا الْأَكِيدُ

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿٢٩﴾ ﴿بَلْ مَتَّعْتُ﴾ بالنعم، ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ كفار قريش، ﴿وَءَابَآءَهُمْ﴾ بأنواع النعم، ولم أعاجلهم بالعقوبة، ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ القرآن، ﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ وهو محمد ﷺ يبين الرسالة بالبشارة والنذارة.

﴿٣٠﴾ ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ القرآن من عند الله، ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ﴾ يسحرنا به، ﴿وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ مكذبون، وهذا من جحودهم وبغيهم.

(٣١) ﴿وَقَالُوا﴾ معترضين علىٰ نبوة محمد ﷺ: ﴿لَوْلَا﴾ هلا، ﴿نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾ الذي أُنزل علىٰ محمد ﷺ، ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ الطائف ومكة، قيل: الوليد بن المغيرة، وعروة بن مسعود الثقفي وقيل غيرهم، والشاهد: أنهم تعجبوا من نزول القرآن علىٰ محمد ﷺ كما قالوا: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ [سورة ص:٨].

وأرادوا أن ينزل علىٰ رجل عظيم مشهور، والواقع أن النبوة والرسالة يضعها الله فيمن شاء، كما قال تعالىٰ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨]، وقال عز وجل: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ﴾ [الأنعام:١٢٤].

(٣٢) ﴿أَهُمْ﴾ الكفار ﴿يَقْسِمُونَ﴾ خزائن ﴿رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ النبوة والاصطفاء، حتىٰ يُنزِلوا القرآن علىٰ من أرادوا، ويمنعوا من أرادوا، فالله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يقسم الأمر، ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ أرزاقهم، ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فأغنينا هذا وخفضنا هذا، ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ بالمال وبالدين؛ ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم﴾ الأغنياء ﴿بَعْضًا﴾ الفقراء ﴿سُخْرِيًّا﴾ عمالًا يستسخرونهم ويستعملونهم في أعمالهم، وإلا لو كان الناس كلهم علىٰ حال واحد من سيعمل، ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ﴾ بنزول القرآن، وقيل الجنة: ﴿خَيْرٌ﴾ وأفضل: ﴿مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من حطام الدنيا الفاني الزائل.

وفي حديث أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«يَتْبَعُ الْمَيِّتَ ثَلَاثَةٌ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَىٰ وَاحِدٌ، يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ، فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَىٰ عَمَلُهُ»** متفق عليه.

(٣٣) ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً﴾ طائفة ﴿وَاحِدَةً﴾ مطبقة علىٰ الكفر، ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ ليس من حديد ولا من خشب، بل يجعل الله عَزَّوَجَلَّ سقفها فضة، ﴿وَ﴾ جعل لهم ﴿مَعَارِجَ﴾ سلالم ودرجًا، ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ يصعدون ويعلون ويرتفعون، لكن أبىٰ الله ذلك حتىٰ لا ينحرف جميع الناس.

(٣٤) ﴿وَ﴾ لجعلنا ﴿لِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا﴾ من فضة ﴿وَسُرُرًا﴾ من فضة، ﴿عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ﴾ حال جلوسهم.

(٣٥) ﴿وَ﴾ جعلنا لهم ﴿زُخْرُفًا﴾ ذهبًا، كما قال تعالىٰ: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ [الإسراء: ٩٣]، ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ الذي تقدم ذكره ﴿لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ﴾ الفاني، وسيزول

ويذهب، ﴿وَٱلْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ﴾ خاصة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ المخبتين المنيبين، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ۝٣٢﴾ [النبأ:٣١-٣٢]، ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ [القمر:٥٤].

وعن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ، مَا سَقَىٰ كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ»** أخرجه الترمذي

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝٣٦ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝٣٧ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ۝٣٨ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ۝٣٩﴾.

﴿٣٦﴾ ﴿وَمَن يَعْشُ﴾ يعرض، ﴿عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ عن طاعته ﴿نُقَيِّضْ﴾ نسخر ﴿لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾، شط عن الطاعة: ﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ يَؤُزهُ علىٰ الباطل أزًا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ۝٢٥﴾ [فصلت:٢٥]، وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ، إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ»** قَالُوا: وَإِيَّاكَ؟ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: **«وَإِيَّايَ، إِلَّا أَنَّ اللهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ، فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ»** أخرجه مسلم.

قال النووي: وفي الحديث إشارة إلىٰ التحذير من فتنة القرين ووسوسته وإغوائه.اهـ

﴿٣٧﴾ ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي: الشياطين، ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ﴾ يمنعونهم ويحرفونهم: ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ الطريق القويم، ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ أي: الكفار، ﴿أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ في صنيعهم هذا حيث: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ﴾ [التوبة:٣٧]، وكما قال تعالىٰ: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر:٨].

❁ وهذا من الابتلاء: أنه يُزين له سوء عمله، فيعبد الصنم ويرىٰ نفسه أهدىٰ منك، ويبتدع في دين الله ويرىٰ نفسه أحسن منك، وربما كان جاهلًا لا يُحسن الوضوء ويرىٰ نفسه أعلم منك.

﴿٣٨﴾ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ يوم القيامة، الإنسي مع قرينه، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ [ق:٢٧]، ﴿قَالَ﴾ الكافر الإنسي والجني ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ بُعد المشرق والمغرب، ويطلقون هذا علىٰ بعد المسافات لا يريدون بها

مسافة محدودة، ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ أنت، إذ أضَلَّهُ عن الهدىٰ، ومنعه سبيل الرشاد، وأوقعه في الردىٰ.

٣٩ ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ﴾ يا معاشر الكفار الاعتذار ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ يوم القيامة، ﴿إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾ أي: في الدنيا بالكفر والشرك، ﴿أَنَّكُمْ﴾ يوم القيامة، ﴿فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾.

والمعنىٰ العام: ولن ينفعكم يوم القيامة هذا الاعتذار، إذ أنكم ظلمتم أنفسكم في الدنيا بالشرك والكفر، ثم يقول: إنكم جميعًا القرين، وقرينه في العذاب مشتركون لا يُخفف عذاب هذا من عذاب هذا، ولا يزاد عذاب هذا بعذاب هذا.

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

٤٠ ﴿أَفَأَنتَ﴾ يا محمد، ﴿تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ الذين لا يستجيبون لأمر الله، ﴿أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ الذين لا يبصرون دين الله، ﴿وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ في انحراف شديد واضح بيّن، فليس ذلك إليك، إنما عليك البلاغ وليس عليك هداهم، ولكن الله يهدي من يشاء.

٤١ ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ فتموت قبل إهلاكهم، ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ بعد موتك.

٤٢ ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ﴾ قبل موتك ﴿ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ﴾ من العذاب، ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ لا يعجزنا شيء، وهذه بشرىٰ لمحمد ﷺ، يقول الله له: إن ذهبنا بك قبل إهلاكهم سنهلكهم بعد موتك، وإن أحييناك وأبقيناك سنرىٰ ما وعدناهم من العذاب والنكال ولا يُعجزنا شيء، وتقر عينك بهلاكهم.

٤٣ ﴿فَٱسْتَمْسِكْ﴾ تمسك يا محمد ومن تاب معك: ﴿بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ القرآن، ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ﴾ طريق، ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾ يوصلك إلىٰ رب العالمين، وهذا كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ [هود:١١٢].

٤٤ ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: القرآن، ﴿لَذِكْرٌ﴾ شرف ورفعة وعز وتمكين، ﴿لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ قريش، إن أخذوا به استقاموا عليه، كما أنه شرف لكل من أخذ به قَالَ عُمَرُ: أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ ﷺ قَدْ قَالَ: **«إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ»** اخرجه مسلم، ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ عن

أعمالكم يوم القيامة، فتجازون عليها، كما قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨]، وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣].

﴿٤٥﴾ ﴿وَٱسْـَٔلْ﴾ يا رسول الله ﴿مَنْ أَرْسَلْنَا﴾ بعثنا ﴿مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ من الأنبياء أي: ليلة المعراج ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ غير الرحمن، ﴿ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ الجواب: لا فإن الله عَزَّوَجَلَّ أرسل جميع الرسل وأنزل جميع الكتب حتىٰ يُعبد وحده لا يُشرك به شيء، كما قال: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء:٣٦]، وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وهذه السورة مكية.

❁ وفيها من الحجج البليغة ما تبين ضلال أولئك الذين كفروا بمحمد ﷺ وأعرضوا عن دينه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٦ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ۝٤٧ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٤٨ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ۝٤٩ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ۝٥٠ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٥١ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝٥٢ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ۝٥٣ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝٥٤ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٥ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ ۝٥٦﴾.

﴿٤٦﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾ بني إسرائيل، ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الشرعية إذ آتاه الله عَزَّوَجَلَّ التوراة، ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ ملك مصر وجبارها، ﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾ الذين حوله من الوزراء والأمراء ومن إليهم، ممن هم علىٰ كفره وبغيه ﴿فَقَالَ﴾ لهم موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أرسله إلىٰ فرعون ومن إليه، والعالمين: ما سوىٰ الله عَزَّوَجَلَّ سموا بالعالمين؛ لأنهم علامة وآية علىٰ وجود الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿٤٧﴾ ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم﴾ موسىٰ عليه السلام، ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الشرعية والحجج القوية، ومنها المعجزات التي جعلها الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ يديه، كما قال تعالىٰ: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝١٠٧ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الأعراف:١٠٧-١٠٨] ، ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ يستهزئون ويسخرون.

وهذا الأمر ما زال موجودًا في كثير من الناس أنهم يستهزئون بحملة الدين وحملة الدعوة، ويتضاحكون، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾ [المطففين:٣٠-٣١].

٤٨ ﴿وَمَا نُرِيهِم﴾ فرعون ومن معه ﴿مِّنْ ءَايَةٍ﴾ من علامة وحجة علىٰ صدق موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ﴿إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ﴾ أعظم ﴿مِنْ أُخْتِهَا﴾ من سابقتها من الدلائل والمعجزات، لعلهم يستجيبون وينزجرون، ومع ذلك كفروا وأعرضوا، ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ الشدة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف:١٣٠]، و قال تعالىٰ: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣]، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يتوبون إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ولكنهم تمادوا وأصروا علىٰ الولوج في باطلهم.

٤٩ ﴿وَقَالُواْ﴾ حين اشتد عليهم العذاب، ونزلت بهم الشدة، ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ العالم إذ كان الساحر أعلم الناس، أو أنهم نادوه بهذا النداء علىٰ ما يعتقدونه من أنه ساحر، فسبقت الكلمة التي يعتقدونها، ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ اطلب من ربك، ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ من العلم والخير، ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ مستجيبون منقادون إن كشفه عنا، وهكذا كانوا إذا اشتد بهم البلاء.

٥٠ ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا﴾ رفعنا، ﴿عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ القحط، والسنين، والضفادع، والدم، والقمل، ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ ينقضون العهود والمواثيق، ويرجعون إلىٰ كفرهم وبغيهم.

٥١ ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ﴾ متكبراً متعاظمًا، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ النيل، ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾ أي: في مزارعي وفي مملكتي، ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ما أنا فيه من المُلك والأُبهة، بمعنىٰ: لا تصدقوا موسىٰ في قوله ودعوته.

٥٢ ﴿أَمْ﴾ بل ﴿أَنَا خَيْرٌ﴾ أفضل، ﴿مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ وضيع وحقير عنده، وهو عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ رفيع عند الله، ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ يفصح الكلام بسبب اللثغة التي كانت في لسانه.

ويذكرون أنه لما دخل قصر فرعون أخذ بلحية فرعون فجرها، فأراد فرعون البطش به فقال له: إنه طفل لا يميز بين التمرة والجمرة، فأُتيَّ بتمرة وجمرة فأخذ الجمرة ووضعها في

فيه والله أعلم، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ مُخبرًا عنه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾﴾ [طه:٢٥-٢٨].

﴿٥٣﴾ ثم قال فرعون ﴿فَلَوْلَآ﴾ فهلا، ﴿أُلْقِىَ﴾ طرح ﴿عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ لأن الملوك كانوا يضعون في أياديهم أساور الذهب ويلبسون تيجان الذهب، فيقول: هلا كان ملك من الملوك حتىٰ نقبل دعوته، ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ مناصرين مؤيدين مرافقين له.

﴿٥٤﴾ ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ﴾ يعني: لعب بقومه بهذه الدعوىٰ، وكانت عقولهم سخيفة وجهلهم متحقق، ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ في كفره وبغيه، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ كافرين.

﴿٥٥﴾ ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ أغضبونا. ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أهلكناهم،

وفي هذا رد علىٰ المعتزلة، والأشاعرة، ومن إليهم؛ ممن فسر الغضب بالانتقام، فلو كان الغضب بمعنىٰ الانتقام سيكون المعنىٰ ركيكًا: فلما انتقمنا انتقمنا منهم، وأما الأسف بمعنىٰ: الحزن فيُنزه الله عنه، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف:٨٤]، ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ في اليم ﴿أَجْمَعِينَ﴾ حيث تبعوا موسىٰ وقومه لاستئصالهم، كما قال تعالىٰ: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ [يونس: ٩٠].

وهذه الآي من أقوىٰ الآي في الرد علىٰ المبتدعة الذين يفسرون صفات الله عَزَّوَجَلَّ بلوازمها فيقولون: الغضب الانتقام، والرضا الإحسان، وهنا فرق الله عَزَّوَجَلَّ بين الغضب ولازمه قال: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ أغضبونا، وهو شدة الغضب ﴿ٱنتَقَمْنَا﴾ أهلكناهم.

﴿٥٦﴾ ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ﴾ صيرناهم ﴿سَلَفًا﴾ قدوة للكفار في استحقاق العذاب، ﴿وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ الذين جاءوا بعدهم وكفروا مثلهم.

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ٥٧ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ٥٨ إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٥٩ وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ ٦٠ وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٞ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦١ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٢ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ٦٣ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦٤ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ٦٥ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٦٦﴾.

٥٧ ﴿وَ﴾ اذكر يا رسول الله ﴿لَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ﴾ إذ أخبر النبي ﷺ بقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ **[الأنبياء:٩٨]**، قال الكفار: خصمنا محمدًا يزعم أن كل من عُبِدَ من دون الله في النار فعيسىٰ في النار، والملائكة الذين نعبدهم في النار، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ **[الأنبياء:١٠١]**.

﴿إِذَا قَوْمُكَ﴾ قريش، ﴿مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ يصيحون ويولولون، وفي قراءة: يَصَدُّونَ يمنعون عن الحق، فبالفتح المنع، وبالكسر الصياح والعويل.

٥٨ ﴿وَقَالُوا﴾ عند ذلك: ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا﴾ التي نعبدها ونرجوها من الأصنام والأوثان، ﴿خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ أي: عيسىٰ، ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ﴾ أي: هذا المثل، ﴿إِلَّا جَدَلاً﴾ خصامًا، ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ مجادلون بالباطل، وعن أبي امامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: **«مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًىٰ كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُوا الْجَدَلَ»** أخرجه الترمذي.

٥٩ ﴿إِنْ هُوَ﴾ ما هو: ﴿إِلَّا عَبْدٌ﴾ طائع لله عَزَّوَجَلَّ أي: ليس برب ولم يُعبد برضاه، ﴿أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ بالنبوة والرسالة، ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ صيرناه: ﴿مَثَلاً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يعرفون به قدرة الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ ما يشاء حيث خلقه من غير أب.

٦٠ ﴿وَلَوْ نَشَاءُ﴾ لأهلكناكم و ﴿لَجَعَلْنَا مِنكُمْ﴾ بدلاً منكم يا معاشر الكفار ﴿مَلَائِكَةً فِي ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ يخلفونكم بعد هلاككم، ويعبدون الله عَزَّوَجَلَّ.

٦١ ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ﴿لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أمارة وعلامة وشرط من أشراط الساعة، وقد جاء في قراءة: وَإِنَّهُ لَعَلَمٌ، قيل: مبعثه، وقيل: نزوله في آخر الزمان.

- وَهُوَ الصَّحِيحُ.

فعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: **«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا، وَإِمَامًا مُقْسِطًا، يَكْسِرُ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلُ الْخِنْزِيرَ، وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ، وَيَفِيضُ الْمَالُ حَتَّىٰ لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ»** متفق عليه، حيث ينزل في آخر الزمان فيقتل الدجال في باب لدٍ في فلسطين، ويبقىٰ في الأرض حاكمًا شريعة محمد ﷺ، قيل: سبع سنين، وقيل: أربعين عاما، ثم يموت.

﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ أي: لا تكذبوا هذه الآية، أو لا تكذبوا بقيام الساعة، ﴿وَٱتَّبِعُونِ﴾ انقادوا لرسول الله ﷺ، ﴿هَٰذَا﴾ الإسلام ﴿صِرَٰطٌ﴾ طريق، ﴿مُّسْتَقِيمٌ﴾ قويم يوصل إلىٰ الرب الرحيم.

٦٢ ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ﴾ يصرفنكم، ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ عن الهدىٰ، ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ عداوته ظاهرة بينة لا يريد لكم الخير، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ في شأنه: ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١١٨ - ١٢٠].

٦٣ ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ والحجج القويمات، ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُم﴾أتيتكم، ﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾ العلم والهدىٰ، ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم﴾ أجلي وأوضح، ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ في شأن التوراة إذ أن الاختلاف فيهم قد كثر، ﴿فَاتَّقُوا اللهَ﴾وحدوه، ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ أي: أطيعوا أمري، فالدين قائم علىٰ الإخلاص والمتابعة.

٦٤ ﴿إِنَّ اللهَ﴾ الذي أرسلني: ﴿هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ وحدوه لا تشركوا معه غيره لا ملكًا مقربًا ولا نبيًا مرسلًا، ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ طريق قويم، وانظر كيف وصف الله عَزَّوَجَلَّ دين النبي ﷺ: بأنه صراط مستقيم، ووصف الدين الذي جاء به عيسىٰ: بأنه صراط مستقيم؛ فكله من عند الله.

(٦٥) ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾ الطوائف من بني إسرائيل، ﴿مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ﴾ في عيسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فمنهم من قال: بأنه رب، ومنهم من قال: بأنه ابن، ومنهم من قال: بأنه ثالث ثلاثة، ومنهم من قال: بأنه ولد زنية وهم اليهود ومن إليهم.

وعند أهل الحق أنه رسول الله ﷺ وعبده وكلمته وروح منه، كما اختلفوا في رفعه، فقالت اليهود: قتلناه، وقالت النصارىٰ: قتلوه ثم صلب فدفن ثم رفع إلىٰ السماء، وقال المسلمون: ما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا﴾ [النساء:١٥٧].

﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ﴾ موجع في نار جهنم.

(٦٦) ﴿هَلۡ﴾ ما ﴿يَنظُرُونَ﴾ ينتظرون، ﴿إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ القيامة ﴿أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ﴾ علىٰ حين غرة، ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ بمجيئها فلا تحصل منهم توبة ولا إنابة.

﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ٦٧ يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ٦٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ٦٩ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ٧٠ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٧١ وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٧٢ لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٧٣﴾.

(٦٧) ومع ذلك: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ﴾ الأصحاب، ﴿يَوۡمَئِذِۭ﴾ يوم القيامة، ﴿بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ﴾ يتبرأ بعضهم من بعض، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ٣١ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۡ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ٣٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٣٣﴾ [سبأ:٣١-٣٣].

﴿إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ تبقىٰ خلتهم، ويشفع بعضهم في بعض.

ففي الصحيحين عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، قَالَ: «حَتَّىٰ يَمُرَّ آخِرُهُمْ يُسْحَبُ سَحْبًا، فَمَا أَنْتُمْ بِأَشَدَّ لِي مُنَاشَدَةً فِي الحَقِّ، قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنَ المُؤْمِنِ يَوْمَئِذٍ لِلْجَبَّارِ، وَإِذَا رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ نَجَوْا، فِي إِخْوَانِهِمْ، يَقُولُونَ: رَبَّنَا إِخْوَانُنَا، كَانُوا يُصَلُّونَ مَعَنَا، وَيَصُومُونَ مَعَنَا، وَيَعْمَلُونَ مَعَنَا، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: اذْهَبُوا، فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ، وَيُحَرِّمُ اللهُ صُوَرَهُمْ عَلَىٰ النَّارِ، فَيَأْتُونَهُمْ وَبَعْضُهُمْ قَدْ غَابَ فِي النَّارِ إِلَىٰ قَدَمِهِ، وَإِلَىٰ أَنْصَافِ سَاقَيْهِ، فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا، ثُمَّ يَعُودُونَ، فَيَقُولُ: اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا، ثُمَّ يَعُودُونَ، فَيَقُولُ: اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: فَإِنْ لَمْ تُصَدِّقُونِي فَاقْرَءُوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ﴾ [النساء: ٤٠]، فَيَشْفَعُ النَّبِيُّونَ وَالمَلَائِكَةُ وَالمُؤْمِنُونَ، فَيَقُولُ الجَبَّارُ: بَقِيَتْ شَفَاعَتِي، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ، فَيُخْرِجُ أَقْوَامًا قَدْ امْتُحِشُوا، فَيُلْقَوْنَ فِي نَهَرٍ بِأَفْوَاهِ الجَنَّةِ، يُقَالُ لَهُ: مَاءُ الحَيَاةِ، فَيَنْبُتُونَ فِي حَافَتَيْهِ كَمَا تَنْبُتُ الحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ، قَدْ رَأَيْتُمُوهَا إِلَىٰ جَانِبِ الصَّخْرَةِ، وَإِلَىٰ جَانِبِ الشَّجَرَةِ، فَمَا كَانَ إِلَىٰ الشَّمْسِ مِنْهَا كَانَ أَخْضَرَ، وَمَا كَانَ مِنْهَا إِلَىٰ الظِّلِّ كَانَ أَبْيَضَ، فَيَخْرُجُونَ كَأَنَّهُمُ اللُّؤْلُؤُ، فَيُجْعَلُ فِي رِقَابِهِمُ الخَوَاتِيمُ، فَيَدْخُلُونَ الجَنَّةَ، فَيَقُولُ أَهْلُ الجَنَّةِ: هَؤُلَاءِ عُتَقَاءُ الرَّحْمَنِ، أَدْخَلَهُمُ الجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ، وَلَا خَيْرٍ قَدَّمُوهُ، فَيُقَالُ لَهُمْ: لَكُمْ مَا رَأَيْتُمْ وَمِثْلَهُ مَعَهُ».

(٦٨) ثم ينادي الله عَزَّوَجَلَّ أهل الطاعة والإنابة: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ يوم القيامة، ﴿وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾؛ لأن الله لا يجمع علىٰ عبد خوفين: خوف الدنيا، وخوف الآخرة.

(٦٩) وهم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا، وآمنوا: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ القرآن، ﴿وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ مستسلمين منقادين لرب العالمين.

(٧٠) ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ معززين مكرمين، ﴿أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾ وأمثالكم وأصنافكم من الزوجات، والأبناء، والإخوان، والآباء، ﴿تُحْبَرُونَ﴾ تنعمون، يقولون: فلان في حبور أي: في نعمة وراحة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

(٧١) ومما يلحقهم من نعيم الجنة أنهم: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ﴾ وهو ما يوضع فيه الطعام، ﴿مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ وهو ما يكون فيه الشراب، والأكواب: هي التي لا عُرىٰ لها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإنسان: ١٩]، ﴿وَفِيهَا﴾ مزيدًا علىٰ ذلك: ﴿مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾ طعمًا، ورائحةً، وتناولًا، ﴿وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ بالنظر إليه، فالجنة كلها دار نعيم للنظر والسماع والأكل والشرب وغير ذلك، ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا﴾ في الجنة، ﴿خَالِدُونَ﴾ تنعمون.

(٧٢) ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا﴾ أُعطيتموها، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بسبب أعمالكم، وقيل أيضًا في معنىٰ الإرث: أن الله عَزَّوَجَلَّ جعل في الجنة لكل واحد منزلًا، فإذا دخل الكفار النار ورثهم أهل الجنة.

(٧٣) ﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ من أنواع الفواكه، ﴿كَثِيرَةٌ﴾ في الطعم واللون، ﴿مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ وتتفكهون.

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

(٧٤) ولما ذكر الله عَزَّوَجَلَّ حال أهل الجنة أتىٰ بعدهم بحال أهل النار: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الكافرين، ﴿فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾.

(٧٥) ﴿لَا يُفَتَّرُ﴾ يخفف ﴿عَنْهُمْ﴾ ساعة ولا يومًا ولا يرفع عنهم مرة، ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ ذليلون حقيرون، يائسون من الرحمة؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ قد قال لهم: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [المؤمنون:١٠٨].

(٧٦) ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ بهذا العذاب، ﴿وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بكفرهم وشركهم وعنادهم فجوزوا علىٰ ذلك.

(٧٧) ﴿وَ﴾ حين اشتد بهم العذاب الأليم: ﴿نَادَوْا۟﴾ بصوت مرتفع: ﴿يَٰمَٰلِكُ﴾ خازن النار، وجاء في قراءة: يَا مَال، قال ابن عباس: ما كان أغنىٰ أهل النار عن الترخيم، ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ يهلكنا بالموت، ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ في النار، في عذاب أليم.

(٧٨) ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم﴾ أتيناكم ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الوحي المبين والصراط المستقيم، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ كافرون ورادون.

(٧٩) ﴿أَمْ﴾ بل ﴿أَبْرَمُوٓاْ﴾ دبروا ﴿أَمْرًا﴾ ومكيدة، وهو قتل محمد ﷺ والتخلص منه، ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ يعني: سنمكر بكم وكان جزاؤهم: أن الله مكر بهم وأهلكهم.

(٨٠) ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ﴾ بل يظنون، ﴿أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾ قولهم في السر، ﴿وَنَجْوَىٰهُم﴾ حين يجتمعون ويتناجون فيما بينهم، ﴿بَلَىٰ﴾ نسمع ذلك، ﴿وَرُسُلُنَا﴾ الملائكة، ﴿لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ ما يقولون ويفعلون، فالإنسان لا تخفىٰ علىٰ الله منه خافية.

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۖ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

(٨١) ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ وقرأ ابن عباس: (مَا كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ)، ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ الشاهدين بذلك أن ليس له ولد، وقيل: وأنا أول العابدين لله، وقيل المعنىٰ: أن النبي ﷺ من أشد الناس انقيادًا لله عَزَّوَجَلَّ، فلو كان للرحمن ولد وهو جزء منه فسيعبده ولا يستنكف عن عبادته، لكن ليس لله ولد، وهو منزه عن الصاحبة والولد، كما قال تعالىٰ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون:٩١].

(٨٢) ﴿سُبْحَٰنَ﴾ تنزيه، ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الواسعات، ﴿رَبِّ ٱلْعَرْشِ﴾ العظيم الكبير، ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ويزعمون أن له ولد وصاحبة وشريك.

(٨٣) ﴿فَذَرْهُمْ﴾ اتركهم، ﴿يَخُوضُوا۟﴾ يجادلوا، ﴿وَيَلْعَبُوا۟﴾ يلهوا بهذه الدنيا، ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟﴾ مغبة ما فعلوا، ﴿يَوْمَهُمُ﴾ يوم القيامة، ﴿ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ علىٰ ألسنة الرُسل.

(٨٤) ﴿وَهُوَ﴾ الله، ﴿ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ﴾ معبود، ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ معبود، ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ في فعله وأمره، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بكل شيء ومنها مصالح عباده.

۞ وَٱسْتَدَلَّ بَعْضُ ٱلْمُبْتَدِعَةِ بِهَٰذِهِ ٱلْآيَةِ عَلَىٰ أَنَّ ٱللَّهَ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَفِيهَا رَدٌّ عَلَيْهِمْ مِنْ وَجْهَيْنِ:

- **الوجه الأول**: ما ذكرته من قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ﴾؛ أي معبود في السماء، ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ أي: معبود في الأرض.

- **الثاني**: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ﴾ موجود علىٰ عرشه، ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ معبود؛ لأن الأدلة تدل علىٰ أن الله علىٰ عرشه بائن من خلقه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ:١١].

٨٥ ﴿وَتَبَارَكَ﴾ تعالىٰ وتعاظم، ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ وهو الله، ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ يختص به كما قال: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف:١٨٧]، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تحشرون يوم القيامة فتجازون بأعمالكم.

٨٦ ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ يعبدون ﴿مِن دُونِهِ﴾ من الأصنام والأوثان ﴿ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ لتشفع لهم عند الله أو تمنعهم من بطشه فالشفاعة لله جميعًا ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي الذي يشفع هو الذي يشهد بالحق، وهو التمسك بالتوحيد والسنة، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وينقادون لأمر الله عَزَّوَجَلَّ.

وهذا كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء:٢٨]، ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥]، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء:٥٧]، فهذه الأصنام لا تملك شفاعةً ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا؛ ولكنها فتنة ابتلي بها الكفار فعبدوهم من دون الملك الجبار سبحانه وتعالىٰ.

٨٧ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ يا محمد: ﴿مَّنْ خَلَقَهُمْ﴾ وأوجدهم من العدم، ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ وهذا أمر يقر به أغلب الكفار من أن الله هو الخالق، الرازق، المالك، المدبر وإنما ينكره شواذ من البشرية كبعض الاشتراكية الذين يقولون: لا إله والحياة مادة، ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ يُصرفون عن الحق مع وجود هذه الحجج الظاهرة.

٨٨ ﴿وَقِيلِهِۦ﴾ أي: قول محمد ﷺ، شاكيا إلىٰ الله ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يستجيبون بل إنهم معرضون.

﴿٨٩﴾ فقال الله له ﴿فَاصْفَحْ﴾ اعرض واعفُ وتجاوز، ﴿عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾ معناه المتاركة وقيل: لا تأتيهم بالقول القبيح، كما قال تعالىٰ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ مغبة ذنوبهم، وعاقبتها حين يرون العذاب الأليم.

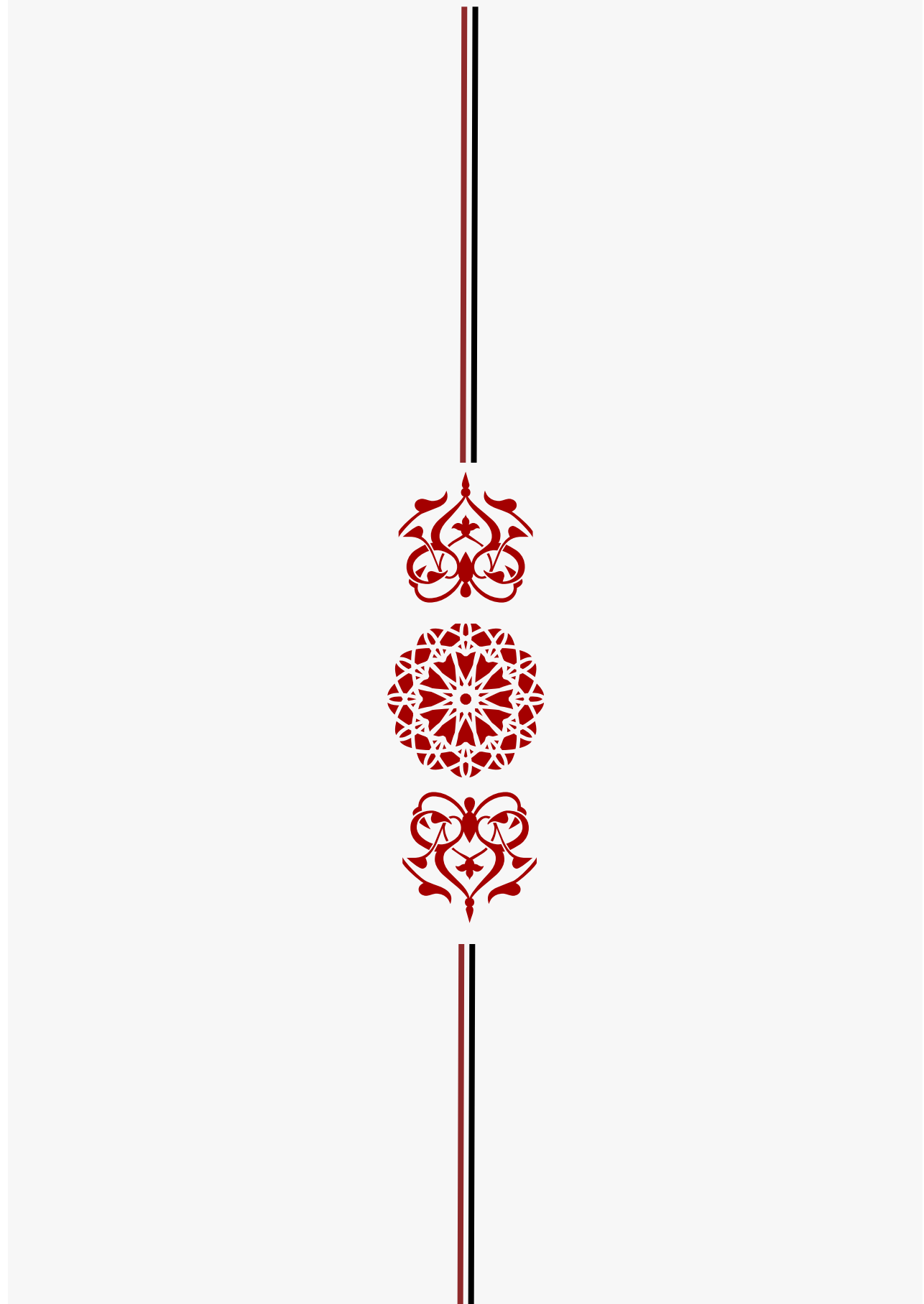
❁ وقيل: بأن هذه الآية منسوخة بآية السيف؛ لأن النبي ﷺ بعد ذلك قاتلهم.

وَالصَّحِيحُ: أن الصفح كان سجيته حتىٰ بعد نزول آية السيف، فكان يدعوهم إلىٰ خصال وخلال، يخيرهم بين الإسلام وهو أفضل ما يُطلب أو الجزية أو القتال.

فعن بُريدةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كانَ رسولُ الله ﷺ إذا بعثَ أميراً علىٰ سَرِيّةٍ أو جيشٍ أوصاهُ بِتَقْوَىٰ الله في خاصَّةِ نفسِه وبمن معه من المسلمين خيراً، وقال: **«إذا لقيتَ عَدوَّك من المشركين فادْعُهُم إلىٰ إحدىٰ ثلاثِ خِصالٍ، -أو خِلالٍ- فأيَّتُها أجابوك إليها، فاقبَلْ منهم وكُفَّ عنهم: ادْعهُمْ إلىٰ الإسلامِ، فإن أجابوك فاقبلْ منهم وكُفَّ عنَهُم، ثم ادعُهم إلىٰ التحوُّلِ من دارِهم إلىٰ دارِ المُهاجرينَ، وأعلِمْهم أنهم إن فَعلُوا ذلك أن لَهم ما لِلمهاجرين وأن عَليهم ما عَلىٰ المهاجرين، فإن أبَوا واختاروُا دارَهم فأعلِمهم أنهم يكونُون كأعرابِ المسلمين: يجْري عليهم حُكْمُ اللهِ الذي يَجري علىٰ المؤمنينَ، ولا يكونُ لهم في الفيء والغنيمةِ نَصيبٌ، إلا أنْ يُجاهدوا مَع المسلمينَ، فإن هم أبَوا فادعُهمْ إلىٰ إعطاء الجِزْيَةِ، فإن أجابُوا فاقبَلْ منهم وكُفَّ عنهم، فإن أبَوْا فاستعنْ بالله وقاتِلْهم، وإذا حاصرتَ أهلَ حِصْنٍ فأرادُوك أن تُنزِلَهمْ علىٰ حكمِ الله فلا تُنزِلْهم، فإنكم لا تَدْرُون ما يحكُمُ اللهُ فيهم، ولكن أنزِلُوهم علىٰ حُكْمِكُم، ثم اقضُوا فيهم بعدُ ما شئتُم»** أخرجه مسلم.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

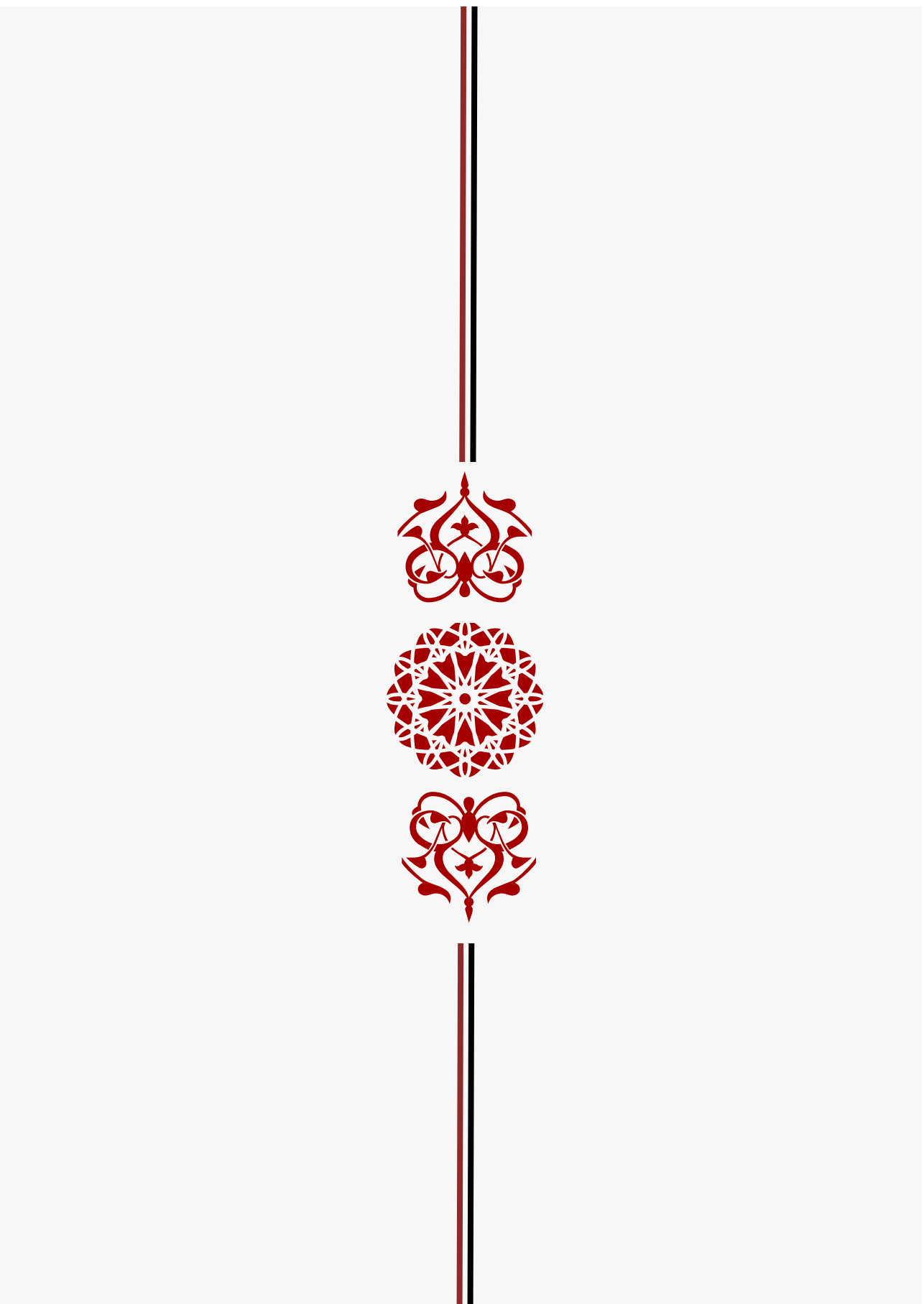
تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الزُّخْرُفِ





تَفْسِيرُ سُورَةِ الدُّخَانِ





سُورَةُ الدُّخَانِ

مَكِّيَّةٌ، وَآيَاتُهَا تِسْعَةٌ وَخَمْسُونَ آيَةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾.

١ {حمٓ}.

٢ ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ أقسم الله عَزَّوَجَلَّ بالقرآن البيّن الواضح.

٣ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ القرآن، ﴿فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ ليلة القدر في رمضان، كما قال تعالىٰ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى﴾ [البقرة:١٨٥]، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾ [القدر:١-٥].

وفي فضلها ما جاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ في فضلها: **«مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»**، متفق عليه.

ومن بركتها: أنها تتنزل فيه الملائكة فتحضر دعاء المؤمنين وتؤمن عليه، وتحضر عبادات المؤمنين فينالهم من الخير العظيم ما الله به عليم، وقد أكرم الله عَزَّوَجَلَّ هذه الأمة بليلة القدر؛ لقلة أعمارهم، فعوضهم بقيامها، ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ مخوفين للناس من النار حتىٰ يتوبوا إلىٰ ربهم.

٤ ﴿فِيهَا﴾ أي: في ليلة القدر، ﴿يُفْرَقُ﴾ يُفصل، ﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ أمر محكم من أوامر الله، فتأتي الملائكة وتأخذ من اللوح المحفوظ أوامر سنة.

وأما من زعم أن هذا في ليلة النصف من شعبان، فلا دليل معه يثبت في ذلك، بل قال ابن كثير: ومن قال: إنها ليلة النصف من شعبان كما روي عن عكرمة فقد أبعد النجعة، فإن نص القرآن أنها في رمضان. اهـ

٥ ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾ لا يُغير ولا يُبدل؛ لأنه علىٰ مقتضىٰ علمه وحكمته، ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ إلىٰ هذه الأمة محمدًا ﷺ.

٦ وهذا الإرسال: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ إذ أخرج الناس من الظلمات إلىٰ النور، ومن عبادة العبيد إلىٰ عبادة الله عَزَّوَجَلَّ، ومن الشرك إلىٰ التوحيد، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: الرب سبحانه وتعالىٰ، ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوال عباده، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم.

٧ ﴿رَبِّ﴾ صاحب ومالك عطف علىٰ: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾، وقُرئت: رَبُّ عطف علىٰ: ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، ﴿ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ من مخلوقات عظيمات، ودلائل قاهرات علىٰ قوته وقدرته، ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ معترفين له بالألوهية والربوبية، وبما له من الصفات.

٨ ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود بحق غيره ولا رب سواه، ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ من شاء ﴿رَبُّكُمْ﴾ خالقكم، ورازقكم، ومدبركم، ﴿وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الذين مضوا وسلفوا.

﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝١٢ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ۝١٤ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ۝١٥ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ۝١٦﴾.

٩ ﴿بَلْ هُمْ﴾ الواقع الذي جعلهم ينكرون البعث والنشور، ولم يستجيبوا لرسول الله ﷺ، ﴿فِى شَكٍّ﴾ ريب وتحير ﴿يَلْعَبُونَ﴾ يستهزئون ويسخرون من دعوة رسول الله ﷺ.

١٠ ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ انتظر يا محمد بعذاب هؤلاء الشاكين، ﴿يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ﴾.

❐ اِخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي (الدُّخَانِ).

فذهب ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن الدخان قد وقع في زمن النبي ﷺ حيث دعا علىٰ قريش بسبع سنين كسبع يوسف فكان يُخيل إليهم من شدة القحط والجوع أن في السماء دخانًا.

فعند البخاري ومسلم عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللهِ: إِنَّ اللهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ، وَقَالَ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا رَأَىٰ قُرَيْشًا اسْتَعْصَوْا عَلَيْهِ.

فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ**» فَأَخَذَتْهُمُ السَّنَةُ حَتَّىٰ حَصَّتْ كُلَّ شَيْءٍ، حَتَّىٰ أَكَلُوا العِظَامَ وَالجُلُودَ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: حَتَّىٰ أَكَلُوا الجُلُودَ وَالمَيْتَةَ، وَجَعَلَ يَخْرُجُ مِنَ الأَرْضِ كَهَيْئَةِ الدُّخَانِ.

فَأَتَاهُ أَبُو سُفْيَانَ، فَقَالَ: أَيْ مُحَمَّدُ، إِنَّ قَوْمَكَ قَدْ هَلَكُوا، فَادْعُ اللهَ أَنْ يَكْشِفَ عَنْهُمْ، فَدَعَا، ثُمَّ قَالَ: تَعُودُونَ بَعْدَ هَذَا - فِي حَدِيثٍ مَنْصُورٍ - ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الدخان: ١٠] إِلَىٰ ﴿عَآئِدُونَ﴾ [الدخان: ١٥]، أَنَكْشِفُ عَنْهُمْ عَذَابَ الآخِرَةِ؟ فَقَدْ مَضَىٰ: الدُّخَانُ، وَالبَطْشَةُ وَاللِّزَامُ».

وذهب غيره: إلىٰ أن هذا الدخان يكون قبل يوم القيامة، ففي حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يأخذ بأنفس الكافرين قبل يوم القيامة ويكون في شأن المؤمنين مثل الزكام، وفي مسلم عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ قَالَ: أَشْرَفَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ غُرْفَةٍ وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ السَّاعَةَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ تَرَوْا عَشْرَ آيَاتٍ: طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَالدَّابَّةَ، وَثَلاَثَةَ خُسُوفٍ: خَسْفٌ بِالمَشْرِقِ، وَخَسْفٌ بِالمَغْرِبِ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ العَرَبِ، وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدَنَ تَسُوقُ النَّاسَ أَوْ تَحْشُرُ النَّاسَ، فَتَبِيتُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا، وَتَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا».

وأي كان فهو آية من آيات الله، مع أن ابن كثير يقول: وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ إِلَىٰ ابْنِ عَبَّاسٍ حَبْرِ الْأُمَّةِ وَتُرْجُمَانِ الْقُرْآنِ. وَهَكَذَا قَوْلُ مَنْ وَافَقَهُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ أَجْمَعِينَ، مَعَ الْأَحَادِيثِ الْمَرْفُوعَةِ مِنَ الصِّحَاحِ وَالْحِسَانِ وَغَيْرِهِمَا، الَّتِي أَوْرَدْنَاهَا مِمَّا فِيهِ مَقْنَعٌ وَدَلَالَةٌ ظَاهِرَةٌ عَلَىٰ أَنَّ الدُّخَانَ مِنَ الْآيَاتِ الْمُنْتَظَرَةِ، مَعَ أَنَّهُ ظَاهِرُ الْقُرْآنِ. اهـ

﴿مُّبِينٌ﴾ بيّن واضح، يراه كل أحد، وعلىٰ قول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إنما هو خيال.

﴿١١﴾ ﴿يَغْشَى﴾ يغطي هذا الدخان ﴿ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فمن ذهب: إلىٰ أن الدخان كان في زمن رسول الله ﷺ كان عذابهم بالجوع والقحط، ومن ذهب إلىٰ أنه يكون يوم القيامة سيكون عذابهم بالنار وبئس القرار، فيتضرعون عند نزوله.

١٢ ﴿رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ﴾ ارفع، وادفع ﴿عَنَّا ٱلۡعَذَابَ﴾ الأليم الموجع، ﴿إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾ أي: مقرون لله بالربوبية والألوهية، ومع ذلك لا ينفعهم هذا الإقرار؛ لأنه في زمن لا تُقبل فيه التوبة، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٨].

١٣ ﴿أَنَّىٰ﴾ كيف يكون ﴿لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ العظة، ﴿وَقَدۡ جَآءَهُمۡ﴾ أتاهم، ﴿رَسُولٞ﴾ وهو محمد ﷺ، ﴿مُّبِينٞ﴾ يتكلم بلغتهم بأفصح عبارة وأوضح إشارة.

١٤ ﴿ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ﴾ أعرضوا، ﴿عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ﴾ من بعض أهل الكتاب كما زعموا أنه يعلمه مولىٰ ابن الحضرمي، وكذلك ﴿مَّجۡنُونٞ﴾ لا يعقل ما يفعل أو يقول.

وهذا من اضطرابهم كيف مُعلم مجنون؟ لا يستقيم الأمر، المجنون لا يتعلم، لكن من اضطرابهم وشكهم تارة يقولون: مجنون، وتارة يقولون: ساحر، وتارة يقولون: كاهن، وتارة يقولون: شاعر، وتارة يقولون: معلم، وتارة يقولون: أساطير الأولين، وهذا من السب القبيح للنبي ﷺ حيث يعمدون إليه وهو أرجحهم عقلًا وأعظمهم شأنًا ثم يتهمونه بالجنون.

وفي صحيح مسلم عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ ضِمَادًا، قَدِمَ مَكَّةَ وَكَانَ مِنْ أَزْدِ شَنُوءَةَ، وَكَانَ يَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ، فَسَمِعَ سُفَهَاءَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، يَقُولُونَ: إِنَّ مُحَمَّدًا مَجْنُونٌ، فَقَالَ: لَوْ أَنِّي رَأَيْتُ هَذَا الرَّجُلَ لَعَلَّ اللهَ يَشْفِيهِ عَلَىٰ يَدَيَّ، قَالَ فَلَقِيَهُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي أَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ، وَإِنَّ اللهَ يَشْفِي عَلَىٰ يَدِي مَنْ شَاءَ، فَهَلْ لَكَ؟.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَمَّا بَعْدُ»** قَالَ: فَقَالَ: أَعِدْ عَلَيَّ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ، فَأَعَادَهُنَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، قَالَ: فَقَالَ: لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ، وَقَوْلَ السَّحَرَةِ، وَقَوْلَ الشُّعَرَاءِ، فَمَا سَمِعْتُ مِثْلَ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ، وَلَقَدْ بَلَغْنَ نَاعُوسَ الْبَحْرِ، قَالَ: فَقَالَ: هَاتِ يَدَكَ أُبَايِعْكَ عَلَىٰ الْإِسْلَامِ، قَالَ: فَبَايَعَهُ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«وَعَلَىٰ قَوْمِكَ»**، قَالَ: وَعَلَىٰ قَوْمِي، قَالَ: فَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَرِيَّةً، فَمَرُّوا بِقَوْمِهِ، فَقَالَ صَاحِبُ السَّرِيَّةِ لِلْجَيْشِ: هَلْ أَصَبْتُمْ مِنْ هَؤُلَاءِ شَيْئًا؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَصَبْتُ مِنْهُمْ مِطْهَرَةً، فَقَالَ: رُدُّوهَا، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمُ ضِمَادٍ».

(١٥) ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ﴾ رافعوا ﴿ٱلْعَذَابِ﴾ عنهم، ﴿قَلِيلاً﴾ بسبب دعاء النبي ﷺ لهم، وهذا علىٰ تفسير من فسر العذاب بالدخان الذي وقع لأهل مكة، ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ إلىٰ كفركم وشرككم.

❐ **قال ابن كثير: يَحْتَمِلُ مَعْنَيَيْنِ:**

- أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ يَقُولُهُ تَعَالَىٰ: وَلَوْ كَشَفْنَا عَنْكُمُ الْعَذَابَ وَرَجَعْنَاكُمْ إِلَىٰ الدَّارِ الدُّنْيَا، لَعُدْتُمْ إِلَىٰ مَا كُنْتُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾ **[الْمُؤْمِنُونَ: ٧٥]**، وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ **[الْأَنْعَامِ: ٢٨]**.

- وَالثَّانِي: أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ: إِنَّا مُؤَخِّرُو الْعَذَابِ عَنْكُمْ قَلِيلًا بَعْدَ انْعِقَادِ أَسْبَابِهِ وَوُصُولِهِ إِلَيْكُمْ، وَأَنْتُمْ مُسْتَمِرُّونَ فِيمَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنَ الطُّغْيَانِ وَالضَّلَالِ، وَلَا يَلْزَمُ مِنَ الْكَشْفِ عَنْهُمْ أَنْ يَكُونَ بَاشَرَهُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ **[يُونُسَ: ٩٨]**، وَلَمْ يَكُنِ الْعَذَابُ بَاشَرَهُمْ، وَاتَّصَلَ بِهِمْ بَلْ كَانَ قَدِ انْعَقَدَ سَبَبُهُ وَوُصُولُهُ عَلَيْهِمْ.

وَلَا يَلْزَمُ أَيْضًا أَنْ يَكُونُوا قَدْ أَقْلَعُوا عَنْ كُفْرِهِمْ ثُمَّ عَادُوا إِلَيْهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ إِخْبَارًا عَنْ شُعَيْبٍ أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ حِينَ قَالُوا: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ **[الْأَعْرَافِ: ٨٨-٨٩]**، وَشُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَكُنْ قَطُّ عَلَىٰ مِلَّتِهِمْ وَطَرِيقَتِهِمْ. اهـ

(١٦) وانتظرهم ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ﴾ نأخذهم الأخذة ﴿ٱلْكُبْرَىٰ﴾ يوم بدر، وقيل: يوم القيامة، فعلىٰ التفسير بأن الدخان كان في عهد قريش سيكون البطشة الكبرىٰ يوم بدر حيث قُتِل منهم سبعون وأُسر سبعون، وإذا كان الدخان يكون في آخر الزمان سيكون البطشة الكبرىٰ القيامة، ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ أي: من الكافرين، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ **[السجدة:٢٢]**.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْأَيَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿١٧﴾ ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾ أضللنا واختبرنا وابتلينا، ﴿قَبْلَهُمْ﴾ قبل أهل مكة ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ في مصر، ﴿وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ﴾ وهو موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ، ﴿كَرِيمٌ﴾ في عطائه، وكريم في فعاله وصفاته.

﴿١٨﴾ وقال موسىٰ لفرعون: ﴿أَنْ أَدُّوٓاْ﴾ سلموا ﴿إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ واعطوني واتركوا لي بني إسرائيل حتىٰ أنصرف أنا وهم إلىٰ عبادة الله عز وجل، ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾ مرسل من الله بالبينات والهدىٰ، ﴿أَمِينٌ﴾ علىٰ وحيه الذي أنزله إليّ.

﴿١٩﴾ ﴿وَأَن لَّا تَعْلُواْ﴾ تتكبروا وتتعاظموا، ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ الذي خلقكم ونواصيكم بيده، ﴿إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ﴾ حجة، ﴿مُّبِينٍ﴾ ظاهرة، وكان مما آتاهم به: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأعراف:١٠٧-١٠٨].

﴿٢٠﴾ لكنهم أبوا إلا التهديد له بالقتل فقال: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ﴾ أي: التجأت، ﴿بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾؛ لأن فرعون قال: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ [غافر:٢٦].

﴿٢١﴾ ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي﴾ إن لم تستجيبوا لدعوتي، ﴿فَٱعْتَزِلُونِ﴾ أنتم في شأنكم وأنا في شأني.

﴿٢٢﴾ فلما أعرضوا عن دعوته كان منه: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ كافرون لا يستجيبون فأهلكهم، كما قال تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس:٨٨].

﴿٢٣﴾ فعند ذلك أمر الله بتحريز عباده: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي﴾ الذين آمنوا معك من بني إسرائيل، ﴿لَيْلًا﴾ خفية، ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ من فرعون وقومه.

وفعلًا: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الشعراء:٥٣-٥٦].وصلوا إلىٰ البحر، فكان البحر أمام بني إسرائيل وفرعون خلفهم، وحالهم كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء:٦١-٦٣].

﴿٢٤﴾ ثم قال الله لموسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ﴾ بعد مجاوزتك له، ﴿رَهْوًا﴾ ساكنًا ويابسًا كما كان، ﴿إِنَّهُمْ﴾ قوم فرعون ﴿جُندٌ﴾ جيش: ﴿مُّغْرَقُونَ﴾ وفعلًا أغرقهم الله فعند ذلك قال فرعون: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس:٩٠-٩١].

﴿٢٥﴾ ﴿كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ﴾ بساتين وافرات فيها من أنواع الفواكه والحبوب، ﴿وَعُيُونٍ﴾ أنهار تجري، ومع ذلك كفروا هذه النعمة.

﴿٢٦﴾ ﴿وَزُرُوعٍ﴾وكم تركوا من زروع كثيرات، ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ قصور فارهات يتنعمون فيها بأنواع النعم؛ لكنهم أبوا إلا الخروج فأغرقوا في اليم.

﴿٢٧﴾ ﴿وَنَعْمَةٍ﴾ يعني: تركوا نعمًا كثيرة ﴿كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾ في حال استراحة وسعة ورغد عيش.

﴿٢٨﴾ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما تركوها، ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ وهم بنوا إسرائيل كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:٥٩].

﴿٢٩﴾ ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ﴾ لم تكن لهم أعمال تُرفع إلىٰ السماء فلم تبكِ عليهم السماء، بسبب انقطاعها ﴿وَٱلْأَرْضُ﴾ لم تكن لهم أعمال علىٰ الأرض فلم تبكِ عليهم لانقطاعها، ﴿وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾ مؤخرين إلىٰ أن تقع منهم التوبة؛ لأنهم لجوا في باطلهم وكفرهم.

﴿٣٠﴾ ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا﴾ أنجينا وسلمنا، ﴿بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أصحاب موسىٰ، ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ الذي كان قد استخدمهم فيه فرعون، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي

ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص:٤].

فكان العمل في المزارع علىٰ بني إسرائيل، وكانت الخدمة في البيوت علىٰ نساء بني إسرائيل، والقبط وهم فرعون ومن إليه يتنعمون ويأكلون ويشربون ويظلمون، فنجىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بني إسرائيل من العذاب المهين، ولكنهم مع ذلك كانوا يُعرضون عن شكر الله عَزَّوَجَلَّ.

٣١ ﴿مِن فِرْعَوْنَ﴾ ملك مصر، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا﴾ متكبرًا متعاظمًا، ﴿مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ علىٰ نفسه وغيره، حيث قال: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات:٢٤].

وهذه مقولة لم يقلها غيره، فقد يقول: أنا رب، وقد يقول: أنا إله، لكن ربكم الأعلىٰ! كلمة كاذبة منه، فهو بينهم يحتاج إلىٰ الحمام، والأكل والشرب، والسكن ويخاف من البرد، وربما أصابه الحمىٰ وغير ذلك، لكنه الكبر، فالرب الأعلىٰ هو الله عَزَّوَجَلَّ ليس كمثله شيء، ولا يعجزه شيء.

٣٢ ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ﴾ اصطفيناهم، وفضلناهم، أي: بني إسرائيل، ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ لأن الله بكل شيء عليم، ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: عالمي زمانهم، وإلا فإن أمة محمد أفضل منهم، مثله قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة:٤٧].

٣٣ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم﴾ أعطيناهم، ﴿مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ﴾ الحجج البينات، ﴿مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟﴾ اختبار ﴿مُّبِينٌ﴾ ظاهر.

والمعنىٰ: أعطاهم الله عَزَّوَجَلَّ من الآيات ما يقع به الإيمان، والاستقامة، والاختبار إما أن يستجيبوا وإما أن يُعرضوا؛ ولكنهم مع ذلك كانوا في كثير شأنهم علىٰ الإعراض فعبدوا العجل، وسألوا موسىٰ أن يُريهم الله جهرة، ويسألونه غيرها من الأسئلة التعنتية، فغضب الله عليهم وجعل منهم القردة والخنازير.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

٣٤ ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: كفار قريش، ﴿لَيَقُولُونَ﴾ معترضين علىٰ الإيمان.

(٣٥) ﴿إِنْ هِيَ﴾ ما هي: ﴿إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ﴾ هذه الموتة التي لا بعث بعدها ولا نشور، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ بمبعوثين وعائدين إلىٰ رب العالمين.

(٣٦) ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا﴾ الذين ماتوا ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في قولكم أنا نبعث بعد الموت.

(٣٧) فكان الرد عليهم: ﴿أَهُمْ﴾ أي: كفار قريش، ﴿خَيْرٌ﴾ حتىٰ يسلموا من العذاب والنكال، والمعنىٰ ليسوا خيراً منهم ﴿أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ أهل اليمن.

وليس هو اسم علىٰ شخص بعينه، وإنما كان يقال لملك مصر فرعون، وملك الروم قيصر، وملك الإسكندرية المقوقس، وملك الفرس كسرىٰ، وملك الحبشة النجاشي.

وكان من شأن تبع أسعد الكامل: أنه فتح الفتوح لبلاده حتىٰ وصل إلىٰ سمرقند وإلىٰ الشام وإلىٰ غيرها من البلدان، ثم نزل إلىٰ المدينة فأراد دخولها، فكانوا يحاربونه بالنهار ويكرمونه بالليل، فعجب من صنيعهم، ثم خرج إليه رجلان من اليهود إذ كانوا علىٰ شريعة موسىٰ قبل مبعث المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فقالا له: إنك لن تستطيع دخول هذه البلدة، فسيكون لها شأن مع نبي يكون في آخر الزمان، ثم أخذهما معه، فبينما هو في الطريق أراد دخول مكة وهدمها فقالا له: هذا بيت معظم لنبي آخر الزمان، فطاف به وكساه، ومما يذكرون أنه أول من كسىٰ الكعبة، ثم أخذهما معه إلىٰ اليمن، فدخلا اليمنيون في اليهودية في ذلك الحين؟

فالذم لقومه لمن لم يؤمن منهم، وقيل: الذم لمن كان قبلهم من قوم سبأ الذين أنزلهم الله عَزَّوَجَلَّ بلاد اليمن بلاد مارب وما إليها، وكانت النعم تأتيهم في صبحهم ومسائهم: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم﴾ [سبأ:١٦]، سيلًا خرب ديارهم وشتتهم ومزقهم كل ممزق.

﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الكفار والأمم السالفة، ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ جميعًا بسبب ذنوبهم ومعاصيهم، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ مشركين واقعين في المعاصي العِظام.

(٣٨) ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ لاهين بخلقهما، كقول الله عَزَّوَجَلَّ وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧]، قوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ

﴿ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون:١١٥-١١٦]، فلم يوجد الله عَزَّوَجَلَّ السماوات العاليات والأرض المبسوطة من باب اللعب والعبث واللهو، وإنما لحكمة.

٣٩ ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ﴾ أوجدناهما، ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ الثابت الواقع فابتلىٰ العباد عليهما، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ الكفار ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ لكفرهم وبعدهم عن تدبر القرآن، والاستجابة لدعوة النبي عليه الصلاة والسلام.

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

٤٠ ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ يوم القيامة سُميَّ بـ(يوم الفصل)؛ لأنه يُفصل بين العباد في أعمالهم وأقوالهم وجميع شأنهم، فريق في الجنة وفريق في السعير، ﴿مِيقَٰتُهُمْ﴾ موعدهم قد وقْتَ لهم يجتمعون فيه: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ لا يتخلف أحد لا من المتقدمين ولا من المتأخرين.

٤١ وهو ﴿يَوْمَ﴾ مهول ﴿لَا يُغْنِى مَوْلًى﴾ قريب، ﴿عَن مَّوْلًى﴾ عن قريب، ﴿شَيْـًٔا﴾ وإن قل، بل الحال كما قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس:٣٤-٣٧]، وقال: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر:١٨]، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يُمنعون من الله عَزَّوَجَلَّ، وبطشه.

٤٢ ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾ تجاوز عنهم، وهم أهل الإيمان والإسلام، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُغلب، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بعباده المؤمنين، كما قال: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣]، فاقترنت عزته برحمته دليل علىٰ أنه لا يُعاجل بالعقوبة، وأنه يعفو ويصفح إلا من استحق العذاب الأليم.

٤٣ ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ﴾ في النار.

٤٤ شأنها أنها: ﴿طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ الكافر إذا طعمها أشعلت بطنه.

٤٥ وحاله معها أنها ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ عكر الزيت، ﴿يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ﴾ لشدة حرارته وفورانه.

﴿٤٦﴾ ﴿كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ﴾ الماء المتناهي في حرارته.

﴿٤٧﴾ ويقول الله لزبانية النار: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ﴾ ادفعوه من ظهره واسحبوه علىٰ وجهه، ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ إلىٰ وسط النار.

﴿٤٨﴾ ﴿ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾ قيل: بأنهم يضربون رأسه بمطرقة من حديد حتىٰ إذا هُشِمَ صبوا عليه الحميم، فينزل من رأسه حتىٰ يأتي علىٰ جوفه، ويصل إلىٰ أقدامه، نسأل الله السلامة والعافية.

﴿٤٩﴾ ويقال له تهكمًا ﴿ذُقْ﴾ أيها الكافر هذا العذاب الأليم، ﴿إِنَّكَ﴾ كنت تزعم أنك ﴿أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ قيل: ما أنت بعزيز ولا كريم.

﴿٥٠﴾ ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ العذاب الواقع يوم القيامة، ﴿مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾ تجادلون وتكذبون وتردون.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿٥١﴾ ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الذين لازموا فعل المأمور وترك المحظور، والصبر علىٰ المقدور، ﴿فِى مَقَامٍ﴾ مرتفع وعلو: ﴿أَمِينٍ﴾ فيه الأمن والسلامة من الأسقام، والأمراض، والفتن، والمحن، والسلامة من النيران.

﴿٥٢﴾ ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ بساتين ﴿وَعُيُونٍ﴾ أنهار جاريات بأنواع الخير العظيم.

﴿٥٣﴾ ﴿يَلْبَسُونَ﴾ في الجنة: ﴿مِن سُندُسٍ﴾ الحرير، ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ الحرير الغليظ، ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ أي: علىٰ سرر متقابلين يُكلم بعضهم بعضًا بما كان عليه في غابر زمانهم، وبنعيم الله عَزَّوَجَلَّ عليهم.

﴿٥٤﴾ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما أنعمنا عليهم بحسن المسكن، ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ﴾ شديدات البياض ﴿عِينٍ﴾ عظيمات الأعين يتمتعون بهن، لو كشفت إحداهن النصيف عن وجهها لغطت شعاع الشمس؛ لجمالها، ولو بصقت في البحر لحولته إلىٰ ماء عذب من عذوبة ريقها، يُرىٰ مخ ساقيها من وراء اللحم، تغني زوجها وبعلها، ويتمتع بها.

٥٥ و﴿يَدْعُونَ﴾ يُدفع إليهم: ﴿فِيهَا﴾ في الجنة ﴿بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ من أنواع الفواكه المأكولة، ﴿آمِنِينَ﴾ لا يخافون نضوبها ولا ذهابها ولا تحولًا عنها.

٥٦ ومع هذا النعيم: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ﴾ بل ولا النوم؛ لأن النوم أخو الموت، فعن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه يؤتىٰ بالموت علىٰ صورة كبش فيُذبح الموت بين الجنة والنار، ثم يقال: **« يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ وَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ وَلَا مَوْتَ» متفق عليه** ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ يعني: موت الدنيا، ﴿وَوَقَاهُمْ﴾ سلمهم ربهم: ﴿عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ الموجع المحرق.

٥٧ ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ فهو ذو الفضل العظيم، والعطاء الواسع، والخير الجسيم، ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي هم فيه من النعيم: ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي لا بعده، سلموا من النار، ونظروا إلىٰ وجه الجبار، وشُغلوا بفض الابكار، ويتنعمون في العشي والإبكار لا يُغير عنهم حال ولا يخافون له زوال بل هم في نعيم متصل، وهذا من فضل الله علىٰ المؤمنين.

٥٨ ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ﴾ سهلناه أي: القرآن: ﴿بِلِسَانِكَ﴾، العربي المبين ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتعظون فينزجرون عن سيء أعمالهم.

٥٩ ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ انتظر يا محمد لما توعدهم الله عَزَّوَجَلَّ به من خزي الدنيا والآخرة، ﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ منتظرون.

وقد أهانهم الله عَزَّوَجَلَّ في دنياهم، فقد كانت قريش لا تُغزىٰ، فأباح الله مكة لنبيه يوم الفتح ودخلها في حال ظفر ونصر، وهُزِموا في بدر وعادوا بالخزي والهوان في الخندق، واعترفوا بالنبي ﷺ في الحديبية، وحالهم كل يوم في انكسار، ومن مات منهم علىٰ الكفر كان من أهل النار، فَلَمَّا أَلْقَاهُمْ فِي الْقَلِيبِ، وَقَفَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: **«يَا أَهْلَ الْقَلِيبِ، هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمْ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا»** متفق عليه عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

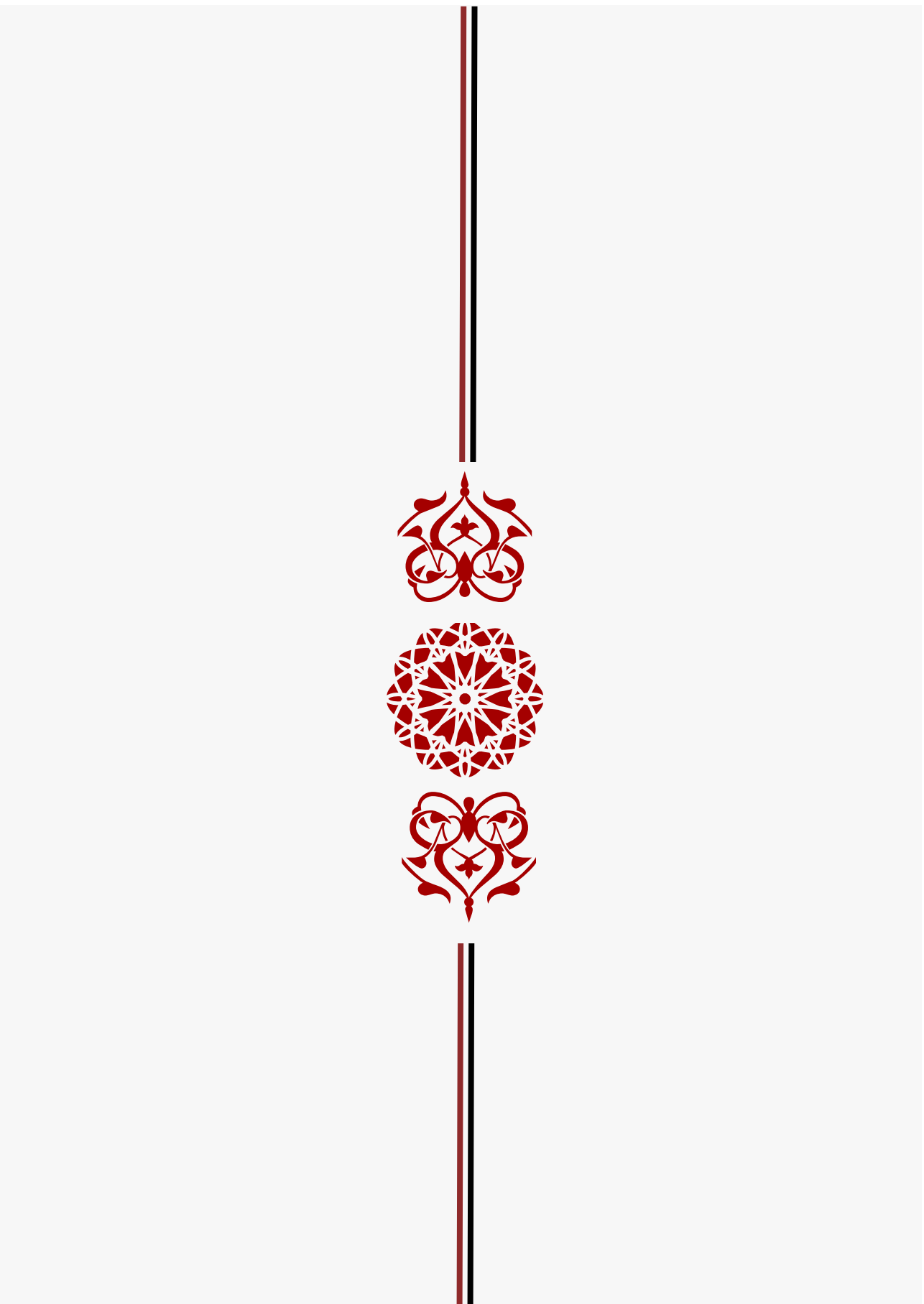
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الدُّخَانِ



تَفْسِيرُ سُورَةِ الْجَاثِيَةِ





سُورَةُ الْجَاثِيَةِ

مَكِّيَّةٌ، وَآيَاتُهَا سَبْعَةٌ وَثَلَاثُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾.

١ {حمٓ}.

٢ ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ القرآن، ﴿مِنَ اللهِ﴾ بدأ من الله، وسمعه منه جبريل حقيقة ثم بلغه محمداً ﷺ ﴿الْعَزِيزِ﴾ الذي لا يُغلب، ﴿الْحَكِيمِ﴾ في فعله وأمره.

٣ ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ﴾علامات بينات،﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ المقرين المنقادين.

٤ ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ﴾ أيها الناس، ﴿وَمَا يَبُثُّ﴾ في هذه الأرض: ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ سواءً مما يمشي علىٰ بطنه، أو ممن يمشي علىٰ رجلين، أو ممن يمشي علىٰ أربع، أو ممن يطير في الهواء، ﴿آيَاتٌ﴾ علامات، ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ يقرون، ويؤمنون، وينقادون.

٥ ﴿وَ﴾ في ﴿اخْتِلَافِ ٱلَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ آية عظيمة من حيث تعاقب الليل والنهار، والشمس والقمر.

كما قال تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]، وقال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [يس: ٣٧].

﴿وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من السحاب، ﴿مِن رِّزْقٍ﴾ مطر، ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ بعد يباسها، ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ لا سيما في البحار فتمشي بها السفن، وتقع بها الأمواج، وتذهب بسببها الروائح الكريهة، وتلقح بها الأشجار، ﴿آيَاتٌ﴾ علامات بينات: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ خبر الله عَزَّوَجَلَّ.

٦ ﴿تِلْكَ﴾ المذكورات، ﴿آيَاتُ اللَّهِ﴾ البينات العظيمات، ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ نخبرك ونعلمك: ﴿بِالْحَقِّ﴾ الثابت، ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ﴾ بعد كتاب الله ﴿وَآيَاتِهِ﴾ الكونية والشرعية ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ يعني: إذا لم يؤمنوا بخبر الله وخبر رسوله ﷺ فبأي خبر يأخذون؟

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩ مِّن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠ هَٰذَا هُدًى ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝١١﴾.

٧ ﴿وَيْلٌ﴾ إخبار عن عذاب أليم، وقيل: وادٍ في جهنم، ﴿لِّكُلِّ أَفَّاكٍ﴾ كذاب في قوله، ﴿أَثِيمٍ﴾ في فعله متعاطي للإثم والبغي، قيل: نزلت في النضر بن الحارث والله أعلم.

٨ ومن شأن هذا الكذاب أنه: ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ﴾ القرآن، ﴿تُتْلَىٰ﴾ تُقرأ، ﴿عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ﴾ يثبت علىٰ كفره وعناده وعمله الذي فعله، بينما صفات المؤمنين: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:١٣٥]، وصفات المعرضين: **«وَيْلٌ لِأَقْمَاعِ الْقَوْلِ، وَيْلٌ لِلْمُصِرِّينَ الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ»**، أخرجه أحمد عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

حال كونه في فعله ذلك ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ متعاليًا عن سماع الحق، ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ كأنه لم يسمع تلك الآيات المقروءة، ﴿فَبَشِّرْهُ﴾ يا محمد وأخبره: ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ موجع في الآخرة.

٩ ﴿وَإِذَا عَلِمَ﴾ حفظ ﴿مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا﴾ من القرآن وأحكامه كفر به و ﴿اتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ لعبًا وسخرية، ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ يُسحبون في النار علىٰ وجوههم، ويقيدون ويُكبلون، ويفضحون علىٰ رؤوس الأشهاد.

١٠ ﴿مِن وَرَائِهِمْ﴾ أمامهم، ﴿جَهَنَّمُ﴾ النار، ﴿وَلَا يُغْنِي﴾ يدفع ﴿عَنْهُم مَّا كَسَبُوا﴾ من الأموال وما عملوا من الأفعال، ﴿شَيْئًا﴾ وإن كَثُر، حتىٰ ولو كانت من الأعمال الصالحة مع كفرهم لا تنفعهم.

كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣]، وإن كانت من الأعمال السيئة تزيدهم نكالًا ووبالًا.

﴿وَلَا﴾ يغني عنهم: ﴿مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ أصنامًا وأوثانًا يعبدونها من دون الله، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الدنيا والآخرة، في الدنيا بالقتل والسبي، وفي الآخرة عذاب النار وبئس القرار.

﴿١١﴾ ﴿هَٰذَا﴾ القرآن، ﴿هُدًى﴾ دلالة وإرشاد، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ الشرعية، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ﴾ سيء، ﴿أَلِيمٌ﴾ موجع.

﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿١٢﴾ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ هيأه لمصالحكم وأباح لكم صيده، ﴿لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ﴾ السفن، ﴿فِيهِ بِأَمْرِهِۦ﴾ القدري الكوني، ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ تلتمسوا فضله الواسع من الرزق وغيره، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ على نعمه الكثيرة، ويكون الشكر بالقلب استكانةً وباللسان حمدًا وذكرًا، وبالجوارح انقيادًا.

﴿١٣﴾ ﴿وَ﴾ أيضًا، ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من شمس وقمر ونجوم، ﴿وَمَا فِى الْأَرْضِ﴾ من أنهار وأشجار وجبال وغيرها، ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ نعمة لكم أنه أباح لكم ما خلق من الحيوان، وغيره إلا ما حرمه الدليل.

❁ **وبهذه الآية استدل جمهور العلماء**: على أن الأصل في الحيوان وفي كثير من الأشياء الإباحة حتى يأتي الدليل بالتحريم، كقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ **[البقرة:٢٩]**.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ البيان وفي تلك النعم: ﴿لَـَٔايَٰتٍ﴾ علامات بينات: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يتعظون فيتوصلون بها إلى معرفة ما لله من الحق، وما لله من الوصف العظيم.

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿١٤﴾ ﴿قُل﴾ يا محمد: ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ استجابوا لدعوتك، ﴿يَغْفِرُواْ﴾ يتجاوزوا ويصفحوا عند الكفار وما نزل منهم من أذى ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ﴾ لا يخافون ﴿أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ وقائع الله التي تنزل بهم، ومع ذلك لا يؤملون بعثًا ولا نشورًا، ﴿لِيَجْزِيَ﴾ يعاقب ويثيب الله عَزَّوَجَلَّ ﴿قَوْمًا﴾ يوم القيامة، ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الأعمال الحسنات أو السيئات، فكل يجازى بعمله.

(١٥) ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ من ذكر أو أنثىٰ: ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ نفعها، ﴿وَمَنْ أَسَآءَ﴾ من ذكر أو أنثىٰ: ﴿فَعَلَيْهَا﴾ فعلىٰ نفسه، ويجد مغبة ذلك، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ فتجازون علىٰ أعمالكم.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

(١٦) ﴿وَ﴾ اذكر يا محمد: ﴿لَقَدْ آتَيْنَا﴾ أعطينا، ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ اليهود والنصارىٰ، ﴿الْكِتَابَ﴾ التوراة والإنجيل، ﴿وَالْحُكْمَ﴾ العلم والحكمة وكان الملك فيهم، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة:٢٠].

﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ أيضًا جعلها في بني إسرائيل إلا ما كان من محمد ﷺ في آخر الزمان، ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ﴾ أعطيناهم، ﴿مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ الحلالات، ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي: علىٰ عالمي زمانهم فكانوا أفضل أهل زمانهم عند الله عَزَّوَجَلَّ وعند المؤمنين، حتىٰ غيروا وبدلوا.

(١٧) ﴿وَآتَيْنَاهُمْ﴾ أعطيناهم، ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ بيان واضح جلي ﴿مِّنَ الْأَمْرِ﴾ وهو مبعث محمد ﷺ وغير ذلك، ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾ تفرقوا وتحزبوا ﴿إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ وقامت عليهم الحجة، وكان ذلك ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ أي: أن سبب خلافهم: البغي في العلم: وهو تجاوز الحد، وإلا لو التزموا ما في التوراة والإنجيل من وصف محمد ﷺ لرأوا الشيء العظيم، ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ يحكم بين المختلفين من بني إسرائيل، ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيه من الأقوال والأفعال.

(١٨) ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ﴾ يا محمد من بعد موسىٰ عليه السلام ﴿عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ على سنة وطريقة مختصة بإمة محمد ﷺ، كما قال الله تعالىٰ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨].

وكانت شريعة محمد ﷺ كاملة تامة في أحكامها وأخبارها، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥]، وأما يتعلق بالعقائد والتوحيد، فقد اتفقت عليها جميع الرسل، كما قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٣].

﴿فَٱتَّبِعْهَا﴾ أي: اعمل بها، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [الأعراف:٣]، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ﴾ مراد ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ شرع الله عز وجل، يعني المشركين، والمخالفين لهدي النبي ﷺ.

﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: الكفار الذين يحاولون في إغوائك، ﴿لَن يُغْنُوا۟﴾ لن يدفعوا ﴿عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ إن أراد عذابك، فلن يجلبوا لك نفعًا ولن يدفعوا عنك ضرًا إذا أطعتهم، ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين، ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ ينصر بعضهم بعضًا ويحب بعضهم بعضًا، ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ يحبهم وينصرهم ويدافع عنهم، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ وَلِىِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف:١٩٦].

﴿هَٰذَا﴾ القرآن المنزل عليك من الله، ﴿بَصَآئِرُ لِلنَّاسِ﴾ علامات واضحات يُبصرون بها الحق والهدىٰ، ﴿وَهُدًى﴾ يرشدهم ويدلهم إلىٰ سبيل الخير والرشاد، ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ من الله عَزَّوَجَلَّ رحم به العباد حين استجابوا له، ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ يقرون ويستيقنون بأمر الله عَزَّوَجَلَّ وشرعه، ولا شك في قلوبهم منه فيهتدون به.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿أَمْ حَسِبَ﴾ ظن، ﴿ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟﴾ عملوا: ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الخطيئات، ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ﴾ في الأجر والمثوبة، ﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أقروا لله بالوحدانية ولرسوله ﷺ بالرسالة، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الأعمال الجليلات من صلاة، وصيام، وحج، وقيام وغير ذلك، ﴿سَوَآءً﴾ فهذا لا يكون، ويظنون أيضًا أن يكون شأن: ﴿مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ سواء، ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ بئس هذا الحكم الجائر فهذا لا يكون، إذ أنه حكم سيء حيث ظن الكفار: أنهم علىٰ حال حسن مثل المسلمين.

أو علىٰ قول بعض المفسرين: أنهم قالوا: نحن أحسن حالًا منكم في الدنيا، وإن كانت آخرة كما تقولون سنكون أحسن حالًا منكم، فكانوا يسخرون من المؤمنين.

❁ وهذه الآية من الأدلة علىٰ عدم المساواة بين المسلمين والكفار، وبين المؤمنين الأبرار وبين الفجار، كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝٣٦﴾ [القلم:٣٥-٣٦].

﴿٢٢﴾ ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ والصدق فلم يخلقهن عبثًا، كما قال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:١١٥].

﴿وَلِتُجْزَىٰ﴾ تثاب يوم القيامة، ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ من المكلفين، ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ عملت، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ لأن الله ليس بظلام للعبيد، كما قال: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[الكهف:٤٩]، وإنما يوفون أعمالهم ويجوزن بأفعالهم.

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٢٣ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝٢٤ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٥ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٢٦﴾.

﴿٢٣﴾ ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ أخبرني يا محمد: ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ يعبده من دون الله، ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: علىٰ علم أنه ليس أهلًا للهداية، أو علىٰ أنه قد عَلِمَ أن الحق في اتباع الإسلام، وأبىٰ إلا الانحراف، قال سعيد بن جبير: كانت العرب يعبدون الحجارة والذهب والفضة، فإذا وجدوا شيئًا أحسن من الأول رموه، أو كسروه وعبدوا الآخر، ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ﴾ فلا يسمع الحق، ﴿وَقَلْبِهِۦ﴾ فلا يعقل الحق، ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ عن الحق، ﴿فَمَن يَهْدِيهِ﴾ يوفقه ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ﴾ لا هادي له، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون.

﴿٢٤﴾ ﴿وَقَالُوا۟﴾ الكفار منكرين للبعث والنشور: ﴿مَا هِىَ﴾ الحياة ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ﴾ فيها، ﴿وَنَحْيَا﴾ أي: الحياة التي هي قبل الموت، أو أنهم يموتون ويحيىٰ غيرهم، ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ﴾ يفنينا، ﴿إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ لاعتقادهم: أن الدهر هو المتصرف في الكون، أو لاعتقادهم أن ذهاب العمر بذهاب الليالي والأيام.

❁ والدهر ليس من أسماء الله عَزَّوَجَلَّ، وما جاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ: **«يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الْأَمْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ»** متفق عليه.

فـ(المراد): مصرف الدهر؛ لأن المُقلِب غير المُقلَب، فالذي يُقلِب الليل والنهار هو الله، والمُقلَب: هو الليل والنهار، ثم إن الدهر من الأسماء الجامدة التي لا تدل علىٰ الكمال.

وقد خطأ العلماء ابن حزم في إثباته الدهر اسمًا لله عَزَّوَجَلَّ.

وبالنسبة لحكم ساب الدهر: فمن كان يعتقد أن الدهر هو المتصرف في هذا العالم فهو كافر كفر أكبر مُخرج من الملة.

ومن رد الأمر إلىٰ الدهر من باب أنه سببه، أو أن الأشياء تقع فيه فلا بد أن يُعلم أن الله هو خالق السبب والمسبب، ولا يجوز سب الدهر لما تقدم من قول رسول الله ﷺ: **«لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ»**، إلا ما كان من باب الإخبار كقول لوط: **«هذا يوم عصيب»**، أو يوم شاتٍ، أو صيف حار.

﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ﴾ القول بأن الدهر يفنيهم ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ يؤثر من القرآن أو السنة، ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ يخرصون ويكذبون.

﴿٢٥﴾ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ﴾ تُقرأ، ﴿عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ القرآن، ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات جليات، ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾ شبهتهم في رد القرآن والسنة: ﴿إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا﴾ ارجعوا آبائنا، ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في قولكم بالبعث والنشور.

﴿٢٦﴾ ﴿قُلِ﴾ لهم يا محمد: ﴿اللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ يوجدكم من العدم، ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ ويردكم إلىٰ الأرض، ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ﴾ يحشركم، ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ حيث يبعثكم من قبوركم، وتبدأ الإعادة من عجب الذنب، ففي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«يَبْلَىٰ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْإِنْسَانِ إِلَّا عَجْبَ الذَّنَبِ، وَفِيهِ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»** متفق عليه، ﴿لَا رَيْبَ﴾ لا شك: ﴿فِيهِ﴾ في يوم القيامة والبعث والنشور، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ علمًا يفيدهم، وإلا فبعضهم يصنع الطائرات، والسيارات، والقطارات، والهواتف، والكمبيوترات؛ لكنهم لا يعلمون علمًا يفيدهم من القرآن والسنة، كما قال تعالىٰ: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿٢٧﴾ ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الملك المطلق فلا يعجزه شيء، ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ القيامة، ﴿يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ﴾ يلحقهم الخسار، ﴿الْمُبْطِلُونَ﴾ الكافرون، فتظهر لهم أعمالهم السيئة، وتغيب عنهم أعمالهم الحسنة إن كانوا قد عملوا شيئًا.

كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤]، وقال: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

﴿٢٨﴾ ﴿وَتَرَى﴾ في ذلك اليوم، ﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾ كل طائفة، ﴿جَاثِيَةً﴾ علىٰ ركبها؛ لشدة الهول الذي ينتظرها، وقيل: جاثية متميزة، المؤمنون علىٰ حِدةٍ، والكفار علىٰ حِدةٍ، ولا مانع أن يجلسوا علىٰ ركبهم بعد تميزهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾[يس:٥٩].

﴿كُلُّ أُمَّةٍ﴾ من هذه الأمم والطوائف، ﴿تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ أي: الذي سُطرت فيها أعمالها فيقرؤون ما فيه.

كما قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَنْ كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾ [الإسراء:٧١-٧٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]، ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾ تجازون علىٰ أعمالكم، ﴿مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خيرٍ أو شرٍ.

﴿٢٩﴾ ﴿هَٰذَا﴾ يعني: الكتاب الذي يُعطونه ذلك اليوم، ﴿كِتَابُنَا﴾ الذي سُطرت فيه أعمالكم، ﴿يَنْطِقُ﴾ يُخبرُ أي: بما فيه من الكتابة، وليس معناه أنه يتكلم، ﴿عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ الثابت الذي وقع منكم، ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ﴾ أي: يُنسخ مما في أيدي الحفظة: ﴿مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال، ويكون الناس علىٰ حالين مؤمن وكافر.

﴿٣٠﴾ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فيكون حالهم في ذلك اليوم: أن الله عَزَّوَجَلَّ يكرمهم: ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾ جنته، ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ﴾ الفلاح، ﴿الْمُبِينُ﴾ الواضح الظاهر إذ لا فوز بعده، كما قال الله: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران:١٨٥].

﴿٣١﴾ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أعرضوا، فيتهكم بهم بقوله: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى﴾ تقرأ، ﴿عَلَيْكُمْ﴾ من باب سؤال التبكيت، ﴿فَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أعرضتم، ﴿وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ تتعاطون الكفر وغيره.

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿٣٢﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ لكم يا معاشر الكفار: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بالعذاب ﴿حَقٌّ﴾ ثابت وسيأتي، ﴿وَالسَّاعَةُ﴾ لا ريب فيها، وقد جاء في قراءة: وَالسَّاعَةَ، ﴿لَا رَيْبَ﴾ لا شك، ﴿فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ تكذيبًا وإعراضًا، ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ والظن لا يُغني من الحق شيئًا، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ بمؤمنين ومقرين.

﴿٣٣﴾ ﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾ ظهر، ﴿سَيِّئَاتُ﴾ جزاء سيئات، ﴿مَا عَمِلُوا﴾ في الدنيا، ﴿وَحَاقَ﴾ نزل: ﴿بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ يسخرون، إذ أنهم كانوا يزعمون: أن الساعة لن تكون، وربما تضاحكوا وتمايلوا في ذلك.

﴿٣٤﴾ ﴿وَقِيلَ﴾ لهم: ﴿الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ﴾ نترككم، ﴿كَمَا نَسِيتُمْ﴾ أعرضتم عن الإيمان بالبعث والنشور، ﴿لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ يوم القيامة، ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ خالدين فيها وبئس القرار، ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ ينصرونكم فيسلمونكم من هذه النار والعذاب المهين.

وفي صحيح مسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ هَلْ نَرَىٰ رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: **«هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ فِي الظَّهِيرَةِ، لَيْسَتْ فِي سَحَابَةٍ؟»** قَالُوا: لَا، قَالَ: **«فَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لَيْسَ فِي سَحَابَةٍ؟»** قَالُوا: لَا، قَالَ: " فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ، إِلَّا كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا، قَالَ: فَيَلْقَىٰ الْعَبْدَ، فَيَقُولُ:

أَيْ قُلْ أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ فَيَقُولُ: بَلَىٰ، قَالَ: فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي".

٣٥ ﴿ذَٰلِكُم﴾ أي: سبب ما نالكم من الخزي، ﴿بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ القرآن والسنة، ﴿هُزُوًا﴾ سخرية واستهزاءً، مع أنها موجبة للجد، والاجتهاد والعمل بها ﴿وَغَرَّتْكُمُ﴾ ألهتكم، ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ عن طاعة ربكم، وأنكرتم البعث والنشور، ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ أي: من النار، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٦٧]، وكما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ﴾ [فاطر: ٣٦]. ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: لا يُسمح لهم بالعودة من أجل إحداث عمل جديد يدخلون به الجنة، ولا تقبل أعذارهم.

❁ وهذا دليل علىٰ أبدية النار، وأنها لا تفنىٰ.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾.

٣٦ ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾ في حكمه القدري والشرعي والكوني، ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ﴾ مالك السماوات ومدبرها، ﴿وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ﴾ الواسعة ومصرف ما فيها ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ جميع المكلفين، فيُخبر بربوبية الله لجميع العالم العلوي والسفلي، وأنه هو المتصرف فيه خلقًا وإيجادًا وتدبيرًا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج:٦٥].

٣٧ ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ العظمة والملك والجلال ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فهو العظيم ذاتصا وصفاتا وأفعالًا، وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«الْعِزُّ إِزَارُهُ، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ، فَمَنْ يُنَازِعُنِي عَذَّبْتُهُ»** اخرجه مسلم، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُغلب، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في فعله وأمره، لا إله إلا هو، وهو رب العرش العظيم.

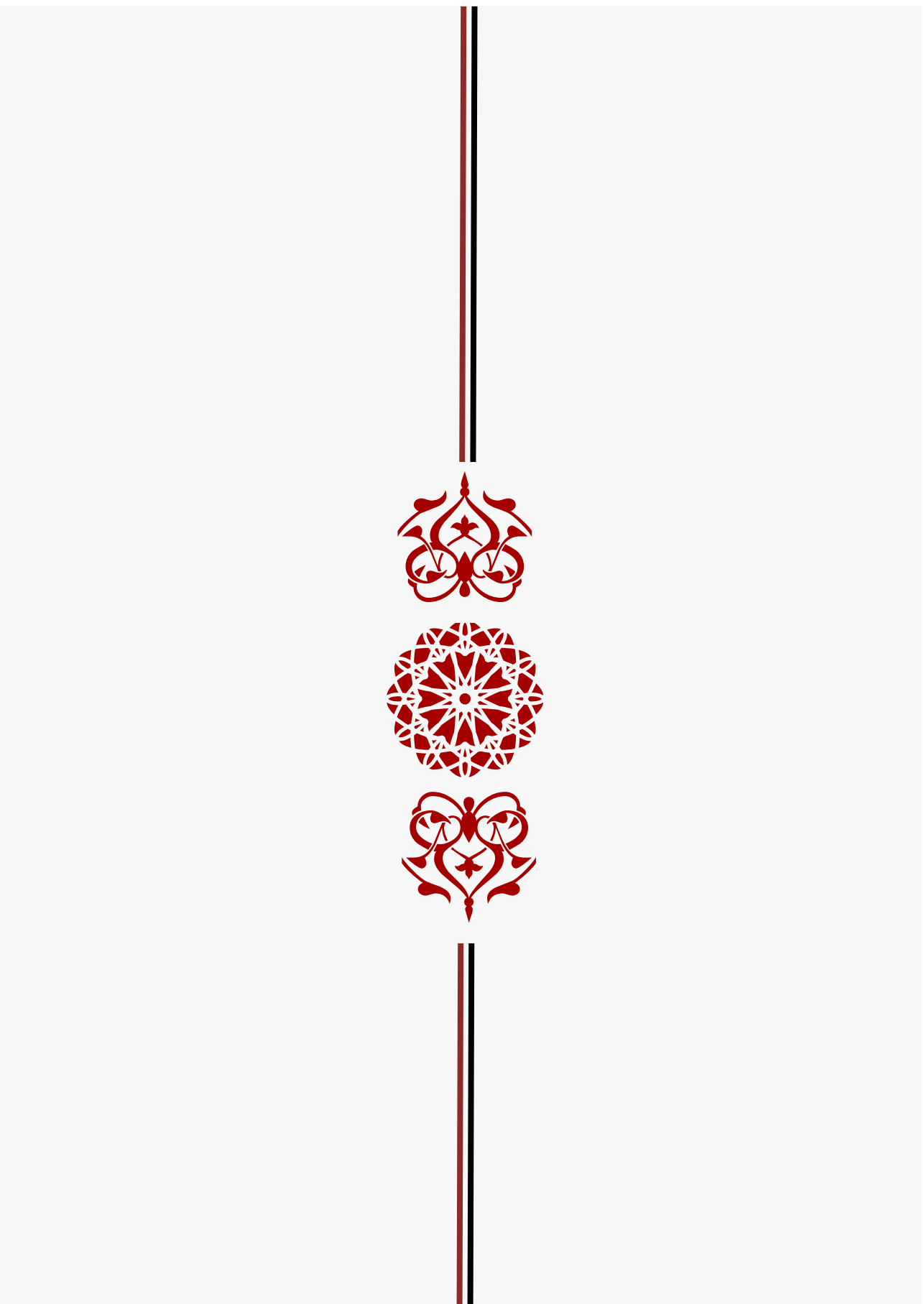
وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الجَاثِيَةِ



تَفْسِيرُ سُورَةِ الْأَحْقَافِ





سُورَةُ الْأَحْقَافِ

مَكِّيَّةٌ، وآيَاتُهَا خَمْسَةٌ وَثَلَاثُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ۝٣ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥﴾.

١ ﴿حمٓ﴾.

٢ ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

٣ ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ العدل الثابت لا العبث، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الدخان:٣٨]، ﴿وَ﴾ يكون شأنهما والحياة فيهما إلىٰ ﴿أَجَلٍ﴾ وقت ﴿مُّسَمًّى﴾ معلوم ثم تنقضي هذه الحياة، ويعود الناس إلىٰ حياة أبدية أزلية، لا موت فيها يستوي في ذلك المنعم و المعذب، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ جحدوا وأعرضوا، ﴿عَمَّآ أُنذِرُوا۟﴾ خوفوا وبلِّغوا به، من الوحي والقرآن، ﴿مُعْرِضُونَ﴾ غير مستجيبين.

٤ ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿أَرَءَيْتُم﴾ أخبروني، ﴿مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأصنام والأوثان، ﴿أَرُونِى﴾ أعلموني وأخبروني ﴿مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ إن كنتم صادقين في خبركم أنها آلهة حتىٰ نعلم قوتهم وملكها، ﴿أَمْ لَهُمْ﴾ لهذه الآلهة ﴿شِرْكٌ﴾ مشاركة ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ والأرض إن لم يكن لهم خلق، والواقع أنهم لم يخلقوا شيئًا من الأرض وليس لهم شرك في السماوات فالملك لله الواحد القهار، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢].

﴿ٱئْتُونِى﴾ علىٰ قولكم ﴿بِكِتَٰبٍ﴾ يُخبر بمثل قولكم ﴿مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾ من قبل القرآن: من التوراة، والإنجيل، والزبور، وغير ذلك، ﴿أَوْ﴾ ائتوني بـ﴿أَثَٰرَةٍ﴾ بقية ﴿مِّنْ عِلْمٍ﴾ يؤثر عن الأولين يدل علىٰ قولكم هذا الذي تزعمونه، ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم، والواقع: أن الله لا شريك له في ملكه ولا في خلقه ولا في تدبيره، كما أنه لا شريك له في عبادته.

﴿وَمَنْ﴾ لا ﴿أَضَلُّ﴾ أكفر، ﴿مِمَّن يَدْعُوا۟﴾ يعبد، ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأصنام والأوثان، ﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥ﴾ دعاؤه ويحقق له رجاءه؛ لأنها أصنام صماء بكماء، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢]، وهذا حالهم، ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ﴾ الأصنام ﴿عَن دُعَآئِهِمْ﴾ دعاء ونداء المشركين، ﴿غَٰفِلُونَ﴾ لا يسمعون، وإذا سمعوهم لا يستجيبون.

كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤].

ويقول إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في بيان عجزهم: ﴿قَالَ بَل فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء: ٦٣-٦٨].

﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾.

﴿وَإِذَا حُشِرَ﴾ جمع ﴿ٱلنَّاسُ﴾ يوم القيامة، ﴿كَانُوا۟﴾ أي: الأصنام والأوثان والمعبودات: ﴿لَهُمْ﴾ للكفار ﴿أَعْدَآءً﴾ يُخاصمونهم، مثل قوله تعالىٰ: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الفرقان: ١٨]، وقولهم: ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤١]، ﴿وَكَانُوا۟﴾ الأصنام، ﴿بِعِبَادَتِهِمْ﴾ بعبادة المشركين لها سيكونون، ﴿كَٰفِرِينَ﴾ جاحدين؛ لأنهم ما دعوهم إلىٰ عبادة أنفسهم، ولا أذنوا لهم بذلك، ولا سمعوا منهم شيئًا من ذلك، وإنما كانوا يعبدون الشيطان ويتولونه.

٧ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ﴾ تقرأ ﴿عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ القرآن، ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات جليات، ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ معرضين وجاحدين ورادين: ﴿لِلْحَقِّ﴾ الوحي ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي: أن القرآن سحر بيّن.

٨ ﴿أَمْ﴾ بل ﴿يَقُولُونَ﴾ الكفار، ﴿افْتَرَاهُ﴾ اختلقه محمد ﷺ من نفسه، ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ردًا علىٰ هذه الدعوىٰ: ﴿إِنِ افْتَرَيْتُهُ﴾ كذبت عل الله فيه: ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ إن عاقبني وعذبني علىٰ هذا الافتراء؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ قد توعد من أضاف عليه ما لم يقل بقوله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقة:٤٤-٤٦].

﴿هُوَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ ﴿أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ﴾ تخوضون: ﴿فِيهِ﴾ من دعوىٰ: أن القرآن مفترىٰ، فلو كان مفترىٰ لعاجل محمدًا بالعقوبة، ﴿كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا﴾ مطلعًا وحاكمًا، ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ المتجاوز عن المؤمنين، ﴿الرَّحِيمُ﴾ الموفق لمن تاب وأناب.

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

٩ ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ أي: لست بأول من أرسله الله حتىٰ تتهموني بما اتهمتموني به، ولكني رسول أُرسل بعد رُسل، وختمت به النبوة والرسالة، ﴿وَمَا أَدْرِي﴾ لا أعلم ﴿مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ لعدم علمي بالغيب. ﴿إِنْ أَتَّبِعُ﴾ ما أتبع، ﴿إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ من القرآن، ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ منذر للناس ومحذر لهم بكلام بيّن واضح.

قيل: لما نزلت هذه الآية قال الكفار: إذا كان محمد لا يدري ما حال نفسه ولا يدري ما حال أنفسنا فهو مضطرب متشكك، وهذا القول منه ﷺ قبل أن يوحىٰ إليه: أنه مغفور له .

وفي حديث أم العلاء: طَارَ لَنَا عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ فِي سُكْنَىٰ حِينَ اقْتَرَعَتِ الْأَنْصَارُ عَلَىٰ سُكْنَىٰ الْمُهَاجِرِينَ، فَاشْتَكَىٰ، فَمَرَّضْنَاهُ حَتَّىٰ تُوُفِّيَ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ فِي أَثْوَابِهِ، قَالَتْ: فَدَخَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ: رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْكَ أَبَا السَّائِبِ، فَشَهَادَتِي أَنْ قَدْ أَكْرَمَكَ اللهُ تَعَالَىٰ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«وَمَا يُدْرِيكِ؟»** قَالَتْ: لَا أَدْرِي وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْحَقُّ الْيَقِينُ، وَإِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ مِنَ اللهِ، وَاللهِ لَا أَدْرِي، وَأَنَا رَسُولُ اللهِ مَا يُفْعَلُ بِي، وَلَا بِكُمْ»** اخرجه البخاري.

قال العلماء: هذا قبل أن يوحىٰ إليه بأنه مغفور له، وقال بعضهم: هذا في الدنيا، أما في الآخرة فهو يعلم أنه ﷺ في الجنة.

﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني، ﴿إِن كَانَ﴾ هذا القرآن: ﴿مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أنزله علىٰ محمد ﷺ، ﴿وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ أعرضتم عنه، ﴿وَشَهِدَ﴾ أخبر ﴿شَاهِدٌ﴾ مُخبر ﴿مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ علىٰ أن القرآن من عند الله قيل: هو عبد الله بن سلام، ﴿فَـَٔامَنَ﴾ هذا المخبر بالله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أعرضتم، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى﴾ لا يوفق ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين؛ لعلمه أنهم ليسوا أهلًا للهداية.

وفي البخاري عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: سَمِعَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ، بِقُدُومِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَهُوَ فِي أَرْضٍ يَخْتَرِفُ، فَأَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنِّي سَائِلُكَ عَنْ ثَلَاثٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ: فَمَا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ؟.

وَمَا أَوَّلُ طَعَامِ أَهْلِ الجَنَّةِ؟، وَمَا يَنْزِعُ الوَلَدُ إِلَىٰ أَبِيهِ أَوْ إِلَىٰ أُمِّهِ؟.

قَالَ: **«أَخْبَرَنِي بِهِنَّ جِبْرِيلُ آنِفًا»** قَالَ: جِبْرِيلُ؟: قَالَ: **«نَعَمْ»**، قَالَ: ذَاكَ عَدُوُّ اليَهُودِ مِنَ المَلَائِكَةِ، فَقَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧].

«أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ فَنَارٌ تَحْشُرُ النَّاسَ مِنَ المَشْرِقِ إِلَىٰ المَغْرِبِ، وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الجَنَّةِ فَزِيَادَةُ كَبِدِ حُوتٍ، وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ المَرْأَةِ نَزَعَ الوَلَدَ، وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ المَرْأَةِ نَزَعَتْ».

قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ، يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ اليَهُودَ قَوْمٌ بُهُتٌ، وَإِنَّهُمْ إِنْ يَعْلَمُوا بِإِسْلَامِي قَبْلَ أَنْ تَسْأَلَهُمْ يَبْهَتُونِي، فَجَاءَتِ اليَهُودُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«أَيُّ رَجُلٍ عَبْدُ اللهِ فِيكُمْ»**. قَالُوا: خَيْرُنَا وَابْنُ خَيْرِنَا، وَسَيِّدُنَا وَابْنُ سَيِّدِنَا.

قَالَ: «أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلاَمٍ». فَقَالُوا: أَعَاذَهُ اللهُ مِنْ ذَلِكَ، فَخَرَجَ عَبْدُ اللهِ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فَقَالُوا: شَرُّنَا وَابْنُ شَرِّنَا، وَانْتَقَصُوهُ، قَالَ: فَهَذَا الَّذِي كُنْتُ أَخَافُ يَا رَسُولَ اللهِ».

﴿١١﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ معارضين لدعوة رسول الله ﷺ لهم إلىٰ الإيمان: ﴿لَوۡ كَانَ﴾ هذا القرآن: ﴿خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾ يعنون بلالاً وعماراً وصهيباً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فنحن أحق أن نسبق إلىٰ الخير ونحن أحرص عليه، وكما أعطانا الله عَزَّوَجَلَّ الأموال سيعطينا الهداية، وهذا قياس فاسد، كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]، ﴿وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ﴾ بالقرآن، ﴿فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ﴾ كذب، ﴿قَدِيمٞ﴾ مفترىٰ، وهذا من تناقضهم.

❁ وهذه الآية قاعدة لأهل الحق من حيث أن الصحابة ما من خير إلا وسبقونا إليه:

وَكُلُّ خَيْرٍ فِي اتِّبَاعِ مَنْ سَلَفْ وَكُلُّ شَرٍّ فِي ابْتِدَاعِ مَنْ خَلَفْ

وفي سنن أبي داود قال: كَتَبَ رجلٌ إلىٰ عمر بن عبد العزيز يسأله عن القدَر، فكَتَب: "أما بعدُ، أوصيكَ بتقوىٰ الله، والاقتصادِ في أمره، واتباعِ سنَةِ رسوله ﷺ، وتركِ ما أحدَثَ المُحْدِثون بعد ما جَرَت به سُنته، وكفُوا مُؤْنته.

فعليكَ بلزوم السنة، فإنها لك -بإذن الله- عصمة، ثم اعلَمْ أنه لم يبتدع الناسُ بدعةً إلا قد مضىٰ قبلها ما هو دَليلٌ عليها أو عِبرةٌ فيها، فإن السنَّةَ إنما سنَّها مَن قد علم ما في خلافه -ولم يقل ابن كثير: من قد علم- من الخطأ والزَّلَل والحُمقِ والتَعَمُّقِ، فارضَ لنفسك ما رَضي به القومُ لأنفسهم، فإنهم علىٰ علمٍ وقَفُوا، وببصرٍ نافذٍ كفُّوا.

وهم علىٰ كشفِ الأمور كانوا أقوىٰ، وبفضل ما كانوا فيه أولىٰ، فإن كان الهدىٰ ما أنتم عليه لقد سَبقْتُموهم إليه، ولَئِنْ قلتم: إنما حدث بعدهم ما أحدثه إلا من اتبعَ غيرَ سبيلِهم، ورَغِبَ بنفسه عنهم، فإنهم هم السَّابقون، فقد تكلَّموا فيه بما يكفي، ووصفوا منه ما يشفي، فما دونهم مِن مَقْصَرٍ، وما فوقهم مِن مَحْسَرٍ.

وقد قَصَّرَ قوم دونهم فجَفَوْا، وطَمَحَ عنهم أقوام فغَلَوْا، وإنّهم بين ذلك لعلىٰ هدًىٰ مستقيم، كتبتَ تسألُ عن الإقرارِ بالقَدَرِ، فعلىٰ الخبير -بإذن الله- وقَعْتَ، ما أعلَمُ ما أحْدَثَ الناسُ من مُحْدَثةٍ، ولا ابتدعوا من بدعةٍ هي أبينُ أثراً ولا أثبتُ أمراً من الإقرار بالقَدَر، لقد

كان ذكرُه في الجاهليةِ الجهلاء، يتكلمون به في كلامهم وفي شعرهم، يُعَزُّون به أنفسَهم علىٰ ما فاتهم، ثم لم يَزِدْهُ الإسلام بعدُ إلا شِدَّةً، ولقد ذكرَهُ رسولُ اللهﷺ".

﴿١٢﴾ ﴿وَمِن قَبْلِهِ﴾ أي: هذا القرآن، ﴿كِتَابُ مُوسَىٰ﴾ وهو التوراة، ﴿إِمَامًا﴾ يُقتدىٰ ويُهتدىٰ به، ﴿وَرَحْمَةً﴾ من الله عَزَّوَجَلَّ لعباده يخرجهم به من الظلمات إلىٰ النور، لكنهم حرفوه وبدلوه، ﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن، ﴿كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ﴾ لما قبله من الكتب، ﴿لِّسَانًا﴾ بلسان: ﴿عَرَبِيًّا﴾ أي: أن الله عَزَّوَجَلَّ تكلم به بلغة العرب التي هي أفصح اللغات، ﴿لِّيُنذِرَ﴾ يخوف، ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ كفروا، ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ المطيعين لرب العالمين بشرهم بالجنة.

﴿١٣﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ بلسان حالهم ومقالهم، ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ داوموا ولازموا علىٰ هذا الإيمان فلم ينحرفوا يمينًا ولا شمالًا، كما قال حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "يَا مَعْشَرَ الْقُرَّاءِ اسْتَقِيمُوا، فَقَدْ سَبَقْتُمْ سَبْقًا بَعِيدًا، فَإِنْ أَخَذْتُمْ يَمِينًا وَشِمَالًا، لَقَدْ ضَلَلْتُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا" **أخرجه البخاري**، وفي حديث سفيان بن عبد الله: **«قُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ ، ثُمَّ اسْتَقِمْ»** **اخرجه مسلم**، ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في الدنيا ولا في الآخرة، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ علىٰ ما فاتهم وذهب عنهم.

❁ ضيق الإنسان من أمر مضىٰ ويسمىٰ (الحزن)، ومن أمر يأتي يسمىٰ (الهم) والدعاء الجامع لزوالهما: **«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَمِّ وَالحَزَنِ»**. **أخرجه البخاري عن أنس.**

﴿١٤﴾ ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الذين آمنوا وثبتوا عليه ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ ينعمون فيها، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أبدًا، ﴿جَزَاءً﴾ ثوابًا، ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ **[الزخرف:٧٢]**.

وأما ما جاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لَا يَدْخُلُ أَحَدٌ مِنكُمُ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ»** قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: **«وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ مِنْهُ بِرَحْمَةٍ وَفَضْلٍ»**، **متفق عليه.**

فالباء المنفية في الحديث باء العوض، والباء في الآية باء السبب، كما قال تعالىٰ: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ **[الحاقة:٢٤]**.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿١٥﴾ ﴿وَوَصَّيْنَا﴾ أمرنا: ﴿الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ أن يحسن إلىٰ والديه ﴿إِحْسَانًا﴾ بحسن الكلام وطيب الفِعَال والتؤدة والسكينة والرحمة، كما قال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ **[الإسراء:٢٣-٢٤]**، وقد قرن الله حقهما بحقه في مواطن، ومن شأنه أنها ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا﴾ حين يأتيها الوحم ويشتد عليها الحال ويأتيها الغثيان، وربما سهرت الليالي والأيام، ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ لشدة الطلق، فالطلقة الواحدة أشد من بتر يد وهي تتألم وتتأوه وتصيح، ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾.

❁ **بهذه الآية استدل العلماء** علىٰ أن أقل الحمل ستة أشهر فيكون الرضاع أربعة وعشرين شهرًا، وإذا كان الحمل تسعة أشهر سيكون الرضاع واحد وعشرين شهرًا، قاله عكرمة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ كَمُل واستوىٰ، ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ والأشد يبدأ من ثمانية عشر إلىٰ أربعين سنة، ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ﴾ وفقني وأعني، ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ نعمك الكثيرة المتوالية، ﴿الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾ من الإسلام، والإيمان، والذرية، والأموال، ﴿وَعَلَىٰ وَالِدَىَّ﴾ إن هديتنا للإسلام.

قيل: بأن هذه الآية بخصوصها في أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فهو الذي آمن معه جميع أسرته فآمنت أمه، وأبوه، وزوجه، وأبناؤه، وهذا لم يكن لكثير من الصحابة.

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا﴾ موافقًا لكتابك وسنة رسولك ﷺ، ﴿تَرْضَاهُ﴾ وتقبله، ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾ دعاء بصلاح الذرية أيضًا، وهذا الذي يتعين علينا أن ندعو لأبنائنا كثيرًا: من أن الله

عَزَّوَجَلَّ يصلحهم ويوفقهم. ﴿إِنِّي تُبْتُ﴾ رجعت من ذنوبي وتقصيري، ﴿إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ المستسلمين لأمرك والمبتعدين عن نهيك وزجرك.

فعند مسلم عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **« لَا تَدْعُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ، وَلَا تَدْعُوا عَلَىٰ أَوْلَادِكُمْ، وَلَا تَدْعُوا عَلَىٰ أَمْوَالِكُمْ، لَا تُوَافِقُوا مِنَ اللهِ سَاعَةً يُسْأَلُ فِيهَا عَطَاءٌ، فَيَسْتَجِيبُ لَكُمْ»**،

﴿١٦﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين هذا حالهم، ﴿ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ﴾ نقبل ﴿عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ من الأعمال الصالحات، ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ نعفو ونصفح ونغفر، ﴿فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ﴾ مع أصحاب الجنة يوم القيامة، ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ﴾ هذا وعد الصدق من الله، ﴿ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ في الدنيا، والله لا يخلف الميعاد، الطائع البار.

﴿١٧﴾ ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ﴾ حين دعوه إلىٰ الإيمان ﴿أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ يتأفف منهما، وهي كلمة كراهية وهذا أقل العقوق فكيف بأكثره؟ ﴿أَتَعِدَانِنِيٓ﴾ من الوعد له حين دعوه إلىٰ الإسلام، ﴿أَنْ أُخْرَجَ﴾ من قبري بعد موتي، ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ﴾ الأمم الكثيرة ﴿مِن قَبْلِي﴾ ولم تبعث، ﴿وَهُمَا﴾ الأب والأم، ﴿يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾ يدعوان الله ويخوفان الولد بقولهما: ﴿وَيْلَكَ ءَامِنْ﴾ بالله عَزَّوَجَلَّ وبرسوله ﷺ، ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ في إعزاز المؤمنين وإهلاك الكافرين، ﴿حَقٌّ﴾ وصدق ثابت، ﴿فَيَقُولُ﴾ الابن المعرض، ﴿مَا هَٰذَآ﴾ القرآن الذين تدعواني إليه: ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ﴾ قصص: ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ السابقين.

قيل: بأن هذه الآية نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر قبل أن يُسلم.

والصحيح خلاف ذلك؛ فعبد الرحمن قد أسلم وحسن إسلامه، والآية فيها: أن هذا القائل حق عليه القول ولزمه هذا الوعيد.

فعند البخاري عَنْ يُوسُفَ بْنِ مَاهَكَ، قَالَ: كَانَ مَرْوَانُ عَلَىٰ الحِجَازِ اسْتَعْمَلَهُ مُعَاوِيَةُ فَخَطَبَ، فَجَعَلَ يَذْكُرُ يَزِيدَ بْنَ مُعَاوِيَةَ لِكَيْ يُبَايَعَ لَهُ بَعْدَ أَبِيهِ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ شَيْئًا، فَقَالَ: خُذُوهُ، فَدَخَلَ بَيْتَ عَائِشَةَ فَلَمْ يَقْدِرُوا، فَقَالَ مَرْوَانُ: إِنَّ هَذَا الَّذِي أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ، ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ﴾ **[الأحقاف: ١٧]**، فَقَالَتْ عَائِشَةُ مِنْ وَرَاءِ الحِجَابِ: **«مَا أَنْزَلَ اللهُ فِينَا شَيْئًا مِنَ القُرْآنِ إِلَّا أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ عُذْرِي»**.

فالآية بعمومها: أن الناس ينقسمون من حيث بر الآباء والأمهات إلىٰ قسمين: أصحاب البر، فإن كانوا من أهل الإسلام فهنيئًا لهم، وأصحاب العقوق، فإن كان عقوقه فيما لا

يؤدي به إلىٰ الشرك فهي معصية وكبيرة من كبائر الذنوب، وصاحبها تحت المشيئة، فعن أَبِي بَكْرَةَ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: **«أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟»** ثَلَاثًا **«الْإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ - أَوْ قَوْلُ الزُّورِ -»** وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُتَّكِئًا، فَجَلَسَ فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّىٰ قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ» **اخرجه البخاري**، و عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ»** قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ: **«يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ، فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ»** **متفق عليه**.

وإن كان يؤدي إلىٰ الشرك مثل هذا الرجل الذي أعرض عن دعوتهم له إلىٰ الإسلام فهذا يُخلد في النار.

﴿١٨﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾ تقدم وصف حالهم في العقوق، ﴿حَقَّ﴾ وجب ﴿عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ في وجوب النار، كما قال تعالىٰ: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ **[هود:١١٩]**، ﴿فِيٓ﴾ مع ﴿أُمَمٖ﴾ طوائف، ﴿قَدۡ خَلَتۡ﴾ ولت وذهبت ﴿مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ ممن كفروا وأعرضوا، ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ وكانوا معذبين.

﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٩ وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ ٢٠﴾.

﴿١٩﴾ ﴿وَلِكُلّٖ﴾ من المؤمنين والكافرين يوم القيامة، ﴿دَرَجَٰتٞ﴾ منزلات، ﴿مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ إلا أن درجات الجنة إلىٰ الأعلىٰ، ودرجات النار إلىٰ الأسفل ويقال لها دركات، ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمۡ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة: ﴿أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ التي عملوها وتعاطوها، ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ لا ينقصون من أجورهم شيئًا، ولا يُزاد علىٰ آثامهم شيئًا.

﴿٢٠﴾ ﴿وَ﴾ اذكر يا محمد: ﴿يَوۡمَ﴾ القيامة حين يبعثون ﴿يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ تزلف لهم النار وتُقرب، وتأتي ولها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها، ثم يقال لهم توبيخًا وتقريعًا: ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ﴾ أبطلتم ﴿طَيِّبَٰتِكُمۡ﴾ أجوركم، ﴿فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا﴾ بسبب كفركم وإعراضكم فجُزيتم عليها في الدنيا، ﴿وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا﴾ وهذا حظكم منها، وهذا

كقول النبي ﷺ: «**إِنَّ الْكَافِرَ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً أُطْعِمَ بِهَا طُعْمَةً مِنَ الدُّنْيَا، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ، فَإِنَّ اللهَ يَدَّخِرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ فِي الْآخِرَةِ وَيُعْقِبُهُ رِزْقًا فِي الدُّنْيَا عَلَىٰ طَاعَتِهِ**» اخرجه مسلم عن انس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي الصحيحين عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: يَا رَسُولَ اللهِ، لَوْ رَأَيْتَنِي وَكُنَّا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ نَغْلِبُ النِّسَاءَ، فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَىٰ قَوْمٍ تَغْلِبُهُمْ نِسَاؤُهُمْ، فَذَكَرَهُ فَتَبَسَّمَ النَّبِيُّ ﷺ، ثُمَّ قُلْتُ: لَوْ رَأَيْتَنِي، وَدَخَلْتُ عَلَىٰ حَفْصَةَ، فَقُلْتُ: لاَ يَغُرَّنَّكِ أَنْ كَانَتْ جَارَتُكِ هِيَ أَوْضَأَ مِنْكِ، وَأَحَبَّ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ - يُرِيدُ عَائِشَةَ -، فَتَبَسَّمَ أُخْرَىٰ، فَجَلَسْتُ حِينَ رَأَيْتُهُ تَبَسَّمَ، ثُمَّ رَفَعْتُ بَصَرِي فِي بَيْتِهِ، فَوَاللهِ مَا رَأَيْتُ فِيهِ شَيْئًا يَرُدُّ البَصَرَ غَيْرَ أَهَبَةٍ ثَلاَثَةٍ، فَقُلْتُ: ادْعُ اللهَ فَلْيُوَسِّعْ عَلَىٰ أُمَّتِكَ، فَإِنَّ فَارِسَ وَالرُّومَ وُسِّعَ عَلَيْهِمْ، وَأُعْطُوا الدُّنْيَا وَهُمْ لاَ يَعْبُدُونَ اللهَ، وَكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ: «**أَوَفِي شَكٍّ أَنْتَ يَا ابْنَ الخَطَّابِ أُولَئِكَ قَوْمٌ عُجِّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا**»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، اسْتَغْفِرْ لِي».

﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ يوم القيامة، ﴿تُجْزَوْنَ﴾ تعطون علىٰ أعمالكم: ﴿عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ الذل والخسران، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ تطاولون وترفعون، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ في تعاطيكم الحرام، وارتكاب الآثام.

الجزء التاسع والعشرون

﴿۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۖ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَٱذْكُرْ﴾ يا محمد، ﴿أَخَا عَادٍ﴾ وهو هود عَلَيْهِ السَّلَامُ أرسله الله عَزَّوَجَلَّ إلىٰ قوم عاد من قبيلة إرم ذات العماد، في بلاد الأحقاف، وكانوا يستوطنون حضرموت والمهرة، وكان من شأن رسولهم النبي الكريم ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ﴾ خوفهم من بطش الله وغضبه بأرضهم: ﴿بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ﴾ ذهبت، ﴿ٱلنُّذُرُ﴾ الرسل، ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ أي: تنوعوا إلىٰ أممهم يدعونهم إلىٰ توحيد الله وإلىٰ إفراده بالعبادة، وكانت دعوته لهم: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾

أي: وحدوا الله عَزَّوَجَلَّ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:٦٥]، ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إذا بقيتم علىٰ كفركم وعنادكم وبغيكم، ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ موجع، في الدنيا ويوم القيامة.

٢٢ ﴿قَالُوا﴾ معرضين عن دعوته رادين لدلالته: ﴿أَجِئْتَنَا﴾ أتيتنا، ﴿لِتَأْفِكَنَا﴾ تصرفنا: ﴿عَنْ آلِهَتِنَا﴾ من الأصنام والأوثان، ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ من العذاب، ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وهذا من جهل الكافرين، فتجد أن أكثرهم يستعجل العذاب مع أنه سيأتيهم العذاب ما داموا علىٰ كفرهم وبغيهم وعنادهم.

٢٣ ﴿قَالَ﴾ هود عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿إِنَّمَا الْعِلْمُ﴾ بالعذاب، ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ إن شاء أن يعاجلكم به عاجلكم، وإن شاء أن يؤخره أخره، ﴿وَ﴾ الذي عليَّ أني، ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ أخبركم وأعلمكم: ﴿مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ ما بعثني الله به إليكم من توحيده ووجوب طاعته والبعد عن معصيته، ﴿وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ لا تعقلون ولا تفهمون هذا الأمر، مع أنه قال لهم: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود:٥٢-٥٦].

٢٤ فجاءهم ما سألوه: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ أي: رأوا العذاب، ﴿عَارِضًا﴾ كالسحاب العارض، ﴿مُسْتَقْبِلَ﴾ ظنوا أنه مطر ففرحوا واستبشروا، ﴿أَوْدِيَتِهِمْ﴾ الأماكن المنخفضة بين الجبال تكون فيها الزراعة والرعي ونحو ذلك، ﴿قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ﴾ من سحاب ﴿مُمْطِرُنَا﴾ فيه مطر، ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾ من طلب العذاب، ﴿رِيحٌ﴾ شديدة، وإنما فُتِحَ لهم منها مثل الخاتم، ﴿فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ شديد.

وعَنْ عَائِشَةَ، زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ مُسْتَجْمِعًا ضَاحِكًا، حَتَّىٰ أَرَىٰ مِنْهُ لَهَوَاتِهِ، إِنَّمَا كَانَ يَتَبَسَّمُ، قَالَتْ: وَكَانَ إِذَا رَأَىٰ غَيْمًا أَوْ رِيحًا، عُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ أَرَىٰ النَّاسَ، إِذَا رَأَوُا الْغَيْمَ فَرِحُوا، رَجَاءَ أَنْ يَكُونَ فِيهِ الْمَطَرُ، وَأَرَاكَ إِذَا رَأَيْتَهُ عَرَفْتُ فِي وَجْهِكَ الْكَرَاهِيَةَ؟ قَالَتْ: فَقَالَ: **«يَا عَائِشَةُ مَا يُؤَمِّنُنِي أَنْ يَكُونَ فِيهِ عَذَابٌ، قَدْ عُذِّبَ قَوْمٌ بِالرِّيحِ، وَقَدْ رَأَىٰ قَوْمٌ الْعَذَابَ، فَقَالُوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾»** متفق عليه.

ومن شأن هذه الريح أنها: ﴿تُدَمِّرُ﴾ تخرب ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ من الأنفس والأرواح وما كان أهلًا للتدمير، ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ الكوني الذي لا خُلف له، ﴿فَأَصْبَحُوا﴾ في حال سيء مُردي أموات: ﴿لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ لم تبقَ إلا مساكنهم قائمة خاوية علىٰ عروشها، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ في وصف ذلك: أي: متتابعات، وكما قال: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾ [الحاقة:٧-٨]؟ لا باقية، ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي﴾ نعاقب، ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الكافرين.

وكان من شأن ذلك ما جاء عند أحمد عَنِ الْحَارِثِ بْنِ حَسَّانَ قَالَ: مَرَرْتُ بِعَجُوزٍ بِالرَّبَذَةِ مُنْقَطِعٌ بِهَا، مِنْ بَنِي تَمِيمٍ، قَالَ: فَقَالَتْ: أَيْنَ تُرِيدُونَ؟ قَالَ: فَقُلْتُ: نُرِيدُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَتْ: فَاحْمِلُونِي مَعَكُمْ فَإِنَّ لِي إِلَيْهِ حَاجَةً. قَالَ: فَدَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا هُوَ غَاصٌّ بِالنَّاسِ، وَإِذَا رَايَةٌ سَوْدَاءُ تَخْفِقُ، فَقُلْتُ: مَا شَأْنُ النَّاسِ الْيَوْمَ؟.

قَالُوا: هَذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يُرِيدُ أَنْ يَبْعَثَ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ وَجْهًا، قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَجْعَلَ الدَّهْنَاءَ حِجَازًا بَيْنَنَا، وَبَيْنَ بَنِي تَمِيمٍ، فَافْعَلْ فَإِنَّهَا كَانَتْ لَنَا مَرَّةً، قَالَ: فَاسْتَوْفَزَتِ الْعَجُوزُ، وَأَخَذَتْهَا الْحَمِيَّةُ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيْنَ تَضْطَرُّ مُضَرَكَ؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، حَمَلْتُ هَذِهِ وَلَا أَشْعُرُ أَنَّهَا كَائِنَةٌ لِي خَصْمًا، قَالَ: قُلْتُ: أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " وَمَا قَالَ الْأَوَّلُ؟ " قَالَ: عَلَىٰ الْخَبِيرِ سَقَطْتَ - يَقُولُ سَلَّامٌ: هَذَا أَحْمَقُ، يَقُولُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: عَلَىٰ الْخَبِيرِ سَقَطْتَ.

قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " هِيهْ " يَسْتَطْعِمُهُ الْحَدِيثَ، قَالَ: إِنَّ عَادًا أَرْسَلُوا وَافِدَهُمْ قَيْلًا، فَنَزَلَ عَلَىٰ مُعَاوِيَةَ بْنِ بَكْرٍ شَهْرًا يَسْقِيهِ الْخَمْرَ، وَتُغَنِّيهِ الْجَرَادَتَانِ، فَانْطَلَقَ حَتَّىٰ أَتَىٰ جِبَالَ مُهْرَةَ، فَقَالَ: اللهُمَّ إِنِّي لَمْ آتِ لِأَسِيرٍ أُفَادِيهِ، وَلَا لِمَرِيضٍ فَأُدَاوِيَهُ، فَاسْقِ عَبْدَكَ مَا كُنْتَ سَاقِيَهُ، وَاسْقِ مُعَاوِيَةَ بْنَ بَكْرٍ شَهْرًا - يَشْكُرُ لَهُ الْخَمْرَ الَّتِي شَرِبَهَا عِنْدَهُ - قَالَ: فَمَرَّتْ سَحَابَاتٌ سُودٌ فَنُودِيَ أَنْ خُذْهَا رَمَادًا، رِمْدِدًا لَا تَذَرْ مِنْ عَادٍ أَحَدًا قَالَ أَبُو وَائِلٍ: " فَبَلَغَنِي أَنَّ مَا أُرْسِلَ عَلَيْهِمْ مِنَ الرِّيحِ كَقَدْرِ مَا يَجْرِي فِي الْخَاتَمِ».

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿٢٦﴾ ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ﴾ قوم عاد والأمم السابقة في أموال وأولاد وقوة، ﴿فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ يا معشر قريش، فكانوا أولوا قوة، وشدة وبطش، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾ حواس يستفيدون منها أمر الله لكنهم أبوا إلا الكفر والعناد، والفؤاد: هو القلب، ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ﴾ نفعهم ﴿سَمْعُهُمْ﴾ شيئًا بسبب إعراضهم، ﴿وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ﴾ لم يبصروا بها حقًا، ﴿وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ﴾ يكفرون، ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الشرعية، ﴿وَحَاقَ﴾ نزل ﴿بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ يسخرون من العذاب الأليم والخزي العميم.

﴿٢٧﴾ ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا﴾ دمرنا، ﴿مَا حَوْلَكُم﴾ يا معشر قريش، ﴿مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ كبلاد عاد وثمود وقرية سدوم وما إليها من البلدان، ﴿وَصَرَّفْنَا﴾ أمضينا: ﴿ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ الكثيرات البينات التي فيها عظة وعبرة لمن أراد الله هدايته، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إلىٰ الله بتوبة نصوحا، ولكن لم يحصل منهم ذلك.

﴿٢٨﴾ ﴿فَلَوْلَا﴾ فهلا، ﴿نَصَرَهُمُ﴾ نصرتهم آلهتهم ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعني: الأصنام والأوثان، ﴿قُرْبَانًا﴾ يتقربون إليها، ﴿ءَالِهَةً﴾ يعبدونها، ﴿بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ﴾ ذهبوا وهلكوا ولم يستفيدوا منهم شيئًا أحوج ما كانوا إليهم، ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ﴾ كذبهم، ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ من الباطل، فيوم القيامة يكفرون بشركهم ولا ينفعونهم.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿٢٩﴾ ﴿وَ﴾ اذكر يا محمد: ﴿إِذْ صَرَفْنَآ﴾ صيرنا ﴿إِلَيْكَ نَفَرًا﴾ مجموعة دون العشرة، ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ حين قراءة النبي ﷺ.

فعن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: مَا قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَىٰ الْجِنِّ وَمَا رَآهُمُ انْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إِلَىٰ سُوقِ عُكَاظٍ وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ. وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ. فَرَجَعَتِ الشَّيَاطِينُ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَقَالُوا: مَا لَكُمْ. قَالُوا: حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ. قَالُوا: مَا ذَاكَ إِلَّا مِنْ شَيْءٍ حَدَثَ. فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا. فَانْظُرُوا مَا هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ فَانْطَلَقُوا يَضْرِبُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا. فَمَرَّ النَّفَرُ الَّذِينَ أَخَذُوا نَحْوَ تِهَامَةَ - وَهُوَ بِنَخْلٍ عَامِدِينَ إِلَىٰ سُوقِ عُكَاظٍ وَهُوَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الْفَجْرِ - فَلَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ اسْتَمَعُوا لَهُ. وَقَالُوا: هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ فَرَجَعُوا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ. فَقَالُوا: يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَىٰ الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا. فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عَلَىٰ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: **«قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ»** اخرجه مسلم.

﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾ وهذا من حسن أدبهم: أن العلم يُنصت له حتىٰ يستوضحوا ما يسمعون، ﴿فَلَمَّا قُضِىَ﴾ انتهىٰ من قراءة القرآن وسمعوا وحي الرحمن وآمنوا بالنبي عليه الصلاة والسلام، ﴿وَلَّوْا﴾ رجعوا ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِم﴾ حال كونهم: ﴿مُّنذِرِينَ﴾ مخوفين لهم من عذاب الله الأليم.

فخرجوا شياطين، ورجعوا دعاة مهتدين، وهذا من توفيق الله عَزَّوَجَلَّ لهم، وكم من إنسان يسمع الخطب والمحاضرات ويقرأ الكتب والنصائح والتوجيهات ولا يرعوي ولا ينزجر ولا يستجب، وهؤلاء من مجلس واحد رجعوا دعاة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿٣٠﴾ ﴿قَالُوا﴾ عند ذلك: ﴿يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ [الجن:١]، من عجبه أنه: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن:٢]، ﴿كِتَٰبًا﴾ مقروءًا وهو التوراة ﴿أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ ابن عمران عليه السلام.

❐ قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: لِمَاذَا لَمْ يَذْكُرُوا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ؟

الجواب: إما أن يكون إيمانهم بموسىٰ ولم يؤمنوا بعيسىٰ كما هو حال اليهود، وإما أن يكونوا ممن آمن بموسىٰ وعيسىٰ إلا أنهم ذكروا النبي الأكبر، فإن موسىٰ هو أشهر أنبياء بني إسرائيل.

﴿مُصَدِّقًا﴾ موافقًا ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من التوراة فلم يأتِ ببدع من القول، ﴿يَهْدِىٓ﴾ يدل ويرشد ﴿إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ إلىٰ طريق الحق والصواب، ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يوصل إلىٰ جنة النعيم.

﴿٣١﴾ ﴿يَٰقَوْمَنَآ﴾ وهذا من تلطفهم في الدعوة، ﴿أَجِيبُوا۟﴾ استجيبوا، ﴿دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ إلىٰ التوحيد والسنة، ﴿وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ﴾ أقروا بما أرسل به، فإن فعلتم ذلك: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: يغفر لكم جميع ذنوبكم.

أو يكون المعنىٰ: يغفر لكم ما تبتم منه من الذنوب مع أن (**الإسلام يهدم ما قبله**)، كما قال رسول الله ﷺ في حديث عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند مسلم.

﴿وَيُجِرْكُم﴾ ينجيكم، ﴿مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ موجع.

"وَقَدِ اسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ مَنْ ذَهَبَ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَىٰ أَنَّ الْجِنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، وَإِنَّمَا جَزَاءُ صَالِحِيهِمْ أَنْ يُجَارُوا مِنْ عَذَابِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلِهَذَا قَالُوا هَذَا فِي هَذَا الْمَقَامِ وَهُوَ مَقَامُ تَبَجُّحٍ وَمُبَالَغَةٍ، فَلَوْ كَانَ لَهُمْ جَزَاءٌ عَلَىٰ الْإِيمَانِ أَعْلَىٰ مِنْ هَذَا لَأَوْشَكَ أَنْ يَذْكُرُوهُ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي قَالَ: حُدِّثْتُ عَنْ جَرِيرٍ عَنْ لَيْثٍ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَا يَدْخُلُ مُؤْمِنُو الْجِنِّ الْجَنَّةَ لِأَنَّهُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْلِيسَ، وَلَا تَدْخُلُ ذُرِّيَّةُ إِبْلِيسَ الْجَنَّةَ، والحق أن مؤمنيهم كَمُؤْمِنِي الْإِنْسِ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ جَمَاعَةٍ مِنَ السَّلَفِ.

وَقَدِ اسْتَدَلَّ بَعْضُهُمْ لِهَذَا بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرَّحْمَنِ: ٧٤] وَفِي هَذَا الِاسْتِدْلَالِ نَظَرٌ، وَأَحْسَنُ مِنْهُ قَوْلُهُ جل وعلا: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾ [الرَّحْمَنِ: ٤٦-٤٧].

فَقَدِ امْتَنَّ تَعَالَىٰ عَلَىٰ الثَّقَلَيْنِ بِأَنْ جَعَلَ جَزَاءَ مُحْسِنِهِمُ الْجَنَّةَ، وَقَدْ قَابَلَتِ الْجِنُّ هَذِهِ الْآيَةَ بِالشُّكْرِ الْقَوْلِيِّ أَبْلَغَ مِنَ الْإِنْسِ فَقَالُوا: وَلَا بِشَيْءٍ مِنْ آلَائِكَ رَبَّنَا نُكَذِّبُ فَلَكَ الْحَمْدُ، فَلَمْ يَكُنْ تَعَالَىٰ لِيَمْتَنَّ عَلَيْهِمْ بِجَزَاءٍ لَا يَحْصُلُ لَهُمْ، وَأَيْضًا فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ يُجَازِي كَافِرَهُمْ بِالنَّارِ وَهُوَ مَقَامُ عَدْلٍ فَلَأَنْ يُجَازِيَ مُؤْمِنَهُمْ بِالْجَنَّةِ وَهُوَ مَقَامُ فَضْلٍ بِطَرِيقِ الْأَوْلَىٰ وَالْأَحْرَىٰ. وَمِمَّا يَدُلُّ أَيْضًا عَلَىٰ ذَلِكَ عُمُومُ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف:١٠٧]، وَمَا أَشْبَهُ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ". اهـ أفاده ابن كثير.

٣٢ فإن أبيتم إلا الإعراض فيكون الجواب: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ ويستقم علىٰ شأنه، ﴿فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ﴾ بهارب ولا فار ﴿فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ﴾ من دون الله ﴿أَوْلِيَآءُ﴾ ينصرونه ويعينونه، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ﴾ هلاك وبعد، ﴿مُّبِينٍ﴾ بيّن واضح.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِۦَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

٣٣ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يتفكر هؤلاء الكفار: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ العظيمة المرتفعة، ﴿وَالأَرْضَ﴾ الواسعة، ﴿وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ لم يكترث، أو يعجز، ولم يلحقه تعب ولا نصب، لكمال قوته وقدرته.

وهذا من الصفات المنفية، وقد تقدم أنها تتضمن كمال الضد وقد قال الله عن نفسه: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِۦَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ بعد أن صاروا رفاتًا وأكلتهم الأرض ﴿بَلَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا يعجزه شيء من إحياء الموتىٰ وغيره.

٣٤ ﴿وَ﴾ اذكر يا محمد: ﴿يَوْمَ﴾ يذل المشركون، ﴿يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ وبئس القرار تُعرض ذواتهم وأعمالهم وما في قلوبهم، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾﴾ [الطارق:٩-١٠]، يقال لهم: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: أليست هذه النار التي

ترونها الآن حق؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ أقروا واعترفوا أنه الحق، ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ في النار، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بسبب كفركم بربكم.

﴿فَاصْبِرْ﴾ يا محمد، ﴿كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ﴾ أصحاب ﴿الْعَزْمِ﴾ الشدة والثبات ﴿مِنَ الرُّسُلِ﴾ وهم إبراهيم، وموسىٰ، وعيسىٰ، ونوح ذكرهم الله عَزَّوَجَلَّ في قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَالَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ [الشورىٰ:١٣]، وقيل هم جميع الرسل.

﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ العذاب فإنه سيأتيهم وإن تأخر، كقوله: ﴿فَمَهِّلِ الْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق: ١٧]، ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب، ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓا﴾ لم يمكثوا في الأرض، ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ يعني: ينسون العمر المديد الذي تكبروا فيه وتجبروا وكل ما كان من شأنهم.

وفعلًا: إن الإنسان إذا عاين الهلكة يرىٰ أنه لم يلبث إلا يسيرًا، كقوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَآءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [يونس:٤٥].

﴿بَلَٰغٌ﴾ أي: هذا بلاغ لكم إن كنتم تعلمون، فيها معنيان:

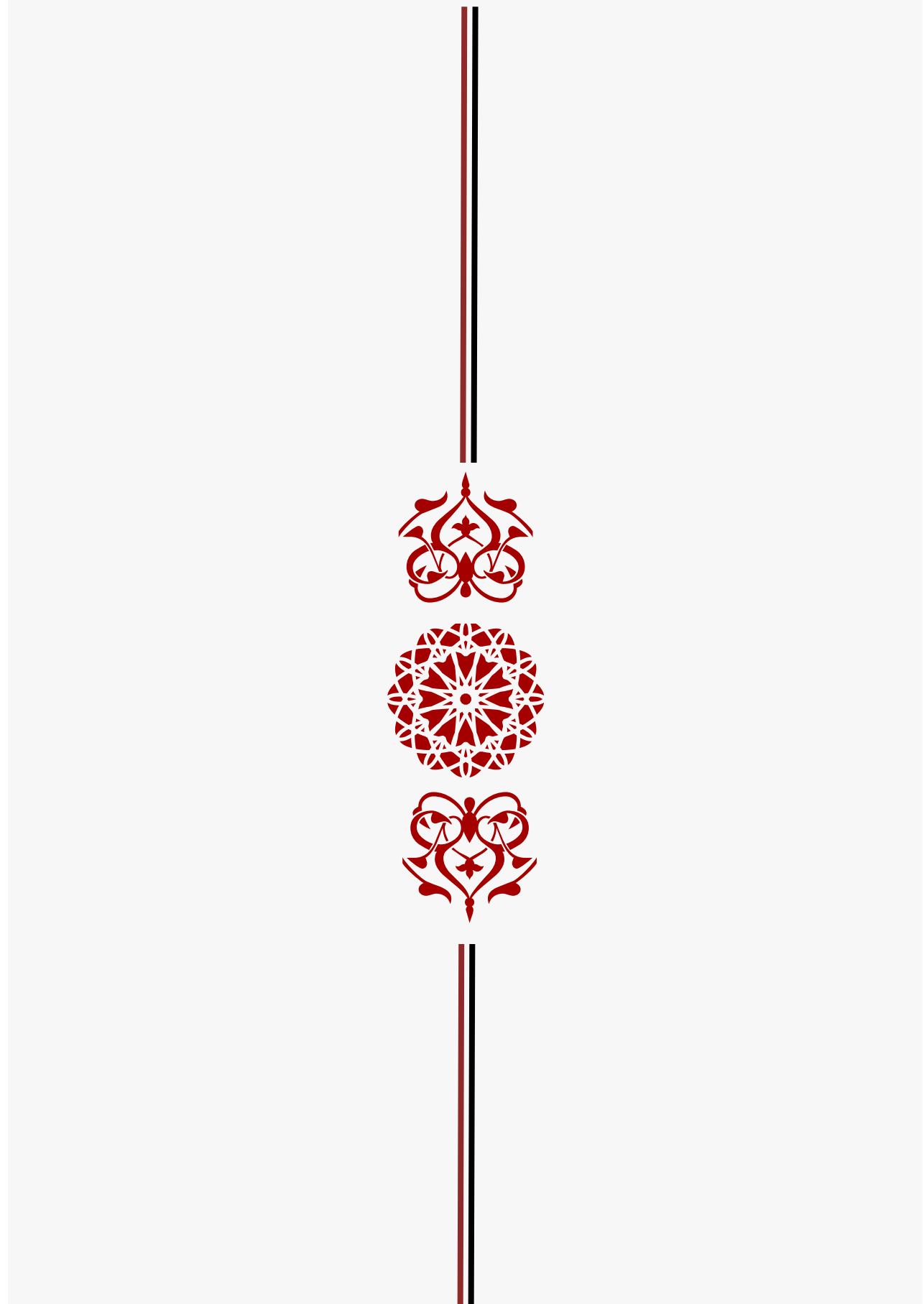
- **الأول**: أنَّ هذا القرآن بلاغ، وعليه أكثر المفسرين.

- **الثاني**: أنَّه عبارة عن لبثهم وتأخير العذاب عنهم حتىٰ يأتي أمر عذابهم، ويبلغون ساعة مهلكهم.

﴿فَهَلْ يُهْلَكُ﴾ لا يهلك، ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْفَٰسِقُونَ﴾ المعرضون عن طاعة الله عَزَّوَجَلَّ الواقعون في الكفر والإجرام، المستحقون العذاب الأليم.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

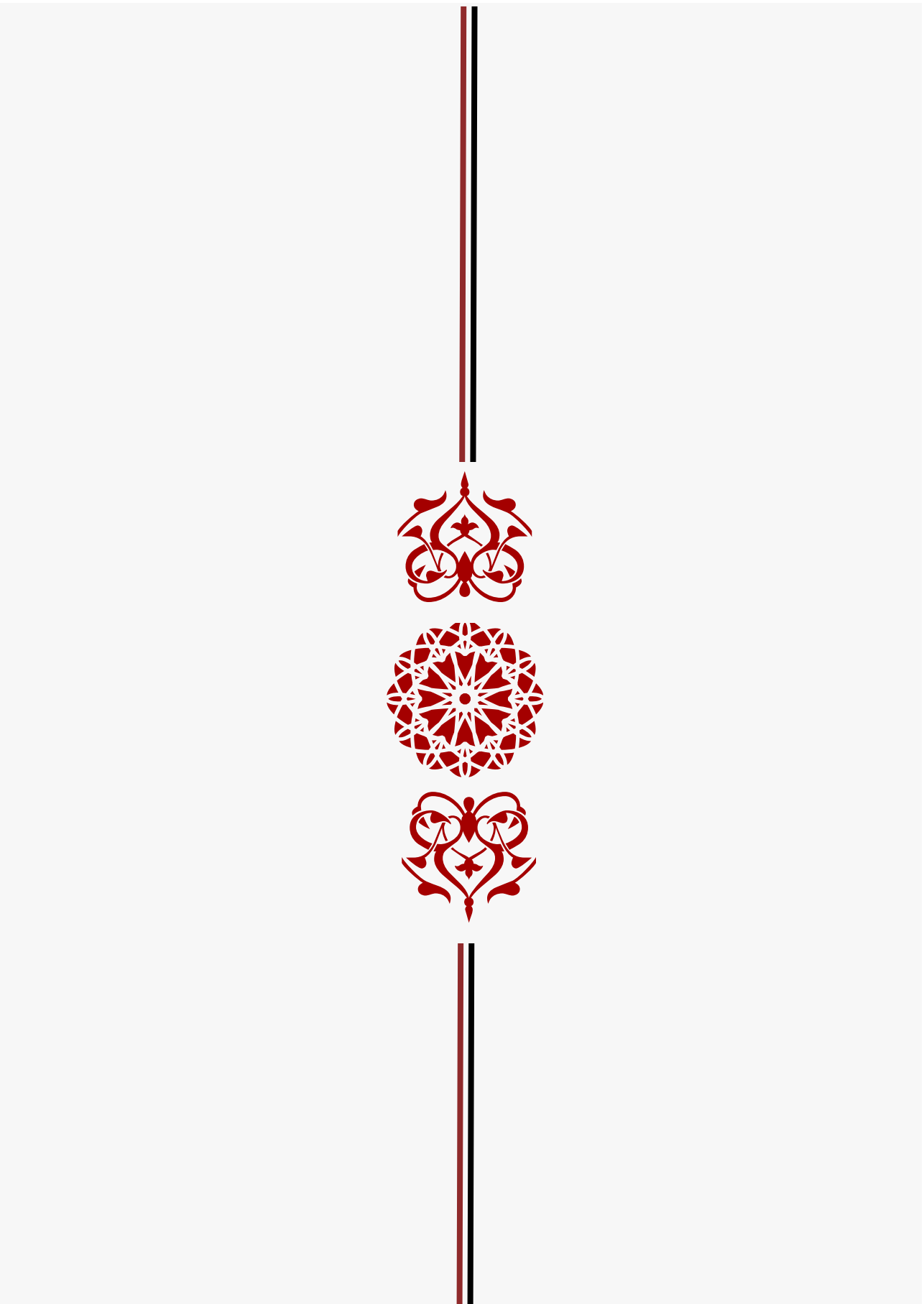
تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الاحْقَافِ





تَفْسِيرُ سُورَةِ مُحَمَّدٍ





سُورَةُ مُحَمَّدٍ

مَدَنِيَّةٌ، وتُسَمَّى سُورَةَ الْقِتَالِ، وَآيَاتُهَا ثَمَانِيَةٌ وَثَلَاثُونَ آيَةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ۝٣ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٤ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦﴾.

(١) ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسوله ﷺ، ﴿وَصَدُّوا﴾ ومنعوا غيرهم عن الإيمان بالله ورسوله ﷺ، سواء كان منعهم بالترغيب أو الترهيب ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ طريق الله، ﴿أَضَلَّ﴾ الله؛ حيث أذهب وأبطل: ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ فلم تقبل منهم، كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣]، فلا يُقبل منهم صالح عمل، ولا يُرفع لهم إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ عمل لخلوه من الإخلاص والمتابعة أو أحدهما، وفي حديث عائشة عند مسلم قالت: يَا رَسُولَ اللهِ، ابْنُ جُدْعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ، وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ، فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ؟ قَالَ: **«لَا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ»**.

(٢) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ التزموها، ﴿وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ ﷺ وهو القرآن، والسنة كما قال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم:٣-٤]، ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي: القرآن لا باطل فيه، ﴿كَفَّرَ﴾ أذهب وعفا وصفح: ﴿عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ خطاياهم، ﴿وَأَصْلَحَ﴾ لهم ﴿بَالَهُمْ﴾ حالهم؛ ولهذا يقول العاطس إذا شُمت: **«يهديكم الله ويصلح بالكم»**.

(٣) ﴿ذَلِكَ﴾ السبب الذي من أجله أضل الله أعمال الكفار، وأصلح حال المؤمنين: ﴿بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾ الشرك والمعصية والبدعة، ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾

القرآن والسنة المنزل من ربهم، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما بينا ما تقدم ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ فمن كان من الطائعين كان من المُكرمين، ومن كان من المخالفين لدين رب العالمين كان من المهانين بقدر مخالفتهم، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾ [المجادلة:٢٠]، وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: **«وَجُعِلَ الذِّلَّةُ، وَالصَّغَارُ عَلَىٰ مَنْ خَالَفَ أَمْرِي»** أخرجه أحمد.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ﴾ التقيتم: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في الحرب، ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ اضربوهم ضربًا شديدًا حين يفرون منكم، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ أكثرتم فيهم الجراح والقتل، ﴿فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ﴾ خذوهم أسرىٰ واربطوهم، ثم لكم الخيار في شأنهم، ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ﴾ يعني: تطلقونهم بدون فدية، ﴿وَإِمَّا فِدَآءً﴾ تأخذون مالًا علىٰ إطلاقهم.

وقد ذهب بعض أهل العلم إلىٰ أن هذه الآية منسوخة.

وَالصَّحِيحُ: أنها محكمة، فأمر الأسرىٰ إلىٰ الإمام إن شاء قتل وإن شاء أسر وفادىٰ، واستمروا في قتلهم وملاحقتهم.

﴿حَتَّىٰ﴾ إلىٰ أن ﴿تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ تنتهي الحرب وتضع ثقلها، ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي تقدم من القتل والقتال والأسر والفداء، ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ من الكافرين بغير قتال، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، ﴿وَلَٰكِن﴾ أراد الله: ﴿لِّيَبْلُوَا۟﴾ يختبر ﴿بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ يقتتل المسلمون والكفار، فيقع في المسلمين الجراحات والشهداء ويقع في الكفار القتل والبلاء، ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟﴾ من المؤمنين، ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ سواءً كان في المعركة أو في طريق المعركة أو علىٰ أي حال وهم ينصرون دين الله، ﴿فَلَن يُضِلَّ﴾ يُذهب ويبطل ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ بل هي محفوظة لهم إلىٰ يوم القيامة حين يقفون بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ فيجازيهم علىٰ خير صنيعهم.

ومن ذلك ما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: **«مَا مِنْ كَلْمٍ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ اللهِ، إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ كُلِمَ، لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ، وَرِيحُهُ رِيحُ مِسْكٍ»**، وفي فضل الشهادة عَنْ أَنَسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: مَا مِنْ عَبْدٍ يَمُوتُ لَهُ عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ يُحِبُّ أَنْ يَرْجِعَ إِلَىٰ الدُّنْيَا، وَأَنَّ لَهُ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، إِلاَّ الشَّهِيدُ، لِمَا يَرَىٰ مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ، فَإِنَّهُ يُحِبُّ أَنْ يَرْجِعَ إِلَىٰ الدُّنْيَا، فَيُقْتَلَ مَرَّةً أُخْرَىٰ» متفق عليه.

وعَنْ أَبِي قَتَادَةَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَنَّهُ قَامَ فِيهِمْ فَذَكَرَ لَهُمْ أَنَّ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَالْإِيمَانَ بِاللهِ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ، فَقَامَ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللهِ، تُكَفِّرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«نَعَمْ، إِنْ قُتِلْتَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ، مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ»**، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«كَيْفَ قُلْتَ؟»** قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَتُكَفِّرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«نَعَمْ، وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ، مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ، إِلَّا الدَّيْنَ، فَإِنَّ جِبْرِيلَ** عَلَيْهِ السَّلَامُ **قَالَ لِي ذَلِكَ»** أخرجه مسلم.

٥ ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ الله ويوفقهم، لاتباع الحق في حياتهم الدنيا، ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ حالهم وشأنهم في الدنيا والآخرة، كما قال تعالىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

٦ ﴿وَيُدْخِلُهُمُ﴾ يوم القيامة: ﴿الْجَنَّةَ﴾ التي أعدها للمؤمنين، ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ أي: أنهم يعرفون بيوتهم كما يعرف الواحد بيته في الدنيا، لا يحتاج إلىٰ من يدله ويرشده، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ النَّارِ، فَيُحْبَسُونَ عَلَىٰ قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقْتَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَتَّىٰ إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا، أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَحَدُهُمْ أَهْدَىٰ لِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا»** أخرجه احمد، وقيل: ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ أي: طيبها لهم في جميع أرجائها من العرف، وهي الريح فيتلذذون بشمه كما يتلذذون بالنظر إلىٰ ما فيها من الخير العظيم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ٧ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٩ ۞ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ١٠ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ١١﴾.

٧ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ﴾ بتطبيق دينه وطاعة رسوله ﷺ: ﴿يَنصُرۡكُمۡ﴾ علىٰ عدوكم، ﴿وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ حتىٰ لا تفروا لأن النصر من عند الله، كما قال: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [آل عمران:١٢٦].

٨ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأعرضوا عن دين الله: ﴿فَتَعْسًا﴾ هلاكًا: ﴿لَّهُمْ وَأَضَلَّ﴾ أذهب وأبطل ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ أذهب أجرها فلا قيمة لعملهم وإن كان صالحًا.

٩ ﴿ذَلِكَ﴾ السبب الذي من أجله لحقهم التعس والضلال: ﴿بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا﴾ أبغضوا ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ في القرآن، ﴿فَأَحْبَطَ﴾ أبطل ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾.

❁ **وبهذا استدل العلماء**: علىٰ أن الذي يكره دين الله سبحانه وتعالىٰ كافر كفر أكبر مُخرج من الملة، إذ أن حبوط العمل كليًا لا يكون إلا في حق الكافر.

١٠ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ يذهب أهل مكة ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ ما حولهم من القرىٰ والبلدان، ﴿فَيَنظُرُوا﴾ يتفكروا بعد تأمل ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ نهاية ﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كقوم ثمود وعاد ومن إليهم، ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أهلك عادًا بالريح وأهلك ثمودَ بالصيحة، ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ من أهل مكة: ﴿أَمْثَالُهَا﴾ من العذاب والخزي إن لم يتوبوا إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، وفعلًا سلط الله عليهم يوم بدر وقُتِلَ منهم سبعون وأُسر سبعون.

١١ ﴿ذَلِكَ﴾ هلاك الكافرين ونصرة المؤمنين: ﴿بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى﴾ ناصر: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في الدنيا والآخرة، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١]، ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى﴾ لا ناصر ﴿لَهُمْ﴾ من دون الله بل مولاهم الشيطان، يتبرأ منهم بعد أن يزيغهم، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال:٤٨]، و قال تعالىٰ: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَٰتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوٓا أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَٰتِ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢٥٧].

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَٰمُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوٓءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوٓا أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٤﴾ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾.

(١٢) ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يوم القيامة، ﴿جَنَّاتٍ﴾ بساتين عظيمات جميلات ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ اعرضوا وجحدوا ولم يستجيبوا لنداء الله ورسوله ﷺ: ﴿يَتَمَتَّعُونَ﴾ يتنعمون في الدنيا، ﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ الدواب، ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى﴾ مقراً ﴿لَّهُمْ﴾ فهذه غاية أعمالهم في الدنيا: أنهم يأكلون ويتمتعون، وفي الآخرة يُعذبون.

(١٣) ﴿وَكَأَيِّن﴾ كم ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾ أهلكناها، ﴿هِيَ أَشَدُّ﴾ أعظم، ﴿قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ﴾ مكة، ﴿الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ في الهجرة، ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ دمرناهم، ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ ولا معين؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ هو القوي الذي لا يُعجزه شيء.

(١٤) ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ حجة وسلطان ﴿مِّن رَّبِّهِ﴾ فكان مُسلمًا موحدًا منقادًا لرسول الله ﷺ، ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ فصار مشركًا منددًا كافرًا، يحسب أنه علىٰ شيء، وليس كذلك كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝١٠٣ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤].

﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم﴾ تابع هواه واتخذه إلهًا فلا يكون هذا كهذا أبدًا، فإن المؤمن درجته رفيعة ومكانه سامي في الدنيا والآخرة، كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝٣٦﴾ [القلم: ٣٥-٣٦]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠].

(١٥) ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ﴾ وما فيها من النعيم، ﴿الَّتِي وُعِدَ﴾ وُعِدَهَا، ﴿الْمُتَّقُونَ﴾ المؤمنون الطائعون، من ربهم تعالىٰ ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ غير متغير الريح، أو الطعم، أو اللون، ﴿وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ في غاية الصفاء والطزاجة، ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾ لذيذ في شربه ولا يُسكر، ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ عسل صافي لم يتكدر بعمل الأيادي والأرجل، ﴿وَلَهُمْ فِيهَا﴾ زيادة علىٰ ذلك مأكولات ﴿مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ الفواكه اليانعات.

﴿وَ﴾ مع ذلك لهم: ﴿مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ يغفر ذنوبهم، ويستر عيوبهم، ويتجاوز عن سيئاتهم، ويرفع درجاتهم فهل يستوي هذا الصنف مع، ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ وهو الكافر لا يخرج منها ولا يخفف عنه من عذابها، ﴿وَسُقُوا﴾ اشربوا في النار ﴿مَاءً حَمِيمًا﴾ شديد الحرارة، إذا قرب وجهه منه تساقط لحم وجهه، فإذا شرب منه تساقط لحم جسمه، ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾

أجوافهم، و(الأمعاء): هي الطريق التي يخرج منه البول والطعام، فعند أن يشرب الكافر تتقطع أمعاؤه؛ لأن طعامهم الزقوم، وشرابهم الحميم.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾.

﴿١٦﴾ ﴿وَمِنْهُم﴾ أي: من الكافرين أهل النفاق، ﴿مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ وإلىٰ كلامك يا محمد، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟﴾ سخريةً واستهزاءً: ﴿لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ يسألون ابن مسعود، ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ قبل، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الذين تقدم وصفهم، ﴿ٱلَّذِينَ طَبَعَ﴾ ختم، ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فلا يؤمنون ولا يهتدون، فصارت قلوبهم غلف، وإنما يلحق ذلك من عصىٰ الله وترك سبيل رضاه، فعَنْ أَبِي الْجَعْدِ الضَّمْرِيِّ، وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **«مَنْ تَرَكَ ثَلَاثَ جُمَعٍ تَهَاوُنًا بِهَا طَبَعَ اللهُ عَلَىٰ قَلْبِهِ»** اخرجه أبو داود، ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ ورغبات أنفسهم فأعمتهم عن الحق.

﴿١٧﴾ ﴿وَ﴾ هذا بخلاف ﴿ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟﴾ وانقادوا لله ولرسوله ﷺ، فإن الله عَزَّوَجَلَّ ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾ إيمانـًا وتوفيقـًا وعملاً .

❁ **وهذا من أدلة زيادة الإيمان ونقصانه**، فالإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية وعلىٰ هذا إجماع أهل السنة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى وَٱلْبَٰقِيَٰتُ﴾ [مريم:٧٦]، وقال ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر:٣١].

وقال: ﴿وَءَاتَىٰهُمْ﴾ أعطاهم: ﴿تَقْوَىٰهُمْ﴾ أي: الإيمان في قلوبهم بحيث يفعلون المأمور ويتركون المحظور، ويراقبون الله عَزَّوَجَلَّ وتنقاد جوارحهم لذلك.

﴿١٨﴾ ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ ينتظر الكفار: ﴿إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ القيامة، ﴿أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ علىٰ حين غفلة وغرة وهم غافلون عنها، فيلحقهم العذاب الأليم والخزي العظيم، ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أماراتها وعلاماتها، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١].

❁ وأشراط الساعة: كبرىٰ وصغرىٰ.

فمن الأشراط الصغرىٰ: مبعث النبي ﷺ، ونار تخرج من الحجاز، وفتح بيت المقدس، وفشو الخمر، والزنا، وكثرة القتل إلىٰ غير ذلك، ومن أشراط الساعة الكبرىٰ: خروج الدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسىٰ بن مريم إلىٰ غير ذلك، فعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ أَبِي سَرِيحَةَ، قَالَ: اطَّلَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ غُرْفَةٍ، وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ السَّاعَةَ، فَقَالَ: **«لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ تَكُونَ عَشْرُ آيَاتٍ: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالدَّجَّالُ، وَالدُّخَانُ، وَالدَّابَّةُ، وَيَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ، وَخُرُوجُ عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَثَلَاثُ خُسُوفٍ: خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ، وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ، وَخَسْفٌ»** اخرجه مسلم.

﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ﴾ وكيف حالهم، ﴿إِذَا جَاءَتْهُمْ﴾ الساعة ﴿ذِكْرَاهُمْ﴾ تذكرهم، والمعنىٰ فكيف لهم بالتذكر والاعتبار إذا جاءت الساعة ونزلت بهم، فلا يسلم من العذاب والنكال إلا من سلمه الله ممن كان من أهل الإيمان والإحسان.

(١٩) ﴿فَاعْلَمْ﴾ يا محمد، ﴿أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ لا معبود بحق إلا الله.

❁ وبهذه الآية استدل العلماء: علىٰ أن العلم قبل القول والعمل، قال البخاري في صحيحه: باب العلم قبل القول والعمل.

ثم استدل بهذه الآية، وقد قال النبي ﷺ: **«مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، دَخَلَ الْجَنَّةَ»** أخرجه مسلم عن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

❁ ومن شروط لا إله إلا الله: العلم.

فالذي يجهل معنىٰ لا إله إلا الله ليس بمؤمن كالذي يعبد القبور مع أنه يقول لا إله إلا الله، فهذا ما عَلِمَ معنىٰ لا إله إلا الله ولا عَمِلَ بمعنا إذ أنه يعبد القبور ويدعوها، ويرجوها، ويذبح لها، ويطوف بها، ويتقرب إليها وغيره ممن عبد عزيرًا، أو عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعبد الملائكة، والأحجار، والأشجار، فلا بد من العلم بمعنىٰ لا إله إلا الله من أنه: لا معبود بحق إلا الله، وغير الله إن عُبِدَ فبباطل، كما قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ **[الحج:٦٢]**.

وَقَدْ بَيَّنَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فِي الْقُرْآنِ شُرُوطَ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»:

- **فالأول**: العلم، كما تقدم.

- **ثانيها**: اليقين، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات:١٥].

- **ثالثها**: الإخلاص، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر:٢].

- **رابعها**: الصدق، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩].

- **خامسها**: المحبة، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ﴾ الآية [المائدة:٥٤]، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥].

- **سادسها**: الانقياد، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور:٥١].

-**سابعها**: القبول، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥].

- **ثامنها**: الكفر بالطاغوت، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٥٦].

فمن أراد سعادة الدنيا والآخرة فليعتن بعلم هذه الكلمة والعمل بها، فلا يكفي قولها المجرد فكم من إنسان يقولها بلسانه، ويناقضها باعتقاده وفعله وقوله.

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ تب إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ من ذنبك، والأمر للنبي ﷺ أمر لأمته وإلا فإن النبي ﷺ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ﴿وَ﴾ استغفر ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ من ذنوبهم، وهذا إكرام من الله لهذه الأمة حيث أمر رسولها أن يستغفر لها.

❁ وفيه فضيلة الدعاء للمؤمنين، فعن أُمِّ الدَّرْدَاءِ، قَالَتْ: حَدَّثَنِي سَيِّدِي أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: **«مَنْ دَعَا لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ، قَالَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ: آمِينَ، وَلَكَ بِمِثْلٍ»** أخرجه مسلم.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ متصرفكم لأشغالكم بالنهار في ذهابكم وإيابكم ﴿وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ ومستقركم ومأواكم في ليلكم، فلا يخفىٰ عليه خافية.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿٢٠﴾ ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا﴾ هلا، ﴿نُزِّلَتْ﴾ أُنزلت، ﴿سُورَةٌ﴾ من القرآن، وأمرنا فيها بالقتال، إذ كانوا يستعجلون الأمر به لشدة ما لحقهم من ظلم الكفار وبغيهم، ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ من القرآن، ﴿مُّحْكَمَةٌ﴾ بينة في حكمها، ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ الجهاد، والأمر به والتحريض عليه والترغيب فيه، ﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شك وضعف إيمان، ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ شزرًا كراهية للجهاد ﴿نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ كنظر الشاخص بصره عند الموت من شدة الخوف، ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ قيل علىٰ التهديد، والصحيح: أن المعنىٰ: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾أي: الأحرىٰ أن تكون منهم:

﴿٢١﴾ ﴿طَاعَةٌ﴾ لله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ، ﴿وَ﴾ أولىٰ بهم: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ كقولهم سمعنا وأطعنا واستجبنا لأمر ربنا، ﴿فَإِذَا عَزَمَ﴾ جَدَّ: ﴿الأَمْرُ﴾ وهو القتال، ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في إظهار الإيمان والطاعة ونياتهم في الجهاد؛ لإعلاء كلمة الله، ﴿لَكَانَ﴾ الصدق ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾ من هذا التباطؤ والتخوف.

﴿٢٢﴾ ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ فلعلكم ﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أعرضتم عن الجهاد في سبيل الله، وأعرضتم عن القرآن والإيمان، ﴿أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فتعودوا إلىٰ ما كنتم عليه في الجاهلية وينتشر الشرك والبلاء، ﴿وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾ يقع قطيعة الرحم بسبب عودة الناس إلىٰ الجاهلية الجهلاء.

فالمعنىٰ العام: فهل عسيتم أن تركتم الجهاد وتوليتم عنه، وعاد الناس إلىٰ الجاهلية أن يقع منكم الفساد العظيم في الأرض، ويقع تقطيع الأرحام.

فعن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: **«مَا مِنْ ذَنْبٍ هُوَ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللهُ تَعَالَىٰ عُقُوبَتَهُ لِصَاحِبِهِ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْبَغْيِ، وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ»** اخرجه احمد، وعن أبي

هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: **«إِنَّ الرَّحِمَ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَقُولُ: مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللهُ، وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللهُ»** متفق عليه.

وعن جبير بن مطعم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: **«لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ»** أي: رحم، متفق عليه، وفي حديث أبي هريرة، قال رسول الله ﷺ: **«إِنَّ اللهَ خَلَقَ الْخَلْقَ حَتَّىٰ إِذَا فَرَغَ مِنْهُمْ قَامَتِ الرَّحِمُ، فَقَالَتْ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ مِنَ الْقَطِيعَةِ، قَالَ: نَعَمْ، أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ؟ قَالَتْ: بَلَىٰ، قَالَ: فَذَاكِ لَكِ»**، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ:** ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾ **»** متفق عليه.

وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ لِي قَرَابَةً أَصِلُهُمْ وَيَقْطَعُونِي، وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسِيئُونَ إِلَيَّ، وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ، فَقَالَ: **«لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ، فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ»** اخرجه مسلم، وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال سمعت النبي ﷺ يقول: **«لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِئِ، وَلَكِنَّ الْوَاصِلَ مَنْ إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا»** متفق عليه.

فقطيعة الأرحام من أعظم الآثام فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: **«وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»**.

وفي حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»** متفق عليه.

ولو لم يكن إلا أن من وصلهم وصله الله بهداه، ووصله بعطائه، وتوفيقه، وتسديده، ووصله بعونه، وحفظه فالمعنىٰ عام، ولماذا فشا في هذا الزمن القتل والقتال ونحوه؟ إلا بسبب قطيعة الأرحام، فعلينا أن نسعىٰ بوصل ما أمر الله به أن يوصل، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ [الرعد:٢١]، فهؤلاء يصلهم الله بخيره.

﴿٢٣﴾ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾ الذين سعوا في الأرض بالفساد وتقطيع الأرحام، ﴿لَعَنَهُمُ﴾ طردهم، ﴿ٱللَّهُ﴾ عَزَّوَجَلَّ من رحمته، ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ عن سماع الحق، ﴿وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ عن النظر إليه، فالذنوب لها أثر في فساد حال المرء، والله المستعان.

﴿٢٤﴾ ﴿أَفَلَا﴾ فهلا ﴿يَتَدَبَّرُونَ﴾ يتعقل هؤلاء المعرضون: ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ ويعملون بما فيه، لكان خيرًا لهم في الدنيا والآخرة، ﴿أَمْ﴾ بل الواقع أن ﴿عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ مغاليقها فصارت

كأنها مغلقة مصمتة لا تستجيب لأمر الله ولا تفرح بوعده ولا تخشىٰ من زجره بسبب تسلط القسوة والغفلة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿٢٥﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟﴾ رجعوا عن الإسلام ﴿عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم﴾ ورجعوا القهقرىٰ، ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ﴾ ظهر، ﴿لَهُمُ ٱلْهُدَى﴾ العلم النافع والعمل الصالح، فإن السبب في إغوائهم هو: ﴿ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ حيث: ﴿سَوَّلَ﴾ زين: ﴿لَهُمْ﴾ الباطل، ﴿وَأَمْلَىٰ﴾ أطال ﴿لَهُم﴾ الأمل ونسوا الموت والعمل فوقع منهم ما وقع، كما قال تعالىٰ: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [الحديد: ١٤].

❁ **وفي هذه الآية إثبات الردة وينكرها بعض أهل البدع**، ومن إليهم من الجهال، مع أنها ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع، وتقع الردة بالقول كسب الله عَزَّوَجَلَّ، والفعل كالذبح لغير الله عَزَّوَجَلَّ، والإعتقاد كاعتقاد أن مع الله شريك أو معين أو ظهير أو نصير.

﴿٢٦﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي أوصلهم للردة، ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ يعني المنافقين أو اليهود ﴿قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ من الوحي للكافرين، ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ أي: سنطيعكم في شأنكم وأمركم، بالتعاون علىٰ عداوة محمد ﷺ وكانوا يقولونه سراً فقال الله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾، ومع ذلك أطلع الله عَزَّوَجَلَّ نبيه علىٰ ذلك.

﴿٢٧﴾ ﴿فَكَيْفَ﴾ يكون حالهم؟ ﴿إِذَا تَوَفَّتْهُمُ﴾ قبضت أرواحهم: ﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ ملائكة الموت حال كونهم: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ﴾ إهانة وإذلالاً وتحقيراً لهم، كما قال عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠]، و قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام:٩٣].

(٢٨) ﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب الذي يحصل لهم عند الموت، وهو واقع عليهم في القبر ﴿بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ﴾ تابعوا: ﴿مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ﴾ من الأعمال والأفعال، وقيل: بما كتموا من التورة، وكفروا بمحمد ﷺ.

❁ **وفيه: إثبات صفة السخط لله عَزَّوَجَلَّ وهي من الصفات الفعلية،** ﴿وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ﴾ كرهوا الإيمان والإحسان.

❁ **وفيه: إثبات صفة الرضا لله عَزَّوَجَلَّ وهي من الصفات الفعلية،** ﴿فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أذهبها وأبطلها، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ **[الفرقان:٢٣].**

(٢٩) ﴿أَمۡ﴾ بل ﴿حَسِبَ﴾ تيقن: ﴿ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ من المنافقين وغيرهم، ﴿أَن لَّن يُخۡرِجَ﴾ يظهر ﴿ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ﴾ حسدهم وبغضهم لمحمد ﷺ وأصحابه، فقد كانوا يبغضون النبي ﷺ ويبغضون أصحابه ويظنون أن هذا الأمر إنما هو في صدورهم، ولن يظهر للناس، لكن الواقع كما قال عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما أخفىٰ رجل سريرةً إلا أبداها الله علىٰ فلتات لسانه وصفحات وجهه، فيظهر ما في القلب علىٰ الوجه واللسان، فهؤلاء كانوا يبغضون النبي ﷺ ومن إليه ويحسدونهم، وإذا جالسوهم أظهروا لهم البشر والمحبة، ظنًا منهم: أن النبي ﷺ لم يعلم بحالهم.

﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ ٣٠ وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ٣١ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۚ وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٣٢﴾.

(٣٠) ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ﴾ لأعلمناك بهم واحدًا واحدًا، لكن مع ذلك قد جعل الله علامة أخرىٰ: ﴿فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ﴾ أي: بعلاماتهم، كما أن المؤمن سيماهُ في وجهه من أثر السجود، ونور وجهه يتلألأ لصفاء قلبه، تجد أن المنافق وجهه مسود مقفهر، وأيم الله أنك تعرف الباطنية والرافضة وعباد القبور من الصوفية في وجوههم، ﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾ فيما يبدوا من كلامهم فإذا تكلم كلامًا ظهر من كلامه بعض ما في قلبه، فكانوا إذا جاءوا

النبي ﷺ عرفهم بذلك، ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ جميعًا فيجازيكم عليها يوم القيامة، من أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها.

(٣١) ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ﴾ نختبرنكم بالأوامر والنواهي، ﴿حَتَّىٰ نَعۡلَمَ﴾ علم وقوع وإلا فإن الله بكل شيء عليم، ﴿ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ﴾ في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ من أجل إعلاء دين الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ﴾ فمن جاهد لإعلاء كلمة الله ونصر دينه فهو المؤمن حقًا، ومن تكاسل عن ذلك كان نقصًا في إيمانه.

(٣٢) ثم أخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن حال الكافرين، الذين جمعوا بين الكفر والصد عن سبيل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ﴾ أعرضوا عن الإيمان، ﴿وَصَدُّواْ﴾ غيرهم: ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ طريق الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَشَآقُّواْ﴾ خالفوا وعاندوا عن عمد وقصد: ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ ﷺ، ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ﴾ ظهر ﴿لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ العلم والعمل، ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا﴾ وإنما يضرون أنفسهم، كما قال تعالىٰ: «**يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَىٰ أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا**» أخرجه مسلم، ﴿وَسَيُحۡبِطُ﴾ يُذهب الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ مساعيهم في نصرة الباطل بأن لا تثمر لهم غير الخيبة وأجر ثوابهم، فلا يؤجرون علىٰ العمل الصالح إن عملوه.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ٣٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ٣٤ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ٣٥ إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ ٣٦ إِن يَسۡـَٔلۡكُمُوهَا فَيُحۡفِكُمۡ تَبۡخَلُواْ وَيُخۡرِجۡ أَضۡغَٰنَكُمۡ ٣٧ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ٣٨﴾.

(٣٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ نداء من الله عَزَّوَجَلَّ للمؤمنين المقرين له بالوحدانية، ولرسوله ﷺ بالرسالة، ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ في أمره والابتعاد عن نهيه وزجره، ﴿وَلَا تُبْطِلُوا﴾ تذهبوا أجر، ﴿أَعْمَالَكُمْ﴾ بالشك والنفاق والكفر والشقاق، وقيل: لا تبطلوا الحسنة بما

يلحقها من الأعمال السيئة. وفي حديث معاذ وأبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال رسول الله ﷺ: **«وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»** أخرجه الترمذي.

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤]، أما إذا كانت السيئات تلحق الحسنات لا سيما سيئة الشرك فإنها تُبطل جميع الحسنات، كما قال تعالىٰ: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [سورة البقرة:٨١].

٣٤ ثم أخبر الله عن حال الكافرين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أي: ماتوا حال كفرهم فلم تقع منهم توبة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

٣٥ ﴿فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ بل يُخلدون في نار جنهم، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢].

ومفهوم الآية: أن من تاب قبل موته، وإن وقع منه أي عمل تاب الله عليه، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، وفي الحديث: **«التَّائِبُ مِنْ الذَّنْبِ، كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ»** متفق عليه عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

٣٦ ﴿فَلَا تَهِنُوا۟﴾ تضعفوا، ﴿وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ إلىٰ الصلح والاستسلام، ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ الظاهرون الغالبون، ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ ينصركم ويحفظكم ويؤيدكم، وإن وقع لكم هزيمة في بعض المواطن فهي رفع للدرجات وتكفير للسيئات، وستكون الغلبة للمؤمنين، في آخر الأمر، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢]، ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ﴾ ينقصكم، ﴿أَعْمَٰلَكُمْ﴾ بل هي محفوظة لكم، وتجدونها يوم القيامة كاملة مضاعفة الأجور والثواب.

٣٧ ثم قال محضضًا لهم علىٰ الزهد في الدنيا التي من أجلها ربما يقع التقارب مع الكافرين: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ وما فيها من نعيم ونحوه، ﴿لَعِبٌ﴾ يوشك أن يزول، ﴿وَلَهْوٌ﴾ يشغل عن طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟﴾ بالله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ بفعل المأمور وترك المحظور، ﴿يُؤْتِكُمْ﴾ يعطكم: ﴿أُجُورَكُمْ﴾ ثوابكم مضاعفًا، كما قال تعالىٰ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ

فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الأنعام:١٦٠]، ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمُوهَا﴾ محمد ﷺ: ﴿أَمْوَالَكُمْ﴾.

❁ لأن سؤال الناس أموالهم يجعلهم يزهدون في الداعي إلىٰ الله؛ ولذلك كان جميع الرُسل شأنهم مع قومهم: ﴿قُلْ مَا أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [الفرقان:٥٧]، ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا﴾ [هود:٢٩]. ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [هود:٥١]، وكما قيل:

وَلَـوْ سُـئِلَ النَّـاسُ التُّـرَابَ لأَوْشَـكُوا ... اذَا قِيـلَ هَـاتُوا أنْ يَمِلُّـوا فَيَمْنَعُـوا

فكيف إذا كنت تسألهم أموالهم وتستجديهم العطاء لا سيما طالب العلم فإن كنت محتاجًا فاصبر، وصن علمك كما قال الجرجاني:

وَلَـوْ أَنَّ أَهْـلَ العِلْـمِ صَـانُوهُ صَـانَهُمْ ... وَلَـوْ عَظَّمُـوهُ فِـي النُّفُـوسِ لَعُظِّمَـا

وربما تكون بينك وبين بعضهم أُلفة ومحبة ومواصلة وإخاء وتزاور، فإذا سألته ماله وإذا بالأمر ينقلب رأسًا علىٰ عقب:

كأن لـم يَكُـنْ بينَ الحَجُـون إلـىٰ الصَّـفَا ... أَنِـيْسٌ، وَلَـمْ يَسْـمُرْ بِمَكَّـةَ سـامرُ

فهذا أمر ينبغي أن يُتفطن له من يقوم بالدعوة ويؤهل نفسه بأن يكون مُصلحًا، فإذا كان هذا الأمر للنبي ﷺ أن لا يسأل الصحابة رضوان الله عليهم وهم أحب الناس إليه وهو أحب الناس إليهم، وهم من أشد الناس متابعة ومحبة للدين والبذل في ذلك، فهذا أبو بكر أنفق ماله، وعمر أنفق نصف ماله، وعثمان جهز جيش العسرة، وغيرهم رضوان الله عليهم فكم لهم من الفضائل والشمائل.

﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا﴾ أي: الأموال، ﴿فَيُحْفِكُمْ﴾ فيلحف عليكم في المسألة تكرارًا وإحراجًا، ﴿تَبْخَلُوا۟﴾ يقع منكم البخل عما أمر الله به، ﴿وَيُخْرِجْ﴾ يظهر ﴿أَضْغَٰنَكُمْ﴾ أحقادكم وما في صدوركم بقولهم هذا يريد أن يأخذ أموالنا، وهذا طماع، وهذا ما عنده زهد في الدنيا، ونحو ذلك، فيبدأ الناس في الكلام هذا من هنا وهذا من هنا، بينما إن كنت زاهداً في أموالهم ما لهم مدخل عليك، فكثير من الناس يدخله الشيطان من باب المال، فانظروا إلىٰ ذي الخويصرة المنافق يقول: اعْدِلْ يَا مُحَمَّدُ فَإِنَّكَ لَمْ تَعْدِلْ، فَقَالَ: **«وَيْلَكَ، وَمَنْ يَعْدِلُ بَعْدِي إِذَا لَمْ أَعْدِلْ؟»**، **متفق عليه عن أبي سعيد** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والأنصار رضوان الله عليهم مع حبتهم لرسول الله ﷺ حين رأوه أعطىٰ قريشًا وتركهم قالوا: يَغْفِرُ اللهُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، يُعْطِي قُرَيْشًا وَيَدَعُنَا، وَسُيُوفُنَا تَقْطُرُ مِنْ دِمَائِهِمْ، فجمعهم النبي ﷺ وبين لهم أنه يؤلفهم بالمال.

❁ فهذا باب مهم، كن فيه علىٰ ثلاث حالات: لا تسأل الناس أموالهم، إلا بقدر ما أباحه الشرع.

فعَنْ قَبِيصَةَ بْنِ مُخَارِقٍ الْهِلَالِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: تَحَمَّلْتُ حَمَالَةً، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَسْأَلُهُ فِيهَا، فَقَالَ: **«أَقِمْ حَتَّىٰ تَأْتِينَا الصَّدَقَةُ، فَنَأْمُرَ لَكَ بِهَا»**، قَالَ: ثُمَّ قَالَ: **« يَا قَبِيصَةُ إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِأَحَدِ ثَلَاثَةٍ رَجُلٍ، تَحَمَّلَ حَمَالَةً، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّىٰ يُصِيبَهَا، ثُمَّ يُمْسِكُ، وَرَجُلٍ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاحَتْ مَالَهُ، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّىٰ يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ - أَوْ قَالَ سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ - وَرَجُلٍ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ حَتَّىٰ يَقُومَ ثَلَاثَةٌ مِنْ ذَوِي الْحِجَا مِنْ قَوْمِهِ: لَقَدْ أَصَابَتْ فُلَانًا فَاقَةٌ، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّىٰ يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ - أَوْ قَالَ سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ - فَمَا سِوَاهُنَّ مِنَ الْمَسْأَلَةِ يَا قَبِيصَةُ سُحْتًا يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتًا »**أخرجه مسلم (١٠٤٤).

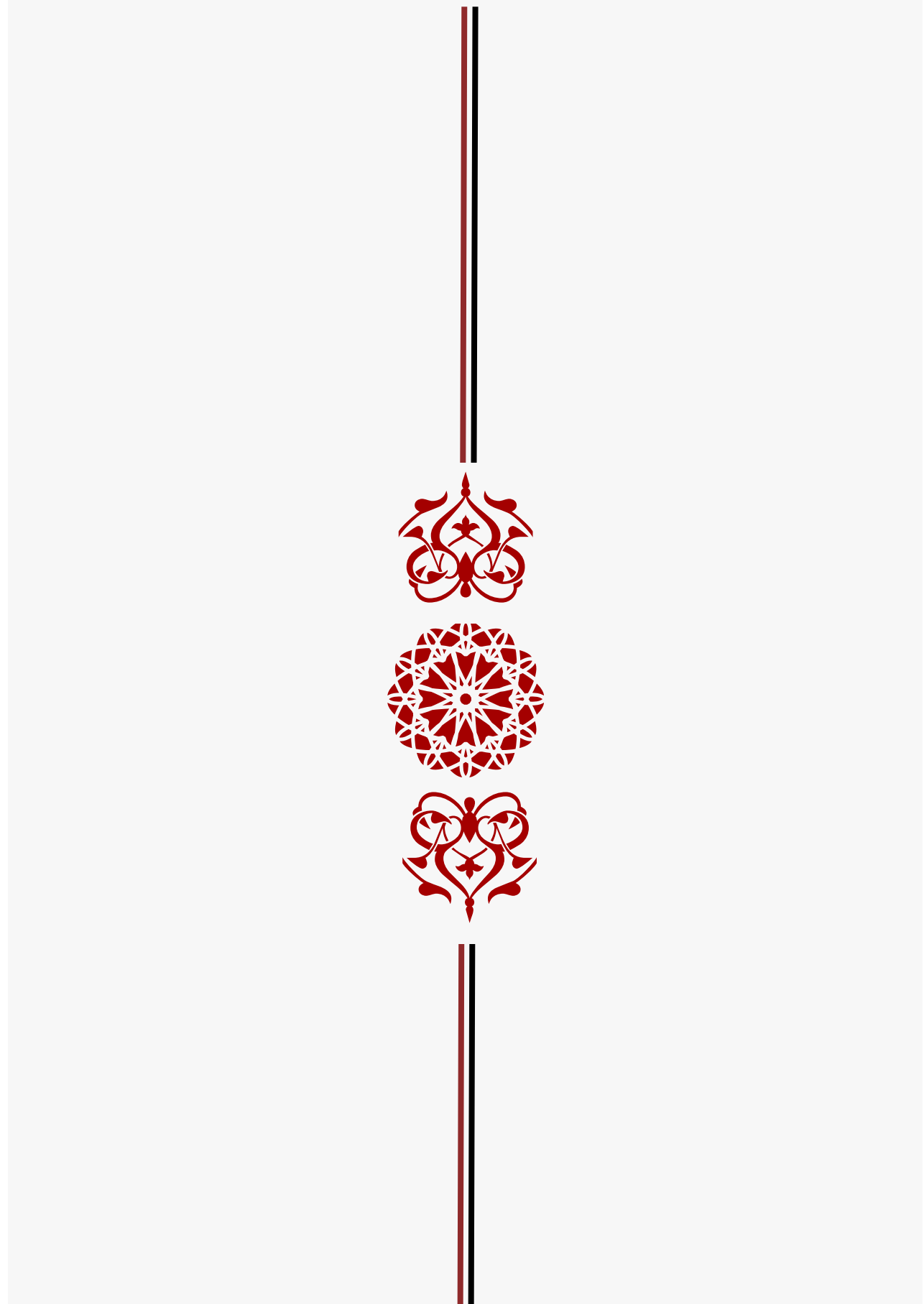
ولا تمنع الناس ما لهم من المال، ولا تُسء الظن بغيرك من أجل المال، فرُب مودة وأخوة يقطعها المال.

﴿٣٦﴾ ﴿هَاأَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ﴾ يا معاشر المسلمين ﴿تُدْعَوْنَ﴾ تؤمرون عن الله ورسوله ﷺ، ﴿لِتُنفِقُوا۟﴾ أموالكم ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ من أجل إعلاء دينه وإعزاز كلمته، ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ بما أوجب الله عليه، ﴿وَمَن يَبْخَلْ﴾ بالنفقات الواجبات ﴿فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن﴾ علىٰ ﴿نَّفْسِهِۦ﴾ فيمنعها الأجر والمثوبة، وإلا فإن الله غني عن نفقته وعطائه، ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ﴾ أزلًا وأبدًا لا ينتفع بعبادة عابد ولا يُضر بإعراض معرض، ﴿وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ في جميع أحوالكم، كما قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [فاطر:١٥]، ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟﴾ تعرضوا عن طاعة الله عَزَّوَجَلَّ والإنفاق في سبيله: ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يأتي بغيركم يقومون بطاعته ومرضاته، ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ في البخل بمال الله عَزَّوَجَلَّ، بل سيكون منهم المبادرة والسمع والطاعة.

❁ فهذه آية عظيمة كما أنها في شأن الأموال إلا أنها عامة، من تولىٰ عن السنة جاء الله عَزَّوَجَلَّ بخير منه ثم لا يكن مثله، ومن تولىٰ عن الاستقامة جاء الله عَزَّوَجَلَّ بغيره، ومن تولىٰ عن النفقة جاء الله عَزَّوَجَلَّ بغيره فهذا خبر الله وخبر الله لا يمكن أن يخلف.

❁ **وقيل:** هذه الآية نزلت في بعض أهل اليمن، وقيل في فارس والروم، وقيل غير ذلك: من أن الله عَزَّوَجَلَّ وعد المسلمين أن ينصرهم إذا تولىٰ من تولىٰ، وفعلًا حين حصلت الردة أقبل الله عَزَّوَجَلَّ بقلوب اليمنين وغيرهم، وفي الحديث: **«إِنِّي أَجِدُ نَفَسَ الرَّحْمَنِ مِنْ قِبَلِ الْيَمَنِ»**، فسره العلماء: بتنفيس الرحمن عن المسلمين بأهل اليمن، مع ضعف الحديث.

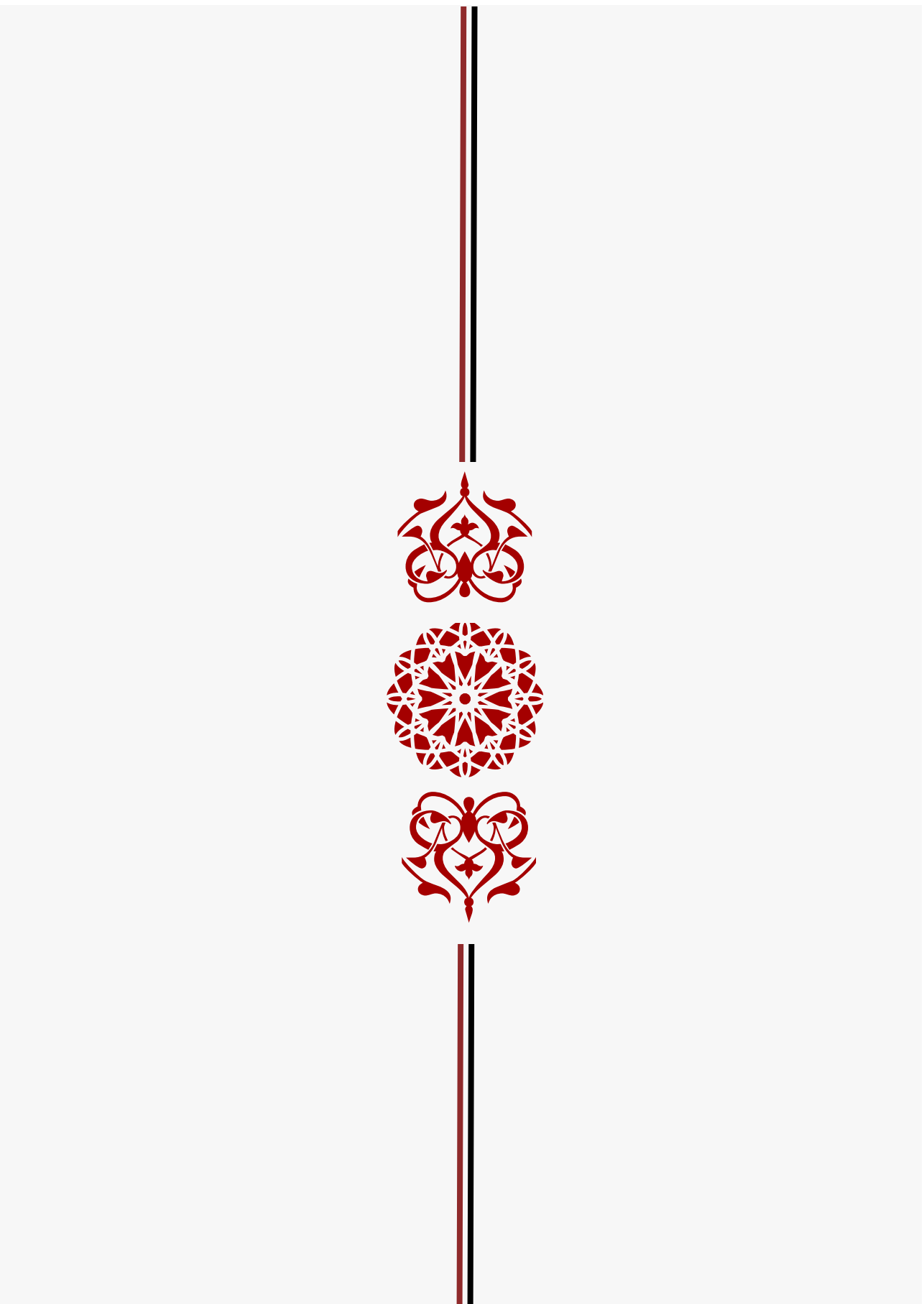
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.
تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ مُحَمَّد





تَفْسِيرُ سُورَةِ الْفَتْحِ





سُورَةُ الْفَتْحِ

مَدَنِيةٌ، النزول من حيث الزمن، ومَكِّيَّة النزول من حيث المكان، لكن تُسمىٰ بمدنية، وَآيَاتُهَا تِسْعَةٌ وَعِشْرُونَ آيَةً.

وَسَبَبُ نُزُولِهَا:

ما كان في شأن غزوة الحديبية، حيث ذهب النبي ﷺ ومن معه قاصدين البيت الحرام لعمرة يأتون بها، وكان الشأن: أن قريشًا لا تمنع أحدًا يأتي إلىٰ البيت الحرام، ولكنهم في هذا الحدث غيروا أمرهم وشأنهم، فمنعوا النبي ﷺ مع الدلائل التي ساقها لهم: أنهم إنما جاء لعمرة وأطلق الهدي أمامهم، ولكن لشدة بغضهم للإسلام وأهله ولرسول الله ﷺ أبوا أن يدخلها، ثم جرت محاورات كثيرات حتىٰ خرج النبي ﷺ بصلح معهم.

ففي البخاري عَنِ المِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ، وَمَرْوَانَ، يُصَدِّقُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَدِيثَ صَاحِبِهِ، قَالاَ: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ زَمَنَ الحُدَيْبِيَةِ حَتَّىٰ إِذَا كَانُوا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«إِنَّ خَالِدَ بْنَ الوَلِيدِ بِالْغَمِيمِ فِي خَيْلٍ لِقُرَيْشٍ طَلِيعَةٌ، فَخُذُوا ذَاتَ اليَمِينِ»** فَوَاللهِ مَا شَعَرَ بِهِمْ خَالِدٌ حَتَّىٰ إِذَا هُمْ بِقَتَرَةِ الجَيْشِ، فَانْطَلَقَ يَرْكُضُ نَذِيرًا لِقُرَيْشٍ، وَسَارَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّىٰ إِذَا كَانَ بِالثَّنِيَّةِ الَّتِي يُهْبَطُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ.

فَقَالَ النَّاسُ: حَلْ حَلْ فَأَلَحَّتْ، فَقَالُوا: خَلَأَتْ القَصْوَاءُ، خَلَأَتْ القَصْوَاءُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«مَا خَلَأَتْ القَصْوَاءُ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الفِيلِ»**، ثُمَّ قَالَ: **«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لاَ يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا»**.

ثُمَّ زَجَرَهَا فَوَثَبَتْ، قَالَ: فَعَدَلَ عَنْهُمْ حَتَّىٰ نَزَلَ بِأَقْصَىٰ الحُدَيْبِيَةِ عَلَىٰ ثَمَدٍ قَلِيلِ المَاءِ، يَتَبَرَّضُهُ النَّاسُ تَبَرُّضًا، فَلَمْ يُلَبِّثْهُ النَّاسُ حَتَّىٰ نَزَحُوهُ وَشُكِيَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ العَطَشُ، فَانْتَزَعَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوهُ فِيهِ، فَوَاللهِ مَا زَالَ يَجِيشُ لَهُمْ بِالرِّيِّ حَتَّىٰ صَدَرُوا عَنْهُ.

فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَ بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ الخُزَاعِيُّ فِي نَفَرٍ مِنْ قَوْمِهِ مِنْ خُزَاعَةَ، وَكَانُوا عَيْبَةَ نُصْحِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ أَهْلِ تِهَامَةَ، فَقَالَ: إِنِّي تَرَكْتُ كَعْبَ بْنَ لُؤَيٍّ، وَعَامِرَ بْنَ لُؤَيٍّ نَزَلُوا أَعْدَادَ مِيَاهِ الحُدَيْبِيَةِ، وَمَعَهُمُ العُوذُ المَطَافِيلُ، وَهُمْ مُقَاتِلُوكَ وَصَادُّوكَ عَنِ البَيْتِ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّا لَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أَحَدٍ، وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، وَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ نَهِكَتْهُمُ الحَرْبُ، وَأَضَرَّتْ بِهِمْ، فَإِنْ شَاءُوا مَادَدْتُهُمْ مُدَّةً، وَيُخَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ، فَإِنْ أَظْهَرْ: فَإِنْ شَاءُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَلُوا، وَإِلَّا فَقَدْ جَمُّوا، وَإِنْ هُمْ أَبَوْا، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأُقَاتِلَنَّهُمْ عَلَىٰ أَمْرِي هَذَا حَتَّىٰ تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي، وَلَيُنْفِذَنَّ اللهُ أَمْرَهُ**».

فَقَالَ بُدَيْلٌ: سَأُبَلِّغُهُمْ مَا تَقُولُ، قَالَ: فَانْطَلَقَ حَتَّىٰ أَتَىٰ قُرَيْشًا، قَالَ: إِنَّا قَدْ جِئْنَاكُمْ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ وَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ قَوْلًا، فَإِنْ شِئْتُمْ أَنْ نَعْرِضَهُ عَلَيْكُمْ فَعَلْنَا.

فَقَالَ سُفَهَاؤُهُمْ: لاَ حَاجَةَ لَنَا أَنْ تُخْبِرَنَا عَنْهُ بِشَيْءٍ، وَقَالَ ذَوُو الرَّأْيِ مِنْهُمْ: هَاتِ مَا سَمِعْتَهُ يَقُولُ، قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا، فَحَدَّثَهُمْ بِمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَامَ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ فَقَالَ: أَيْ قَوْمِ، أَلَسْتُمْ بِالوَالِدِ؟ .

قَالُوا: بَلَىٰ، قَالَ: أَوَلَسْتُ بِالوَلَدِ؟ قَالُوا: بَلَىٰ.

قَالَ: فَهَلْ تَتَّهِمُونِي؟ قَالُوا: لاَ، قَالَ: أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي اسْتَنْفَرْتُ أَهْلَ عُكَاظَ، فَلَمَّا بَلَّحُوا عَلَيَّ جِئْتُكُمْ بِأَهْلِي وَوَلَدِي وَمَنْ أَطَاعَنِي؟.

قَالُوا: بَلَىٰ، قَالَ: فَإِنَّ هَذَا قَدْ عَرَضَ لَكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ، اقْبَلُوهَا وَدَعُونِي آتِيهِ، قَالُوا: ائْتِهِ، فَأَتَاهُ.

فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ نَحْوًا مِنْ قَوْلِهِ لِبُدَيْلٍ، فَقَالَ عُرْوَةُ عِنْدَ ذَلِكَ: أَيْ مُحَمَّدُ أَرَأَيْتَ إِنِ اسْتَأْصَلْتَ أَمْرَ قَوْمِكَ، هَلْ سَمِعْتَ بِأَحَدٍ مِنَ العَرَبِ اجْتَاحَ أَهْلَهُ قَبْلَكَ، وَإِنْ تَكُنِ الأُخْرَىٰ، فَإِنِّي وَاللهِ لَأَرَىٰ وُجُوهًا، وَإِنِّي لَأَرَىٰ أَوْشَابًا مِنَ النَّاسِ خَلِيقًا أَنْ يَفِرُّوا وَيَدَعُوكَ.

فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: امْصُصْ بِبَظْرِ اللَّاتِ، أَنَحْنُ نَفِرُّ عَنْهُ وَنَدَعُهُ؟.

فَقَالَ: مَنْ ذَا؟ قَالُوا: أَبُو بَكْرٍ، قَالَ: أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْلاَ يَدٌ كَانَتْ لَكَ عِنْدِي لَمْ أَجْزِكَ بِهَا لَأَجَبْتُكَ.

قَالَ: وَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَكُلَّمَا تَكَلَّمَ أَخَذَ بِلِحْيَتِهِ، وَالمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ قَائِمٌ عَلَىٰ رَأْسِ النَّبِيِّ ﷺ، وَمَعَهُ السَّيْفُ وَعَلَيْهِ المِغْفَرُ، فَكُلَّمَا أَهْوَىٰ عُرْوَةُ بِيَدِهِ إِلَىٰ لِحْيَةِ النَّبِيِّ ﷺ ضَرَبَ يَدَهُ بِنَعْلِ السَّيْفِ، وَقَالَ لَهُ: أَخِّرْ يَدَكَ عَنْ لِحْيَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَرَفَعَ عُرْوَةُ رَأْسَهُ.

فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: المُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ، فَقَالَ: أَيْ غُدَرُ، أَلَسْتُ أَسْعَىٰ فِي غَدْرَتِكَ؟ وَكَانَ المُغِيرَةُ صَحِبَ قَوْمًا فِي الجَاهِلِيَّةِ فَقَتَلَهُمْ، وَأَخَذَ أَمْوَالَهُمْ، ثُمَّ جَاءَ فَأَسْلَمَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«أَمَّا الإِسْلاَمَ فَأَقْبَلُ، وَأَمَّا المَالَ فَلَسْتُ مِنْهُ فِي شَيْءٍ»**.

ثُمَّ إِنَّ عُرْوَةَ جَعَلَ يَرْمُقُ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ بِعَيْنَيْهِ، قَالَ: فَوَاللهِ مَا تَنَخَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَىٰ وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ، فَرَجَعَ عُرْوَةُ إِلَىٰ أَصْحَابِهِ.

فَقَالَ: أَيْ قَوْمِ، وَاللهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَىٰ المُلُوكِ، وَوَفَدْتُ عَلَىٰ قَيْصَرَ، وَكِسْرَىٰ، وَالنَّجَاشِيِّ، وَاللهِ إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعَظِّمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ مُحَمَّدًا، وَاللهِ إِنْ تَنَخَّمَ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَىٰ وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ فَاقْبَلُوهَا، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ: دَعُونِي آتِيهِ، فَقَالُوا: ائْتِهِ.

فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«هَذَا فُلاَنٌ، وَهُوَ مِنْ قَوْمٍ يُعَظِّمُونَ البُدْنَ، فَابْعَثُوهَا لَهُ»** فَبُعِثَتْ لَهُ، وَاسْتَقْبَلَهُ النَّاسُ يُلَبُّونَ، فَلَمَّا رَأَىٰ ذَلِكَ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ، مَا يَنْبَغِي لِهَؤُلاَءِ أَنْ يُصَدُّوا عَنِ البَيْتِ، فَلَمَّا رَجَعَ إِلَىٰ أَصْحَابِهِ، قَالَ: رَأَيْتُ البُدْنَ قَدْ قُلِّدَتْ وَأُشْعِرَتْ، فَمَا أَرَىٰ أَنْ يُصَدُّوا عَنِ البَيْتِ.

فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ مِكْرَزُ بْنُ حَفْصٍ، فَقَالَ: دَعُونِي آتِيهِ، فَقَالُوا: ائْتِهِ.

فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«هَذَا مِكْرَزٌ، وَهُوَ رَجُلٌ فَاجِرٌ»**، فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ،

فَبَيْنَمَا هُوَ يُكَلِّمُهُ إِذْ جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو قَالَ مَعْمَرٌ: فَأَخْبَرَنِي أَيُّوبُ، عَنْ عِكْرِمَةَ أَنَّهُ لَمَّا جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«لَقَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ»** قَالَ مَعْمَرٌ: قَالَ الزُّهْرِيُّ فِي

حَدِيثِهِ: فَجَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ: هَاتِ اكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابًا فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ الكَاتِبَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**».

قَالَ سُهَيْلٌ: أَمَّا الرَّحْمَنُ، فَوَاللهِ مَا أَدْرِي مَا هُوَ وَلَكِنِ اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ، فَقَالَ المُسْلِمُونَ: وَاللهِ لاَ نَكْتُبُهَا إِلَّا بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ**» ثُمَّ قَالَ: «**هَذَا مَا قَاضَىٰ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ**».

فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَاللهِ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ البَيْتِ، وَلاَ قَاتَلْنَاكَ، وَلَكِنِ اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَاللهِ إِنِّي لَرَسُولُ اللهِ، وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي، اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ**» - قَالَ الزُّهْرِيُّ: وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ: «**لاَ يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا**» .

فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**عَلَىٰ أَنْ تُخَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ البَيْتِ، فَنَطُوفَ بِهِ**».

فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَاللهِ لاَ تَتَحَدَّثُ العَرَبُ أَنَّا أُخِذْنَا ضُغْطَةً، وَلَكِنْ ذَلِكَ مِنَ العَامِ المُقْبِلِ، فَكَتَبَ، فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَعَلَىٰ أَنَّهُ لاَ يَأْتِيكَ مِنَّا رَجُلٌ وَإِنْ كَانَ عَلَىٰ دِينِكَ إِلَّا رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا.

قَالَ المُسْلِمُونَ: سُبْحَانَ اللهِ، كَيْفَ يُرَدُّ إِلَىٰ المُشْرِكِينَ وَقَدْ جَاءَ مُسْلِمًا؟.

فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ دَخَلَ أَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو يَرْسُفُ فِي قُيُودِهِ، وَقَدْ خَرَجَ مِنْ أَسْفَلِ مَكَّةَ حَتَّىٰ رَمَىٰ بِنَفْسِهِ بَيْنَ أَظْهُرِ المُسْلِمِينَ، فَقَالَ سُهَيْلٌ: هَذَا يَا مُحَمَّدُ أَوَّلُ مَا أُقَاضِيكَ عَلَيْهِ أَنْ تَرُدَّهُ إِلَيَّ.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّا لَمْ نَقْضِ الكِتَابَ بَعْدُ**»، قَالَ: فَوَاللهِ إِذًا لَمْ أُصَالِحْكَ عَلَىٰ شَيْءٍ أَبَدًا، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**فَأَجِزْهُ لِي**»، قَالَ: مَا أَنَا بِمُجِيزِهِ لَكَ، قَالَ: «**بَلَىٰ فَافْعَلْ**»، قَالَ: مَا أَنَا بِفَاعِلٍ، قَالَ مِكْرَزٌ: بَلْ قَدْ أَجَزْنَاهُ لَكَ.

قَالَ أَبُو جَنْدَلٍ: أَيْ مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ، أُرَدُّ إِلَىٰ المُشْرِكِينَ وَقَدْ جِئْتُ مُسْلِمًا، أَلاَ تَرَوْنَ مَا قَدْ لَقِيتُ؟ وَكَانَ قَدْ عُذِّبَ عَذَابًا شَدِيدًا فِي اللهِ، قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ: فَأَتَيْتُ نَبِيَّ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ: أَلَسْتَ نَبِيَّ اللهِ حَقًّا، قَالَ: «**بَلَىٰ**»، قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَىٰ الحَقِّ، وَعَدُوُّنَا عَلَىٰ البَاطِلِ، قَالَ: «**بَلَىٰ**»، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا؟ قَالَ: «**إِنِّي رَسُولُ اللهِ، وَلَسْتُ أَعْصِيهِ، وَهُوَ نَاصِرِي**»، قُلْتُ: أَوَلَيْسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي البَيْتَ فَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: «**بَلَىٰ، فَأَخْبَرْتُكَ أَنَّا نَأْتِيهِ العَامَ**»، قَالَ: قُلْتُ: لاَ، قَالَ: «**فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِهِ**».

قَالَ: فَأَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ فَقُلْتُ: يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَيْسَ هَذَا نَبِيَّ اللهِ حَقًّا؟ قَالَ: بَلَىٰ، قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَىٰ الحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَىٰ البَاطِلِ؟ .

قَالَ: بَلَىٰ، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا؟.

قَالَ: أَيُّهَا الرَّجُلُ إِنَّهُ لَرَسُولُ اللهِ ﷺ، وَلَيْسَ يَعْصِي رَبَّهُ، وَهُوَ نَاصِرُهُ، فَاسْتَمْسِكْ بِغَرْزِهِ، فَوَاللهِ إِنَّهُ عَلَىٰ الحَقِّ.

قُلْتُ: أَلَيْسَ كَانَ يُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي البَيْتَ وَنَطُوفُ بِهِ؟ .

قَالَ: بَلَىٰ، أَفَأَخْبَرَكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ العَامَ؟ قُلْتُ: لاَ، قَالَ: فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِهِ، - قَالَ الزُّهْرِيُّ: قَالَ عُمَرُ -: فَعَمِلْتُ لِذَلِكَ أَعْمَالًا، قَالَ: فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قَضِيَّةِ الكِتَابِ.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: **«قُومُوا فَانْحَرُوا ثُمَّ احْلِقُوا»**، قَالَ: فَوَاللهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ حَتَّىٰ قَالَ ذَلِكَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ عَلَىٰ أُمِّ سَلَمَةَ، فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، أَتُحِبُّ ذَلِكَ، اخْرُجْ ثُمَّ لاَ تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً، حَتَّىٰ تَنْحَرَ بُدْنَكَ، وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ.

فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّىٰ فَعَلَ ذَلِكَ نَحَرَ بُدْنَهُ، وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا، فَنَحَرُوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا حَتَّىٰ كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا، ثُمَّ جَاءَهُ نِسْوَةٌ مُؤْمِنَاتٌ.

فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠]، حَتَّىٰ بَلَغَ بِعِصَمِ الكَوَافِرِ فَطَلَّقَ عُمَرُ يَوْمَئِذٍ امْرَأَتَيْنِ، كَانَتَا لَهُ فِي الشِّرْكِ فَتَزَوَّجَ إِحْدَاهُمَا مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ، وَالأُخْرَىٰ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ.

ثُمَّ رَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَىٰ المَدِينَةِ، فَجَاءَهُ أَبُو بَصِيرٍ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ وَهُوَ مُسْلِمٌ، فَأَرْسَلُوا فِي طَلَبِهِ رَجُلَيْنِ، فَقَالُوا: العَهْدَ الَّذِي جَعَلْتَ لَنَا، فَدَفَعَهُ إِلَىٰ الرَّجُلَيْنِ، فَخَرَجَا بِهِ حَتَّىٰ بَلَغَا ذَا الحُلَيْفَةِ، فَنَزَلُوا يَأْكُلُونَ مِنْ تَمْرٍ لَهُمْ.

فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ لِأَحَدِ الرَّجُلَيْنِ: وَاللهِ إِنِّي لَأَرَىٰ سَيْفَكَ هَذَا يَا فُلاَنُ جَيِّدًا، فَاسْتَلَّهُ الآخَرُ، فَقَالَ: أَجَلْ، وَاللهِ إِنَّهُ لَجَيِّدٌ، لَقَدْ جَرَّبْتُ بِهِ، ثُمَّ جَرَّبْتُ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ: أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْهِ، فَأَمْكَنَهُ مِنْهُ، فَضَرَبَهُ حَتَّىٰ بَرَدَ، وَفَرَّ الآخَرُ حَتَّىٰ أَتَىٰ المَدِينَةَ، فَدَخَلَ المَسْجِدَ يَعْدُو.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ رَآهُ: **«لَقَدْ رَأَىٰ هَذَا ذُعْرًا»** فَلَمَّا انْتَهَىٰ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: قُتِلَ وَاللهِ صَاحِبِي وَإِنِّي لَمَقْتُولٌ، فَجَاءَ أَبُو بَصِيرٍ فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، قَدْ وَاللهِ أَوْفَىٰ اللهُ ذِمَّتَكَ، قَدْ رَدَدْتَنِي إِلَيْهِمْ، ثُمَّ أَنْجَانِي اللهُ مِنْهُمْ.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«وَيْلُ أُمِّهِ مِسْعَرَ حَرْبٍ، لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ»** فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ عَرَفَ أَنَّهُ سَيَرُدُّهُ إِلَيْهِمْ، فَخَرَجَ حَتَّىٰ أَتَىٰ سِيفَ البَحْرِ قَالَ: وَيَنْفَلِتُ مِنْهُمْ أَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلٍ، فَلَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ، فَجَعَلَ لاَ يَخْرُجُ مِنْ قُرَيْشٍ رَجُلٌ قَدْ أَسْلَمَ إِلَّا لَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ، حَتَّىٰ اجْتَمَعَتْ مِنْهُمْ عِصَابَةٌ، فَوَاللهِ مَا يَسْمَعُونَ بِعِيرٍ خَرَجَتْ لِقُرَيْشٍ إِلَىٰ الشَّأْمِ إِلَّا اعْتَرَضُوا لَهَا، فَقَتَلُوهُمْ وَأَخَذُوا أَمْوَالَهُمْ.

فَأَرْسَلَتْ قُرَيْشٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ تُنَاشِدُهُ بِاللهِ وَالرَّحِمِ، لَمَّا أَرْسَلَ، فَمَنْ أَتَاهُ فَهُوَ آمِنٌ، فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ﴾ [الفتح: ٢٤]، حَتَّىٰ بَلَغَ: ﴿ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٦]، وَكَانَتْ حَمِيَّتُهُمْ أَنَّهُمْ لَمْ يُقِرُّوا أَنَّهُ نَبِيُّ اللهِ، وَلَمْ يُقِرُّوا بِبِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَحَالُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ البَيْتِ" أخرجه مسلم.

فكان الفتح في صلح الحديبية، وإنما كان دخول مكة تتمة لما وقع في هذه الغزوة والحادثة، فإن نقض العهد جاء من قبل قريش وحلفائها، وكان في ذلك مدخل للنبي ﷺ وأصحابه أن يدخلوا مكة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤﴾.

(١) ﴿إِنَّا﴾ تعظيمًا لنفسه فهو العظيم في ذاته وصفاته وأفعاله، ﴿فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ أي: بينًا واضحًا جليًا وهو ما كان من النصر والظفر في غزوة الحديبية، وكانت في السنة السادسة من الهجرة.

(٢) ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ وهذه منَّة عظيمة على نبيه، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح:١-٤].

ومع ذلك كان النبي ﷺ ملازمًا للدعاء بمغفرة الذنوب وستر العيوب تعليمًا لأمته: فعن ابْنِ عُمَرَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كُنَّا نَعُدُّ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ مِائَةَ مَرَّةٍ يَقُولُهَا قَبْلَ أَنْ يَقُولَ شَيْئًا: **«رَبِّ اغْفِرْ لِي، وَتُبْ عَلَيَّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ»** أخرجه أبو داود وأحمد.

ولا يكون مغفرة ما تقدم وما تأخر إلا للنبي ﷺ، فهو من خصائصه، وما كان من قول النبي ﷺ لأهل بدر: **«اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»**، خصيصة لهم.

﴿وَيُتِمَّ﴾ يكمل ﴿نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ بالإسلام والقرآن، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، ﴿وَيَهْدِيَكَ﴾ يوفقك ويسددك: ﴿صِرَٰطًا﴾ طريقًا ﴿مُّسْتَقِيمًا﴾ قويمًا يوصلك إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.

٣ ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ﴾ عَزَّوَجَلَّ في الدنيا علىٰ أعدائك: ﴿نَصْرًا عَزِيزًا﴾ قويًا ظاهرًا جليًا.

٤ ﴿هُوَ﴾ الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ الطمأنينة والثبات، وقيل: الوقار، ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين استجابوا لأمر الله عزو جل، وأمر رسوله ﷺ في الحديبية؛ لأن الخوف يسبب القلق، والفزع، والشدة، فكان ربنا عَزَّوَجَلَّ يمتن علىٰ المؤمنين بإنزال السكينة عليهم، ومن ذلك: أنه كان يُنزل الأحكام الشرعية، فأول ما أمر بالتوحيد، ثم أمر بالصلاة، وهكذا تدرجت الأحكام؛ ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ باستجابتهم لله واستجابتهم لرسوله ﷺ، ﴿مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ الذي كانوا قد أقروا به واعتقدوه.

❁ وفي هذا دليل لمذهب أهل السنة والجماعة: أن الإيمان يزيد وينقص، زيادته بالطاعة، ونقصانه بالمعصية، وعندهم أن الإيمان: قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالجوارح والأركان.

﴿وَلِلَّهِ﴾ أي: حين ينصركم ويؤيدكم، ﴿جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ينصر بهم عباده، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بكل شيء، ﴿حَكِيمًا﴾ في كل شيء.

﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٦ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧﴾.

٥ ﴿لِيُدْخِلَ﴾ يوم القيامة ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ جزاء إيمانهم وإخلاصهم واستجابتهم: ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أبدًا لا يخرجون منها و: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾

[الكهف:١٠٨]، ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ يتجاوز عن سيئاتهم وخطاياهم، ﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ أي تكفير السيئات للمؤمنين، ﴿عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ ولا أعظم منه، كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران:١٨٥].

٦ ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ الذين خالفوا أمر الله وشرعه، أما المنافقون فخالفوه باطنًا وإن أقروا به ظاهرًا.

وأما المشركون فخالفوه ظاهرًا وباطنًا، ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ الظن السيء بالله فجعلوا له شركاء؛ واتهموه في حكمه فزعموا أنه لا ينصر أوليائه ولا ينصر محمدًا ﷺ، فبسبب ظنهم السيء أشركوا ونددوا ووقعوا في الفساد العريض، ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ يعني: إن دخلوا في حرب أو نحوه دائمًا تكون الدبرة عليهم فيستأصلون ويؤسرون ويؤدبون، زد علىٰ ذلك: ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ لسوء أفعالهم، ومن غضب الله عَزَّوَجَلَّ عليه انتقم منه، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الزخرف:٥٥].

❁ **وفيه إثبات صفة الغضب لله عَزَّوَجَلَّ، وهي من الصفات الفعلية.**

﴿وَلَعَنَهُمْ﴾ طردهم من رحمته، ﴿وَأَعَدَّ﴾ جهز، ﴿لَهُمْ﴾ ليوم القيامة: ﴿جَهَنَّمَ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۝١٥ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦﴾ [الليل:١٤-١٦]، وقال: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١].

❁ **وفيها دلالة علىٰ وجود النار الآن**، خلافًا للمعتزلة والجهمية، الذين ذهبوا إلىٰ أن وجودها الآن عبث تعالىٰ الله عن قولهم: ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ لهم، حتىٰ أنهم من شدة عذابها يطلبون الموت فلا يجدونه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ [الزخرف:٧٧].

٧ ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ينصر بهم دينه، كررها لبيان: أن الأمر أمره، وأن الملك ملكه لا يعجزه أن يتصرف فيه كيف شاء، ولكنه قضىٰ الأمور علىٰ مقتضىٰ حكمته وعلمه، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ قويًا لا يُغلب، ﴿حَكِيمًا﴾ في جميع شأنه أمرًا ونهيًا وفعلًا.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ۝٩﴾.

٨ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ بعثناك يا محمد: ﴿شَاهِدًا﴾ علىٰ هذه الأمة يوم القيامة، كما قال تعالىٰ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٤١]،

﴿وَمُبَشِّرًا﴾ لهم بالخير العظيم وهو الجنة، ﴿وَنَذِيرًا﴾ منذرًا لهم من عذاب النار ومن غضب الجبار سبحانه وتعالىٰ.

٩ وهذا؛ ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فتنقادون لشرع الله مع إقراركم بالإيمان به، وبرسوله ﷺ، ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ أي: النبي ﷺ تنصرونه وتؤيدونه، ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ تعظمونه أي: النبي ﷺ، ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ أي: تصلوا لله عَزَّوَجَلَّ، ﴿بُكْرَةً﴾ في الغدوة، صلاة الفجر ﴿وَأَصِيلًا﴾ في المساء، الظهر والعصر والمغرب والعشاء.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾.

١٠ ثم قال تعالىٰ مخبراً عن حال المؤمنين في البيعة وما لحقهم من الخير العظيم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ يا محمد من المؤمنين في غزوة الحديبية، ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالىٰ، فكان النبي ﷺ يستقبل بيعتهم بيده و ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ وهو علىٰ عرشه غير متحد أو مختلط بمخلوقاته: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ:١١].

وفيها إثبات صفة اليد لله عَزَّوَجَلَّ، وهي يد حقيقية تليق بجلاله وكلتا يديه يمين.

﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ نقض هذه البيعة وأبىٰ البقاء عليها، ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ﴾ ينقض: ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ والله الغني، ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ﴾ وأدىٰ: ﴿بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ﴾ بما التزمه من النصرة لرسول الله ﷺ والقيام معه، ﴿فَسَيُؤْتِيهِ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة: ﴿أَجْرًا﴾ ثوابًا ﴿عَظِيمًا﴾ بل وربما رزقهم الله عَزَّوَجَلَّ الأجور العظيمة الكثيرة في الدنيا.

١١ ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ من غفار، وجهينة، ومزينة الذين لم يذهبوا مع رسول الله ﷺ إلىٰ الحديبية، ﴿شَغَلَتْنَا﴾ ألهتنا ﴿أَمْوَالُنَا﴾ عن المسير معك، ﴿وَأَهْلُونَا﴾ من الأزواج والأبناء حيث نقوم بشأنهم، ﴿فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ ما وقعنا فيه من الذنب والتقصير، ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم﴾ بأفواههم، ﴿مَّا لَيْسَ﴾ له حقيقة ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾ فالواقع: أنهم ما تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ بسبب الأولاد والأموال وإنما خافوا ألن يرجع النبي ﷺ

وأصحابه، ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي: يمنعكم، ﴿إِنْ أَرَادَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ ﴿بِكُمْ ضَرًّا﴾ مصيبة أو فتنة ونحو ذلك، ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ رخاءً وخصبًا وصحةً، ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ مطلعًا علىٰ أفعالكم وأقوالكم ومخادعتكم لأنفسكم.

﴿١٢﴾ ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ﴾ الواقع أنكم ظننتم في أنفسكم ظنًا سيئًا وهو: ﴿أَن لَّن يَنقَلِبَ﴾ يرجع ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ ﷺ، ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ بالمدينة، بل سيكون الاستئصال من الكفار لهم، ﴿وَزُيِّنَ﴾ حُسن ﴿ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ زينه الشيطان وزوقه حتىٰ جعله حقيقة في قلوبهم.

❁ وإلىٰ الآن تجد كثيراً من الناس إذا رأىٰ ولده يدخل مع أهل السنة والجماعة ويلتحق بالمساجد لتعلم الكتاب والسنة ظن ظنًا سيئًا علىٰ أن هؤلاء يتربص بهم الكفار، نقول نعم يتربصون لكن ما عساهم أن يصنعوا فالأمر ليس إليهم: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم:٤].

فلا تبقىٰ خائفًا من الاستقامة خوفًا أن يصنفوا ولدك إرهابيًا، أو متطرفًا هذا الأمر ليس إليهم نحن من أبعد الناس عن الإرهاب، والتطرف بفضل الله عَزَّوَجَلَّ، بل نحن من يحذر من الإرهاب والتطرف، وأما أصحاب الأفكار الخارجية فإنما زرعتهم أمريكا بشهادات مسؤوليهم وكثير ممن كان في مخابراتهم، فإياك أن تكون متلقفًا لمثل هذا الكلام متأثرًا بمثل هؤلاء، الذين يظنون أن الدبرة ستكون علىٰ المستقيمين؛ لا! فالسلامة للمستقيم في الدنيا والآخرة، فإن قُدِر عليه بشيء من الابتلاء الدنيوي فهو ممكن في الآخرة قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر:٥١].

﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ من أن الدبرة تكون علىٰ المسلمين، ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ هلكىٰ بسبب هذا الظن السيء.

﴿١٣﴾ ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ ظاهراً باطناً ﴿فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا﴾ أعددنا وجهزنا ﴿لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾ جهنم، هذا علىٰ التهديد والتحضيض للإيمان بالله ورسوله، والتحذير الأكيد من الشرك والكفر.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾.

﴿١٤﴾ ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يتصرف فيهما كيف شاء، ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ ممن تاب وأناب، ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ ممن أعرض ولج في باطله.

وهذا العذب، والمشيئة هما في حق المسلم إذا كان فعله دون الشرك تحت المشيئة، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨]، وأما الكافر فلا يدخل تحت المشيئة، والآية لها معنىٰ آخر: وهي أنها متعلقة بالدنيا، يغفر لمن يشاء، ويمن عليهم بمزيد النعم والمنن، ويعذب من يشاء ويسلط عليهم السيف والمحن، ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ متجاوزًا، ﴿رَّحِيمًا﴾ موفقًا لعباده علىٰ الخير.

﴿١٥﴾ ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ الذين لم يخرجوا معك إلىٰ الحديبية: ﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ﴾ خرجتم ﴿إِلَىٰ مَغَانِمَ﴾ خيبر؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ جعلها لمن شهد الحديبية خاصة ولمن كان في حكمهم حيث أعطىٰ النبي ﷺ جعفر ومن جاء معه من مهاجرة الحبشة، ﴿لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا﴾ اتركونا ﴿نَتَّبِعْكُمْ﴾ اتركونا نكون معكم ونصيب من غنائمكم، ﴿يُرِيدُونَ﴾ بهذا القول ﴿أَن يُبَدِّلُوا۟﴾ يغيروا ﴿كَلَٰمَ اللَّهِ﴾ وحكمه من أن الله جعل الغنائم لأهل الحديبية خاصة.

❁ **وفيها إثبات صفة الكلام لله عَزَّوَجَلَّ كلامًا بصوت وحرف علىٰ ما تقدم بيانه.**

﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ أي: لن تخرجوا معنا جزاءً لما حصل منكم من التخلف في وقت الحاجة لخروجكم، ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ وهذا حكم الله ليس بحكمنا، ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ للمسلمين معارضة لكلامهم ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ يعني: أنتم تحسدوننا ولا تريدون منا الخروج معكم من أجل أن ننال من أموالكم؛ لا! إنما الله عَزَّوَجَلَّ جعل هذه الغنائم حقًا لأهل الحديبية فلا يشاركهم فيها من تخلف عنها.

﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ﴾ بل الواقع أنهم كانوا وما زالوا لا يفقهون ولا يفهمون أحكام الله الشرعية والقدرية؛ بسبب ما في قلوبهم من المرض ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ ولا ينتفعون به.

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾.

﴿١٦﴾ ﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ الذين لم يشهدوا معك الحديبية وطمعوا في شهود خيبر حرصًا منهم علىٰ الغنيمة، ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ﴾ قتال ﴿قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أصحاب شدة وقوة في الحرب وهم فارس والروم، وكان قتال هؤلاء بعد موت النبي ﷺ، ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ أو يدخلوا في الإسلام، ﴿فَإِن تُطِيعُوا۟﴾ أمر الله عَزَّوَجَلَّ ﴿يُؤْتِكُمُ﴾ يعطكم ﴿ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ ثوابًا عظيمًا مباركًا فيه، ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟﴾ تعرضوا، ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُم﴾ أعرضتم ﴿مِّن قَبْلُ﴾ في يوم الحديبية، ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وهذا دليل علىٰ ضعف إيمانكم وعلىٰ تعلقكم بالدنيا.

﴿١٧﴾ ثم عذر الله عَزَّوَجَلَّ من لم يستطع شهود الحديبية من أصحاب العاهات والزمانات فقال: ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ﴾ فاقد البصر ﴿حَرَجٌ﴾ في عدم الخروج معك، ﴿وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ﴾ وهو كسير الرجل أو نحو ذلك، ﴿حَرَجٌ﴾ يعني: إثم أو تبعة، ﴿وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ سواءً الأمراض المزمنة أو المرض غير المستقر الذي جاء في وقت الخروج، فهؤلاء معذورون بعذر الله عَزَّوَجَلَّ لهم، ولا يخاطبون بما يخاطب به السليم، ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بالفرائض كالجهاد وغيره، فإن جزاءه أن: ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ﴾ يعرض، ﴿يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ إما في الدنيا وإما في الآخرة وإما فيهما.

﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾.

﴿١٨﴾ ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ مخبراً عن الفوز العظيم الذي نزل بالمؤمنين المبايعين: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذا من أعظم المنن التي أعطاها الله عَزَّوَجَلَّ للمسلمين الذين

خرجوا مع رسول الله ﷺ في الحديبية، ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ﴾ حيث يضع يده في يد رسول الله ﷺ ويبايعه علىٰ الموت.

❐ وقد اختلف العلماء: هل بايعوه علىٰ ألا يفروا أو علىٰ الموت؟ وجاءت الأحاديث بهذا وهذا: أنهم بايعوه علىٰ عدم الفرار، وبايعوه علىٰ الموت.

والسبب في البيعة: أن النبي ﷺ أرسل عثمان بن عفان إلىٰ قريش فأُشيع بأن قريشًا قتلت عثمان بن عفان فبايعهم رسول الله ﷺ علىٰ الموت وعلىٰ عدم الفرار، ثم جاء الصلح بعد ذلك.

﴿تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ سمرة لكنها نُسيت وضاعت وهذا من فضل الله علىٰ الناس حتىٰ لا يبقىٰ أحدهم متمسحًا بتلك الشجرة حريصًا عليها، قال ابن عمر: ما جئنا العام القادم إلا واختلفنا فيها، وذُكر أن عمر أزاح شجرةً كان الناس يجلسون تحتها علىٰ أن النبي ﷺ جلس تحتها، ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ من الإيمان والخير والصدق.

﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ الطمأنينة والثبات، ﴿عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ﴾ جازاهم علىٰ حسن عملهم: ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وهو فتح مكة، وهذا وعد من الله بفتح مكة، وكان بعد الحديبية بسنتين، وفي فضل هؤلاء ما جاء عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال رسول الله ﷺ: **«لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة»** أخرجه مسلم، وكانوا بين ألف وأربعمائة، وألف وخمسمائة نفسًا.

﴿١٩﴾ ﴿وَ﴾ قد وعدهم الله ﴿مَغَانِمَ﴾ أموالًا: ﴿كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ وهو ما كان في خيبر وما كان في يوم حنين، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ قويًا لا يُغلب، ﴿حَكِيمًا﴾ في فعله وأمره.

﴿٢٠﴾ ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ﴾ يا معاشر المسلمين ووعده لا يُخلف، ﴿مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ في جهادكم للكفار، ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ مغانم خيبر تسليةً لقلوبكم وتوسعة عليكم، فما زال المسلمون في قلة حتىٰ فتحوا خيبر، وهي بلدة عجيبة زرناها تحيط بها الجبال من جميع الجهات وفيها وادي تسيل فيه العيون وتوجد فيه الآبار، وكانت مليئة بمزارع النخل الجيد؛ ولذلك حين تأثلها المسلمون وغنموها وسع الله عَزَّوَجَلَّ عليهم بها.

﴿وَكَفَّ﴾ صرف، ﴿أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ﴾ الكفار ﴿عَنكُمْ﴾ فلم يصيبوكم بقتل أو جرح، وذلك حين أراد خالد أن يأتيهم من الخلف، ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً﴾ علامة وبرهان علىٰ صدق النبي عليه الصلاة والسلام، ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ حيث حفظهم مع كثرة أعدائهم، ﴿وَيَهْدِيَكُمْ﴾ يوفقكم، ﴿صِرَٰطًا﴾ طريقًا، ﴿مُّسْتَقِيمًا﴾ لا اعوجاج فيه وهو الإسلام.

(٢١) ﴿وَأُخْرَىٰ﴾ أي: وعدكم الله عَزَّوَجَلَّ وعدًا آخر، قيل فارس والروم، وقيل فتح مكة ﴿لَّمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا﴾ لكن سيأتي اليوم الذي تنتصرون فيه، ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ أحاط بها علمًا وأحاط بها قوةً، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ لا يعجزه أن ينصركم وأن يعينكم ويؤيدكم.

(٢٢) ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يعني: في الحديبية، ﴿لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ هزيمةً، ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ ينصرهم ويعينهم، ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يؤيدهم.

(٢٣) ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ طريقة الله عَزَّوَجَلَّ في إهلاك الأمم السابقة وفي نصرة المستقيمين، ﴿ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ﴾ ولت ﴿مِن قَبْلُ﴾ حيث دمر علىٰ فرعون، وقوم لوط، وعاد وثمود، ونصر المستضعفين والمؤمنين، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ﴾ لطريقة الله في هلاك الظالمين، ﴿تَبْدِيلًا﴾ تحولًا، فهذه سنن كونية وإن أُصيب المسلمون بشيء من الضعف في بعض أحوالهم إلا أنهم سرعان ما ينتصرون وسرعان ما يعلون، وإلا لو كان الأمر إلىٰ الكفار لاستأصلوا الدعوة في مبدأ شأنها.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾.

📖 فِي أَسْبَابِ النُّزُولِ: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: " أَنَّ ثَمَانِينَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ هَبَطُوا عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ جَبَلِ التَّنْعِيمِ مُتَسَلِّحِينَ، يُرِيدُونَ غِرَّةَ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابَهُ، فَأَخَذَهُمْ سِلْمًا فَاسْتَحْيَاهُمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ﴾ [الفتح: ٢٤] أخرجه مسلم.

(٢٤) فامتن الله علىٰ المسلمين بالسلامة منهم، ثم من الله عليهم بأن عفا عنهم رسول ﷺ، فيقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ﴾ صرف، ﴿أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ أن يصيبوكم بسوء، ﴿وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ﴾ أن تقتلوهم، ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ وادٍ قريب من مكة، ﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ﴾ تمكن المسلمون من قبضهم، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ يُبصر بعينين حقيقتين: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ:١١].

٢٥ ﴿هُمُ﴾ أي: الذين مُسِكوا ومن إليهم، ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أعرضوا وجحدوا ﴿وَصَدُّوكُمْ﴾ منعوكم، ﴿عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أن تبلغوه بعمرة، ﴿وَالْهَدْيَ﴾ من الإبل، ﴿مَعْكُوفًا﴾ مقيدًا مجهزًا، ﴿أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ ومحله عند البيت العتيق بعد أن ينتهوا من عمرتهم حيث يتقربون إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بذبح هديهم.

﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ﴾ في مكة، ﴿وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ﴾ لم يتمكنوا من الهجرة، ﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ يا معاشر المسلمين، ﴿أَن تَطَئُوهُمْ﴾ تهلكوهم مع الكفار .

﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ﴾ مكروه ومشقة ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾إذا دخلتم إلىٰ مكة ربما تقتلونهم وتأسرونهم فيلحقكم أذىٰ حين تعلمون أنكم قد قتلتم أصحابكم ويلحقكم الإثم من قتل المسلمين بغير علم، والإثم هنا قد يكون مرفوعًا لكن سيلحقهم أذىٰ نفسي كيف قتلنا أصحابنا، وقتلنا من كان منا؟.

﴿لِّيُدْخِلَ اللَّهُ﴾ إلىٰ الإسلام، وفعلًا بعد الحديبية أسلم خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، فلم يأتِ فتح مكة إلا وقد أسلمت جموع كثيرة، وفي يوم الفتح أسلم العباس، وأسلم أبو سفيان، وصفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل وأناس كثر؛ ﴿فِي رَحْمَتِهِ﴾ الإسلام، ﴿مَن يَشَاءُ﴾ ممن علمه أهلًا للهداية.

لكن ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ تميز المسلمون عن الكافرين، ﴿لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بالقتل والسبي، فالواقع أنهم كانوا مختلطين، فربما إذا هُجِمَ علىٰ مكة في ذلك الوقت قُتِل المسلم وغير المسلم، وقد قال النبي ﷺ: **«لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، إِلَّا بِإِحْدَىٰ ثَلَاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ»** متفق عليه عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٢٦ واذكر ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ﴾ يعني: السبب في منعكم من مكة: أن الذين كفروا كانت في قلوبهم: ﴿الْحَمِيَّةَ﴾ الأنفة والغضب الشديد، ﴿حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ عصبية مقيتة، ما يريدون أن يُعيروا كيف يدخل محمد إلىٰ مكة وأصحابه وهم قد نابذوكم في الدين وهجروكم وخرجوا من عندكم أذلة، فأخذتهم العصبية وخوف مذمة الناس.

﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ الطمأنينة والثبات، ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فلم يتخوفوا منهم، ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾ قول لا إله إلا الله، جعلها شعارهم ودثارها يعتقدونها

ويلتزمونها، ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا﴾ بكملة التقوىٰ من كفار مكة في علم الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَأَهْلَهَا﴾ لأنهم هم العاملون بها والقائلون بها والداعون إليها، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ مطلعًا.

۞ وهذه آية عامة في كثير من الشؤون، تجد أن أهل الاستقامة أحق بالتمسك بكثير من الأحكام، أحق أن تكون لهم المساجد حتىٰ تقام فيها شعائر الله علىٰ وفق ما أمر الله.

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾.

﴿٢٧﴾ ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ حيث رأىٰ: أنه يدخل المسجد الحرام، ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ عمرةً، ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ هذا الاستثناء مع علمه أنهم داخلون إلا أنه ذُكر للتبرك ونحو ذلك.

۞ وبهذه الآية استدل أهل السنة والجماعة علىٰ مسألة الاستثناء في الإيمان.

فإذا قيل لك: أمؤمن أنت؟ تقول: **إن شاء الله أو أرجو**، فلا تجزم وتقول مؤمن، وإذا أردت أن تقول: مؤمن، فقل: **مؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخرة**، فإن مذهب أهل السنة استحباب الاستثناء في الإيمان، وهذا ليس علىٰ الشك كما يقول المرجئة، بل من باب التبرك بذكر الله، ومن باب ما غاب عنا من الخاتمة، ونحو ذلك.

﴿آمِنِينَ﴾ في حال أمن، ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ﴾ بعد العمرة، ﴿وَمُقَصِّرِينَ﴾ أي: بعضكم محلق وبعضكم مقصر، وأفضلهم المحلق؛ لقول النبي ﷺ: **«رَحِمَ اللهُ الْمُحَلِّقِينَ»** قَالُوا: وَالْمُقَصِّرِينَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: **«رَحِمَ اللهُ الْمُحَلِّقِينَ»**، فَقَالَ فِي الرَّابِعَةِ: **«وَالْمُقَصِّرِينَ»** **متفق عليه، عن ابن عمر، وعن أبي هريرة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿لَا تَخَافُونَ﴾ من أحد حين عمرتكم، لكن هل كان هذا في عام الحديبية؟ لم يكن في عام الحديبة؛ بل كان دخولهم في العام المقبل في عمرة القضية، ﴿فَعَلِمَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ لكم من

المصالح، ﴿مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ فأخر دخولكم ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ دخول مكة ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ نصرًا قريبًا وهو صلح الحديبية.

﴿٢٨﴾ ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾ محمد ﷺ: ﴿بِالْهُدَىٰ﴾ العلم، ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ العمل الصالح، ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ يعليه، ﴿عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ علىٰ جميع الملل السابقة المحرفة المبدلة.

وفي حديث الْمُغِيرَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: **«لَنْ يَزَالَ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَىٰ النَّاسِ، حَتَّىٰ يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ»** متفق عليه،

وهم الطائفة المنصورة والفرقة الناجية أهل الحديث والأثر والخير والظفر، قال الترمذي رحمه الله: قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ: قَالَ عَلِيُّ بْنُ الْمَدِينِيِّ: هُمْ أَصْحَابُ الحَدِيثِ.

﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ مطلعًا علىٰ صدق هذا الدين، وعلىٰ صدق رسول الله ﷺ.

﴿٢٩﴾ ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ﴾ وهذه من الأربعة المواطن الذي ذكر فيها محمد ﷺ باسمه، ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ من المهاجرين والأنصار، ﴿أَشِدَّاءُ﴾ غلاظ: ﴿عَلَى الْكُفَّارِ﴾ الذين أعرضوا عن دين الله، ﴿رُحَمَاءُ﴾ فيما ﴿بَيْنَهُمْ﴾ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة:٥٤].

وعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَىٰ مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّىٰ»** متفق عليه

ومن صفاتهم: ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ يكثرون الصلاة، ﴿يَبْتَغُونَ﴾ بذلك: ﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ خيرًا وبركة وأن يرضىٰ عنهم، وبهذا تعلم: أن الصلاة من أعظم أسباب رضا الله عن العبد.

﴿سِيمَاهُمْ﴾ علاماتهم: ﴿فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ الخشوع والتواضع والسمت الحسن، وقيل البهاء والنور يكون في وجوههم يوم القيامة بسبب صلاتهم، ﴿ذَٰلِكَ﴾ المثل ﴿مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ﴾ التي أنزلت علىٰ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

المعنىٰ: أن الله عَزَّوَجَلَّ ضرب للمسلمين مثلًا في التوراة وضرب لهم مثلًا في الإنجيل، فمثلهم في التوراة: أن أمة محمد يُكثرون الصلاة والركوع والسجود، وعلاماتهم ظاهرة في وجوههم في الدنيا والآخرة.

﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ﴾ الذي أنزله الله علىٰ عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، والفرق بين المثلين: أن التوراة كتاب أحكام، والإنجيل كتاب مواعظ وأمثال؛ فلذلك ذكر الله عَزَّوَجَلَّ عن المؤمنين في التوراة: أن حالهم سيكون حال المصلين الراكعين الساجدين المقبلين علىٰ طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، ومثلهم في الإنجيل .

﴿كَزَرْعٍ﴾ أخضر، ﴿أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ خرجت فراخه المتفرعة في جوانبه، يعني: خرج من الأرض وبدأ ينمو ويثمر، ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ كبر وقوي، ﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾ استجمع قواه، ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ استقام ﴿عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ أصوله وجذوعه، ﴿يُعْجِبُ﴾ يُفرح ﴿ٱلزُّرَّاعَ﴾ المزارعين الذين يزرعونه، فهكذا أصحاب النبي ﷺ نموا وكثروا حتىٰ فرح بهم رسول الله ﷺ، وفرح بهم المؤمنون واغتاظ بوجودهم الكفار؛ ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ حين يرون اجتماعهم وقوتهم.

۞ وبهذه الآية استدل الإمام مالك علىٰ أن الرافضة ومن إليهم لا يعطون من الخمس والفيء.

۞ واستدل العلماء بهذه الآية علىٰ تكفير الرافضة الذين يبغضون أصحاب النبي ﷺ، فالله عَزَّوَجَلَّ، وصف أصحاب النبي ﷺ بالزرع الذي يُعجب صاحبه، فكذلك هم أُعجب وفرح بهم رسول الله ﷺ وفرح بهم المؤمنون، واغتاظ منهم الكفار والمنافقون في كل زمن وحين.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ووعده لا يُخلف، ﴿مِنْهُم﴾ أي: من الصحابة، ومن هنا ليست للتبعيض كما قال الرافضة ومن إليهم، فزعموا أن الموعودون بالمغفرة والأجر العظيم سبعة عشر صحابيًا وبقية الصحابة خرجوا من هذا الوعد.

وَالصَّحِيحُ: أن (من) لبيان الجنس.

حيث: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم﴾ أي: كلهم، ﴿مَّغْفِرَةً﴾ تجاوزًا عن ذنوبهم وسيئاتهم، ﴿وَأَجْرًا﴾ ثوابًا: ﴿عَظِيمًا﴾ يوم القيامة يجدونه عند الله.

وقد أثنىٰ الله عن الصحابة في غير ما آية: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١٠٠].

فالصحابة شأنهم عالي ومنزلتهم رفيعة، ولا يجوز أن يُتعرض لهم بسب أو ثلب أو قدح أو إساءة ظن، بل أُمرنا أن نستغفر وندعو لهم وأن نترضىٰ عليهم، وأن نحبهم فحبهم إيمان

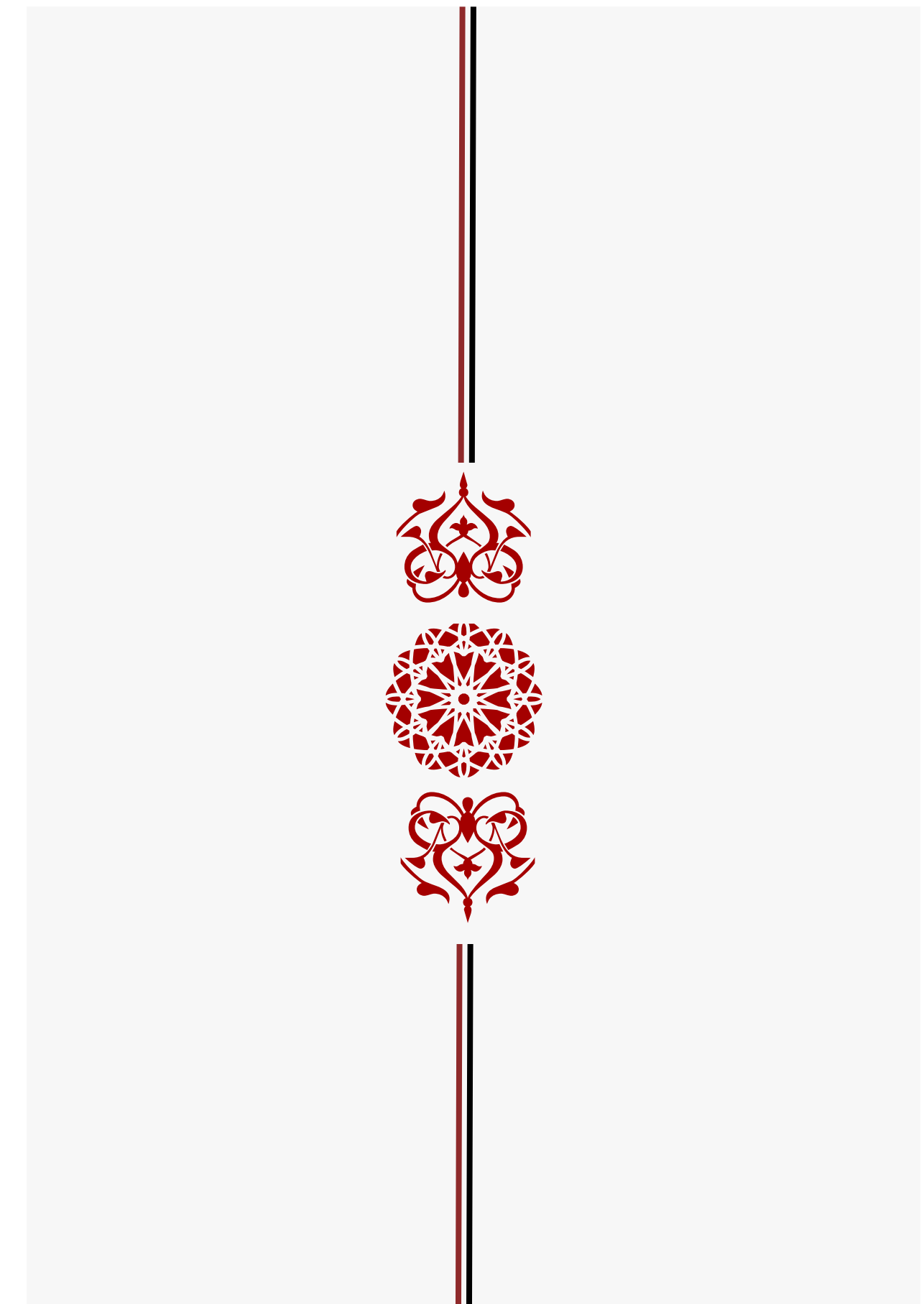
وبغضهم كفر ونفاق وفسوق وطغيان، قال النبي ﷺ في شأن الأنصار: **«الْأَنْصَارُ لَا يُحِبُّهُمْ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يُبْغِضُهُمْ إِلَّا مُنَافِقٌ»** متفق عليه.

عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ويدخل في هذا الحديث المهاجرون والأنصار، فكلهم مناصر لدين الله عَزَّوَجَلَّ.

وأفضل الصحابة رضي الله عنهم الأربعة: أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم أجمعين فعن عَبْدِ اللهِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كُنَّا نَقُولُ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ حَيٌّ: **«أَفْضَلُ أُمَّةِ النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَهُ أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عُثْمَانُ، رضي الله عنهم أَجْمَعِينَ»**.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

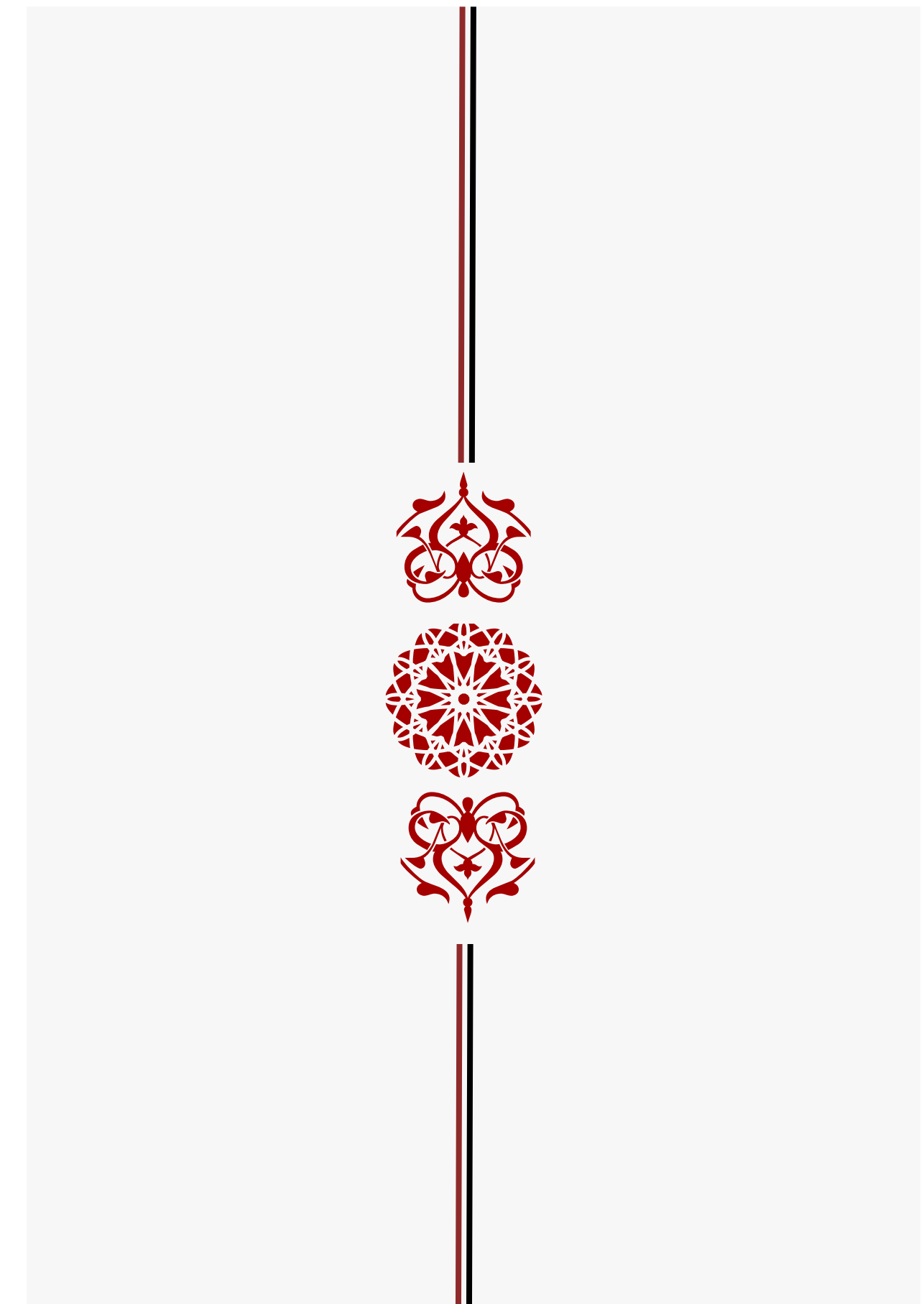
تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْفَتْحِ





تَفْسِيرُ سُورَةِ الْحُجُرَاتِ





سُورَةُ الْحُجُرَاتِ

مَدَنِيَّةٌ، وآيَاتُهَا ثَمَانِيَّةَ عَشَرَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

﴿١﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا﴾ لا تتقدموا ﴿بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ بمخالفة أمره، وارتكاب نهيه وزجره، والمعارضة لقوله، والرد لشأنه.

وإذا كانت هذه الآية قد نزلت علىٰ الصحابة رضوان الله عليهم وفي شأنهم مع رسول الله ﷺ مع أنهم أصحاب المبادرة والمسارعة فهي في شأننا مع كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ، فلا يجوز أن نقدم علىٰ أمر الله وأمر رسوله ﷺ، قال أبو عبيدة: تقول العرب لا تقدم بين يدي الإمام وبين يدي الأب، أي لا تعجل بالأمر والنهي دونه.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بفعل المأمور وترك المحظور ومنه: طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم، ﴿عَلِيمٌ﴾ بأفعالكم، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

﴿٢﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ إذا تكلمتم بين يديه، وعَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ، قَالَ: "كَادَ الخَيِّرَانِ أَنْ يَهْلِكَا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، رَفَعَا أَصْوَاتَهُمَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ قَدِمَ عَلَيْهِ رَكْبُ بَنِي تَمِيمٍ، فَأَشَارَ أَحَدُهُمَا بِالأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ أَخِي بَنِي مُجَاشِعٍ، وَأَشَارَ الآخَرُ بِرَجُلٍ آخَرَ - قَالَ نَافِعٌ لاَ أَحْفَظُ اسْمَهُ - فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ لِعُمَرَ: مَا أَرَدْتَ إِلَّا خِلاَفِي، قَالَ: مَا أَرَدْتُ خِلاَفَكَ فَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا فِي ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢] " الآيَةَ قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ: **«فَمَا كَانَ عُمَرُ يُسْمِعُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعْدَ هَذِهِ الآيَةِ حَتَّىٰ يَسْتَفْهِمَهُ، وَلَمْ يَذْكُرْ ذَلِكَ عَنْ أَبِيهِ يَعْنِي أَبَا بَكْرٍ»** أخرجه البخاري.

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّهُ قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢]، إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ، جَلَسَ ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ فِي بَيْتِهِ، وَقَالَ: أَنَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَاحْتَبَسَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فَسَأَلَ النَّبِيُّ ﷺ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ، فَقَالَ: **«يَا أَبَا عَمْرٍو، مَا شَأْنُ ثَابِتٍ؟ اشْتَكَىٰ؟»** قَالَ سَعْدٌ: إِنَّهُ لَجَارِي، وَمَا عَلِمْتُ لَهُ بِشَكْوَىٰ، قَالَ: فَأَتَاهُ سَعْدٌ، فَذَكَرَ لَهُ قَوْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ ثَابِتٌ: أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي مِنْ أَرْفَعِكُمْ صَوْتًا عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَنَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَذَكَرَ ذَلِكَ سَعْدٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«بَلْ هُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»** أخرجه مسلم.

وقد أخذ عمر بهذه الآية علىٰ النهي عن رفع الصوت عند قبر النبي ﷺ وفي مسجده بعد موته، وهم بضرب من رفع صوته عند قبر النبي ﷺ، فينبغي أن يُحترم وأن يُعزر ويوقر ﷺ حيًا وميتًا.

﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ﴾ تعلنوا، ﴿لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ بمعارضته ورد قوله، ﴿كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ﴾ يعني: يختلف الشأن ينبغي أن يكون للنبي ﷺ المقام السامي والمقام العالي في كل شيء، ﴿أَن تَحۡبَطَ﴾ تبطل وتذهب ﴿أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ حسناتكم، ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ بمغبة ذلك الذنب.

وذلك أن النبي ﷺ إذا غضب غضب الله لغضبه، وقد قال النبي ﷺ: **«إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ، وَمَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، فَيَكْتُبُ اللهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَاهُ، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ، وَمَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، فَيُكْتَبُ بِهَا عَلَيْهِ سَخَطُهُ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَاهُ»** أخرجه الترمذي عن بلال بن الحارث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٣ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ﴾ يخفضون، ﴿أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ إذا تكلموا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ﴾ اختبر، ﴿ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾ يعني: يدل علىٰ مراقبتهم لله عَزَّوَجَلَّ، ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ تجاوز عن ذنوبهم وسيئاتهم، ﴿وَأَجۡرٌ﴾ ثواب، ﴿عَظِيمٌ﴾ مضاعف.

٤ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ﴾ يدعونك يا رسول الله ﴿مِن وَرَآءِ﴾ خلف وخارج ﴿ٱلۡحُجُرَٰتِ﴾ حجرات زوجات النبي ﷺ، ﴿أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ أمر الله بتعزير النبي ﷺ، وذلك: أن بعض الأعراب نزلوا عند النبي ﷺ فوجدوه نائمًا، فجعلوا ينادون عند الحجرات: جمع حجرة وهي بيوت النبي ﷺ، فلما خرج عليهم النبي ﷺ كان ما كان من شأنهم إذ كانوا يطالبون بسبي لهم، ففادىٰ بعضهم وأعتق بعضهم، وكانوا من الأعراب.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾ بعد قيلولتك ونومك، ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ في دنياهم وأخراهم، ولربما أعتق النبي ﷺ جميعهم ولم يأخذ منهم فداء، لكن لما عصوا الله ورسوله أعتق النبي ﷺ بعضهم وأخذ الفداء في غيرهم، ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ متجاوز، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بكم وإلا لأهلككم بسبب هذا الفعل.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ۝٦ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٨﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾.

سَبَبُ النُّزُولِ:

ذَكَرَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْوَلِيدِ بْنِ عقبة بن أبي معيط، حِينَ بَعَثَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَىٰ صَدَقَاتِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ، وَقَدْ رُوِيَ ذَلِكَ مِنْ طُرُقٍ وَمِنْ أَحْسَنِهَا مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ مِنْ رِوَايَةِ مَلِكِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ، وَهُوَ الْحَارِثُ بْنُ ضِرَارٍ وَالِدُ جُوَيْرِيَّةَ بِنْتِ الْحَارِثِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَابِقٍ، حَدَّثَنَا عِيسَىٰ بْنُ دِينَارٍ، حَدَّثَنِي أَبِي أنه سمع الحارث بن ضرار الخزاعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: قدمت علىٰ رسول الله فَدَعَانِي إِلَىٰ الْإِسْلَامِ فَدَخَلْتُ فِيهِ وَأَقْرَرْتُ بِهِ. وَدَعَانِي إِلَىٰ الزَّكَاةِ فَأَقْرَرْتُ بِهَا وَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أَرْجِعُ إِلَيْهِمْ فَأَدْعُوهُمْ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ وَأَدَاءِ الزَّكَاةِ فَمَنِ اسْتَجَابَ لِي جَمَعْتُ زَكَاتَهُ. ويرسل إلي يا رَسُولُ اللهِ رَسُولًا لِإِبَّانِ كَذَا وَكَذَا لِيَأْتِيَكَ بِمَا جَمَعْتُ مِنَ الزَّكَاةِ.

فَلَمَّا جَمَعَ الْحَارِثُ الزَّكَاةَ مِمَّنِ اسْتَجَابَ لَهُ وَبَلَغَ الْإِبَّانَ الَّذِي أَرَادَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْهِ احْتُبِسَ عَلَيْهِ الرَّسُولُ فَلَمْ يأته وظن الْحَارِثُ أَنَّهُ قَدْ حَدَثَ فِيهِ سُخْطَةٌ مِنَ الله تعالىٰ وَرَسُولِهِ، فَدَعَا بِسَرَوَاتِ قَوْمِهِ فَقَالَ لَهُمْ إِنَّ رسول الله ﷺ كان وَقَّتَ لِي وَقْتًا يُرْسِلُ إِلَيَّ رَسُولَهُ لِيَقْبِضَ مَا كَانَ عِنْدِي مِنَ الزَّكَاةِ وَلَيْسَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ الْخُلْفُ، وَلَا أَرَىٰ حَبْسَ رَسُولِهِ إِلَّا مِنْ سُخْطَةٍ كانت، فانطلقوا بنا نأتي رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْوَلِيدَ بْنَ عُقْبَةَ إِلَىٰ الْحَارِثِ لِيَقْبِضَ مَا كَانَ عِنْدَهُ مِمَّا جَمَعَ مِنَ الزَّكَاةِ، فَلَمَّا أَنْ سَارَ الْوَلِيدُ حَتَّىٰ بَلَغَ

بَعْضَ الطَّرِيقِ فَرِقَ أي خاف، فرجع حَتَّىٰ آتِيَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ الْحَارِثَ قد منعني الزكاة وأراد قتلي، فَغَضِبَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَضَرَبَ البعث إلىٰ الحارث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأتىٰ الْحَارِثُ بِأَصْحَابِهِ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَقْبَلَ الْبَعْثُ وَفَصَلَ عَنِ الْمَدِينَةِ لَقِيَهُمُ الْحَارِثُ فَقَالُوا: هَذَا الْحَارِثُ، فَلَمَّا غَشِيَهُمْ قَالَ لَهُمْ: إِلَىٰ مَنْ بُعِثْتُمْ؟ قَالُوا: إِلَيْكَ. قَالَ: وَلِمَ؟ قَالُوا: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَ إِلَيْكَ الْوَلِيدَ بْنَ عُقْبَةَ فَزَعَمَ أَنَّكَ منعته الزكاة وأردت قتله. قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَا وَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا بِالْحَقِّ مَا رَأَيْتُهُ بَتَّةً وَلَا أَتَانِي.

فَلَمَّا دَخَلَ الْحَارِثُ عَلَىٰ رسول الله قَالَ: **«مَنَعْتَ الزَّكَاةَ وَأَرَدْتَ قَتْلَ رَسُولِي؟»** قَالَ: لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا رَأَيْتُهُ وَلَا أَتَانِي وَمَا أَقْبَلْتُ إِلَّا حِينَ احْتُبِسَ عَلَيَّ رَسُولِ اللهِ ﷺ، خَشِيتُ أن يكون كانت سخطة من الله تعالىٰ وَرَسُولِهِ. قَالَ فَنَزَلَتِ الْحُجُرَاتُ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ- إِلَىٰ قَوْلِهِ- حَكِيمٌ. **أفاده ابن كثير.**

❁ ومفهوم الآية: قبول خبر الصادق؛ لأن الخبر يأتي من ثلاثة: كاذب يرد خبره، وصادق يُقبل خبره، وفاسق يتثبت في خبره.

❁ وفيه أن باب الجرح والتعديل بابه قبول خبر الثقة، فإن جرَّح العالم شخصًا بجرح مفسر قُبِل جرحه في قول جماهير العلماء، وأما إذا كان الجرح غير مفسر فالتعديل مقدم، ولا يقبل الجرح الغير مفسر إلا في حالة عدم وجود التعديل، فإن الحكم بجرحه أولىٰ من الحكم بجهالته.

❁ وبهذه الآية استدل جمهور العلماء علىٰ رد خبر المجهول سواءً كان مجهول العين أو الحال، إلا أن الفرق بينهما أن مجهول الحال يصلح في الشواهد والمتابعات بخلاف مجهول العين، ويستدل بها علىٰ قبول خبر الثقة.

﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ﴾ يعني: من ظهر فسقه بارتكاب الكبيرة وبالإصرار علىٰ الصغيرة، ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ تثبتوا، وفي قراءة: فتثبتُوا، ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ يلحق بعض القوم منكم ضرر، ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ بسبب جهلكم ﴿فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ ربما يقع قتل، أو هجر، وربما يقع ظلم فلا أحسن من هذه الأحكام فكم من أُناس تقع بينهم العداوات والمصارمات وسببها الكذب وعدم التثبت والتروي.

٧ ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ يا معاشر المسلمين: ﴿أَنَّ فِيكُمۡ﴾ بينكم: ﴿رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾ ﷺ، ومن شأنه أنه: ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾ لحقكم التعب والنصب؛ ولذلك ترك النبي ﷺ الوصال

حتىٰ لا يُفرض علىٰ الأمة، وترك الأمر بالتشديد في السواك حتىٰ لا يُفرض علىٰ الأمة، وكثير من الأمور كان يتركها رحمة بالأمة، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ﴾ زين ﴿إِلَيۡكُمُ﴾ يا معاشر المسلمين: ﴿ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ والانقياد، ﴿وَزَيَّنَهُۥ﴾ حسنه وزوقه ﴿فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ فأصبح المؤمن يفرح بأوامر الله وأوامر رسوله ﷺ، ﴿وَكَرَّهَ﴾ بغَّض ﴿إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ﴾ الشرك، ﴿وَٱلۡفُسُوقَ﴾ الكبائر، ﴿وَٱلۡعِصۡيَانَۚ﴾ الصغائر، وقيل غير ذلك، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين أحبوا الإيمان وكرهوا الفسوق والعصيان، ﴿هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ في أقوالهم وأفعالهم.

٨ وتحبيب الإيمان إليكم يُعتبر ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ عليكم ﴿وَنِعۡمَةٗۚ﴾ عظيمة، يصير بها العبد مسلما، وإلا لو أبغض الإنسان الإسلام لكفر وخرج منه، لكن نِعَم الله علىٰ عباده كثيرة ومنها: تحبيب الإيمان وتحبيب السنة إلىٰ النفوس، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ﴾ بما يصلح العباد، ﴿حَكِيمٞ﴾ في أفعاله، وأقواله.

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٩ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٠﴾.

٩ ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ﴾ فرقتان، ﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ﴾ اختصموا.

وفي سبب نزولها عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قِيلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: لَوْ أَتَيْتَ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ، قَالَ: **«فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ وَرَكِبَ حِمَارًا وَانْطَلَقَ الْمُسْلِمُونَ وَهِيَ أَرْضٌ سَبَخَةٌ»**، فَلَمَّا أَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ: **«إِلَيْكَ عَنِّي، فَوَاللهِ، لَقَدْ آذَانِي نَتْنُ حِمَارِكَ»**، قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: وَاللهِ، لَحِمَارُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَطْيَبُ رِيحًا مِنْكَ، قَالَ: فَغَضِبَ لِعَبْدِ اللهِ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ، قَالَ: فَغَضِبَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَصْحَابُهُ، قَالَ: فَكَانَ بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ بِالْجَرِيدِ، وَبِالْأَيْدِي، وَبِالنِّعَالِ، قَالَ: فَبَلَغَنَا أَنَّهَا نَزَلَتْ فِيهِمْ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ﴾ **[الحجرات: ٩] متفق عليه** .

والطائفة تُطلق علىٰ الواحد، فإذا وقع خلاف بين اثنين يُستحب الصلح بينهم بل قد يجب.

﴿ٱقۡتَتَلُواْ﴾ أو اختلفوا، ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ﴾ بالعدل والقسط؛ لأن العدل هو قوام ثبات الأمور، ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ﴾ تجاوزت: ﴿إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ سواءً بقتل أو سب، ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ﴾ ترجع، ﴿إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ تنزجر عن فعلها، ولا يلزم من المقاتلة القتل، فقد تقاتله ولا

تقتله، فعن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاةٍ فَأَرَادَ إِنْسَانٌ يَمُرُّ بَيْنَ يَدَيْهِ فَيَدْرَؤُهُ مَا اسْتَطَاعَ، فَإِنْ أَبَىٰ فَلْيُقَاتِلْهُ»، أي: يدفعه: «فَإِنَّهُ شَيْطَانٌ» متفق عليه.

﴿فَإِن فَآءَتْ﴾ رجعت عن باطلها وغيها: ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا۠﴾ بين المُبغىٰ عليها والمبغىٰ منها: ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾ بالقسط والحق، ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟﴾ أي: اعدلوا، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ العادلين في أحكامهم وأفعالهم.

❁ وفيه إثبات صفة المحبة، وهي من الصفات الفعلية.

⑩ والشأن في الإصلاح بين الطائفتين المختلفتين: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟﴾ ومن لوازم الأخوة: عدم التهاجر والتقاطع والتدابر وحفظ الدماء والأموال والأعراض، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ التَّقْوَىٰ هَاهُنَا» وَيُشِيرُ إِلَىٰ صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ «بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ» اخرجه مسلم، ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في حال صلحكم وفي حال خصامكم، ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وتُكرمون بالثبات علىٰ هذا الدين والتجاوز عن السيئات.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾.

⑪ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ﴾ يستهزئ ﴿قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ وهذا أدب آخر وهو من أعظم الآداب؛ لأن السخرية تؤدي إلىٰ تنافر القلوب والأبدان وإلىٰ الشحناء والبغضاء والكرامة عند الله بالتقوىٰ، ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟﴾ أي: الذين سُخِرَ بهم: ﴿خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ في الدين والإستقامة والفضل عند الله، ﴿وَلَا نِسَآءٌ﴾ يسخرن ﴿مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ يعني: قد تسخر من أخيك المسلم وهو خير عند الله منك، وقد تسخر المرأة من المسلمة وهي خير عند الله منها، ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ بالألقاب السيئة، كما قال تعالىٰ: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ

بِئَسِ﴾ [القلم:١١]، فاللمز يكون بالقول وربما بالفعل، ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ تسميه بغير اسمه وتناديه بما يكره، ﴿بِئْسَ﴾ الصفة و ﴿الِاسْمُ﴾ اسم ﴿الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ أي: أن الذي يسخر من المسلمين والذي ينبزهم بالألقاب السيئة صار فاسقًا بعد أن كان مؤمنًا كامل الإيمان أو موصوفًا بالإيمان صار موصوفًا بالفسق والطغيان.

❁ **فعلىٰ المسلمين أن ينتبهوا لهذه المسألة**: مسألة التنابز بالألقاب، فإذا كان الإنسان يكره اللقب الذي تناديه به فلا يجوز لك أن تناديه به، كأن تقول له: يا أعرج وهو ما يحب ذلك، أو يا أعمش وهو ما يحب ذلك.

﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ﴾ من معصيته وسخريته، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ الفاسقون، فالظلم في هذه الآية ظلم دون ظلم، خلافًا للخوارج الذين يكفرون المسلمين بمطلق المعاصي.

﴿١٢﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ أي: اجتنبوا الظن وكونوا علىٰ حذر منه، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله، فإن كثيرًا من الأواصر والأخوات والبيوت تُدمر بسبب سوء الظنون، فالمرأة تظن بزوجها ظنًا علىٰ غير الواقع فتفسد حياتها معه، والرجل يظن بزوجته أو بأبناءه علىٰ غير الواقع، فيقع الفساد العريض، وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: من أظهر لنا خيرًا أمناه وقربناه وسريرته إلىٰ الله، ومن أظهر لنا شرًا لم نؤمنه ولم نقربه وإن قال بأن سريرته حسنة، **أخرجه البخاري**.

وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال النبي ﷺ: **«إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ»**.

❁ وأسوأ الظن: ظن المشركين بربهم إذ سووا به الأصنام والآلهة المعبودة من دونه، وهكذا ظنوا أن لن ينصر المسلمين، وظن اليهود السيء في ربهم حيث ظنوا أن يديل الكافرين علىٰ المسلمين.

﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ التجسس: هو طلب الأخبار بتخفي، والتحسس: طلب الأخبار الطيبة، والتجسس كبيرة من كبائر الذنوب.

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: صَعِدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمِنْبَرَ فَنَادَىٰ بِصَوْتٍ رَفِيعٍ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ مَنْ أَسْلَمَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يُفْضِ الإِيمَانُ إِلَىٰ قَلْبِهِ، لاَ تُؤْذُوا الْمُسْلِمِينَ وَلاَ تُعَيِّرُوهُمْ وَلاَ تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِهِ قَالَ: وَنَظَرَ ابْنُ عُمَرَ يَوْمًا إِلَىٰ البَيْتِ أَوْ إِلَىٰ الكَعْبَةِ فَقَالَ: مَا

أَعْظَمَكِ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكِ، وَالمُؤْمِنُ أَعْظَمُ حُرْمَةً عِنْدَ اللهِ مِنْكِ. **أخرجه أبو داود**، وعن معاوية، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: **«إِنَّكَ إن اتَّبعتَ عَوراتِ الناسِ أَفْسَدْتَهُم، أو كِدْتَ أن تُفْسِدَهُم»**، فقال أبو الدرداء: كلمةٌ سمعها معاويةُ، مِن رسولِ الله ﷺ نفعه اللهُ تعالىٰ بها» **أخرجه أبو داود.**

وقد توسعت في بيان شأن هذه المسألة في كتابي "حكم التجسس علىٰ المسلمين".

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي: لا يقع منكم الغيبة لبعضكم، فعن أبي هريرة قالوا: مَا الْغِيبَةُ؟ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: **«ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ»**، قَالَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ أَيْ رَسُولَ اللهِ، قَالَ: **«إِنْ كَانَ فِي أَخِيكَ مَا تَقُولُ، فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ، فَقَدْ بَهَتَّهُ»** متفق عليه، وعن عائشة، قالت: قلت: للنبي ﷺ: حسبُكَ، من صفِيّة كذا وكذا -قال أحد الرواة: تعني قصيرةً- فقال: **«لقد قلتِ كلمةً لو مُزِجَت بماء البحرِ لمزجتْه»** قالت: وحكيتُ له إنسانًا، فقال: **«ما أُحِبُّ أنىٰ حكيتُ إنسانًا وإن لي كذا وكذا»** **أخرجه أبو داود.**

فالغيبة مرض خطير وهي من أسباب عذاب القبر نعوذ بالله من شرها، وأسوأ منها النميمة: وهي نقل الكلام من قوم إلىٰ قوم للفساد بينهم.

فعَنْ هَمَّامِ بْنِ الْحَارِثِ، قَالَ: كَانَ رَجُلٌ يَنْقُلُ الْحَدِيثَ إِلَىٰ الْأَمِيرِ، فَكُنَّا جُلُوسًا فِي الْمَسْجِدِ فَقَالَ: الْقَوْمُ هَذَا مِمَّنْ يَنْقُلُ الْحَدِيثَ إِلَىٰ الْأَمِيرِ، قَالَ: فَجَاءَ حَتَّىٰ جَلَسَ إِلَيْنَا فَقَالَ حُذَيْفَةُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: **«لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَّاتٌ»** متفق عليه.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: إِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ قَالَ: **«أَلَا أُنَبِّئُكُمْ مَا الْعَضْهُ؟ هِيَ النَّمِيمَةُ الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ»** **أخرجه مسلم.**

﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ الجواب: لا أحد يحب ذلك، وانظر إلىٰ هذا المثل العجيب، أن المغتاب كأنه يأكل لحم أخيه الميت، فإذا كنت تكره أكل الميتة طبعًا فكذلك كن كارهًا للكلام في أخيك شرعًا، ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ أي: كرهتم صاحب هذا الفعل، كذلك المغتاب حكمه أن يُكره وأن يُزجر، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ﴾ لمن رجع إليه وأناب، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بعباده حيث لم يُعاجلهم بالعقوبة.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم﴾ أوجدناكم، ﴿مِّن ذَكَرٍ﴾ آدم، ﴿وَأُنثَىٰ﴾ حواء، وهذا أصل الخلقة ثم تناسل الناس علىٰ ذلك إلا ما كان من عيسىٰ بن مريم فإن الله عَزَّوَجَلَّ خلقه من أم بدون أب وهي آية من آياته العظام، ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ﴾ صيرناكم ﴿شُعُوبًا﴾ العجم، ﴿وَقَبَائِلَ﴾

العرب، ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ ليقع بينكم التعارف، ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ﴾ أعلاكم منزلة: ﴿عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ له. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بظواهركم، ﴿خَبِيرٞ﴾ ببواطنكم.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟ قَالَ: **«أَتْقَاهُمْ لِلَّهِ»** قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ، قَالَ: **«فَأَكْرَمُ النَّاسِ يُوسُفُ نَبِيُّ اللهِ، ابْنُ نَبِيِّ اللهِ، ابْنِ نَبِيِّ اللهِ، ابْنِ خَلِيلِ اللهِ»** قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ، قَالَ: **«فَعَنْ مَعَادِنِ العَرَبِ تَسْأَلُونِي؟ النَّاسُ مَعَادِنُ، خِيَارُهُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلاَمِ، إِذَا فَقُهُوا»** متفق عليه، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَىٰ صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»**

أخرجه مسلم.

﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ١٥ قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٦ يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٧ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨﴾.

﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ﴾ أي: انقدنا ودخلنا في الإيمان وكأنهم يمنون بذلك علىٰ رسول الله ﷺ، فقال الله مؤدبًا لهم: ﴿قُل﴾ لهم يا محمد: ﴿لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾ أي: لم يكن الإيمان سجيتكم بعد وإنما دخلتم في الإسلام لطمع دنيوي أو لخوف سيف مع وجود أصل الإيمان عندهم إلا أنهم لم يزدد إيمانهم حتىٰ يُثنىٰ عليهم به، ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ أي: استسلمنا، ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ حقًا ﴿فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ لأنهم حديثُ عهد بإيمان، وكان إسلامهم بسبب ما نالهم من التألف.

وبهذه الآية استدل العلماء علىٰ التفريق بين مسمىٰ الإسلام والإيمان، وبعض أهل العلم يرىٰ أن الإيمان والإسلام شيء واحد، وبعضهم يرىٰ أن الإيمان اسم يطلق علىٰ الأعمال الباطنة والإسلام يطلق علىٰ الأعمال الظاهرة.

ففي حديث جبريل، قال رسول الله ﷺ: **«الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»**، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ، وَيُصَدِّقُهُ، فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: **«أَنْ**

تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ» اخرجه مسلم عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وعن سَعْد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَعْطَىٰ رَهْطًا وَسَعْدٌ جَالِسٌ فِيهِمْ، قَالَ سَعْدٌ: فَتَرَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُعْطِهِ، وَهُوَ أَعْجَبُهُمْ إِلَيَّ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا لَكَ عَنْ فُلَانٍ؟ فَوَاللهِ إِنِّي لَأَرَاهُ مُؤْمِنًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«أَوْ مُسْلِمًا»**، قَالَ: فَسَكَتُّ قَلِيلًا ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَعْلَمُ مِنْهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا لَكَ عَنْ فُلَانٍ؟ فَوَاللهِ إِنِّي لَأَرَاهُ مُؤْمِنًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«أَوْ مُسْلِمًا»**، قَالَ: فَسَكَتُّ قَلِيلًا ثُمَّ غَلَبَنِي مَا عَلِمْتُ مِنْهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا لَكَ عَنْ فُلَانٍ؟ فَوَاللهِ إِنِّي لَأَرَاهُ مُؤْمِنًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«أَوْ مُسْلِمًا، إِنِّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ، خَشْيَةَ أَنْ يُكَبَّ فِي النَّارِ عَلَىٰ وَجْهِهِ»** متفق عليه.

❁ **قال الحافظ ابن رجب:** "معنىٰ هذا الكلام: أن الإسلام يطلق باعتبارين:

■ **أحدهما:** باعتبار الإسلام الحقيقي وهو دين الإسلام الذي قال الله فيه ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ وقال: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾.

■ **والثاني:** باعتبار الاستسلام ظاهرا مع عدم إسلام الباطن إذا وقع خوفا كإسلام المنافقين، واستدل بقوله تعالىٰ: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ وحمله عل الاستسلام خوفا وتقية".

وهذا مروي عن طائفة من السلف، منهم مجاهد، وابن زيد، ومقاتل بن حيان وغيرهم . وكذلك رجحه محمد بن نصر المروزي – كما رجحه البخاري –؛ لأنهما لا يفارقان بين الإسلام والإيمان، فإذا انتفىٰ أحدهما انتفىٰ الآخر.

وهو اختيار ابن عبد البر، وحكاه عن أكثر أهل السنة من أصحاب مالك والشافعي وداود.

وأما من يفرق بين الإسلام والإيمان فإنه يستدل بهذه الآية علىٰ الفرق بينهما ويقول: نفي الإيمان عنهم لا يلزم منه نفي الإسلام كما نفي الإيمان عن الزاني والسارق والشارب وإن كان الإسلام عنهم غير منفي. وقد ورد هذا المعنىٰ في الآية عن ابن عباس، وقتادة، والنخعي، وروي عن ابن زيد معناه – أيضا –، وهو قول الزهري، وحماد بن زيد، وأحمد، ورجحه ابن جرير وغيره .

واستدلوا به علىٰ التفريق بين الإسلام والإيمان.

وكذا قال قتادة في هذه الآية قال: ﴿قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾: شهادة أن لا إله إلا الله، وهو دين الله، والإسلام درجة الإيمان تحقيق في القلب والهجرة في الإيمان درجة، والجهاد درجة، والقتل في سبيل الله درجة. **خرجه ابن أبي حاتم.**

فجعل قتادة الإسلام الكلمة، وهي أصل الدين، والإيمان ما قام بالقلوب من تحقيق التصديق بالغيب، فهؤلاء القوم لم يحققوا الإيمان في قلوبهم، وإنما دخل في قلوبهم تصديق ضعيف بحيث صح به إسلامهم، ويدل عليه: ﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ **[الحجرات: ١٤] . اهـ من فتح الباري (١/ ١٢٥).**

وَالصَّحِيحُ: أنهما إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا، فإذا اجتمع دل الإيمان علىٰ الأعمال القلبية ودل الإسلام علىٰ أعمال الجوارح، وإذا افترقا دل كل منهما علىٰ معنىٰ الآخر، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كما بسطه في الإيمان الكبير .

﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بفعل المأمور وترك المحظور، ﴿لَا يَلِتۡكُم﴾ لا ينقصكم، ﴿مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ﴾ الصالحة ﴿شَيۡـٔٗا﴾ بل يوفيها لكم ويضاعف لكم الأجر والمثوبة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾ ومتجاوز عمن عصاه، ﴿رَّحِيمٞ﴾ بعباده حيث يهديهم إلىٰ السبيل القويم وإلىٰ الصراط المستقيم.

﴿١٥﴾ ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ ظاهرًا وباطنًا، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ﴾ ربًا، ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ ﷺ نبيًا وانقادوا لذلك، ﴿ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ﴾ لم يشكوا في إيمانهم، ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ بذلوا أموالهم، ﴿وَأَنفُسِهِمۡ﴾ أي: جاهدوا بأنفسهم، ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لإعلاء دينه وشرعته، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ ظاهرًا وباطنًا؛ لأن الصدق أعم من صدق اللسان، بل هو صدق القول، والفعل، والاعتقاد.

﴿١٦﴾ ﴿قُلۡ﴾ يا محمد لهؤلاء الأعراب: ﴿أَتُعَلِّمُونَ﴾ أتخبرون ﴿ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ﴾ بطريقتكم، ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ لا تخفىٰ عليه خافية، ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ وبكل شيء محيط.

﴿١٧﴾ ﴿يَمُنُّونَ﴾ يتباهون بإحسانهم زعموا ﴿عَلَيۡكَ﴾ يا محمد: ﴿أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ﴾ أن دخلوا في الإسلام؛ بغير قتال بخلاف غيرهم.

فعن الْأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ، أَنَّهُ نَادَىٰ رَسُولَ اللهِ ﷺ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ فَقَالَ: " يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ حَمْدِي زَيْنٌ، وَإِنَّ ذَمِّي شَيْنٌ، فَقَالَ: «**ذَاكُمُ اللهُ** عَزَّوَجَلَّ».

فالمنة لله هو الذي يهدي من يشاء فضلًا، ويضل من يشاء عدلًا، والمنة لرسول الله ﷺ أيضًا عليهم حيث أخرجهم الله به من الظلمات إلىٰ النور، ومن الشرك إلىٰ التوحيد؛ ولذلك كان جواب الأنصار لما قال لهم النبي ﷺ: «**أَمَا وَاللهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ: أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ، وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ، وَعَائِلًا فَأَغْنَيْنَاكَ**»، فَقَالُوا: بَلْ للهِ الْمَنُّ عَلَيْنَا وَلِرَسُولِهِ، وفي لفظ: الله ورسوله أمن» **متفق عليه**.

﴿قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ﴾ يعني: لا تمنوا عليَّ أنكم أسلمتم، ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ﴾ وفقكم ﴿لِلۡإِيمَٰنِ﴾ للانقياد والإقرار، وهو الذي يقبل منكم، ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في إيمانكم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا﴾ **[النور:٢١]**.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ لا تخفىٰ عليه خافية، فإن كان قد علم الغيب فهو للظاهر أعلم، ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ﴾ بعينين حقيقيتين تليق بجلاله، ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ وتفعلون، وهذا علىٰ الوعد والوعيد، الوعد لأوليائه، والوعيد لأعدائه، والله المستعان.

❁ وسورة الحجرات سورة عظيمة تضمنت من الآداب الظاهرة والباطنة ما يصلح به حال الفرد والمجتمع في دنياه وأخراه، وهذا دليل علىٰ شمول الإسلام وعظيم شأنه وما يتذكر إلا أولوا الألباب.

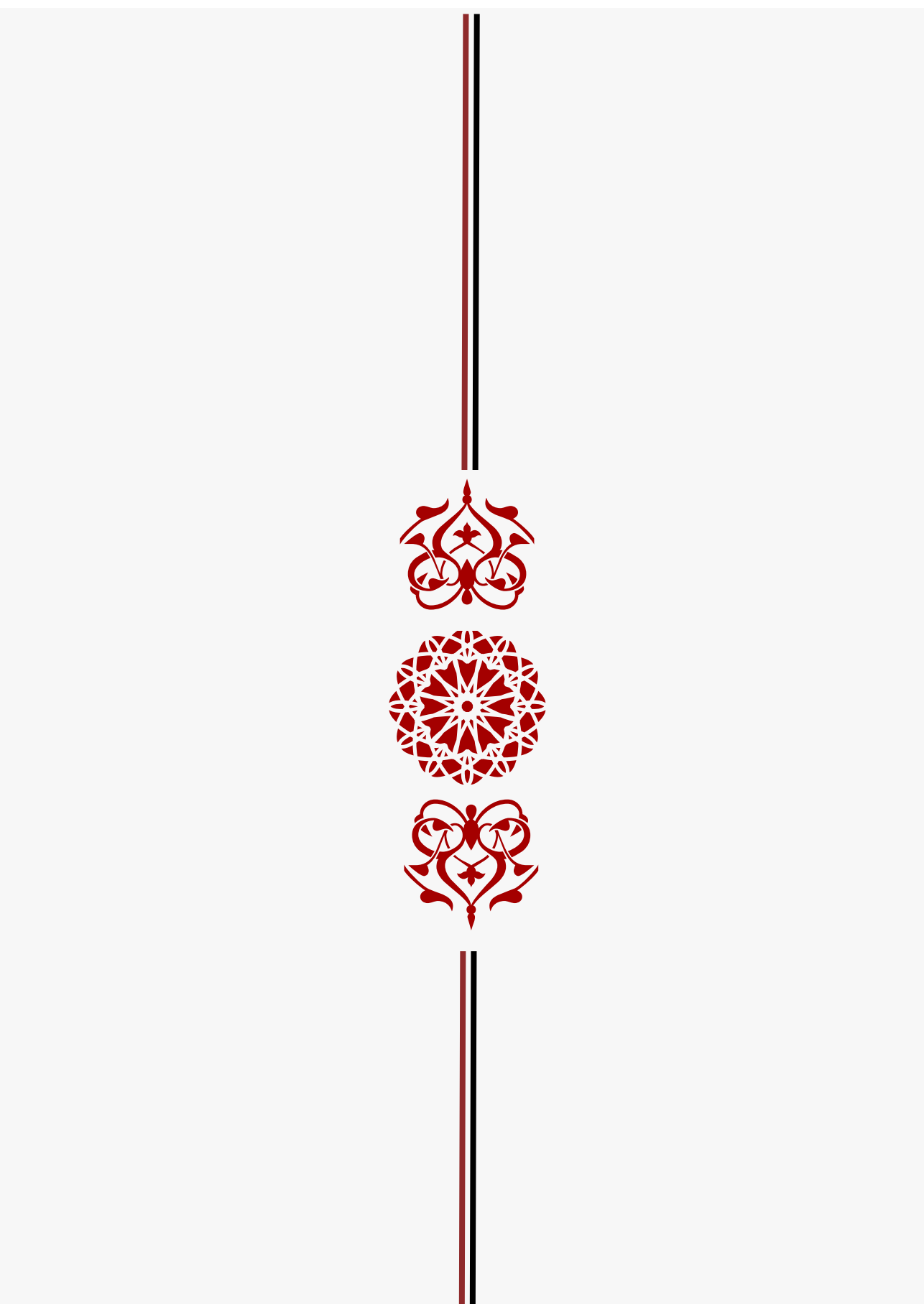
وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْحُجُرَاتِ



الفهرس







المحتويات

تَفْسِيْرُ سُوْرَةِ الأنْبِيَـاءِ ٧

[الآيات:١-٦]. ٧

[الآيات:٧-١٠]..... ٨

[الآيات:١١-١٥]..... ١٠

[الآيات: ١٦-٢٠]. ١٠

[الآيات:٢١-٢٤]..... ١١

[الآيات: ٢٥-٢٩]. ١٢

[الآيات:٣٠-٣٥]..... ١٤

[الآيات:٣٦-٤١]..... ١٦

[الآيات:٤٢-٤٤]..... ١٧

[الآيات:٤٥-٤٧]..... ١٨

[الآيات:٤٨-٥٠]..... ٢٠

[الآيات:٥١-٥٧]..... ٢٠

[الآيات:٥٨-٦٣]..... ٢٢

[الآيات:٦٤-٧٠]..... ٢٣

[الآيات:٧١-٧٣]..... ٢٤

[الآيات:٧٤-٧٥]..... ٢٥

[الآيات:٧٦-٧٧]..... ٢٦

[الآيات:٧٨-٨٢]..... ٢٦

[الآيات:٨٣-٨٦]..... ٢٨

[الآيات:٨٧-٨٨]..... ٢٩

[الآيات:٨٩-٩١]..... ٣٠

[الآيات:٩٢-٩٥]..... ٣١

[الآيات:٩٦-٩٧]..... ٣٢

[الآيات:٩٨-١٠٣]..... ٣٣

[الآيات:١٠٤-١٠٦]..... ٣٤

[الآيات:١٠٧-١١٢]..... ٣٥

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْحَجِّ ٣٩

[الآيات: ١-٢]..... ٣٩

[الآيات: ٣-٤]..... ٤٠

[الآيات: ٥-٧]..... ٤٠

[الآيات: ٨-١٣]..... ٤٢

[الآيات: ١٤-١٥]..... ٤٤

[الآيات: ١٦-١٨]..... ٤٤

[الآيات: ١٩-٢٢]..... ٤٧

[الآيات: ٢٣-٢٤]..... ٤٨

[الآيات: ٢٥-٢٩]..... ٤٩

[الآيات: ٣٠-٣٣]..... ٥٤

[الآيات:٣٤-٣٧]..... ٥٧

[الآيات: ٣٨-٤١]..... ٥٩

[الآيات: ٤٢-٤٦]..... ٦٠

[الآيات: ٤٧-٤٨]..... ٦٢

[الآيات: ٤٩-٥١]..... ٦٢

[الآيات: ٥٢-٥٥]..... ٦٣

[الآيات: ٥٦-٥٧]..... ٦٦

[الآيات: ٥٨-٦٦]..... ٦٦

[الآيات: ٦٧-٧٢]..... ٦٨

[الآيات: ٧٣-٧٦]..... ٦٩

[الآيات: ٧٧-٧٨]..... ٧٠

تَفْسِيرُسُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ ٧٥

[الآيات: ١-١١]..... ٧٥

[الآيات: ١٢-١٦]. ٧٧
[الآيات: ١٧-٢٢]. ٧٨
[الآيات: ٢٣-٣٠]. ٨٠
[الآيات: ٣١-٤١]. ٨٢
[الآيات: ٤٢-٤٤]. ٨٣
[الآيات: ٤٥-٥٠]. ٨٤
[الآيات: ٥١-٦١]. ٨٥
[الآيات: ٦٢-٦٩]. ٨٧
[الآيات: ٧٠-٧٧]. ٨٨
[الآيات: ٧٨-٩٢]. ٩٠
[الآيات: ٩٣-٩٨]. ٩٣
[الآيات: ٩٩-١١٤]. ٩٥
[الآيات: ١١٥-١١٨]. ٩٨
تَفْسِيرُسُورَةِ النُّور ١٠١
[الآيات: ١-٣]. ١٠١
[الآيات: ٤-٥]. ١٠٢
[الآيات: ٦-١٠]. ١٠٤
[الآيات: ١١-١٨]. ١٠٨
[الآيات: ١٩-٢٠]. ١١٤
[الآيات: ٢١-٢٢]. ١١٤
[الآيات: ٢٣-٢٦]. ١١٥
[الآيات: ٢٧-٢٩]. ١١٦
[الآيات: ٣٠-٣١]. ١١٧
[الآيات: ٣٢-٣٤]. ١٢٤
[الآيات: ٣٥-٣٨]. ١٢٦
[الآيات: ٣٩-٤٠]. ١٢٩
[الآيات: ٤١-٤٥]. ١٣٠
[الآيات: ٤٦-٥٤]. ١٣٢
[الآيات: ٥٥-٥٧]. ١٣٤
[الآية: ٥٨]. ١٣٦
[الآيات: ٥٩-٦١]. ١٣٧
[الآيات: ٦٢-٦٤]. ١٤٠
تَفْسِيرُسُورَةِ الْفُرْقَان ١٤٥
[الآيات: ١-٢]. ١٤٥
[الآيات: ٣-٦]. ١٤٥
[الآيات: ٧-١٠]. ١٤٦
[الآيات: ١١-١٦]. ١٤٧
[الآيات: ١٧-٢٠]. ١٤٩
[الآيات: ٢١-٢٩]. ١٥١
[الآيات: ٣٠-٣٤]. ١٥٤
[الآيات: ٣٥-٤٠]. ١٥٥
[الآيات: ٤١-٤٤]. ١٥٦
[الآيات: ٤٥-٥٥]. ١٥٨
[الآيات: ٥٦-٦٢]. ١٦١
[الآيات: ٦٣-٧٧]. ١٦٣
تَفْسِيرُسُورَةِ الشُّعَرَاءِ ١٧١
[الآيات: ١-٩]. ١٧١
[الآيات: ١٠-٢٢]. ١٧٣
[الآيات: ٢٣-٤٠]. ١٧٥
[الآيات: ٤١-٥١]. ١٧٧
[الآيات: ٥٢-٦٨]. ١٧٨
[الآيات: ٦٩-٨٩]. ١٨١
[الآيات: ٩٠-١٠٤]. ١٨٤

[الآيات: ١٠٥-١٢٢]..... ١٨٥
[الآيات: ١٢٣-١٤٠]..... ١٨٧
[الآيات: ١٤١-١٥٩]..... ١٨٩
[الآيات: ١٦٠-١٧٥]..... ١٩٠
[الآيات: ١٧٦-١٩١]..... ١٩٢
[الآيات: ١٩٢-٢١٢]..... ١٩٣
[الآيات: ٢١٣-٢٢٧]..... ١٩٦
تَفْسِيرُسُورَةِ النَّمْلِ ٢٠٣
[الآيات: ١-٦]..... ٢٠٣
[الآيات: ٧-١٤]..... ٢٠٤
[الآيات: ١٥-١٩]..... ٢٠٦
[الآيات: ٢٠-٢٨]..... ٢٠٧
[الآيات: ٢٩-٣٧]..... ٢٠٩
[الآيات: ٣٨-٤٤]..... ٢١١
[الآيات: ٤٥-٥٣]..... ٢١٤
[الآيات: ٥٤-٥٨]..... ٢١٥
[الآيات: ٥٩-٦٦]..... ٢١٦
[الآيات: ٦٧-٧٥]..... ٢١٨
[الآيات: ٧٦-٧٨]..... ٢١٩
[الآيات: ٧٩-٨١]..... ٢٢٠
[الآيات: ٨٢-٨٨]..... ٢٢٠
[الآيات: ٨٩-٩٣]..... ٢٢٣
تَفْسِيرُسُورَةِ الْقَصَصِ ٢٢٧
[الآيات: ١-٦]..... ٢٢٧
[الآيات: ٧-١٣]..... ٢٢٨
[الآيات: ١٤-١٩]..... ٢٣٠
[الآيات: ٢٠-٢١]..... ٢٣٢
[الآيات: ٢٢-٢٨]..... ٢٣٢
[الآيات: ٢٩-٣٢]..... ٢٣٤
[الآيات: ٣٣-٣٥]..... ٢٣٥
[الآيات: ٣٦-٤٣]..... ٢٣٦
[الآيات: ٤٤-٤٦]..... ٢٣٨
[الآيات: ٤٧-٥٠]..... ٢٣٨
[الآيات: ٥١-٥٦]..... ٢٣٩
[الآيات: ٥٧-٥٩]..... ٢٤٢
[الآيات: ٦٠-٦٧]..... ٢٤٣
[الآيات: ٦٨-٧٥]..... ٢٤٤
[الآيات: ٧٦-٨٠]..... ٢٤٦
[الآيات: ٨١-٨٤]..... ٢٤٨
[الآيات: ٨٥-٨٨]..... ٢٤٩
تَفْسِيرُسُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ ٢٥٣
[الآيات: ١-٧]..... ٢٥٣
[الآيات: ٨-٩]..... ٢٥٥
[الآيات: ١٠-١٣]..... ٢٥٦
[الآيات: ١٤-١٥]..... ٢٥٧
[الآيات: ١٦-١٨]..... ٢٥٧
[الآيات: ١٩-٢٣]..... ٢٥٨
[الآيات: ٢٤-٢٧]..... ٢٥٩
[الآيات: ٢٨-٣٥]..... ٢٦٠
[الآيات: ٣٦-٣٧]..... ٢٦١
[الآيات: ٣٨-٤٠]..... ٢٦١
[الآيات: ٤١-٤٣]..... ٢٦٢
[الآيات: ٤٤-٤٥]..... ٢٦٣

[الآيات: ٤٦-٤٧]. ٢٦٥
[الآيات: ٤٨-٥٢]. ٢٦٦
[الآيات: ٥٣-٥٥]. ٢٦٧
[الآيات: ٥٦-٦٠]. ٢٦٨
[الآيات: ٦١-٦٩]. ٢٦٩
تَفْسِيرُسُورَةِ الرُّومِ ٢٧٣
[الآيات: ١-٧]..... ٢٧٣
[الآيات: ٨-١٦]. ٢٧٤
[الآيات: ١٧-٢٢]. ٢٧٦
[الآيات: ٢٣-٢٧]. ٢٧٨
[الآيات: ٢٨-٣٢]. ٢٧٩
[الآيات: ٣٣-٣٧]. ٢٨٢
[الآيات: ٣٨-٤١]. ٢٨٣
[الآيات: ٤٢-٤٥]. ٢٨٤
[الآيات: ٤٦-٥٣]. ٢٨٥
[الآيات: ٥٤]..... ٢٨٧
[الآيات: ٥٥-٦٠]. ٢٨٧
تَفْسِيرُسُورَةِ لُقْمَانَ ٢٩٣
[الآيات: ١-٥]..... ٢٩٣
[الآيات: ٦-٩]..... ٢٩٤
[الآيات: ١٠-١١]. ٢٩٤
[الآيات: ١٢-١٣]. ٢٩٥
[الآيات: ١٤-١٥]. ٢٩٦
[الآيات: ١٦-١٩]. ٢٩٦
[الآيات: ٢٠-٢٦]. ٢٩٧
[الآيات: ٢٧-٢٨]. ٢٩٩
[الآيات: ٢٩-٣٢]. ٢٩٩
[الآيات: ٣٣-٣٤]. ٣٠٠
تَفْسِيرُسُورَةِ السَّجْدَةِ ٣٠٥
[الآيات: ١-٣]..... ٣٠٥
[الآيات: ٤-٩]..... ٣٠٥
[الآيات: ١٠-١٤]. ٣٠٧
[الآيات: ١٥-١٧]. ٣٠٨
[الآيات: ١٨-٢٢]. ٣٠٩
[الآيات: ٢٣-٢٨]. ٣١٠
[الآيات: ٢٩-٣٠]. ٣١١
تَفْسِيرُسُورَةِ الْأَحْزَابِ ٣١٥
[الآيات: ١-٣]..... ٣١٥
[الآيات: ٤-٦]..... ٣١٦
[الآيات: ٧-٨]..... ٣١٩
[الآيات: ٩-١٢]..... ٣١٩
[الآيات:١٣-١٧]..... ٣٢٢
[الآيات: ١٨-٢٠]. ٣٢٣
[الآيات: ٢١-٢٤]. ٣٢٤
[الآيات: ٢٥-٢٧]. ٣٢٦
[الآيات: ٢٨-٣١]. ٣٢٧
[الآيات: ٣٢-٣٤]. ٣٢٨
[الآيات: ٣٥]. ٣٣٠
[الآيات: ٣٦-٤٠]. ٣٣١
[الآيات: ٤١-٤٤]. ٣٣٤
[الآيات: ٤٥-٤٨]. ٣٣٥
[الآيات: ٤٩-٥٠]. ٣٣٦
[الآيات:٥١-٥٢]..... ٣٣٧
[الآيات: ٥٣-٥٥]. ٣٣٨

[الآيات: ٥٦-٥٨]. ٣٤٠
[الآيات: ٥٩]..... ٣٤٢
[الآيات: ٦٠-٦٢]. ٣٤٣
[الآيات: ٦٣-٦٨]. ٣٤٣
[الآيات: ٦٩-٧١]. ٣٤٤
[الآيات: ٧٢-٧٣]. ٣٤٥
تَفْسِيرُسُورَةِ سَبَأ ٣٤٩
[الآيات: ١-٢]..... ٣٤٩
[الآيات: ٣-٥]..... ٣٤٩
[الآيات: ٦-٩]..... ٣٥٠
[الآيات: ١٠-١٤]. ٣٥١
[الآيات: ١٥-١٩]. ٣٥٣
[الآيات: ٢٠-٢٣]. ٣٥٤
[الآيات: ٢٤-٢٧]. ٣٥٦
[الآيات: ٢٨-٣٠]. ٣٥٧
[الآيات: ٣١-٣٣]. ٣٥٧
[الآيات: ٣٤-٣٩]. ٣٥٨
[الآيات: ٤٠-٤٥]. ٣٦٠
[الآيات: ٤٦-٤٧]. ٣٦٢
[الآيات: ٤٨-٥٤]. ٣٦٢
تَفْسِيرُسُورَةِ فَاطِر ٣٦٧
[الآيات: ١-٤]..... ٣٦٧
[الآيات: ٥-٨]..... ٣٦٨
[الآيات: ٩-١١]. ٣٦٩
[الآيات: ١٢-١٤]. ٣٧٠
[الآيات: ١٥-١٨]. ٣٧١
[الآيات: ١٩-٢٦]. ٣٧٢
[الآيات: ٢٧-٢٨]. ٣٧٥
[الآيات: ٢٩-٣٥]. ٣٧٦
[الآيات: ٣٦-٣٨]. ٣٧٨
[الآيات: ٣٩-٤١]. ٣٧٩
[الآيات: ٤٢-٤٥]. ٣٨٠
تَفْسِيرُسُورَةِ يس ٣٨٥
[الآيات: ١-١٢]..... ٣٨٥
[الآيات: ١٣-١٩]. ٣٨٨
[الآيات: ٢٠-٢٧]. ٣٨٩
[الآيات: ٢٨-٣٢]. ٣٩١
[الآيات: ٣٣-٤٤]. ٣٩٢
[الآيات: ٤٥-٤٧]. ٣٩٥
[الآيات: ٤٨-٥٤]. ٣٩٦
[الآيات: ٥٥-٥٨]. ٣٩٩
[الآيات: ٥٩-٦٨]. ٤٠١
[الآيات: ٦٩-٧٠]. ٤٠٢
[الآيات: ٧١-٧٦]. ٤٠٣
[الآيات: ٧٧-٨٣]. ٤٠٤
تَفْسِيرُسُورَةِ الصَّافَات ٤٠٩
[الآيات: ١-١٠]..... ٤٠٩
[الآيات: ١١-٢١]. ٤١١
[الآيات: ٢٢-٣٩]. ٤١٣
[الآيات: ٤٠-٤٩]. ٤١٦
[الآيات: ٥٠-٦١]. ٤١٧
[الآيات: ٦٢-٧٤]. ٤١٨
[الآيات: ٧٥-٨٢]. ٤٢٠
[الآيات: ٨٣-٩٨]. ٤٢١

[الآيات: ٩٩-١١٣].....٤٢٤
[الآيات: ١١٤-١٢٢].....٤٢٦
[الآيات: ١٢٣-١٣٢].....٤٢٧
[الآيات: ١٣٣-١٣٨].....٤٢٨
[الآيات: ١٣٩-١٤٨].....٤٢٩
[الآيات: ١٤٩-١٥٧].....٤٣٠
[الآيات: ١٥٨-١٦٦].....٤٣١
[الآيات: ١٦٧-١٨٢].....٤٣٣
تَفْسِيرُسُورَةِ ص ٤٣٧
[الآيات: ١-١١]. ٤٣٧
[الآيات: ١٢-١٦]. ٤٣٩
[الآيات: ١٧-٢٠]. ٤٤٠
[الآيات: ٢١-٢٦]. ٤٤١
[الآيات: ٢٧-٢٩]. ٤٤٣
[الآيات: ٣٠-٤٠]. ٤٤٤
[الآيات: ٤١-٤٤]. ٤٤٥
[الآيات: ٤٥-٥٤]. ٤٤٧
[الآيات: ٥٥-٦٤]. ٤٤٨
[الآيات: ٦٥-٨٨]. ٤٥٠
تَفْسِيرُسُورَةِ الزُّمَرِ.....٤٥٧
[الآيات: ١-٥].....٤٥٧
[الآيات: ٦-٨].....٤٥٩
[الآيات: ٩-١٠]. ٤٦١
[الآيات: ١١-٢٠]. ٤٦٢
[الآيات: ٢١-٢٦]. ٤٦٥
[الآيات: ٢٧-٣١]. ٤٦٧
[الآيات: ٣٢-٣٧]. ٤٦٨
[الآيات: ٣٨-٤٠]. ٤٧٠
[الآيات: ٤١]. ٤٧١
[الآيات: ٤٢-٤٤]. ٤٧١
[الآيات: ٤٥-٤٨]. ٤٧٢
[الآيات: ٤٩-٥٢]. ٤٧٤
[الآيات: ٥٣-٥٩]. ٤٧٥
[الآيات: ٦٠-٦٧]. ٤٧٧
[الآيات: ٦٨-٧٠]. ٤٨٠
[الآيات: ٧١-٧٢]. ٤٨١
[الآيات: ٧٣-٧٥]. ٤٨٢
تَفْسِيرُسُورَةِ غَافِرٍ ٤٨٧
[الآيات: ١-٤].....٤٨٧
[الآيات: ٥-٦].....٤٨٨
[الآيات: ٧-٩].....٤٨٩
[الآيات: ١٠-١٢]. ٤٩١
[الآيات: ١٣-٢٠]. ٤٩١
[الآيات: ٢١-٢٢]. ٤٩٣
[الآيات: ٢٣-٢٧]. ٤٩٤
[الآيات: ٢٨-٣٣]. ٤٩٦
[الآيات: ٣٤-٣٥]. ٤٩٩
[الآيات: ٣٦-٣٧]. ٥٠٠
[الآيات: ٣٨-٤٦]. ٥٠١
[الآيات: ٤٧-٥٢]. ٥٠٣
[الآيات: ٥٣-٥٨]. ٥٠٤
[الآيات: ٥٩-٦٠]. ٥٠٦
[الآيات: ٦١-٦٦]. ٥٠٧

[الآيات: ٦٧-٦٨]. ٥٠٨
[الآيات: ٦٩-٧٧]. ٥٠٩
[الآيات: ٧٨]..... ٥١٠
[الآيات: ٧٩-٨٥]. ٥١١
تَفْسِيرُسُورَةِ فُصِّلَتْ ٥١٥
[الآيات: ١-٨]..... ٥١٥
[الآيات: ٩-١٢]. ٥١٧
[الآيات: ١٣-١٨]. ٥١٩
[الآيات: ١٩-٢٤]. ٥٢١
[الآيات: ٢٥-٢٩]. ٥٢٣
[الآيات: ٣٠-٣٢]. ٥٢٤
[الآيات: ٣٣-٣٦]. ٥٢٦
[الآيات: ٣٧-٣٩]. ٥٢٧
[الآيات: ٤٠-٤٤]. ٥٢٨
[الآيات: ٤٥-٤٦]. ٥٣٠
[الآيات: ٤٧-٤٨]. ٥٣١
[الآيات: ٤٩-٥٢]. ٥٣٢
[الآيات: ٥٣-٥٤]. ٥٣٣
تَفْسِيرُسُورَةِ الشُّورَى ٥٣٧
[الآيات: ١-٦]..... ٥٣٧
[الآيات: ٧-١٢]. ٥٣٨
[الآيات: ١٣-١٥]. ٥٤١
[الآيات: ١٦-١٩]. ٥٤٣
[الآيات: ٢٠-٢٢]. ٥٤٤
[الآيات: ٢٣-٢٦]. ٥٤٦
[الآيات: ٢٧-٣١]. ٥٤٨
[الآيات: ٣٢-٣٦]. ٥٤٩
[الآيات: ٣٧-٤٣]. ٥٥٠
[الآيات: ٤٤-٤٦]. ٥٥٢
[الآيات: ٤٧-٥٠]. ٥٥٣
[الآيات: ٥١-٥٣]. ٥٥٤
تَفْسِيرُسُورَةِ الزُّخْرُفِ ٥٥٩
[الآيات: ١-٨]..... ٥٥٩
[الآيات: ٩-١٤]. ٥٦٠
[الآيات: ١٥-٢٥]. ٥٦٢
[الآيات: ٢٦-٢٨]. ٥٦٤
[الآيات: ٢٩-٣٥]. ٥٦٥
[الآيات: ٣٦-٣٩]. ٥٦٧
[الآيات: ٤٠-٤٥]. ٥٦٨
[الآيات: ٤٦-٥٦]. ٥٦٩
[الآيات: ٥٧-٦٦]. ٥٧٢
[الآيات: ٦٧-٧٣]. ٥٧٤
[الآيات: ٧٤-٨٠]. ٥٧٦
[الآيات: ٨١-٨٩]. ٥٧٧
تَفْسِيرُسُورَةِ الدُّخَانِ ٥٨٣
[الآيات: ١-٨]..... ٥٨٣
[الآيات: ٩-١٦]. ٥٨٤
[الآيات: ١٧-٣٣]. ٥٨٨
[الآيات: ٣٤-٣٩]. ٥٩٠
[الآيات: ٤٠-٥٠]. ٥٩٢
[الآيات: ٥١-٥٩]. ٥٩٣
تَفْسِيرُسُورَةِ الْجَاثِيَةِ ٥٩٧
[الآيات: ١-٦]..... ٥٩٧
[الآيات: ٧-١١]. ٥٩٨

[الآيات: ١٢-١٣]. ٥٩٩
[الآيات: ١٤-١٥]. ٥٩٩
[الآيات: ١٦-٢٠]. ٦٠٠
[الآيات: ٢١-٢٢]. ٦٠١
[الآيات: ٢٣-٢٦]. ٦٠٢
[الآيات: ٢٧-٣١]. ٦٠٤
[الآيات:٣٢-٣٥]. ٦٠٥
[الآيات: ٣٦-٣٧]. ٦٠٦
تَفْسِيرُسُورَةِ الْأَحْقَافِ ٦٠٩
[الآيات: ١-٥]. ٦٠٩
[الآيات: ٦-٨]. ٦١٠
[الآيات: ٩-١٤]. ٦١١
[الآيات: ١٥-١٨]. ٦١٥
[الآيات: ١٩-٢٠]. ٦١٧
[الآيات: ٢١-٢٥]. ٦١٨
[الآيات: ٢٦-٢٨]. ٦٢١
[الآيات: ٢٩-٣٢]. ٦٢٢
[الآيات: ٣٣-٣٥]. ٦٢٤
تَفْسِيرُسُورَةِ مُحَمَّدٍ ٦٢٩
[الآيات: ١-٦]. ٦٢٩
[الآيات: ٧-١١]. ٦٣١
[الآيات: ١٢-١٥]. ٦٣٢
[الآيات: ١٦-١٩]. ٦٣٤
[الآيات: ٢٠-٢٤]. ٦٣٧
[الآيات: ٢٥-٢٩]. ٦٣٩
[الآيات: ٣٠-٣٢]. ٦٤٠
[الآيات: ٣٣-٣٨]. ٦٤١
تَفْسِيرُسُورَةِ الْفَتْحِ ٦٤٩
[الآيات: ١-٤]. ٦٥٤
[الآيات: ٥-٧]. ٦٥٥
[الآيات: ٨-٩]. ٦٥٦
[الآيات: ١٠-١٣]. ٦٥٧
[الآيات: ١٤-١٥]. ٦٥٩
[الآيات: ١٦-١٧]. ٦٦٠
[الآيات: ١٨-٢٣]. ٦٦٠
[الآيات: ٢٤-٢٦]. ٦٦٢
[الآيات: ٢٧-٢٩]. ٦٦٤
تَفْسِيرُسُورَةِ الْحُجُرَاتِ ٦٧١
[الآيات: ١-٥]. ٦٧١
[الآيات: ٦-٨]. ٦٧٣
[الآيات: ٩-١٠]. ٦٧٥
[الآيات: ١١-١٣]. ٦٧٦
[الآيات: ١٤-١٨]. ٦٧٩